المجلس الأعلى للثقافة

أنّا مارى شيمل

الشرق والغرب

حياتى الغرب - شرقية

ترجمة : عبدالسلام حيدر

المشروع القومى للترجمة



754





«رغم كل الأشياء الجميلة، ورغم النجاحات الكبيرة التى لم أتوقعها قط، ورغم كل الصداقات الرائعة؛ فإن الولايات المتحدة لم تصبح وطنًا لى قط. أكان هذا خطأ الطائر الغريب الذى يشتاق للعودة من منفاه الغربى إلى وطنه فى الشرق؟».

حاولت أنّا مارى شيمل أن تقيم جسورًا للتفاهم وصلات للتواصل بين الغرب والشرق سواء كان ذلك فى الفترة التركية (1954-1959) التى عملت فيها بالتدريس فى «كلية الإلهيات» فى أنقرة؛ حيث قامت بتدريس علم مقارنة الأديان باللغة التركية، أو فى فترة ماربورج وبون (1959-1967) ؛ حيث ساهمت فى تعليم الدبلوماسيين الألمان، وكونت علاقات متميزة مع دبلوماسيى العالم الإسلامى، وبدأت تشارك فيها فى الإشراف على مجلة «فكر وفن» أو فى الفترة الأمريكية (1967-1992) التى شغلت فيها كرسى الثقافة الهندو - إسلامية فى جامعة هارفارد؛ حيث اهتمت بتاريخ الإسلام فى الهند منذ عام 711م، وباللغات التى تساعد على دراسة هذا الأمر (العربية والفارسية والتركية والسندية والبنجابية والبشتونية والأردية).





المشروع القومى للترجمة

الشرق والغرب

حياتى الغرب - شرقية

تـــأليف: أنّا مارى شـــيمل

ترجمـــة: عبد السلام حيدر



٢٠٠٤

المشروع القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٧٥٤
- الشرق والغرب
(حياتى الغرب - شرقية)
- أنّا مارى شيمل
- عبد السلام حيدر
- الطبعة الأولى ٢٠٠٤

هذه ترجمة كتاب:

Morgenland und Abendland

Annemarie Schimmel



"قام معهد جوته بتقديم الدعم المادى لنشر هذا العمل"

"Die Herausgabe dieses Werkes wurde aus Mitteln des Goethe-Instituts gefördret"

شارع الجبلاية بالأوبرا ـــ الجزيرة ـــ القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo

TEL: 7352396 Fax: 7358084

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافـاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة.

الفهرس

تقديم المترجم

حياة مثل عرض لممثلة وحيدة.................................... 15

الجزء الأول: الطفولة والصبا (١٩٢٢-١٩٤٥)

الناس نيام فإذا ما ماتوا انتبهوا.................................. 21
صبا فى إيرفورت.. 28
الإجازات الأسرية فى تورنجن وشرق فريزلاند...................... 34
طرق نحو الموسيقى.. 44
بيت مُلئ شعرًا.. 48
الخدمة الإجبارية فى موردورف.................................. 62
برلين، دراسة فى زمن الحرب..................................... 67

الجزء الثانى: السنوات الأولى لما بعد الحرب (١٩٤٥-١٩٥٢)

ماربورج، بوابة جديدة إلى العالم.................................. 85
السويد، لأول مرة فى الخارج.................................... 106
هولندا، بلد مؤرخى الأديان..................................... 110
سويسرا، تجارب روحية.. 114

الجزء الثالث: تركيا (١٩٥٢-١٩٥٩)

مدينة لا شبيه لها: إستانبول..................................... 123
أستاذة (بروفسيرة) فى أنقرة...................................... 144
قونية، مدينة مولانا الرومى...................................... 167

أخى إسماعيل.................................... 186
رحلة متوسطية غير مألوفة.................................... 193
رحلات عبر الأناضول.................................... 200

الجزء الرابع: مشاهد أوروبية عارضة (١٩٥٩-١٩٦٧)

من ماربورج إلى بون.................................... 221
فكر وفن.................................... 228
زيارات لبراغ.................................... 232

الجزء الخامس: على الجانب الآخر للأطلنطى (١٩٦٧-١٩٩٢)

مؤتمر خطير العواقب.................................... 237
ثلاث عواصف ثلجية.................................... 241
هارفارد، المنفى الغربى للروح.................................... 246
ولكن كيف يدرس المرء فى هارفارد؟.................................... 258
حول متحف المتروبوليتان.................................... 275
بين تالهازا وفانكوفر.................................... 282

الجزء السادس: ارتحالات عبر الشرق

الكويت والبحرين.................................... 291
سوريا والأردن.................................... 294
مصر والسودان، ورحلة إلى تونس.................................... 303
المغرب.................................... 310
اليمن.................................... 313
العربية السعودية.................................... 325

إيران.. 329
أفغانستان.. 338
وسط آسيا.. 351
باكستان والهند... 369
إندونيسيا... 401

الجزء السابع: عودة إلى أوروبا (١٩٩٢-٢٠٠٢)

روما وباريس ولندن.. 407
ما يسمى بالتقاعد... 420
تقديم الشكر.. 451
ملاحق.. 453
قائمة أعمال أنّا ماري شيمل (اختيار الناشر الألماني)............ 455
ملحق الصور (اختيار الناشر الألماني).................................. 469
الهوامش... 483

تقديم المترجم

حاولت أنّا مارى شيمل Annemarie Schimmel طوال حياتها أن تقيم جسورًا للتفاهم وصلات للتواصل بين الغرب والشرق. سواء أكان ذلك في الفترة التركية (١٩٥٤-١٩٥٩) التى عملت فيها بالتدريس فى "كلية الإلهيات" فى أنقرة؛ حيث قامت بتدريس علم مقارنة الأديان باللغة التركية، أم فى فترة ماربورج وبون (١٩٥٩-١٩٦٧)؛ حيث ساهمت فى تعليم الدبلوماسيين الألمان، وكونت علاقات متميزة مع دبلوماسيى العالم الإسلامى، وبدأت تشارك فيها فى الإشراف على مجلة "فكر وفن"، أم فى الفترة الأمريكية (١٩٦٧-١٩٩٢) التى شغلت فيها كرسى الثقافة الهندو - إسلامية فى جامعة هارفارد؛ حيث اهتمت بتاريخ الإسلام فى الهند منذ عام ٧١١م، وباللغات التى تساعد على دراسة هذا الأمر (العربية والفارسية والتركية والسندية والبنجابية والبشتونية والأردية)، وبترجمة أشعار شاعرى الأردية مير درد الدهلوى (ت ١٨١٠) وأسد الله غالب (ت ١٨٦٩)، كما واصلت اهتمامها بفنون الخط الإسلامية.

بعد إحالتها على المعاش عادت إلى بون؛ فبالرغم من أنها بقيت فى الولايات المتحدة هذا العمر الطويل، فإنها - وكما تقول - لم تصبح قط وطنًا لها. وفى هذه الفترة كانت تذرع بلاد الشرق والغرب جيئة وذهابًا فى كل مناسبة سانحة. ومن يطالع ترجمتها الذاتية التى نقدمها هنا أو كتب رحلاتها الأخرى يفاجأ بمدى اتساع شبكة العلاقات والصداقات التى كونتها عبر العالم، ولكن هذه الرحلات لم تمنعها من مواصلة الكتابة والترجمة. لقد كانت أنّا مارى شيمل مدمنة للكتابة حتى إنها كتبت خلال حياتها ما يزيد على مائة كتاب، أما المقالات المبثوثة فى الدوريات الألمانية والعالمية والمحاضرات باللغات المختلفة فلم تحص بعد (فى آخر هذا الكتاب محاولة أولى لتوثيق

إنتاجها المتنوع). كانت تكتب وتترجم وتهتم فى الوقت نفسه بتـاريخ تلقـى الآداب الشرقية فى العالم الناطق بالألمانية وبمحاولة تقريب الإسلام من قراء الألمانية والإنجليزية، وذلك بأسلوب امتزجت فيه صرامة العلم بالحب.

وقد فازت بوصفها عالمة وداعية للحوار بين الأديـان والحـضارات بالتكريم وبالعديد من الجوائز فى الشرق والغرب. وبينما كانت كتبها تـصل إلى طبقة واسعة من القراء كان الكثير من زملائها المستشرقين، خاصة الذين وجهوا إليها سهام النقد عام ١٩٩٥ (بعد إعلان حصولها كـأول مستـشرقة ودارسة للإسلام على جائزة السلام الألمانية) بسبب تفهمها لموقف المسلمين من "الآيات الشيطانية" لسلمان رشدى، يأبون أن يغادروا أبراجهم العاجية.

* * *

لا ريب أن المرء يجابه أثناء ترجمة مثل هذا الكتاب الضخم، متنـوع التجارب، الكثير من المشاكل التى يسعى قدر الطاقة إلى تـذليلها بحلـول لا تعتمد فقط على التذوق المتطور بمعايشة العمل فى أصله الألمـانى، وإنمـا أيضًا على استشارة المراجع والمصادر المتنوعة، وكذلك أهل التخصـصات المختلفة. ومن هذه المشاكل - على سبيل المثال - ما يتصل بـتفهم دقـائق الحياة اليومية فى ألمانيا فى الربع الثانى من القرن العشرين، أو ما يتـصل بالكلمات التى جاءت فى لهجة أو لهجات أهالى شمال ألمانيـا. وفـى هـذا السياق كان الأصدقاء والمعارف الألمان خير عون.

وكذلك تمثلت إحدى أهم مشاكل هذه الترجمة فـى تعريـب الألفـاظ (التركية والفارسية والأردية والسندية) ورسمها باللغة العربية. ولأن الـسيدة شيمل كانت تهتم جدًا بالجوانب الفنية والمعمارية فى تركيا والبلاد الأخرى؛ فقد رجعت إلى كتب عدة كان أهمها الترجمة المتميزة التى قام بهـا خبيـر

الفنون الإسلامية المصرى أحمد محمد عيسى لكتاب "فنون الترك وعمائرهم" (إستانبول ١٩٨٧). وقد أخبرتنى كريمته الدكتورة هدى عيسى بأنه كان يعمل على الترجمة بمساعدة مؤلف الكتاب التركى أوقطاى أصلان آبا. وأما ما لم أجده فى هذه الترجمة فقد استعنت على رسمه بمساعدة "المعجم الجغرافى للإمبراطورية العثمانية" لمؤلفه س. موستراس (١٨٧٣) الذى ترجمه وعلق عليه عصام الشحادات (بيروت ٢٠٠٢). وفيما يخص الأدب الفارسى رجعت كذلك إلى كتب عدة كان أهمها الترجمة المتميزة التى قام بها الدكتور إبراهيم الشواربى (١٩٥٤) لكتاب "تاريخ الأدب فى إيران" لإدوارد براون (القاهرة ٢٠٠٤). وفيما يخص دولة المغول الإسلامية استعنت بكتب كثيرة كان أبرزها ما كتبه المؤرخ المصرى الدكتور جمال الدين الشيال (١٩٦٧) فى "تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية فى الهند" (القاهرة ٢٠٠١). وفيما يخص المعلومات التوراتية والكتابية فقد اعتمدت إلى جانب دوائر المعارف والمعاجم الألمانية على الكثير من الكتب العربية المتميزة مثل كتاب "آباء الكنيسة فى القرون الثلاثة الأولى" للمؤرخ اللبنانى أسعد رستم (بيروت ١٩٨٣)، وعلى "دائرة المعارف الكتابية" التى أشرف على تحريرها وليم وهبة بباوى (القاهرة ١٩٨٨)

ومن الأمور التى صادفتها أيضًا بعض المصطلحات أو الأسماء التى لا يوجد لها نظير أو يوجد اختلاف فى أمر هذا النظير؛ فعلى سبيل المثال المخلوق الذى لم يوجد ويدعى فى الألمانية Einhorn يترجم فى معاجمنا بحيوان وحيد القرن، وهو ما يسمى فى الألمانية Nasehorn أى أن قرنه على منخاره، وهو كما نعرف حيوان موجود. أما الحيوان الذى يدعى Einhorn فيوصف فى المصادر الألمانية بأن له جسمَ حصان وذيلَ أسد وقرنًا وحيدًا وسط الجبهة، وبأنه حيوان أسطورى لم يوجد، ومن هنا ارتأينا تسميته بأحادى القرن تمييزًا له عن وحيد القرن.

كان التعامل مع الأشعار - كما هو معروف - من أصعب الأمور فى الترجمة، ومن ثم فقد عزمت فى المقام الأول على تقديم صحة الترجمة على ما عداها. أما فيما يتعلق بنصوص الكتاب المقدس الواردة فى الكتاب؛ فقد اعتمدت فى الأصل على ترجمة فان دايك لشهرتها ووضعت الترجمة اليسوعية - رغم أنها الأحدث وربما الأدق - فى الهامش.

إلى جانب اهتمامى الأساسى بإخراج ترجمة دقيقة واضحة لهذا النص المتميز، ولما كانت المؤلفة لم تضع لكتابها هوامش؛ فإننى اهتممت بعمل هوامش خاصة بالمترجم لإيضاح ما قد يعسر فهمه أو معرفته على قارئ الترجمة، وقد جعلت هذه الهوامش التوضيحية فى آخر الكتاب حتى لا أعوق السياق.

* * *

وأخيرًا أرجو أن أكون قد وفقت فى ترجمة هذا الكتاب وفى الاقتراب من أسلوب المؤلفة الذى يمتلىء بالحيوية والثراء والسخرية. وأتوجه بالشكر إلى كل من السيدة إليزابيث بيرُوت بمعهد جوته والدكتورة علا عادل بكلية الألسن على ثقتهما، وإلى كل من الدكتور محمد عيسوى بآداب القاهرة والدكتور عبد الرحمن حجازى بالمجلس الأعلى للثقافة على تصحيحاتهما وتسديداتهما اللغوية. كما أخص بالشكر الدكتورة أنيتا بولانسكا بالجامعة الألمانية زوجة ومشاركة فى هذا الجهد. وفى النهاية فإننى أهدى هذه الترجمة إلى ذكرى أبى عبد الجيد حيدر الذى توفى إبان ترجمة هذا الكتاب.

عبد السلام حيدر

وما كل من سعى يصيد غزالة
ولكن من صاد غزالة قد سعى

Nicht jeder, der sich bemüht,
kann eine Gazelle erjagen,
doch wer die Gazelle erjagt,
der hat sich sicher bemüht.

حياة مثل عرض لممثلة وحيدة

حقيقة لم أكن أريد أن أكتب ترجمة ذاتية، ولكن عندما حكيت قبل بعض الوقت لأحد الطلبة كيف درست وقت الحرب في برلين: محاضرات وتدريبات لمدة ثماني عشرة ساعة في الأسبوع، وخدمة مصنع إجبارية كل إجازة، ولا منح ولا أفكار عن السفر لبلد غريب بغرض تحسين قدراتنا اللغوية، وغارات الطيران الليلية، وأشياء أخرى كثيرة. وهنا سأل الشاب الصغير بكل تركيز: "ولكن هكذا لم يكن لديكم وقت للذهاب إلى الديسكو!". وبعد سماعي هذا وجدت أنه ربما يكون من المناسب جدًا أن أحكي شيئًا عن ماضيَّ.

ولكن كان السؤال فقط: ومن ذا الذي يهتم بحياة إحدى المستشرقات؟ وقد أصبح هذا السؤال في دائرة الوعي بعد الذي حدث منذ عدة سنوات؛ حيث وصم بعض الطلبة الترجمة الذاتية لأجناتي كراتشكوفسكي Krackovskij "مع المخطوطات العربية" بوصفها مملة بشكل مرعب. ولكني على كل حال لم أقتصر في ترجمة حياتي على "الانحناء على المخطوطات العربية" فقط، وإنما كان هذا جزءًا صغيرًا جدًا من تاريخ حياتي. لقد امتلأت حياتي – ومازالت – برحلات ومقابلات مع أناس من مختلف بقاع الأرض. وقد قمت بزيارة دول لا حصر لها: من السويد حتى إندونيسيا، ومن الولايات المتحدة الأمريكية حتى الباكستان. وتعرفت على أناس مختلفين: من الرؤساء حتى النسوة العجائز الأميات في الأناضول، ومن علماء الدين المسلمين حتى اليسوعيين. لم يكن من الضروري قراءة الروايات أو مشاهدة الأفلام؛ فهذه العلاقات الإنسانية كانت – وبصفة دائمة – أكثر إثارة من كل رواية. وفي هذا ما يجيب أيضًا على السؤال الذي يطرح عليَّ كثيرًا: " ألم يكن لكم على الإطلاق حياة خاصة؟". أنا أرى عملي وكل ما يتعلق به من ناس ورحلات

بوصفه حياة خصوصية أكثر من كافية، وعندما لا أقوم برحلات ولا أسـمع إلا القليل من الأصدقاء وعنهم؛ فإننى أصل أواصرى بأفضل صديقاتى، وهى آلتى الكاتبة من طراز Selectric-IBM التى خرجت منها كل أعمالى، وذلك أن حياتى بوصفها عرضًا مسرحيًا لممثلـة وحيـدة، دون سـكرتيرة ودون مساعدين، ودون كمبيوتر - يا للفظاعة - كانت مملوءة بالغنى.

ودائمًا ما تُطرح علىَّ ذات الأسئلة، التى ينبغى أن يُجاب عنها فى هذا الكتاب ولمرة واحدة لكل المرات: كيف حدث أن فتاة صغيرة من أسرة غير أكاديمية أرادت هكذا بكل عزيمتها أن تغدو مستشرقة؟ وكيف يمكن للمرء أن يحصل على الدكتوراه فى التاسعة عشرة، وعلـى الأسـتاذية فـى الثالثـة والعشرين؟ وكيف تحصل امرأة غير مسلمة على كرسى أستاذية فـى كليـة الإلهيات فى جامعة أنقرة؟ وكيف تتم دعوتها لشغل كرسـى أسـتاذية فـى هارفارد خاصة بعد أن أوضح لها زملاؤها الألمان: "أخ، يا صغيرتنا شيمل، لو كنتِ رجلاً لحصلتِ على كرسى أستاذية"؟

وقد خبرت إبان رحلة باص برفقة أمى (كانت لدى رخصة قيادة، ولكن لم تكن لدى سيارة) إلى أى حد يمكن أن يكون مثل هذا المـشوار الحيـاتىّ لامرأة غريبًا، خاصة لمن هم خارجه. كنت أرافقها خلال سـفرها الأخيـر (كانت آنذاك تقترب من التسعين، ولكنها كانت نشيطة جدًّا). سـافرنا إلـى بورجند، وذلك لأننى أريد ومنذ فترة رؤية النقوش الرومانية البـاهرة فـى أوتون. وفى الحافلة جلست إلى جانبنا امرأتان مسنتان من المناطق الجبليـة، وسرعان ما تعلقتا بنا فى أوقات تناول الطعام، ثم توجـب علـىَّ - لعـدم معرفتهما الفرنسية - أن أترجم لهما قائمة الطعام. وهنا أخذت وأمى علـى عاتقنا ألا نتحدث عن وظيفتى أو رحلاتى، وإنما عن الأمور العامـة فقـط، ولكنهما كانتا - فيما يبدو - قد سمعتا بعض أشياء غير معتادة، وحينما كنـا نجلس فى اليوم الثالث والأخير فى فيردون لطعام الغداء طلبت لنفسى بعض

المحار – ربما أيضًا حتى أزعج المرأتين الطيبتين قليلاً. وهنا لم تـستطيعا الصمود، وسألتا أمي عن وظيفتي؛ فأنا أعرف الفرنسية، وأعرف على مـا يبدو كذلك قليلا من الإنجليزية، كما أبدو بالتأكيد وكأنني أسافر كثيرًا. وهنـا قالت أمي لهما: "خمِّنا مرة!"، وبعد أن أمعنتا في التفكير قالتا: نعم، بمثل هذه المواصفات لا بد وأن ابنتك تعمل مضيفة لدى اللوفتهانزا!".

سي لا سي لا سي لا

الجزء الأول

الطفولة والصبا

(١٩٢٢-١٩٤٥)

أحيا حياتى فى دوائر متنامية،
تتداح حول الأشياء.
ربما لن أكمل الأخيرة منها،
لكنى أريد المحاولة.

أدور حول الله، حول البرج الأزلى،
أدور منذ آلاف السنين،
ولا أزال لا أدرى: ألنا صقر أم عاصفة
أم أغنية كبيرة؟

راينر ماريا ريلكه

"لن يستطيعوا إنكارها!" قالت الجارة لأبى، وذلك عندما أحضرنى فى أبريل ١٩٢٢ من العيادة إلى البيت (عيادة فى إيرفورت كانت تقع فى شارع مارشال، وتناسب مستوى عائلة شيمل). لا، لم يرد أبى أن ينكرنى بأية حال. لقد تمنى صبية، وكان أرقّ أب يمكن أن يتخيله إنسان. ينبغى أنه كان يغير علىَّ، وفى ساعات فراغه كان رفيقٍ لعب رائع ممتلئًا بالفكاهة، وفيما بعد عرفنى على النباتات والنجوم، وعلّمنى أسلوبًا جيدًا لكتابة الخطابات مع كل الدقائق البروتوكولية. لقد كان صاحب أسلوب ممتاز، وكان أستاذًا فى فن الخط؛ فكل ما كان يخطه كان - طبقًا لجماليات فن الخط - جميلاً. وقد حدد للطفل (الذى كنته) برج حظه - حمل صغير - الذى يعد "ببعض الشهرة"، "بحب المجتمع" ثم يقوم - وهذا ما ينبغى أن يكون قد تحقق فعلاً -"برحلات كثيرة مرتبطة بالوظيفة".

كذلك كنت الطفل الذى تمنته أمى. لقد تمنت أن ترزق بأطفال كثيرة، ولكنها كانت فى الخامسة والثلاثين عندما أنجبتنى، ولهذا تركز حبها المكثف علىَّ، ولكن هذا لا يعنى أنها لم تعطنى بين حين وآخر "بعض الضربات على مؤخرتى". هذا لم يضرنى، ولكن كان الأسوأ فقط عندما تغادر الحجرة صامتة والدموع فى عينيها.

أول الانطباعات: زهرة بيتونيا متمايلة على بسطة الشباك، شبكة حريرية خضراء اللون للمبة الجاز، فى الركن ماكينة خياطة أمى التى كانت تبدع عليها أجمل الأشياء. كل ما كان يخرج من بين يديها كان شيئًا جماليا، سواء أكانت ملابس أم مشغولات أم مفارش. لم تتبع مرة النماذج الموضوعة بدقة، بل كانت تترك حيزًا لخيالها. "وفى بيت والدى لم تكن توجد لوحات لجينسبروه Gainsborough"؛ فمثل هذا الترف لم تكد تسمح به ميزانية

موظف متوسط فى خدمة البريد والتلغراف، ولكن علقت أعلى الأريكة المريحة صورة مطبوعة لجزء من بحيرة، وذلك لتهدئة شوق أمى قليلاً إلى مسقط رأسها على بحر الشمال، وإلى جانب ذلك وجد نقشان أصليان على النحاس لهاينرش فوجلر Vogeler، وقد مثّلا أول لقاءاتى بالفن. وفى حجرة صغيرة معتمة ومبطنة بورق الحائط يقف دولاب كبير للكتب به أعمال الكلاسيكيين الألمان، وعدد كبير من الترجمات عن الأدب العالمى، ومجلدات شعرية، وبعض الروايات القليلة. وفيما بعد راقتنى كتب أبى المدرسية؛ حيث وجدت فيها الكثير من الأشعار والقصص، وثلاثة مجلدات قديمة عن الكون تستغرق الفترة ما بين (١٩١٠-١٩١٢)، وعنها أخذت أول إلهاماتى فى العلوم الطبيعية.

كنا نعيش حياة هادئة حقًا؛ فالوالدان كانا لا يهتمان بشكل خاص باجتماعات السمر، وكان يوجد فقط عدد قليل من الزملاء الذين يلتقيهم المرء بين حين وآخر. وكانت أمى تكره جلسات القهوة وثرثرة النسوة، ولذا كانت تقول أحيانًا، كما لو أنها موسى: "إننى أمتلك لسانًا ثقيلاً!" كما أن زوجات الموظفين من البرجوازية الصغيرة من بيئة تورنجن الضيقة لم يكدن يصدقن ما تحكيه عن رحلات أسرتها، وعن الكثيرين الذين "بقوا" مع سفنهم الشراعية عند رأس الرجاء الصالح. أو هل يمكن للمرء أن يصدق أنها وإخوتها قد لعبوا فى طفولتهم مع الطباخ الأسود لعمهم؟ أو أنها كانت ورفيقاتها تتزلجن لساعات طويلة فى شتاء بريمن على مروج نهر فيزر المغطاة بالجليد؟ لا، الأفضل لها أن تصمت، وهذا ما كان يفهمه أبى. كان يساعد ما أمكنه فى أمور التدريب المنزلى، يجفف كل سبت الأوانى، بل ويشارك فى الغسيل الكبير كذلك، وهذا ما كان يعد آنذاك بمثابة مخاطرة، ولكنه لم يكن يريد أن يرى زوجته وقد أثقلها العمل المنزلى، لقد كانت رفيقة أفكاره وشريكة تأملاته. وهكذا شببت فى جو عائلى جميل. وعما إذا كانت قد وجدت توترات ما بين والدى؛ فهذا ما لم أعرف عنه شيئًا. لقد تمتعت بتلك البيئة المحبة.

كنا أسرة "بروسية" نموذجية؛ فالوعى بالمسئولية والمحافظة المطلقة على المواعيد كانا شيئين طبيعيين، وقد تعلمت منذ أن كنت طفلة صغيرة أن أوقظ أبى لأجل الخدمة المسائية فى تمام الساعة (ألبعة إلا لبع)، بينما أوضع كل مساء فى سريرى مبكرًا جدًا، وذلك حتى يتسنى للوالدين الحديث حول أشياء - مثل السياسة - لا ينبغى أن يعلمها ذلك الطفل [الذى كنته]. ولم نكن نستدين، كان المرء يحسب بالضبط ما يمكن أن يفعله من مرتب موظف ليس بالكبير جدًا، لأجل مصاريف مدرسة البنات الثانوية أو لأجل شراء بيانو، وحتى اليوم ما زالت الاستدانة - بالنسبة إلىَّ - فكرة غير محتملة، وربما لأجل هذا تقدمت فقط لمرة وحيدة بطلب للحصول على منحة (لأجل رحلتى الأولى إلى تركيا). ويعبر التركيب الفارسى باري منات "ثقل التفكير بالدين" عن مشاعرى بدقة؛ فالمارك الذى كنت آخذه كمصروف شهرى كان يدخر بكل عناية لأجل شراء هدايا أعياد الميلاد للوالدين. كان أبى يحضر معه كل سبت هدية صغيرة لأمى: علبة شيكولاته أو بعضًا من حلوى المارتسيبان.

وكنا نذهب فى أيام الآحاد لنتريض فى غابة شتيجر Steigerwald، ومازلت أتذكر كل ركن وزاوية: أين ظهرت أول زهور الثلج، وأين أزهرت بعد وقت قليل زهور الربيع وزهور شقائق النعمان بوفرة مسرفة، وبالذات فى الوقت المناسب لعيد ميلادى؟!

فى الرابعة من عمرى أرسلت إلى دار الحضانة القريبة. وفيما بعد كتبت إحدى مربيات الحضانة الصغيرات بحثها للامتحان عنى، عندما جئت إلى إيرفورت فى عام ١٩٩٥ لإلقاء محاضرة، نادانى قبل ذلك شخص بصوت مرتعش بسبب الاضطراب، لقد كانت "الخالة لوتا"، مربية الحضانة اللطيفة، ومن ثم كان حضنًا كبيرًا فى صالة مبنى البلدية حيث كنت أسجل اسمى فى سجل الزيارات الذهبى، وكذلك أرهفت السمع فى محاضرة ربيع ٢٠٠١ بكل توتر وانتباه لكلمات تلميذتها.

ثم كانت المدرسة التى وجدتها ممتعة جدًا، فقط كان يدهشنى أن المدرسين يعرفون أكثر منا. وكان من الظريف أيضًا أن بعض المرشحين للتدريس اتخذونا كأرانب للتجارب؛ حيث اختبروا ثلاث تلميذات متنوعات الموهبة فى كل الأشياء. ألم يكن من الجميل ترتيب الكلمات ألفبائيًا بأكبر سرعة ممكنة؟ لقد كان هذا بالتأكيد بمثابة تدريب أولى للفهارس التى لا تحصى التى ألحقتها فى السنوات التالية بكتبى (وهو عمل، لإثارة دهشة أغلب الناس، أحبه بالفعل!). وقد أعطانى أستاذ الفصل الذى أعجبت به (دائمًا ما كنت أفتن بأستاذ ما) كتبًا كانت صعبة بالنسبة لطفلة فى السابعة من عمرها، وقد كان من بينها على سبيل المثال "مدخل إلى الأساليب المعمارية".

آنذاك تم قبولى كذلك فى فصول مدرسة الفنون والصنائع، مع أن سن القبول كان فى الحقيقة عشر سنوات، ولكنى لم أجد متعة فى تلوين الأشكال الغريبة؛ فقد كنت أحلم بأن أرسم – على الأقل – صورًا دقيقة بين خطوط الكشاكيل المدرسية. حاليًا أصبح مبنى المدرسة القديم مقرًا لمعهد ماكس فيبر فى جامعة إيرفورت الجديدة، وقد انتابنى إحساس عجيب عندما حضرت هناك إحدى الجلسات بوصفى عضوًا فى مجلس أمناء الجامعة.

كان شتاء عام ١٩٢٩ صعبًا جدًا؛ فقد مرضت بالالتهاب الكلوى، وأبقيت فى المنزل، وقد أحضر لى المدرس وزملاء الفصل كتبًا، وكانت أمى تقرأ لى (وكانت قصة "البلور الصخرى" لشتيفتر Stifter[(١)] من بين هذه الكتب) أو تؤلف حدوتة رائعة عن القرود والزرافات والبرتقال. ولكن كان هناك كتاب واحد أثّر فىّ تأثيرًا حاسمًا: كتاب حكايات من عام ١٨٧٠، ولذا طبع بالخط الألمانى القديم، وهذا ما أعطانى فرصة لتحسين كل "الأخطاء" (خطوة تمهيدية للقراءات التصحيحية التى ستأتى فيما بعد). ومن بين هذه الحكايات شديدة التنوع من كل أنحاء العالم كانت هناك واحدة لم أقع عليها فى أى مكان آخر. كانت تحت عنوان "بادمانابا وحسان" وتحكى عن حكيم

هندى أدخل غلامًا من دمشق فى الحكمة العليا، وقاده فى النهاية عبر مملكة عجيبة تقع عميقًا تحت أحد الآبار، وهناك، وفى أحد الأقبية المملوءة بالأحجار الكريمة، وضع أكبر ملوك العالم فى نعشه، وكتب على حامل النعش الحجرى: "الناس نيام، فإذا ما ماتوا انتبهوا". وقد أصابتنى هذه الجملة مثل صاعقة. وبعد عشر سنوات علمت أنها مما روى عن النبى محمد، وأن متصوفى الإسلام يحبونها بشكل خاص. فى هذه اللحظة كنت أعرف – ربما بشكل غير محدد – أن هذا هو طريقى: كان الشرق هو غايتى، شرق الحكمة الصوفية. وكانت هذه المقابلة بين الحكيم الهندى والغلام المسلم تشير – كما فهمت بعد فترة طويلة – إلى نقطة تخصصى المستقبلية: الثقافة الهندو إسلامية.

كانت إيرفورت مدينة نموذجية لطفل؛ فهى بسكانها الذين يقاربون مائة وخمسين ألف نسمة، بغابتها الجميلة (غابة شتيجر)، وبحدائقها التى لا تعد مما يمكن الإحاطة به ويسهل معرفة كل أحيائها. وفى الجوار كانت توجد قرى جميلة مثل موبزبورج، وفى وقت تزهير الفواكه ينجذب الكثيرون إلى مرتفعات فانر، وأبعد قليلاً كانت توجد حصون الدراى – جلايشن[٢]. ألم يُحضر كونت من حصن جليشن من الحروب الصليبية امرأة عربية؟ بل وتحكى الأسطورة أن سيدة الحصن استقبلت المرأة الغريبة بالشكر لأنها حررت رجلها. وكانت غابة تورنجن تغرى فى الصيف بحب الارتحال وفى الشتاء بالتزلج على الجليد (غالبًا ما كنت أنتهى فى هذه "المباهج" الشتوية فى الجليد). وكذلك وجد صانعو الزجاج فى لاوشا الذين يسحرون أشياء باهرة. أحيانًا تأتى إلى بابنا امرأة بسلة تحمل على الظهر مملوءة بأدوات زجاجية، وقد بدأت مجموعتى الزجاجية بثلاثة طيور بطريق صغيرة، كانت تسميهم "لوبينن".

وفى المدينة مازالت ذكرى المعلم إيكهارت Eckhart[٣]، الذى كان يعمل فى كنيسة الخطباء، حية، ويبدو لوثر Luther[٤] حاضرًا فى كل مكان،

ويمكن للمرء حتى الآن أن يريك الموضع الذى نادى فيه خلال إحدى الصواعق وهو خائف: "ساعدينى أيتها القديسة أنا، فأنا أريد أن أصبح راهبًا!"، وليس بعيدًا جدًا من إيرفورت ما زالت فارتبورج تتذكر عمله على ترجمة الكتاب المقدس. وكذلك كانت الكلاسيكية الألمانية حية جدًا؛ ففايمار وينا كانتا قريبتين جدًا، وقد التقى جوته ونابليون فى إيرفورت، وتنتسب عائلة هومبولت إلى التاريخ المحلى للمدينة، وكذلك عائلة دالبرج. لقد كان المرء مُحاطًا دائمًا بالذكريات عن عظماء الماضى.

وكذلك كان الأمر بالنسبة للكنائس: كنيسة الحفاة المتشددة ذات الطراز القوطى المبكر، وهى الآن مدمرة، ولكن ما زال لها - كأطلال - وقعٌ مؤثر، وكذلك كنيسة ميشائيل وغيرهما، حتى خُيِّل إلىَّ أن أية كنيسة حقيقية لا بد وأن تكون ذات طراز معمارى قوطى. ولكن تمثلت قمة المدينة ومركزها فى الكاتدرائية وكنيسة القديس زيفرى Severi التى بُنيت بجلال ملكى على ربوة تطل على ساحة السوق. فيما سبق كانت تتلألأ على الحائط الغربى للكاتدرائية فسيفساء عملاقة تمثل مارية والطفل يسوع على خلفية ذهبية. ولكن هذه الفسيفساء اختفت ليس بسبب القنابل أو إبان فترة ألمانيا الشرقية، وإنما إبان عملية إصلاح ضرورية للسقف لم تترك مكانًا للوحة المتألقة. أتذكر مرة - لا بد وأن هذا كان فى عام ١٩٣٧ - أن مدير الإقليم السيد "زاوكل" Saucke، الذى كان يريد نقل كل ما هو مهم إلى فايمار، جاء مرة إلى إيرفورت، وعند رؤية مدير الإقليم السيد "جاوكل"، كما يسمى على لسان العامة(٥)، صاح أعضاء شبيبة هتلر الذين وقفوا مستعدين لاستقباله ولمرات متتالية: "الكاتدرائية ستبقى هنا، الكاتدرائية ستبقى هنا!".

كانت الكاتدرائية وكنيسة زيفرى تتبعان الكنيسة الكاثوليكية، ورغم ذلك فإن أحب أعياد إيرفورت كان يقام فى ساحة السوق وعلى سلالم الكاتدرائية؛ ففى العاشر من نوفمبر، عيد ميلاد لوثر، يسير كل الأطفال على اختلاف

طوائفهم، بفوانيسهم عبر المدينة إلى الكاتدرائية؛ حيث يُكوّن طلاب الثانوية على درجاتها وردة لوثر[٦] بفوانيسهم البيضاء والحمراء والخضراء. وبعد خطبة قصيرة كنا نغنى بقوة: "ربنا هو حصننا المنيع". وكان الكثيرون منا يذهبون إلى المحلات ويغنون، وربما يحصلون لقاء ذلك على أوزة من حلوى المارتسيبان.

كان عيد مارتن بمثابة إعداد أولى لأعياد الميلاد؛ حيث تبدأ الاستعدادات للعيد مع أول عيد بشارة، وليس قبل أحد الترحم على الموتى[٧]. وهنا تبدأ ربات البيوت فى الخبز؛ فلا بد وأن تخبز فطائر عيد الميلاد، والتى تسمى هنا – أى فى إيرفورت –"Schittchen". لقد كان هذا أمرًا صعبًا؛ فعلى المرء أن يستيقظ ليلاً ليختبر ما إذا كان العجين قد اختمر جيدًا، ثم يحضره فى الصباح الباكر إلى الخباز؛ حيث يأخذه وقت الظهر ساخنًا وذا لون بنى محبوب، ثم يمنحه رونقه الأخير بالكثير من السمن وسكر البودرة. وكثيرًا ما كان المرء يرى صبيان الخبازين وهم يحملون على رءوسهم فى توازن ألواحًا طويلة عليها ست أو سبع فطائر. كانت المدينة كلها تغدو معبقة برائحة الفطائر. كانت أمى تخبز فطيرة للأصدقاء، وتسمح لى بتوصيلها، وأعطى مقابل ذلك بعض الحلوى أو حتى رشفة من النبيذ المسكر كأجرة ساعى بريد. أما أبى فكان يشترى الشجرة ويزينها، وفى تورنجن يحرص المرء منذ البداية على أن يشترى شجرة صنوبر رفيعة تكون فروعها متساوية فى البعد عن بعضها، وذلك حتى يصنع منها فيما بعد مفراكًا للتنظيف، ولكن كانت أمى تعارض هذا، ومن هنا كانت شجيرتنا جميلة ومتساوية الكثافة.

كان موسم عيد الميلاد يبدأ لدينا أيضًا مع عيد البشارة الأول. ومنذ هذا الوقت لا تفتح الخطابات، ويستثنى من هذا إذا كان الخطاب حكوميًا أو به فاتورة حساب. وفى الليلة المقدسة يوضع كل شىء تحت الشجرة المزينة ثم نفتح الطرود الصغيرة والخطابات، لقد كنا أسرة محبة جدًا للكتابة! غالبًا لم

يكن يوجد غير عشاء بارد بسيط، وذلك لأننا كنا نريد أن نستمتع بالمساء مع أمي. وحينما امتلكت بيانو، كنت أسعد والدى بأن أعزف لهما أغنية "ابنة صهيون" وأغانى أخرى جميلة. لم نكد نستقبل ضيوفًا، ومن ثم كان المساء المقدس ملكًا لنا. وهذا ما أفعله إلى الآن - وحيدة مع شجيرة مزينة بزينة فضية وكمية ضخمة من الخطابات.

صبا فى إيرفورت

انتقلنا فى عام ١٩٣٠ إلى شقة حديثة البناء، كانت تطل على حقول أزهار حدائق إ. س. شميت، وتقع بالقرب من مدرسة جوته الثانوية للبنات، التى التحقت بها بعد عامين. كان اهتمامى المحبب ما زال موجهًا للقراءة، وبصفة أخص لقراءة كتب عن الحيوانات أو عن الشرق، ويالها من تجربة! تجربة الاستماع إلى محاضرة من زيفن هيدين Hedin[٨]، ثم الحصول على توقيعه! وفى "المرغوب والمملوك بالفعل" لجوستاف فريتاج Freytags[٩] التى أُهديت إلىَّ آنذاك، كان المستشرق اليهودى الشاب برنارد الذى يعيش لأجل مخطوطاته الشرقية شخصيتى المفضلة. وفى مدرسة جوته الثانوية للبنات أفزعت مدرسة فصلى العزيزة بموضوعى الأول فى الإنشاء عن موضوع "خطاب إلى دميتى" الذى كتبت فيه عن عصيان الملاكمين فى الصين[١٠]. وفى الحقيقة كانت كل دمياتى الصغيرة (وكانت أحبهم لدى تسكن قشرة جوز هند) يرتدين بشكل ما ملابس شرقية. لقد أحببت المدرسة، مع أن - أو لأن- أستاذ اللغة الفرنسية كان مشهورًا فى المدينة بصرامته، ولكنه كان مربيًا ممتازًا. وسرعان ما أصبحت مراجعة للفصل فى اللغة الفرنسية، وسمح لى بأن أدرب الفتيات الأخريات على القواعد، وأن أراجع ثروتهم اللغوية. وانتقلت بعد ثلاث سنوات إلى مدرسة اللويزة؛ حيث كان مدرس اللغة اللاتينية، السيد كراوس، الذى كان يبدو بشدة وكأنه أحد الرومان القدماء،

يعطينا بداية الأسماء اللاتينية ويصطحبنا بكل الحب إلى حقلى اللغة والثقافة.

غير أن هذه السنوات كانت أيضًا سنوات التحولات الصعبة فى حياتنا، ومازلت أتذكر بشكل يكاد يكون فوتغرافيا، كيف جاء أبـى فـى ٣٠ ينـاير ١٩٣٣ إبان راحة الظهر إلى البيت، وكيف ضبط الراديو، وكيف سألته أمى من المطبخ عن نتيجة الانتخابات؛ فأجاب "لقد أصبح هتلر مستشارًا للرايخ". وهنا جاءت من المطبخ وبتنهيدة عميقة "يا إلهى!". كانت أمى كما يبدو تحدس بما يمكن أن يأتى. كنت فى العموم مُبعدة بالكامل عن السياسة؛ فأنا لم أعرف ولو مرة كيف ينتخب أبواى، ولكنى أتذكر كيف أخفيت الصحف بعناية مـن أمام الطفل [الذى كنته] إبان انقلاب رويم Röhm[١١]. وتتعلق أولى ذكرياتى السياسية بحالة الطوارئ التى أعلنها بروننج Brüning[١٢] فى عامى ١٩٢٩ و١٩٣٠. وكنت إبان الإجازة فى مدينة كارولينين - زيل إذا رأيـت كلمـة "طوارئ" فى الجريدة التى أحضرها من الخارج، تصير خطواتى أبطأ، وذلك لأننى أعرف كيف يحتد أبى عندما تأتيه مثل هذه الأخبار.

ودعيت مع الوقت للانضمام إلى اتحاد الفتيـات الألمانيـات (BDM). كان البعض قد انضم فى البداية عن طيب خاطر، وأيضًا بسبب زى البحرية: جُونِلَّة زرقاء غامقة وبلوزة بيضاء ورباط عنق أزرق غامق. كان هذا الزى يسمى "كلوفت"، ولكن مبتدع هذا الوصف لم يكن يعرف فيما يبدو أن هـذه الكلمة تأتى من اللغة اليديشية[١٣]. كانت حفلات السمر بالاتحاد تتكون مـن ممارسة الهوايات، ومن القراءة وغناء الأغانى الشعبية، وكانت أغانى لـونز Löns[١٤] محببة إلينا بشدة، وكذلك كتب الأغانى القديمة، ولم تكن على مـا أذكر - ومازلت أمتلك بعضها بالصدفة - تحـوى أى نـصوص معاديـة للسامية. ربما كانت نصوص أغانى الشبيبة أوضح فـى دعائيتهـا، ولكـن سرعان ما شطبت أغنية «Wir sind Hitlers braune Haufen» "نحن طغمة هتلر البنية" من القائمة. وكذلك كانت هناك رحلات لأيام السبت ومخيمـات،

ولكنى لم أشترك بها البتة. وكذلك تيسر لى أيضًا ألا أرى - تقريبًا - أيًّا من الأفلام الدعائية التى كانت تعرض وباستمرار فى المدرسة، ولا أعرف حقيقة كيف تمكنت من هذا. وكثيرًا ما كنت أُرى مع إيفشن Evchen، التلميذة اليهودية الوحيدة فى الفصل، والتى لم أكن أشاركها فقط فى عيد الميلاد، وإنما أيضًا فى متعة تعلم اللغات، وفى النفور من الرياضة، وخاصة ألعاب الكرة. وعندما كنت أذهب إلى السينما فإن ذلك يكون لأفلام ليليان هارفى وكونراد فيدت، ولكنى لم أكن أفهم مطلقًا لماذا لم تعد تلك الأفلام تعرض. لقد قال البعض "ربما كان يهوديًّا؟"، ولكننا لم نكن نعرف بعد شيئًا عن معاداة السامية، وقد انتبهنا إلى ذلك فقط عندما تم فجأة عزل التلميذات اليهوديات القليلات عنا ووقفن معًا فى حوش المدرسة، ثم - كما قيل - ذهبوا إلى مدارس أخرى.

قبل هذا تتبعنا بانبهار الألعاب الأولمبية لعام ١٩٣٦ من خلال الراديو، ورأيناها فى النشرة الأسبوعية المرئية، حتى جدتى فى قريتها الشمالية، ولم تكن تعرف ما هو الجرى على الجليد، قالت عندما سمعت الراديو بعيون لامعة: "لقد فاز كريستل كرانز!".

وفى الخامسة عشرة بدأنا دروس الرقص، الذى لم أجده ممتعًا على الإطلاق؛ فبوصفى روحًا رومانسية، تمنيت أثناء ذلك موضوعات أخرى للحديث غير التدريبات البدنيَّة، والرمى بالبنادق الصغيرة. وفى درس الرقص جاء الخبر بأن والد زميلتى، وكان قسيسًا فى كنيسة الحفاة، قد أصبح قيد الاعتقال الاحتياطى؛ فماذا يعنى هذا؟ لحسن الحظ سرعان ما أطلق سراحه، ولكن بدا أن ظلالاً كانت تنزل ببطء على الزمن الجميل. وحين سمح لمجموعة مختارة من قياديات رابطة الشابات الألمانيات المخلصات للعلم الألمانى بالاحتفال مع مجموعة مختارة كذلك من قادة شبيبة هتلر، كنت سعيدة أننى لم أكن بينهن. ولكى نصبح ربات منزل ألمانيات جديرات، لم

يكن بد من أن تنتهى دورة فى تعلم الطبخ، ولقد كان هذا - على الأقل - ممتعًا ومفيدًا، لكن ألا يمكن للمرء أن ينظم شعرًا تعليميًّا عن إعداد صلصة الدقيق؟

بعد أن انتهى كل ذلك بقليل، وفى أكتوبر ١٩٣٧، اشتكيت إلى صديقتى دورلا: ماذا يجب على المرء أن يفعل حتى يتعلم لغة شرقية؟ وهنا قالت دورلا: "أوه، عمى كراوس (مدرس اللاتينية) يعرف شخصًا يعرف العربية!" كان الاستماع والاستيعاب شيئًا واحدًا. وبسرعة عرفت أن أحد الصحفيين واسمه د. إلينبرج Ellenberg (ويعرف "بالأفندى") يدرس اللغة العربية فى جامعة يينا. وقد رأى والدى أنه يمكن التجريب لمرة، وهكذا ذهبت وأمى فى أحد الأيام إليه. كنت آنذاك - ولكى أبدو أكبر سنًا - أرتدى غطاءً للرأس مازلت أعتبره إلى اليوم، وفى هذا العمر، لمن هو أعجز منى!. كان إلينبرج من هامبورج، وكان آنذاك فى منتصف الستينيات، وكان يريد المحاولة أيضًا، ويريد أن يعرف كيف سيتطور هذا كله. وبعد أول درس أصبح كل شىء واضحًا؛ حيث أصبح الأسبوع يتكون فقط من الأيام قبل يوم الخميس، يوم درس العربية والأيام بعده. نعم لم يكن يسمح لى أن أتحدث عن قفزاتى غير الوطنية تمامًا، ولكن والدىَّ كانا مهتمين بحبٍّ بدراستى، وكانت أمى وحتى وفاتها مازالت تحفظ كلمات أول دروس كتاب "هردر الكبير"، وهو كتاب القواعد الذى عملت عام ١٩٦٧ على نسخته المختصرة المسماة "هردر - باريت".

كان الأفندى بالضبط هو الأستاذ الذى يريد فتاة فى الخامسة عشرة، وتملك القدرة على الاندهاش. لقد تعلم فى مدرسة جورج ياكوب Jacob[١٥] الذى كان يهتم بالوقائع أكثر من اهتمامه بالمشكلات النحوية الملغزة أو بالمشاكل الفلسفية واللاهوتية، وكان يرى أن اللغة التركية تستحق مكانًا أفضل فى الدراسات الاستشراقية. كان إلينبرج يعرف الشرق ويحبه وكان

مغرمًا بثقافته. ولم يكن يعطى درسًا أسبوعيًّا فى القواعد فقط، وإنما أيـضًا يعطى مدخلا إلى الدراسات الإسلامية والتاريخ الإسلامى. وكذلك كان يسمح لى أسبوعيا باستعارة كتاب أو كتابين متخصصين، وكـان والـداى يقـرآن الكتابين باهتمام شديد أيضًا. فيما بعد أصبحت أمى أفضل نقادى، وقد قرأت فيما بعد كل مخطوطات كتبى الألمانية، ووجهت النقد إلـىَّ عنـدما كانـت تعليلاتى خاطئة أو جملى غير واضحة، وكانت تحب أن تقول: "إننى صوت الشعب".

وكانت إحدى أهم أحداث هذه الدورة فى اللغة العربية حين اصطحبنى الأفندى إلى بينا؛ حيث كان يدرس لديه طالبان عربيان، كانا أول من قابلـت من العرب! وكان ينبغى علىَّ - أو على الأكثر سمح لى - بأن أقرأ عليهما بالعربية "الفاتحة"، أول سور القرآن!

ولكى أتحكم فى حماستى قررت أن أقوم بكتابة شىء، وصنعت كتابًـا رسمت فيه كل ما وقع فى يدى؛ ففى هذا الكتاب توجـد خـرائط للثـروات المعدنية وللنباتات، وصور للمساجد ما بين القيروان والهند، وتجارب خطوط من مختلف اللغات الشرقية. وقد نقلت أغلب هذه التجارب عن أحـد أحـب الكتب إلىَّ، والذى نشرته جمعية الكتاب المقدس البريطانية. وفى هذا الكتاب تمت كتابة الآية رقم ١٦ من الإصحاح الثالث من إنجيل يوحنا "لأنه هكـذا أحبَّ اللهُ العالمَ..."[١٦] بأكثر من ستمائة لغة. كذلك رسمت بورتريهات لملوك الهند المغول، ولسوق فى مدينة سكوبيا وللمنسوجات الفارسية الحريرية، كما صورت بعض المنمنمات. باختصار: لقد كان كتابًا ملونًا فكهًا وبه الكثير من المعلومات. وقد جلدته تجليدًا جميلاً وسميته Land des Lichts "أرض النور". وفى أحد أيام صيف ١٩٣٨ عرضت الكتاب على أستاذى الذى فوجئ بذلك، وللحقيقة يمكن أن أقول إننى مازلت لا أستوعب كيف تمكنـت آنـذاك مـن تجميع مثل هذا الكتاب؟!

وفى هذا الوقت بالذات كان يجب علىَّ عمل الكثير؛ فلأن أبـــى كـــان ينتظر تنفيذ أمر نقله إلى برلين، سألنى عما إذا كنت أستطيع أن أقفز عامًا فى دراستى حتى أحصل على الثانوية من إيرفورت، وهذا ما سمح لى به، ولكن أحدًا لم يلاحظ أن سنوات الدراسة كانت قد تم اختصارها إلى اثنـــى عــشر عامًا، وكانت النتيجة أننى قفزت عامين. ولكن للأسف بدأ فـــصل الثانويـــة الجديد بالإنجليزية وليس بالفرنسية كما كان فصلى القديم، ومعنى هذا أنه كان من الواجب علىَّ أن أستدرك - فى عدة أشهر - ما فاتنى من الإنجليزية فى سبع سنوات. وكانت النصوص التى نقرأها قليلة الإثارة والإيحاء، على سبيل المثال قطعة نسكية متزمتة لا يطلب المتحدث فيها أكثر من "بيـــت صـــغير بسقف متواضع لا يمرر الماء"

A little house whose humble roof

is waterproof...

وقد قرأنا يومئذ بياتركس بوتر Potter[١٧] أو بعض الألغاز اللغوية! وكانت أسوأ درجاتى فى شهادة الثانوية فى اللغة الإنجليزية. ربما لهذا أرسلنى الإله الرحيم بعد سنوات عديدة إلى هارفارد حتى أعوض هذا النقص.

فى سنة الثانوية العامة - حيث كنت أشعر بالرضا لأننى استقبلت بطريقة لطيفة - كنت الوحيدة التى لا ترتدى رباط العنق الملون الذى يميز قياديات الاتحاد الألمانى للفتيات، وذلك لأن وقتى فى الحقيقة كان قليلا (وكانت رغبتى كذلك أقل!). ولذا وجد فى جريدة الثانوية وبحجم كبير الإعلان التالى: "من يستطيع أن يحول حصانًا عربيًا أبيض[١٨] إلى فرس بيتية ماهرة؟"، وهذا ما لم يتسنَّ لأحد.

الإجازات الأسرية فى تورنجن وشرق فريزلاند

كنا نسافر كل صيف إلى كارولينين - زيل فى شرق فريزلاند. وكانت الرحلة الطويلة تبدأ - انطلاقًا من إيرفورت - مع الشروق، ويتخللها تبديلات عدة للقطارات. أحيانًا كنا نبقى لمدة يوم أو يومين لدى أقربـــاء أمـــى فـــى بريمن، كان زوج ابنة عمها قبطانًا للميناء، وكان يسافر مرتين فى العام إلى كلكتا، وكم كنت أغبطه! أحد أهم ممتلكاتى المبكرة الغالية كان بطاقة بريدية منه تحمل صورة النصب التذكارى لفيكتوريا.

لقد أحببت بريمن، وكان تمثال رولاند العملاق أمام مجلـــس البلديـــة بمثابة أحد المعارف الموثوق بهم. وكذلك أثرت فىَّ كثيرًا رحلة قصيرة إلـــى فوربس فيدا، وكنت آنذاك فى حوالى الثامنة من عمرى، وكنت قـــد بـــدأت أتحسس بيئة هاينرش فوجلر؛ حيث عاشت الخالة ميّا لعدة سنوات، وبـــدأت أستشعر جزءًا من روح حياته المبكرة. ومن بريمن كنا نواصـــل الرحلـــة. كانت حقول الغلال تمتد خلف مدينة يافر Jever، ويحمل هواء البحر مـــذاقًا مالحًا، ومن ثم تبدأ الإجازة. كان الخال رودى، شقيق أمى، الذى يملك سفينة وينسج أجمل أساطير البحارة، يقف أمام محطة القطار الصغيرة التى تمثـــل الحدود ما بين شرق فريزلاند وأولدنبرج. كنا نذهب إلـــى الكنيـــسة المبنيـــة بالآجر، ذات البرج المستقل والمحاطة بفناء الكنيسة الحافل بالزهور المنمقة، وهل رأى المرء فى أى مكان ازدهار مثل هذا العدد من زهـــور البيجونيـــا الحمراء؟ ومن هناك ننعطف إلى شارع الميزنا، الذى يسمى الآن نسبة إلـــى الخالة ميّا شارع مارية أولفرس. وحول بيت جدتى المـــنخفض تقـــف عـــدة شجيرات من أشجار الدردار، وتنمو فيما بينها أعشاب ذهبية اللون، وتوجـــد إلى جانب ذلك حديقة صغيرة بها بعض من شجيرات الحبـــوب، وتزدهـــر بجانب أحد حوائط البيت شجيرات تشبه الجرجير، وترتفع بجانـــب الحـــائط المشمسة بعض الورود قوية الأريج، ويحيى القط ميتس، "أجمـــل قـــط فـــى

بوتيادنجن" الضيوف، وهذا ما كان يقوم به خلفاؤه بعد ذلك. وفي "بناء" منخفض توجد دورة المياه، وخلفها يعيش بعض الدجاج السعيد الذى توجد أمامه الفسقية التى تسيل فيها مياه المطر، ومنه كنا نصنع الماء النفيس. كانت كل الطرق الضيقة حول البيت تمشط من الأوراق بعد ظهر يوم السبت، وكان هذا عرفًا فى القرية.

أحببت جدتى لأمى بكل حنان. لا بد من أن هذه المرأة العجوز بشعرها الغامق وعيونها المشعة كانت جميلة جدًّا. بوصفى طفلاً لا يفهم المرء كثيرًا من دنيا البالغين، ولكننى كنت أشعر فى بعض الأحيان بأنها تملك مثل هذا المزاج القاتم الذى يرى فى المتعة الصغيرة ذنبًا أيضًا: "كل ذنب يفعله المرء يحاسب عليه على الأرض"، هذا ما كانت تؤثر به أثناء غسيل المواعين فى ابنة السنوات الثمانى. ومنها تعلمت كذلك الحكمة المأثورة التى تقول:

اعمل الخير وارم به فى البحر،

لا تنظر إلى السمكة وانظر إلى ربها.

وهى حكمة تنبع من العهد القديم، وتلعب أيضًا دورًا مهمًا فى الآداب الإسلامية؛ حيث يقال: "أعط دون انتظار للأجر".

أما جدى لأمى فقد توفى قبل أسبوعين من ولادتى. لا بد من أنه كان إنسانًا حنونًا وعطوفًا للغاية، وقد كان – مثل كل أسلاف وأعضاء الأسرة – قبطانًا لسفينة شراعية. وكان يسافر بسفينته الشراعية السريعة إلى النرويج لأجل إحضار سمك الأشتوك ونقله إلى البرتغال وإسبانيا؛ حيث يحضر من هناك نبيذًا، هذا بينما يسافر أعضاء العائلة الآخرون إلى الهند وباتافيا (إندونسيا). وفى نهاية سفر لمدة ثلاثة شهور ونصف إلى البرازيل؛ حيث يحضر شحنة ثمينة غرقت سفينته، "أنا"، فى مدخل مدينة بورتو أليجرا المعروف بصعوبته، وذلك بسبب غلطة للمرشد. لقد تحطم كيانه. نعم،

عرض على القبطان الماهر فورًا وظيفة كابتن لسفينة بخارية لسفر كبير، ولكنه رفض العرض؛ فقد كان يريد أن يبقى سيدًا لنفسه، ولكنه كان كذلك تاجرًا سيئًا يفضل أن يدفع من دخله القليل ضرائب كثيرة جدًا بدلاً من أن يدفع القليل جدًا، ولم يكن هذا سهلاً على جدتى، خاصة مع النمو المستمر لعدد الأطفال. وإلى جانب هذا فقد نزلت بالأسرة بعض الخطوب؛ فالابنة الكبرى - ويبدو أنها كانت شديدة الذكاء - ماتت بسبب انفجار للغاز. وأحيانًا ما أسأل نفسى، عما إذا كان فزعى الشديد من النار، والذى يسيطر علىَّ منذ طفولتى المبكرة يأتى عبر رابط غامض من هذا الحادث الذى وقع بلا ريب قبل عقد من مولدى؟

كذلك فإن أول أبناء الجدين، وحبيب الأسرة، قد قتل أثناء انتفاضة هيريرو فى جنوب غرب أفريقيا. وبعد ولدين آخرين ولدت أمى، الفتاة الشقراء الرزينة، فى يناير وتحت حسن الطالع المرتبط ببرج زحل. بداخلها يعيش تراث البحارة بقوة؛ فرغم كل مظاهر التحفظ الخارجية ومظاهر الرهافة وسرعة التأثر فإنها كانت نشيطة متجهة للمستقبل، ولديها فى الوقت نفسه الكثير من سمات الصبى الجالس على صارى السفينة: الأحلام والوجه الثانى يقودانها خلال حياتها الطويلة وغير العادية، ثم جاءت إلى العالم ميّا الساحرة التى عاشت طويلاً فى هولندا وفوربس فيدا، وصنعت لنفسها فيما بعد اسمًا ككاتبة؛ حيث أصبحت منذ مسرحيتها Maria von Jever "مارية من يافر" (١٩٣٦) معروفة من خلال إذاعة شمال ألمانيا بمسرحياتها الكوميدية بلهجة شمال ألمانيا، وتحكى روايتها الثانية Windiger Siel "مدينة زيل العاصفة" الكثير عن تاريخ أسرتنا. وفى متحف مدينة زيل فى كارولينين - زيل خصصت حجرة لتخليد ذكراها. لقد أحببت خالتى ميا، خاصة لأنها كانت "مجنونة بالقطط"، ولكن كان لدى بعض الخوف من الخالة الصغرى "أولى" التى كونت لنفسها وبشجاعة مركزًا جيدًا فى الحياة التجارية،

وأصبحت فيما بعد مديرة لشركة مارتين برينكمان (ش.م.) فى إيسن، وفقط فيما بعد تمكنت من أن أفهم أن بعض الرفض والاستنكار فى مواقفها كان بمثابة رد فعل دفاعى خلال الصراع لأجل مركزها. وكان كل الأطفال يذهبون إلى مدرسة القرية الصغيرة؛ حيث يوجد مدرس متحمس يعلمهم الكثير مما ليس معروفًا اليوم لطالب الثانوية نفسه. وكان كل أفراد الأسرة قراء متحمسين، ولكن أمى كانت أول فتاة تخرج من القرية وتمتهن مهنة ما.

وفى القرية يعرف الجميع بعضهم بعضًا. فى نهاية شارع المينزا كانت تعيش الخالة نيللى، ابنة الخال (أو الخالة) البعيدة البالغة النحافة، والتى كنت ألتقى لديها أحيانًا بقريب آخر هو الخال جيرهارد (Tjarks) مؤسس صحيفة La Plata الألمانية فى بيونس أيرس. بالطبع كان الببغاء والمعادن الجميلة فى منزله مثيرة جدًا لاهتمام الطفل [الذى كنته]. وكان يسمح لى بأن أشترى من محل القرية الصغير، وإبان زيارتى عام ١٩٩٨ لمتحف ميناء زيل وجدت أن كريشان يانسن ما زال يقف فى محله القديم، وأنه – الآن فى التسعين – يتذكر بالضبط الفتاة ذات الضفيرتين الشقراوين التى كانت تأتى إلى دكانه قبل ستين سنة بكل سرور. كان خبازا القرية يتنافسان على صناعة أفضل اللذائذ؛ فالسيدة يانسن الدائرية الشكل تقطع الخبز الأسمر الفواح الذى يفضل المرء أن يأكل معه فى المساء فواكه البحر الصغيرة الطازجة. أما الخباز الآخر فيصنع فطائر لذيذة مثل المحشيات وفطيرة الفرح وكعك القرفة الناعم وكعكة السالينافيند الشهيرة، وهى كعكة صغيرة وفى داخلها خلطة الميرنجن اللينة، وكنت أنالها أحيانًا كمكافأة. كنت أذهب باهتمام أقل إلى الجناينى؛ حيث توجد فراولة، كان الرجل اللطيف أخرس لا يسمع، وهذا ما كان غير طبيعى بالنسبة إلىَّ.

وكنا نذهب – حسب قدوم المد – إلى الحقول بقرب السد الخارجى على البحر الضحل، نبحث عن القواقع الوردية الصغيرة، ونلعب فى الماء

المنخفض، ولكنه يكون أحيانًا ماءً مخادعًا. وفى الأفق يرى المرء جزيرتى فانجرأوج وسبيكرأوج. وكان من طقوسنا أن نتمشى مرة فى الإجازة إلى نويهرلنجر- زيل على بعد سبعة كيلومترات، وعندما نمر بالقرب من طاحونتى الهواء ومن السد، ويكون الطريق قد طال على الأقدام الصغيرة، كنا نجلس دائمًا لنستمتع بالشاى فى أحد مطاعم الميناء.

نعم، الشاى! شاى شرق فريزلاند، لا بد من أن يترك حتى يصير غامقًا وقويًّا ثم يقدم فى فناجين صغيرة توضع فيها قطعة سكر غامق، يحدث أثناء تقديمه صوت خشخشة ضعيفة ويضع المرء أعلاها غيمة خفيفة من الكريمة. وقد حفظت ثقافة الشاى تلك بكل عناية، وتلعب كثافة طبقة الكريمة وتماسكها، وكذلك نوعية الماء (ماء المطر) دورًا مهمًّا. وكان إعداد مثل هذا الشاى بمثابة طقس سرى لا يملك أسراره عن حق سوى النسوة العجائز. وحينما قدم والدى إلى زيل ليقوم بأول زيارة إلى أقربائه المستقبليين، أصبح، كما سمعت، بعد الفنجان الثانى عشر أو الرابع عشر من هذا المشروب اللذيذ وكأنه مخمور بعض الشىء. ومن سمع فى فوجتلاند عن مثل هذا الشاى أو حلم به! فهناك يشرب المرء شاى زهر الزيزفون وما يشابهه مما ازدرته أمى قلبيا حتى آخر عمرها (وأنا أيضًا!).

فى السنوات التالية كنت أقضى أغلب أيام الإجازة فى دائرة أملاك أمراء عائلة جراس، حيث وجدت صديقة قمت معها ومع أخيها الصغير بلعب مسرحيات رومانتيكية على الحشائش الجافة، وكنت أنا طبعًا ودائمًا الضحية المخطوفة. وكنا نجدف فى العمق على مركب قديم مسطح ونلعب بين الأحصنة ونجلس وحدنا، مثنى أو حتى ثُلاثَ لنصف يوم على الحصان الأبيض الصغير ليز الذى يتحملنا دون شكوى.

لكن كانت حجرة معيشة جدتى الأكثر راحة وهدوءًا؛ حيث الأريكة القطيفة الحمراء وبعض الدواليب الهولندية الجميلة، وهناك يوجد نموذج نحته

جدى بنفسه للسفينة المفقودة، وهو الذى أهديناه فيما بعد بالإضافة إلى مداولات وزارة البحرية حول خسارة السفينة "أنا" إلى متحف سفن الملاحة فى ميناء بريمن. وكانت توجد فى هذه الحجرة بعض الكتب، وكذلك مجلدات سنوية كثيرة من مجلة Velhagen & Klasings الشهرية التى طالعتها بمتعة، ولكن انتهى كل هذا بوفاة جدتى عام ١٩٣٨.

فى بعض الأيام كنا نبدأ رحلتنا كذلك برحلة إلى بوركم؛ حيث تعيش الأخت غير الشقيقة لأمى، الخالة يوهانة. كانت رحلة السفينة البخارية من أمدن فى منتهى الروعة، ولكنى أظن رغم ذلك أن مرافقى الرحلة وجدوا أن الطفلة الصغيرة فظيعة، وذلك لأنها كانت تصرخ معجبة مع كل ارتفاع للأمواج: "بابا، أرجح أكثر!" كنت أحب الخالة يوهانة بسبب التدبير المنزلى المنظم والرقيق، ثم إنها كانت تملك شيئًا كنت أغبطها لأجله: أحد صخور الأحجار الكريمة، وقد وضع فى تجويفه نموذج كنيسة فى إيدار - أوبرشتاين التى تعد مركز صقل الأحجار الكريمة فى ألمانيا. وما زالت إلى اليوم إحدى أحب الأماكن لدى.

كان ينبغى على أبى فى الغالب أن يعود مبكرًا إلى خدمته؛ فإجازة الموظفين لم تكن طويلة مثل اليوم، وعندما نعود إلى البيت سالمين، نجده قد أعد بشائر الخوخ لاستقبالنا.

قليلاً جدًا ما كنا نزور أقرباء أبى، العمة كلارا وزوجها الخباز، أسفل أوستبورج فى موطنه فيدا. وعلى طرف المدينة كانت توجد حديقة كبيرة بها خلية نحل، ويشرف عليها ابن العمة المرح رودى الذى تعلق بأمى جدًا، وكانت ابنة العمة لينا شنوفة مثل أمها بالتطريز؛ فكل ما فى البيت كان مطرزًا بشكة مصلبة، صور الحائط والأغطية والحصائر ومقعد الحمام. لم يوجد شىء يمكن أن ينظر إليه الزائر - أزهار وحيوانات وزخارف عربية - إلا وهى مطرزة بالشكة المصلبة، كان الكثير من هذا جميلاً جدًا

ومتكاملاً من الناحية التقنية، ولكننا كنا نعجب أحياناً من أنه لا توجد علامات صليب على حظيرة الماعز أيضًا، ولكن كان ينبغي عليَّ ألا أتهكم على العمة الحبيبة الحنونة؛ فلربما استطاعت تحت ظروف أخرى أن تقدم ما هو أفضل وأكثر فائدة.

ينتسب أجدادى من ناحية الأب إلى روسيشن، وكانوا عمال نسيج. كان الأخ الأكبر لأبى مثل والده مديرًا لمصنع نسيج. وقد زرناه فى تسفيكاو مرة واحدة، وذلك لأن العم رينهارد كان رجلاً صعبًا، وقد أصيبت زوجته بعد موت الكثير من الأطفال الصغار "بلوثة عقلية"، وهذا ما نتج عنه شطط فى التدين. بعد الحرب العالمية الأولى لم يحتمل ابنها ألفرد جو البيت، وهاجر إلى أمريكا حيث كوّن لنفسه مكانة جيدة. كان والدى قد أصبح مرشدًا، وناصحًا له، وكان دائمًا ما يعطى الشاب عبر الخطابات نصائح لحياته. كون ألفريد قد أطلق على ابنه اسم والدى "باول"؛ فهذا ما لم يعرفه والدى. لقد قطعت الحرب الاتصال بينهما لسنوات. وقد أصبح باول عالمًا معروفًا على المستوى الدولى فى علم الميكروبيولوجيا، ومما يندرج تحت الأشياء المدهشة، أننا وجدنا أنفسنا مرة أخرى فى هارفارد، وأننا قد تم قبولنا فى اليوم نفسه فى الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم، وأن ابنتَىْ باول قد تزوجتا بعربيين وأسلمتا، وللحقيقة فإننى لم أساعد على هذا، ولكن - كما قال باول ضاحكًا - "إنه شيء يجرى فى الجينات".

لم نكن تلك الأسرة التى تذهب كثيرًا إلى الكنيسة. أمى تنتسب إلى المذهب اللوثرى الأكثر تشددًا فى شرق فريزلاند، وتعلمت يوميا ولمدة ثمانى سنوات فى درس الدين: "أن الرب يهدد بعقاب كل الذين يخالفون هذه الوصايا"؛ فكل متعة - وإن كانت بريئة - تعد ذنبًا، وفيما بعد كانت كثيرًا ما تقول: إن أبى كان أول من علمها أن الله محبة. ورغم أن المرء يبقى دائمًا فى إطار تقاليد المذهب اللوثرى، فإن الأبوين كانا يبحثان عن نفسيهما فى

أماكن أخرى. بعد الحرب العالمية الأولى وجد فى ألمانيا عدد غير محدود من الجماعات التى تعتقد فى العجائب والسحر. وهكذا عرف رجل غريب يدعى موك-لامبيرتى فى تورنجن، وحقق على ما يبدو بعض النجاح فى إيرفورت، ولكنى لا أتذكر أكثر من اسمه، كذلك وجدت تيارات اقترب منها أبواى ثم ابتعدا عنها مرة أخرى، وكان من بين هؤلاء الأنتربوزوفيون(١٩). وقد اقترب أبى - بصفة خاصة - من حركة الروح الجديدة، وكنت أنظر وأنا طفلة مرة بعد أخرى فى جريدتهم "الراية البيضاء"، وقرأت الكلمات الألمانية ذات الرنين الأخاذ Bo Yin Ras، ولكنها بقيت بالنسبة إلىّ "لغة ألمانية" غير مفهومة. كانت قراءة أمى المسلية لكتاب رالف ف. ترين Trine "الانسجام مع اللانهائى" In Harmoni mit dem Unendlichen، وهو كتاب يقف فى تراث إيمرسون.

أما كوننا لا نذهب كثيرًا إلى الكنيسة فهو أمر له "سبب"، وهو أن أمى أصبحت يغمى عليها بسهولة، وكانت تتحمل الموسيقى الكنسية بصعوبة (ربما ورثت كراهيتى العميقة ليوهان سباستيان باخ Bach عنها)، ولكننا كنا متمسكين بالكتاب المقدس، وكانت كلمات العهد القديم وشخصياته معروفة لنا جيدًا، وهى تنتمى فى النهاية كذلك إلى ميراثنا الثقافى. وكيف يستطيع المرء أن يفهم التصوير الأوروبى والعدد اللانهائى من الاستلهامات والإشارات إلى شخصيات وأحداث العهد القديم فى الأدب؟ ألم تكن المزامير دائمًا خير تعزية؟ وكم من مرة تعبَّد المرء فى أوقات الشدة والبلاء بالمزمور رقم ٤٣، ونادى مرة بعد أخرى:

اقض لى يا الله،

وخاصم مخاصمتى مع أمة غير راحمةٍ

ومن إنسان غش وظلم نجّنى

لأنك أنت إله حصنى:

لماذا رفضتنى؟[٢٠]

وفى درس التثبيت فى الكنيسة عام ١٩٣٧ كنت الوحيدة التى اختارت آية من العهد القديم، وهى من سفر أشعيا ٤٠، ٣١:

وأما منتظرو الرب فيجددون قوة

يرفعون أجنحة كالنسور

يركضون ولا يتعبون

يمشون ولا يعيون[٢١]

وهو قول مأثور ما زال يرافقنى حتى هذه اللحظة ويقوينى.

وكذلك كنا نعرف – من الجدة إلى الحفيدة – العهد الجديد معرفة شبه كاملة، بل وتكفى لأن نلعب عليه ونستلهمه فى لغة الحياة اليومية. والمعنى هنا ترجمة لوثر للكتاب المقدس، التى كانت حبيبة وغالية علينا، ولم أستطع أن أفهم مطلقًا لماذا تعرض هذا الإبداع اللغوى الرائع، الذى أثر بعمق فى لغتنا الألمانية، "للتحسين" عبر ما يسمى ربما بالصياغات الصحيحة، وللمرء أن يرى اختلاف الصياغات فى قصة عيد الميلاد[٢٢]:

"Es waren aber Hirten auf dem Felde, die hüteten des Nachts ihre Herden..."

و:

"Auf dem Felde waren Hirten, die nachts ihre Herden hüteten..."

الكلمات نفسها ولكنها لا تحرك القلب. ويمكن ملاحظة مبدأ ترجمة النصوص المقدسة بطريقة جافة ما أمكن لدى الترجمات عن الأديان غير

المسيحية؛ فكم من ترجمات "حرفية" مملة للقرآن، ترجمات لا تدرى كيف إن تلاوة هذا الكتاب وحدها تحرك المؤمنين الذين يعتبرونه - مثلما أوضح نفيد كرمانى[٢٣] بطريقة سديدة جدًا - نموذجًا للجمال! أنا طراز قديم بما فيه الكفاية حتى أعطى مكانة مهمة لغير المدرك الموثوق به Numinosen فى النصوص الدينية؛ فكل نص دينى - يستوى فى ذلك عن أى مصدر جاء - هو شيء مختلف قليلاً عن لغة الصحيفة اليومية أو عن جدول مواعيد السفر.

ثم ثراء كتاب الأناشيد! وكيف كان يمكننا أن نبدأ دون أغنية "مُرْ أنت طريقك" هذه الأغنية المواسية التى كانت تهبنا العزاء بصفة متكررة فى ليالى الحرب وساعات الشك؟ ومازلت أتذكر عند الطيران:

هذا الذى يعطى السحاب والهواء والرياح

طرقها، وكذلك الأقدام والقطار

سيجد كذلك طرقًا

تستطيع قدماك المسير عليها

إنها إحدى الأغانى التى يمكن أن يلتقى على أدائها معتنقو الديانات المختلفة. حينما كنت أدرس فى كلية الإلهيات فى أنقرة؛ حيث كنت أعلم طلابى المسلمين - فيما أعلم - تاريخ الكنيسة، ترجمت لهم هذه الأغنية، وقد وجد كل منهم فيها أيضًا تعبيرًا عن عقيدته التى لا تشك فى الله الرحمن الرحيم. ويشبه هذا ما استطعت التأكد منه بالنسبة إلى أغانٍ كنسية أخرى، سواء أكانت الأغنية المشرقة "أمدح الرب الملك الجبار فى مجده" أم كانت الأغنية الضخمة " إلهنا العظيم نحن نقدسك". وأنا أعتقد أنه على هذا المستوى التعبدى يوجد نوع من الوحدة بين المؤمنين بكل الديانات. وانطلاقًا من هذه الأسباب كنت أنقل - بصفة متكررة - الأدعية والأناشيد من تراث إلى آخر. ألم تقرأ الفلاحة الكاثوليكية البسيطة من منطقة جبال الألب، التى شاركت أمى

حجرة المستشفى، بكل شكر كتيِّب Dein Reich komme "ستأتى مملكتك" (فى الطبعة الثانية: Dein Wille geschehe "مشيئتك تنفذ")، الذى رتبتُ فيه أدعية إسلامية تبعًا لنموذج "أبانا الذى"؟

وعندما كنت طفلة كنت أُعجب كذلك بشخصيات مثل كيرشـــانامورتى Krishnamurti[٢٤]، ثم بدأ الورع الصوفى للإسلام يبهرنى، وذلك من خـــلال ترجمة فريدريش رويكرت Rückert الشعرية للرومى.

طرق نحو الموسيقى

لا يكاد يستطيع أحد اليوم أن يتصور ما كان يعنيه اقتحامِ الراديو البيت للمرة الأولى، وجعله عالم الموسيقى مباحًا للجميع (وبالطبع مكّن من إيجـــاد مدخل إلى أخبار الشعوب الأخرى)، ما زلت أتذكر - لا بد وأننى كنت فـــى التاسعة - كيف نقلت "سلطة القدر" لفيردى Verdi، وياله من حدث بالنـــسبة إلى أمى التى كانت تحب فيردى! لقد كانت تملك شعورًا موسيقيًا رقيقًا جدًا، وكانت تتجاوب مع النغمات غالبًا بشكل غير معتاد؛ فبعد أحد الكونـــسيرات التى عزف فيها أولاً لهندمث[٢٥] ثم لهايدن، بدت لها موسيقى هايـــدن مثـــل نظرة من صالة جميلة مضاءة وسط منتزه غارق فى الشمس. لكن التنافرات الصوتية - وحالات كثيرة من النشاز الصوتى أيـــضًا - يمكـــن أن تحـــدث أمراضًا جسدية. أنا شخصيًا لى تجارب لونية رائعة عند ســـماع الموســـيقى الحديثة جدًا - أحمر سيكلامى[٢٦] وأزرق ياقوتى.

أولى ذكرياتى الواعية عن الموسيقى كانت زيارة عند بعض الأصدقاء الطيبين لوالدى، والذين كانوا يملكون جهاز جرامافون، وقد استمعت لـــديهم، فى المرات النادرة التى سمح لى كطفل بالذهاب معهما لزيارتهم، إلى عزفِ

على آلة الهارب من "مينون" Mignon، ولكن مما لا أنساه تلك اللحظة حينما غنى هاينرش شلوسنوس Schlusnus[٢٧] "حلـم خـلال الظـلام" لريـشارد شتراوس Strauß، وهى أغنية ما زلت أحبها حتى الآن حبًا خاصًا.

ولم يكن النجاح فى درس البيانو كبيرًا. فلم أعزف ريجاودون لبورسيل Purcell[٢٨] التى أجبرتنى عليها معلمتى الأولى، كما لم أؤدِّ الواجبات للمعلمة الثانية، وعاد "الفلاح السعيد" بحذائه الشتوى الممتلئ طينًا إلى البيـت وهـو مجهد وأبعد ما يكون عن السعادة. ولم أكـن أسـتطيع أن أعـزف حتـى مقطوعات يوهان سباستيان باخ المكتوبة للبيانو - كل ما فىَّ كان يثور على موسيقاه، ويستطيع المرء أن يصف ذلك بأنه حساسية ضد موسيقاه. وهكـذا كتبت بعد عشرات السنين (وليسامحنى الأصدقاء الموسيقيين!):

قال غلام فى باخاراخ:
من يجعلنى يقظًا ولو ب- "طيخ طاخ"؟
دهست سهوًا على أصابع الرجل،
والآن يلعب الوحش بقصد التشفى باخ!

عندما انتقلنا عام ١٩٣٦ إلى شقة جميلة فى شارع السد، كان سـكان الدور الأعلى يعزفون كل أسبوع شيئًا من موسيقى الحجرة، حتى إن الوالدين كانا يتمتعان بقطعهم الموسيقية الخاصة فى حجرة النـوم، ولكـن المـرأتين المسنتين تحتنا كانتا تملكان جهازى بيانو، وكانتا تعزمانى لأعزف معهمـا، ليس كواجب، ولكن حتى أتعرف على الموسيقى الكلاسيكية من خلال طرق أدائها على البيانو. كنا نعزف على جهازى البيانو أو بالأيدى الأربعة علـى بيانو واحد، ولأننى نوعًا ما على معرفة بالعزف من نوتة لم أرها من قبـل، فإننى قد تعرفت عبر هذا التنظيم النسبى والسهل نوعًا ما على الكثيـر مـن بيتهوفن وشوبرت وموتسارت، وعندما يعجبنى شيئًا ما بصفة خاصة كنـت أتدرب عليه مباشرة، وكانت المطالع الموسيقية لشوبان هى الأحب لدى.

عندما وصلت إلى الشرق فتنت بالموسيقى، وحتى الآن فإن بعض القطع الموسيقية المحددة من الطقوس المولوية مثل Dinle sözümü تكاد تضعنى فى حالة من نشوة الوصال. فى بعض ألحان هذا الرقص الدائرى تغنى هذه القطعة قبل الأخيرة، وهذا الغناء هو ما يجعلنى فى حالة من النشوة، وكم أستمتع وبشدة بالنغمات البسيطة "للإلهيات التركية" التى تنتهى بالذكر!

أما الموسيقى الفارسية الدينية فتفتنى بإيقاعاتها القوية، والتى تتبلور من خلال القوة الشديدة للدفوف الكبيرة، وكلما كان هذا أطول كلما كان أفضل. وبالنسبة للموسيقى الهندية الكلاسيكية فإن مساعدى فى هارفارد، ويدعى براين، قد فتح لى الطريق إليها. وينبغى للمرء ألا يسمع هذه الموسيقى من التسجيلات؛ فجاذبيتها الخاصة تتجلى فى ملاحظة العزف المشترك للموسيقيين، حركاتهم التنويهية، أيديهم سريعة الحركة، التقاء نظراتهم، وفى متابعة البناء الفنى الغنى لأحد الرجتيمات(٢٩)، وفى أنها تعلم النغمات التى تناسب كل ساعات النهار، وبصفة خاصة فى "الطبلة الثنائية" التى تكتم الأنفاس لسماعها. صحيح تبدو آلة الطمبورة - إحدى آلات موسيقى القرب، الفاعلة فى الخلفية، وكأنه من السهل العزف عليها، ولكن يجب أن يحاول المرء ولو لمرة فقط أن يعزف عليها. وأنا أتحدث بناء على تجربة لى؛ فأحد زملائى الباكستانيين العجيبين من كلية بوسطن أعدَّ لى على نحو ما آلة من طبق الطعام الخشبى، وكان ينبغى علىَّ أن أرافقه مرة أو مرتين، حينما يغنى - وهو مقلوب العينين غناءً ليس منغومًا جدًّا - الغزليات الهندية. لقد كان الوضع يبدو وكأن هذا الزميل كان معروفًا للشاعر الهندو- فارسى الذى كتب حوالى عام ١٣٠٠ يقول:

وتدع صرخاته المتصلة

للجبال صدًى منتحبًا

وقد قادني براين كذلك إلى موسيقى الكرناتاكا Karnataka، وهى الأسلوب الموسيقى الذى ظهر فى جنوب الهند، والذى يبدو أقل كآبة مقارنة بالتراث الموسيقى فى شمال الهند، وحينما استمعت إلى هذه الموسيقى للمرة الأولى تملكنى شعور فيل كبير سعيد ذى جرس صغير يتمشى ضاحكًا بجوار كوخ أبيض أسفل النخيل فى صباح مشمس. وقد فتنتنى حفلة "دخروباد" موسيقية للأخوة داجر Daggar المشهورين عالميًا، فى مقر السفير الهندى فى بون، لدرجة أننى جلست على الأرض لمدة ساعة ونصف الساعة دون أن أستند إلى شيء. ويعتبر الدخروباد، وهو أقدم أشكال الموسيقى الهندية، غريبًا جدًّا بالنسبة إلى المستمعين الأجانب. أو كيف كانت حفلة الناى الموسيقية فى منزل آنيتا فون كاربوتاله Karputala، والتى تعد راعية للفنانين الهنود فى دلهى؟ لقد وجد ترابطًا عميقًا مع الفنانين حتى إنهم عزفوا قرابة ساعة بدلا من الربع ساعة المحدد، وذلك أن الترابط بين الموسيقيين والمستمعين لا يمكن الاستغناء عنه لأجل نجاح حفلة موسيقية هندية.

وماذا ينبغى أن أقول عن الموسيقى الباكستانية الشعبية التى فتنتنى منذ زيارتى الأولى لشبه القارة؟ ومع مرور السنوات تعرفت على أغلب أهم الموسيقيين: "آلان فقير" ذو الموهبة التمثيلية الذى يمسرح بحب أغانيه السندية الشعبية، أو المغنية الرائعة "عبيدة بارفن" التى تعد مغنية أصيلة للشعر الصوفى من السند والبنجاب، وعازفو الناى المزدوج أو آلات الضرب المختلفة. لقد كانوا جميعًا جزءًا من حياتى، وقد أسعدونى وأثاروا عواطفى عبر السنوات. لم آتِ إلى باكستان مرة دون أن تنظم كارين فى بيتها حفلة موسيقية لى، وكثيرًا ما أتذكر قصة الرومى التى أعاد رويكرت حكايتها:

حكى أحدهم عن مولانا جلال الدين هذه الحكاية:

"الموسيقى هى صرير فتح أبواب الجنة".

وعليه تحدث المغفل الغبى البجح:

"لا يعجبنى من الأبواب هذا الصرير"

ومن ثم قال مولانا جلال الدين:

"أنا أسمع الأبواب حين تفتح،

أما أنت فتسمعها حينما تغلق!"

بيت مَلئ شعرًا

لم يكن منزلنا عامرًا فقط بالموسيقى، وإنما أيضًا بالشعر والأدب، وقد تعرف والداى أحدهما على الآخر عن طريق حبهما المشترك للأشعار. وذلك أن أمى، التى كانت بوصفها أول فتاة تترك قريتها وتذهب للعمل فى البريد، كانت قد سجلت نفسها قرب نهاية الحرب العالمية الأولى وبعد سنوات فى فاريل وبريمن للذهاب إلى نامور[٣٠]. وهناك رأى مساعد التلغراف ذو الشعر الغامق الفتاة الخجولة الرشيقة الشقراء، واكتشف بسرعة أنها ليست جميلة فقط، وإنما أيضًا كثيرة الاطلاع بل تشاركه حبه لفن الشعر. وبعد كل ألوان صعوبات ما بعد الحرب المقيدة تزوجا ونزحا إلى إيرفورت، المكان الذى كان قد نقل إليه أبى. وليس من العجيب أن حب الشعر قد حدد – ومنذ البداية – حياة ابنتهما.

كانت أمى تغنى لى أحيانًا أغانى باللهجة الألمانية الشمالية، وحتى الآن ما زلت أحب أغنية الأرنب الحزينة لكلاوس جروت Groth[٣١]:

الأرنب مارتن الصغير،

الذى يعبث...،

وهو عبث ينتهى بأن يقوم الثعلب بافتراس الأرنب المغتبط المتبختر، كذلك كنت أسمع بين حين وآخر الأغانى المرحة مثل "بقرة سيدنا القسيس" أو الأغنية العابثة السخيفة "بورلالا".

حينما كبرت كان أبى يقرأ عصر كل يوم أحد - حيث بدأ بكتاب إ. ت. أ. هوفمان Hoffmann[٣٢] "الوعاء الذهبي" ، ثم سار عبر الأدب الألمانى الكلاسيكى. وكان أبى بصوته الدافئ قارئًا رائعًا، وكانت أمى تتمتع أكثر عندما تسمعه يقرأ لها الدراميات أو تفضل أن تسمعه وهو يحكى لها العروض المسرحية مرة أخرى أكثر من أن تذهب إلى المسرح، وذلك لأن لديها القدرة على أن تحيي الأعمال بخيالها (وحالتى تشبه هذا). أصبحت الكلاسيكية الألمانية شيئًا مألوفًا لدى، وفيما بعد أضيفت إليها عدة مسرحيات فرنسية. وقد انتهينا عند مسرحية "المغامرات العجيبة لتارتارن من تاراسكون" لدوديه Daudet، وأصبح الجمل الوفى الذى سبح وراء البطل جزءًا من حديقة حيواناتى المتخيلة. وهذا ما حدث أيضًا مع عجل القمر، والرجل الذئب، وحيوان النازوبيم، وذلك لأن مورجنشتيرن Morgenstern[٣٣] كان كثيرًا ما يُقرأ، وما زال كتابه "أغانى المشنقة" يطربنى حتى اليوم. وقد اكتشفت بعد سنوات كثيرة أدب العبث الإنجليزى البارع لكُتّاب مثل إدوارد لير Lear ولويس كارول Carroll، وأصبحت معجبة باللعب الشعرى باللغة.

لأن أبى كان يملك ذوقًا وتفهمًا جيدًا للفكاهة، كان التقليد الهزلى Parodie ينتمى إلى أدبيات أسرتنا. وحتى اليوم أحب أن أزعج - بكل سرور - الآخرين من أصحاب الرزانة بأن أنشد "لوريلاى السكسونية" أو "طائر الأبيكوس" للين فويجت Voigt[٣٤]. ومما يسلينى كذلك إلى الآن جدًا كتاب جومبنبرج Gumppenberg[٣٥] "حصان الشعراء الألمانى" Teutsches Dichterroß الذى هو بمثابة التجميع الأنجح للتقليدات الهزلية الظريفة.

كنت أفتش فى كتب أبى المدرسية، التى وجدت فيها أشعار القرن التاسع عشر التى لا تكاد تكون معروفة اليوم. وكنت شغوفة بالإيقاع القوى لقصائد شيللر الدرامية (بالمناسبة فإن شيللر مقارنة بجوته قد ترجم كثيرًا جدًّا إلى اللغات الشرقية، وذلك لأنه أكثر درامية؛ مما يعنى أنه سهل التناول لأحد الأجانب). وقد وجدت طريقى إلى جوته متأخرًا بعض الشىء، ثم عكفت عليه بتركيز شديد، وبمرور الوقت اكتشفت انعكاسات الشرق فى شعره.

لم أعد أذكر الكثير من الأدب الذى قرأناه فى المدرسة، وما زلت أذكر فقط قراءة لآجنيس ميجيل Miegel[٣٦] ؛ ففى المدرسة قرأنا لها – "نساء من نيدن" Frauen von Nidden و"النبلاء" Die Nibelungen – أشعارًا كانت تتركنى وأنا مقشعرة. ولكن كان هناك أيضًا "أجنيتا الجميلة" إحدى القصائد المحببة إلى أمى، وكذلك كانت توجد "أسطورة الفارس مانويل"؛ ذلك الموضوع القديم جدًّا عن الحلم والحقيقة الذى يرجع إلى الأساطير الهندية، وكانت تمثل استهلالاً لكتاب هاينرش تسيمر Zimmer الرائع عن المايا. الكثير من التقاليد التراثية تعرف قصة الشخص الذى وضع رأسه فى الماء، وخلال لحظات عاش حياة كاملة، ثبت فيما بعد أنها حقيقة. وقد استعار التراث الإسلامى هذا الموضوع حتى يوضح للمشككين معجزة المعراج النبوى. "رحيم كل العالم، ألخبر بالذى يبدو؟" يسأل الملك فى نهاية قصيدة آجنيس ميجيل الدرامية. أليس صحيحًا – كما قرأت فى طفولتى – أن "الناس نيام فإذا ما ماتوا انتبهوا"؟ ياله من حلم، هذا الذى أنشد فيه كليمنس برينتانو Brentano[٣٧]:

عندما يحلم النساج الكسيح بأن ينسج،
وتحلم القبرة المريضة أيضًا بأنها تحلق،

...

وماذا يبقى إذن؟

تأتى الحقيقة العارية مسرعة

...

يجرى الحلم، يصطدم بها، ويقع متألمًا

...

وكيفما كان دائمًا، عندما أسافر عبر الطبيعة الصخرية لمنطقة الهندوكوش، فإننى كنت أتصور رؤية ملكة الجبل، التى تزوجت الفارس مانويل فى أحد أحلامه، فى قصرها السحرى.

بالطبع كانت آنا زيدل Seidel[٣٨] موجودة فى كتب قراءتنا من خلال كتابها المسلى "العطر الناعم" Lindenduft الذى تعاد طباعته بشكل دائم. ورغم ذلك كان حبى لأبياتها القصيرة الأخرى أكبر. بالنسبة لذلك الزمن كان"الطفل المتمنى" Wunschkind أحد أكثر الكتب مبيعًا، ولكنى لم أكن أحبه، وفى مقابل ذلك أحببت روايتها المتأخرة "ليناكر" Lennacker التى تمثل قصة أسرة أحد القساوسة خلال اثنى عشر جيلاً، وهى لذلك تقدم نظرة ممتازة على تاريخ الكنيسة والأفكار اللوثرية، وفى فصلى البداية والخاتمة ترينا الكاتبة قدرتها على التصوير وخاصة النساء العجائز الورعات، من خلال وجهة نظر الضابط الشاب العائد من الحرب، والذى قابلهن فى دار النساء المسنات: نساء ذبل شبابهن، "ولم يأت إليهن ملاك الرب مرة، مع أنهن، فيما يعلم، ينتسبن كلهن إلى أسر قساوسة".

كنا نملك نسخة من كتاب شير Scherr "تاريخ الأدب العالمى" Geschichte der Weltliteratur الذى كنت أقرأ فيه بكل سرور. وأتعجب اليوم من أن هذا العمل الذى ظهر للمرة الأولى عام ١٨٨٥ اشتمل على اسمى المتصوف السندى شاه عبداللطيف والأوزبيكى شيبانى. عندما كنت فى

الرابعة عشرة اشتريت بمناسبة عيد ميلاد أبى من أحد متاجر الكتب القديمة كتاب زورجل Soergel "شعر وشعراء العصر" Dichtung und Dichter der Zeit (١٩١١) الذى التهمته طبعًا فى لهفة وشغف. وما زلت أتذكر كيف شغفتنى أبيات ألفريد مومبرت Mombert[٣٩]. "لقد كان مساءً عندما ضربت النفير"، وإننى فتنت لفترة من الزمن بصوره البارعة، كذلك اهتممت بأوتو تسور ليندا Otto zur Linde[٤٠]، والحقيقة أننى اكتشفت فقط فيما بعد أشعاره الأكثر تأثيرًا، ومنها قصيدته الرهيبة المقبضة حول الوحدة:

عندما تُهجر؛
فإن هذا الذى يجعلك مروَّعًا:
هو أن هجرانك
يصبح شبحًا.

هذا الذى لا يسير مطلقًا بجانبك،
يسير على قدم غير مسموع
دائمًا ودون انفصال
هنا بجوارك.

فى أى مكان تذهب إليه،
لا شىء يمكن أن تمسكه يدك،
يذهب خفيفًا مبهمًا
هنا بجوارك...

استيحاشك

مثل ثوب واسع

يمسح بحاشيته السفلى

على القمر

استيحاشك

(شبح نهارى وليلى)

يذهب كذلك عبر النجوم،

ولكنه بجوارك.

كانت أمى تحب مؤلفات هيلينا فويجت ديتريش، ولكن لم يُسمح لى بقراءة رواية Eifelromane لكلارا فيبيج Viebig[٤١] بسبب صورها الواقعية جدًا (بالنسبة للعلاقات آنذاك). كنت أتصفح أبيات الحب الحارة لريكاردا هوخ Huch[٤٢]، وكانت قصائدها الدرامية وكذلك قصائد لولو فون شتراوس وتورنى Strauß und Torney[٤٣] تحركنى وتفزعنى، ولكنى لا أنسى سطرًا من عمل لشاعرة ربما نسيت اليوم ومنذ أمد، حيث تقول:

"هكذا تعرف أن الأنثى

شبت فى القرن التاسع عشر!"

تحدثت بعين كبيرة وأطلقت عليه النار.

نعم، هذا القول ليس شاعريًا جدًا، ولكنه مؤثر جدًا بالنسبة لعصر كانت المرأة الألمانية تلقن فيه يوميًا أنه ينبغى عليها أن تحضر إلى الحياة الكثير من الأطفال الشقر. وفى اتحاد الفتيات الألمانيات كنا نغنى لبوريس فون مونشهاوزن Münchhausen[٤٤] "فى عنف تنطلق الأجراس من برج برنفاد"،

و"على الجانب الآخر للتل تتصب خيامهم"، فى الغالب دون أن تفهم معنى هذه الأبيات على الوجه الصحيح. بكل سرور كنت أقرأ بعض قصائد مونشهاوزن الدرامية، وكذلك وصفه الشعرى العذب ليوم الحصاد فى فينديش لوبا، صورة حقيقية من الحياة اليومية لتورنجن، وكنت كذلك مفتونة - وما زلت - بقصيدته "شجيرة بنات النار".

كذلك عندما كنا نُزار- وهو ما لم يكن يحدث كثيرًا - كان أبى يقرأ عن طيب خاطر، وكنت أسمع إيقاع الأبيات من حجرة الأطفال. وفى مثل هذه الأمسيات كان الشعر الحديث يُلقى كثيرًا، على سبيل المثال شتيفان جيورج George[٤٥] - ليست أشعاره التى تتضمن رؤيته للعالم، وإنما أشعاره الرائقة الصافية حول الطبيعة، والتى ما زالت بالنسبة إلىّ حتى اليوم معاصرة:

النل، حيث نتجول، يقع فى الظل

أما الآخر هناك فغارق فى الضوء...

كان ريلكه Rilke - على نحو خاص - ينشد بسرور. كانت أشعار ديوان "حديقة لوكسمبورج" Jarden de Luxembourg مثل: مراجيح الفيل الأبيض، الفهد الأسود ويأسه اللانهائى "خلف القضبان الحديدية" تؤثر على القراء. وأصبحت طيور الفلامنجو جزءًا من تفكيرنا. كذلك كان الأمر بالنسبة لبعض الأبيات من "كتاب الساعات" Stunden-Buch، (أما Cornet[٤٦] الذى كان بمثابة كتابًا شبه مقدس لدى آبائنا؛ فلم أكن أحبه). وعندما أصبحت أكبر سنًا أثارتنى كيفية استخدام ريلكه فى بعض هذه الأبيات لصيغ تبدو وكأنها تأتى مباشرة من التصوف الإسلامى مثل قوله: "وماذا ستفعل، إلهى، عندما أموت؟". قد تكون مثل هذه الصيغ قد كتبت أيضًا تحت تأثير إنجيلوس سيلزيوس Silesius[٤٧]، ولكنها تشبه بالنسبة للمستشرقين وإلى حد كبير ما

كتبه الحكيم الأندلسى الكبير ابن عربى (ت ١٢٤٠م) وتصوره لله الذى خُلق فى أفكار الناس.

على كل حال فمما لفت نظرى لدى ريلكه فهمه العميق للعالم الإسلامى، وهذا ما يتضح فى خطاباته من إسبانيا وتونس. قلة من الشعراء فقط هم الذين فهموا سر محمد بشكل جيد، كما فعل هو فى "دعوة محمد"؛ حيث يقول: "... وصار بالتأكيد شخصًا قد قرأ..."، وعرف الكلمة الإلهية قبل أن يخبره جبريل إياها. وهل يوجد تشخيص مطابق للفن الفارسى أكثر مما فعل فى "سوناتا إلى أورفيوس" Sonetten an Orpheus؛ حيث يصف التميز النقى للشعر الفارسى "بمثل حديقة من أصفهان أو شيراز صُبت فى زجاج"، وكذلك شرح فى هذا الشعر مصير الخيط الحريرى الذى أُمر من قبل النسّاج الكبير بأن يبقى فى مكانه المختار له؛ لأنه من غير المسموح له أن يحل نفسه من الطراز الذى وضع فيه؛ لأن "الكل، السجادة المشهورة، هو المقصد؟" دائمًا ما تظهر لدى ريلكه - سواء فى "مذكرات مالته لوريدس بريجه" Aufzeichnungen des Malte Laurids Brigge أو فى الأشعار - فكرة موته الخاص؛ فالموت، كما قال رويكرت أيضًا فى "أغنيات الأطفال الموتى"، هو "ثمرة الحياة"، أو كما أخبر الرومى، "يربيه المرء تحت إبطيه"، أو هو كما شُرح فى التراث "منسوج من أعمال الناس".

لم نقرأ "مرثيات دوين-و" Duineser Elegien، ولكن بعض الأشعار المفردة التى واست أرواحنا، عندما يشعر المرء أنه "متروك وحيدا فى الآلام"، ولكن أجمل أشعار ريلكه بالنسبة لى تأتى فى نهاية "مذكرات مالته":

أنت يا هذه التى

لا أقول لها، إننى ليلاً

أرقد باكيًا،

وجودك يتعبنى

مثل مهد.

أنت ياهذه التى

لا تقول لى، متى تستيقظ

لأجل خاطرى:

كيف يحدث حينما نحمل هذه البهجة

فى أنفسنا

دون أن نخرسها؟

انظرى العاشقين،

حينما يبدأون البوح،

سريعا ما يكذبون.

...

أنت فقط التى تبدعينى.

أنت فقط التى أستطيع تغييرك.

برهة تكونين أنت.

ثم يكون مرة أخرى الخرير،

أو تكونين عطرًا دون فضالة.

أخ، من بين ذراعى فقدتهم جميعًا،

فقط أنت، دائمًا من جديد تولدين:

لأننى لم ألامسك مرة،

أحتفظ بك بشدة.

وكان الشاب هوجو فون هوفمانستال Hofmannsthal[٤٨] هو الشاعر المفضل لدى أمى. وبالنسبة لى ما زال يتكرر فى كل فصل ربيع سحر نسيم الربيع الذى وصفه بقوله:

ويجرى نسيم الربيع

خلال طرق الأشجار الجرداء...

حيث يوفق الإيقاع المتغير قرب النهاية فى وصف الحركة الخافتة للبراعم، ويا له من سحر ذلك الذى يوجد فى قصيدة "الاثنين"! وما زلت أتذكر اليوم - لا بد وأننى كنت فى العاشرة - حينما وقعت فى إحدى المجموعات الشعرية على أول أبياتها التى تقول:

بعطور رمادية فضية، كان وادى

الغسق ممتلئا وكأنما

القمر يسقط خلال السحاب...

كانت سفينة هوفمانستال ذات "الشراع الأصفر الضخم الذى صنع بشكل غريب" تظهر بشكل دائم فى أحلامى. وقد رسمتها آنذاك فى كراسة المدرسة.

كنت أقرأ الأشعار وأحفظها مباشرة، ومن بين الشعراء الذين ملأت أصواتهم طفولتى وصباى كان هناك شاعر مهم بشكل خاص هو فريدريش رويكرت Rückert. بالطبع كنا نغنى "أغنية الأطفال عن طيور الصيف الخضراء"، ونتعلم عن "الشجيرة الصغيرة التى أرادت أوراقًا أخرى"، وكان

"برباروسا العجوز" معروفًا لنا، ويبدو لكل فرد أنه يمكنه أن يغنى أغنية السنونو "من أيام الصبا...". كان ديوان "ربيع الحب" Liebesfrühling لرويكرت أحد أحب المجموعات الشعرية فى القرن التاسع عشر، ومن الذى لا يعرف لحن شوبرت Schubert لقصيدة "أنت الراحة" أو "اضحك وابك فى كل الأوقات"؟

ووجدت فى كتب أبي المدرسية بعضًا من "السونيتات العنيفة" Geharnischten Sonette، وتوجد تقريبًا فى كل أنطولوجيا قديمة مقطوعات من "حكمة البراهمة" Weisheit des Brahmanen. وكانت بداية القصة تكون أحيانًا حكمة فلسفية وأحيانًا تكون تقليدًا هزليًا:

كان رجلاً يسير فى بلاد السريان

ويقود جملاً من الزمام...

ثم اكتشفت ترجمات رويكرت عن اللغات الشرقية المختلفة، وفى البداية لم يقع جزء من "مقامات الحريرى" من الفتاة الصغيرة موقعًا حسنًا، ولكنه أثار إعجابى عندما تعرفت على الترجمة الكاملة لهذا العمل النثرى العربى المعقد جدًا. وبعد عقود عدة درست فى بون فصلا دراسيا عن الحريرى (ت ١١٢٢م) وطلبت من الطلاب أن يقارنوا ترجمتهم الحرفية بترجمة رويكرت الحرة – وقد فاق الشاعر الألمانى الكاتب العربى فى الألعاب اللفظية الطريفة، ودون أن يزيف المصطلحات القانونية والثيولوجية. وبلا شك توفر بعض ألعابه اللفظية مثل:

Du gehörst zu den Philologen,

Die da heißen, weil viele logen,[٤٩]

أنت تنتسب إلى الفيلولوجيين،

الذين هكذا يسمون لأنهم كثيرًا ما يكذبون.

فى بعض الأحيان توصيفًا مناسبًا لبعض الزملاء فى الحياة الأكاديمية.

أما أكثر ما فتننى فكانت الترجمات الشعرية الحرة الأربع والعشرون من "ديوان شمس تبريز" لمولانا جلال الدين الرومى. هذه الترجمات الشعرية - التى نشرت لأول مرة عام ١٨٢٠ - كتبت فى الشكل الشرقى للغزل، أى من خلال قافية "واحدة" مطردة، وبذلك أدخل هذا الشكل الشعرى إلى الألمانية، بل أصبح شكلاً محببًا - وكذلك الشكل الرباعى الفارسى "a x a a" - فى القرن التاسع عشر. رغم أن الجزء الأكبر من ترجمات رويكرت الشعرية لغزليات الرومى تعتمد على ترجمة همر - بورجشتال Hammer-Purgstall (٥٠) فى كتابه "تاريخ البلاغة الفارسية" (١٨١٨)، إلا أن هذه الترجمات قد جاءت أقرب إلى شكل وروح الأصل أكثر من أغلب المحاولات المتأخرة والمستمرة حتى اليوم، بل ويضاف إلى ذلك أن "المترجمين" لا يكادون يفهمون شيئًا من صور اللغة الفارسية، وأقل من هذا أيضًا ما يفهمونه من التصوف الإسلامى. رويكرت عرف الاثنين، وقد ظل لذلك رفيق سفر بالنسبة إلىَّ، وما زالت جملته المركزية " شعر العالم هو تسالم العالم" تنعش خيالى وتجعلنى أحلق عاليًا. وقد أسعدنى أن أعد بمناسبة مرور مائتى عام على عيد ميلاده فى عام ١٩٨٨ لدار نشر Insel طبعة لأعماله فى مجلدين، وأن أنشر لدى Herder ترجمة موجزة له. وقد حاولت منذ فترة صباى مرة بعد أخرى أن أُعرف، ليس فى الغرب فقط وإنما فى العالم الإسلامى أيضًا، بعمل هذا الوسيط الذى لا يكل بين الشرق والغرب، ولكن لم يستطع المستمعون فى اليمن وفى إيران، فى البنغال وفى الباكستان، أن يدركوا كيف أن شاعرًا مبدعًا، لم ير عربيًا أو فارسيًا أو هنديًا وجهًا لوجه، ثم استطاع رغم ذلك أن يستشعر روح وصياغة شعوب أجنبية، وأن يعكس خصوصياتهم الشعرية مثل مرآة، وحينما كنت أتحدث مرة فى

بنجلادش عن ترجمات رويكرت عن السنسكريتية وذكرت بيت "الجيتاجوفيندا" الرائع:

تحت شجيرة العطر،

على نسيم يامووناس،
تنتظر غابة أكاليل...،

وقف أحد المستمعين، وكان لا يعرف الألمانية، وأنشد المكان المذكور فى الأصل – لقد تعرف عليه من خلال إيقاع الترجمة.

ولكن هذا ليس هو المكان المناسب للإفاضة فى الحديث عن العدد الهائل لأشعار رويكرت وترجماته عن عشرات اللغات، و إليه ترجع أيضًا أفضل ترجمة (ألمانية) للقرآن، والتى لم تكتمل للأسف. وكذلك كانت تأملاته حول اللغات والترجمة تعبر تمامًا – وما زالت – عمًّا فى نفسى. وماذا تكون الترجمة إذن؟

لتحاول بنعومة أن تسترق السمع إلى الأرواح،

وكيف تغير، وهى هائمة خُفية، ثياب الكلمات.

فالكلمة الشعرية عبارة عن رداء، ولا يسمح للمرء، مثلما يحدث بكل سهولة، أن يحول الثياب الحريرية الغالية لأحد الأبيات الفارسية إلى صوف خشن أو إلى "مينى جيب" حديث ضيق، ودائمًا ما كانت أبيات رويكرت تواسينى:

مسكين من كان شاعرًا ولغويًّا مثلى،

فهو لا يستطيع إلا أن يترجم مثلى.

ما ينقص لغويًّا، تغفره لك الحرية الشعرية،

والفن الشعرى تهديه أنت للغوى.

ويتحرك المرء منفعلا بالحزن الجميل الناعم "لأغانى الأطفال الموتى"، وذلك لأن هذا الألم النبيل قد عبر عنه فى صور حنونة حالمة (توجد قرابة خمسمائة أغنية وليس فقط ذلك العدد القليل الذى لحنه جوستاف ماهلر Mahler[٥١]). وكم من مرة فيما بعد كررت تلك القصيدة التى يتغنى فيها بإهمال الحظ:

قلب، أنت الآن أسن، لكنك غير فطن.

تتمنى من يوم ليوم.

ما لم يحضره الربيع المزهر

تتمنى أن يحضره الخريف.

الهواء المُلاعِب لا يترك الشجيرة،

وإنما يجاملها ويلاطفها –

تنشر الورود فى الصباح نسيمها،

وفى المساء ينثر أوراقها

الهواء الملاعب لا يدع الشجيرة

حتى يجردها.

كل شيء، يا قلب، ريح ونسيم،

كل ما عشناه وأبدعناه.

فى عام ١٩٦٥ منحت جائزة رويكرت التى وزعت لأول مرة من قبل مدينة شفينفورت، وفى السنوات التالية عشت كثيرًا مثل هذه الاحتفالات فى

قاعة البلدية ذات الزينة الاحتفالية، وسعدت بلقاء الكثيرين من أحفاد رويكرت.

لم تكن جائزة رويكرت هى الجائزة الأدبية الوحيدة؛ ففى عام ١٩٧٤ منحتنى أكاديمية اللغة والشعر جائزة يوهان هاينرش فوس Voß[٥٢] لترجماتى، وبعد قليل حصلت فى جراتس على ميدالية همر - بورجشتال الذهبية بمناسبة مرور مائتى عام على ميلاد الرائد الاستشراقى الكبير جوزيف فون همر - بورجشتال الذى يدين له جوته بالكثير، والذى كان أستاذًا لرويكرت.

الخدمة الإجبارية فى موردورف

"موردورف!" أصبحت أمى حمراء ممتقعة اللون كما لو أن أحدًا قد صفعها، وذلك لأن مدينة موردوف التى لا تقع بعيدًا عن أورش (شرق فريزنلاند) قد أسست من قبل فريدرش الأكبر كمستوطنة للمساجين والغجر، ومن ثم كانت ذات سمعة سيئة جدًا، وتوجد قصيدة بلهجة شمال ألمانيا لموريتس يان Jahn[٥٣] تعكس كل فزع السكان من بابل المجرمة هذه. هناك كان يجب علىَّ أن أقوم بتأدية خدمتى الإجبارية لمدة ستة أشهر! وذلك لأن المرء لم يكن ليقبل فى الجامعة دون الخدمة الإجبارية. ألم يكتب مارتن هيدجر Heidegger[٥٤] فى عام ١٩٣٤: "أول ارتباط يكون مع الجماعة الوطنية، وهذا الارتباط يؤكد ويجذر فى الوجود الطلابى من خلال الخدمة الإجبارية."

إذن أخذنا نفسًا عميقًا وسلمنا أنفسنا إلى ما ليس منه بد.

كانت البيوت الخشبية الاحتياطية التى أنزلنا - نحن فتيات الخدمة - فى حجراتها الكبيرة تقف فى شكل مستطيل وحولها الحشائش، وكانت "شقتنا"

عبارة عن سرير بمرتبة من القش ودولاب معدنى. كانت الفتيات من مناطق مختلفة، وأصول مختلفة. بالنسبة لبعض الفتيات البسيطات كان الوقت يناسبهن، لأنهن يلتقين هناك بفتيات أخريات ويرين مناطق لم يكن ليرينها. وهناك وجدت آنّا السمينة التى كانت تغنى بصوت مرتفع وهى تمسح الأرض - وكم كانت تمسح بنشاط -:

مملوءة باليأس

أنهت الحياة

فى مصرف المياه...

وهناك كانت أيضًا مارية الحنونة من منطقة الرور(قدر الفحم)[٥٥]، وكذلك وجدت خريجات ثانوية ذوات طموح رياضى أو لديهن مشاكل نفسية، ولكن هيلن الفريدة ذات الشعر المجعد الغامق من مدينة أنسباخ فاقتنا جميعًا فى الذكاء الحياتى، وفى الجاذبية الآسرة. كانت الوحيدة التى تستطيع أن تقول ما تريده للمشرفات، وذلك لأن أحدًا لا يستطيع أن يكون سيئًا معها، وقد تصادقنا بسرعة، وكانت صداقة استمرت ستون سنة، ستون سنة من الثقة التى لم تشبها شائبة حتى وفاتها. أصبحت هيلن طبيبة نابغة ومشخصة بارعة، وكان منزلها فى نورنبرج؛ حيث كانت تمارس المهنة مع زوجها الذى يضارعها لطافة، ملجأ لى المرة بعد الأخرى عندما أتعرض للمشاكل. لقد كانت صداقتى لها هى المكسب الحقيقى خلال فترة الخدمة الإجبارية.

كان اليوم يبدأ بالرياضة الصباحية والقسم للعلم. كانت المشرفة الثانية تحب نيتشة Nietzsche[٥٦] وتتبرى مصرصعة: "شىء مربع فظ أفضل من لاشىء مدور ناعم!" لقد "كانت" بالفعل شيئًا مربعًا، ولكنى لا أعرف أفضل من أى شىء... وبعد الإفطار كنا نذهب بدراجاتنا إلى أماكن عملنا، إلى أوريش أو إلى إحدى القرى فى منطقة المستنقعات، وهناك استخدمنا كمساعدات فى الأعمال المنزلية، ولكنى أشك فيما إذا كنت مفيدة جدًا. بسرعة

أصبحت يدى التى ألفت الكتب ممزعة بالكامل، وذلك لأنه كان ينبغى علـــىَّ أن أغسل ملابس البنائين الوسخة فى ماء بارد (لم يكن يوجد غير ذلك) على لوح دعك الغسيل. كذلك حُجزت فى حجرة الكواء، حيث كان ينبغى علـــىَّ، بعد أن أحرقت بلوزة بيضاء، أن أكوى ملابس النوم المخططة لمـــدة ســـتة أسابيع بطولها، ولكن الأسوأ من هذا أن صودر كتاب قواعد اللغة العربية من دولابى المعدنى - لا ينبغى لفتاة ألمانية أن تتعلم العربية! ولكنى طلبت مـــن والدّى أن يبعثا لى مباشرة بكتاب عربى آخر. وفى لحظة من لحظات الشك كتبت إلى إمام مسجد برلين - الذى ينتسب إلى لاهور - عما إذا كان يـــرى إمكانية أن أقضى عاما لدى أسرة مسلمة فى لاهور؛ وذلـــك حتـــى أعمـــق معرفتى بالعربية وأتعرف بشكل أفضل على الإسلام الهندى، ولكـــن كـــان المسكين لا علم له. ولم يكن لأحد منا - نحن الاثنين - أن يخمن أنه فى عام ١٩٨٢ سيطلق اسمى على أحد أجمل شوارع لاهور على القناة: "خيابان اين ميرى شيمل". بالمناسبة فإن شارع جوته يوجد على الضفة الأخرى للقناة.

كانت الأيام تجرى إلى وجهتها، وفى المساء كنا نغنى أو نتحادث، وفى إحدى المرات كان علينا أن نسمى كتبنا المفضلة، بينما ذكرت هيلين كتـــاب "الآلهة البيضاء" Die wießen Götter لإدوارد شتوكن Stucken (ولم يكن ذلك عن اهتمام حقيقى، وإنما فقط بهدف أن تزعج المشرفة)، ذكرت بالطبع شيئًا من عالم الشرق. وقد قدرت للمشرفة بشدة أنها قالت باختـــصار ووضـــوح لإحدى الفتيات التى اختارت كتاب هتلر "كفاحى" Mein Kampf إنها لا يمكن أن تصدق هذا!

أحيانًا كنت أذهب وهيلين فى إحدى العصارى الحرة إلى المروج كى نقرأ الأشعار، وكان ريلكة هو المفضل لدينا، وفى إحدى المرات تيسر لنا فى يوم أحد أن نسافر إلى بوركم، وأن نزور الخالة يوهنه التى يتميز تـــدبيرها المنزلى الرقيق بشكل محبب عن حياتنا اليومية. وفيما خلا ذلك فإن واجباتنا

اليومية، المسح والغسل، كانت تسير بشكل مطرد. ولأن ربة المنزل في شرق فريزنلاند تتمنى أن ترى قرص موقدها (الذى يقاد بالفحم أو بطحالب المستنقعات) لامعًا كالمرآة، كان التلميع أيضًا جزءًا من واجباتنا، وأحيانًا كان ينبغى أن تنظف حظيرة الخنازير، ولكن وفى المقام الأول كانت الفاصوليا هى ما اهتممت به: جنى الفاصوليا وتقشيرها، جمع الفاصوليا وتقطيعها، جمع الفاصوليا ونشرها لتجفيفها. هكذا كان يعد خزين الشتاء، ومع إعداد كل حبة فاصوليا كانت ساعة التسريح المنشودة تقترب.

على كل حال هكذا كنت أفكر، ولكن فى ضحى اليوم الأول من سبتمبر ١٩٣٩ استدعينا إلى مقر المعسكر، واستمعنا جلوسًا على الحشائش إلى إعلان الحرب. فيما بعد سألنى البعض أحيانًا، عما إذا كنا قد هللنا واحتفلنا، وذلك مثلما يحكى البعض عن الجنود فى بداية الحرب العالمية الأولى؛ حيث إن بعض الشعراء رقيقى المزاج مثل ريلكه كتبوا أبياتًا بطولية. الاحتفال؟ أخ، لا، ليس فى معسكرنا. لقد كانت الفتيات يفكرن بكل إشفاق واغتمام فى أشقائهن، وفى أصدقائهن، وفى مستقبلهن، وكنت أفكر فى والدى وأثاثهما الذى وضع فى إيرفورت - تحت دوى إعلان الحرب - فى سيارة نقل الأثاث، وذلك لأنه كان يجب على أبى أن يبدأ عمله فى برلين فى أى يوم.

بالطبع نحب ألمانيا، وكنا كثيرًا ما نغنى نشيد رودولف ألكسندر شرودر Schröder[٥٧]:

وطننا المقدس، فى الأخطار

يلتف أبناؤك حولك...

ولكن بالنسبة إلينا وإلى الناس الذين عرفتهم وعشت معهم كانت ألمانيا - بكل بساطة - هى الوطن، الطبيعة والشعر، الموسيقى والرسم؛ على الأقل عندنا فى المنزل، وينتمى إلى ذلك أيضًا العالم الواسع، وكانت اللغة الألمانية

هى تراثنا الأغلى، وكانت - كما قال جوته مرة - سوقًا تلتقى فيه آداب كل الشعوب. سندافع عن وطننا، ولكننا لن نهاجم الآخرين، ولكن كيف كنا سنعلم أن مصطلحنا للوطن سيستعمل ويُملأ بمحتوى غير معروف لغالبيتنا نحن الشباب ويحرف ويستخدم لغرض سيئ؟

كنا نجلس هناك متحجرين حتى رن صوت "الشيء المربع" معلنًا: "أخ يا بنات، الآن يمكنكن حقًا أن تخدمن قائدنا لفترة أطول!" ومن كان يريد مثل هذا؟ لقد كنا - نحن الحاصلات على الثانوية - نتوق إلى أن يسمح لنا أخيرًا بالدراسة؛ فدارسات الطب سيستلمن قريبًا التصريح ليسافرن إلى دراستهن - المهمة للحرب - وكانت هيلين من بينهن، ولكن ماذا يمكن لمستشرقة أن تفعل؟

وقد وجدت أمى نصيحة؛ ففى برلين اتصلت بأستاذ علم الصحافة أميل دوفيفات Dovifat الذى تعرفه منذ سنوات الصبا، وقد نصح بدراسة العلوم الطبيعية، وكان فى هذا النجاة. كانت درجاتى فى مواد العلوم الطبيعية ممتازة، وبسرعة حلمت بأن أدرس مخطوطات العلوم الطبيعية العربية، وأن أعمل قبل كل شيء على علم المعادن، وهو علم أحبه بوجه خاص. وقد نجحت الخطة، وهكذا سافرت - فقط لإزعاج المشرفات - فى صباح غائم من شهر أكتوبر، وفى الحقيبة شهادة تسريح لم تكن بالضبط من الدرجة الأولى. وربما كانت هذه الشهادة بالإضافة إلى شهادة ليست أقل فى "عدم المديح" من اتحاد الفتيات الألمانيات BDM فى إيرفورت، سببًا فى أننى لم أضم، مثل أغلب الفتيات فى مثل عمرى، تلقائيا فى الثامنة عشرة،إلى الحزب. "ومن يعرف، ما الفائدة من هذا" قالت أمى، وكانت حكيمة مثلما هى فى جميع الأحوال.

برلين، دراسة فى زمن الحرب

لحسن الحظ كانت الكلية الفلسفية فى جامعة برلين تحتوى على العلوم الإنسانية والطبيعية، وبذلك استطعت أن أحضر الساعات الست الواجبة فى الفيزياء والكيمياء ثم أزور فى الوقت نفسه العلوم الاستشراقية.

ذهبت فى البداية إلى فالتر براون Braune، ولكنى وجدت أن "لا اهتمام لديه بامرأة صغيرة تريد أن تتعلم العربية"، وهكذا لم أره مرة أخرى، ولم تكن ملاحظة ريشارد هارتمان Hartmann[٥٨] (باللهجة الجميلة لإقليم شفاب[٥٩]): "والآن نقرأ أبا يوسف" مغرية لى أيضًا، وذلك لأن "كتاب الخراج" للقاضى الإسلامى المبكر لم يكن على أية حال مغريًا لى، وهكذا اخترت درس قراءة الصحف الحديثة، ووجدت نفسى فى فصل الشتاء الدراسى لعام ١٩٣٩ فى الساعة الثامنة صباحًا مع فالتر بيوركمان Björkman بمفردى. وكان بيوركمان، الذى أصبح بعد عقد ونصف زميلاً لى فى أنقرة، فيلولوجيًا متفوقًا وموثوقًا به على الإطلاق، ولكنه كان دون خيال، ولكن أيضًا دون خطأ، ويكاد يكون بريئًا ساذجًا بالنسبة لحياة أكاديمية ليست خالية بلا ريب من الدسائس. ولايزال بعد أربعين سنة يتذكر أنه كان حزينًا لأننى لم أتعرف على صيغة نحوية صعبة! وفى هذا الفصل الدراسى الشتوى كرست كل اهتمامى وحبى لمحاضرات إرنست كونِل Kühnel[٦٠]عن الفن الإسلامى. وقد غامرت قبل عيد الميلاد بالذهاب إليه لأسأله نصيحة. وما زلت أتذكر ذلك، كما لو أنه قد حدث اليوم: "كنت أرتدى بلوفرًا اشتغلته بنفسى، أحمر اللون وذو رقبة بيضاء، وبعد أن أطلعته على كتابى الذى صنعته بنفسى "أرض النور"؛ ابتسم وقال لابنة السابعة عشرة: "آنسة شيمل، اتركى لو سمحت هذا العبث مع العلوم الطبيعية! قيدى نفسك لدراسة اللغات العربية والفارسية والتركية وفى محاضراتى، وإذا ما حصلتى على درجة الدكتوراه ستصبحين مساعدة لى!" وبذلك كان مصيرى قد تحدد.

وبذلك عدت بالتأكيد إلى أبى يوسف، ولكن أيضًا إلى كتب رحلات مثيرة من القرون الوسطى لتجار عرب إلى أوروبا، وتعلمت الفارسية لدى متخصص فى اللغة الفارسية الوسيطة، ولذا لم تنل الفارسية الحديثة العناية الكافية. وأقدمت فى الشهور الثلاثة التالية على المطالعات التركية. كذلك كان لدى زملاء الدراسة الأحسن استعدادًا صعوبات مع أسلوب أوليا جلبى، العالم الذى قام بالرحلات الأوسع والأكبر فى القرن السابع عشر. وآنذاك بدأت صداقتى مع هانه زورفيدا Sohrweide التى فتحت لى، بعد أكثر من عقد، الكثير من الأبواب فى إستانبول. وفى اللغة العربية كنا نقرأ مصادر تاريخ المماليك فى مصر (١٢٥٠-١٥١٧). وقد أحببت التصوير النابض للحياة اليومية والاضطرابات السياسية فى مؤلفات ابن تغرى بردى وابن إياس. وقرب نهاية الفصل الدراسى الصيفى الثالث رأى ريتشارد هارتمان أن الوقت قد حان كى أبدأ دراستى للدكتوراه؛ فأى موضوع أريد أن أختار؟ وقد استحسن مباشرة اختيارى لموضوع: "وضع رجال الدين فى المجتمع المملوكى ومشكلة العلاقات بين الطبقة العسكرية التى تتحدث التركية والصفوة الإسلامية".

انتهت قصة الحب الأولى بطريقة قبيحة، ولكن كان العمل المتفانى - كما كان كثيرًا فى الأوقات التالية - أنجع الأدوية.

ولكن لم يكن هذا يعنى أننى تمكنت مباشرة من التركيز الكامل على أطروحة الدكتوراه؛ ففى إجازة الصيف كانت توجد خدمة إجبارية فى أحد المصانع - طبعًا غير مدفوعة الأجر - وذلك لأجل أن تتمكن بعض النسوة من الحصول على إجازة مدفوعة أطول، وقد تم تكليفى بالعمل فى مصنع للتليفونات: عشر ساعات فى اليوم لمدة ستة أيام فى الأسبوع. فى البداية كان يجب أن أعمل على آلة تشغيل المعادن: أسياخ من الحديد حادة كالسكين تمرر من خلال عروة حديدية، بينما تضغط القدم رافعة يد الماكينة حتى

يتساقط الحديد على شكل حلقات، كانت المقطوعية هى ألف قطعة فى الساعة، ومازلت أتذكر شاكرةً المشرف الذى كان يواسينى ظهر كل يوم، بينما الدماء تسيل من أصابعى قائلاً: "انتظرى يا آنستى الصغيرة - بعد الظهر سآخذ مكانك!". ولم يكن كل العمال قساة، وكانت الاتصالات مع العاملات ودية للغاية. وقد عملت فى نفس المصنع ثلاث مرات فى الإجازات؛ فى صيف ١٩٤١ تم تعيين عدد كبير من الطالبات وكذلك دفع لهن. وقد اشتريت لنفسى من أول مرتب كتاب "المثنوى" لمولانا الرومى، وحينما سرحت مبكرا بعض الشيء عن الخطة، وذلك بسبب التبكير بامتحان الدكتوراه، أهدانى الزملاء أجمل ما تيسر لهم التفكير فيه: الترجمة الألمانية التى صدرت حديثًا للرواية التركية "يابان الغريب" ليعقوب قدرى.

وآنذاك كانت الحرب مع روسيا قد بدأت، ولا يمكن لى أن أنسى هذا اليوم الحار من شهر يونيه ١٩٤١! ذهبنا لنتريض فى غابة جروناالد؛ كان معى كتاب "محاضرات عن الإسلام" لجولدتسيهر Goldziher[٦١]. كان الهواء ثقيلا مثل الرصاص، وكنا نكاد نشعر بضغطه على أجسامنا. إذا كان البعض قد اعتقد فى عام ١٩٣٩ فى نصر سريع؛ فإن المرء قد شعر فى هذا اليوم بالشؤم القادم، وربما فكر والدى، أو أناس آخرون، فى قصيدة Anno Domini 1812 لريشارد دايمل Dehmel[٦٢]:

فوق قفار الجثث الروسية

رفع الليل يده البيضاء عالية

وتنتهى بالسطور التالية:

ويلمع القمر الداكن الحمرة المنحنى

منجل الله الدامى

ولكن كيف كنا ندرس عمومًا فى هذه السنوات؟ يعتقد الكثيرون أننا كنا نسقى وباستمرار من دعايات النازى، ولكن هذا لا ينطبق - على الأقل - على قسم الاستشراق فى برلين. بالتأكيد سعد بعض دارسى الدراسات الإيرانية والهندو- جرمانية بالتركيز على الروح الآرية الشمالية، وقدموا أنفسهم بوصفهم ممثلين متحمسين للنظام، ولأجل ذلك كان لدى دارسى الساميات مشاكلهم، ولكن كيف يمكن بأى حال لعالم إسلاميات أن ينجز دون الأعمال التأسيسية لأجناس جولدتسيهر وبعض العلماء اليهود الآخرين؟

وكان أساتذتى - على اختلافاتهم - يتكاملون بالنسبة لنا بطريقة نموذجية. كان ريشارد هارتمان، الذى جاء من تقاليد معهد توبنجن، عارفًا ممتازًا بالتاريخ والجغرافيا الإسلاميين، ويعد كتابه"دين الإسلام" الذى ظهر فى ١٩٤٤ (ثم أعيدت طباعته فى ١٩٨٧) وما زال حتى الآن أحد أفضل المداخل؛ فهو واقعى حصيف ومتفهم واسع الصدر. كانت زوجة هارتمان ابنة لهولندى من أم سورية؛ وهكذا فإن أى تصرف معاد للسامية كان مستبعدًا. فقط بعد الحرب عرفنا أن ولديه كانا قد قتلا فى الحرب. لم نسمع مطلقًا أية شكوى منه. لقد كان مدرسًا قدوة، هادئًا، صبورًا مع القلة الذين يعذبون أنفسهم بالنصوص العربية والعثمانية التركية الصعبة. بالإضافة إلى ذلك فإنه كان يعرف الشرق عن مشاهدة. لقد كان أحد أوائل، إن لم يكن أول، المستشرقين الألمان الذين زاروا تركيا الحديثة عام ١٩٢٦، وقد قدم فى كتابه "فى الأناضول الجديدة" صورة دقيقة للحياة بعد حركة الإصلاح الأتاتوركية؛ وهو كتاب يستحق أن يطبع مرة أخرى.

على النقيض من هذا كان هانز هاينرش شيدر Schaeder[٦٣]؛ فهو طويل القامة وذو عيون داكنة مشعة تحت شعر شاب قبل الأوان، ولذا فقد كان يؤثر بالتأكيد من خلال مظهره الخارجى المبهر. كان متحدثا موهوبا،

ويستطيع بمحاضراته المصقولة أن يضع مستمعيه مباشرة فـي حالـة مـن النشوة، وإبان ذلك يستخدم بين حين وآخر صيغًا جعلته فيما بعد موضع اتهام بالقرب الشديد والمبالغ فيه من النازية. كانت تدريباته فى الفارسية الحديثـة ساحرة، وذلك أن الأمر لم يكن يقتصر فقط على التاريخ الفارسى منذ بداياته المبكرة، والذى يفتحه أحيانًا أمام الطلاب المبهورين انطلاقًا من كلمة أو من صيغة نحوية؛ فالآن يصطحبنا إلى أفلاطون، ومـرة أخـرى إلـى الـشعر الصينى، وإلى موسيقى القرون الوسطى. وقد عرفنى بعد سنوات كثيرة إلى ت. س. إليوت Eliot والشعر الميتافيزيقى[٦٤]. كان بالنسبة إلـى الطـلاب العاديين أستاذًا كثير الطلبات: "آنسة شيمل، أغلقى دفاترك. أريد أن أعرف ما تعرفيه، وليس ما كتبتيه!"، وهكذا علمنى كيف أتحدث بانطلاق. لحسن الحظ كنت أمتلك – بفضل ساعات العربية فى إيرفورت – معرفة أساسـية جيـدة بالتاريخ الإسلامى؛ لأنه عندما لا تكون لدى المرء أية فكرة، فربما كان هذا بالتأكيد يعنى: "السيد فلان. اذهب لو سمحت واركب دراجة؛ لأن هذا أكثـر إفادة لصحتك من تعلم الفارسية!". كان شيدر يفكر بطريقة مغاليـة؛ فعنـدما يقدر إنسان ما يرفعه إلى السماء، غالبًا ما كانت النتيجة أنه يضر دون قصد الناس الذين قدرهم أو أن يخيب ظنه فيهم فى وقت ما وبعمق. وكما سـمعت من زملاء سويديين فإنه قد كشف أمره بوضوح من خلال بعـض الـصيغ السياسية الحادة جدًا، ولكن ينبغى للمرء ألا ينـسى أن اثنـين مـن أشـهر المهاجرين الألمان إلى الولايات المتحدة الأمريكية كانا يبجلانه بعمق: فرانز روزنتال Rosenthal[٦٥] وجوستاف فون جرونباوم Grunebaum[٦٦]. وإبـان زيارتى الأولى إلى لوس أنجلوس عام ١٩٦٥ كان ينبغى علـى أن أحكـى لجيزلا فون جرونباوم إبان رحلة التعرف على المدينة طوال فترة الـصباح عن شيدر، وذلك لأنها كانت تريد أن تعرف من كان هذا العالم الذى يعجـب

به زوجها على هذا النحو العميق. لم أكن أعرف أن أخت شيدر هيلدجارد المتخصصة فى الكنيسة الشرقية، كانت معتقلة منذ عام ١٩٤٣ فى معسكر اعتقال رافنسبروك، وحينما زارتنى عام ١٩٤٩ فى ماربورج أهدتنى كتابها Ostern im KZ "عيد فصح فى معسكر الاعتقال"، الذى كان بمثابة تذكار محزن للحياة والإيمان المسيحيين؛ وقد صدرت للكتاب فى عام ١٩٩٥ طبعة موسعة.

لقد كنت أبجل شيدر بلا نهاية، وقد أدركت بالطبع فقط متأخرًا - وهذا كان جيدًا هكذا - أن وظيفة الإسلام بالنسبة إليه تمثلت بالدرجة الأولى فى نقل الفلسفة الكلاسيكية إلى أوروبا. لم يكن ولو لمرة فى بلد مسلم، ولم يستخدم قط اللغات التى أتقنها وعرف جذورها وتشعباتها الدقيقة، وكان الشرق بالنسبة له جزءًا من صورة ضخمة للعالم يقع مركزها فى المسيحية والتراث الكلاسيكى.

سيظلم المرء شيدر إذا لم يشر إلى زوجته النمساوية الرائعة جريتا، والمتخصصة الموهوبة فى الدراسات الجرمانية، والتى ارتبطت عن قرب من إبداعه وشاركته فى حبه لجوته الذى خصته بمؤلف ضئيل الشهرة جدًا، وكذلك ارتبطت به من خلال تبجيل مشترك لهوجو فون هوفمانستال، وهو التبجيل الذى يمثل كذلك مفتاحًا لعلاقة الصداقة بين شيدر وكارل ياكوب بوركهارد Burckhardt(٦٧).

وينتسب هانز هاينرش شيدر إلى أسرة من علماء التيولوجيا اللوثريين تعود إلى عصر الإصلاح الكنسى، وقد وقف بقوة ضد التيولوجيا الجدلية التى ازدهرت بعد الحرب، وقد قال لى مرة: "المرء بوصفه بروتستانتيًا جيدًا يملك إمكانيتين: إما أن يصبح مسلمًا وإما كاثوليكيًا". وقد اختار الإمكانية الثانية،

وساعده التعمق فى هذا العالم فى السنوات الأخيرة على تحمل عذاب مرض مؤلم.

وكان إرنست كونل على خلاف هذا؛ نشيط رقيق الشمائل وذو تجربة طويلة فى الشرق الإسلامى، يفهمه ويريد أن يقربنا من جمال وجاذبية الفن الإسلامى، من عالم السجاد والقيشانى، القصور والمساجد، وبصفة خاصة من فنون الخط الزخرفية التى أُحبها. ومما لا ينسى فصلى الدراسى الأخير؛ حيث كان يسمح لى بالعمل كل يوم سبت بمفردى فى الجناح الإسلامى فى المتحف فى بوداشتراسه، وذلك حتى أعد محاضرتى حول الزخرفة الكتابية المملوكية. لقد خاب أمله مثلى تمامًا عندما توجب علىَّ الذهاب بعد رسالة الدكتوراه إلى وزارة الخارجية بدلاً من المتحف، ولكن آنذاك كان يسمح فقط بما هو مهم للحرب.

كذلك كانت أنا مارى فون جابين Gabain من بين أساتذتى الأعزاء، وقد درست لديها العلوم التركية؛ حيث كنا ثلاثة طلاب: أوكرانى ومجرى وأنا. وكنا نسعد مدرستنا من خلال ترجماتنا الجيدة التى كانت بالطبع نتيجة للعمل المشترك البارع. كانت ابنة الجنرال الجميلة ذات الشعر الغامق، والتى تأتى من مجال الدراسات الصينية، من أوائل الذين فتحوا العالم الزاخر الثرى للشعوب التركية، والذى يبحث – خاصة فى ألمانيا – منذ العشرينيات. لقد كانت مدرسة صبورة، وأدين لها بجزء كبير من حبى للتركية فى تنوعاتها الشديدة، ورغم ذلك كانت مريم أبا أى "الأخت الكبرى"، كما سمح لى سريعًا بأن أناديها، مشغولة دائمًا بسلامتى النفسية: "سنجليم، لا تتعمقى فى التصوف الإسلامى، مُرّى عليه بعقلانية علمية فقط!". وكانت ترجمتى لرواية الدراويش "نور بابا" ليعقوب قدرى، والتى صدرت عام ١٩٤٨ تحت عنوان "اللهب والفراشات"، بالنسبة لهذه الكاثوليكية الورعة بمثابة حجر عثرة أيضًا:

"كيف يستطيع المرء أن يربط هكذا بين الدين والإغـراء؟". ولكـن حينمـا ظهرت الرواية فى صيغة منقحة عـام ١٩٨٥ عنـد ديدريـشس[٦٨] وجـد المراجعون العلميون أنها غير شهوانية على الإطلاق، بل كادوا يرفـضونها لأجل ذلك! ولكن حين حذرت مريم أبا أمى قائلة: "لابد من أن تحرمى على ابنتك كتابة الأشعار؛ لأن هذا يضر بسمعتها الطيبة!" استطاعت أمى فقط أن تقول: " إذا كان الله قد حباها بالموهبة فعليها أيضًا أن تـستخدمها!". كانـت مريم أبًا امرأة رائعة، وقد واجهت بعد الحرب - بسبب انتمائها الحزبـى - صعوبات كبرى فى الحياة الأكاديمية، ولكن من يهتم بالدراسـات التركيـة يحبها ويبجلها. وكانت تمثل بالنسبة لمستشرقة شابة قدوة مضيئة هادية.

كانت الدائرة الاستشراقية البرلينية واسعة النطاق؛ ففى معهد اللغـات الشرقية كان المرء يستمع لمحاضرة سيباستيان بيك Beck المملة جدًا عـن الامتيازات الأجنبية فى إيران، ولكن كان يمكن للمـرء دائمًـا أن يـصرف انتباهه عن الموضوع، وذلك عندما يكتب شيئًا بخطه الجميل على السبورة. وقد مات فقيرًا بعد الحرب فى جمهورية ألمانيا الشرقية، وكذلك كنا نـسمع التاريخ التركى الحديث لدى جوتهارد يشكا Jäschke الذى وثقه فى تقاويمـه التاريخية المفيدة. وتسجلت فى التـدريبات العربيـة عنـد محمـد زكريـا هاشمى[٦٩] من حلب، ولم نكن نتعلم لديه خط اليد السلس فقط، وإنمـا كـان ينبغى علينا أيضًا أن نكتب أسبوعيا مقالة صغيرة بالعربية، يستوى فى هـذا إن كانت عن حديقة حيوان برلين أو عن شخصية من شخـصيات الإسـلام المبكر. وإلى جانب هذا كانت المحاضرات العامة واجبـة الحـضور، وقـد اخترت دروس علم النفس لإدوارد شبرنجر Spranger، واختـرت لإيميـل دوفيفات مداخله الطريفة فى علم الصحافة، والتى كانت تمتلئ بنقـد مكتـوم للنظام. وبالنسبة إلىَّ تمثلت ذرى هذه السنوات، التى لم يوجد ما هـو أكثـر

منها كربًا وانقباضًا، فى المؤتمرات الاستشراقية التى كان هيلموت شيل Scheel ينظمها؛ حيث كانت المستشرقة الشابة، التى كانت تعمل كاتبة للبروتوكول، تلتقى إيانها بجهابذة علم الاستشراق.

أما بالنسبة للعمل المعتاد فقد حدث أيضًا شيء آخر؛ ففى أكتوبر ١٩٤٠ سألت شيدر عما إذا كان ينبغى علىَّ قراءة "المثنوى" للرومى مرة؛ فنصحنى بالعدول عن هذا، واقترح علىَّ أن أدرس المختارات الصغيرة لرينولد أ. نيكلسون Nicholson من "ديوان الرومى"، قصائده الشعرية، وأن أدرس فى الوقت نفسه العمل الفرنسى الضخم للويس ماسينيون Massignon "عذاب الحلاج" La Passion d' al Hallaj. وحينما أصبح الديوان بين يدى أصابنى شيء مثل الصاعقة، لقد راعتنى نغمات أشعاره مع أننى آنذاك لم أكن بالكاد قد تعلمت شيئًا من العروض والبلاغة الفارسيين، إلا إننى فهمت النصوص مباشرة ودون وسيط تقريبًا، حتى إن الكثير منها بدا وكأنه تحول دون تدخل منى إلى أبيات ألمانية. ولقد نقلت لنفسى نسخة من كتاب نيكلسون كله بكل ملاحظاته؛ حيث لم تكن توجد ماكينات تصوير، وقبل أعياد الميلاد فاجأت شيدر بمجلد صغير يضم الترجمات مع النص، ومعها أيضًا بعض الترجمات من ديوان المتصوف الشهيد الحلاج منسوخًا بالخط الزخرفى فى كلا اللغتين ومزينًا بالزخارف العربية. بعض هذه الترجمات لم أغيرها حتى اليوم. لقد بدا لى الرومى سهل الفهم، وقد بقيت منذ ذاك مخلصة له، حججت كثيرًا إلى ضريحه فى قونية، وتتبعت آثاره فى الشرق والغرب، ودائمًا أعود إليه مرة بعد أخرى؛ فكما يبدو لى فإن أيًّا من المتصوفة الآخرين لم يقدم تفسيرًا أفضل من تفسيره للكلمات القرآنية: "سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم" (سورة فصلت، آية ٥٣) – المؤمن الصادق يعرف الله وأفعاله فى العالم من التاريخ ومن تجاربه الخاصة.

دو چشم کشته شنیدم که سوی جان نگری
چرا بجان نگری چون بجان جان رفتی
دلا چه نادره مرغی که در شکار شکور
تو با دو پر چو سیمر جانب سنان رفتی
گل از خزان بگریزد عجب که شوخ گلی
که پیش باد خزانی خزان خزان رفتی
ز آسمان تو چو باران ببام عالم خاك
بهر سوئی بدو دیده بناودان رفتی
خموش باش تو از رنج گفت وگوی مخسپ
که در پناه چنان یار مهربان رفتی



صفحتان من ترجمتي عن ديوان الرومي، أعياد الميلاد ١٩٤٠.

وفى الوقت ذاته كنت أناضل خلال المجلدين الضخمين لعمل ماسينيون الذى بسط أمام القارئ، فى فرنسية معقدة، حياة الحلاج وعذابه، ذلك الرجل الذى قال "أنا الحق"، واحتل منذ ذاك مكانة مركزية فى التصوف الإسلامى.

Ich hörte, die Augen gewendet
du blicktest zur irdischen Seele.
Was schaust du? denn du bist doch selber
zur Seele der Seele gegangen!
Du bist eine mutige Rose!
die Rose entflieht sonst dem Herbste:
Doch du bist beim Nahen des Sturmes
zum Herbst, in den Herbstwind gegangen
So, wie vom Himmel der Regen,
die staubige Erde zu tränken,
Herabrinnt von allen Seiten:
so bist du ins Ew'ge gegangen.
Sei still nun vom schmerzvollen Sprechen
und Reden; doch schlafe nicht! Siehe,
Du bist in den Schutz eines Freundes,
der liebend dich hütet, gegangen!



كنت أتحدث مع أبى كثيرًا عن العمل وأبطاله، وكان يشرح لى بعضًا من أفكار المتصوف الذى ذهب راقصًا فى السلاسل إلى مكان إعدامه. لقد أصابتنى عندما كنت طفلة كلمة "الناس نيام فإذا ما ماتوا انتبهوا" فى العمق، والآن يتكرر الأمر ذاته مع صيحة الحلاج المشتاقة للموت:

اقتلونى يا ثقاتى

إن فى قتلى حياتى

وهو بيت من الشعر كنت أجده مئات المرات فى أعمال الرومى. وفى هذا الوقت تيسر لشيدر أن يكتشف فى كتاب نثرى للحلاج مصدر قصيدة "شوق مبارك" Selige Sehnsucht لجوته، وذلك بواسطة صورة الفراشات التى تلقى بنفسها فى اللهب.

فى أكتوبر ١٩٤١ انتهت أطروحتى للدكتوراه عن "الخليفة والقاضى فى مصر فى العصور الوسطى المتأخرة"، واجتزت امتحان الدكتوراه الشفوى فى ٢٠ نوفمبر بدرجة magna cum laude أى "جيد جدًا". كنت آنذاك فى التاسعة عشرة من عمرى، ومما يدل على أن الأطروحة لم تكن سيئة (حتى ولو لم تصل إلى الحجم الضخم لرسائل الدكتوراه أو حتى الماجستير اليوم) أنها طبعت فى ١٩٤٣ فى مجلة "عالم الإسلام" Welt des Islam.

عينت فى أول ديسمبر ١٩٤١ فى وزارة الخارجية لأقوم بدلاً من الزميل فرانز تيشنر Taschner، الذى كان يجب عليه العودة إلى كرسى أستاذيته فى مونستر، بفك شفرة التلغرافات التركية، وقد وضعنا - نحن الأكاديميين - فى الوظائف العليا، وحملنا اللقب الجميل(؟) "موظف علمى معاون". ولأن المرء يُدفع له المرتب المناسب للوظيفة العليا فقط حين يبلغ الثالثة والعشرين من عمره، وبما أننى كنت قد بلغت التاسعة عشرة، فإننى قد فقدت حقى فى المرتب العالى لسنوات أربع. لم يكن العمل مثيرًا أو مشوقًا كما يمكن للمرء أن يتصور؛ فالدبلوماسيون الأتراك لم يكن لديهم كما يبدو إدراك عميق للوضع، أو أنهم كانوا يتحفظون، حتى إننا لم نكد نطلع على شيء أكثر من المعلومات المألوفة. كنا مجموعة صغيرة فى داليم إيمدول تحت قيادة عالم الدراسات التركية ى. بنتسنج Benzing، وحينما يكون العمل قليلاً كنا نشتغل على موضوعات تركية.

أنا نفسى كانت لدى خارج الخدمة خطط كثيرة متنوعة؛ فمباشرة بعد الدكتوراه اقترح علىَّ ريشارد هارتمان أن أصنع الفهارس التى طال انتظارها

لتاريخ ابن إياس (ثلاثة مجلدات ضخمة يتجاوز كل منها خمسمائة صفحة باللغة العربية) الذى كان مصدرًا أساسيا لأطروحتى للدكتوراه. لقد كان عملاً مملوءًا بالمغامرة وبالكثير من السعادة، وعندما أرسل صندوق البطاقات الثقيل الذى يحتوى على آلاف البطاقات الورقية إلى إستانبول فى نهاية ١٩٤٢ كان هيلموت ريتر Ritter[٧٠] - ناشر ومحرر الكثير من المؤلفات الكبرى فى العلوم الإسلامية - سعيدًا جدًا حتى إنه أراد أن يستدعينى إلى إستانبول لأعمل كمعاونة علمية له، ولكنى لم أكن لأستطيع أن أحمل نفسى على مغادرة برلين والبعد عن والدى لأعمل مع عالم عظيم، ولكنه معروف بالصعوبة. وهكذا بعث إلىَّ ريتر صورة من مخطوطة جيدة لابن العديم عن تاريخ حلب كان ينبغى علىَّ أن أحققها، ولكن فى نهاية الحرب ضاعت الأعمال التحضيرية لهذا العمل مثلما ضاعت أغلب أعمالى حول النواحى المتنوعة لتاريخ المماليك، ولكنى كنت أعمل بالدرجة الأولى على أطروحتى للأستاذية حول الطبقة العسكرية فى دولة المماليك، ولطالما كان الأمراء المماليك يذكرونى وبشدة "بقوادنا" آنذاك.

لم أعد أدرى بالضبط كيف كنت أعيش آنذاك؛ فقد كنت أذهب كل صباح إلى مكان الخدمة الذى كان يمكن الوصول إليه نوعًا ما بشكل جيد من شقتنا الجديدة فى شارلوتنبورج. ومن بين العمال ما زلت أتذكر السيد باوميرت العجوز الذى حوّل اسمى فى يوم ما أثناء مخاطبته لى - والذى كان ينطقه باللهجة الجيدة لمنطقة شفاب "شيميلا" - حوله إلى الاسم العربى "جميلة" (تكتب بالتركية Cemile). وهكذا ظهر اسم تدليلى الذى يستخدمه - إلى حد ما - حتى اليوم أصدقائى الأتراك والكثير من أصدقائى الألمان.

فى خريف ١٩٤٢ هاجمتنى سلسلة من الأمراض الملغزة التى بلغت ذروتها بتخثر دموى، وأنقذت حياتى فقط بواسطته دستة من حيوانات علقة

الدم[٧١] التى وجدها أبى تحت ظروف مغامراتية، وأحضرها إلى البيت خلال الثلوج والجليد الزلق.

كانت الهجمات بالقنابل تزداد، وكانت مأساة ستالينجراد تزداد وضوحًا، وفى برنامج ما يطلبه المستمعون بالراديو كان المرء يستمع باستمرار إلى أنشودة المأسورين من نابوكو لفيردى[٧٢]، ولكننا لم نكن نعرف إلى أى حد كانت تصور الوضع الحقيقى، وكنا نحاول أن نعيش كيفما يتيسر.

وفى ٢٣ نوفمبر ١٩٤٣ وقع أول هجوم كبير على برلين، وقد استطعنا - ولله الحمد - أن نخمد القنابل الحارقة على سقف بيتنا، ولكن فى الصباح وفى المكتب عرفنا بالخسائر بين زملائنا: زوجة وحماة توفيتا، وبيت ضرب بالقنابل. كان كل من جاء أصلاً قد فقد أناسًا أو أشياء. وقد بعثت للبحث عن صديقتى هانكا؛ فذهبت من ميدان فيربيللينر وحتى محطة قطارات ليرتر بين البيوت المحروقة والمدخنة وأنا أغطى وجهى بطرحة خفيفة؛ ولكن بيت هانكا لم يكن موجودًا فى مكانه. منذ ذاك وأنا ما زلت لا أستطيع السير فى جنوب غرب برلين دون أن أرى هذا الجحيم مرة أخرى أمامى، كذلك تذكرنى أجمل الألعاب النارية "بأشجار عيد الميلاد" التى كان طيارو القاذفات يرمون بها حتى يتعرفوا فيما بعد على أهدافهم. لو قال أحد آنذاك إن سكان برلين سيخرجون فى اليوم نفسه بعد عشرين سنة من هذا الهجوم الجوى الكبير الأول إلى الشوارع حزنًا على جون ف. كينيدى الذى قتل آنذاك لاتهم بالجنون!

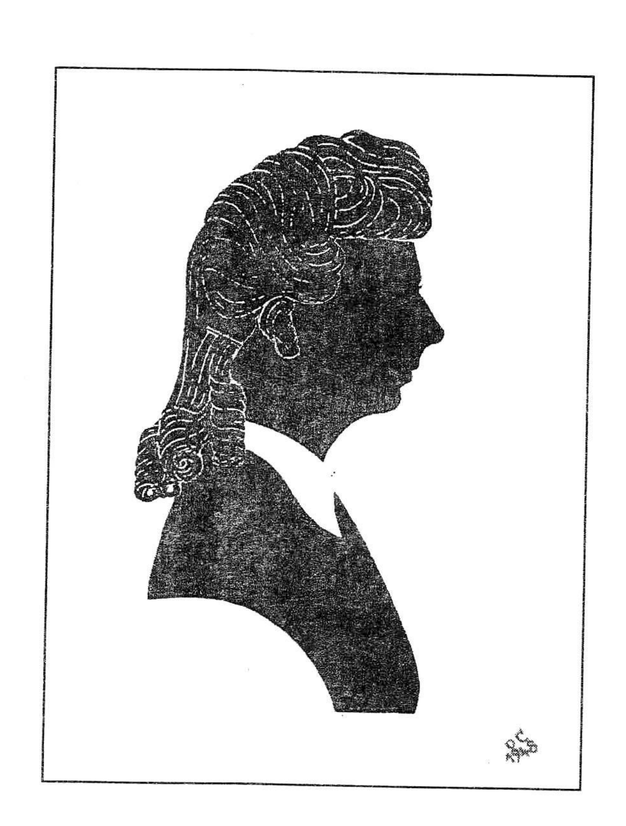
أصبحت الهجمات منتظمة، وبعد قليل وقفت صديقتى إنجس مع أمها وزوجها أمام الباب، وذلك بعد أن أصابتهم القنابل. أصبح الهواء المتنفس ثقيلاً، ولكن الأخبار حول حلقة قوات الحلفاء التى تضيق بشكل مستمر كانت تغطى على الوضع. وهل عرفنا على الإطلاق أن هذه القوات كانت ومنذ بداية مارس فى منطقة الراين؟

في ٣١ مارس ١٩٤٥ سلمت أطروحتى لدرجة الأستاذية. وفى الأيـــام التالية تمت تجزئة قسمنا فى منطقة دُول وحمل على سيارات نقل واصـــلت السفر دون هدف معلوم. للمرة الأخيرة رأيت والدى الحبيب؛ ففى نهاية أبريل دعى مثل الكثيرين جدًا من الرجال العجائز والصبية إلى جـــيش المقاومـــة الشعبية، رغم أنه لم يمسك بيديه بندقية قط، وقد قال لأمى مودعًا: "نحن ستة وعشرون رجلاً، ولدينا ثلاث بنادق، وقد قيل لنـــا: "أنـــتم الخـــط الـــدفاعى الرئيسى". لقد سقط فى الرابع من مايو ١٩٤٥ بالقرب من كيتسن. وبقيـــت أمى وحيدة فى برلين، بعد أن نجت من هجوم الروس، وقد علمت بموت أبى فى يونية، يوم واحد، قبل أن يخبرها أحدهم بأننى مازلت أعيش فى أمن فى ماربورج.

الجزء الثانى

السنوات الأولى لما بعد الحرب

(١٩٤٥-١٩٥٢)



ماربورج، بوابة جديدة إلى العالم

كانت الباصات تتحرك من برلين باتجاه الجنوب الغربى نحو مدينة هاله؛ حيث بقينا لمدة ثلاثة أو أربعة أيام فى بيوت خشبية احتياطية، كانت مسكونة أيضًا ببعض الجزذان. وبسبب النشاط الطيرانى المنخفض واصلنا السفر سريعًا، كانت تشيبلن فى ساكسن هى محطتنا التالية؛ حيث تم إحراق الملفات، وبدأنا نهتم قليلاً بالعمل فى الحديقة. وفى ٢٠ أبريل ظهر الأمريكيون، وفى أول مايو وضعونا فى شاحنات نقلتنا إلى مبنى ذى حوش مسفلت، حشروا حوالى ثلاثين منا فى حجرة صغيرة، ثم أنزلونا لبعض الوقت فى مخبأ تحت الأرض. وفى إحدى الأمسيات دعانا العساكر الأمريكان، حراسنا، أعطونا طعامًا وأهدونا قطع شيكولاته ثم ودعونا بود. وهنا لا بد من أن أشدد دائمًا على أن العساكر الأمريكيين تصرفوا بمثالية ضد مجموعة كانت تتكون فى الغالب من النساء الشابات اللاتى كن بالكامل بين أيديهم. بالمناسبة، أثرت بهذه الملاحظة دهشة كبيرة فى الولايات المتحدة الأمريكية فيما بعد؛ لأنه هناك وبسبب حرب فيتنام كان ينظر إلى كل عسكرى بوصفه نوعًا ما من مجرمى الحرب.

وفى الصباح التالى نقلنا مرة أخرى، ثم كانت نهاية الحرب فى الثامن من مايو أمرًا لا يصدق! لا لم تشرق الشمس مرة بمثل هذا السطوع كما كانت فى هذا اليوم الذى كنا نسافر فيه إلى هدف غير معلوم. كانت الأشجار تشع بأجمل اخضرار، وفى كل مكان كنا نسمع نغمات غناء الطيور، ولكننا لم نكن نعلم ماذا ينتظرنا ولا أين أسرنا، من منهم يعيش ومن منهم سقط ضحية فى الحرب، ولكن الحرب كانت قد مضت، ولن تلقى القنابل مرة أخرى...

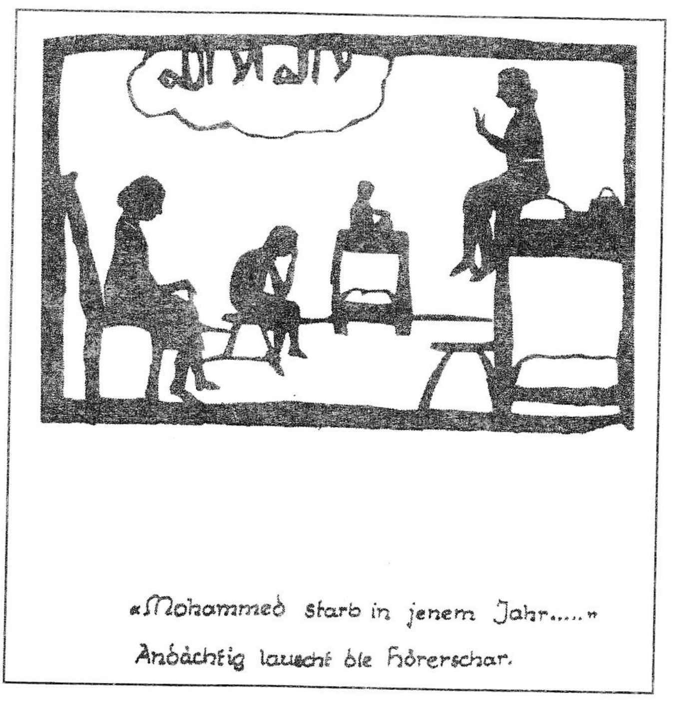
في المساء وصلنا إلى ماربورج وأنزلنا في بيت للطـــلاب، فيـــستفال هاوس في شارع لوتر. استقر بنا المقام - كنا ستًا وعشرين امـــرأة - فـــى صالة نوم؛ حيث توجد أسرَّة ذات دورين، وكانت الشرفة تطل على الحديقة. وقد كان هذا منزلنا في الشهور القادمة، وكان هذا قـــدرًا ســـعيدًا بـــشكل لا يصدق، أقصد أن أحضرنا إلى ماربورج؛ فالآن لدينا سقف فوق رءوســـنا، ونعطى بشكل منتظم شيئًا للأكل - كان يوزن كل مرة بمنتهى الدقة -، هذا بينما ملايين الناس يعيشون بالشهور دون وطن، جوعى، يعانون، حتـــى إن الكثيرين منهم لم يستطيعوا اجتياز هذه الفترة (هكذا لم يستطع زوج إنجـــس وآخرون أن يجتازوها في مركز اعتقال أمريكى). وفى أحد الأيـــام جاءنـــا الخبر بأن ساكسن وتورنجن قد وضعتا تحت الحكم السوفيتي (لأجل هذا نقلنا إلى الغرب)، وحينما سمعنا بهذا النبأ المشئوم كنا لا نصدق ولا نفهم. ولكـــن سيدة عجوزًا، غريبةٍ بعض الشيء، كانت هى الأولى التى وجدت لـــسانها: "أخ، إذن سيصبح قطِّى روسيًّا!"

فى البداية كانت إقامتنا محددة، ومن وقت لآخر كان يجرى استجوابنا، ولكنهم لم يجدوا شيئًا يثير الريبة. وقد نظمنا بسرعة معسكرًا جامعيًّا. وبـــأى افتتان كنت أقرأ مع إحدى الزميلات الشعر اليونانى القديم! كانـــت الأشـــعار تقود إلى عالم بعيد عن بؤس وشقاء ذلك الوقت:

حينما، أيها الحاكم أبوللو، ولدتك ليتو النبيلة

تحت شجرة النخيل السامقة التى احتضنتها بالأيدى...

تدربنا على المحادثة الإنجليزية، وكنا نتدرب- على بيـــانو موجـــود- تحت إشراف صديقتى إنجس على أغانى برامز، وألقيت أول محاضراتى فى الإسلاميات من أعلى حافة سرير.



محاضرة أثناء فترة الاعتقال فى فيستفال هاوس فى ماربورج، صيف ١٩٤٥

(من صورى المقصوصة)

لا أستطيع إلى الآن أن أفهم كيف تمكنت آنذاك من حمل حقيبتى. كانت تحتوى على بعض الملابس فقط (ولم يكن المرء يملك الكثير)، ولكنها كانت تحتوى أيضًا - إلى جانب صورة أطروحتى للأستاذية - على "العهد الجديد"، وعلى "الديوان الغربى الشرقى" فى طبعة بويتلر الضخمة التى أهدانى إياها شيدر، وثلاثة مجلدات ضخمة من "مثنوى" الرومى فى أصله الفارسى، وعلى الكتاب العربى الثقيل أيضًا "كتاب اللمع" للسراج، وكذلك على أحد كتبى المفضلة وهو "نهضة الإسلام" لآدم ميتز Mez[٧٣]. ومازالت صفحات الرومى والسراج المملوءة بالملاحظات تمثل أدلة على نشاطى خلال الترجمة. وكنا نساعد أيضًا بالعمل فى إحدى الضياع؛ حيث أسست إيريكا ستوفزاند (وهى مترملة حربٍ شابة كنا ندعوها "أمنا الأرض") منظمةً خيرية، وبعد عقود

طويلة أسست فى بريمن الثانوية المسكونية[٧٤]، تبعتها فى مجدبورج مؤسسة مشابهة.

هكذا مر الصيف، واستمعنا للمرة الأولى إلـى الكـورال الإنجيلـى الأمريكى الذى مثّل عالمًا جديدًا بالنسبة إلينا جميعًا. وبخلاف ذلـك كنـا لا نعرف شيئًا عن العالم أو حتى عن برلين. وفى أغسطس اكتشفت مكاننا والدة زميلتنا برجيتا (التى كانت تسمى عروس الصحراء، وذلك لأنها تواعدت عن بعد مع أحد المبشرين فى جنوب أفريقيا على الإخلاص)، وأحـضرت إلينـا أول الخطابات. وقد أظهر أحد خطابات أمى لى أنها نجت فى برلين، ولكنه احتوى فى الوقت نفسه على خبر موت أبى الحبيب إيان وجوده فى جـيش المقاومة الشعبية فى مكان ما بالقرب من كيتسن.

فى يولية جاءتنا زيارة مهمة؛ حيث زار فريـدريش هـايلر Heiler[٧٥] العميد المرشح للكلية الفلسفية فى الجامعة التى سيعاد فتحهـا عمـا قريـب، فيستفال هاوس؛ كى يلقى محاضرة حـول ناثـان زودربلـوم Söderblom، المؤرخ الدينى الرائع، والمناضل فى مجال توحيد الكنائس، والذى كـان - لسنوات طويلة - المطران اللوثرى للسويد. كنا نعرف أن ماربورج تمتلـك تراثًا كبيرًا فى تاريخ الأديان، وكان رودولف أوتو Otto[٧٦] بمثابة "قـديس القرية". لقد قرأت كتابه "المقدس" Das Heilige ، ولكنى لم أفهمه آنذاك. فيما بعد أصبح هذا الكتاب أحد أهم مواد التدريس لدى. وقد سألنا عالمنا الزائـر بعض الأسئلة، ولكنه لم يقل بالكاد شيئًا، وشعرت أننى مرتبكة وجاهلة، ولكن كانت للزيارة نتائجها؛ فحينما سمح لنا فيما بعد بالعمل لبضعة أسابيع خارج المعسكر، أصبحت عروس الصحراء سكرتيرة لهايلر. وذات مساء دخلـت إلى صالة النوم مندفعة، وقالت وهى مضطربة: "ينبغى أن تذهبى إلى هايلر بأطروحتك للأستاذية!". ذهبت ببعض الخوف فى طريق مارباخ، وصـعدت السلالم العالية؛ فوجدت نفسى فى مكتبة رائعة حيث استقبلنى العالم وسـألنى

تقريبًا بخجل، عما إذا كنت أتصور أن أتأهل للأستاذية فى ماربورج. كان أستاذ العربية هناك جامح النازية لدرجة أن المرء لا يمكنه أن يعيد تعيينه. ورغم المفاجأة الكاملة: فقد وافقت على الاقتراح وتركت أطروحتى بين يدى هايلر.

وبعد قليل تم إطلاق سراحنا، ولكن إلى أين؟ برلين لا يمكن الوصول إليها. وقد تمكنت بعد التغلب على آلاف الصعوبات المختلفة من أن أسافر على قطارات الفحم إلى إيسن؛ حيث كنت آمل فى ضيافة الخالة أُولى التى شملتنى بها بدرجة شديدة المبالغة: أول شىء وضعتنى وملابسى فى حوض الاستحمام! ويالله من ترف طال افتقاده! وبعد عدة أسابيع من إعادة التمدين سافرت إلى الخالة ميا فى أوريش، وساعدتها قليلاً فى المكتبة التى تعمل فيها (لم تكن بطاقة تموين لمن لا يعمل). كذلك تعرفت إلى موظفة الأراضى الزراعية بشرق فريزنلاند، وخططنا لأول حفلة ثقافية بعد الحرب فى شرق فريزنلاند؛ حيث جمعنا بواسطة سيارة مستعارة من إدارة الاحتلال البريطانية الشعراء والرسامين وأصحاب الفنون اليدوية والمثالين، ثم احتفلنا لأول مرة بعد الحرب. وقد قرأ الشعراء من مؤلفاتهم، وقد نظمنا معرضًا، كما وجد بعض ما يؤكل، حتى البريطانيين تبرعوا بحصة شاى إضافية! وكان هناك برونو لويتز Loets المترجم اللامع عن الهولندية، وهو نمط أو طراز مضحك من البشر، وكذلك مورتيز يان Jahn الذى لا تكاد تعرف أشعاره الحزينة المزلزلة خارج منطقة شرق فريزنلاند، وذلك لأنه يكتب بلهجة شمالية "حقيقية" خاصة وليست عادية سهلة مثلما نجد عند كلاوس جروت Groth أو فريتز رويتر Reuter.

ثم جاءت أعياد الميلاد، وقد صنعنا عرائس وأنجزنا كتابًا مصورًا للأقرباء القرويين فى جيورجسهيل، الذين كانوا يملكون مزرعة، وبالتالى فقد زيد شىء ما فى آنية الطبخ، ولكن الأكثر إثارة كان تلغرافًا جاءنى من شيدر

فى جوتنجن ليخبرنى أن امتحان الأستاذية الشفوى سيكون فى يوم الخامس من يناير فى ماربورج. من حاول مرة فى القطاع البريطانى الانتهاء من الخطوات البيروقراطية إبان الإجازات وما بينها، يعلم تمامًا ماذا تعنى الصعوبات، ولكننا أنجزنا هذا. وفى الثانى من يناير تمكنت من الوصول إلى إيسن حيث أهدتنى الخالة أولِى بسرعة فستانًا أسود مناسبًا، ثم قضيت الليل على سلالم محطة هاجن، بل وحصلت على تذكرة سماح بركوب القطار، وقد ضحك موظف القطار الذى أطلعته على دعوتى لامتحان الأستاذية قائلاً: "إذن، لا بد من أن أهنئك!". ووصلت إلى ماربورج مساء الثالث من يناير، وبعد أن كنت قد فقدت الأمل، ولكن سار النقاش بصورة جيدة.

وفى الثانى عشر من يناير كانت محاضرة القدوم، وبينما كنت أنتظر أن ينادى علىّ، جاء هايلر وقال: "يوجد الكثير من الناس هنا، ولا بد من أن ننتقل بالمحاضرة إلى قاعة المحاضرات الكبرى. هل أنت خائفة؟" قلت: "لا". وقد تحدثت عن "الشخصيات الرئيسية فى التصوف الإسلامى"، وكان المستمعون الماربورجيون كما يبدو مسرورين. ففى النهاية كانت هذه أول رسالة أستاذية بعد الحرب، وبالإضافة إلى ذلك لامرأة ، بل امرأة شابة، أتمت بالضبط الثالثة والعشرين من عمرها. وحينما ختمت حديثى جاءت دارسة الجرمانيات المشاكسة لويزا برتولد Berthold إلى المنصة وضغطت على يدى مهنئة، ثم قالت بصوت عميق: "يا طفلتى الصغيرة، تنبهى لشىء واحد: الرجال أعداء لنا!"

بدأ مسارى المهنى تحت ظروف نموذجية - هذا إذا ما سمح للمرء بأن يقول هذا عن ربيع ١٩٤٦ - وقد ذهب ضابط الجامعة الأمريكى دكتور هارتسورنه الذى بذل نفسه بقوة غير معقولة دفاعًا عن الزملاء فى ماربورج، بسيارته إلى برلين وأحضر لى جزءًا كبيرًا من كتبى وكل الأشياء

الأخرى التى جهزتها أمى. وقد أحزننا جميعًا أن هارتسورنه قد ذهب بعد وقت قصير ضحية حادث سيارة ملغز جدًّا لم يكشف عن أسبابه مطلقًا.

غبطة خاصة أخرى تمثلت فى أن جزءًا كبيرًا من مخازن المكتبة القومية فى برلين كان قد نقل إلى مخازن ماربورج. ومن هنا فقد كنت أقضى أكبر جزء من وقت فراغى فى المخازن؛ حيث وجدت أشياء قيمة جدًّا مثل مجلدات "كنوز الشرق" لهمر- بورجشتال أو الكتاب الضخم لبريز دافين d'Avenne "الفنون العربية الجميلة" Les arts décoratifs arabes، والذى رسمت منه عددًا لا يحصى من الموضوعات، وقد أفادتنى حتى اليوم الكثير من الأشياء التى سجلتها آنذاك بخط ضئيل على جذاذات ورقية (لم يكد يوجد ورق). وإلى جانب هذا ألقيت محاضرات ودرست تدريبات على موضوعات العلوم الإسلامية المتنوعة، ومداخل إلى اللغات العربية والفارسية والتركية، ثم بدا حظى مكتملاً حينما تيسر لى فى مايو ١٩٤٦ أن أحضر أمى إلى ماربورج. لقد عملت فى برلين "خياطة للملابس الرخيصة" حتى تحصل على بطاقات التموين، ولكنها كانت قد أصبحت - بسبب الهم والجوع - هزيلة تمامًا، ولكن الغبطة بأنها أصبحت مرة أخرى مع "الابنة المفقودة" منحتها وبسرعة قوى جديدة. وقد ذهبت مرة أخرى فيما بعد إلى برلين وتيسر لها - لا أعرف كيف - نقل جزءٍ من أثاثنا ومن أشياء أخرى إلى الغرب.

بالطبع لم يكن كل شيء يسير بمثل هذه الإيجابية؛ فعملية إبعاد النازيين أدت إلى توترات كريهة بين الزملاء، ثم عرفنا بالجرائم التى لم نكن نتصورها. لقد سمعنا بمصطلح معسكر اعتقال، ولكننا لم نكن نملك تصورًا عما كان فى الحقيقة، وما زلت أتذكر رحلة قصيرة فى عام ١٩٣٨ بمناسبة عيد صعود المسيح، حينما ذهبنا - مثلما يحب المرء أن يفعل ذلك لمرة فى إيرفورت - فى الربيع على الأقدام مع بعض المعارف من إيرفورت عبر بوخفارت إلى إيترسبرج. وعلى الطريق الزراعى كانت توجد كمية غير

معتادة من جعارين شهر مايو التى جردت الكثير من الأشجار من أوراقهـــا، والتى تشمئز منها أمى. وعلى أطراف الجبل كانت توجـــد بيـــوت خـــشبية يتصاعد منها دخان أو بخار. "أيجب دائمًا بنـــاء مـــصانع جديـــدة وتلويـــث الهواء؟" قال أبى بغضب، ولم نكن قد ذهبنا إلى الغابة بعيدًا عـــن المبـــانى، ولكننا لم نكن نعرف أننا قد مررنا بجانب معسكر اعتقال بوخنفالـــد. وكـــان التنوير الذى حصلنا عليه فى عامى ١٩٤٦ و١٩٤٧ مزلزلاً لقلوبنا ومحزنًا لها، وهكذا كنا شاكرين أيضًا أننا نعيش ومنذ الآن فى سلام، وأننا نستطيع أن نهب أنفسنا للعمل العلمى.

بالطبع لم يكد يوجد شيء ليؤكل، وعندما كنت أذهب إلى دروسى كنت أمر بالمركز الأمريكى حيث تنبعث منه الرائحة المغرية للكعـــك الأمريكـــى الطازج. وكم اشتهيت قطعة من هذا الكعك الطازج! (بعد عشرين سنة ضحك أصدقائى فى الولايات المتحدة على ذلك كثيرًا). وهكذا انكببت أنا وأمى كثيرًا على كتاب الطبخ لدفيدى هول من عام ١٩١٤؛ حيث وُصفت الوجبات الشهية بأنها تتكون "فقط" من ست وعشرين بيضة أو من ثلاثة كيلوجرامـــات مـــن شرائح اللحم البقرى، وكان هذا مما يهدئ من جوعنا.

كل شيء كان موجودًا فى السوق السوداء، ولكننا لم نكن نملـــك مـــا نبادل به. آنذاك طلب منى زميل ألمانى - أمريكى، كان ينبغى عليه أن يفتح لطلاب ماربورج أسرار العلوم السياسية أو الاجتماعية، درسًا خصوصيًّا فى اللغة التركية القديمة، ولم تكن نقطة تخصصى المباشرة، ولكنى عملت بكـــل جهدى حتى أعطيه - فى عشر ساعات بطولها - مدخلاً إلى هـــذه اللغـــة، وحصلت مقابل هذا على علبة سجائر أجرًا، لم تكن تكلفه الكثيـــر، ولكنهـــا كانت تعنى بالنسبة إلينا نصف كيلو سمن، وكانت تساوى آنذاك ثمانين ماركًا وأكثر. وكم كنا محظوظين حينما حصلنا مرة على طرد كاريه[٧٧]!

في هذه السنوات المبكرة كنا نملأ أنفسنا بالعلوم، نستمع إلى محاضرات زملائنا؛ كان فيرنر ميلش Milch، رفيق الحاشية، يتحدث عن "الديوان الغربي الشرقي"، (كان يسمح لي بالمساعدة)، وعن هوفمنستال. وقد تعمقت بصفة خاصة في اللاهوت وعلم الأديان. وقد وجدت في كلية اللاهوت توترات كثيرة، كانت بالدرجة الأولى بين رودولف بولتمان Bultmann[٧٨] ودعوته العقلانية لنزع الميتالوجيا عن الدين، وبين فريدريش هايلر المدافع عن الجانب الصوفي الغامض في المسيحية. وكان إيميل باله Balla المتخصص في العهد القديم يستطيع وببراعة أن يتلو سفري المزامير والأنبياء ويشرحهما. لقد كان يشبه بلا ريب مصلحًا يهوديًا أكثر منه لاهوتيًا مسيحيًا. وحينما قدم واعظ الطلاب الممتاز فولفجانج فيليب Philipp أطروحته للأستاذية تحت عنوان "الثالوث هو وجودنا" صالح باله مذعورًا: "ما زال يوجد من يعتقد في الثالوث!"، ولكن فيليب وكذلك زوجته أحدثا بعض التغيير في جو الكلية؛ حيث كان يتحدث بلكنة شرق بروسيا الواضحة الراء عن "التأثر المتخثر" ويؤكد الأصول السيلتية لأسرته[٧٩]، ومن ذا الذي يمكنه أن يظهر إبان حفلة جامعية بالروك الإسكتلندي، ويعطي أبناءه الخمسة أسماء إسكتلاندية؟ ولقد مات مبكرًا جدًا نتيجة لمضاعفات إصابة حرب.

كنت أنتمي للدائرة حول هايلر، ألم يكن هو الذي أحضرني إلى ماربورج؟ كنت أستمع إلى محاضراته بمنتهى الإعجاب وأشترك في التدريبات التي يقوم بها؛ حيث كنت أمثل حقل العلوم الإسلامية المجهول بالنسبة إليه، وهكذا نما نوع من التعايش الموفق. كذلك أعجبني جدًا نموذجه عن "الكثلكة الإنجيلية". وكنا نذهب أنا وأمي كل أحد إلى القداس الإنجيلي الذي يقيمه في الكنيسة الصغيرة في منزله، وكان الأصدقاء المقربون يشتركون في ذلك أيضًا. وفيما بعد كانت الكلبة الصغيرة ميترا تجلس، وكذلك خليفتها الأسود "لقيط"، بهدوء في الكنيسة الصغيرة. كثيرًا ما كنت

أختزل الخطب، وكنت أعلم أنه حينما تأتى جملة "الله محبة" فإن الخطبة سريعًا ما تنتهى. لقد كانت ساعات جميلة، يتضح فيها الارتباط النموذجى بالنسبة لهايلر بين العملية التعليمية والورع الصوفى.

ولم يكن وضع فريدريش هايلر داخل كلية اللاهوت مريحًا ولم يكن أمرًا مفاجئًا. وسيرته توضح هذا؛ فهو الذى شب فى ميونخ فى أسرة كاثوليكية شديدة التدين يهتم بالحداثة بشدة، وكان أرنستو بونايوتى Buonaiuti[٨٠] أحد المفضلين لديه بين علماء اللاهوت الكاثولكيين، وقد خص ألفريد لويزى Loisy[٨١] فيما بعد بأحد كتبه. كانت دراسته للاستشراق تمتد من الآشورية حتى السنسكريتية، وقد فتن طوال حياته بالديانات الهندية، وذلك بداية من كتاباته المبكرة حول "التأمل الروحى البوذى" و"التصوف فى الكتابات الهندية القديمة"، ثم ظهر هذا فى كتابه العلامة والموسوعى الضخم "الصلاة"، والذى بسببه دعاه ناثان زودربلوم إلى أوبسلا. وستكون هذه الزيارة حاسمة بالنسبة إليه؛ فهو قد اشترك إيانها فى قداس لوثرى، وقد تم طرده إثر ذلك مباشرة من الكنيسة الكاثوليكية، ولكنه لم يقم من جانبه مطلقًا بعمل قطيعة "رسمية" مع الكنيسة الرومية. وقرب نهاية حياته ظهر له البابا يوحنا الثالث عشر، بوصفه البابا إنجيليكوس المنتظر[٨٢] الذى يبجله بعمق، ويجذبه دائمًا بين حين وآخر إلى إيطاليا؛ حيث توجد أخته الروحية سوريلا ماريا فى أحد الأديرة الفرانسسكانية فى إيريمو. كان يحاول فى مؤلفاته العديدة أن يعيد رسم التطور المبكر للكنيسة، وكان يكن حبًّا خاصًّا للكنيسة الشرقية. وقد رسم كأسقف فى الكنيسة الغليكانية[٨٣] مما أتاح له أن يحتفل بين حين وآخر بليلة عيد الفصح الأرثوذكسية فى كنيسة صغيرة مع اليونانيين والروس الذين يعيشون فى ماربورج. كان سينقل تأديبيًّا عام ١٩٣٥ إلى مدينة جريفسفالد (فى شمال ألمانيا)، ولكن تغير ذلك إلى النقل الإجبارى من كلية اللاهوت إلى كلية الفلسفة، ومن هنا كان يستطيع أيضًا

الإشراف على أطروحات أستاذية الفلسفة. وعما إذا كان هذا العقاب موجهًا ضده وضد مواقفه السياسية أو موجهًا بشكل أكبر وكلى ضد كلية اللاهوت فى ماربورج؛ فهو أمر ما زال موضع نقاش إلى اليوم.

كان اطلاع هايلر أمرًا مثيرًا للإعجاب، وكانت محاضرته التى يلقيها فى عبارات انسيابية متموجة جميلة تجذب بصفة دائمة معجبات كنا نصفهن بمصطلح جوبيس Gopis الذى يأتى من الهندوسية، ويعنى تلك الفتاة البدوية التى تحدق مملوءة بالشوق إلى كريشنا Krischna، ولكنهن كن على كل حال فتيات بدويات عجائز، وكان من بينهن المخلصة جريتا جرونلاند المدرسة على المعاش التى كانت تهتم به منذ دعوته للعمل فى جامعة ماربورج عام ١٩٢١، ولكن الجوبيس المتحمسات لم يكنّ رغم ذلك ملائمات جدًّا لذوق زوجة هايلر الأقرب إلى تمثيل بروتستانتية عقلانية، والتى مثلت الاتحاد المسيحى الديمقراطى CDU فى مجلس النواب الألمانى إبان دورته التشريعية الأولى.

آنذاك خططنا لإصدار كتاب هايلر عن الصلاة فى شكل موسع، ولكن لم يحدث أكثر من هذا، ولكنى ما زلت أحلم منذ هذا الوقت باستخدام المئات من الملاحظات التى جمعتها آنذاك يومًا ما فى كتاب عن الصلاة الإسلامية، وذلك لأن هذا الموضوع يمثل – مثلما فى كل دين – قلب الإسلام الحقيقى.

وقد أصبحت الموضوعات التى عالجها هايلر مثل الحب الحسى Eros والحب الإلهى Agape – اللذين يمثلان شكلى الحب فى الدين، فقط بعد عدة عقود – موضوعات حداثية. كنت أشترك وزميلى جولدمر Goldammer[٨٤] فى التدريبات حول هذا الموضوع، وكان الطلاب يتفكهون عندما يقرأون فى جدول المحاضرات: الحب الحسى والحب الإلهى: د.جولدمر ود. شيمل.

وكان موضوع "المرأة فى الأديان" أحد الموضوعات المحببة لدى هايلر، وحول هذا الموضوع نشر أيضًا كتابًا لم يعد للأسف معروفًا جدًا، ولكنه كان يبذل نفسه دفاعًا عن ترسيم النساء كقساوسة، وقد أطلقنا عليه بحب لقب "شفيع عضوات هيئة التدريس". أما الأمر الذى ما زال يمثل لغزًا باقيًا بالنسبة إلىَّ فهو: لماذا أصبح هو وكتبه غير معروفين بما يكفى، خاصة فى المنطقة الأنجلوساكسونية، بينما أعمال الروائى العبقرى مرثيا إليادا Eliade[٨٥] تعامل بوصفها non plus ultra أى "قمة مطلقة" فى علوم الدين؟ مع أن هايلر ومن الناحية العلمية العميقة قد تفوق عليه بشدة، ولكن ربما حدث هذا بسبب طريقته الانطوائية أو بسبب جنوحه إلى التصوف أو بسبب دقته الألمانية التى تتجلى فى آلاف الملاحظات، وربما تمثل السبب أيضًا وإلى حد ما فى ميله إلى رؤية الرحمة والجمال الشاملين فى كل مكان، وتركيزه القليل إبان ذلك على الجانب المخيف والمروع للمقدس mysterium tremendum، والذى ينتمى مثله مثل الشغف والفتنة fascinans إلى الدين. (وأحيانًا تبدو طيبته الكبيرة جدًا فى تقييم رسائل الدكتوراه؛ مما أدى إلى زيادة حدة التوتر بينه وبين بولتمان). ولكن هايلر كان كذلك رجل الانسجام؛ فهو موسيقار وعازف رائع على البيانو، وعندما ظهر ديوانى الغنائى "عذاب الناى" عام ١٩٤٨ لحنه بنغمات رومانسية، وكان يحب أن يغنيه.

وهكذا جاء عام ١٩٤٧، وتأقلمت "قطتنا الفارسية الصغيرة"، كما كان المؤرخ العجوز يسمى زميلته الشابة، بالكامل مع ماربورج، واعتادت كذلك على البنيات الاجتماعية لجامعة مدينة صغيرة. كانت توجد لجنة تسمى "مثقفون يساعدون مثقفين"، وكانت مجموعة الأعضاء تتكون فى الغالب من البروفيس Prowis[٨٦] (والتسمية لأمى)، أى أرامل الأساتذة، اللاتى توزعن فى أطراف المدينة مثل شبكة، وقد أصبحن كلهن "السيدة الأستاذة الدكتورة"،

مع أن الكثيرات منهن كن فيما سبق مجرد طباخات أو مدبرات منزل للسيد الأستاذ الدكتور. أما الوحيدة التى كانت عن حق أستاذة دكتورة فكانت لويزا برتولد، التى كانت متنبهة وباستمرار إلى أن لا تعنون البلاغات الرسمية للإدارة على "السادة" الزملاء فقط، وكانت بحق حريصة جدًا على إضافة كلمة "الزميلات". (ما زلت أتلقى حتى اليوم أيضًا خطابات إلى السيد الأستاذ الدكتور أنا مارى شيمل!). ومن لويزا برتولد تعلمت أيضًا الإجابة عن الملاحظة التى كثيرًا ما تقال للنساء الناجحات: "أخ، يا لها من خسارة، أن ليس عندك أطفال!"؛ فقد كانت تقول بكل بساطة: "أنا أحتاج شخصيًا إلى كل تركتى".

ومن ثم بدأ المرء مشروعات علمية جديدة: كان هانز فير Wehr[87] الذى كان آنذاك أستاذًا للدراسات العربية فى إيرلنجن، يواصل العمل فى قاموسه "معجم اللغة العربية". وكنا نحن الزملاء الشباب نستخرج النصوص الحديثة ونبحث عن معان جديدة للكلمات، وكل معنى وجد جديدًا كان يدون مع مكان وجوده على ورقة، وكانت كل ورقة تكافأ بعشرة فينيجات، وقد جمعت من ذلك مائتى مارك!

كان صيف ١٩٤٧ حارا بشكل غير معتاد، أما بالنسبة لسيمنار هايلر فقد وجدت بالتأكيد بعض نقاط ذروة؛ حيث احتفلنا - على سبيل المثال - بعيد انقلاب الشمس[٨٨] عند إيركا شتويفساند Stoevsand بحفلة ليلة صيف حقيقية. كان على كل واحد أن يحضر شيئًا صغيرًا معه، ومن ثم وجدت كمية متزايدة من الخبز ساعدتنا على الرقص حتى قرابة الصبح، و طالما كان هايلر يعزف وبلا كلل موسيقى رقصة الفالس (كون أن هناك أنواعًا أخرى من الرقص، فهذا ما لم يكن معروفًا لديه)، وكان اثنان من طلابنا قد أحضرا باقة من الياسمين من حديقة مهملة - لقد كانت حفلة لا تنسى. وبعد عشرة أيام احتفلنا بعيد الميلاد السبعين لهيرمان هيسه Hesse. وقد دعا

هيلموت روكريجل Rückriegel الذى كانت لديه قاعة فسيحة، بعض الزملاء من دارسى الجرمانيات وأعضاء سمينار هايلر، وكانت الأغلبية منا تسمع للمرة الأولى عن "ذئب البرارى" وعن "رحلة الشرق". وكتبنا بافتتان خطاب تهنئة إلى هيرمان هيسه وهربناه بواسطة عسكرى أمريكى إلى سويسرا. وقد أرسل صاحب فكرة الاحتفال، كولد Cold (وهو عالم أديان عبقرى ولكن من الصعب ترويضه) ديوانى "عذاب الناى" بعد عامًا إلى المبدع المبجل، وكذلك نصوصًا طبعها فى مطبعته اليدوية فى هولتسمندن. وقد جاءنا لسعادتنا الكبرى جواب شكر، وأما أنا فلم أحصل فقط عام بعد آخر على الطبعات الخاصة الصغيرة، وإنما أيضًا على صورة جميلة بالألوان المائية موقعة من هيسه الذى كتب فى عام ١٩٥٧ مقدمة لترجمة "كتاب الخلود" لإقبال. وفى هذا الوقت تعرفنا كذلك على أعمال بريشت Brecht، وكانت قصيدته Tao-Te-King تكاد تصبح عملاً مقدسًا.

كذلك وقع حدث بقى فى ذاكرتى لفترة طويلة؛ فقد أخبرنى إرنست كونل بزيارة خبير الفنون الإسلامية د.س. رايس Rice الذى كان مع الجيش البريطانى فى ألمانيا. وقد جاء يوم أحد، ولم يكن لدينا بالكاد ما نأكله، وكان يجب على أمى أن "تستلف" بعض البطاطس، ولكن سرعان ما اتضح أن الزائر كان قد أحضر فى سيارته الفولكس - فاجن بعض ما يؤكل ويشرب. ومن ثم جلسنا تحت الشمس وتحدثنا عن الفن وفنون الخط وعن الزخارف العربية، وقد اشتكيت آنذاك قليلاً من أنه لا يوجد حبر للرسم، وبعد أسبوعين جاءنا طرد صغير مع قصاصة تقول: "الأسود هو الحبر!" - أما البقية فكانت كريم بوند وما يشبه ذلك من الأشياء الغالية التى لم نرها من قبل. وقد سمعنا فيما بعد أن زائرنا ألمانى متخصص فى الساميات ذو أصل يهودى (رايش)، وأنه جعل حياة الكثير من المستشرقين الألمان سهلة بعض الشىء، وذلك بما يرسله من المواد الغذائية. وقد استمرت صداقتنا، وقد ساعدنى أثناء زيارتى الأولى إلى لندن المحيرة، ثم هزنا وبعمق خبر انتحاره عام ١٩٥٧.

كان المرء يستطيع فى منتصف أغسطس ١٩٤٧ أن يقرأ فى الصحيفة خبرًا صغيرًا يقول مؤداه: "تم تقسيم شبه القارة الهندية - إلى الباكستان (غرب وشرق) وبهارات". ولأن هذا الاسم الأخير لم يكد يستعمل، وكان الجميع يسمى ذلك البلد الكبير "الهند"؛ فقد بقيت الباكستان لمدة طويلة فى الظل ولم تكد تعرف. ومن كان يعرف شيئًا عن مأساة اللاجئين التى وقعت بسبب هذا التقسيم؟ لقد احتجت إلى وقت طويل حتى أدرك أن عاصمة الدولة المسلمة الجديدة هى كراتشى وليست دلهى كما كان يمكن للمرء أن يدلل تاريخيا؛ حيث كانت بمثابة القلب للهند المسلمة لأكثر من تسعة قرون. أما كون منطقة نظام حيدرأباد - حصن الثقافة الإسلامية فى جنوب شبه القارة - قد ضمت سنة ١٩٤٨ من قبل الهند، وذلك لأنها - رغم حاكمها المسلم - ذات أغلبية هندوسية، بينما ضمت كشمير كذلك إلى الهند - رغم أن أكثر من تسعين فى المائة من سكانها مسلمون - وذلك بدعوى أنهم تحت حاكم هندوسى، فإن هذا يمثل أساس الاضطرابات القائمة فى شبه القارة حتى اليوم.

وقد شهدت سنة ١٩٤٨ كذلك عملية الإصلاح النقدى، وبالتالى بدأت الحياة تأخذ طبيعتها بالتدريج، فالمحلات ملئت أثناء الليل بالبضائع، وكان كل شخص يشترى كل ما كان أو كانت يحلم أو تحلم به. وكذلك ظهرت قبل ذلك بقليل ترجمتى للرواية التركية "نور بابا: اللهب والفراشات" ليعقوب قدرى، وقد حولت دار النشر الذكية مكافأتى فى اليوم السابق على الإصلاح النقدى. هكذا أدت دار النشر ما عليها فى العقد، ولكننى حصلت على فلوس لا قيمة لها. وكذلك حدث شىء آخر قبل يوم أو يومين من الحدث الكبير؛ فقد أقيم أول مؤتمر للمستشرقين بعد الحرب فى مدينة ماينتس، وقد نظم أيضًا من قبل هيلموت شيل الذى جاء من برلين إلى ماينتس بعد أن تغيرت تصوراته للعالم، ولم تكن موهبته التنظيمية فى ماينتس أقل مما كانت عليه أثناء

مؤتمرات المستشرقين فى برلين. وقد شهد المؤتمر ذروتـه باختبار نبيذ الموسم فى أوبنهايم، وأثناء محاضرة الحفل الرسمية، وكانت عن "صناعة النبيذ فى مصر القديمة"، كان المحاضر قد بدأ يترنح قليلاً، ولكننا كعلماء جائعين بحق تمتعنا بحفلة باخوسية[٨٩] مع الموسيقى والرقص، وقد تعجب ريشارد هارتمان فى الصباح التالى؛ لأن القليل من الناس فقط هم الذين ظهروا فى مجالس الأقسام.

من خلال تأثير الأمريكيين تزايد الاهتمام بعلم الاجتماع. بالنسبة إلى الكثير من الأمريكيين كان المؤلف العربى ابن خلدون (ت ١٤٠٦م) هو المؤسس الحقيقى لهذا العلم، وحينما يقول المرء إنه مستعرب يقابل كثيرًا برد الفعل: "أوه، إذن فأنت تعرف ابن خلدون؟". وهكذا كان "يجب" علىَّ – بناء على اقتراح عالم الاجتماع الماربورجى ماكس جراف زولم Solm – ترجمة أجزاء من عمل ابن خلدون، وهو عمل يضطلع به المرء فقط عندما يكون صغيرًا وشجاعًا جدًّا.

فى هذا الوقت قمت بالإشراف على أول رسالة دكتوراه فى حياتى المهنية. كانت صديقتى إنجس تدرس للدكتوراه فى الدراسات التركية، ولأنها كانت آنذاك مخطوبة أيضًا؛ فقد كتبت لها قصيدة تهنئة ينبغى أن تقدم نظرة سريعة على موضوعات الدراسات التركية:

إلى أولى بناتى الأكاديميات

حينما قاربنا المغول مرة

قبل مئات من السنين بشدة،

تحدث إلى البابا عالم كبير بحكمة:

"أسس إذن مدرسة لغات،

حتى تعلمنا لغات الوثنيين،

لنهديهم بطلاقة اللسان المبين.

نريد أن نثقف الفتيات لغويًّا،

ثم نبعث بهم إلى المتوحشين،

ونهبهم للقادة هناك زوجات،

حتى يرى كل شخص فضائلهن

ويبادر بتقليدهن..."

وللأسف لم تبعث المدرسة للحياة!

ومرت سبعة قرون،

قبل أن نحقق الهدف المزدوج!

فكما تعلمتِ أن تضني عقلك

بلغات "التتار المتوحشين"،

كذلك تفوقت بشكل آخر،

وتملكت قلبًا غريبًا.

حقًّا - ليس فى رتبة ملك التتار،

وإنما حقوقى فى ماربورج على نهر لان.

ورغم ذلك يقترب اليوم

- بمناسبة الاحتفال المزدوج -

ضيوف كثيرون؛

فالترك من أعماق آسيا يأتون

بأصواتهم الفرحة العالية:

محمود الكشغارى[٩٠] يحمل بفخر عظيم

حكمته الكبيرة التى تثقل كاهله.

وبجانبه يقف الصبية الأوزبكيون،

الذين أدركوا أن للصوت قانونًا،

ويلوح الكازاخيون بستراتهم

بينما يحرك الكاراكالباكيون[٩١] طواقيهم

وأثناء ذلك يفرغ التشوفاشيون[٩٢]

حقائب سفرهم المملوءة جدًّا:

لبن وسمن وجبن وبيض كثير

وينظر الكراتشيريون

الذين جاءوا لوقت قصير

مع البرجبالكاريين

إلى ذلك بدهشة.

وفى الزاوية وقف بعض الشوريين،

الذين يشعرون

بأنهم فى الضجيج مفقودون،

وذلك حتى احتفلوا مع الطآيين[٩٣] الآخرين
بكل متعة بالخطوبة أيضًا.
حتى المنتسب لآل عثمان
الذى عادة ما يُهان
يلوح للتهنئة بعلمه الهلالى،
وجاء القيرقيزيون مفتونين
من وطنهم المغطاة سهوله بالثلوج البيضاء.
ومثلهم تقريبًا كان التركمان،
الذين جاءوا لتهنئتك بشوق وحنان.
وكذلك اقترب الياقوتيون والدولجانيون
والتتار والبشكيريون والكومانيون،
الكارايميون والكيبتشاك والأويغوريون –
وكل الذين مروا
من بلاد الترك مرة! –
أخ، المهنئون كثيرون جدًّا!
وإليك أخيرًا التهنئة الأكثر قلبية من

جميلة

ثم انفتح العالم وجاء ضيوف كثيرون من الداخل والخارج إلى ماربورج، وكان المرء يلتقى فى بيت هايلر بالعلماء الكبار مثل جيراردوس

فان دير لوف Leeuw ويواخيم فاخ Wach وكذلك امتلأ سجل الزوار بأسماء أغلب المستشرقين الألمان. أتذكر فيلهلم جونديرت Gundert الذى حرر مع فالتر شوبرنج Schubring ومعى الأنطولوجيا الجميلة "شعر الشرق" Lyrik des Ostens، والتى حُققت بحماسة من قبل هربرت ج. جوبفرت Göpfert الذى رافقنى وباستمرار على طريقى الأدبى. كان جونديرت، أحد أبناء عمومة هيرمان هيسه، مختصًا بجزء الشرق الأقصى من الكتاب، وكان قد عاش فى اليابان فترة طويلة، حتى إنه أصبح يابانيًّا تقريبًا؛ فهو رقيق، ومتحفظ، وضاحك. وكنا نسميه "الرجل الأرزى الصغير". ومما لا ينسى كيف ترجم إيان زيارة سوزوكى محاضرته عن البوذية اليابانية Zen – Buddhismus[٩٤]. حقيقة فإن السيدين العجوزين كليهما كان "يعيش" البوذية اليابانية أمامنا. وفى النهاية أعطى سوزوكى جونديرت لطمة فردها إليه مرة أخرى، وبابتسامة انحنيا أمام المستمعين. وقد نمت صداقة جميلة مع هذا العالم الحكيم. لو حدث هذا اليوم كنت سأسهم فى مثل هذه الأنطولوجيا بأضعاف ما أسهمت به من الأشعار العربية والفارسية والتركية، ولكن كان هذا هو الصعود الأول إلى منطقة اهتممت بها لسنوات طويلة وما زلت.

وبعد قليل جاء أيضًا الضيوف والطلاب الأجانب إلى ماربورج، وكان أول تركى درس هناك هو نديم الذى كان محبوبًا جدًّا كلاعب كرة قدم أكثر منه كطالب مثالى، وكذلك جاء نيازى ونعيمة باديملى – وماذا كنا نستطيع أن نفعل فيما بعد فى أنقرة دون الضيافة الودودة والفياضة لعائلة باديملى؟ ومن خلال حكايات نصرت عن "خالته المتصوفة" تعرفت على أسرة متحفظة جدًّا، ستفتح لى فيما بعد الطريق إلى معرفة سميحة أويفردى Ayverdi. ثم أضيف بالضابط الأمريكى جيم بيابودى، الذى كان يريد تعلم العربية لدىَّ عنصر جديد إلى حلقة هايلر. ومن خلاله عرفت شيئًا عن أسر البحارة فى بوسطن القديمة، وحينما تلاقينا مرة أخرى بعد عقدين تبين أنه ينتمى مثلى إلى

الهارفارد هاوس[٩٥] نفسه، ولكنه فى ماربورج وأثناء الاحتفال الهايلرى بنيكلاوس كان يمثل نيكلاوس الكريم جدًا، وكان يفعل هذا بلبس ملابس هايلر الدينية.

كذلك لا بد لى من أن أشير إلى شخصية أخرى غريبة زارت ماربورج هى إلزا صوفيا فون كامب هوفينر Kamphoevener، التى دعوتها لإلقاء محاضرة، وذلك لأن حكاياتها الجميلة An Nachtfeuern der Karawan-Serail أى "بجوار نار ليل قافلة الحريم"[٩٦] كانت آنذاك من أكثر الكتب رواجًا. بالطبع كانت النواة التركية الحقيقية للحكايات صغيرة جدًا، حتى إن مستشرقى التخصص هاجوا للأمر، ولكنها حين تحكى ينسى المرء كل شىء ويندمج فى الحكايات. وفى ماربورج تحدثت المرأة الضخمة جدًا فى بيت أمريكا أمام اتحاد النساء الإنجيلى - لسوء الحظ! - عن "الحياة فى الحرملك". وقد أنصت ثلاثة رجال شجعان وعدد كبير من السيدات الفضليات العجائز باندهاش وفزع متناميَيْن إلى دفاع المؤلفة عن الحريم فى صرخات متصاعدة تطالب فيها النساء بأن يعتنوا بالتقليل من قيمة الرجال: "لا بد من أن يصبحوا صغارًا جدًا!". وقد شهد الأمر ذروته فى ملاحظتها التالية: "أخواتى العزيزات، عندما تشبع كل سيدة منكن من رجلها، ينبغى أن تشترى أمةً جميلة، تزينها، وتعطرها، وتقول لها: امنعى هذا المقزز العجوز لأطول مدة ممكنة عن جسدى!".

ولم أعرف من ثار وسخط علىَّ أكثر من الآخر، السيدات البروتستانتيات أم الرجال الثلاثة الذين كانوا مصروعين تمامًا.

وفى هذا الوقت أيضًا صدر الأمر باستحداث درجة دكتوراه فى تاريخ الأديان (Dr. sc. rel.) وبذلك تمكنت الكنيسة الإنجيلية فى كورهيسن - فالديك من تحقيق إحدى أمنياتها التى كان يفصح عنها بصورة مستمرة منذ أيام رودولف أوتو. وقد أصر هايلر على أن أكون الأولى التى تحصل على هذه

الدرجة، ومن ثم تقدمت بعمل حول "مصطلح الحب الصوفى فى الإسلام". وقد رأى بولتمان أن العمل ليس طريفًا جدًا، وهذا ما يمكن الآن فقط أن أوافقه عليه. وقد وقعت بين الزملاء الكثير من المشاحنات حول نيل هذه الدرجة، غضب شديد، وكثير من الأحداث التى تبدو عجيبة ومثل كسور القدم التى لا جابر لها، حتى إننى - وبعد كل هذا الغيظ - لم أفكر مرة فى أن كلية اللاهوت سوف تحتفل وبأجمل طريقة فى مايو ٢٠٠١ باليوبيل الذهبى لرسالتى للدكتوراه، ولأجل هذا فإننى شاكرة؛ فهذه الدكتوراه لعبت دورًا مهمًا وحاسمًا فى مسارى المهنى اللاحق. أما كون هذه الدرجة قد ألغيت من قبل الكنيسة بعد ثالث دكتوراه، وذلك حتى لا يتمكن طالب ليس مسيحيًا من الحصول على درجة دكتور من كلية اللاهوت الإنجيلى، فإن هذا مما يناسب هذا السيناريو غير المعقول.

وقد ظهر أن لويزا برتولد بتحذيرها من الرجال كان لديها حق، حينما عاق بعض الزملاء ترقيتى عام ١٩٥٣ إلى درجة أستاذ خارج الهيئة (منتدب)، ولكن هذا كان يعنى فقط سنة تأخير، وإن كانت حياتى قد أخذت تتحول تحولاً مغايرًا تمامًا.

السويد، لأول مرة فى الخارج

كانت مارتا تام جوتليند Tamm-Götlind، وهى رائدة سويدية مكافحة لأجل ترسيم النساء قساوسة من بين الزائرين الكثر الذين وفدوا على هايلر، وقد دعتنى فى عام ١٩٤٩ لزيارتها وللمشاركة فى مؤتمر "السلام والحرية" فى ستوكهولم. هذا جميل وطيب، ولكن السماح بالسفر جاء بعد يوم فقط من انتهاء المؤتمر، وذلك لأن الأمريكيين رأوا فى منظمة السلام والحرية حركة دعائية شيوعية، ولا ينبغى أن يكون لأحد ممن يقيمون فى القطاع الذى يحتلونه صلة بها. أخيرًا جلست فى القطار المتجه إلى الشمال، ووصلت بعد

بعض المغامرات إلى مدينة أودفيلا على الشاطئ الغربى للسويد، ومن هناك نقلنى مركب إلى بوكنيس. وعلى الجزيرة قضيت عشرة أيام جميلة حسنت فيها لغتى السويدية ذات الطابع التيولوجى من خلال الكلمات المفيدة من الحياة اليومية؛ ففى كل صباح كان ينبغى علـى أن أذهب إلـى الشاطئ لأتبضع. وقد وجد الكثير من الحوارات الجذابة حول التيولوجيا والحركة النسائية. أما حصول مارتا قد فيما بعد فى عيد ميلادها التسعين علـى الدكتوراه الفخرية من جامعة أوبسلا، فهذا ما استحقته عن جدارة بكل تأكيد.

ثم سافرت من الشاطئ الغربى عبر جنوب السويد إلـى ستوكهولم، وسمح لى بأن أسكن لمدة أسبوعين فى سيجتونا شتيفتلسا، وهى دار نقاهة تخص الكنيسة السويدية. كنت أشعر فيها بأننى غير مستريحة بعض الشيء، وذلك بسبب كل هذا الترف الذى يُغدق علىَّ. ألم يكن من الممكن على الأقل أن أجعل نفسى مفيدة بمحاضرة ما؟ لكن لا، كان علىَّ أن أستمتع بهذا كما شرح لى أسقف ستوكهولم مانفريد بيوركفست Björkquist، الذى كان إنسانا لا يُنسى؛ فهو طويل رشيق، ورجل دين ذو جاذبية حقيقية.

ثم كانت أوبسالا، حيث عشت لـدى صـديقة لمارتـا. كنـت أزور الكاتدرائية الضخمة بشكل منتظم، حتى أستمتع بالخطب الرنانة وأسعد دائمًا برؤية صورة القصر القديم الذى يرتفع قبل السماء الصافية مثـل الزجـاج النقى. وفى وسط العلماء الكبار الكثيرين كنت أتصور أننى فى حلم. وهـل رأيت مرة مائدة غذاء مملوءة بالأشياء النفيسة كتلـك التـى رأيـت عنـد البرفوسور سيترستين Zetterstéen الذى تعرفت على مؤلفه حـول تـاريخ المماليك إبان دراستى؟ بالطبع قمت بزيـارة جيـو فيـدنجرين Widengren مؤرخ الأديان الذى اتهمنى بداية بالذنوب السياسية لأستاذى المبجل شـيدر، والتى لم تكن معروفة لى، ولكنه أصبح فيما بعد صديقًا، وتمكنت من العمـل معه بصورة طيبة فى "الجمعية الدولية لتاريخ الأديان". كان فيدنجرين فارسًا

كبيرًا فى الدفاع عن الله؛ ولذلك حملت مقالتى حول تربية الروح فى الكتاب التذكارى المهدى إليه عام ١٩٧٠ عنوان "فقط حصان جموح...". كانت أبحاثه ذات طبيعة مختلفة تمامًا عن أعمال هايلر التى تتجه إلى التصوف، وكانت الألسنة الشريرة تصفها بأنها "جيولوجيا".

ولكن اللقاء المركزى والأهم كان مع هنريك س. نويبرج Nyberg الذى كنت مفتونة بأعماله منذ فترة الدراسة. لقد كان أحد أوائل المستشرقين الأوروبيين، إن لم يكن أولهم، الذين قدموا شرحا للكتابات المعقدة للحكيم الكبير ابن عربى. أما كتابه الرئيسى حول "ديانات إيران القديمة" فقد ترجمه شيدر. وفى بيت نويبرج المضياف تقابلت مع ابنته زيجريد والتى ربطتنى معها منذ تلك الأيام صداقة دائمة استمرت حتى الآن لأكثر من نصف قرن. كنت معجبة بأسلوبها اللامع فى السويدية والإنجليزية والألمانية. ولأنها تزوجت بعد قليل بالدبلوماسى الألمانى هانز (جون) كاله (وهو على كل حال ابن لمستشرق)، تتقاطع طرقنا بصفة متكررة - فى بون وهارفارد والسويد، ولا ينبغى أن ننسى أصدقاءنا المشتركين فى باكستان والهند.

ولكن أكبر حدث إبان هذه الزيارة الأولى من ضمن زيارات عديدة لأوبسالا كان اللقاء مع قرينة الأسقف، أنا زودربلوم، أرملة ناثان زودربلوم التى كانت تسكن فى مبنى برج قديم قريب جدًا من كنيسة الكاتدرائية، وكان يُسمح لى بصفة متكررة بالذهاب إلى السيدة العجوز لأحكى لها عن فريدريش هايلر وعن تاريخ الأديان. وقد تصادقت مع إحدى حفيداتها (رزقت أسرة زودربلوم عشرة أطفال، ثلاث منهم بنات كن جميعًا متزوجات من أساقفة الكنيسة السويدية اللوثرية). وكذلك سمح لى بأن أشارك العائلة فى الاحتفال بعيد الميلاد التاسع والسبعين لهذه السيدة المبجلة ذات العيون المشرقة.

وبذلك كانت أول إقامة لى فى الخارج حدثًا مؤثرًا من كل النــواحى. ألقيت عدة محاضرات، بل وحصلت على مكافأة صغيرة، وكانت هذه فرصة رائعة لأن أشترى شيئًا، وذلك لأننا لم نكن نمتلك عملـــة أجنبيـــة، وهكـــذا استقرت القبعة التى كنت أحلم بها فى حقيبتى التـــى كانـــت تـــزداد امـــتلاء بالملابس المهداة إلىَّ.

كثيرًا ما كنت أعود إلى السويد، وخاصـــة إلـــى ســـتوكهولم وإلـــى جوتبورج، ولكننى لم أحلم مرة بأن أحصل على الدكتوراه الفخرية من كليـــة لاهوت أوبسالا. لقد كانت زيجريد هى التى أخبرتنى تلفونيا فى بداية عـــام ١٩٨٦ بالخبر المفاجئ تمامًا. وفى نهاية مايو كان الوقت قد حان: دكتـــوراه فخرية سويدية هى إلى حد ما شىء احتفالى جدًّا؛ فقبل الحفل يجرب المـــرء الطوف وقبعة الدكتوراه (التى تبدو مثل قبعة ركوب الخيل النسائية). يرتدى الحاصلون على الدكتوراه الفخرية فى الآداب إكليلاً من الغار، ثـــم يتـــدرب المرء على طقوس الحفلة، كيف يخطو فى قاعة الاحتفـــالات، والانحنـــاء، والدوران إلى قاعة المحاضرات، وباختصار لقد كان الأمر مثيرًا. وفى كلية اللاهوت تم تكريمى أنا وكورت روه Ruh. ولم يكن أحد آخر أحـــب إلـــىَّ ليكرم معى أكثر من هذا العارف الأكثر تعمقًا فى التصوف الألمـــانى فـــى العصور الوسطى! ثم وجدت نفسى على السلم الخارجى إلى جوار بطـــرس غالى، وزير خارجية مصر الأسبق. وفى المساء كان طعام العشاء الفخـــرى فى القصر، وقد طلب منى أحدهم أن أقوم بإلقـــاء كلمـــة شـــكر المكـــرمين الأجانب، ومن العجيب، حتى بالنسبة إلىَّ، أننى تمكنت من أن ألقـــى كلمـــة سويدية - إنجليزية - ألمانية، ثم تمتعت بالمساء الذى كان مرافقًا بالموسيقى - لم تكن "موسيقى كلاسيكية أكاديمية"، وإنما موسيقى مسلية عالية القيمة - وكان من بين هذا قطعة Old Man River. وقد بقيت أوبسالا منذ هذه الأيـــام فى ذاكرتى بوصفها بحرًا من زهور الليلك التى تنشر عطرها فى كل مكان. ألم يكن هذا هو عطر المقدس؟!

هولندا، بلد مؤرخى الأديان

من بين الزائرين الذين قابلتهم فى بيت هايلر كان أيضًا جيرـاردوس فان دير لوف، مؤرخ الأديان المعروف من جرونينجن، والذى قرأنا بإعجاب مقدمته فى ظواهرية الدين. وقد ذكر أنه من المزمع إقامة أول مؤتمر دولى بعد الحرب لتاريخ الأديان فى أمستردام فى عام ١٩٥٠، وذلك أيضًا حتى يعلن عن تأسيس "الجمعية الدولية لتاريخ الأديان" (IAHR). قصد مغر، ولكن كيف سيستقبل الهولنديون المعاصرون الكثير من الزملاء الألمان بهذه السرعة بعد الحرب؟

ولكن لم نكن نحتاج إلى مثل هذا التردد. لقد مر المؤتمر فى جو من اللطف والمؤانسة العاليين. وبسبب نقص العملة الأجنبية تم إسكاننا لدى عائلات هولندية، وقد أوكل أمر تسكينى – لأجل إطراب الزملاء – إلى مديرة بوليس الآداب التى اهتمت بى كأفضل ما يكون. أما المؤتمر نفسه؛ فياله من حدث، خاصة حين تتحول أسماء كثيرة جدًا من أهل التخصص إلى أناس يسعون! كان هناك كارل كيرينوى Kerényi المتخصص المجرى فى ميثالوجيا العصور القديمة، وكذلك جيرشوم شوليم Scholem العارف المتعمق فى التصوف اليهودى (الكابالا). وقد تصادقنا بعد خمس سنوات إبان مؤتمر روما، حينما كنت أعمل فى أنقرة، وذلك لأنه كان مهتما بجماعة الدونمة الغريبة التى تعيش بالدرجة الأولى فى سالونيكى، وهم أتباع "المسيح المزيف" زاباتاى زيفى Zwi (١٦٢٦-١٦٧٦) الذى تحول فى السجن التركى قرب نهاية حياته إلى الإسلام وتبعه فى هذا أتباعه. ورغم أن الدونمة مكروهون من قبل المسلمين شديدى التدين، فإنهم طوروا لونًا من الورع الصوفى المثير جدًا للاهتمام، وهم يستخدمون – بكل سرور – قصائد المتصوف الأناضولى يونس إمره، ويمزجون ذلك ببقايا الموروث اليهودى لديهم. وكان شوليم يعمل آنذاك على كتابة ترجمة لزاباتاى، وكان كتابًا مكتوبًا ببراعة مثل بقية أعماله.

وكان هناك أيضًا العلامة البشكيرى زكى وليدى طوغان المتخصص فى الدارسات التركية، والذى كان رئيسًا لدولة بشكيرستان حينما استقلت - لوقت قصير - بعد الحرب العالمية الأولى، وكان يعمل - بعد إقامة طويلة فى ألمانيا - فى إستانبول. وقد قام بدعوتى إلى الطعام، وكذلك حتى يصقل نص محاضرته. وبعد تناول الطعام وضع طقم أسنانه فى علبة مع الملاحظة المقتضبة "إنه يؤلم!"، ولكن هذا لم ينل من علمه ولا من فكاهته شيئًا.

تمثلت ذروة المؤتمر - بالنسبة إلىَّ - فى اللقاء مع لويس ماسينيون الذى قرأت عمله الضخم عن الحلاج بمشقة كبيرة وافتتان عظيم إبان فترة دراستى. وقد أحضرنى هايلر إليه، وبينما كان العالم يلح علىَّ بالقول بلطف وبأسرع فرنسية ممكنة وقفت أمامه فى اضطراب مُخرِس. لم يحدث قبل أو بعد هذا أن التقيت إنسانا له مثل هذه الشفافية المشعة، كأن حب الحلاج لله، وشوقه للحب الإلهى وللرحمة، وكذلك معرفته بضرورة قبول الألم، قد تركز فى وجهه النحيف حلو التقاسيم وفى عيونه كذلك. ولم يكن ماسينيون الباحث العلمى للتصوف الإسلامى فقط، وإنما كان دائمًا مدافعًا - أيضًا فى الأخطار - عن المضطهدين (على سبيل المثال الجزائريين). وقد أرسلت إليه فيما بعد نصوصًا حول حياة الحلاج المستمرة فى أشعار الشعوب الإسلامية المختلفة، وبخاصة فى شبه القارة. وفى عام ١٩٥٧ تقابلنا مرة أخرى إبان مؤتمر المستشرقين فى ميونخ، وجلسنا مصادفة معًا إبان محاضرة للمستشرق الميونخى فرانز بابينجر Babinger تحدث فيها عن المزار المقدس لأصحاب الكهف فى الأناضول، وكان - أى ماسينيون - يزفر بين حين وآخر: " Cet homme ne croit pas, il ne croit rien!" أى "هذا الإنسان لا يؤمن، لم يؤمن قط!"، وذلك لأن معالجة موضوع أهل الكهف، الذين يثمنهم غاليًا، من وجهة نظر تاريخية نقدية فقط، بدا له نوعًا من التدنيس وانتهاك الحرمة. وبعد عام تقابلنا مرة أخرى فى اليابان إبان مؤتمر مؤرخى الأديان فى نهاية صيف

١٩٥٨. وكان حديثنا الأخير فى مصعد مزدحم فى فندقنا فى طوكيو عن "وردة المتصوفين" rosa mystica، الوردة كرمز للجمال والمجد الإلهيين، وذلك كما ظهرت فى فى الأعمال التى اشتهرت لأول مرة بفضله للمتصوف الشيرازى روزبهان البقلى[٩٧]. لم نكن نلاحظ الضيق فى المصعد - لقد اصطحبنى إلى عالم روحى سامٍ. وهكذا بقى فى ذاكرتى: إنسان يكاد يكون مقدسًا، أجل، قديس حقيقى.

وفى أمستردام أعيد تأسيس "الجمعية الدولية لتاريخ الأديان"، وبذلك أصبح لدارسى الديانات منظمتهم الخاصة التى امتدت ببطء من العالم الأوروبى إلى أمريكا أولاً ثم إلى الشرق والجنوب. وفى عام ١٩٥٨ وجد فى اليابان مؤتمر بينى ذو قيمة كبرى، وقد اشترك فيه وبنشاط كبير الأمير ميكاسا - الأخ الأصغر للقيصر. وفى عام ١٩٦٠ كانت ماربورج مكانًا للمؤتمر. ثم تقابلنا فى ستوكهولم عام (١٩٧٠) وفى لانكستر عام (١٩٧٥). وائتمرنا فى سيدنى فى عام ١٩٨٥، وفى عام ١٩٩٠ عقد المؤتمر للمرة الثانية فى روما. لقد أحببت هذه اللقاءات، ولكننى لم أحلم مرة بأننى سأختار فى فيننبيبج عام ١٩٨٠ رئيسة للجمعية - وكنت بذلك أول سيدة وأول متخصصة فى الدراسات الإسلامية. وفى مؤتمر روما عام ١٩٩٠ كان وداعى لرئاسة الجمعية، وكذلك للاشتراك النشط فى مؤتمراتها. لقد تغيرت المناهج والمثل العليا لعلم الأديان بشدة؛ فالتركيز الآن بالدرجة الأولى على "العلم"، وهذا يعنى على النظرية وعلى علمى النفس والاجتماع ، بينما قل التركيز على فلسفة الدين.

بعد حوالى سنتين من مؤتمر أمستردام دعيت للاشتراك فى مؤتمر ينبغى له أن يهتم بالتصوف والغنوصية فى أودالو بالقرب من أمرسفورت. لقد كان الوقت الذى اتصلت فيه الملكة بوليانا أثناء بحثها عن علاج لابنتها الصغرى بالمعالِجة جريت هوفمانس، وحفزت لمؤتمر يتناول الموضوعات

الباطنية. وكانت المجموعة المدعوة عجيبة؛ فمن الشخصيات المعروفة ما زلت أتذكر فقط جيل كويسبل Quispel المتخصص الكبير فى الغنوصية. أنا شخصيًا تحدثت مرة أخرى - وكيف يمكن أن يكون شيئًا آخر - عن مولانا الرومى. لقد كان حدثًا، رؤية الملكة مضيفة ودودة ومعتنية؛ فهى لم تكن تتحدث فقط بنشاط واهتمام مع المتحدثين والضيوف ، وإنما اهتمت أيضًا براحة الجميع. وكم كانت تقدم الشاى بطبيعية وتحمل طبقًا عليه كئوس الشرى لتكريم أحدهم فى عيد ميلاده.

وفيما بعد زرت هولندا أيضًا مرات كثيرة. وهناك - على سبيل المثال - ألقيت فى عام ١٩٧٣ محاضرات لجماعة عنايات خان الصوفية بمناسبة الاحتفال بالذكرى السبعمائة لوفاة الرومى. وآنذاك عرفت أن السيدات النبيلات المفتونات بالرومى لا يعرفن تمامًا أنه كتب بالفارسية. وهى تجربة جعلتنى أسىء الظن فعلاً فى الكثير من المتصوفين الغربيين، وقد تعمق هذا الارتياب بشكل أكبر فى الولايات المتحدة، ثم أصبح هذا الارتياب فى منتهى الشدة حينما أغرقت مؤلفات إدريس شاه السوق، وهى مؤلفات جعلت من البحث الصوفى الذى يتطلب الصرامة تصورا حياتيًا مائعًا ومائلاً للحلاوة وسهلاً قريب المنال لكل إنسان.

كذلك جئت من أجل محاضرات من نوع مختلف إلى أوترخت وليدن، وهما جامعتان يعتنى فيهما بالدراسات الاستشراقية منذ مئات السنين. أتذكر بصفة خاصة ج.م.س. باليون Baljon فى ليدن، وهو أحد العلماء القلائل الذين وهبوا حياتهم لدراسة الإسلام فى الهند ولدراسة المصلح الدينى الكبير أحمد سرهندى (ت ١٦٢٤م)، وعرّف قبل كل شىء بشاه ولى الله (ت ١٧٦٢م).

أما رحلتى الأخيرة إلى هولندا فكانت لمؤتمر عقد فى أوترخت حول "التصوف وناقديه"، وهو الذى اشترك فيه عدد من العلماء الممتازين من

مختلف أنحاء العالم. وكان هذا فى بداية مايو ١٩٩٥، وكان قد أعلن منذ وقت قصير أننى سأمنح جائزة السلام التى تمنحها بورصة تجارة الكتب الألمانية. وكانت القناة الأولى فى التليفزيون الألمانى ARD تريد أن تصور معى، وهكذا سافرت إلى هيلفرسوم حيث تمت محاورتى. سآتى فيما بعد إلى المطاردة التى تبعت ذلك (انظر ص ٤٣٠ وما بعدها). لقد حمل المؤتمر على ما يبدو العنوان الصحيح والملائم: "التصوف وناقديه"، ولكن لم يكن لهولندا دخل فى هذه الأحداث.

سويسرا، تجارب روحية

كانت الدعوة إلى أسكونا إحدى نتائج مؤتمر أمستردام، ولكن ليس إلى مؤتمرات حلقة إيرانوس Eranos[٩٨] التى كنت أقرأ نتائجها بافتتان حينما كنت طالبة، والتى دعيت إليها فقط بعد عدة عقود، وإنما دعتنى إلى هناك أسرة هولندية - ألمانية، وهكذا سافرت لأول مرة عبر بازل وجوتهارد إلى أسكونا. وصلت إلى هناك، تسلقت سلالم منحدر تبدو وكأن لا نهاية لها حتى وصلت إلى الكاسا رانجيلا؛ حيث نعمت بمأوى فاخر لأسبوعين كاملين، ولكن للأسف كانت سيدة المنزل الممتلئة تقوم بصيام استشفائى، وهو ما كان شاقًا إلى حد ما بالنسبة إلى امرئ لا يملك نقدًا أجنبيا، ولا يستطيع شراء أكل المطاعم.

ولكن فى مقابل ذلك وُجد غذاء فكرى وافر؛ فلأول مرة أتقابل مع زميلى من بازل فريتز ماير Meier[٩٩] الذى برهن منذ أول منشوراته على معرفته المتعمقة فى التصوف الإسلامى. كان صغير الجسم رقيقًا وينظر متفحصًا بعيون زرقاء نافذة إلى الزميلة الشابة حتى ليبدو أنه قد استساغها، وقد زرنا وزوجته آنذاك، التى كانت من أتباع يونج النشيطين، رونكو، مكانًا رومنتيكيًا بجوار أسكونا، حيث يقوم الرسام لين Lenne ومنذ وقت طويل

ودائمًا برؤى جديدة برسم الجبل ذى الشكل الجميل الواقع على الضفة الأخرى للبحيرة. وقد التقينا فى ظهر أحد الأيام، حينما كنت أتمشى وحيدة وتائهة بعض الشيء فى ميدان المدينة، وسألنى العالم الزميل بود: "هل يُسمح لى بأن أدعوك إلى واحد كاساتا[١٠٠]؟". ولم أكن أعرف بالتحديد ما هى الكاساتا، ولكنى وجدتها شيئًا ممتعًا جدًا. وكانت هذه هى المرة الأولى من عشرات المرات التى دعانى فيها فريتز ماير وقد نمت بيننا مع الوقت صداقة رائعة استمرت حتى وفاته. وكم من مرة وقف فى محطة قطارات بادن حينما آتى إلى سويسرا لأى سبب (وكان يوجد الكثير، بالدرجة الأولى المحاضرات)، وكم من مرة كان يصطحبنى إلى أحد المطاعم الجميلة، سواء أكان ذلك فى سويسرا أم فى إيران؛ حيث كنا نرى بعضنا البعض أحيانًا فى المؤتمرات؛ فماير الذى يراه كثيرون بوصفه متكبرًا كان رجلاً متضلعًا وعلى علم واسع بعيد الأغوار يبغى الكمال، وهو فيلولوجى من الدرجة الأولى؛ ولكنه أيضًا وبالدرجة نفسها متمكن فلسفيًا وتاريخيًا. كان يعرف المخطوطات النادرة، وأدق قواعد العربية والفارسية، ويطلب من تلاميذه عملا مطلق الإتقان عند دراسة النصوص - وبصفة خاصة الصوفية - التى يعملون عليها فى التدريبات. كان لا يقف على الإطلاق أمام المسائل اللغوية الصرفة، والتى تعد ضرورة أساسية لفهم نص ما، وإنما ينتظر أيضًا وجهة نظر تاريخية متقنة. ولم يكن لكل إنسان أن يحتمل نظراته المتفحصة. وقد تميز بنشاط شديد ممتزج بذوق لغوى من أرق ما يمكن، وهكذا استطاع على مدار حياته الطويلة أن يعيد إلى الحياة شخصيات المتصوفين الكبار فى وسط آسيا، وأن يعقد فى كل ترجماته روابط عرضية واسعة مع أدق البروزات المتنوعة فى الثقافة الإسلامية. ومن كان يستطيع غيره أن يعالج مشكلة البهجة والغبطة لدى المتصوفين الأوائل؟ ومن له أن يحلل التجارب الصوفية - الحسية المعقدة إلى ما لا نهاية لوالد مولانا الرومى؟ وبالإضافة إلى ذلك كان، حينما يريد أن يستريح من عمله، ذواقة للأطعمة الممتازة

وللنبيذ الجيد وللموسيقى، تمامًا مثلما يعرف ويحب المشاكل المعقدة للنحو والشعر الفارسيين. لقد كنت شاكرة أننى لم أعرف الجانب الصارم الذى كان يخشاه الزملاء والطلاب، وإنما جانب الإنسان الفرح المضياف الذى قال مرة أثناء رؤيته لعربة أطفال: "فى كل مرة حين أرى طفلاً صغيرًا، فإننى أفكر: يالك من سعيد؛ لأنه ما زال أمامك الكثير من الأشياء الجميلة!". وكانت وفاته كما تمناها: ففى العاشر من يونيه ١٩٩٨، وفى طريق العودة من حفلة صغيرة بمناسبة عيد ميلاده السادس والثمانين، خارت قواه فى الطريق إلى البيت وتوفى وفى يده باقة من الزهور.

كذلك توجد شخصية أخرى تعرفت عليها عام ١٩٥١ فى أسكونا، رودولف بانفيتس Pannwitz، الفيلسوف الذى عاش فى يوغسلافيا لفترة طويلة، وكان يعيش آنذاك مع زوجته بالقرب من أسكونا فى شقة قليلة الأثاث إلى حد لا يوصف. هذا الرجل ذو الجمجمة حادة الزوايا أثر فىَّ بعمق، كنت أنصت دون أن أتنفس إلى كلماته التى ينطقها بصوت عال مفاجئ. لم أسمع مرة عرضًا واضحًا للمشاكل الفلسفية مثلما سمعت منه آنذاك. وكذلك فإن كتبه أعجبتنى، أنا التى ليست بالفيلسوفة، وذلك بسبب وضوحها. ولأننى آنذاك كنت قد بدأت العمل على الشاعر - الفيلسوف الهندو باكستانى محمد إقبال، فقد تبادلنا بشكل مكثف الخطابات التى تحول بانفيتس إبانها إلى معجب بإقبال، ورأى - وهو الذى تتلمذ على أعمال نيتشه - فيه أفضل مفسر لنيتشه وذلك مقارنة بأغلب المفكرين الأوروبيين.

بعد لقائنا فى أسكونا وصلنى منه خطاب عرفنى فيه بأحد أصدقائه "وذلك حتى ترين أية فاكهة عجيبة تنمو على شجر الصنوبر الألمانى الشرقى". هذا الصديق كان هانز مينكه Meinke، المدرس فى مدينة كونيجس - فوستر - هاوزن، والذى ينتمى إلى مدرسة أوتو تسور ليندا، "قارون"[١٠١]. وقد أعلن عن نفسه أولاً من خلال فستان خاطه بنفسه وطرزه

وبعثه إلىَّ، والشيء الغريب أنه ناسبنى بشكل ممتاز، ولكن لم يكن حزام القطيفة المطرز، والأعمال الفنية الأخرى هى فقط التى وصلتنى من شرق ألمانيا، وإنما وصلنى أيضًا كتابان مركزيان بشكل مطلق بالنسبة لى، وهما أشعار إقبال الفارسية "رسالة الشرق" و"كتاب الخلود" اللذين كونا الأساس لمكتبتى المتنامية باستمرار عن إقبال. تقريبًا فى عام ١٩٣٠ ترجم مينكه - بناء على الترجمات الإنجليزية - عددًا من أشعار إقبال إلى الألمانية شعرًا، وقد أرسل ترجمته المكتوبة بخط زخرفى جميل إلى الشاعر- الفيلسوف فى لاهور؛ حيث يستطيع المرء رؤيتها الآن فى متحف إقبال. وقد أرسل إقبال ديوانيه كشكر إلى ألمانيا. ولأن مينكه لا يعرف الفارسية، فقد وصل الديوانان - لسعادتى الكبرى - إلىَّ. ومن هنا بدأ تراسل نشط بينى وبين هانز مينكه، كان يرسل إلىَّ بأشعاره التى نشر جزءًا منها تحت اسم "مارلين" أو بتلك التى يرسلها فقط إلى أصدقائه فى دفاتر جميلة التجليد ومزينة بروائع من فن الخط. كتابه الكبير الذى يضم ترجمته الشعرية الحرة لمولانا الرومى، والذى أهداه إلى اسمى وأرسله إلىَّ مجلدًا بغلاف نحاسى نقشه بنفسه بمنتهى الروعة، يذكرنى به بشكل يومى وبالأيام التى قضاها وأسرته لدىَّ فى أنقرة وقونية فيما بعد.

أصبحت أسكونا بعد سنوات كثيرة مهمة فى حياتى، وذلك حين دعيت عام ١٩٩١ إلى الاشتراك فى مؤتمر حلقة إيرانوس الذى يعقد هناك منذ عام ١٩٣٠ ويربط كوكبة من علماء الدراسات الإنسانية التى كان عملها يعجبنى كثيرًا، حتى وإن كنت لا أعد من أتباع يونج الذين كانوا آنذاك مسيطرين هناك، ولكن كم كان جميلاً أن يرى المرء مرة أخرى أناسًا مثل ماجدة كيرناى Kerényi التى ما زالت ترعى تراث زوجها كارل كيرناى!.

وفى السنوات الأخيرة تهيأ لى هناك الكثير من الصداقات الجديدة، مع عالم المصريات فى بازل إيرك هورنونج Hornung ومع إليزابيث شتيلين

ومع تابعى يونج ريجينا وأندرياس شفيتزر Schweizer ومع Staehelin كثيرين آخرين. تاريخ إيرانوس، كما عرض قبل وقت قصير بشكل تأسيسى وعلمى متعمق من قبل توماس هاكل Hakl، قد شهد فى السنوات الأخيرة بعض الانكسارات الصغيرة، ويبقى الأمل فى أن تلتئم الحلقة وتواصل العمل مرة أخرى.

وكثيرًا ما كنت أذهب إلى سويسرا إبان مشاركتى فى إصـــدار مجلـــة "فكر وفن" (انظر ص ٢٢٥ وما بعدها)، وذلك لأن إدارة تحرير هذه المجلة الثقافية العربية اللغة كانت توجد فى أونتريجرى فى مقاطعة تسوج. وهكـــذا تعرفت على زيورخ فى البداية من خلال السفريات العابرة ثم بشكل جذرى. وقد مثل متحف - ريتبرج وباستمرار نقطة جذب مهمة؛ حيث ألقيت لمرات بعض المحاضرات، وسعدت برؤية القطع الفنية الإسلامية الجميلة. وكـــذلك دعتنى الجمعية السويسرية - التركية كثيرًا، حتى إن بيت صديقىَّ المهتمـــين بالشرق فورتونات وأورسلا فون ساليس أصـــبح نقطـــة مركزيـــة أخـــرى لزياراتى السويسرية. وهل أستطيع أن أنسى تلك الأيام فى برن؛ حيث يمثل تلميذى السابق وزميلى كريستوف بورجل العلوم الاستشراقية؟ أو ألا أشـــير إلى جنيف حيث توجد المجموعة الغالية من القطع الفنية الإسلامية الخاصـــة بالأمير صدرالدين أغاخان، والتى يحفظ فيهـــا أجمـــل المنمنمـــات الهنديـــة والفارسية، وهى مجموعة تعد من أفضل المجموعات الشخصية فى أوروبـــا إن لم يكن فى العالم؟! وهكذا وجدت علاقات صداقة مع الأمير صدر الدين، ومع حلقة أصدقاء الفنون الإسلامية. ومن بين هؤلاء أيضًا الكونتيسة فيليشيتا شونبورن، التى لا يوجد فى بيتها المضياف نشاط ثقافى فقط، وإنمـــا أيـــضًا الكثير من البهجة والمرح، بل كان أمبروزيا، الكلب الصغير المرح، يسلينى هناك أيضًا.

فقط كان يوجد مكان وحيد لم يغرني قط، هو باد راجاتس، ولكن كان هوجو وجيردا فيدر من لودنجهاوزن، وصداقتهما من أغلى الأشياء لديَّ، يذهبان إلى هناك كل صيف من أجل الاستشفاء، وقد دعواني مرة – في عام ١٩٨٩ – لأقضي معهما أسبوعًا هناك. وقد هززت رأسي ونظمت:

ذهب قِطٌّ إلى راجاتس مرةً

يبغي هناك الاستجمام

من الرومانتزم –

بالتدليك والاستحمام

قل، ألم يكن هذا فقط للقطة؟![١٠٢]

وقد وافقت وقضيت مع الصديقين عشرة أيام في كفيللنهوف. كانت لحجرتي شرفة مشمسة، ولأنني كنت قد أحضرت معي مجلدًا سميكًا يحوي الأشعار التركية للمتصوف القروسطي يونس إمره، فقد استغللت الساعات الكثيرة، التي لا أقضيها في "الاستحمام والتدليك"، لأترجم مرة أخرى أشعارًا للمغني الأناضولي الذي جاد عليَّ فيما سبق في الأناضول بالكثير من التعزية والمواساة. وعندما طرت عائدة إلى بون بعد عشرة أيام كنت قد انتهيت من كتيبي الجديد Wanderungen mit Yunus Emre "ارتحالات مع يونس إمره". وقد حاولت أن أعرض في هذا الكتيب للسنة الأخيرة من حياة هذا الشاعر بوصفها نوعًا من الأسطورة، وأن أحضر فيه قليلاً من مزاج وروح الأناضول. إذن لم تكن راجاتس للقطة فقط.

ولأنه كان ينبغي عليَّ أن أعرض نفسي على الطبيب، فإنني خضت التجربة الأكثر إمتاعًا، والتي لم أخضها مرة مع طبيب ما؛ فبعد أن فحصني الطبيب ديتهلم أوربان بشكل شامل، وفحص عمودي الفقري غير

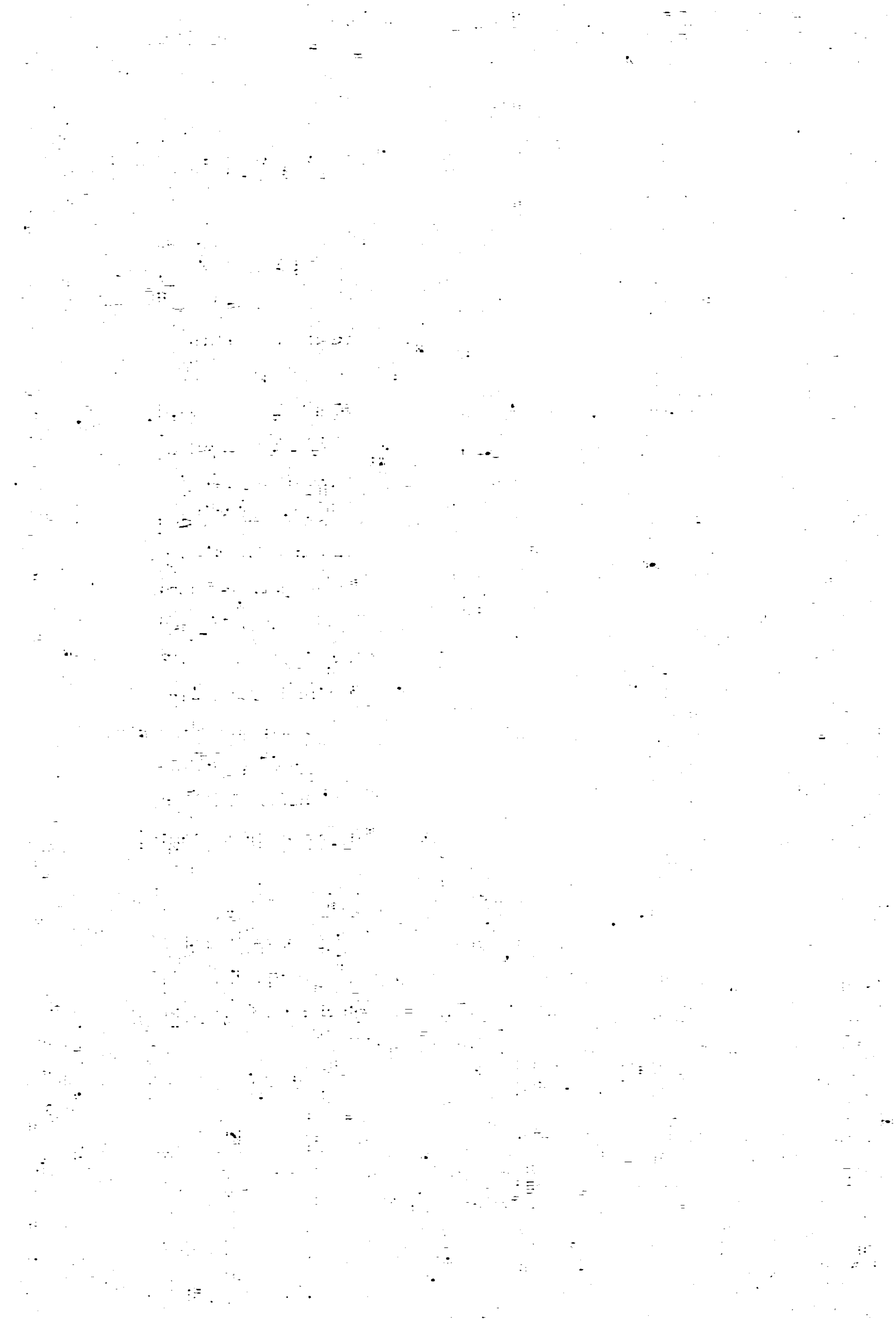
المثالى بالمرة، قال إنه يستطيع أن يصف لـــى آلاف التمـــارين والأدويـــة، ولكنى على الأرجح سأمانع وأغضب جدًا، ومن ثم يصبح الوضـــع أقــرب للسوء منه للتحسن، وهكذا ينبغى علىَّ فقط أن أفعل ما يمليـــه علـــىَّ قلبـــى، "وذلك أنك" - وهنا جاءت، بنبرة سويسرية قوية، الجملة التى رافقتنى منـــذ ذلك اليوم وقوتنى - "وذلك أنك مثال لانتصار الروح على الجسد".

الجزء الثالث

تركيا
(١٩٥٢-١٩٥٩)

ألنت هنا غريب؟
أخٍّ، لماذا تبكى يا عندليب؟
وضللت - خائر القوى - طريقك
أخٍّ، لماذا تبكى يا عندليب؟
هل اجتزت جبالا عالية؟
وعلى الأنهار بعمق دلفت؟
ومن فرقة أليف عانيت؟
أخٍّ، لماذا تبكى يا عندليب؟
أخٍّ، ياله من حزين توسّلك!
لقد حركت من جديد ألمى!
أتريد فيما يبدو رؤية أليفك؟
أخٍّ، لماذا تبكى يا عندليب؟
تستطيع نشر جناحيك
وتستخدمهما للطيران
وأن تخترق الحجب!
أخٍّ؛ فلماذا تبكى يا عندليب؟
...
وفى الربيع تسكن حديقة ورد،
تعطرك الأزهار فى كل يوم،
ولكن دائمًا ما يبدو نواحك جديدًا
أخ، لماذا تبكى يا عندليب؟
...

يونس إمره



مدينة لا شبيه لها: إستانبول

ماذا قال أورهان والى، الذى علّم قارئه أن ينصت إلى أصوات إستانبول المتنوعة، وأن يتحسس نبض جسر جلطة المضطرب، واصفًا سحر المدينة الواقعة على قارتين فى صور دائمة الجدة:

لا أنوى السفر.

ولكن إذا توجب علىّ،

سأسافر مباشرة إلى إستانبول

فإذا ما رأيتنى فى الترام المتجه إلى بابك

فماذا يمكنك إذن أن تفعل؟

أما يحيى كمال، ممثل الشعر الكلاسيكى فى الوقت الذى كان فيه أورهان والى يدخل نغمات جديدة جدًا فى الشعر التركى، فكان يغنى - مثل أورهان والى - شوقه الذى لا يهدأ إلى المدينة التى وهبها أجمل أشعاره:

إذا ما أمكن لكل روح

أن تختار فى السماء مكانها

تبعًا لأمنيتها،

وإذا ما نظرنى الحظ بلطف

وأعطانى فى يدى نجمة جديدة،

فلن أعير مثل هذا التودد انتباهى؛

لأننى أريد أن أذهب مرة أخرى

إلى إستانبول!

لقد تعرفت على إستانبول من خلال الأشعار، ثـم قطعتهـا ارتحـالاً، وتركت الشوارع والحارات تدفعنى صعودًا وهبوطًا، تنفست رائحة القطران والكباب والأسماك والأوراق الذابلة على المقابر، سـمعت بنـصف وعـى الأغانى التركية التى تصرصع فى كل مكان من أجهزة الراديو فـى أحيـاء المدينة القديمة، وفقدت نفسى فى المساجد أو فى مراقبـة مـشارق الـشمس ومغاربها التى تبدو دائمة الجدة، وذلك حينما يبدو البسفور فضيًّا أو لي-لكيًّا لطيفًا أو عندما تبنى الشمس على الأمواج قنطرة ضوئية لامعة الحمرة.

كان السفر على سفينة بخارية من نابولى إلى إسـتانبول فـى فبرايـر ١٩٥٢ منهكًا، وذلك لأننى حشرت مع ثلاث يونانيات - وبتعبير مهـذب - ممتلئات فى قمرة ضيقة، ولكن لحسن حظى وجدت زوجين ألمانيين جامعيين كنت أحدثهما عن التاريخ والشعر التركيين والإسلاميين، وذلك حتى أعدهما نفسيا للإقامة، وقد قاما من ناحيتهما بتدليلى لأغلب أوقات الـسفر. وعلـى رصيف الميناء وقف الصديق الشاعر بهجت نجاتيجيل Necatigil الذى كنت أراسله منذ بعض الوقت. وقد أوصلنى وزوجته الشفوقة إلى مبنى فى لاليلى الذى أصبح اليوم فندق رمادا. كانت مؤجرتى امرأة فى منتصف العمر، وقد تفاهمت معها بسرعة بصورة طيبة، وتعرفت بواسطتها على بعض النـاس المهمين، وقد أغنت كذلك ثروتى اللغوية ذات التعبيرات الكلاسيكية القديمـة بالمصطلحات المفيدة مثل معجون الأسنان، ومظلة المطر، والمدخنة. ورغم أننى انتقلت بعد أسبوع إلى بانجالتى على الجانب ذى الـصبغة الأوروبيـة للقرن الذهبى؛ فقد بقيت صداقتى مع راعيتى الأولى قائمة لسنوات.

ومما لا ينسى اليوم الذى جئت فيه أول مرة إلـى جـالا ومـصطفى إنان Inan اللذين دعوانى لأسكن عندهما. كان موجودًا فى حجـرة المعيـشة أثاث جميل مطعم بالصدف، وحينما عاد مصطفى، الأسـتاذ الجـامعى فـى الرياضيات، والذى حصل على الدكتوراه من زيورخ، للغذاء فـى البيـت،

حكت له جالا أن لى منذ سنوات اسم تدليل تركيًا أعطاه لى أحــد الــزملاء العجائز فى برلين:

"اسمها جميلة!"

وهنا نظر إلىَّ سيد البيت نظرة نقدية وسألنى:

"هل وردت هذه الكلمة فى القرآن؟"

قلت: "لا، فقط صيغة المذكر "جميل" فى سورة يوسف: "صبر جميل".

وبذا قبلت فى الأسرة التى أدين لها بالمدخل الجميل إلى الحياة التركيــة وإلى الثقافة التركية بكل تنوعاتها. جالا (التى يناسبها اسمها، والذى يعنـــى "قطرة الندى" تمامًا) كانت ابنة للرسام ومدير المتحف عزيز أوجان، وكانت تعمل عالمة آثار، وقد أصبحت واحدة من المتخصصين البارزين خاصة فى منطقة سيد التى كانت تقوم بالحفر فيها عامًا بعد آخر. كان مصطفى يمتلـــك معرفة عميقة بالأدب والموسيقى والتقاليد التركية. وعندما كنت أعــود فـــى المساء من دراستى للمخطوطات فى مكتبة الجامعة إلى المنزل، كنت أتعلــم بلا نهاية وبأفضل طريقة، وكذلك تصادق الصغير حسين مع "طنط جميلـــة" بسرعة.

وقد بقى هذا البيت فى بانجالتى منزلى الإستانبولى، وذلك حينما عــدت إلى تركيا فى خريف عام ١٩٥٣ لأواصل دراستى للمخطوطـــات، وحينمـــا صحبتنى أمى فى السنة التالية إلى أنقرة، أصبحت "طنط ماما"، كما يـــسميها حسين، أيضًا فردًا فى العائلة. وكانت "طنط ماما" تصاحبنى المرة بعد المرة إلى تركيا، وساعدتنى فى سنوات تدريسى فى أنقرة التى لم تكن سهلة دائمًا.

أحيانًا تتمازج فى ذاكرتى كلا الإقامتين الأوليين فى تركيا، ولكنهما كانتا مختلفتين من نواح كثيرة. وقد بقيت أسابيع ربيع ١٩٥٢ فى ذاكرتى كربيـــع خالد، ومتى رأيت شجرة كستناء أكثر روعة مما فى باشاباهاجى (المشهورة

فيما سبق بفن صناعة الزجاج)؛ حيث كانت إحدى صديقات جالا تعيش في بيت قديم جميل على شاطئ البحر. ومتى تمكنا فيما بعد من القيام بمثل هذا الحوار المشوق كما فى مثل أيام الثلاثاء الشهيرة، حينما كان شعراء إستانبول الحداثيون الشباب يلتقون فى مقهى ماجكه؟ كنت أجلس معهم وأستمع إلى حججهم ضد الشعر الكلاسيكى، وكانت المجموعة الحداثية المتحلقة حول مجلة "Varlik" (وجود) تلتقى هناك. وكان بهجت نجاتيجيل، الذى اصطحبنى إلى هناك، والذى لم أجد مدخلاً سهلاً إلى أشعاره المريرة، والتى كثيرًا ما تكون ضنينة الكلمات، كان موجودًا هناك بصفة دائمة. وما زلت أرى وجهه الذى ظلل بحزن ما، والذى يبدو وكأنه يعكس مجهوده من أجل الصدق المطلق فى الشعر، ورفضه الذى يصل إلى درجة الخوف من الرومانتيكية (ورغم ذلك تيسر له كتابة بعض قصائد الحب الرقيقة جدًا). وأحيانًا كان يأتى ياسر نبى رئيس تحرير "Varlik"، وصلاح بيرسل Birsel الذى ينتمى للحلقة، وكان جاهد كلِيبى Külebi يظهر بين حين وآخر، كما وجدت علاقات صداقة مع خلدون تانير Taner وكثيرين غيره، وكذلك ظهر الروائى صميم كوجاغوز Kocagöz وفيما بعد كنت – ولمرات كثيرة – ضيفة فى منزله فى إزمير كارشياكه.

وبدأت آنذاك – بناء على تحفيز أصدقائى الأتراك – كتابة مقالات عن الثقافة الألمانية فى المجلات التركية. وقد ظهرت فى مجلة "إستانبول ديرجيزى" وفى "يديتبا" وفى المجلة الكبيرة "حياة"، سلسلة طويلة من المقالات التخطيطية عن المدن والمناظر الطبيعة الألمانية أو عن الشخصيات التى تبدو لى مهمة، وكنت أوقعها باسمى المستعار جميلة كيراتلى (كيرات = شيمل).

وفى لقاءاتنا كنت أجازف أحيانًا بالدفاع عن الشعر الكلاسيكى، وأنشد بعض سطور يحيى كمال التى كانت قد أصبحت محبوبة وغالية لدىَّ، ولكن

لا! - "مثل هذه الغزليات التى تكتب أبياتها فى شكل كلاسيكى، هى بالتأكيد شىء سهل!". وهذا يعنى أننا "لا بد من أن نتألم، لا بد من أن نجد أشكالاً صادقة، وأننا لا نستطيع أن نجلس فى أبراجنا العاجية ونكتب عن غروب الشمس وعن الورود والعنادل، بينما الناس من حولنا تعانى وتجوع وتصرخ مطالبة بالعدالة!".

وقد تساءلت أحيانًا (وهم)، ألم يوجد أيضًا فى عصر هوميروس أو فى عصر شعراء الشرق الكبار مثل حافظ وفضولى أناس جوعى يعانون، ولكن مثل هذه البراهين كانت تستبعد بوصفها لا وزن لها. كان لدى الشعراء الشباب على نحو ما وبلا ريب حق: فالشكل الكلاسيكى للغزل والقصيدة (وكلاهما أحادى القافية)، والذى كان متبعًا فى العالم الإسلامى منذ مئات السنين، يمكن أن يستخدم أيضًا من قبل شاعر ليس له من الشاعرية غير كونه صانع قواف ماهر، وذلك لأن عالم الصور والرموز وقواعد القافية والإيقاع واللعب بالكثير من تداعى الخواطر هى أمور مقررة محددة؛ فالمرء يمكن أن يتعلم هذه الأشياء بشكل حرفى. ورغم ذلك فإن شعراء العالم الإسلامى الكبار شفروا مشاعرهم ومشاكل عصرهم بطريقة رائعة فى هذه الأشكال، وأتخموا الأشكال الموروثة بطاقات كثيرة، حتى إن المرء - وحتى اليوم - يجد فيها أفكارًا ذات تأثير حداثى بل تقدمى - هذا إذا ما كان المرء يمتلك مفتاح هذا. ولكن هذا المفتاح كان بالنسبة للجيل الشاب فى تركيا قد فقد؛ فإحلال الحروف اللاتينية عام ١٩٢٨ محل الحروف العربية، التى كانت تستخدم فى كتابة أغلب اللغات فى نطاق الثقافة الإسلامية، قد عزل ملايين الشباب عن ماضيهم الثقافى فلم يعودوا قادرين على قراءة النقوش على مقابر أسلافهم أو لوحات الزخارف فى المساجد أو قراءة مئات الآلاف من أبيات شعر الشعراء المبكرين، حتى عندما نقلت بمرور السنين أهم الأعمال الأدبية إلى الحروف اللاتينية؛ فإن الكثير جدًا من المعانى والألعاب اللفظية التى تمت صياغتها بالحروف العربية قد أصبحت غير مفهومة.

لقد كان هذا إذن أكثر من مجرد رؤية تقدمية حداثية للشعر، التى كـــان يمثلها أصدقائى الشعراء. لقد كانت بطريقة ما نتيجة لتغير حروف الكتابـــة، وما تعلق بذلك من الإصلاح اللغوى الذى جعل شاعرًا "كلاسيكيًّا" مثل يحيى كمال يبدو لهم متخلفًا.

وكان من حسن حظى أن التقيت مرة بالشاعر الذى أعجبت به فى بيت أحد الأصدقاء، وقد أصغيت إليه دون أن أتنفس حينما تحدث - وهو يرشف كاسًا من الويسكى - بصفة عامة عن التـــاريخ العثمـــانى وعـــن المـــشاكل التاريخية. كنت آنذاك قد انتهيت من ترجمة قصيدته "رقص إسبانى" التى نقل فيها بمهارة، وهو الذى كان يعمل لسنوات فى الـــسلك الدبلوماســـى، إيقـــاع الفلامنكو الإسبانى والحمرة البراقة للجونلات إلى اللغة التركية. ويشبه هذا ما قام به فى قصيدته "موسيقى الثلوج"، التى كتبها إبان فترة عمله ســـفيرًا فـــى وارسو؛ حيث تمكن من التعبير عن حزن مساء شتوى تحرر منه بـــأن بـــدأ يستمع لما "على الأسطوانة القديمة لطنبورى جميل" من موسيقى، وبهذا تمكن من العودة للوطن. وكان ابن طنبورى جميل فى هذه السنوات شخصية مهمة فى الإذاعة التركية. لقد كان مسعود جميل الذى سجلت معه أول حـــواراتى الإذاعية، وما زلت أتذكر أننى قرأت آنذاك ترجمتى للقصيدة الجميلة "لمـــاذا تبكى يا عندليب؟" ليونس إمره. هذه الفقرة المتكـــررة لهـــذا الـــشعر القـــديم أصبحت وكأنها شعار لحلقة أصدقائنا الذين تثقفوا كثيـــرًا أو قلـــيلاً بالثقافـــة الألمانية.

ومن بين هؤلاء يجب أن يذكر الرجل الذى تعرفت من خلالـــه علـــى مسعود جميل: وداد نديم طور Tör وزوجته البرلينية الجذابة الـــسيدة ألـــيس هانم. وكان وداد بيه يهتم كلية بالدعوة إلى أن تأخذ تركيـــا بالحـــديث، بـــل وبالأحدث، فى تصرفاتها، وقد عمل على تطوير المسرح التركى رغـــم أن أعماله المسرحية (التى ترجمت إحداها بدافع الصداقة) لم تكن ناجحة جـــدًّا. لقد نظم مهرجان الألعاب الشعبية، واهتم بإحياء واستمرار تقاليـــد الـــرقص

الشعبى التركى، واهتم كذلك بالفنون والمأثورات الشعبية الأخرى، وكان ولسنوات طويلة المسئول الثقافى لبنك الاعتماد والتعمير التركى، وقد لعب دورًا مهما فى تطبيق تقنيات الطباعة الحديثة. ويعود الكثير مما فى الحياة الثقافية في الخمسينيات، بما فيها الإنتاج السينمائى، إلى وداد بيه المتحرك النشيط الذى لم يسترح مرة، والذى كان ممتلئًا دومًا بالأفكار الجديدة الطيبة. وكنت كثيرًا ما أراه، رغم أنه، وهذا مفهوم، لم يكن يشاركنى على الإطلاق إعجابى بالتقاليد الكلاسيكية، ولا بالتصوف، ولكن هذا لم يضر صداقتنا.

ومن خلال وداد نديم تعرفت على كاظم طشقند Taskent المتخصص فى الكيمياء، والذى كسب أمواله من منشآت السكر ومن تشجيع زراعة سكر البنجر ثم نشط فى القطاعات المختلفة للحياة العامة. وقد أسس بنك الاعتماد والتعمير، ودار نشر دوجان كارديش التى كانت تنشر أفضل المجلات طباعة، ويذكر اسم دوجان باسم ابن كاظم بيه الشاب الذى مات فى انهيار جليدى فى سويسرا - وهى خسارة لم يلتئم جرحها بالنسبة إلى الأم، بينما كان الأب يضع طاقته وبصفة دائمة فى مشروعات جديدة. كانت أمنيته تثقيف أبناء وطنه، وأن يمنحهم إمكانيات تعليمية جديدة. وقد تحدثنا أكثر من مرة عن مثله العليا ومحاولاته الإنسانية المخلصة فى أن يواصل توجيه الناس. وقد زارنا فى ألمانيا مرة أو مرتين، وكان طرد التين اللذيذ من إنتاج منشآته الواسعة يعد ولسنوات طويلة من مفرحات أعياد الميلاد السنوية.

إذا ما كان مؤرخ عثمانى من القرن السادس عشر - عصر سليمان القانونى - قد كتب أنه يوجد شاعر تحت كل حجر من أحجار شوارع إستانبول؛ فإن هذا لم يعد صحيحا تمامًا بالنسبة للعصر الحديث، ولكنى كنت أتقابل باستمرار مع فنانين جدد، وكان المرء يمكنه أن يقابلهم فى جاليرى عديلة عودة Ayda فى بيرا؛ حيث يعرض الفن التركى الحديث، وحيث تقابلت لأول مرة بأحد شعرائى المحببين، وهو بدرى رحمى Rahmi الذى

تبدو لى صوره السيريالية المتجذرة وأشعاره ذات التعابير القوية بمثابة وجهين لعملة واحدة. وقد كان لفترة طويلة وعن حق أشهر الرسامين الأتراك، وقد أحرز فى الخارج أيضًا نجاحًا بأسلوبه "الأناضولى القوى". وعلى النقيض من هذا تمامًا كان صديقى آصف حالت جلبى Celebi الملتصق بالتراث الصوفى؛ فأشعاره التى يحتفى فيها أحيانًا بصور رقص الدراويش، وبالشخصية الغامضة للمتصوف الشهيد منصور الحلاج، أو بالأساطير القديمة لفرهاد – الحبيب المخدوع – وحبيبته شيرين تبدو لى محببة بصفة خاصة. وقد تجولنا معًا بمحاذاة سور المدينة البيزنطى؛ حيث أرانى الغجر واستعاد تاريخ الأتراك بصيغة أسطورية.

عندما كنت أنهى عملى فى المكتبة، كنت أجوب المدينة، من ناحية لأننى لا أملك إلا القليل جدًا من المال ولا أريد أن أتحمل أجرة مركبة، ومن ناحية أخرى لأننى أريد التعرف على المدينة عن قرب، هذا رغم التعب الشديد بسبب أحجار رصف الطريق غير المنتظمة، وأرصفة المارة التى تبدو مثل سجادة مرتقة، والحفر المفاجئة فى الشوارع. (هذه الأشياء ما زالت موجودة، ورغم هذا فقد تمتعت بعد حوالى خمسين سنة، بأن تركت نفسى للشوارع المزدحمة بالناس والقطط).

كانت زيارة المساجد هى الأجمل بالطبع، ومن ذا الذى لايفتن بالسليمانية الذى يجلس كتاج على رأس إستانبول؟ ويكتشف المرء دائمًا تفاصيل جديدة فى المكان الضخم، يعجب بالنقوش، خاصة بالخط الذهبى الكبير الموجود على حائط الفناء، والذى يتضمن "آية الكرسى" فى خط نادر المثال. هذه الآية التى ينسب إليها قوة وقائية خاصة، وذلك لأنها تمدح "الحى القيوم" الذى وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وحمايتهما. وتؤثر الكثير من المبانى التى تخص أحد المساجد الرسمية بشمول أناقتها، ويهدى "متحف الآثار التركية والإسلامية" الذى كان آنذاك ملحقًا بمجموعة مسجد السليمانية العيون أجمل الكنوز. كنت أقضى أغلب وقتى هناك مع

الإعجاب بفن الخط، والمخطوطات القرآنية واللوحات التى كُتبت عليها بفنيَّة عالية آيات قرآنية أو دعوات أو أسماء، والتى تحمل وثائق السلطان، وتحمل كل منها طغراوات مختلفة بإمضاءات السلاطين[١٠٣]. ويتخيل المرء أمامه الكتّاب وهم جالسون فى "ديوان" السلطان؛ حيث يهتمون بإعداد مثل هذه الوثائق. ومع مثل هذه الأحلام يريد المرء الذهاب إلى سراى طوب قابى التى تبدو كنوزها مثل حكاية من أساطير ألف ليلة وليلة.

تحت رأس جسر جلطة المزدحم وبالقرب من البازار المغطى (أظن أننى ذهبت إلى هذا البازار فى كل هذه السنوات مرة واحدة فقط، وذلك لأننى لم أتعلم المفاصلة قط) يقع جامع ينى (المسجد الجديد) الذى كان لا يزال يجلس أمامه عدد وفير من "العرضحالجية"، وهم كُتَّاب يقف أمامهم بعض الرجال، والكثير من النساء، لملء الطلبات والاستمارات التى يحتاجها المرء للبيروقراطية المعقدة أو أيضًا - وبكل بساطة - لإملاء خطاب إلى أحد الأقرباء البعيدين. وبالقرب من جامع ينى وفى الحارات الضيقة التى أمر زوج ابنة السلطان سليمان بإقامتها، يجد المرء مسجد رستم باشا. لا يوجد مسجد آخر به مثل هذه الزخرفة الغنية؛ حيث يوجد العشرات من الموضوعات المتنوعة التى رسمت فيها زهور التوليب التى تضىء على الحوائط بلونها الأحمر المشع حتى ليبدو للمتأمل وكأن فانتازيا الرسام والخزاف لم تكن تنفد. وقد زرت المسجد مرة مع صديقات تركيات شرحن لى لماذا يحب الأتراك زهرة التوليب بهذا الشكل؛ فاسم الزهرة التركى "لالى" يعطى مكتوبًا بالحروف العربية نفس قيمة العدد فى كلمة "الله" وفى كلمة "هلال"؛ فالكلمات الثلاث - تبعًا لحساب الحروف القديم - تساوى ستة وستين[١٠٤]. فأى زهرة يمكن لها أن تناسب الأتراك أكثر من هذه التى تشير من ناحية إلى الإله الواحد الأحد وتشير فى الوقت نفسه إلى رمز الإسلام وهو الهلال؟!

ولكن أجمل مساجد إستانبول كان بالنسبة إلىَّ - وما زال - مسجد ابنة السلطان سليمان، زوجة رستم باشا جميلة ميرمه Mihrimah، والذى يقع عند سور المدينة القديم مباشرة بجانب بوابة أدرنة. وكان بقبته الكبيرة ونقشها الباهر، ومنارته الرشيقة جدًا، يمثل بالنسبة إلىَّ المثال، كمالاً وشمولاً، وكان فى الوقت نفسه - كما يبدو لى - مبنى أنثويًا جدًا، انصهر فيه كل من الروحى والمادى فى هارمونية شاملة.

أزهار مضيئة أمام السد المظلم

كريستال رقيق بلا شوائب

منذ أن دخلتك، غرق العالم،

ونظرت إلى الكون من خلال الدموع.

بعد قرابة نصف قرن من زيارتى الأولى زرت ميرمه العزيزة مرة أخرى، وذلك فى صحبة الإبروجو الشهير (الإبروجو ebrucu هو الفنان الذى يصنع أوراق المرمر الغالية) حكمت باروتجوجيل Barutcugil، وفى الحديقة المهملة؛ حيث يصنع بعض الرجال العجائز الصابون، كانت القطط تلعب مثلما هى دائمًا من قديم الزمان. وقد أخذنا معنا قطيطة بدت لنا مثل كتلة مكورة من الحرير الناعم ذى اللون الأبيض - الرمادى، والبنى المرمرى. وقد تأقلمت مباشرة فى بيت الفنان وشعرت وكأنها فى بيتها، وقد أسميناها ميرمه.

لم أستطع مرة وبحق أن أتصادق مع أيا صوفيا. ربما يجب على المرء أن يرى المكان فى الوقت الذى كان يقف فيه الراهب الملتحى فى ثيابه الغالية أمام جمع حاشد متراص يحتفل بليلة عيد الفصح، وتنعكس فيه أضواء آلاف الشموع على ذهب الفسيفساء، وربما أيضًا فيما بعد عندما تجتمع حشود من المؤمنين الورعين لصلاة عيد الفطر؛ حيث يقومون وبنفس الإيقاع

بالسجود والجلوس والركوع والنهوض. لم تتعب الروايات اليونانية من نسج الأساطير المملوءة بالألم عن احتلال الأتراك لكنيستهم الكبرى، وهى تصل إلى ذروتها فى الأمل فى أنه فى يوم ما سيفتح باب مخفى فى السور، ومن ثم تقوم الملائكة بالسيطرة على الكنيسة مرة أخرى. وكذلك أشار المسلمون فى رواياتهم - وبطريقة لا تقل حمية وحدة - إلى أن بيت الله هذا ومنذ البدء يخصهم؛ فالمهندس المعمارى - هكذا يسمى بالمفارقة التاريخية الجميلة - لم يستطع ولسنوات الانتهاء من القبة، وذلك حتى أُمر فى النهاية من قبل صوت سماوى بأن مادة الربط (المونة) لا بد وأن تحضر من شبه الجزيرة العربية. وقد أحضرت القوافل، التى أرسلت بناء على أمر الصوت إلى هناك، وعاءً صغيرًا به لعاب النبى محمد بالإضافة إلى حمل سبعين جمل من تراب مكة وسبعين إناء من ماء زمزم، البئر المقدس فى مكة، وبذلك بنيت القبة دون أن تدمر. وهنا قام بعض سلف المسلمين الصالح بالصلاة، وذلك قبل أن تتحقق نبوءة النبى محمد: "لتفتحن القسطنطينية، ولنعم الجيش ذلك الجيش!"[١٠٥]. وكان أحد أول الأعمال الرسمية لمحمد الفاتح (وكان آنذاك فى الثانية والعشرين من عمره) أن أدى صلاته فى أيا صوفيا، ولكن الأسطورة تواصل نموها: ألم تكن البوابة الكبرى مصنوعة من خشب سفينة نوح؟ وإذا ما صلى المرء قبل رحلته ركعتين ثم قرأ "الفاتحة" لنوحٍ فإن رحلته تسير على ما يرام، ولكن أيا صوفيا قد أصبحت الآن متحفًا خاليًا، يندهش فيه الزائر بالفسيفساءات الضخمة، وبأعمدة المرمر العملاقة المزخرفة، وبتأثير القبة الغريبة المنبسطة أو يغرق فى الخطوط على اللوحات الدائرية التى تتضمن اسم النبى وخلفائه الأربعة.

وكم من مرة سرت فى الحديقة الصغيرة، أعبر الباب وأنعطف بسرعة إلى اليمين؛ حيث يوجد خلف قضبان رقيقة لسور من الحديد المطروق أجمل جزء - بالنسبة إلىَّ - من أيا صوفيا: المكتبة وما تضمه من المخطوطات النفيسة!. كانت الحجرة الصغيرة مغطاة بالسيراميك الملون الذى تزدهر

عليه، بين أوراق رقيقة مضلعة مزرقة وخضراء، وورود بنية داكنة الاحمرار تشبه تلك التى فى سراى طوب قابى، وتشبه كذلك ما على الأطباق الكبيرة والمصابيح التى كانت تصنع فى إزنيق فى القرنين السادس عشر والسابع عشر. وكانت الغرفة مزدحمة بدولاب وصندوق، كانا مطعمين بالزخارف الصدفية الرقيقة، التى ربما تأتى من ولاية جوجرات الهندية، وبدكة جلوس طويلة وطاولة ومكتب مدير المكتبة. لقد كان الجو فى الحجرة باردًا ومظلمًا، وكان هديل الحمام يتردد طوال اليوم. وكان البصر، المتعب من نسخ المخطوطات العربية والفارسية، يجرى ويتوقف على غصون لبلاب السيراميك الفيروزية اللون التى تنعكس عليها آخر أشعة شمس اليوم، ثم تغيب مرة أخرى على المخطوطة. كان المدير الشاب يحضر أحيانًا كنوزه الثمينة من المخزن: أشعار فارسية مزينة بالمنمنمات، ومخطوطات طبية قديمة بها رسوم، وكتب الدعوات المذهبة والمكتوبة من قبل أمراء يأملون بذلك فى أجر سماوى، وإمضاءات لأولئك الكبار الذين يعرفهم المرء من خلال تاريخ الأدب والذين يصبحون هنا فى خطوطهم أحياء. أحيانًا يأتى عالم تركى عجوز ليتعمق فى بحث تيولوجى موجز، وأحيانًا يأتى باحث شاب. لقد كانت حياة هادئة رائعة، وكان الهم الوحيد أن حياة إنسانية لن تكفى لتناول كل هذه المخطوطات المخزونة هنا فى أيا صوفيا لمرة فى اليد؛ فما بالكم بمطالعتها أو دراستها.

وكنت أصعد مع المدير أحيانًا إلى شرفة المسجد حيث تم ترميم الفسيفساءات الكبرى، وتسلقنا مرة من خلال باب سرى ضيق سلمًا قائمًا مظلمًا إلى أعلى؛ فوجدنا أنفسنا فجأة على حافة المبنى، مباشرة على أساس القبة. ومن هناك كان المنظر جميلاً بشكل لا يوصف: بحر مرمرة الأزرق البنى، والحديقة الصغيرة المعتنى بها، التى تقع بين أيا صوفيا ومسجد السلطان أحمد، والتى يسير بين جنباتها أناس يبدون من هذا البعد ضئال الحجم، والقبة الرشيقة على البناء الملحق بمسجد السلطان أحمد، الذى كان

فيما سبق كلية للتيولوجيا ومطبخًا للمعوزين، وعلى اليمين توجد حلبة سباقات الخيل بمسلتها التى كان يحكى عنها للأطفال الأتراك فيما سبق أنهـا كانـت أميرًا ثم سخط حجرًا؛ لأنه لم يكن يطيع والديـه، وفـى الواجهـة يوجـد السبيل الذى تبرع به القيصر فيلهلم الثانى[١٠٦] أثناء زيارته، وفى المنتصف - مهيمنًا على كل ما حوله - يوجد مسجد السلطان أحمد نفسه وقبته، التـى تقل عن عرض قبة أيا صوفيا بمقدار مترين فقط، وهى تعلو ببطء ووقـار مثل أمير عن نصف القباب المتناثرة.

ويوصل الفناء الخارجى الزائرين إلى بوابةٍ، إذا ما وقف المرء علـى درجتها السفلية يصل الهلال الذهبى على القبة الرئيسية بالضبط قمة البوابة، وهكذا يبدو وكأن المسجد قد وضع مثل صورة فى إطارها، ثم فنـاءٍ ثـان محاط ببواك، وأخيرًا المسجدِ نفسه الذى كثيرًا ما رئى من قبل الأوروبيـين بوصفه أجمل مساجد إستانبول (ولذلك فإنه اليوم مملوء بالسياح المنتـشرين بين أرجائه كجراد حقيقى)، وهو فى الحقيقة شىء خلاب، منقطع النظير فى درجات تنوع اللون الأزرق فى زخارف الحوائط، وفى الرسوم الزخرفية فى الباحة الرئيسية، وعلى السيراميك الغنى على الحائط الخلفى، الذى يـسحب المراقب دائمًا وبعمق إلى حديقة أسطورية مزرقة خضراء، وإذا ما أعرضت العين عن هذا إلى واجهة المسجد؛ فإنها تتقابل مع زرقة بحر مرمرة الـذى يمكن رؤيته من كل النوافذ، والذى تلمع عليه السماء منعكسة بزرقة الخزف الناعم. وينتقل الزوار، كما لو أنهم مشمولون فى بلور أزرق، بين الأعمـدة الأربعة الحاملة وحولها، والتى يبلغ قطر دائرة الواحد منها خمـسة أمتـار، ولكن بفضل تضلعات مسطحها الخارجى؛ فإنها لا تقع فـى الـنفس موقعًـا غليظًا. وفى أحد الأركان يقرأ بعض الصبية القرآن، بينما يسجد هناك رجل عجوز فى صلاته غير منزعج من جمع الزوار المحدقين، بينما يدع آخـر حبات المسبحة ذات الثلاث وثلاثين حبة تنزلق بين أصابعه وهو غارق فـى سر أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين.

ونرى من مكاننا العاصف إلى جانب قبة أيا صوفيا الداخلين الذين يختفون فى مبنى فضى، رمادى، فارّين من صخب العالم. ألم يقل النبى: "الصلاة معراج!"(١٠٧). كانت سيارات الترام تصر على قضبانها، وتمر سيارات الأجرة مسرعة وهى تضرب نفيرها، وعلى صفحة الماء الزرقاء تجرى البواخر الصغيرة ومراكب صيد السمك، ثم تصبح ظلال المنارات الست لمسجد السلطان أحمد أطول، وتجعلنا ريح المساء الخريفية نرتعد من البرد... أكانت إستانبول أجمل فى الربيع أم فى هذا الخريف الملعون لعام ١٩٥٣؟

وقد تعرفت على المدينة فيما بعد بشكل أعمق. كانت آخر الأزهار تزدهر على الشاطئ المنحدر للبسفور، وفى بعض الأيام تتجدد صحوة حقبة التوليب فى بداية القرن الثامن عشر، وهى الحقبة التى أنشأ فيها السلطان أحمد الجامع الأزرق، وكتب فيها نديم أشعار الحب المشرقة، ورسم فيها ليفنى Levni برقة سيدات وسادة البلاط السلطانى، فحتى وإن تغير البسفور يمكن للمرء أحيانًا أن يقول:

انظر، هنالك فى الميناء

ست مراكب تنتظر

فتعالى يا شجرة السرو لنتجول

ودعينا نذهب إلى سعد أباد

نادرًا ما التقيت فى هذا الخريف الأصدقاء الشعراء من الربيع الماضى. وقد وجدت بفضل أصدقائى فى أنقرة طريقًا إلى حلقة سميحة أويفردى، وهى متصوفة تتابع العناية بالتراث الفكرى لكنعان رفاعى، وقد جمعت حولها حلقة كبيرة من الشباب المتعلم، وقامت مع ثلاث صديقات – نزيهة أراز Araz وصفية إرول Erol (التى كتبت رسالة دكتوراه فى الدراسات السامية لدى فريتز هومل Hommel فى ميونخ) و صوفى خورى وهى لبنانية مسيحية –

بتصوير حياة ومؤلفات أستاذها فى التصوف، وكانت هذه أول محاولة فى عصر العلمانية الخالصة لإعادة إحياء معنى القيم الروحية والتقاليد الدينية التى ساعدت على تشكيل الدولة العثمانية، والتى تبدو الآن ومن جديد شيئًا ضروريا. لا بد من إحياء العصر الزاهر لمحمد الفاتح، فاتح القسطنطينية، مرة أخرى، وقد كتب الأخ الأكبر لسميحة، المعمارى أكرم حقى أويفردى، كتابا ودراسات أخرى كثيرة عن العمارة فى عهد محمد الفاتح، وما زال أفراد الأسرة والأصدقاء ينشرون سلسلة مهمة من الكتب العلمية حول الثقافة العثمانية. كان بيت حى الفاتح الذى تعيش فيه أبلة سميحة، كما سمحت لى أن أدعوها، يبدو وكأنه متحف، وهناك تعرفت لأول مرة بشكل دقيق على تراث فنانى الخط العثمانيين الذى بدأ مع الشيخ حمد الله من أماسيه، وكان معلم الخط للسلطان بايزيد الثانى، ونال مكانة سامية في بلاطه[١٠٨]. وقد اقتفى خلفاؤه فى فن الخط أسلوبه الأنيق الذى كان مألوفًا جدًا فى فن الخط العثمانى. ومثل حمد الله كُرِّم كذلك خلفه المهم حافظ عثمان[١٠٩] الذى درّس لخليفتين هما مصطفى الثانى والسلطان أحمد، ورتّب له الأمراء أيضًا الوسائد، وناولوه ممحاة الحبر. وقد أعدت الطبعات القرآنية التى طبعت فى القرن العشرين فى تركيا عن مخطوط كان قد كتبه، وقد كانت شهرة هذا المخطوط كبيرة حتى إننى كنت كثيرًا ما ألتقى بأصدقاء أتراك يرون عن اقتناع أن هذا المخطوط القرآنى وليس غيره هو المخطوط الأصلى الأول للقرآن الكريم، بل صنعوا من مخطوطة حافظ عثمان أساسًا لتفسير عددى غامض، يأملون فيه من خلال أعداد حروف محددة فى كل صفحة كشف اللثام عن المستقبل (وذلك يشبه ما كان معروفًا فى العصور الوسطى المسيحية، ومن خلال الكابالا اليهودية). وقد ورث خلافة حافظ عثمان، الذى وصفه يحيى كمال فى قصيدة جميلة بأنه "نبى فن الخط"، أخيرًا فى القرن العشرين عزيز رفاعى، من طرابزون، وقد تشيع مثل أصدقائى للمعلم كنعان رفاعى، ثم ذهب إلى مصر وأصبح مؤسسًا لفن الخط المصرى الحديث.

فى هذه البيئة رأيت كنوز العصر العثمانى، وخاصة تلك التى تتعلق بفن الخط، وكانت هناك سكين صغيرة رائعة الشكل وذات مقبض من المعادن الكريمة لتقليم ريش الكتابة، وهناك وجد كذلك اللوح الصغير الذى تدبب عليه الريشة وتقلم بإمالة، وهو يصنع من العاج أو من جلد سمك السلمون المتيبس، وكذلك وجد كاليمدانس، أى حافظة ريش الكتابة الخام، وأدوات الكتابة الأخرى التى يمكن أن تكون مصنوعة من المعدن ومزينة بنقوش ناعمة أو من ورق مقوى ملون، وغالبًا ما تكون مزينة بأبيات فارسية أو تركية أو مطعمة بالصدف ومؤطرة بإطار عاجى رقيق. وكانت أوراق الكتابة المصنوعة بفنية عالية لا تحصى، وهى تلصق غالبًا على ورق المرمر "إيرو". كان البصر يتجول فوق مخطوطات مزركشة بالذهب، وعلى تطريزات كانت النساء توشى بهن مناديلهن: الموضوعات الزهرية المتنوعة فى أدق صناعة؛ حتى إنه لا يمكن التفريق بين الوجه والظهر، وفيما بينها توجد عقد ذهبية، وكان لكل طراز اسمه الخاص وتقاليده الخاصة. وهذا ما كان أيضًا بالنسبة لطراز الدانتيل "أوياس" الذى تخاط أزهاره وأوراقه بنعومة كاملة بإبرة كروشيه رفيعة كإبرة الخياطة، وذلك لأجل تزيين أطراف الخُمُر التى تلون بالطباعة الخشبية. وهنا أيضًا يمتلك كل طراز اسمه، سواء أكان الاسم هو "ما سرقه السكرتير" أم "شاهد قبر الحماة". وكانت أبلة سميحة تستطيع أن تشرح للزائرات المبهورات من بالضبط يسمح له بمهاداة من بأىٍّ من أشغال "الأوياس". وقد بدأت آنذاك أيضًا فى جمع الأشكال المزينة التى كانت تختلف تبعًا لاختلاف مصدرها، والتى تصنع من أصناف مختلفة من الخيوط الحريرية.

وكنت كثيرًا ما ألتقى بزملاء يحبون الموروث مثل أصدقائى، وكان من بين هؤلاء: سهيل أنور Ünver، والذى كان - رغم أنه مؤرخ طبى - أحد أهم العارفين بفن الخط ورسوم المنمنمات، ونهاد سامى بانارلى Banarli الذى بعث الحياة فى الموروثات الكبرى فى كتبه ومقالاته. ويمثل هذا التأثر

شبَّ كذلك حفيد أبلة سميحة الذى يحمل اسم المعمارى التركى العظيم سنان مصمم ومنشئ مساجد السليمانية وميرمه ورستم باشا والسليمية فى أدرنة، ولكن أبلة سميحة نفسها قد خلدت الموروثات الغالية عليها فى رواياتها وقصصها القصيرة. وكنت أحب أن أسمعها عندما تحكى فى جمل طويلة متعانقة عن إستانبول القديمة التى ابتعثت جوانبها الجميلة أمام القارئ فى كتابها Istanbul Geceleri "الليالى الإستانبولية"، التى تفتننى دائمًا من جديد.

غالبًا ما كنا نجلس فى منزل العائلة فى حى الفاتح، بالقرب من مسجد محمد الفاتح، وكذلك جلسنا مرةً على البسفور فى منزلها الصيفى فى الأستانة، وبينما كانت تتكلم عن واجبات وتكاليف الناس على الطريق الروحى، تغطت السماء بمروحة ضخمة من سحب منفوشة كالصوف، وقد لونتها الشمس الغاربة بالأحمر الوردى، وذلك حتى اختفت مثل طائر وديع براق. ألم يتعرف المتصوف الفارسى الكبير روزبهان البقلى مرة على الجمال الإلهى فى سحابة وردية؟

لقد تعرفت من خلال حلقة أبلة سميحة على إستانبول تكاد تبدو مفقودة فى ضجيج المدينة الحديثة، ولذا بدا نقدها لبعض مظاهر وتطورات عصرنا فى بعض الأحيان قاسيًا جدًا، وكانت لا تقبل الحلول الوسط فى مواقفها وتصرفاتها؛ فهى لا تعرف إلا طريقًا واحدًا يقود إلى الكمال. وتمثل خطاباتها التى كتبت بخط مثل خفقات جناح طائر وثائق مهمة لروح عظيمة. لقد رأيت أبلة سميحة قبل أيام قليلة من وفاتها فى مارس ١٩٩٣. لقد غادرت هذا العالم فى ليلة القدر، تلك الليلة المقدسة فى العام، والتى تلقى محمد فيها أول وحى قرآنى.

كنت أكتشف دائمًا زوايا جديدة فى الطبيعة حول البسفور. ولا أنسى اضطرابى عندما قدمت للمرة الأولى بالباخرة إلى إسكدار، والذى كلفنى آنذاك ثمانية عشر قرشًا كاملة، ومن فرط حماستى كدت أن أُقبِّل أرض آسيا.

"ليس صحيًا تمامًا" قالت زميلة دراستى الألمانية الرزينة حنة زورفيدا التى كانت تعمل فى المستشفى الألمانى بجانب طكسيم. أسكدار- لقد كان شعر يحيى كمال الذى تغنى فيه ببريق نوافذ "أسكدار الفقيرة" أثناء مغيب الشمس، ثم:

المنتشى بالخمور الذهبية،

معمارى الضوء الذى بسط يديه إلى الأفق

بكأس أرجوانية - كما حدث لآلاف السنين

يبنى مرة بعد أخرى أسطورة - إسكدار!

فى جفنتة هاوزلار يوجد بيت أحد المعارف تحت أشجار قديمة، وفى إرنكوى وجدت حديقة أسرة جالا، وعلى مركب متأرجحة كنا نسافر متهادين بريح الشمال إلى "الفيللا" الخاصة بالمؤرخ الأدبى المعروف فاخر عز فى أناضولو حصار، ومن على مرتفعات قنديللى وفى ضوء القمر أصبحت أبيات يحيى كمال حية:

حينما تغفو قانديللى العائمة

نتتبع ضوء القمر على الماء...

كانت "الفيللات" القديمة ذات الحجرات الكبيرة ترتفع على الشاطئ، ويتخيل المرء المسرات والملاهى الترفيهية على الماء العذب لآسيا كما وصفها الرحالة والفنانون الأوروبيون فى أواخر القرن الثامن عشر. ويمكن للمرء أن يسافر بالباخرة حتى بداية البحر الأسود تقريبًا، وأن يتمتع فى أىٍّ من المطاعم التى لا تحصى بالأسماك اللذيذة. وهناك يصبح المقر الصيفى للسفير الألمانى بحديقته الواسعة فى بابك فى مرمى البصر، وكذلك كلية روبرت (اليوم جامعة). وقد سافرنا بعض المرات إلى بابك لكى نتمتع بالضيافة الكريمة لأقرباء جالا، وصعدنا إلى حصن روملى حصار، وتخيلنا

كيف إن هذا الحصن والحصن الذى يقابله على الشاطئ الآسيوى أناضولو حصار كان ينبغى لهما حماية المدينة من المغيرين. يتمدد قصر ضولمه باغجه على الشاطئ مرحًا، أما مسجد ضولمه باغجه الصغير الجذاب فمحط إعجاب وحب كل زائر.

ولإستانبول وجوه كثيرة، وهى تتغير تبعًا لاتجاه الريح؛ فالرياح الجنوبية الدافئة من البحر المتوسط والرياح الشمالية الباردة من البحر الأسود تؤثران على طقسها وضوئها ومزاجها. وكما أن إسكدار وما حولها لا تمثل ماضيًا رومانسيًا فقط، وإنما يجد المرء على الجانب الآسيوى كذلك الثكنات العسكرية الضخمة، ويجد قبل كل شىء محطة قطارات حيدر باشا. وهكذا فإن بيرا لم تكن فقط ذات طابع أوروبى، وإنما يمكن للمرء أيضًا أن يرى هناك منازل عثمانية جميلة. وفى جلطة يرتفع خان المولوية القديم؛ حيث ألَّف فى نهاية القرن الثامن عشر أحد أكبر الشعراء العثمانيين وهو شيخ غالب ملحمته بعيدة الأغوار ومتعددة الطبقات عن قصة حب "حسن وعشق" Hüsn u Aşk.

نعم لإستانبول وجوه عديدة، وبينما يترك المرء نفسه لتفتن بسهولة بسحر فن العمارة، وبالأسبلة التى لا تحصى فى المدينة القديمة، وبالبيوت الخشبية القديمة، كانت توجد أيام يتحول فيها الخريف المشرق جدًا إلى شتاء قارص، أيام لا يكون اجتياز البحر فيها إلى إسكدار إبان المطر الثلجى والريح اللافحة متعة خالصة، أيام كان المطر فيها يجعل الشوارع الهادئة زلقة، وتظهر فيها فجأة بصورة غير متوقعة حفر مياه، وبحيرات صغيرة، ومطبات عميقة. وعلى البسفور يوجد ركن يعتبر المكان الأبرد فى إستانبول، وهذا الركن هو قيرجبورنو؛ حيث يلتقى الريح الشمالى الحاد القادم من البحر الأسود وبكل قوة مع البوغاز. وهناك يعيش أحد أهم وأطرف المفكرين المتصوفين الذين تعرفت عليهم، وهو حسن لطفى شوشوت Susut الذى أصبحت أعماله فيما بين ذلك متاحة بالإنجليزية. وقد رأيته مرات كثيرة فى

مكتبة المدينة، وكان جسمه الصغير الهزيل ينبئ بأن حسن لطفى بيه قد سيطر عليه من خلال الصوم المستمر بالكامل - ألم يكن الجوع وفقًا للتقاليد الصوفية القديمة "طعام القديسين"؟ كان يعلم التأمل الروحى المستمر مع تنظيم التنفس، وكان هدفه على الطريق هو "التخلص المطلق مما يحس"، و"الفناء"، وأن يكون ذلك المختلف بالتمام عن كل ما خُلق. كان يعتقد أن هذه طريقة تركية - وسط آسيوية مميزة لإدراك الله، ومن هنا كان يرفض التصوف التقليدى. لا، لم يكن بريد أن يسمع عن الحب الصوفى أو عن نشوة الشعراء الكبار. كان "الفناء"، أى ألا يكون شيئًا، هو الهدف. وبينما كان يعلمنا "كلما أصبحت لا شيئ، كلما كنت أقوى"، كانت هبات العاصفة تلاطم قضبان النوافذ "مثل نحات سيحررك الحزنُ من الصخرة". كان يعرف بلا ريب أن القائد الروحى هو منارة فقط وليس الهدف، "ولكنه لا يستطيع أن يخفى نوره". وبينما يتوهج الموقد الحديدى، كان يحاول أن يصطحبنا إلى عالم المطلق المختلف، ولكنى كنت أتجمد بردًا. عند الوداع أهدانى مخطوطًا تركيًا جميلاً يحتوى على كرامات ولى الله عبد القادر الجيلانى. وقد جعلتنى الأمطار الثلجية على محطة الأتوبيس أشعر بالحاجة إلى بعض الدفء، كذلك فى المجال الذهنى الروحى أيضًا.

لا، لقد آثرت أشعار أصدقائى على هذا الإبهام والتجريد، وسعدت أننى وصلت مرة أخرى إلى جسر جلطة؛ حيث يستطيع المرء أن يراقب الناس فى كفاحهم اليومى من أجل الحياة والوجود:

البعض يجدف بمشقة للأمام
البعض يجمع قواقع أسفل الجسور
البعض يوجه زورق شحن
البعض عامل شحن على الحبال
البعض طائر يطير بشاعرية

البعض سمكة براقة لؤلؤية

البعض باخرة، والبعض عوامة

كانت أبيات أورهان ولىّ ترِنُّ فى داخلى عندما كنت فى طريقى إلى البيت. ولكن كيف للمرء أن يشبع من الحديث عن إستانبول؟

أن أحب فقط حيًا واحدًا من أحيائك

فإن لذلك قيمة حياة كاملة

قال يحيى كمال، وكان عنده بالتأكيد حق. كان يحاول وصف رحلة إلى أيوب، الجبانة القديمة التى اكتشف فيها، بعد سقوط المدينة فى أيدى المسلمين، مقبرة أبى أيوب الأنصارى حامل راية الرسول. لأن الآثار الرومانية، زخارف الفسيفساء الغالية للكاريبيه(١١٠) ينبغى أن تعرض بما يناسبها، كذلك لا بد من أن تغنى النظرة من جهانجير على الشاطئ الآسيوى بما يناسبها من الشعر. لا بد من أن أعود بخاطرى إلى كل الزملاء الذين قابلتهم فى إستانبول، وهم زكى وليدى طوغان المؤرخ البشكيرى الكبير، أو أحمد حمدى طانبنار Tanpinar الناقد الأدبى الذى أحببت أشعاره التى تثير المشاعر، وكل الأصدقاء الذين كانوا دائمًا يبنون لى جسورًا جديدة. وكيف كان هذا حينما دعانى مدير أكاديمية الفن زكى فايق إيزر Izer وتركنى أستمع لأول مرة إلى ناى الدراويش؟ أو حينما نلتقى نحن الصديقات لدى صوفى خورى فى جمعية الكتاب المقدس الأمريكية، لا لنتحدث كثيرًا حول مشاكل الترجمة (وهناك أعيدت صياغة المعجم الضخم لريدهاوس على أحدث مستوى)، وإنما لنتحدث حول مسائل الدين والروابط العميقة المشتركة بين المسيحية والإسلام، أو حين دعانى روبرت أنهيجر Anhegger الذى يدين له المشهد الثقافى الألمانى - التركى بالكثير لكى ألتقى الشيخ الشهير عبدالباقى جلبينارلى Gölpinarli الذى كان أحد كبار العلماء الثقات فى مولانا الرومى والمولوية وآلاف الأسئلة الأخرى التى تهمنى، ولكن الرجل الشهير

بدلاً من أن يصطحبنى إلى أعماق الأدب الصوفى، حكى لى طوال المساء بحماس مفرط عن وجع أسنان قطته.

آلاف الذكريات تمر مثل شريط سينمائى، ذكريات مُرَّة - حلوة، ولكنها دائمًا تتلألأ على ضوء البسفور، ربما فى مثل هذا اليوم الذى زرنا فيه إحدى بقايا الآثار القديمة على الجانب الأوروبى لبحر مرمرة. عندما جرى النساء والأطفال إلى نبع قريب، جلسنا القرفصاء تحت شجرة تزقزق وتغنى على قمتها أعداد لا تحصى من الطيور. كان المزاج رائقًا والهواء مبتسمًا، وبين الأعمدة المحطمة لأحد المسارح القديمة ينمو خشخاش أحمر، وكان البحر يمتد لامعًا بالزرقة، ممتلئًا بالتاريخ وبالأشعار منذ آلاف السنين. إستانبول منسوجة من الماء والضوء:

وهكذا كانت نهاية الربيع:

مثل موسيقى، هارمونية خفية.

أستاذة (بروفسيرة) فى أنقرة

وصلت إلى أنقرة للمرة الأولى فى أواخر صيف ١٩٥٣، وقد استقبلت فى محطة القطارات من قبل أصدقاء المراسلة. بعد إقامتى الأولى فى تركيا وصلنى فى يوم ما طرد صغير بداخله مجلة تسمى Sohbet "صحبة"، وهو تعبير يستخدم خاصة فى الحوار التعليمى بين الشيخ الصوفى ومريديه، وقد بدأ على إثر ذلك تبادل مكثف للخطابات مع ناشرها إسماعيل خسرو توكين Tökin. والآن فإنه ينتظرنى وأخته النشيطة ميهبارة التى لا تعطى الانطباع بأنها متصوفة، وقد كانا مستعدين بالكامل من خلال يوم صوم دينى. فقط فيما بعد علمت - مثلما هو دائمًا - من جزئيات صغيرة أن خسرو الذى كان يتولى آنذاك موقعًا قياديًا فى هيئة السكك الحديدية، وأصبح فيما بعد مديرًا لدى بنك الاعتماد والتعمير، ثم سكرتيرًا عاما لغرفة التجارة التركية فى

إستانبول، كان ينتمى إلى الاقتصاديين السياسيين البارزين فى البلد؛ فبعد دراسة فى موسكو بعد الحرب العالمية الأولى؛ حيث درست مجموعة مكونة من ستة طلاب أتراك العلوم الاقتصادية، كون مع زملائه ما يسمى بجماعة "الكادرو" فى أنقرة، وهى الجماعة التى لعبت فى تركيا فى أواخر العشرينيات دورًا مهما من خلال دراساتها ونظرياتها الاقتصادية الراديكالية. ورغم أن الكثير جدًّا من الأعمال والمقالات صدرت بقلمه، إلا أننى تعرفت عليه فقط كمتصوف يعمل على نفسه بتركيز، كمتصوف أعاد اكتشاف التراث الدينى لوالديه ويحاول تحقيقه فى نفسه.

وقد اصطحبنى خسرو وميهبارة إلى بيت صديقهما ومضيفى أستاذ الطب البيطرى صلاح الدين باتو Batu الذى كان معروفًا لدىً بالدرجة الأولى بوصفه شاعرًا، ولكنه كان يكتب بالإضافة إلى الأشعار العاطفية، بل وبالدرجة الأولى المسرحيات الدرامية التى تستلهم موضوعاتها من الحكايات الشعبية التركية (مثل " كريم وعسل") أو من الأساطير التركية القديمة. وأما المسرحية الأكثر روعة لصلاح الدين باتو، الذى تعلم فى ألمانيا، فهى مسرحيته الدرامية "هيلينيًّا تبقى فى طروادة" التى استلهمت - لأول مرة فى نطاق اللغة التركية - موضوعًا هيلينًا، وحصدت نجاحًا كبيرًا عندما عرضت فى الترجمة الشعرية الألمانية لبرنت فون هيسلر Heiseler فى مهرجان بريجنتسر عام ١٩٧٤.

كان منزل عائلة باتو مثاليًّا بالنسبة إلىَّ؛ فقد كان يقع فى حى بهجليفلر، الذى كان يحمل آنذاك وعن حق اسم "بيوت بحديقة"، وكان جميلاً حديث التجهيز. وقد كون كل من ربة البيت، والابن الذى قابلته مرة أخرى بعد ثلاثين سنة فى إسلام أباد بوصفه سفيرًا تركيا، والابنة الصغيرة الشقراء جيجدم "زعفران"، وقطة ضخمة بيضاء، كونوا صحبة ومجتمعا لى. ويالها من أحاديث جميلة تلك التى وجدت فى الأسابيع التالية! وكم من أصدقاء جدد

قد اكتسبت! وقد استمعت للمرة الأولى إلى قطعة يونس إمــره الموســيقية، وذلك حينما زارنا مؤلف هذه القطعة الموسيقية الجذابــة عــدنان ســيجون Saygun الذى كانت طريقته فى كيفية مزج موسيقى الدراويش الكلاسيكية مع عالم النغمات الحديثة جديدة تمامًا بالنسبة إلىَّ، كذلك جاء شوكت ثريا أودمير Aydemir، والذى تقدم مذكراته Suyu arayam adam ("الرجل الذى يبحــث عن الماء") وَصفًا مؤثرًا جدًا لسنوات الطلب فى موسكو، ولعودته إلى وطنه التركى، كذلك كان الناقد الأدبى والمؤرخ الفنى سوت كمال يتكــين Yetkin من بين الضيوف، ومن خلاله عرفت بخبر "كلية الإلهيات" التى أنشئت فــى أنقرة بعد فوز الديمقراطيين بالانتخابات عام ١٩٥١، والتى كان يدرس فيها تاريخ الفنون التركية الإسلامية.

سريعًا ما انتهت الإقامة الأولى فى أنقرة، ولكن ولأننى - بعد أن ألقيت هناك محاضرتى التركية الأولى - وصــفت كـصديقة للإســلام، ولأننــى بالإضافة إلى ذلك كنت قد حصلت فى ماربورج قبل قليل على درجتى الثانية للدكتوراه فى تاريخ الأديان؛ فإن هذا كله قد جعلنى أبــدو لكليــة الإلهيــات مرشحة نموذجية لكرسى الأستاذية غير المشغول فى تاريخ الأديــان. أمــا كونى امرأة غير مسلمة فإن ذلك لم يكن له دور يذكر. (أيمكن لكلية لاهوتية بروتستانتية أن تدعو زميلة مسلمة للتدريس بها؟). وهكذا تطورت هذه الخطة فى الشهور التالية، وحينما اقترح علىَّ الأمر فى الأول من نــوفمبر ١٩٥٤ لأبدأ بالعمل فى الكلية وافقت بسعادة. لقد كان الأمر يبدو فرصة مثالية، ليس فقط لأدرس فى تركيا الحبيبة، وإنما أيضًا لأتعلم بنفسى الكثير عن ممارســة العلوم الإسلامية.

كانت كلية الإلهيات محاولة لإعداد علماء دين أتراك، يكونون - إلــى جانب تبجيلهم الكامل للتراث الإسلامى - متعمقين أيضًا فى العلوم الغربيــة الحديثة. كان يراد إعداد أئمة وخطباء ومدرسين ذوى كفــاءة لأجــل درس

الدين الذى يعاد إدخاله ببطء، وعلى الأقل فى بعض أنواع المدارس المحددة، وذلك بعد سنوات من اللادينية: رجال ونساء يعلمون شيئًا من الفلسفة الأوروبية، ومن علم اجتماع الأديان وخاصة تاريخ الأديان المقارن، ولكنهم أيضًا على علم بالقرآن والحديث وبأساسيات الشريعة الإسلامية، والذين يكون لديهم – بدلاً من حفظ القرآن فقط – معرفة راسخة باللغة العربية. باختصار لقد كان مشروعًا مهمًا للغاية، وكان يوجد بين الطلبة عدد من الفتيات الصغيرات النشيطات (لم يكن بينهن من ترتدى حجابًا)، وكذلك تم تعليم سلسلة من الضباط صغار السن، وذلك حتى يستطيعوا الإجابة على الأسئلة الدينية فى الجيش. لقد كنت مبهورة من الإمكانات، ودرّست تاريخ الأديان منذ ما كان يسمى آنذاك بالأديان "البدائية" وحتى المسيحية. أما التعاليم المسيحية وتاريخ الكنيسة، وكذلك الدراسات اليهودية فكان يهتم بها فى السنة الثانية من سنتَىْ التدريس.

ولأنه لم تكن توجد كتب تركية حول علم الأديان، كان ينبغى علىَّ أن أكتب كتابى التعليمى بنفسى، وقد أعطى الكتاب للطلاب أول مساعدة توجيهية. وحينما قمت فيما بعد بإعداد طبعة منقحة ومزيدة وذات شأن، اختفى المخطوط بطريقة غامضة ثم اكتشف بعد سنوات عديدة فى درج أحد الزملاء المتوفين، وذلك ليختفى مرة أخرى فى اللاشىء. وحسبما أعلم فإن أحدًا لم ينشره تحت اسمه.

كان رد فعل الطلاب الذين قدموا من بيئة ريفية أو من بيئة المدن الصغيرة التقليدية هو ما كان يهمنى بوجه خاص فى هذا الدرس؛ فرفضهم الحاد للأديان الهندية بآلهتها ذات الأذرع الكثيرة يتفق تمامًا مع سلوك المسلمين فى شبه القارة. وقد فهم البعض منهم الحكمة الصوفية العليا فى الأوبانيشادن[111] بوصفها متوازية مع التصوف الإسلامى الفلسفى – الدينى، ولكنهم وقفوا فى الغالب دون إدراك تام ضد الهندوسية التى تشبه غابة، وقد

وجدوا فى نظام الطبقات بوجه خاص معارضة شديدة لما فى القرآن من تعاليم ثابتة للمساواة فى الإسلام. وعندما وصلنا إلى المسيحية حاولت - قدر الإمكان - أن أعرض بوضوح نظريات علماء اللاهوت حول شخص المسيح لدى الكنائس الشرقية والغربية والجماعات والطوائف البروتستانتية. ودائمًا كان يفاجئنى إعجاب الشباب التركى بمارتن لوثر؛ فرجل مثله، هكذا بدا لهم، هو بالضبط ما يحتاجه الإسلام اليوم. وقد كلفنى الأمر جهدًا ليس بالقليل حتى أقنعهم بأن لوثر لم يكن على أية حال محبًا للإسلام، ألم يكتب:

على كلمتك
ثبِّتنا يا ربُّ
ووجِّه موتًا
للبابا والترك!

كنت أحاول أن أقرب لهم لاهوتى العصور الوسطى الكبار فى وطنهم كبدوكيه[١١٢] أو شخصيات مثل رايموندس لولوس Lullus[١١٣] الذى أخذ فى أواخر القرن الثالث عشر الكثير جدًا من الأفكار المحفزة من التصوف الإسلامى. كان إجلال المسيح، آخر الأنبياء الكبار قبل محمد، وأمه العذراء شيئًا يقينيًا بالنسبة إليهم، وحينما حكيت لهم أن بعض المسيحيين المحدثين ينكرون معجزة الولادة العذرية، انتفضت إحدى الطالبات وقالت ثائرة: "إذن فنحن مسيحيون أفضل كثيرًا من هؤلاء!"، وقد وافقها الفصل على ذلك. وعندما ترجمت للشباب الصغير الأغانى الكنسية وجدنا - حتى وإن كانت الآراء والفروض التيولوجية فى بعض الحالات مختلفة تمامًا - أننا نستطيع أن نكتشف الكثير من الأمور المشتركة، وأى مسلم ورع يمتنع من أن يردد من أعماق قلبه أغنية "وجه سبيلك" لباول جيرهارد؟

كنت أفيد من وقت فراغى لأجل تعلم فن الخط لدى علِى ألب أرسلان، الذى كان آنذاك معيدًا فى قسم التاريخ الإسلامى وأحد الخطاطين المعروفين

فى خط النستعليق[١١٤] الذى يمثل الضرب "المعلق" للخـط العربـى الـذى استعمل بالدرجة الأولى فى إيران، ولكن أيضًا فـى الهنـد، وفـى تركيـا العثمانية. وقد أدركت - فقط من خلال هذا - إلى أى حد يكـون التـدريب ضروريًا، لأجل التقليم الصحيح للريشة، وأيضًا لأجل كتابة الحرف الذى قد يبدو سهلاً جدًا بمقاسات صحيحة.

وكمحاور شريك حول الأدب والثقافة العثمانيين الكلاسيكيين كان هناك كمال أديب الذى ما زال يتقن الفن القديم للتأريخ بالحروف؛ حيث يصوغ من خلال ذلك المعلومة التاريخية فى كلمة أو جملة ذات معنى تعطى حروفهـا التاريخ المطلوب. أليس لكل حرف عربى قيمة عددية فيما بين رقـم واحـد ورقم ألف. وعند وفاة ستالين ابتدع تأريخًا بالحروف محتواه: "الشيطان ذهب إلى جهنم".

وقد نمت الكلية التى كان بها إيان وجودى حـوالى أربعمائـة طالـب وطالبة، وافتتحت فيما بعد فى جميع أنحاء البلاد كليات جديـدة للتيولوجيـا، يعلم فيها سلسلة من "أطفالى" آنذاك (بل وقد خرج بعضهم - وهذا ما يصعب تصديقه - على المعاش)، نعم لدى الآن "تلاميذ أحفاد" يمثلون علـى الأقـل بعض أفرع تاريخ الأديان فى أنقرة أو إزمير أو أورفه أو حتى فى مـارل فى ولاية شمال الراين-وستفاليا، ولكن هذه تطورات لاحقة.

حينما سافرت أنا وأمى بالقطار فى نوفمبر ١٩٥٤ ووصلنا إلى أنقـرة. كان كل شيء بالنسبة إلينا جديدًا، وكنا نتطلع بشوق لما يمكن أن تقدمه أنقرة لنا. بداية اقترح علينا أن نستضاف لدى عائلة بادملى التى كنا نعرفها منـذ ماربورج؛ حيث كان د. نيازى قد تخصص هناك فى علم الجراحة. وكـان مسكننا الأول فى بيتهم المريح فى جبجى؛ حيث تمتعنا باهتمام السيدة نعيمـة وعنايتها، وبالمحبة الناعمة للأطفال الثلاثة المهذبين. وينتمى نيازى إلى أسرة أعيان من أقدم السكان الأصليين فى المدينة، وهو يحكى بابتـسامة خفيفـة

ماكرة، كيف إن جده الأكبر قد شرب القهوة مع الفاتح الوسط - آسيوى تيمورلنك حينما استولى على مدينة أنقرة فى عام ١٤٠٢م. وكان يستطيع أن يحكى ببراعة أيضًا عن ذلك الوقت الذى عمل فيه طبيب امتياز شابًا فى شرق الأناضول، وكيف حاول أن يضمد جراح الأكراد ذوى الأدمغة الصلبة التى حدثت بعد مشاجرة ما: "... ولم يصرخ أحد. قلت: «لكن لا بد وأنه مؤلم!» «لا يا دكتور، لا يؤلم!»، «ولكنه لا بد من أن يؤلم»، وهكذا حتى جاءت الإجابة الواضحة: من العار أن تقول «مؤلم» أمام الطبيب!".

كذلك كانت مساعدة نيازى لنا ضرورة حياتية فى الشهور الأولى، ولكن طبعًا فى مجال آخر. صحيح وجد على الورق مرتب كامل منتظم (ولكن كانت المفاجأة بالنسبة إلىَّ أن الليرة التركية تم تخفيض قيمتها بشدة، وبالضبط لحظة قدومى، وقد حدث معى نفس الشىء بعد ربع قرن فى هارفارد؛ حيث هبطت قيمة الدولار وقتذاك بعنف) ولكن مر أسبوع وراء آخر دون أن أرى مالاً. لقد ضمننا نيازى فيما يخص الإيجار والأغطية والفحم والنظافة، ولكل ما يحتاجه المرء خلاف ذلك من الضروريات؛ فبدونه وأسرته كانت البداية ستصبح صعبة لدرجة لا يمكن التغلب عليها. على كل حال حينما فتحت العهد الجديد آنذاك مرة (كان ذلك تقريبًا فى شهر مارس) وقع نظرى على رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية؛ حيث يشكو: "أيها الغلاطيون الأغبياء... أخاف عليكم أن أكون قد تعبت فيكم عبثًا!"[١١٥]. وقد سلّتنا جدًا فكرة أنه أيضًا - كما يبدو - قد جرب هنا، فى غلاطية، شيئًا يشبه ما نجربه نحن، لدرجة أننا تحملنا بقية وقت الانتظار بشكل أفضل.

كانت شقتنا الأولى تقع مباشرة أمام كلية الإلهيات فى جبجى، وقد أصبحت بسرعة وببعض الصور والأغطية البنية السوداء من شعر الماعز مريحة حقًا. وعلى التل فى الجهة اليمنى كانت "المبايت" الجديدة تنمو بصورة مطردة، وتزحف منذ ذاك على كل منحدرات المدينة، وذلك لأن الانتقال إليها من النواحى الريفية مستمر. واليوم فإن جزءًا كبيرًا من أهل أنقرة يعيشون

فى هذه المبانى المبنية للمساعدة، والتى - كما يوحى اسمها - تكون لمبيت "ليلة" واحدة.

وفى فناء البيت كانت تعيش بعض القطط، إيبك "أى حرير"، وحيوان قبيح مبرقش ذو عيون صفراء فاقعة وهو يسمى فى الجوار "الجستابو"، وعنه حكت جارتنا الكاتبة المعروفة خالدة نصرت زورلوتونا Zorlutuna. أما قط الكلية الأبيض فكان حقيقة من فصيلة الفان كاتس؛ فهو ذو عين خضراء وأخرى زرقاء، وقد تحفظ فى البداية بترفع، ولكننا سرعان ما أصبحنا صديقين. وكانت أيبك تعرف الكلية كذلك، وحينما أحضر إلينا مرة بعض من لحم الخنزير، كنا نرمى فى الفناء ما يبدو لنا غير موح بالثقة، وكانت أيبك تتشمم مدهوشة من اللحم غير المعروف، ثم خطت بذيل مرفوع عبر الطريق، بالتأكيد حتى تحصل لنفسها على فتوى قانونية عما إذا كان يسمح لها كقطة تركية طيبة بأكل لحم الخنزير المحرم على المسلمين. وكانت الفتوى فيما يبدو سلبية.

كذلك لعبت قطة صغيرة الدور الأهم فى شقتنا الثانية التى كانت تقع فى ضاحية ما؛ ففى إحدى الليالى استيقظت أمى بسبب شعور غريب فى باطن الركبة، ولكنها لم تجد شيئًا، وعندما بحثت فيما بعد مرة أخرى اكتشفت قطة ضئيلة الحجم فى سريرها. وسرعان ما أصبح الحيوان الصغير المشرد ذو الوجه الأبيض والصدر الأبيض يتبختر فى الصباح مثل طفل مهذب إلى حجرة المعيشة، لقد تبنانا. لقد كانت هى كل سعادتنا، حتى أعداء القطط لم يكونوا يستطيعون مقاومة سحرها. ومن يستطيع أن يبقى رزينًا عندما تنظر هريرة (اسم عربى "للقطة الصغيرة") فجأة بعيون طفل كبيرة من فتحة رقبة أحد المعاطف التى تسلقت إليها عبر الكم؟ ثم تنظر مرة أخرى بحب إلى الأمام من خلف سلسلة كتب، وعندما أكتب ترقد حول عنقى مثل ياقة من الفرو، ولأنها كانت باستمرار صغيرة الحجم جدًّا؛ فقد كانت حملاً صغيرًا. كذلك تعلمت مع نداء "هريرة موت!" أن تتمدد مستوية بطولها أمام دولاب

الثلج الذى سيخرج منه حالا بطريقة سحرية بعض ما يؤكل. فيما بعد بـدأت تسعل وكان التشخيص "مزع فى الحجاب الحاجز"، ولكنها لم تجتز العمليـة الجراحية، وكم كنت حزينة بشدة لأجل ذلك.

فيما بعد كنت أطعم أقرباءها الذين كانوا يتزاحمـون علـى الأطبـاق المملوءة بالرئة، وخاصة جنكيزخان، القط الضخم ذو الشارب المغولى، ولكن أقوى الجميع كانت قطة رمادية جميلة بعيون زمرديـة خـضراء مـشمولة بأطراف سوداء كانت تذكرنى دائمًا بصوفيا لورين. كانت ملكة الجمال تلـك تعرف أن عليها أن تأخذ لنفسها أفضل قطعة لحم؛ لذا فهى تصفع كـل مـن يقف فى طريقها.

بالطبع كان حبنا للقطط لا يقارن بوفرة الضيوف ذوى الـذيول الـذين يأويهم ويطعمهم ويعتنى بهم أستاذى السابق للغة العربية فى برلين، وزميلى فى أنقرة فالتر بيوركمان وزوجته. ويعتبر قتل القطط ذنبًا كبيرًا فى تركيـا: "من قتل قطة لا يمكن أن يصلح ذلك، حتى لو بنى مسجدًا" كما يقول لـسان حال الشعب. وهكذا تعيش المخلوقات المسكينة بصعوبة فى صفائح الزبالـة ومنها يحضرها المحسنون إلى البيت. ونتيجة لذلك كانت شـقة بيوركمـان مأهولة باثنتين وعشرين قطة. وما زلت أتذكر إلى اليوم كيف إن واحدة من هذه القطط قفزت من أعلى الدولاب على تورتة شيكولاتة كانت موضـوعة على الطاولة؛ فتركت على غطاء المائدة نقوشا فنية رائعة.

كانت عائلة بيوركمان هم أصدقاؤنا الأقرب بين عدد لا يحـصى مـن الخبراء الألمان الذين يعملون فى أنقرة. لقد منحت تركيا إبان فتـرة الحكـم النازى كراسى أستاذية لسلسلة طويلة من الأساتذة الألمـان، وكـان بعـض الزملاء لا يزالون موجودين منذ ذلك الوقت، مثلاً علـى سـبيل التقريـب الموسيقى إدوارد تسوكماير Zuckmayer، شقيق الكاتب كـارل تـسوكماير، الذى يعمل فى معهد الغازى للتربية ويتمتع هناك بمكانة عالية. وبعد الحرب

تواصل كذلك نزوح العلماء الألمان؛ فكاترينا أوتو دورن Otto-Dorn درست الفن الإسلامى فى أنقرة لسنوات عديدة، وكان رودولف فارنر Fahrner يعمل كمتخصص فى الدراسات الجرمانية، وكنا نلتقى قليلاً أو كثيرًا بطريقة منتظمة فى نشاطات جمعية الصداقة التركية - الألمانية أو فى محاضرات المعهد الثقافى الألمانى الذى كان ينمو ببطء. ومن الزملاء الأتراك الذين كنا نراهم هناك بصفة خاصة عالما الآثار أكرم أكورجال Akurgal وسادات ألب Alp (اللذين كنت أعرفهما منذ زمن دراستى فى برلين)، وكذلك عالم الاجتماع ياوز عبدان. ولا بد من أن أشير بصفة خاصة إلى نشاط المستشار الثقافى فى السفارة فريدريش فون روملس Rummels؛ فبوصفه عارفًا ممتازًا بالبلد وأدبها، ومؤلفًا للكتاب الجميل "تركيا على الطريق إلى أوروبا" Die Türkei auf dem Weg nach Europa، كان ممثلاً مثاليًا للتعاون الألمانى التركى.

ولكننى - بسبب اهتماماتى الخاصة - كنت مع الأتراك أكثر مما أكون مع الأصدقاء الألمان، وذلك لأنه، كما أقول لنفسى بأنانية، حتى الدعوة التركية المملة تملك على كل حال ميزة تعلم بعض التعابير الاصطلاحية، وكنت أقف بشكل مطرد على الأعراف الموروثة، وعلى التبادل الطقسى لصيغ اللياقة والمجاملات التى يستطيع المرء أن يتسامر بها: فى كل حوار طويل يسأل فيه بصياغات جديدة دائمًا عن الأحوال أو صيحات الإعجاب elinize sağlik أى "تسلم يديك!" وذلك عندما يعجب المرء بطعام ما أو بعمل يدوى ما أو شكر الزائر بأن يتمنى له ayağiniza sağlik أى "تسلم رجلك (التى حملتك إلينا)!"، كما يتعرف المرء على نبرات مختلفة للتبريك: güle güle giyin أى "تلبسه دائمًا فى الفرح" (عندما يلبس المرء قطعة ملابس جديدة، حتى قولهم güle güle yakin أى "تحرقيه (تعنى فحم الشتاء) دائمًا فى سعادة" وإلى جانب ذلك تأتى الصيغ التى لا تحصى للمديح ولرد المديح، والأمانى الطيبة للوالدين والأطفال anali babali büyüsün أى "أتمنى أن يشب

فى عز والديه!" وعندما يستفسر المرء عن صحة الطفل تأتى الإجابة (المفاجئة لنا بعض الشيء): "يقبل يديك!".

وقد أثرت فىَّ بصفة خاصة العادة التى تتبع لدى خبر الموت أو ذكر أحد الموتى؛ حيث لا يقال ببساطة: "فلان مات بالأمس"، وإنما: "O, dün sizlere ömür oldu" أى هو بالأمس "العمر الطويل لك!" هذا بالإضافة إلى الكثير من الأشياء الأخرى التى أبهجت قلبى اللغوى. كما عرفت أية أبيات صغيرة يمكن أن يقولها المرء عندما يرى القمر الجديد لأول مرة، كما تعلمت الدعوات المختصرة التى تستجدى بها البركة للأسابيع التالية. وكان مما يجلب الحظ بصفة خاصة، أن يرى المرء إبان ذلك إنسانا "جميلاً كالقمر"، ومن ثم ينبغى أن يكون الشهر وضيئًا ومشرقًا مثل وجهه أو وجهها. وإذا ما كان القمر محاطًا بالغمام؛ فإنما هى أجنحة الملائكة.

عندما يدعونا المرء للإفطار، جرح الصوم مع غروب الشمس فى رمضان، توضع الأطعمة على طاولة الطعام، ويقال إن الأطعمة المنتظرة تلهج فى لغتها الخرساء بتسبيح الله، وذلك حتى تأتى لحظة الإفطار؛ حيث يتناول المرء أولاً عددًا فرديًا من التمر. أحيانًا يبعث أحد المعارف إلىَّ بطبق عاشوراء، وهى أكلة مطبوخة من حبوب وفواكه متنوعة، وأصلها لدى الشيعة أنها تؤكل فى العاشر من المحرم، وهو اليوم الذى يُحتفل فيه بذكرى استشهاد حفيد النبى الحسين فى كربلاء فى العاشر من أكتوبر من عام ٦٨٠م؛ فتلك الوجبة التى ينبغى أن تُذكر بالوجبة الأخيرة للشهيد، والتى تكونت من خليط من البقايا فقط، أصبحت الآن من أطباق الحلوى المنتشرة جدًا، والتى يمكن الحصول عليها فى كل وقت.

وكذلك كنا ضيوفا فى حفلات الختان أيضًا؛ فالختان هو يوم مهم فى حياة الصبية. فى العصور المبكرة كان يحتفل بهذا الحدث بعظمة وأبهة كبيرتين، لأنه بالختان يصبح الصبى عضوًا كاملاً فى الجماعة المسلمة.

وترينا ألبومات المنمنمات من العصر العثمانى الألعاب والمسرات التى كانت تعرض حتى يحول تركيز ابن السلطان عن آلامه، ومن هنا كان يحتفل بختان الكثير من الصبية معًا، وذلك حتى يمكن تسليتهم بشكل أفضل من خلال خيال الظل ومسرح الأراجوز وبالموسيقى والغناء. يسمح المريض الصغير - الذى يكون عادة بين السابعة والعاشرة من عمره، وهو فى حُلّة الفرح الناعمة والطاقية البيضاء - بتصويره مفاخرًا، ويحكى لنا عن تجربته كلها. ولم اسمع مرة فى كل سنوات حياتى فى تركيا والبلاد الإسلامية الأخرى عن ختان البنات؛ فالنساء يتحدثن بمنتهى الصراحة فيما بينهن حتى فيما يخص المشاكل الجنسية الخاصة. فهذه العادة تنتمى إلى التقاليد الأفريقية، وقد جاءت عبر السودان للأسف أيضًا إلى مصر. وعلى العموم فهى لم تكن وليست بالمنتشرة. وفى مقابل ذلك فإن الإجهاض لم يكن من المحرمات؛ حتى إن المرء يجد فى المكتبة الصغيرة بالقرب من المزار المركزى لأنقرة، مسجد هاجى بيرام، كتبًا ومنشورات مثل Çocuk nasil düşürülür? "كيف يجهض المرء؟"، وكانت بعض النسوة الورعات المعروفات لى جيدًا يتحدثن دون خجل عن أنهن أجرين "عملية كحت"، لأنهن رأين أن فى ثلاثة أو أربعة أطفال الكفاية.

وتعلمت فى هذه السنوات صيغ وأشكال التحية، تقبيل الأيدى إزاء العجائز، وهى التحية التى يرفع فيها المرء اليد إلى الجبهة، والقبلة التقليدية المتبادلة لدى الدراويش على الأيدى المتشابكة، أو عرف الحديث إلى الناس الأسن كل تبع لموقعه بكلمات مثل abla "الأخت الكبرى" ağabey (وتنطق âbî) "الأخ الأكبر"، وبكلمة hala أو teyze (العمة أو الخالة) أو amca بمعنى "العم أو الخال"، وكذلك التوسيع الذى ينتج عن الإضافات الأخرى: Mehmet Amca Bey "حضرة العم محمد بك". وإذا ما حدث وحاول أوروبى حديث الإسلام متحمس أن يزعم أن كل المسيحيين، ومنهم والداه، سيدخلون النار طبعًا؛ فإنه سيوجد بالتأكيد بين الحضور من يقول

خفية: Yeni müslümann ezani minareyi yikar أى "أذان المسلم المحدث حطم المئذنة"، وذلك لأنه يصرخ عاليًا.

ويحدث أيضًا فى جلسات النسوة الكثير مما يشبه "عجن الماء فى الهاون"، وهذا يعنى الثرثرة حول سخافات فارغة، وهنا فإننى أروغ وأنسحب "مثل الشعرة من الزبدة"، مع أنه كما يقال: Sabreden derviş muradina ermiş أى "الدرويش الصبور يبلغ مراده"، ولكن كان مرادى فى الغالب هو طاولة الكتابة.

كم من نسوة التقيناهن فى تلك الأعوام! هنا كانت الجارة العجوز، لاجئة جاءت من مقذونيا إلى تركيا إبان حرب البلقان عام ١٩١١، ولكنها كانت لا تزال، حينما تشكو عذابها أو تغدق النصائح علي جيرانها الأصغر سنا، تتحدث بتركية شاذة. لقد أنجبت أربعة عشر طفلاً، توفى منهم أحد عشر وهم صغار، وابن دفن فى مكان ما فى شرق الأناضول، وابنة توفيت بالسل وهى فى العشرين، بعد قليل من مولد ابنها الثالث، أما الابن الأخير؛ فغالبًا على سفر. كان لدى المرأة العجوز حالات من العته، جائتنى ست مرات لتسألنى عما إذا كانت قد أدت صلاتها، وكانت تجد عزاء فى التسبيح على مسبحتها. وكانت دائمًا تكرر قولها: "أنت وضعك جيد. أنت لديك وظيفة، وتملكين أساور ذهبية. لو كان لى شيء مثل هذا، هل تصدقين، كنت سأبقى مع زوجى؟". فى البداية كانت تضرب من قبل أخيها الأكبر الذى شبت لديه بعد الوفاة المبكرة للأبوين، ثم تزوجت وهى فى الرابعة عشرة، ومن ثم ضربت مرة أخرى. "ولكن الشكر لله، الآن وضعى أفضل... أنت ستدخلين الجنة مباشرة cennetliksin cennetlik" تهمس لنفسها سعيدة وهى تشرب الشاى المسكر الذى أحضرته لها بمتعة وصوت مسموع وتمصمص قطعة من حلوى الكونفكت.

أحيانًا كنت أرى كيف يأتى أقرباؤها إليها، سيدات سمينات فى ملابس سوداء قدمن منذ قليل من وطنهن فى البلقان. كن يجلسن مثل خفافيش كبيرة

على السرير الذى أراه عبر الشباك، بعضهن يجلس لعدة ساعات، وبعضهن يبقى مباشرة لعدة أيام أو أسابيع.

"لا أستطيع تحمل هذه المرأة العجوز، ولكنى قلت لها "لتبق!" هذا هو العرف"، تحكى لى بابتسامة ساخرة، وذلك بعدما غادرت إحدى الزائرات البيت بعد عشرة أيام، وجاءت لتستجم لدىَّ بأن تتربع على أريكتى وتنظر إلىَّ أثناء الكتابة: "هذا أفضل كثيرًا من أن أجرى إلى الجارات، لقد سمعت خطيبًا فى المسجد مرة وهو يقول إن كل الشر يأتى فقط من الثرثرة مع الجارات" تقول وهى تهز رأسها فى سعادة، بينما تتحرك ضفيرتها الرفيعة.

وكان لدى العجوز المسكينة حق؛ حيث توجد بعض الجارات اللاتى لا يتحدثن إلا عن تربية الأولاد، والمسائل الجنسية فى الحياة الزوجية، وفى كل الأحوال عن الطبخ. كنت أتمنى أحيانًا لو أفعل – إبان زيارة هؤلاء النسوة – مثلما فى المعتقدات الشعبية التركية بأن أرش لهن الملح فى الأحذية التى خلعنها طبعًا عند دخولهن؛ لأن "هذا يجعل الضيف يذهب بسرعة"، أو كنت أتمنى لو "أمسح خلف بعضهن" حتى لا يأتين مرة أخرى. ومن المفيد، يبدو أن هذه نصيحة جيدة، أن يكون فى متناول المرء بعض حبوب السَّذَاب[١١٦] لتحمى من النظرة الشريرة.

لقد كانت أولاء النسوة اللاتى انفصلن عن معيشتهن التقليدية، يحاولن أن يكن أوروبيات. حقًّا إنهن يتمسكن فيما يبدو بقوة بالنموذج الأسرى القديم – "ولكن للفتاة شقيقين، وستكون فضيحة إذا خرجت للعمل!" يقال هذا عن فتاة كبيرة، غير سعيدة، كانت تفضل أن تذهب للعمل فى مكتب بدلاً من أن تعتنى بأطفال الأقارب، ولكن كان الغطاء الخارجى فقط هو ما تبقى. ويشبه هذا ما يتصل بتعليقاتهن على الدين؛ فبسبب التغييرات أصبح الأمان الهادئ للمسلمين ضعيفًا، ويمكن أن يقود ذلك فى أحيان عدة إلى عدوانية ضيقة الأفق، وأن يتحول الفخر القومى الصحى إلى شيفونية ومغالاة فى الوطنية. ومن ناحية

أخرى فإن أولاء النسوة يفتقدن أيَّ كل معرفة راسخة بالتقاليد التركيـــة، وأيَّ تقدير للفنون اليدوية التركية؛ فهن يسكن فى منازل توضع فيها على المائـــدة أغطية من القطيفة عليها رسوم كلبية، ويقدمن الستان الفاقع المستورد علـــى المنسوجات اليدوية ذات الألوان الدافئة، ويغطين الأرضيات بدلاً من الكلـــيم القديم الجميل بسجاد ذى ألوان صارخة ورسوم خشنة، بينما يستخدم الكلـــيم الرقيق الناعم فى إحدى الزوايا للف الأشياء الخربة. فى مثل أولاء النـــسوة تتضح أخطار تغيير متهور من حياة مأمونة فى نطاق الأسرة إلى مخلوقـــات تريد أن تبدو أوروبيات، ولا ترى من الحضارة الأوروبية إلا الخارج المبهر (وهو فى الغالب إبهار كاذب). فى الخمسينيات كان يمكن للمرء أن يراقـــب تمامًا عدم الأمان هذا لدى نساء الطبقة الوسطى؛ فهن أصغر من أن يكن قد تربين تبعًا للأسلوب التقليدى، صغيرات عن أن يكن قد عاصـــرن الجهـــود العنيفة لحرب التحرر التركية. لقد كن – كما بدا لى – مثل كائنـــات عـــالم بينيٍّ. ولقد تذكرت إلى أى حد ارتبطت التركيات بحرب التحرر هذه، وإلـــى أى حد كانت المساعدات والتضحيات التى قدمنها للجنود كبيرة!. ألـــم تكـــن امرأة هى التى كتبت إحدى أشهر الروايات عن هذا العصر، وهـــى خالـــدة أديب التى نال عملها العلامة الإعجاب فى أواخر العشرينيات والثلاثينيات؟!.

ولكنى كنت أحب نساء القرى البسيطات؛ فرغم أنهن لا يستطعن القراءة أو الكتابة؛ فإنهن يملكن مخزونا لا ينضب من الأمثال والألغـــاز والأشـــعار وقصص الحكم القديمة، وكان حكمهن – فى الغالب – أفـــضل مـــن حكـــم أنصاف المتعلمات المدنيات، وهن يحاولن بشجاعة مواصلة الحياة حتـــى إن استعصى العمل تحت ضربات القدر التى لا تنتهى، والتى يتعرضون لأمثالها منذ آلاف السنين فى حياة الأناضول القاسية. وقد قامت إحداهن – لـــم أعـــد أدرى من كانت – بتعليمى بيت إبراهيم حقى إرزروملو Erzerumlu:

دعنا نرى ما يفعله الرب،
إن ما يفعله، يفعله بحب.

وعلى الجانب الآخر يقف عدد لا يحصى من النسوة اللاتى يتأثرن بكل فرصة سانحة تقدمها الحياة الحديثة. كانت النسبة المئوية لعضوات هيئة التدريس والأستاذات فى تركيا فى الخمسينيات تزيد على أضعاف ما كان عليه الحال فى ألمانيا؛ ففى كليتى كان يوجد غيرى أستاذة للفلسفة الأوروبية وعدد لا يحصى من المساعدات اللاتى واصلن السير فى طريقهن. وكانت النساء تشغلن فى الكلية الفلسفية عددًا وافرًا من كراسى الأستاذية، سواء كان ذلك فى الدراسات الجرمانية أو فى تاريخ الفنون الإسلامية؛ حيث كانت كاترينا أوتو دورن تعد عددًا مهما من الشباب الأتراك فى نطاق تخصصها، واليوم توجد مؤرخات تركيات على القمة فى مجال تاريخ الفن الإسلامى، ويؤثرن فى وطنهن مثلما يؤثرن فى الخارج. ونفس الشىء بالنسبة لعالمات الآثار اللاتى يحفرن فى المدن الحيثية والرومانية، وبالنسبة للمؤرخات؛ فإبان فترة عملى هناك كانت افتنان تلعب - بوصفها موضع ثقة أتاتورك - دورًا مهما فى جمعية المؤرخين الأتراك. وآنذاك كانت توجد عميدة لكلية الطب، واليوم فيما يبدو تنتخب النساء خاصة وبشكل غالب لمنصب العميدات؛ فهن يهتممن بنشاط وذكاء بمشاكل الطلاب ويسيِّرن الأمور بطاقة كبيرة. وقد أصبحت صديقتى مليحة، التى تصادقت معها إبان إقامتى الأولى فى أنقرة، عميدة لكليتى القديمة، وقد أسعدنى هذا بوجه خاص، وأحيانًا أفكر إلى أى حد كانت أمها ستكون فخورة بهذا المسار، أمها الجميلة التى ترملت مبكرًا، ولكنها أرسلت أطفالها السبعة إلى الجامعة، واستمدت القدرة على مثل هذه المغامرة من إيمانها العميق. وعندما أتذكرها؛ فإنها تخطر فى بالى دائمًا وهى تصلى مرتدية ملابس ناصعة البياض. هنا لم تكن توجد قطيعة بين التقاليد الإسلامية والحداثة؛ فالدائرتان كلاهما تمتزج بالأخرى دون فاصل بينهما.

والتقيت فى هذه السنوات محاميات وقاضيات وكذلك ضابطات، نعم ضابطات فى سلاح الطيران. وحتى الآن ما زلت أرى أمامى وجهًا جميلاً واضحًا لامرأة شابة كانت متدربة لدى سلاح الطيران، وكانت شديدة الورع،

وتبدو ناضجة للتعامل مع كل متطلبات الحداثة. وكانت طالباتى تنتمين إلى هذا، سواء اللاتى ذهبن فيما بعد إلى مدرسة الإمامة والخطابة أو اللاتى درسن فى الجامعة. كن لا يرتدين حجابًا عدا - كما هو مفروض - أثناء الصلاة أو أثناء تلاوة القرآن، وذلك لأن المرء كان مقتنعًا بأن الإسلام يتوافق بالكامل مع الحياة الحديثة، وأن المرء لا يحتاج أن يتحدد من خلال عادات اللبس.

كنت أحب الاحتفال مع الصديقات التركيات بالمولد، وهو الاحتفال بميلاد النبى محمد، الذى يأتى فى اليوم الثانى عشر من الشهر القمرى الثالث، ولكن كان من المعروف فى تركيا أن المرء ينشد قصيدة المولد النبوى كذلك فى اليوم الأربعين بعد ولادة ما أو بعد وفاة ما أو فى ذكرى سنوية، أو يمكن للمرء كذلك أن ينذر نذرًا، بأنه إذا ما تحققت هذه الأمنية أو تلك، أن ينشد قصيدة المولد. أما النص الذى يلقى إبان مثل هذه المناسبات فيعود إلى بدايات القرن الخامس عشر. وقد استحوذ النص السهل جدًّا، والذى يسمى "المولد الشريف" للشاعر سليمان جلبى Çelebi، من بورسة، لنفسه عبر القرون على مكان الصدارة فى تركيا، وذلك رغم وجود عشرات التقليدات. وقد قرأنا نص قصيدة المولد فى برلين عند الأستاذ ريشارد هارتمان، وكان هذا للحقيقة أول نص تركى أقرأه بمتعة وأترجمه، وذلك بعد أن كنت أجاهد فقط وبعناية كبيرة خلال النصوص التاريخية الطويلة والمتعرجة من القرن السابع عشر، وهكذا كان اللقاء الحى مع أعمال سليمان جلبى بمثابة سعادة خاصة وتجربة لا ينقضى جمالها المرة تلو المرة.

ويمكن الاحتفال بالمولد فى جامع؛ فحينما قدمنا إلى أنقرة أقيم مثل هذا الحفل فى السليمانية بإستانبول، وذلك بمناسبة ذكرى وفاة أتاتورك فى العاشر من نوفمبر، ولكنه يكون فى الغالب مناسبة عائلية؛ فالمرء يدعو الأصدقاء، وينصت كل من الرجال والنساء، وهم جلوس كل على حدة، للنغمة البسيطة التى تقطع المرة بعد الأخرى بتلاوة القرآن. ودائمًا ما كان يثيرنى بصفة

خاصة الجزء الذى يصل فيه المنشد إلى الوصف الحقيقى لليلة الميلاد المضيئة، حينما ترى آمنة، أم النبى القادم، ثلاث نساء سماويات (مريم إحداهن) تحلقن نازلات ليؤازرنها؛ فتشكو العطش ثم تدرك أنها لا تكاد تميز نفسها عن النور، ومن ثم تقول:

جاءت بجعة بيضاء

تطير بخفقات حانية،

وبدأت تمسح ظهرى بقوة.

وهنا يمسح كل مشارك للجار ظهره، وكل مشاركة للجارة ظهرها، كما لو أن المعجزة تعيد نفسها، المعجزة التى يقال عنها هنا:

فى الساعة التى ولد فيها قائد الإيمان،

غرقت الأرض وقبة السماء فى النور.

وامتلأت كل المخلوقات بالسرور،

انتهى الحزن ووجد العالم حياة جديدة

كل ذرة فى العالم تشدو فى سعادة،

وتنادى معًا: مرحبًا!

وهنا يبدأ التكرار - ولمرات كثيرة - لكلمة "مرحبًا"، تلك الكلمة التى تنادى بها كل المخلوقات "عندليب حديقة الجمال" الذى يقول عنه القرآن "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"[١١٧]. وفى النهاية يقدم الشربات، ويحصل الضيوف على قرطاس ملفوف بعناية، أو على صندوق صغير، به حلوى.

وقد دعوت مرة لإنشاد "مولد" فى بيتى، وكان السبب أن كتابى عن المتصوف الشيرازى ابن خفيف[١١٨] كان قد صدر فى سلسلة الكلية، وكنت

أريد الاحتفال بهذا الحدث. وقد جاء حافظ صبرى معلمنا لعلم التجويد ومعه مغنٍ شابٌ أعمى كان صوته قويًا، وقد فتننا بقوة أدائه وحضوره الطاغى الذى يملأ الأرجاء، لقد كان كانى كاراجا Karaca الذى أصبح فى السنوات والعقود التالية أشهر مغنٍ للأغانى الدينية، خاصة فى احتفالات المولوية. لقد كان التأثير المشترك لكلا الفنانين الكبيرين اللذين يقربان للمستمعين - كل بطريقته - النصوص المقدسة وتلك التى يجرى تقديسها. شيئًا لا يُنسى.

عند النهاية الأخرى لمجال الرؤية توجد أنقرة أتاتورك التى يمكن رؤيتها بوضوح فى Anit Kabir، أى «الضريح الكبير» الذى يطل على المدينة من على التل المركزى فيها. كنا نذهب بكل سرور إلى هناك؛ فقد كان المرفق الواسع ذو البناء البسيط للغاية، وتماثيل الأسود التى يستشعر فيها النماذج الحيثية، والتبطين الداخلى المزين بالفسيفساء الغامقة، أخيرًا وليس آخرا فإن النظرة الباهرة من خلال المزارع تجعل الضريح (الذى صار جناحاه الجانبيان فيما بعد متحفًا لتذكارات أتاتورك) باستمرار نقطة جذب فى المدينة المتنامية.

كذلك زاد عدد المتاحف، وفيما بعد معارض الفن، وقد شهدنا تطور متحف الحيثيين الضخم (الآن متحف لثقافات ما قبل التاريخ والتاريخ المبكر) الذى شيد بمهارة كبيرة وذوق رفيع فى السوق المسقوف القديم بالقرب من الحصن. هنا يحصل المرء على الانطباع الأجمل عن كثرة طبقات الأناضول وتنوعها، وتعطى الاكتشافات الحفرية فى جتلهويوك وبوغازكوى ويازيليكايا، وفى الأماكن اليونانية والرومانية، فرصة لتخمين مدى ثراء أرض الأناضول التى تبدو ضنينة. وفى متحف العادات الشعبية يمكن للمرء أن يرى أعمال الفنون الحرفية: سجاد ومجوهرات وأقمشة حريرية سميكة وتطريزات ثمينة من مثل ما يجده المرء إلى الآن لدى بعض الأسر. وإذا ما انتهى المرء من قيادة زائريه عبر المتحف، يمكن له أيضًا أن يتنزه قليلاً فى حديقة الشباب

المركزية، أو على الأقل فى أيامنا هذه، أن يزور مزرعة أتاتورك وحديقة الحيوان الصغيرة. وهناك يكون تأثير الحيوانات التى لم تُر من قبل على الزائر الأناضولى عميقًا: "الشكر لله!" يصيح رجل عجوز ملتحٍ لدى النظر إلى الخنزير البرى الأسود الذى كان فعلاً وبصفة خاصة قبيحًا: "الحمد لله أن حرم علينا أكل مثل هذا الحيوان القبيح!"، ولكن إذا ما قام الطاووس الكبير بنشر ذيله؛ فإن المشاهدين ينتفضون فى فرحة شاكرة.

وينتمى لأنقرة أتاتورك أيضًا صديق مألوف جدًا لزائرى المركز الثقافى الألمانى، حتى وإن كان القليلون هم الذين يعرفون من يكون هذا السيد الضخم ذو الشعر الأبيض. إنه توفيق بيكلى أوغلو Biyiklioğlu الذى يزور بانتظام ودون تعب - وإن كان يغفو فى بعض الأحيان - كل الحفلات الموسيقية والمحاضرات والأفلام التى تقدم من قبل السفارة والمؤسسات الألمانية. وقد حضر الرجل المولود فى عام ١٨٨٨ الحرب العالمية الأولى، وخدم لأكثر الوقت على الجبهة البلقانية بوصفه ضابطًا عاملاً، ثم أصبح أثناء حرب التحرر قائدًا لقسم العمليات بالجبهة الغربية، وكان - بوصفه هذا زميلاً مقربًا لمصطفى كمال باشا، واشترك - بوصفه مستشارًا عسكريًا لعصمت (إينونو) باشا - فى مؤتمرى مدانيه ولوزان، وأصبح فى نوفمبر ١٩٢٦ السكرتير العام لأتاتورك، وهى الوظيفة التى لم يتركها إلا إبان فترة عمله سفيرًا فى موسكو فى الفترة ما بين سبتمبر ١٩٢٧ ونوفمبر ١٩٢٨. وقد أصبح توفيق بيه فى فبراير ١٩٣٢ رئيسًا للوفد التركى إلى مؤتمر نزع السلاح فى جنيف.

كان التاريخ التركى الحديث بالنسبة لتوفيق بيه جزءًا من حياته الخاصة، وهو يستطيع أن يحكى لساعات طويلة عن تفاصيل دقيقة لم يكد يعرفها أحد غيره من حياة أتاتورك، ومثل هذه المعرفة التفصيلية تجعل المراحل المفردة لمعركة التحرر مفهومة حتى للهاوى أيضًا. ومما لا ينسى

بالنسبة لى تلك الساعة حين كنا عائدين وبعض الأصدقاء من جورديون[١١٩]؛ حيث صعدنا بناء على رغبته إلى دوى تبه، وهناك وقف توفيق بيه ونظـر إلى وادى سقارية، ثم وصف لنا مثل قائد من العصور القديمة كيف ترك مصطفى كمال باشا اليونانيين يتقدمون إلى عمق مرتفعات الأناضول، وذلك حتى يقطع عليهم الاتصال بقاعدتهم فى إزمير، وكيف تقدموا إلى خط بولاتلى - هيمانا. كنا نتصور رؤية الجيشين تحتنا، ونعايش كيف تجمع الجيش التركى، وكيف بدأ بالهجوم المضاد من على هذا التل - الذى نقف عليه تحت السماء المشعة وفى ريح أبريل الباردة - فى أول أيام سبتمبر ١٩٢١ ذلك الهجوم الذى رد اليونانيين عن سقارية، وفتح الطريق أمام الجيش التركى إلى الجنوب. لقد اعتقدنا أننا خضنا هذا النضال الذى حدد مصير الشعب التركى، والذى وقع بالقرب من المكان الذى قطع فيه الإسكندر الأكبر العقدة الجوردية[١٢٠]. لقد كانت هذه هى المرة الوحيدة التى زار فيها توفيق بيكلى أوغلو أماكن ذكرياته الكبرى مرة أخرى.

كانت أنقرة فى الخمسينيات - بالدرجة الأولى - مدينة مثالية للحياة والعمل، وكان الكثير من الضيوف من أوروبا وأمريكا يأتون ليروا معنا تركيا الحديثة والأناضول المسلم، وليتعرفوا على كلية الإلهيات المثيرة للدهشة. ويمتلئ سجل الزوار عن آخره. وطبعًا كنا نجد بعض الصعوبات فى أن نشرح لبعض السيدات أن رجال الطبقات الاجتماعية المختلفة قد يسيرون هنا يدا فى يد دون أن يظن خلف هذا ما يستنكر.

كانت الحالة الاقتصادية السيئة تمثل - فى هذه السنوات - الصعوبة الكبرى لتركيا؛ فلم تكن توجد قهوة، وكان كل ما يُباع بوصفه سمنًا بعيدًا نوعًا ما عن تصوراتنا، ورغم أن الخراف كانت تعلق منتظمة فى واجهات عرض محلات الجزارة، وقد وُضع مكان الألْية السمينة المرغوب فيها ورق ملون ذو أهداب مدببة؛ فإنه كان من الصعب - على الأقل بالنسبة لأوروبى

- أن يطبخ بشكل جيد، وكم من مرة ذهبت فيها أمي إلى المحل الصغير فى شارعنا لتسأل "süt?" (لبن؟)؛ فيقول البائع اللطيف بأسف: "لبن يوك!". و"يوك" هذه - وتعنى "لا يوجد" - كانت بالنسبة إلينا إحدى أهم الكلمات فى هذه السنوات، وذلك لأن أشياء قليلة جدًّا هى التى لم تكن بين حين وآخر "يوك".

وقد ساعدتنا فاطمة المخلصة، زوجة أحد فراشى الكلية، خلال تلك المشاكل الاقتصادية. كانت تأتى إلينا فى جميع الأحوال - إبان الريح أو البرق والرعد، صائمة أو مفطرة - من هضبة الحصن، وهو مشوار يستغرق ساعة، وتكون فى الغالب محملة بحمل ثقيل لأشياء من أدوات البيت التى لا تفيدنا، ولكن تبدو لها مفيدة. وعندما تريد شيئًا ما بقوة؛ فإنها تنظر إلىَّ بسذاجة وتقول بصوت عذب: "يا أختى الكبيرة الحبيبة، لقد حلمت بشىء..." وبعد أن أتفوه بالرد المتوجب "خير إن شاء الله" تكون النتيجة: "حلمت ياأختى الكبيرة الحبيبة أنك قد أهديتنى فستانًا...". وكيف يتأتى للمرء أن يرفض؟ وذلك أن للحلم قيمة حقيقية، فهو تبعًا للمفهوم الإسلامى جزء من أجزاء النبوة الستة والأربعين، وهذا ما تؤمن به فاطمة وتثق فيه.

ومن فاطمة تعلمنا كذلك كيفية التصرف مع الجرذان؛ ففى ديسمبر من عام ١٩٥٧ شهدت أنقرة نكبة بالجرذان المهاجرة، وقد سمعنا بضيق أن أحد هذه الحيوانات جرى يمينًا ويسارًا فى حمامنا فى الدور الثالث من البيت. قالت فاطمة: "لا ينبغى لك يا أبلة أن تميتيه ضربًا، وإلا جاء القرين وناح طوال الليل على قرينه الميت". (وعرفنا بعد عام أن لديها الحق).

وهكذا اتفقنا على أن نعامل الضيف الثقيل بأدب، وقد سمينا هذا المخلوق "آدلجوندا"، وكنا نقرع الباب حينما نريد الذهاب إلى الحمام، ولكننا لم نر آدلجوندا مطلقًا، وبعد ثلاثة أيام أو أربعة - وكان هذا فى يوم الأحد الأخير قبل عيد الميلاد - انقطعت الكهرباء فى البيت فجأة. وقد هز الكهربائيون

الذين استدعوا بسرعة (نعم، يأتى الحرفيون فى أيام الآحاد أيضًا) أدمغـتهم وهمس أحدهم: "يبدو كما لو أن فأرًا قد قرض السلك"، وبينما كانوا يحاولون تقديم أفضل ما لديهم، كنا أمى وأنا، نسرع إلى قـداس عيـد البـشارة فـى السفارة. وقد أيدنا بقوة ما جاء فى صلاة القسيس: "يا رب، دع النور يسطع فى بيوتنا!". وعندما عدنا إلى البيت كان التلف قد أصلح والنور مضاء. ولم توجد خطوات مسرعة مرة أخرى فى هذا المساء، ولكن حينما دخلنـا فـى الصباح إلى الحمام وجدنا وسط الحجرة قطعة جديدة وردية اللون من صابون لوكس وعليها آثار ناعمة جدًا لقضم أسنان. لقد سرقها آدلجوندا من مكان ما وقدمها لنا - على ما يبدو كشكر على ضيافتنا - بوصفها هدية عيد ميلاد.

وفى هذه السنوات تطورت علاقة أثرت فيما بعد على مسيرتى العلمية، بل شكلت هذه المسيرة؛ فلقد شغلت منذ فترة طويلة بشعر محمد إقبـال "الأب الروحى للباكستان"، ونشرت عام ١٩٥٧ ترجمة شعرية ألمانيـة لملحمتـه الفارسية الكبيرة "جاويد نامه" التى تغنى فيها الشاعر بمعراجه فـى صـحبة مولانا الرومى، والتى تعد مفتاحًا لفهم فلسفة الدين الدينامية لإقبال. وبعد أن ألقيت عددًا وافرًا من المحاضرات عن إقبـال، أخـذ أصـدقائى الأتـراك يضغطون بشكل دائم فى اتجاه أن أقوم بترجمة "جاويد نامه" إلـى التركيـة. كان واضحًا أن هذا لم يكن ليحدث فى شكل شعرى، ولكن ولأن العمـل ذا وجوه عديدة جدًّا؛ فقد قررت أن أكتب إلى جانب ترجمة العمل النثرية تفسيرًا له. وكان صاحب المشروع الحقيقى، وزير الثقافة السابق حسن على يوجـل Yücel مستعدًّا لمساعدتى قولاً وعملاً. ولأن مؤلفات إقبال لم تكـن متاحـة آنذاك فى أنقرة؛ فقد كنت أكتب مستخلصاتى من أعماله فى المكتبة العـامرة لكاظم جولك Gülek الذى كان يلعب فى هذه الأيـام دورًا سياسـيا مهمـا. وسأذكر هنا، فقط على عجل، أننى التقيت فى منزل حسن على يوجل أيضًا محمود ماكال Makal المدرس بأحـد المعاهـد الريفيـة، ومؤلـف كتيـب

"Bizim Köy"، أى (قريتنا). لقد قرأت مأخوذة الكتيب الدقيق الذى صور فيه بطريقة مقتضبة واضحة فقر وتخلف وهموم قرية أناضولية نائية، وكان الوصف لأجل هذا بالذات صادمًا. كون المؤلف وكتابه قد عوديا بشدة من قبل دوائر معينة؛ فإن هذا كان واضحًا ومتوقعًا؛ فمثل هذا الفقر يبدو مستبعدًا فى بلد تجاهد بكل قواها لتصبح بلدًا حديثًا. وقد اهتم حسن على يوجل، الذى لم يكن مهتمًا فقط بالتقدم، وإنما أيضًا كان مؤلفًا لشعر جميل فى تبجيل مولانا الرومى، بطبع العمل الكبير "جاويد نامه" الذى صدر فى عام ١٩٥٨. لقد كان نجاحًا، وحتى فى عام ٢٠٠٠ صدرت طبعة جديدة للترجمة. أما الصدى الأجمل بالنسبة إلىَّ فقد تمثل فى خطاب طويل من "نادل" من شرق الأناضول، وجد فى أعمال إقبال تصورًا اتفق وأحلامه للإسلام، ويشكرنى لأجل ذلك فى كلمات مؤثرة. ومنذ الآن بدأ طريقى الروحى يتحول من تركيا إلى الهندو- باكستان.

بالطبع جئت إلى تركيا – بعد مفارقتى للكلية بصفة دائمة عام ١٩٥٩ – مرات عدة. وفى عام ١٩٩٦ منحت وسام الفنون والعلوم. وقد حاول الرئيس ديميريل أن يثبته على صدرى، ولم أكن لأستطيع أن أتجنب التفكير فى أن اسمه يعنى "اليد الحديدية".

قونية، مدينة مولانا الرومى

يمثل العدد ثمانية عشر عددًا مقدسًا لدى المولوية (الدراويش الراقصون)، وذلك لأن المطلع الشعرى لديوان "المثنوى" لمولانا جلال الدين الرومى (شعره التعليمى الكبير) يتكون من ثمانية عشر بيتًا. وقد مرت لمرتين ثمانية عشر عامًا بين زيارتى الأولى لقونية وزيارتى الأخيرة – حتى الآن – فى خريف ١٩٨٨؛ حيث قمت – بمناسبة استلام الدكتوراه الفخرية

لجامعة سلجوق - مرة أخرى وبعد سنوات طويلة، برؤية المدينة التى كانت فيما سبق بمثابة وطن لى فى تركيا. كيف أنشد مولانا الرومى:

تعال لبيتنا، يا محبوب، لوقت قصير!

وأنعش أرواحنا لوقت قصير!...

حتى ترى السماء فى منتصف الليل

شمسًا ساطعة لوقت قصير،

وحتى يشع من قونية نور الحب

إلى سمرقند وبخارى لوقت قصير.

لأننى أحببت أشعار مولانا وترجمتها وأنا طالبة؛ فإنه من الطبيعى أننى - خلال زيارتى الأولى لتركيا - كنت أريد حتمًا زيارة قونية، لكن كيــف؟ سألت أصدقاء ألمانًا عما إذا كان يمكنهم مرافقتى.

"نعم بسرور، ولكن...".

عرضت على أصدقاء أتراك أن يأتوا معى.

"نعم بكل سرور، ولكن..."

وهكذا حتى كدت أيأس، وشكوت همى إلى إحدى معارفى التركيــات، وكانت روحًا حبيبة ومتفهمة، تسكن بالقرب من جامعة إستانبول.

نظرت إلىَّ وقالت: "ولكن يا طفلتى هذا أمر فى منتهى السهولة: حضرة مولانا لا يريد رؤية هؤلاء الناس. إنه يريد رؤيتك أنت بمفردك!".

وهكذا قمت بحساب كل ما معى من مال، واشتريت لنفســى بــشجاعة تذكرة طيران إلى قونية، وكان فيها مطار لم يوجد إلا منذ سنوات عدة فقط، وجدت فى وسط المدينة فندقًا بسيطًا نظيفا ثم ذهبت إلى تربة يشيل (المقبرة

الخضراء)، إلى ضريح مولانا التى تلمع من بعيد قبته الزرقاء ذات القمة الدائرية: حديقة صغيرة مهملة، وخلف شاهد الضريح يوجد الأتباع المخلصون للشيخ، كل شيء كان موضع عناية قليلة، ولكنه كان مؤثرًا. وقد ساعدنى مدير الضريح آنذاك بمعلومات إضافية، ثم تركت للمدينة أن تقودنى، ورأيت كالمأخوذة الحصن المتداعى، ومسجد علاء الدين الضخم والمدرسة الصغيرة الجميلة. رأيت كل شيء وأنا فى حالة من الذهول. وفى الليل وجد برق ورعد شديدان، وفى الصباح كانت المدينة متدثرة بالأخضر. الرائحة الثقيلة لحقول الزيتون (iğde) تملأ الجو. سرت فى أرجاء المدينة، وأدركت لماذا تلعب الصحوة الفجائية للربيع ودموع السحب ودوى الرعد الذى يسمع فيه الشاعر بوق البعث، دورًا كبيرًا فى شعر مولانا. لا بد للمرء أن يكون قد عاش هذا التحول حتى يفهم لماذا يتغنى دومًا برقص الغصن فى نسيم الربيع، بالأردية الخضراء خضرة الجنان للأشجار والشجيرات: الطبيعة كلها تغنى فى مديح شمس الربيع التى تهدى العالم حياة جديدة.

وقد أيقظت من أحلامى حينما وجدت أمامى فجأة زميلاً من إستانبول؛ حيث أخذنى بقية اليوم تحت جناحه، ومعه قطعت طرقات المدينة مرة أخرى - مدينة نائمة، بها - كما بدا لى - أناس لطاف نظروا - فى ذهول، ولكن بطيبة - إلى الزائرة الوحيدة. وحينما صعدت فى اليوم التالى إلى الطائرة الصغيرة وقعنا فى صاعقة جعلتنى أخاف بشدة من أن تنتهى الطائرة مثل فراشة مغروسة فى إحدى القمم الصخرية المدببة التى تبدو لدى أفيون قرة حصار، ولكن بركة مولانا أوصلتنا إلى إستانبول سالمين، وفى حفلة المساء فى منزل بروفسير إيردمان، أحد المعارف القدماء منذ فترة دراستى فى برلين، قدر الجميع مغامرتى متعجبين.

كانت هذه هى الزيارة الأولى التى لا تنسى، وفى السنة التالية (١٩٥٣)، سافرت مع أصدقائى فى أنقرة للمرة الأولى بالطريق البرى إلى

قونية التى تعرفت عليها فى السنوات التالية بطريقة أفضل. نعم، كان المرء آنذاك – إذا جاء من أنقرة – يعرف حقيقة كل حجر على الطريــق. فقبــل الكيلومتر المئة تقف شجرتان ثم يتفرع الطريق: الاتجاه الأيسر يقــود عبــر بحيرة ملحية كبيرة إلى طوروس، بينما يمر الاتجاه الآخر إلى قونيــة بعــد ستين كيلومتر أخرى بقرى جهان بيلى، وهناك يستريح المرء – فى الـشتاء على أرضية السوق غير المرصوفة وهو مغروس تقريبًا فى الطين – لمــدة ربع ساعة، يشرب شايًا أو أيرانًا. فقط تبقى مائة كيلومتر: كانت الــشوارع مستوية وتغرى بالسرعة، ولكن قطعان الغنم التى تظهــر فجــأة، وكــلاب الحراسة التى تهاجم السيارة بطرق غير متوقعة، يدعوان إلى الحذر. وبعــد الانعطاف إلى اليسار يتخطى المرء آخر المضايق، وهنــا تظهــر الــسهول البعيدة لقونية. وعندما تبدو للمرة الأولى فى جنوب المدينة قمتــا البركــانين الخامدين ، ويمكن تبين خضرة الحدائق من بعيد، يشعر المرء أنه فى بيته.

كان الطريق الذى يبدو مملاً عبر الهــضاب اللانهائيــة، ذات الــتلال الناعمة الخالية من الغابات ومن الأشجار، يصبح جذابًا بين فينــة وأخــرى. أحيانًا تكون الأرض كلها بنية رمادية اللون: الأغنام، والأحجار، والبيــوت الطينية المنخفضة وقوافل الجمال المحملة بالملح والتى تمر بين حين وآخر، الجميع كانوا ملونين بألوان متشابهة، ويبدون وكأنهم ينتمون إلى بيئة قمرية غير حقيقية. أحيانًا تبرز الحملان البيضاء من الحقــول والمراعــى فاتحــة الاخضرار، فى قطعان منفصلة عن الأمهات، مثل زهرات الربيــع، وتبــدو الجبال البعيدة زرقاء شفافة، وربما ما زالت تحمل قمة ثلجيــة، ثــم يــسخن الإسفلت مرة أخرى تحت شمس الظهر غير الرحيمة تاركًا انعكاسات سرابية غريبة وهى ترقص. أحيانًا يلمع جبل حسن على الجانــب الآخــر للبحيــرة المالحة فى ضوء المساء. وأحيانًا أيضًا يحول غروب للشمس الشارع إبــان ذوبان الثلج إلى عقد من الأحجار الكريمة البنفسجية والأرجوانية، ويحــول الخراف إلى مخلوقات خيالية ضخمة تتزاحم على البئر القديم جــدًا، بينمــا

يحاول الرعاة فى معاطفهم اللبادية الصلبة عريضة المنكبين أن يشعلوا نيرانا ضعيفة.

الشياه البنفسجية
تتزاحم على حافة البئر،
وقمر أبيض ناعس
معلق بين السحاب،
ومن الشوارع المملوءة بالثلج
يصنع عقدًا من الأرجوان،
كيف نسينا الوقت؟!
كيف اختفى القمر والغمامة؟!
ومن النجوم تكونت دوائر للرقص،
سكرانة بالنبيذ الأبدى.
ورنَّ صوت الناى.
والصمت ينصت لصمتك.

لكل رحلة جمالها ومغامرتها؛ فموتور الحافلة أسلم الروح إبان الطريق، وقام السائق بحشر الركاب فى حافلة أخرى قادمة ومزدحمة بالتأكيد عن آخرها (فرصة طيبة لتعلم تعبيرات تركية جديدة، خاصة كلمات السب!). كذلك كان يمكن للحافلة أن تندس فى ثلوج متراكمة عميقة أو أن تبقى مغروسة فى طين سميك لأحد أماكن البناء أو أن تقطع الطريق فى زمن قياسى يبلغ أربع ساعات ونصف الساعة، ودائمًا ما كان مرافقو السفر مستعدين لاقتسام فاكهتهم وخبزهم مع الضيف الغريب. وفى الأيام السابقة على العيد الكبير، يوم وفاة مولانا الرومى فى ١٧ ديسمبر، تعصف الحافلة

بالطريق بسبب حماسة الزوار الذين ينشدون الأدعية والأغانى الدينية، والذين يحجون من كل أنحاء تركيا إلى ضريح الشاعر الصوفى الأكبر للعالم الإسلامى.

ولكن كان الكثير من المسافرين يذهبون فقط بسبب أعمالهم إلى قونية؛ فالمدينة الطموحة المتوسعة تتطور من عام لآخر وبشكل كبير إلى مركز اقتصادى. وقد نما من الأرض مصنع كبير للسكر ومصانع أخرى كثيرة، وأنشئت فنادق جديدة لتتسع لتدفق السياح الذين يتزايدون بشكل لا يحصى، ورممت تماثيل الفن السلجوقى، ويحقق تجار السجاد مكاسب جيدة، وكذلك التجار الذين يصنع المرء لديهم الملعقة القونية التقليدية من الخشب الملون: وينتمى إلى تقاليد هذه المدينة ما يسمى "رقصة الملعقة" kaşik oyunu، وهو لون من الرقص يؤدى بواسطة ملاعق خشبية أصبحت، مسايرة للعصر، تلون بصورة شخصية لمولانا أو بصورة لضريحه أو بأن يحفر عليها بفنية عالية أبياتٌ قليلة أو كثيرة لمولانا، ولكنى لاحظت فى عام ١٩٨٨ أن قونية قد تحولت إلى مدينة كبيرة، وفى أثناء السفر عبر المدينة تصورت أننى أقرب إلى أن أكون فى برونكس[١٢١]. لقد كان هذا شيئًا يدعو للبكاء.

فى هذا الوقت المبكر لم تكن قونية بالنسبة إلىَّ شيئًا آخر غير المدينة الغارقة فى أشعار مولانا الرومى؛ فعندما تقترب الطرق الزراعية من المدينة، يفكر المرء:

صحراواتنا لا حدود لها ولا حافة،

وقلوبنا لم تعرف مرة الراحة،

يرى على اليمين خان خوروزلى، وهو مستراح متهدم للقوافل من العصر السلجوقى (للأسف رمم الخان فيما بعد بمساعدة مصنع الأسمنت القريب، ولكن بطريقة أقل جمالية). وهنا فى قونية (إيقونيوم القديمة) تتابعت

شعوب العصور القديمة، وتراكمت طبقة على أخرى؛ حيث اكتشفت في جتالهويوك في سهول قونية كهوف مرسوم على حوائطها رسومات يزيد عمرها على سبعة آلاف عام، وقد نزل اليونانيون والرومان هناك. وتربط الحكايات الشعبية المكان بأفلاطون الذى ظهر فيها كساحر كبير، ويطلق اسمه على معبد حيثى يسمى أفلاطون بينارى بالقرب من بحيرة بيشهير. وتظهر ألواح الرخام القديمة التى يراها المرء مرة بعد أخرى في حدائق قونية بوصفها تبطين وتكسية للآبار والوجود الرومانى، ويتذكر مؤرخ الكنيسة فى أعمال الرسل كيف أن بولس - بعد صراعه مع سكان مدينة إيقونيوم - نفض التراب عن قدميه وذهب إلى مدينة لسترة. ولكن دائمًا ما وجدت جماعة مسيحية مهمة فى قونية، وذلك أن كبدوكية وهى وطن الآباء الكبار للكنيسة الشرقية الذين غلب عليهم الاعتقاد الصوفى العميق مثل جريجورى النِّيسِّى Gregor von Nyssa وجريجورى النزيانزى Gregor von Nazianz تقع (بالحساب القديم) على بعد أيام قليلة فقط. وما زالت هذه الجماعات موجودة، وتدلنا كل من الكهوف المسيحية، ورسوم حوائطها المثيرة في سيلة التى تقع بين قونية وبيشهير، والكنيسة اليونانية - الأرثوذكسية المهجورة الخاصة بهذا المكان الصغير، على هذه التأثيرات والتقاليد.

حينما هزم الأتراك السلاجقة البيزنطيين عام ١٠٧١م في موقعة مانزيكرت (ملاذكرد) وتقدموا إلى الأناضول أصبحت قونية مركزًا لهم. وقد جذبت المدينة الغنية إليها الكثير من العلماء والفنانين، خاصة حينما دمر المغول منذ عام ١٢٢٠م المناطق الشرقية للعالم الإسلامى. ويمكن الوقوف على أثر المتدينين الشرق إيرانيين، الخراسانيين، الذين فروا أمام جحافل جنكيزخان من خلال الحكاية الصغيرة التى كان ينبغى لها أن تشرح اسم قونية: جاء اثنان من صالحى أهل خراسان محلقين وطائرين بهدوء عبر إيران إلى الأناضول، وما إن رأيا سهول قونية الخضراء أمامهما، حتى قررا

الهبوط. وهنا سأل أحدهما الآخر "كناليم مى؟" ("هل ينبغى لنا أن نهبط هنا؟")؛ فهز الثانى رأسه موافقًا: "كن ياه!" ("لننزل هنا!")، وهكذا حصلت المدينة على اسمها.

ومن بين الذين جاءوا من الشرق كان مولانا جلال الدين الرومى أيضًا، كان صبيًّا اصطحب والده العالم المشهور أسرته من مدينة بلخ عبر المناطق الإسلامية المركزية إلى الأناضول. وقد نزلت الأسرة أولاً فى لارنده قرمان، حتى دعيت عام ١٢٢٨م إلى قونية؛ حيث مات الأب عام ١٢٣١م، ثم أخذ الابن مكانه على كرسى العلوم الإسلامية فى إحدى المدارس الدينية التى لا تحصى. وهنا فى قونية تمكن منه الحب الصوفى للدرويش المتجول شمس الدين التبريزى، وهو حب حول الأستاذ العالم إلى شاعر الوجد الأكبر فى العالم الإسلامى؛ حيث ظهر فى قونية فى الفترة ما بين عام ١٢٤٤م، سنة النشوة، وعام ١٢٧٣م سنة وفاة مولانا ما يقرب من أربعين ألف بيت من الشعر الغزلى، ومن شعره التعليمى "المثنوى" الذى يحوى ما يزيد على خمسة وعشرين ألف بيت، وسلسلة من الكتابات النثرية.

قبل أن تصل الحافلة إلى المدينة تمر بجوار جبانة قديمة؛ حيث غاصت شواهد بعض القبور لمنتصفها، كما توجد بعض الأضرحة الصغيرة، وشاهد قبر كبير وبسيط - على شكل محراب - بنى لأميرة سلجوقية، وهى أشياء تذكر الزائر بأن التصوف الإسلامى تطور عن التأمل الروحى لكل آية قرآنية ركزت على فناء كل ما هو أرضى فى مقابل أبدية الجبار القدير. وقد تغنى مولانا نفسه بسر "الموت الصوفى"، احتراق الفراشة فى الشعلة، "الموت والصيرورة"، فى عدد لا يحصى من أشعاره. وذلك لأن الموت بالنسبة إليه، كما هو بالنسبة إلى المتصوفين عامة، هو بمثابة "جسر يقود المحبين إلى المحبوب"، وذلك بعد أن نفضوا عنهم الرداء الأرضى مثل ثوب ملون الرقع.

ثم تنعطف الحافلة فى الشوارع الضيقة حتى يبدو مسجد علاء الدين فجأة فى تعال واعتداد على التل. وقد بناه فى عام ١٢٢٠م السلطان علاء

الدين كيقباد الذى أعطى الفارين من الشرق وطنًا جديدًا. وفى حكمه وصل حكم السلاجقة حتى البحر المتوسط، والترسانة البحرية فى ألانية دليل على هذا. وقد تمتع بربروسا Barbarossa[١٢٢] هنا بضيافة السلاجقة، وهو فى طريقه إلى الأراضى المقدسة فى ربيع ١١٩٠م. وقد وصل الفرنسيسكان إلى المدينة فى عام ١٢٣٦م كى يخوضوا مجادلة دينية مع علاء الدين كيقباد (لقد كان ذلك هو العصر الذى استطلع فيه الفرنسيسكان احتمالات الارتباط بين الكنيسة والمغول، وقد توغلوا بعد قليل حتى وسط آسيا). ازدهرت التجارة، وتسارعت التحولات، وكانت الجبايات الحكومية السنوية تبلغ فى تلك السنوات أكثر من ثلاثمائة ألف قطعة ذهبية، ولكن لم يبق إلى اليوم من التحصينات الضخمة التى كانت تحيط فى البداية بكل هضبة علاء الدين، إلا بقية آثار متهدمة فقط. حينما زار هيلموت فون مولتكا Moltke قونية عام ١٨٣٨م وجد أن السور الخارجى كان لا يزال موجودًا. وتجعلنا النقوش البارزة المحفوظة الآن فى متحف مدرسة أنجه منارة تحت أقدام التل نخمن إلى أى حد كان الحصن جميلاً، وكانت أبوابه مزينة؛ حيث كان يوجد هناك أشكال كبيرة للملائكة، صياودن بالصقور، معارك حيوانية، ونقوش شديدة الجمال.

ولكن بقى المسجد الذى يتسع صحنه لأربعة آلاف مُصَلٍّ سليمًا، وهو مبنى غير منتظم من الحجر الرملى الأصفر، تعلوه قمة مخروطية مدببة تغطى ضريح السلطان. ولا يلاحظ عدم انتظام داخل المسجد من النظرة الأولى - الأعمدة المختلفة، الانحناء القليل للمحور الذى نتج بسبب الإضافات والتهديمات - وذلك لأن المرء يراقب العدد الذى لا يحصى للسجاجيد والأكلمة الملونة التى تغطى الأرضيات، والتى يوضع أجملها أمام المحراب الكبير الذى يدل على انتشار الفسيفساء المعتادة ذات اللون الفيروزى الغامق الخضرة، وبشكل واسع فى القرن الثالث عشر. أما المنبر العالى المجاور؛ فيمثل تحفة فنية من الأشغال الخشبية؛ فمن خشب شجرة الجوز الغامق تبرز النجوم والحليات المعمارية التى تنضم إلى بعضها فى أشكال هندسية لنظام

كبير مبهم، ويحيط بالأطراف نقوش عربية سهلة جميلة بالخط الكوفى. كم من مرة جاء مولانا إلى هنا لأداء صلاته! يبدو أن طيفه يحيى هذه الأماكن الوقورة، لقد كان فعلاً ذلك المتعبد الكبير الذى استطاع أن يقول عن نفسه:

لقد صرت صلاة،

وتضرعت كثيرًا،

حتى أصبح من ينظر إلىّ

إنسانًا يبغى الصلاة!

وفى تجويف حائطى مسدود توجد علبة صغيرة ملفوفة فى منديل حريرى صغير فواح بعطر الورود، وتحتوى على ذلك الأثر النفيس: شعرة من شعرات الرسول. وقد كنا شهودًا حينما فتح التجويف لأول مرة فى نهاية الخمسينيات.

وفى أسفل هضبة الحصن توجد المدرستان السلجوقيتان اللتان بنيتا فى حياة مولانا: مدرسة قره طاى (١٢٥١م) التى أنشأها صديقه الوزير جلال الدين قره طاى، ومدرسة أنجه منارة التى بنيت بعد سبع سنوات، فى السنة المصيرية جدًا للعالم الإسلامى سنة ١٢٥٨م، حينما استولى المغول تحت قيادة هولاكو على بغداد، وقتلوا الخليفة الأخير للبيت العباسى الذى كان يحكم منذ عام ٧٥٠م. وقبل ذلك بقليل، فى ٢٥ نوفمبر ١٢٥٦م. حاصر العساكر المغول قونية، وعن هذا يحكى مولانا فى شعر نبوئى غريب، ولكن - كما سيقال - أبقت بركة مولانا الجيش المغولى بعيدًا.

بالنسبة لمدرسة أنجه منارة، التى فقدت قمة منارتها العالية النحيفة قبل عقود بسبب صاعقة؛ فإن البوابة المزخرفة هى ما يفتن الزوار. ويحتمل أن تكون المدرسة أول مبنى دينى فى الأناضول تزين بوابته بالخط المتعالق الكبير للخط العربى فى شكله المنحنى؛ فقبل هذا كان النقش على الجدران

يستخدم فيه الخط الكوفى المستقيم الذى يزين من الناحية الأسلوبية بآلاف الشظيات البارعة.

بينما قبة مدرسة أنجه منارة بسيطة من الداخل؛ حيث يوجد بعض الطوب الفيروزى اللون الذى يتخلل طوب أحمر بنى اللون من نوعية عادية؛ فإن قبة مدرسة قره طاى القريبة تمثل - بالنسبة إلىَّ - التعبير الأكمل للورع الصوفى. ورغم سقوط الكثير من الفسيفساء الخزفية من على الحوائط، إلا أنه يمكن للمرء أن يتصور كيف كان تأثير الداخل الذى يغلب عليه اللون الفيروزى الأخضر فيما سبق. أما كون المدرسة تخدم الآن بوصفها متحفًا للخزف؛ حيث تعرض المكتشفات الأثرية لقصور السلاجقة فى بيشهير وقوبادأباد؛ فهى فكرة رائعة.

أما الأجمل فى مدرسة قره طاى؛ فهى القبة فوق الحجرة المركزية، فى كل زاوية من الزوايا الأربع يتصل المربع والقبة فى كل جانب بخمسٍ مما يسمى "ثلاثى الزوايا التركى" التى يتسع عرضها فى الأعلى مما يجعلها تقسم الحجرة إلى أربع وعشرين زاوية. وتوجد عليها أسماء النبى محمد وخلفائه الأربعة الأول (الخلفاء الراشدين)، وأسماء بعض الأنبياء القرآنيين الآخرين مكتوبة بالخط الكوفى المربع الشكل على بلاط مطلىٌ باللونين الفيروزى والأسود، العيون المدربة فقط هى التى تتعرف عليها. وعلى طرف أساس حلقة القبة يوجد خط قرآنى معقد بشكل غير معتاد؛ حيث يصل فيه - على ما يبدو - الخط الكوفى المتفرع والمضفر إلى قمته. بالإضافة إلى ذلك تبرز من جنبات قوس القبة نجوم كبيرة وصغيرة تبلغ قرابة الأربع والعشرين شكلاً مضيئًا، وهى ترتبط مع بعضها البعض بطريقة مبهمة، وتسحب عين المراقب إلى الفتحة الصغيرة فى قمة القبة، التى يمكن أن يراقب من خلالها فى أثناء الليل النجوم الحقيقية التى تنعكس بدورها على صفحة ماء الحوض الصغير فى منتصف المكان. وقد تجمدت هنا للحظة رقصة النجوم الدائرية

التى – كما يقال – تمثل النموذج المحتذى للرقص الصوفى للمولوية. بالنسبة إلىّ فإن هذه القبة تمثل أفضل تفسير لسمات "مثنوى" الرومى الذى بدأ فى كتابته بعد سنوات قليلة من إتمام بناء هذه المدرسة. فالمعنى "القلب" مترسخًا فى التراث الإسلامى وفى كلمات القرآن (التى تبدو، مثل الحروف المتعانقة للنقش، جديدة الحضور بشكل دائم) – يُجذب من خلال الموضوعات الرئيسية، وما يتفرع عنها من تفريعات متصلة لا يمكن فصلها (أى "النجوم" الصغيرة) لأعلى وبانبهار متنام إلى الحقيقة الإلهية، التى تستطيع بالتالى أن تظهر وبطريقة غامضة على صفحة الماء الرائق، كما لو أن المتصوفة يصفون بها القلب. فماذا يمكن للمرء إذن أن يحضر هدية لمحبوبه الجميل كالقمر غير مرآة يستطيع أن يراقب على صفحتها نفسه؟

منذ أن كنت فى قونية لأول مرة رأيت هذه المدينة من خلال شعر مولانا؛ حيث قرأت أشعاره بوصفها غير ممكنة الفصل عن المدينة؛ فهى مرتبطة بمساجدها وبمدارسها وبحدائقها. لقد اجتازت وبقوة أيضًا كل الحدود الزمنية والمكانية، وذلك حتى تطير مرتفعة بصفة دائمة إلى منبع الحب الأبدى، إلى شمس الحب التى تدفئ كل شىء، ولكن تحرق كل شىء كذلك. ولكن هل لى أن أرى رقص الدراويش الذى وصفه الرحالة المبكرون ورسمه الرسامون؟ كان هذا يبدو مستبعدًا تمامًا، وذلك لأنه ومنذ عام ١٩٢٥ كان كل نشاط للطرق الصوفية فى تركيا محرمًا، وكانت كل تكايا الدراويش مغلقة، فقط كانت الذكرى ما زالت حية.

ولكن فى نوفمبر ١٩٥٤ حينما توليت كرسى أستاذيتى فى كلية الإلهيات فى أنقرة وصل خطاب إلى البيت علمت منه أنه يُخطط لإقامة احتفال فى قونية بمناسبة ذكرى وفاة مولانا؛ فهل أريد المشاركة؟ وهل يمكننى أن ألقى كلمة؟

إذا كنت أريد وأستطيع! هل يسمح لى فقط – هكذا رددت متسائلة – بأن أحضر أمى معى؟

بالطبع! ستكون الوالدة هانم موضع ترحيب قلبي.

هكذا أعددنا أنفسنا، وقد قادني سرور التطلع إلى أن أرى في الحلم رقص دراويش رائعًا. وقد قصصت الحلم لصديقي الممتاز حافظ صبري الذي كان من الناحية الوظيفية موظفًا كبيرًا في إحدى الوزارات، وكان يدرس علم التجويد في كليتنا. ابتسم حافظ صبري وقال: " خير إن شاء الله. إذا أراد الله؛ فإن هذا سيكون شيئًا طيبًا!" وأضاف: "أنا أيضًا سأكون هناك".

وفي يوم غائم مبتل من ديسمبر صعدنا إلى الحافلة، وذهبنا في قونية إلى متحف مولانا؛ حيث يجلس في حجرة المدير محمد أوندر Önder مع بعض السادة. وقد استقبلنا بحفاوة واصطحبنا إلى مضيفينا وهي أسرة ثرية، أحسسنا مباشرة بالراحة في منزلهم الكبير، لأن البنت الكبيرة للأسرة كانت ستتزوج بعد عدة أيام، كانت أمامنا فرصة أن نرى جهاز العروس، ونعجب به، وعرفنا أنه من العرف أن يهدى كل عضو في المنزل طقمًا كاملاً من الملابس. كل شيء كان قد اختير بذوق وعناية، وكانت ألمظ، الربيبة الصغيرة، وهي فتاة ألحقت بالأسرة وشبت فيها بوصفها مساعدة وزميلة لعب للأطفال، تشع سرورًا بالتطلع إلى الفرح.

وفي حوالي التاسعة أو العاشرة مساء ظهر بعض الرجال الذين دعونا إلى ركوب سيارة وذهبوا بنا إلى وسط المدينة؛ حيث رأينا في منزل بعيد، يكاد يكون مهجورًا، عددًا من الرجال العجائز الذين يفتحون صناديق غامضة ويخرجون منها النايات والطبلات ثم – ولم أكن أصدق ناظري – الطرابيش المرتفعة لدراويش المولوية. وبينما كنا نجلس على الكرسيين الوحيدين في المنزل، بدأ الرجال في العزف والغناء ثم تكونت حلقة الرقص الصوفي (sema): الدوران الثلاثي البطيء وتحية الشيخ، ثم يأتي الدوران مع إسراع المتصاعد للآلات، اليد اليمنى مفتوحة في اتجاه السماء بينما تشير اليسرى إلى الأرض، وذلك حتى تستقبل المغفرة، ويتم نقلها إلى الأرض. لم يستطع

الدراويش الذين جاءوا من أنقرة وقونية وأفيون ومدن أخـرى أن يمارسـوا الطقوس معًا منذ قرابة ثلاثين عامًا. لقد كانت رؤيتهم تجربة غامرة، كيـف يعودون فى الرقص مرة أخرى إلى جذور تقاليدهم الدينيـة؟ كيـف يهبـون أنفسهم للموسيقى وللنغمات المتشوقة للناى وللأصوات التى تغنـى أشـعار مولانا؟ هل كنا نحلم أم كان هذا حقيقة؟. ابتسم حافظ صبرى مرة أخـرى. "هل ترين، لقد تحقق حلمك" قال وكان بالتأكيد سعيدا مثلنا.

وفى اليوم التالى بدأ الواجب: محاضرات فى المدارس، وسيمنار فـى معهد الطالبات، ثم مرة أخرى زيارة للمسجد، ثم الحديث، ودائمًـا مـا كنـا نصاحب من قبل رجال رفيقى الشمائل، رأينا بازار الجواهرجية؛ حيث قـاد مولانا فى إحدى المرات الجواهرجى صلاح الدين إلى حلقة الرقص؛ حيـث كان مولانا مشغوفًا بأصوات مطارق الجواهرجية. وهناك كانـت المـدارس والمساجد العثمانية إلى جانب تربة مولانا، ودائمًا ما نعود للضريح نفـسه؛ حيث كان العزم قد استقر على تحويل الغرف المرتبة حول الفناء فيما بعـد إلى متحف صغير. وإلى الآن مازال العجوز جدًّا محمود ددا Dede يعيش فى الضريح، وذلك بعد أن كان قد حصل من أتاتورك على إذن خاص بأن يبقى فى حجرته. وتنطوى مكتبة الضريح على كنوز، وفى المطبخ الكبير يمكـن للمرء أن يتصور كيف كان ينبغى على الشباب الذين يريدون أن يـصبحوا مولويين أن يعملوا فى خدمة المطبخ لمدة ألف يوم ويـوم، وكيـف كـانوا يصعدون درجة بعد أخرى ويدرسون آنذاك أبيات "المثنوى"، وكيف يتلقـون دروسا فى الموسيقى، ويجب عليهم تعلم الرقص الدائرى. وهذا مـا رأينـاه أيضًا: تدق مسامير كبيرة فى الأرضية الخشبية، ويضع المريد أحدها بـين أول أصبعين فى قدمه اليسرى، وذلك حتى يدور بشكل يومى متصاعد ضـد اتجاه الساعة حول محوره - وهكذا حتى يـتمكن مـن اجتيـاز الطقـوس المتطاولة دون شعور بالدوخة، وحتى يتمكن مع توقف الموسيقى فجأة من أن يقف فى مكانه دون حركة مرة أخرى.

وفى اليوم الثالث كان الحفل الرئيسى، كانت صالة السينما التى تجمعنا فيها ممتلئة عن آخرها، وكان كبار الضيوف قد جاءوا من إستانبول وأنقرة، على سبيل المثال وزير الثقافة آنذاك توفيق إلرى Ileri مع زوجته، وكذلك جاءت سميحة أويفردى وحلقتها من إستانبول مهرولين. كنت متوترة الأعصاب بعد أن سُمح لى بأن ألقى كلمة الحفل التركية عن أثر مولانا على الآداب الغربية. وقد سار كل شىء على ما يرام (لقد كانت هذه هى محاضرتى الثامنة خلال ثلاثة أيام)، ثم بدأ الرقص المولوى؛ حيث غنى حافظ صبرى أغنية النبى التى يبدأ بها كل رقص صوفى. وبعد الدورات الثلاث رمى الدراويش عباءاتهم السوداء، وظهروا فى أردية الرقص البيضاء التى يكادون ينشرونها إبان دورانهم الراقص أفقيا. كان أحد الدراويش فى حالة نشوة حقيقية ويدور بسرعة لا يمكن تصورها، أما الآخرون فقد التزموا بإيقاع الطبلات والكمان الصغير والنايات، وهكذا حتى يسمع - ليس دائمًا - بيت الختام التركى ...Dinle sözümü، وهو بيت يُمدح فيه الرقص الصوفى بوصفه غذاءً للروح، وذلك فى إيقاع متصاعد السرعة، ثم يكون الختام المفاجئ؛ حيث يتلفع الدراويش بمعاطفهم السوداء، ويعودون نوعا ما من قيامة الجسد المملوءة بالضوء إلى الأرض مرة أخرى، وينشدون دعاءً جماعيًا ينتهى دائمًا بكلمة "هو" العميقة.

وهنا نفهم أن لرويكرت حقا عندما أنهى أحد أجمل أشعاره عن الرومى بالبيت التالى:

من يعرف قوة الرقص الدائرى يعش فى الله،

ومن ثم يعرف، كيف يميت الحب - هو الله!

وفى هذه الليلة لم نكد ننام...

وفى الصباح التالى عندما كنا نريد أن نرتحل دعينا إلى الضريح مرة أخرى؛ حيث ينبغى أن يتم تصوير الرقص الصوفى للمرة الأولى منذ

١٩٢٥. وقد حيينا بمنتهى السعادة، وقد أحضرت لى محاضرتى من اليوم السابق الكثير من تقبيل اليد والتقبيلات الأخرى، بل أن محمد ددا العجوز جدًّا قد أخذنى فى حضنه مما أثر فىَّ بعمق، ثم قدم مرة أخرى عرضًا للرقص الدائرى، وذلك فى المكان الذى ينتمى إليه حقًا، ولكن الفيلم حطم من خلال سوء طالع يدعو للدهشة.

وقد أرجعنا إلى أنقرة فى حافلة أعضاء البرلمان، ومنذ هذا الوقت أصبحت أنتمى بشكل ما إلى المولوية، وأرى الرقص الصوفى مرة بعد أخرى (ألاحظ وأحزن أيضًا؛ لأن التقليد القديم لم يعد يعتنى به بشكل دقيق)، وذلك لأن الذى يتعلم الرقص المولوى فقط بوصفه "رقص الدراويش"، ويمارسه دون سنوات التعليم فى تفسير "المثنوى"، ودون معرفة اللغة الأصل، ودون "الطبخ" لمدة ألف يوم ويوم؛ فإن بُعدًا من أبعاد هذا الطقس، الذى لم ينظمه مولانا بنفسه، وإنما ابنه وخليفته الثانى سلطان وليد، يبقى بلا ريب مغلقًا دونه. ورغم هذا فقد أطربتنى الموسيقى ويطربنى العمل الفنى المبنى ببراعة دائمًا من جديد، وعندما ينشد صوت كانى كاراجا الضخم أغنية مديح النبى؛ فإن أيام قونية وأنقرة القديمة تعود حية بالكامل.

وخلال السنوات التالية رُمِّم المتحف الذى فى تربة يشيل ووُسِّع، كما تم إصلاح المبانى السلجوقية حتى أصبحت قونية - بفضل نشاطات محمد أوندر، وبشكل دائم - أكثر جاذبية، ولكنها بقيت بالنسبة إلينا المكان الذى لا يزور فيه المرء مولانا فقط، وإنما يزور أيضًا مقبرة صديقه الصوفى وملهمه الأول شمس التبريزى. ويوجد إلى جانب المقبرة بئر قديم رمى فيه، كما قيل، طلاب مولانا الغيورون شمسًا، وذلك بعد أن قاموا فى ليلة من ديسمبر بالنداء عليه، وهو فى بيت مولانا (المعروف موقعه) ثم قتلوه. وقد اكتشف محمد أودنر مقبرة كبيرة من العصر السلجوقى كان قد تم تبييضها بسرعة بجبس، وذلك أثناء أعمال الترميم هناك، وبذا تم التدليل على الصدق

التاريخى لما اعتبر كثيرًا مجرد خرافة. نعم ينبغى على المرء أن يزور هذا الضريح، وإلا اغتاظ شمس المبين الغضوب.

أحيانًا كنا نزور أيضًا ضريح أحد معاصرى مولانا الآخرين، وهو صدر الدين القونوى الذى توفى بعده بقليل فى عام ١٢٧٤م. وقد كان ابنًا لزوجة ابن عربى الذى ولد فى إسبانيا وتوفى فى دمشق عام ١٢٤٠م. وكان القونوى كذلك مفسرًا لابن عربى الذى يؤثر نظامه الدينى الفلسفى الضخم فى التصوف الإسلامى حتى اليوم. لقد كان مولانا يحب الموسيقى العذبة، والحب أكثر من البناء الفكرى المنتظم الذى يحبه جاره القونوى: ألا يضرب الحبُّ الفهمَ بالهراوة على دماغه حتى إن الفهم يجلس ويعزف على العود؟ رغم ذلك كان الرجلان متصادقين، وأحيانًا يميل المرء إلى أن يسمع فى المثنوى صدى للحوار بين كلا المتصوفين. ورغم أن مقبرة صدر الدين مفتوحة أمام الريح والشمس؛ فإن القليلين فقط هم الذين يتعطفون عليه بالزيارة.

ولقونية وجوه أخرى؛ فالمطبخ القونوى الشهى يستحق كتابًا كاملاً لتقريظه، سواء فى هذا ما تعلق بوجبات اللحوم أو بالحلويات، ودائمًا يبدع الأصدقاء القونويون ملذات جديدة ليدللوا بها الأصدقاء القادمين من أنقرة والمعتنى بهم بشكل سئ. وفى ميرام كانت الساقية، التى هيَّج نعيرها مولانا لقول الشعر، ما زالت موجودة، ودائمًا كانت النزهة إلى هناك بإحدى عربات الحنطور الملونة المرحة متعة خالصة.

وقد تمثلت إحدى نقاط الجذب المتميزة فى قونية فى بيت قديم يوحى بالتصدع فى وسط المدينة القديمة. عندما تفتح الخادمة الشابة، وهى فى بنطالها الواسع غامق الزرقة، البوابة الثقيلة؛ فإن المرء يسحر فى الحال، وذلك لأن كل زاوية، وكل حائط كان مغطى بسجاجيد الصلاة، وبالتأكيد تحتوى الحجرة الصغيرة التى نجلس فيها عادة على الكثير من أدق وأنعم السجاجيد الأناضولية؛ فهنا توجد سجادة لاديق[١٢٣] ذات الموضوع التقليدى الذى يتكون من ثلاث أو خمس من زهور التوليب على عرض السجادة –

هى فى الغالب ذات أرضية حمراء، وهنا سجادة جوردية، وهناك سجادة كولو صفراء اللون بها ما لا يقل عن تسعة عشر من النماذج النحيلة والمختلفة بين الأطراف، وهناك مرة أخرى سجادة صلاة لا تصور، كما هو فى الغالب لمبة مسجد فقط، وإنما كذلك الأباريق الضرورية للوضوء. وماذا كان هذا اللغز الذى إجابته "سجادة"؟ "أين تنمو كل أنواع الزهور التى أمسك جذورها فى يدى"؟

كان عزت قوينوجلو مالك هذه الكنوز يعرف عن كل قطعة شيئًا يحكيه. كان الفرن الحديدى الذى يمتد أنبوبه عبر هذه الحجرة يتوهج فى ليالى الشتاء الباردة. وكنت دائمة الخوف عندما أفكر فى المبنى غير الآمن تمامًا، والمبنى من الخشب والطين، والذى يمكن أن يصير خرابًا من جراء شرارة كهربائية. وبينما تحضر القهوة يمد عزت بيه يديه إلى أحد دواليب الكتب: "يوجد هنا فقط بعض الأشياء الجميلة بوجه خاص" قال وهو يعطينى مخطوطة الديوان التركى للقائد الأوزبيكى عبيدى، ثم قائمة نفقات زواج ابنة أحد السلاطين العثمانيين، ثم مرة أخرى مؤلفات عن الموسيقى البيزنطية أو مخطوطة فارسية بها منمنمات. كانت مجموعته تضم - كما قال - عشرة آلاف مخطوط عربى وفارسى وتركى، وفيما بينها مخطوطات بخط أشهر الأدباء والخطاطين الممتازين.

ومن دولاب آخر تطفح مسابح ذات جمال لا يقارن: هذه من البلور الصخرى، وتلك من المرجان، هنا واحدة بسيطة بنية من خشب ثمين، وهناك واحدة من أسنان الجمل؛ وفيما بين ذلك كان الفيروز والعقيق اليمانى وقلائد الصلاة الأخرى من حبات الصدف المصنفرة، من العاج الأملس أو من الفواكه الشوكية. لا يمكن للمرء أن يشبع من الرؤية، ومن التفكير فى تلك الأيدى التى انزلقت فيما بينها تلك الخيوط، وفى تلك الشفاه التى تمتمت عليها بأسماء الله التسعة والتسعين وعدت صيغ الشهادة أو الصلاة على النبى.

قطعة زمرد لتزيين الخوذات تلمع فى ظلام الحجرة المجاورة. وكانت سيوف محنية وأخرى دمشقية مركونة فى أحد الأركان. وتحت غطاء كتانىٍّ أبيض كانت توجد أشغال يدوية على الكتان والحرير، حدائق أزهار ناعمة جدًا مشغولة يدويًا على مناديل قطنية خفيفة، قطيفة مشغولة بالذهب من بورسة، مناديل باتستة(١٢٤) تمزقت تحت ثقل المشغولات الذهبية الثقيلة. وأحيانًا حينما كنا نجلس مع أصدقاء لدى عزت بيه؛ فإنه يسمح لى بأن أرتدى أحد الملابس القديمة الغنية بالألوان: سراويل حريرية فاتحة، ومعاطف قطيفة بنفسجية أو حمراء، أو صديريات مشغولة بأشغال ذهبية، أو معاطف حريرية مخططة أو مشغولة بورود. وإذا ما عدت بقلب حزين إلى الملابس الأوروبية العملية مرة أخرى؛ فإنه توجد أشياء أخرى تستحق الرؤية: فازات فارسية، وأطباق وفازات من إزنيق Iznik مركز الخزف العثمانى التقليدى، ثم مرة أخرى مخطوطات جديدة، أحيانًا كانت تظهر أيضًا قطعة من الابتذال الأوروبى الحقيقى.

وقد عرض جامعو التحف الأمريكيون آنذاك على عزت بيه - الذى جمع هذه الكنوز إبان عمله لعقود عدة مشرفًا بالسكة الحديد فى الأناضول كله - ملايين كثيرة لقاء هذه الكنوز، ولكنه عزم على أن يترك هذه الكنوز لمدينته قونية، وذلك بشرط أن يُبنى لها متحف محترم، وما زلنا ننتظر هذا. وعندما نقوم أخيرًا منتشين من الأشياء الجميلة، بالتوديع شاكرين، يكون قد بقى شىء، قطعة كبيرة، ..."أخّ" وصلبة جدًا من الحلويات التى ينبغى أن تجلب لنا البركات الكثيرة.

ثم، وكما يحدث دائمًا، ينادى الواجب بالرجوع، ويدق ناقوس القافلة، وذلك أنه فى المركز من شعر مولانا تقوم فكرة الحركة المستمرة، الترقى، الصعود الذى لا يهدأ مرة باتجاه القرب من الحقيقة الإلهية، وفى مثل هذا يقول:

هتافنا مثل ناقوس القافلة

أو رعد حين تمر السحابة الثقيلة:

أيا راحلاً لا ترح قلبك بمكان

ولتكن تعبًا عندما تواصل المسيرة

ولكن كان لقونية أيضًا قلب حى، هو إسماعيل الذى مثَّل بالنسبة إلينا تجسيدًا لكل مثاليات مولانا.

أخى إسماعيل

وقف إسماعيل أمام بابنا ضاحكًا. قلنا له "إذن إلى اللقاء فى ألمانيا فى الصيف!". "إن شاء الله! وتذكرى أن أحدًا من أسرتى لن يبكى حينما أذهب؛ فالجميع كانوا سعداء أننى سأذهب أخيرًا إلى ألمانيا!". التفت مرة أخرى، ونحن نلوح له مودعين حتى اختفى فى ضباب هذا اليوم التعس من أيام أنقرة فى فبراير من عام ١٩٥٩ - ذلك اليوم الذى تحطمت فيه طائرة عدنان مندريس Menderes[١٢٥].

كانت رؤية ألمانيا - ومنذ سنوات - أمنية حية لإسماعيل، وكان يتعلم وباجتهاد الكلمات الألمانية من "Sperling" (عصفور) حتى "Mülleimer" (صندوق القمامة)، ولكننا ترددنا دائمًا فى أن نبحث له عن إمكانية عمل، وذلك لأننا كنا نخاف من أن يكون التغيير من وطنه قونية، ومن الحارة التى تكاد تكون من القرون الوسطى، والتى تقع فيها ورشته للنجارة التى يصنع فيها أثاثًا جيدًا متقنًا إلى مصنع ذى تكنولوجيا عالية لشركة ألمانية مجهدًا ومتعبًا له، ومن أن تهتز وبشدة صورة العالم الواضحة لديه، ومن أن يضطرب قلبه المرهف ويتزلزل.

وذلك لأن إسماعيل كان أحد هؤلاء الناس الذين يتمثل فيهم بالكامل نموذج الدرويش الذى نادرًا ما يلتقيه المرء فى العالم الإسلامى، وهو ينتسب إلى عائلة حرفيين من قونية القديمة وعاش منذ طفولته على تقاليد المولوية. وقد قال مرة بفخر: "منذ ثلاثمائة عام وأسرتى تزود التكية باللحم". ولقد كان حسن الحظ؛ لأنه وجد القادة الروحيين الذين قادوه إلى أعماق الشعر الصوفى لمولانا الرومى، وفتحوا له فى الوقت نفسه عالم الفنون الإسلامية وخاصة فن الخط، وهكذا تعرفنا عليه.

وكان هذا إبان الاحتفال بذكرى وفاة مولانا الرومى فى ١٧ ديسمبر ١٩٥٤؛ فأثناء الغذاء الأخير وقف إسماعيل فجأة أمامنا (كان أحد أقارب مضيفينا)، وقدم لى - كتعبير عن شكره لمحاضرتى - هدية عبارة عن لوحة جميلة الخط تحتوى على رباعية فارسية صوفية مؤرخة بتاريخ ١٨١٠م. وقد ترددت فى قبولها، ولكن سلامة قلبه وضحكته وسعادته الصافية يجعلون من المستحيل رد الهدية. ووعد قائلاً: "سأضعها فى برواز ثم أحضرها إلى أنقرة!"، وبعد عدة أسابيع وقف أمامنا، ليس فقط باللوحة، وإنما أيضًا بسجادة حائط صغيرة مشغولة بفنية عالية وعليها نص دينى. وقد رأيناه فى الشهور الأولى من عام ١٩٥٥ فى شقتنا فى جبجى كثيرًا؛ حيث كان يحمل إلينا أكلمة، وسمن قونوى طازج، ومربات لذيذة من فواكه برية غير معروفة لنا، وأشياء أخرى مشتهاة ومرغوبة. ولم نكن نعرف بماذا استأهلنا كل هذا التدليل. فقط ومع مرور الوقت أدركنا أن المهاداة بالنسبة إلى إسماعيل ضرورة حياتية، وأنه يعبر بهذه الطريقة عن شكره للذين يعتقد أنه قد هودى من قبلهم روحيًا وعقليًا.

وفى آخر هذا الشتاء زرنا فى قونية ولأول مرة بيته الذى أصبح فى السنوات التالية بيتًا حقيقيًا لنا، وكان عبارة عن مبنى متواضع لا يكاد يبدو من الخارج من خلف السور الطينى الضخم، يقع بالقرب من مدرسة صاحب

عطا الجميلة، ويحتوى على فنائين صغيرين يقع المطبخ فى نهايتهما، وتقود بعض الدرجات إلى فناء خارجى، وإلى كلتا الحجرتين المتصلتين عبر ممر رباعى الزوايا. على اليمين كانت حجرة الضيوف، وهل وجد مرة ما هو أكثر راحة؟ وفقط لأجل خاطر الضيوف الأوروبيين أعدت بعض الكراسى، ولكننا كنا نفضل فى الغالب الحشايا والشلت المنخفضة التى رصت بجانب الحوائط بطولها. وكانت السجاجيد جيدة الاختيار تغطى الأرضيات وتعلق على الحوائط. أما دواليب الحوائط بأبوابها الخشبية المشغولة فلم تكن تحتوى فقط على مكتبة غنية بالأعمال الفارسية والتركية حول التصوف وعلى سلسلة من كتب القواعد الألمانية، وإنما على صناديق عليها أعمال يدوية دقيقة، كانت شكرية، ربة البيت النشيطة، أستاذة فيها. وفى ساعة متأخرة من كل مساء، كانت سرائرنا تخرج من الحوائط، وتمد على الأرض. وما ألذ أن ينام المرء هناك بعد أن مر المساء غالبًا فى أحاديث طويلة حول الدين والفن! أحيانًا كان بعض الأصدقاء موجودين كضيوف: أحدهم يعزف على الناى، بينما يغنى تاجر الكتب المستعملة أغانى الدراويش القديمة. وبينما تلقى اللمبة أشكالاً غريبة على السقف الجميل المصنوع من قطع الخشب، والتى يظهر الحصير بينها بوضوح، كانت أكواب الشاى تملأ المرة بعد الأخرى. كان إسماعيل يعد الشاى بنفسه، كما كان يساعد زوجته وبمثالية فى كل الأعمال المنزلية. قالت أمه برقة: "إنه فى الحقيقة مجرد فتاة صغيرة!".

كانت أمه بمثابة روح المنزل، وكانت مملكتها تتمثل فى الحجرة على يسار الممر؛ فهناك تجلس السيدة الضخمة ذات الوجه المضىء، تهتم دون كلل بأن تبقى الصبية الصغار تحت مراقبتها وسيطرتها، وتقوم فى الوقت نفسه بتنظيف الخضار أو بإعداد المحشى، وتحرك بالقدم حبل المهد المعلق فى السقف، والذى تغفو فيه الطفلة الصغيرة التى تسمى بنور ("ألف نور"). وكانت هذه الأم إحدى أكثر النساء اللاتى قابلتهن فى تركيا – وليس فقط فى قونية – تأثيرًا؛ حيث كانت تجسيدًا لأجمل التقاليد التى تعود لآلاف السنين،

وللطافة الروح ورقة المشاعر التى نادرًا ما يلتقى المرء بها. كانت مستعدة دائمًا للمواساة، ومنح الأمان، ولا تشكو مطلقًا. "لقد رزقت عشرة من الأبناء، فقط الأكبر وها هو الأصغر اللذين بقيا على قيد الحياة". هذا ما كانت تقوله دون رفض أو تمرد على القدر (بعد ذلك بقليل مات الابن الأكبر فجأة). كانت تحب أن تأتى إلى أحاديثنا وتدلى بين حين وآخر بكلمة ذكية فى النقاش، هذا بينما كانت المرأة الشابة - فى الغالب بسبب عمل البيت المضنى- أكثر إنهاكًا من أن تتحاور حول الأشياء الفكرية. وفى مقابل هذا كانت تؤتمن على الراحة الجسدية للضيوف. وأين يوجد فى تركيا شوربة أشهى أو محشى ألذ أو فطيرة سبانخ أنضر مما لديها؟

لم يبق منزل إسماعيل فى قونية منزلاً لنا فقط؛ فقد اتفق أن جاء إلينا فى أنقرة فى السنوات التالية طابور من الضيوف من أوروبا، وكانوا كلهم يريدون رؤية مركز المولوية، ضريح مولانا والمبانى السلجوقية فى المدينة القديمة. بعد تردد قصير فكرت فيما إذا كان يطيب لإسماعيل أن يساعدنا فى أمر تسكين الضيوف. ومنذ هذا الوقت أصبح عادة أن أكتب: "أخى العزيز، فى هذا الوقت أو تلك الساعة سنصل مع هذا أو ذاك من الأصدقاء"، أو أن أكتب: "صديقتى فلانة ستصل بهذه الحافلة أو تلك"، ومن ثم نصبح متأكدين من أنه يقف على محطة الباص، يستقبل الزائر الجديد مبتهجًا ويصطحبه إما إلى بيته وإما إلى فندق جيد. وكان لا يُعلى عليه فى إيجاد واختيار السكن؛ ففى عام ١٩٥٨ وإبان احتفال مولانا، حينما جاء إلى أنقرة الكثير من الضيوف الألمان أكثر مما توقعنا، أمكنه ليس فقط أن يجد أماكن للنوم للجميع، وإنما أيضًا أن يُمكِّن الجميع من الاشتراك فى الاحتفال. لقد كان يجلس بنفسه وبتواضع خلف المسرح وهو سعيد لأن الضيوف سعداء. ولم يشق عليه فى عيد آخر لمولانا، حينما جلسنا نستمع معًا فى بيت أحد الأصدقاء حتى الرابعة صباحًا إلى الموسيقى والإنشاد، أن يصطحب معه إلى

البيت ثمانى عشرة سيدة إستانبولية كان فندقهن قد أغلق أبوابه، وأن ينعشهن بالشاى، ويعد مبيتًا لهن. وحينما أصبح عدد الزوار الألمان فــوق الحــصر صنع لمنزله الثانى الذى يقع فى وسط حديقة العنب ويسكن إبـــان الــصيف سريرين جميلين من الخشب النفيس، وذلك حتى يشعر الزوار بالراحة.

والآن يدخل الأصدقاء المختلفون فى هذه الدائرة: أستاذ جامعى فى بناء السفن من هامبورج وطبيب برلينى وفريدريش هايلر وصديقه من أمستردام س.ى. بليكر Bleeker ومجموعات الطلبة الألمان والأكــاديميون الأتــراك وأساتذة وشعراء وفنانون كل كان موضع ترحيب، وكل كـــان يقــول بعــد ساعات قليلة وهو مندهش من نقاء هذه الضيافة ومن عمق وشــمول الحــب ومن ورع هذا الرجل: "أخى إسماعيل!".

نريد الذهاب إلى بيشهير؟ يجد إسماعيل طرقًا لذلك، فقط إبان رحلتنـــا الأخيرة تمكنت من أن أشارك فى تكاليف سيارة الأجرة. فـــى أحــد الأيـــام المنعشة زرنا ضريح أم مولانا فى قرمان، وفى طريق العودة حطت أمامنـــا على الطريق الزراعى المئات من طيور اللقلق البيضاء (ألم يقارنهـــا اللغــز الشعبى التركى بحجيج مكة ذوى الملابس البيضاء النقية؟). وهــل يــستطيع المرء أن ينسى الرحلات إلى سيله وميرام حيث استمع مولانا إلـــى صــوت الناعورة؟

ودائمًا ما كان إسماعيل يعرف كيف يخمن أمنياتنـــا. "أنــتم تريـــدون أوياس؟" كان يعرف أين يحصل المرء على أفضل وأرخص نمــاذج شـــغل الإبرة الرقيق الملون الذى تزين أطراف مناديل الرأس. "كليم؟ أكيد بالطبع!" وهنا إما أن يصطحبنا إلى تاجر السجاد "مصطفى أبو شفة" أو أن يكتشف بين الأكلمة التى لديه واحدًا "يناسب بالتأكيد كذلك فى بيتكم!". مجموعـــة العلـــوم الدينية فى ماربورج تريد سجادة صلاة؟ فى الحال يرسل إســماعيل كليمًـــا مليحًا كهدية إلى ألمانيا. وهكذا يمكن أن نحكى أمثلة عديدة علـــى ســماحته

وكرمه. كان كل من فى قونية يعرفه ويحبه ويقدره، وكانت تجارتــه تــسير سيرًا حسنًا، كما كان فرحًا بأطفاله الثلاثة (مات له قبل ذلــك ثلاثــة وهــم صغار). الابن الأكبر، ويدعى محمد أمين، تعلم الخط العربى إلــى جــوار المدرسة التى كان قد بدأ ينتظم فيها.

"ينبغى عليه فيما بعد أن يدرس فى ألمانيا!" قال إسماعيل بفخر، وكــان يجــب علــى الــصغير أن يكــرر أمــام كــل ضــيف ألمــانى جملــة "Guten Tag, wie geht es Ihnen?"، "يوم سعيد، كيف حالكم؟". كــذلك كــان إسماعيل يتعلم بنشاط لغة البلد الذى يخصه بشوقه، ويكتب لأمــى بطاقــات بريدية مؤثرة، ويحاول أن يسعد كل أصدقائه فى أوروبا بتهنئات عيد الميلاد الألمانية. وقد قامت علاقة وطيدة بينه وبين هانز مينكه، الشاعر الذى جــاء عام ١٩٥٦م مع ابنه وزوجة ابنه من برلين حتى يحقق أمنية حياته بزيــارة مولانا لمرة. وقد احتفل السيد العجوز ذو اللحية الطويلة بعيد ميلاده الثــانى والسبعين فى قونية، وبالإضافة إلى ذلك فى عيد السكر! وقد استمال قلــوب القونويين بسرعة وبشكل كاسح، ووجدت كل الغزليات، التى كتبهــا طــوال حياته، والتى أعاد فيها استشعار وتقليد قصائد مولانا، وجدت حياتها فى هذه الأيام القونوية. وفيما بعد حرص مينكه على أن يرسل خطاباتــه وأشــعاره منسوخة بخطه الفنى الجميل إلى إسماعيل الذى كان قد أسعده وجمــل أيــام زيارته وسحره بالعزف على الناى وبالأغانى الصوفية.

ومن خلال العلاقة مع الكثير من الألمان زاد شوق إســماعيل لزيــارة بلدنا. كانت أمنيته أن يرى عالم الأصدقاء، وأن يتعلم فى الوقت نفسه أساليب جديدة للتعامل مع الخشب، وأشكال جديدة لصناعة الأثــاث. وفــى خريــف ١٩٥٨ تهيأت له الفرصة، من خلال أصدقاء ألمان، وبعــد الانتهــاء مــن طلبياته، سافر أخيرًا وهو فى منتهى السعادة فى فبراير إلى لينجريش؛ حيث شعر مباشرة بفضل اهتمام ورعاية أحد المعارف الألمان بأنه فى وطنه. لقد

كان سعيدًا بالمدينة الصغيرة، وبالعمل فى أحد مصانع الأثاث، ثم اكتملت سعادته حينما دعاه مينكه بمناسبة عيد الفصح إلى برلين. وقد كتب إلىَّ يقول: "هل أستطيع أن أقبل كل هذه الضيافة؟" وقد تمتع لأربعة أيام بوجوده مع الأصدقاء الذين كان لديهم أطفال فى عمر أطفاله، وكان يرى صور قونية ويكرر: "أنا سعيد جدًّا، أنا فرح جدًّا".

"هل كانت الانطباعات الجديدة أكثر من اللازم؟" هل أضعفه دون وعى التوتر بين العالم الروحى فى قونية والحياة فى ألمانيا؟ لا أحد يعلم هذا. فأثناء عودته إلى لينجريش داهمته حمى خفيفة ووضع نزيف دم غير متوقع فى السبت التالى لعيد الفصح نهاية لحياته. كان فى الثانية والأربعين من عمره، وكان هذا فى "ليلة القدر"، أقدس ليلة فى رمضان. وقد عمل الأصدقاء البرلينيون - كشكر له على ضيافته - على نقله إلى الجبانة الإسلامية فى برلين. لم يكن فى استطاعتى أن أنطق بكلمة التعزية لأمه - الأم التى فقدت ابنها العاشر والأخير. لقد كانت هى التى واستنى قائلة: "لا تحزنى. الأرض الألمانية هى التى جذبته إليها. كان يريد دائمًا الذهاب إلى هناك. الآن هو ضيف أبدى لديكم".

لقد كتب هذا الرثاء فى خريف ١٩٥٩، حينما كنت أعيش فى ماربورج بعد عودتى من أنقرة. نادرا ما كنت أجىء بعد ذلك إلى تركيا، وإذا ما جئت إليها كنت لا أستطيع أن أجد الأصدقاء القدامى، ولا أعلم إن كانت شكرية لا تزال حية، ولا ما صار إليه الأطفال.

ولكن روح إسماعيل بقيت حية؛ فعندما قدمت فى خريف ١٩٨٨ إلى قونية التى أفزعنى تغيرها الظاهرى، تناولت أول وجباتى مع محمد وظفر أوندر فى مطعم معروف للكباب، وبينما كنت أشرب آخر جرعة أيران كان ثلاثة رجال يهبطون على السلم، وما إن رمقونا، حتى اندفع الأصغر بينهم باتجاهى قائلا: "جميلة، يا هلا!". لقد كان محمد أمين، الابن الأكبر

لإسماعيل، يشبه والده وكأنه قُدّ من وجهه. اختفت ثلاثون سنة وكأنها لم تكن. ومباشرة كان يجب علينا، شاكرين هذه الفرصة، أن نذهب معه إلى عيادته الرائجة للأسنان، لنشرب القهوة ونسمع عن الأقرباء. حكى محمد أن أخته وجدت أثناء التنظيف خطابًا كنت قد كتبته له حينما كان فى الثامنة (لقد بعثت للصبى الماهر بأشياء لطيفة للعب)، وقد تنبأت له فيه بأنه سيصبح فى يوم ما طبيبًا بارعًا للأسنان... وهذا هو ما تحقق أيضًا، مع أنه كان قد نسى الخطاب، ولم يعد يعرف شيئًا عنه. وقد ذكر محمد أمين أيضًا أنه متزوج وله ثلاثة صبية صغار، وأن الأكبر من بينهم يدعى مرة أخرى إسماعيل. فى المساء التالى وحينما كنا فى بيته ننصت حتى ساعة متأخرة إلى الموسيقيين الأتراك الذين جاءوا إليه من فرقة الجامعة، بدا الأمر، وكأنه إحياء للأيام التى كنا نستمع فيها عند إسماعيل للموسيقى - معجزة صداقة تجتاز الأزمنة والأمكنة.

رحلة متوسطية غير مألوفة

ماذا يمكن للمرء أن يهدى إلى أمه فى يناير ١٩٥٧ بمناسبة عيد ميلادها السبعين؟ لم يكن يوجد ما يمكن شراؤه أو ما يمكن أن يشجعنا على الاحتفال، ولكن كيف يكون الأمر مع رحلة بحرية بمحاذاة الشواطئ التركية الجنوبية؟ أسرعت إلى شركة ملاحة Denizcilik Bankasi حتى أشترى تذكرتى باخرة: الإسكندرونة - أزميز، وقد تكلفت التذكرة تسعًا وتسعين ليرة، شاملة كل شىء. نظر الموظفون إلىَّ باستياء: .هذا شىء يخص الشركة السياحية فى الإسكندرونة، وبالإضافة إلى ذلك فإن المرء لا يعرف ماذا يمكن أن يحدث حتى الأول من فبراير.

رغم ذلك ركبنا القطار الذى ينبغى أن يقلنا فى ثلاث عشرة ساعة إلى أضنة، والذى كافح بكل اجتهاد عبر هضبة الأناضول الجليدية الباردة وعبر جبال طوروس. أخيرًا أضنة - دُعينا من قبل اثنين غير معروفين إلى إحدى

السيارات التى كانت تقف تحت النخيل، ومن ثم أحضرونا إلى منزل إسماعيل إمره؛ حيث كان ينتظر قرابة الثلاثين من الناس، ولكن ليس العشاء الساخن المشتاق إليه. والحق فإنه ليس من السهل جدًا أن تكون ضيفًا فى بيت أحد القديسين - أو على الأقل يكاد يكون قديسًا. بعد العناق الحار دعيت إلى عرض مشاكل التصوف الإسلامى، وهنا فقط وجد بعض ما يؤكل.

كان إسماعيل إمره أحد أطرف الرجال فى دائرة معارفى. كان حدادًا له معارف من أضيق ما يكون بالقراءة والكتابة، ولكنه اصطلى بلظى الحب الصوفى، ويستحوذ عليه أحيانًا "حال" ينشد إبانه أغانى صوفية على نمط أسلوب أشعار يونس إمره الذى طبع الشعر الشعبى التركى بطابعه فيما حول عام ١٣٠٠م. وقد كنا مرة شهودًا على مثل هذا الحدث، حين بدأ إمرة - أثناء السفر إلى قونية فى يوم ديسمبرى بارد - فجأة فى الغناء، وقد شاع الدفء فى السيارة غير المدفئة حتى اكتسى الزجاج بالبخار. وقد وصفت أشعاره بأنها doğuş أى "ولادة، تتدفق تلقائيًا". وكانت كل كلمة يتفوه بها تقيد من قبل تابعيه، وقد نشرت أشعار "يونس إمره الجديد" فى مجلدين.

كنا نحب الرجل المتواضع القنوع الذى لا يقيم فرقًا بين معتنقى دين وآخر: "كل هذه الألوان لا بد وأن تصبح رمادًا، فقط عندما تحترق من الحب وتتحول إلى رماد تصبح شيئًا واحدًا ويكون الجميع رمادا". وقال لأمى مرة: "الأنبياء مثل الشمس التى تشرق كل يوم وتضىء للناس، ولكن هل رأيت مرة أنه يوجد مكتوب على الشمس "الثلاثاء" أو "الجمعة؟".

وفى الصباح التالى تمتعنا بإفطار حقيقى بأشياء لم نرها فى أنقرة منذ أسابيع مثل الجبن والزبدة الطازجة. ووصلنا بواسطة إحدى ناقلات الدوملش Dolmuş فى ساعتين بعد الظهر إلى الإسكندرونة، ووجدنا فندقًا بسيطًا، ثم أسرعنا إلى مكتب البحرية. كان الوكيل يريد الذهاب إلى فترة راحته. ومتى

تأتى إذن باخرتنا "إزمير "؟ رفع البحار يديه قائلاً: "أخ، لقد غرقت بالأمس...".

الآن أصبح كل شيء بالنسبة إلينا واضحًا، لا بد وأن لوكلاء الشركة فى أنقرة وجهًا آخر، وذلك لأنهم لم يكونوا يريدون بيع التذاكر لنا! ماذا نفعل الآن؟ تنهد البحار قائلاً: "ربما، نعم إن شاء الله، يمكن أن نسافر فى باخرة البريد "Nejat"، نعم، هى صغيرة، ولكنها تقف فى كل ميناء، وبدلاً من أربعة أيام سنسافر لمدة ثمانية أيام بنفس السعر. "ومتى تأتى؟". "الله أعلم... حقيقة بعد غد، وربما بعد ذلك أيضًا..."

كانت قمة جبل مغطاة بالثلج تشرف على الخليج، بينما يُغرق غروبُ الشمس الناحيةَ فى ضوء بنفسجى أرجوانى مشتعل.

"لا، "Nejat" ستأتى إن شاء الله بعد ثلاثة أيام فقط". أخبرنا البحار متنهدًا فى الصباح التالى. تجولنا على الكورنيش ذهابًا وإيابًا، وإيابًا وذهابًا، عددنا النخيل والشحاذين وماسحى الأحذية وشربنا شيئًا يباع بوصفه شايًا، ثم عزمنا على أن نسافر عبر مضيق بيلان إلى أنطاكية، (أنطيوخيا)؛ حيث دعى تلاميذ يسوع المسيح لأول مرة "مسيحيين"[١٢٦].

يندفع نهر العاصى تحت الجسر بلون أصفر رمادى. هنا ينبغى أن الحورية دافنه قد تحولت فيما مضى إلى شجرة الغار[١٢٧]. ويجد المرء هنا فى حديقة المتحف فسيفساء رومية وتوابيت مرمرية مؤثرة. بنفسج كبير يزدهر. وقادنا السائق عبر الحارات الضيقة إلى المطعم الذى يوجد به أفضل كباب فى المنطقة. كانت مريلة صاحب المطعم، الذى يلبس جاكيت فى حمرة النار ويشتغل بالشواء، على ما يبدو فى خدمة المطبخ منذ أيام الرسل، ولكن الوجبة كانت ذات طعم شهى.

هربنا بعد يوم آخر فى الإسكندرونة من النخيل والشحاذين وماسحى الأحذية إلى مرسين عبر طرسوس؛ حيث يجلس البلديات المتأخرون لرسول

الأمم فى الشمس دون أن يدنسوا يوم الله الجميل بالعمل. شعرنا فى مرسين بالراحة، وكنا نستطيع رؤية البحر من شرفة الفندق مترقبين رؤية باخرتنا "Nejat". كانت المدينة محاطة بمزارع البرتقال، ويرعى على أطرافها الماعز طويل الشعر؛ حيث تحدث ألوانها البنية والبيضاء والسوداء أثرًا مثل لحاف حى من صوف الماعز.

كان وكلاء شركة السفن لا يعرفون شيئًا عن "Nejat". "غدا إن شاء الله"، ولكن وعد أحد الشباب - بعد أن رأى خيبة أملنا - أن يساعدنا على القيام برحلة قصيرة. وبعد الظهر أجلسنا وصديقه فى سيارة كاديلاك وذهبوا بنا إلى ويرانشهير؛ حيث توجد ثلاثة أعمدة تدل على أبهة مندثرة لأحد معابد جوبيتر، وقفت تحتها امرأة عجوز، رثة الثياب، لا أسنان لها، تقود جملين قويين. انحنت المرأة لتلتقط عنزة سوداء حديثة الولادة، قالت: "الماعز تنتظر"، ثم اختفت بين الحشائش العالية.

عاد بنا مضيفنا ترزى القمصان الذى كان قد استعار بسرعة السيارة للنزهة من زبون أضنى (من أضنة) حتى يدخل علينا السرور. لا لا شكر، عفوًا - فنجان قهوة آخر بمناسبة الوداع!

وفى اليوم التالى ظهرت "Nejat"، ولكن كانت الجبارة السوداء تبدو قليلة الإيحاء بالثقة، بل وأصبح الإيحاء حينما صعدنا إليها فى المساء أقل. لقد بنيت الباخرة فى عام ١٨٩٢ وكان ركاب الدرجة الثانية يجلسون خلف قضبان حديدية، هذا إن لم يكونوا يتمددون أثناء الطقس الجميل على سطح الباخرة. كانت الأسرة فى القمرات الضيقة من حيث الحجم والراحة مثل تابوت يونانى، كما كانت توجد أربعة أوناش دائمة الصرير. وكان ولا بد لى من أن أتذكر قصيدة محمد عاكف عن القارب المشئوم التى كنت قد ترجمتها حديثًا:

وفى المساء بدأت تمخر فى البحر،
وكان الخبر الحزين - أن الهدف إزمير.

أنصبح فى النهاية أيضًا غرقى دون خريطة أو بوصلة؟ لا، لقد كان السفر جميلاً بحق؛ فقد رأينا الشاطئ التركى بمدنه التاريخية التى تمر ببطء بينما نحاول استعادة التاريخ، كذلك لم نرفض حينما سألنا السيد سولومون من بيروت بألمانية طليقة: "إذا ما قدمت لكما قليلاً من الخمر هل ستشربانه؟" وملأ أكواب الماء الخاصة بنا بالفودكا.

وفى الصباح ظهرت قلعة ألانية الضخمة على اللسان الأرضى الرشيق، هناك أنشأ السلاجقة فى بدايات القرن الثالث عشر ترسانة بحرية ضخمة ذات خمس قباب. زرنا مغارة الهوابط والصواعد التى يعالج فيها مرضى الربو بالانشاق، ونظرنا طويلاً إلى ارتطام الأمواج العالية والخضراء مثل الترمالين(١٢٨) بالشاطئ. واكتشفنا فى عصر هذا اليوم مكاننا المستقبلى المفضل على السطح الخلفى الأعلى لـ– "Nejat". حقًا لم تكن توجد كراسى للجلوس هناك، ولكن الضابط الأول أحضر لأمى مقعدًا مرتفع القوائم بدون مسند، نعم جلست غير مستريحة ولكننى كنت سعيدة على سور السفينة. وهكذا تمتعنا بمنظر دائم التغير، وقد توقفنا لفترة قصيرة فى أنطالية، واندفعنا مع التيار إلى رأس كاليدونس الذى يمثل القمة الجنوبية لتركيا. فى كل ميناء صغير تنزل حمولة وتشحن أخرى. وأصبح السطح الأسفل ببطء بمثابة نوع من المعرض للناس والحيوانات والبضائع.

تقرفصت على الأكلمة الملونة نسوة يرتدين ملابس ملونة أو كن محجبات كلية بالأسود. وينام هناك لساعات طويلة رجل يرتدى بنطالا تقليديًا واسعًا وجوارب ذات لون ليلكى وسترة مخضرة ويمسك شمسية منصوبة فى اليد. ثم جاءت بعض الخراف الهادئة، بينما تصيح ديكة من الجانبين، وفيما بين هذا وذاك تقوم الممرضة بتنظيف وتطهير الباخرة، وهى ترتدى رداء غير ناصع البياض. كانت من مرعش وكانت تحيينا بقولها: "الأخت باولا، الأخت أنا، الأخت هيدفيج – أوه يا لك من سعيدة، أوه يالك من مباركة!".

وفيها تتحقق الشهرة التى تقول بأن المرأة المثالية فى مرعش لا بد وأن تكون ضخمة جدًا حتى إنها لا تستطيع أن تمر من الباب إلا بجانبها فقط.

مررنا برأس برية تشبه تمساحًا تركيًا، توجد خلفها مدينة فتحية، ثم بدا وكأننا قد دخلنا فى بحر هادئ؛ حيث تقع مدينة جميلة عند قاعدة جدَّار صخرى تشرف عليها أنقاض أحد الحصون. وعلى علو يبدو غير قابل للتسلق نحتت فى الصخور مغارات ذات رواق رائع على أعمدة. وفى المقابل ترتفع تلال فاتحة الخضرة متوجة بقمم ثلجية غير منتظمة بالكامل - كما لو كانت من أحد الأحلام. نقلنا إلى اليابسة بواسطة مركب أخضر سُمى تبعًا للصادرات الأساسية للميناء "كروم". وتمشينا مع طبيب السفينة وأحد الطلاب عبر الحديقة الغناء التى تزدهر فيها أشجار الخوخ والكرز واللوز، وتسلقنا الجبل إلى مغارة الدفن السفلى، وأثناء النزول - أو الانزلاق - قبضت على يدى فتاة صغيرة ذات بشرة عاجية وجدائل نحاسية فى ضخامة قبضة اليد، وأثناء الشاى بدا العالم فى غاية النظام والاستقامة.

وفى الصباح التالى وصلنا إلى مرمريس؛ حيث كانت غابات الصنوبر تفوح فى ضباب الصبح المبكر. وكان أحد القوارب الميكانيكية يبتعد عن الشاطئ متجهًا إلى رودس التى كنا نستطيع عن طريق المنظار أن نتعرف بسهولة على حصن الجزيرة ومدينتها، وذلك قبل أن يلون الغروب الذى لا يوصف العالم بالأحمر الليلكى. وفى الظلام تظهر على البعد أنوار الجزر الأخرى، وقد علمنا الكثير من رفقاء السفر عن صعوبات صيد الأسماك.

وحينما استيقظنا فى الصباح على أصوات الأوناش، كدت أصرخ من الفرحة؛ فأمام "Nejat" بالضبط كان يوجد حصن الصليبيين الضخم فى بودرم (هاليكارناسوس القديمة)؛ حيث وجد مرة أحد عجائب الدنيا السبع[١٢٩]. أصبحت المناظر الطبيعية أكثر حيوية. وقد نزل الكثير من الركاب، وكذلك الخراف اللطيفة إلى اليابسة. وقد تفقدنا جزيرة ساموس التى كانت جبالها

متدثرة بالضباب حتى بدت كما لو أنها انتشت بنبيذ لذيذ. وقد خمن المرء على البعد معالم جزيرة بطموس. ومرت فى السماء سحابة ضخمة تشكلت بالضبط على شكل ملاك – ألا ينبغى أن تكون رؤية يوحنا اللاهوتى(١٣٠) قد نشأت على بطموس؟

كانت الباخرة تناضل عبر بوغاز ضيق، وحينما درنا ناحية إزمير فى اتجاه شمال الشرق، أرتفع إعصار شديد امتد فى الخليج مثل عقد مضىء وحملنا معه إلى إزمير. وقد رأينا كذلك الباخرة "إزمير" التى كان نصفها قد غرق، وكانت يجب أن تقلنا إلى إزمير. وقد قضينا الليل على الباخرة – وقد كان الوداع صعبًا بعض الشىء. وفى الصباح سافرنا إلى كارشياكه؛ حيث كان صميم كوججوز وأسرته قد قلقوا علينا. وقد كنا تعرفنا على بعضنا منذ أيام إستانبول، ثم ترجمت بعض قصصه القصيرة التى تهتم فى المقام الأول بحياة الفلاحين فى مسقط رأسه سوكه.

زرنا قلعة أزمير القديمة ذات المنظر الرائع على الخليج، الذى يوحى بأنه ما زال طبيعيًا، ولم يجر "تمدينه" بسلسلة من المبانى الخراسانية. وفى أفسوس رأينا للمرة الأولى ديانا الأفسوسية، تمثال الإلهة ذات الثمانية عشر ثديًا، والتى ترتدى بروج السماء كعقد، وتزين جسدها برموز نباتية، والتى تجلس الأسود على كتفيها والغزلان والصقور عند قدميها. هل يستطيع المرء أن يتصور الإلهة الأم الكبرى بطريقة أفضل؟ ثم انعطفت السيارة إلى مريم أنا، المكان المقدس الذى قضت فيه – حسب الأسطورة – مريم العذراء آخر سنواتها. نبع وغابة صغيرة ومنظر البحر الفضى البعيد. ويزور الأتراك المكان الصغير المقدس بكل سرور، ألم تذكر العذراء والميلاد الرائع ليسوع بالتفصيل فى السورة التاسعة عشرة من القرآن؟!

فى اليوم التالى كان الذهاب (ليس بدون الانقاب الإجبارى للإطارات) إلى بوجه؛ حيث يوجد أصدقاء إيطاليون يجمعنا وإياهم الاهتمام المشترك

باللاهوتى الإيطالى إرنستو بونايوتى، وقد استقبلنا بكل الحب فى البيت الرومانسى الذى صارت حديقته كالغابة.

وقمنا فى يوم وداعى أخير بالسير عبر أزمير التى بقيت فى ذاكرتى بوصفها حوضًا كبيرًا للبنفسج. كانت الحوارات حول الأدب والدين تملأ المساء؛ فالعقل الحر للميناء المتوسطى يبدو بحق بعيدًا جدًّا من وسط الأناضول الغارق فى التقاليد، ثم سافرنا جوًّا إلى إستانبول، إلى جالا ومصطفى؛ حيث أدركنا الشتاء هناك، وخضنا خلال الثلج الذى يصل إلى الكعبين، حتى وجدنا سيارة أجرة أقلتنا إلى محطة الحافلات. وكانت الحافلة تنطوى حقيقة على القصد النبيل بالذهاب إلى أنقرة. أما أن خزان البنزين قد انثقب أثناء صعودها على العبارة، وأن الثلوج قد تساقطت طوال الوقت، وأنه وجدت بعض الأخطاء الأخرى الصغيرة؛ فإن هذا لم يكن شيئًا سيئًا جدًّا؛ فالعدد الهائل من الباصات وسيارات النقل المقلوبة على المطلع غير المنحدر إلى ممر بولو، تكاد تجعل من قبيل المعجزة أن نصل أحياء إلى أنقرة؛ حيث كانت صديقتنا المخلصة فاطمة قد قامت مرة أخرى بعملية إجهاض، وحيث كان ينتظرنا عمل كثير، وأيضًا انتقال جديد، ولكنا مازلنا نشتاق بين حين وآخر إلى صديقتنا القديمة دائمة الصرير "Nejat".

رحلات عبر الأناضول

لم تكن الرحلات إلى الأناضول فى زماننا سهلة جدًّا، ولكنها كانت – وبصفة دائمة – مملوءة بالمغامرة. كان المرء يستطيع أن يسافر بالباص، وأحيانًا كانت توجد سيارة لخدمته، سيارة هيلمان قديمة وضعيفة جدًّا، وقد عمدتها باسم دُلدُل، وهو اسم بغلة علىّ، ابن عم الرسول وزوج ابنته[١٣١]. وكان انثقاب الإطارات أمرا متوقعا فى كل يوم، وقد صرت خبيرة فى لحام الإطارات، ولكن ماذا تفعل إذا نقص أحد مبارد تخشين مكان لحام المطاط؟

لقد جربت كيف يظهر دائمًا فى مثل هذه الحالات بعض الرجال فجأة، ينظرون إلى التلف، ويقوم أحدهم مباشرة بتخشين المطاط على ذقنه التى لم يحلقها منذ ثلاثة أيام، وبذا يمكن للسفر أن يتواصل. كانت المساعدة المتبادلة على الطرق - التى كانت آنذاك، وإلى حد ما، طرقًا مهجورة بحق - أمرًا طبيعيا. وما زلت أتذكر بهلع السفر من إرزنجان إلى سيواس؛ حيث لم تكن توجد محطة بنزين، ولذا فإن السائق وضع فى السيارة صفيحتى بنزين انفتحت سدادتاهما، وكان علىَّ أن أمسك بهما على الطرق الشاقة كثيرة الانحناءات حتى لا تتدلقا، وحينما أشعل السائق بهدوء سيجارة أو سيجارتين، فكرت فى أن سويعتى قد حانت. قليلة هى الفنادق التى كانت آنذاك مجهزة لاستقبال الضيوف الغرباء، خاصة الإناث منهم. وقد تميزت بعض هذه الفنادق بكمية محترمة من القمل، ولكننى لم أصل مطلقًا إلى درجة الصبر التى جعلت أحد المعارف الورعين يصرخ: "ما أعظمك يا إلهى! لقد خلق القمل بهذه القدرة التى تجعله - حتى فى الظلام - يسقط وبدقة على وجهى!". ورغم هذا فإننى لا أريد أن أشطب هذه الرحلات من حياتى.

كان ينبغى على دُلدُل مرة أن تحملنى وأمى إلى كليس على الحدود السورية، وذلك حتى نحضر هناك الاحتفال بعيد الأضحى. وقد وعدنا بأن تكون "رحلة مريحة". وكان لا بد لنا أيضًا من أن نختطف مدرس مدرسة كليس من المستشفى، وذلك لأنه يريد العودة إلى منزله. كان صوته - أى المدرس - يرتفع بشكل دائم كلما اقتربنا من هدفنا. وقد اتجهت الرحلة إلى الشرق مارة بالبحيرة المالحة، وهناك كانت لا تزال توجد قرية أرمينية صغيرة، وقد دعيت فيها فى مرة أخرى إلى حفلة خطوبة أرمينية شاركت فيها كل القرية، وإبانه كانت الصلبان الذهبية تلمع على صدور الأرمينيات الشابات. وفى قرية أخرى على الطريق إلى الجنوب استقر بعد الحرب العالمية الأولى تتار من القرم، وهناك أيضًا تيسر لى حضور فرح فتاة جميلة

كانت فى الخامسة عشرة من عمرها تقريبًا. كان منزل العروس قد زين بالعشرات من المناديل الملونة، وكانت الهدايا معلقة فى السقف بشكل نجمى يشبه سقف خيمة. وعلى الطريق الزراعى الموحش فكرت تحت حرارة الصيف مرارًا فى أبيات يونس إمرة التى أوجز فيها بشكل مصيب كل من الطبيعة والتجربة الروحية:

عما قريب سأعصف مثلما تفعل الريح

عما قريب سأعفر مثل طريق مترع باللظى

عما قريب سأسيل كما يفعل جدول وحشى

فانظر، ماذا فعل الحب بى

وفى [illegible] انفجر إطار السيارة، بالضبط إبان وقت صلاة الظهر مما أسعد مدرسنا بشدة. وفى وقت ما عصرًا استرحنا على قمة السُدة القيليقية فى جبال طوروس، ومن هناك ينفتح الطريق إلى البحر المتوسط، وبعد ليلة فى أضنة الخانقة تواصل المسير، وحين وصلنا إلى السهل توقفنا للراحة فى دورتيول؛ حيث انتصر الإسكندر مرة عند إيسوس، وتمتعنا بعصير البرتقال الطازج الذى تنتجه الضيعة النموذجية هناك.

وعند المرور بالإسكندرونة توجعت دُلدُل وهى ترتقى المنحنيات الكثيرة لمضيق بيلان، وعنده يتفرع الطريق؛ فإلى اليمين أنطاكية، وإلى اليسار غازى عينتاب، ثم كان السير على امتداد الحدود السورية فى رياح الظهر الحارة. كان جزءًا من البرية يحترق، وهذا ما ساء دلدل فانثقب أحد إطاراتها. وما إن ارتفع أذان صلاة الظهر حتى صرخ المدرس فرحًا: "يا لها من سيارة مباركة! دائمًا ما تدعنى أؤدى صلواتى بانتظام!".

كانت فترة ما بعد الظهر أشد حرارة، وأخيرًا ظهرت مرعش أمامنا: قلعة قديمة وعجيبة، وتمثل منذ قرون حدودًا بين القبائل العربية وغيرها من

الشعوب المختلفة، ومؤخرًا ما بين الأتراك والفرنسيين(١٣٢). كانت المنعطافات تبدو وكأنها لا نهاية لها، بينما الشمس تسقط ببطء خلف سحاب تشكل وتلون بروعة. "تصعب عليها مفارقة الأناضول!" صاح المدرس متحمسًا. وكان السهل غارقًا فى ألوان عجيبة ما بين رمادية ووردية وبنفسجية، بينما تمرق خلال الدغش أنواع غريبة من الطيور. وحينما وصلنا إلى غازى عينتاب كان الظلام قد حل. وكنت أتمنى لو قضينا الليل هناك، وذلك لأننا نعرف هناك بعض النسوة اللطيفات اللاتى يأتين إلينا فى أنقرة بين حين وآخر، من أجل بيع تطريزات ناعمة على حرير فاتح، وهى أعمال فنية صغيرة أعدت تحت إشرافهن من قبل فتيات صغيرات يتعلمن إبان عملهن بالتطريز الأدعية والأغانى الصوفية. كم من تطريزات اشتريتها منهن، وكم أسعدتنى زيارتهن، حتى وإن كن يطرقن بابى فى تمام السادسة والنصف صباحًا!

"لا، لا لغازى عينتاب؛ فكليس تقع «فقط» على بعد ٥٦ كيلومترًا". كانت الشوارع ملساء ومستوية، كل شيء يبدو على ما يرام، وذلك حتى تعطلت البطارية واستقرينا دون ضوء فى حفرة على الطريق. كانت تلفنا ريح دافئة ناعمة، وقد طال الأمر حتى قام سائق سيارة نقل مارة بإصلاح البطارية، وهنا لعب الورق المفضض للوح الشيكولاته الغالى الوحيد دورًا حاسمًا

كليس، يا له من مكان! ممرات وبواك وأركان وجدت بين الأبنية الحجرية، وكان دار البلدية الصغير النظيف مفاجأة لنا، وقام رجلان عتيقان جدًا (ربما لم يكونا عجوزين هكذا؟) فى أرديتهما الطويلة بصنع الشاى المشتاق وهما يحكيان بإسهاب عن رحلة حجهما إلى مكة. أما كون الفندق يجاور فناء المسجد؛ فأمر كان له بالتأكيد مساوئ أكيدة، وذلك لأن الماعز والخرفان كانت تربط فى الفناء لأجل عيد الأضحى، ومن ثم كانت تمامًا وتثغو، وتثغو وتمامًا فى تناوب جميل، كما كان يمكن الاستماع بعد صلاة الفجر مباشرة إلى قعقعة المعادن الصادرة عن سوق النحاسين القريب.

ولكن لم يطل بقاؤنا فى الفندق اللطيف؛ ففى التاسعة صباحًا وقف العمدة الشاب أمام الباب كى يوضح لنا أن ضيوفًا محترمين مثلنا لا يُسمح لهم بأن يسكونوا فى فندق. ورغم أننا رفضنا دعوته بقوة، هجم أحد رجال الشرطة على حقائبنا، ومن ثم كان يجب علينا أن نتبعه عبر حارات صغيرة ضيقة وطرقات أشبه بالأنفاق حتى هبطنا أخيرًا فى بيت العمدة. كان البيت جميلاً؛ ولكن كان يعيب حجرة النوم أنها تقع فى الدور الأرضى، وأن شبابيكها غير المستورة تصل إلى الأرض. كون الضحية قد نحرت فى الخامسة من صباح اليوم التالى تحت حجرتنا وبمشاركة فرحة مهللة للأطفال؛ فإن هذا كله كان يمكن التغاضى عنه، ولكن أن يكون الاستيقاظ تحت عيون الزائرين الذين قدموا متوددين للتهنئة؛ فقد كان هذا أمرًا معقدًا ومشكلاً بعض الشىء.

وفى البازار كنا نجد بصفة رئيسية السجاجيد المهربة من سوريا خمسة أو سبعة أيائل صارخة على أرضية حمراء أو زرقاء. وقد تيسر لنا على كل حال إصلاح كعب حذاء أمى، وذلك بعد أن سحب الإسكافى المستنفر من قراءة القرآن عدة مسامير من الحائط. وقد رأينا من على سطح أحد المنازل على الجانب الآخر للحدود سهل مرج دابق؛ حيث انتهت فى أغسطس ١٥١٦ المعركة الحاسمة بين المماليك والعثمانيين بانتصار الجيش العثمانى. وفكرت للحظة فى الأيام التى كتبت فيها أطروحتى للدكتوراه عن هذا العصر. والآن يستلقى السهل فى سلام هناك. كانت فساتين الستان الملونة للفتيات، والقمصان زاهية الألوان للرجال تدل على حركة التهريب النشيطة.

"لا بد لكما من زيارة الشيخ فلان، إنه متعلم جدًا ولديه مخطوطات فارسية!". وهكذا دخلنا إلى بيته الجميل، وحدق فينا أثناء جلوسنا فى الشرفة من قبل النساء والأطفال، ثم جاء العالم الذى حيَّانا بلطف بينما كنا ننظر إليه باندهاش؛ فقد كان يرتدى رداءً حريريًا طويلاً ومخططًا باللون الأزرق، وحذاء جلديًا أحمر اللون مقوسًا، وحزامًا ملونًا، وقد لف الوجه الملتحى بشال، وتوج هذا كله بقبعة بنية كبيرة. ضحك لنا بفم أهتم وأشار إلى أمى

قائلا: "عروستى!" ثم أكمل موضحًا بأنها ستكون عروسته فى الجنة، ابتسمنا مزهوتين، ولكنى رغم ذلك لم أترجم إلا فيما بعد ملاحظته لأمى التى لديها تصورات أخرى للجنة، ثم سمح لى برؤية بعض المخطوطات، وبعد أن عينت لأجل إسعاده أحد مخطوطات ديوان حافظ، منّ علينا بإطلاق سراحنا. وقد سمعت بعد عدة عقود أننا - ومن خلال هذه الزيارة أصبحنا، فى كليس - أقرب ما نكون إلى شخصيات أسطورية.

كانت المنازل القديمة رائعة؛ فهى مضيئة من الداخل ومقفولة من الخارج، وهنا تسيطر النساء، خاصة الأمهات. وكانت أم العمدة تحكى بضحكة مزهوة أن الفتيات فى عصرها قد تعلمن القراءة، ولكنهن لم يتعلمن الكتابة، وإلا لربما استطعن أن يكتبن خطابات حب!

كانت كليس فيما سبق مركزًا تعليميًّا، أما الآن فهى مشهورة بفواكهها الرائعة. وأنا لم أر قط مثل هذه الأطباق جميلة التجهيز بالفواكه، ولا أيضًا بمثل وجبات اللحوم الشهية التى تكاد تكون قطعة فنية لا يأكلها المرء بضمير مرتاح. ومن العنب بمختلف أنواعه لا يصنع النبيذ فقط، وإنما أيضًا الدِبّسُ، وهو عصير عنب مكثف إلى درجة تكثيف العسل، وكان يعطى - فيما سبق - للأطفال فى الصباح، وذلك إبان فى الشتاء الأناضولى القارص جدًّا، وهو يعطى ممزوجا مع بياض البيض المخفوق إفطارًا مغذيًا جدًّا.

وكذلك استطعنا أن نتعجب أكثر لوفرة الأعناب، وذلك حينما زرنا - فى اليوم الثانى للعيد - حديقة مدرسنا الثرثار. وقد سمح لى أن أركب إلى هناك الخيل مع بعض السادة عبر أراض خصبة وحدائق عنب وزيتون. وقد تجولت أنا وأمى عبر ضيعة العنب، نتذوق الفواكه الحلوة ونلعب مع البغل الأبيض الذى نهق خلفنا بحرارة. وتبعًا للعادة كان يجب علينا أن نجلس مع النساء، ولكن بعد أن تحدثن لمدة ساعة ونصف ساعة، وما زلن، عما إذا كان يسمح للمرء بأن يفطم الطفل بعد عام ونصف أو فقط بعد العامين

المفروضين قرآنيا؛ فما كان منا إلا أن تسللنا بعيدًا وجلسنا مع الرجال. وقد بدأ تناول الطعام فى ضوء لمبة جاز مرتعش. وهنا يشعر المرء بأنه ما زال فى العصور الوسطى، ينصت إلى الأحاديث الشيقة التى تزداد صخبًا، والتى يبدو فيها وكأن الصراعات الحدودية القديمة سيعاد إحياؤها، هذا بينما يوزع العرق، وتظهر بصفة دائمة أطباق جديدة للكفتة والسلاطة والأعناب - وهكذا مثلما يعرف المرء من كتب رحلات العصور الوسطى.

وفى الصباح حملنا دُلدُل، بعد العناية الجيدة بها، نحو الشمال. فى غازى عينتاب ربضت فى ضوء الصباح الباكر قافلة طويلة من الجمال. وفى ملاطية احتاجت دُلدُل مرة أخرى لصيانة، ومن ثم أرسلت ضد إرادتها (وإرادتنا) إلى إلازيج. ولقد كان شعورًا غريبًا السفر بمحاذاة بدايات الفرات الذى ينحشر بين صخور ملونة أخذت أشكالاً غريبة. اليوم اختفى كل ذلك فى بحيرة السد الضخمة التى يمكن للمرء أن يراها من الطائرة.

ويقال إن إلازيج (خربوط القديمة) مدينة جديرة بالاهتمام، وقد يكون هذا حقيقيًا؛ ولكن البيت الذى قضينا فيه ليلتين، تميز بالدرجة الأولى من خلال الغنى الذى لا ينفد للذباب الذى يمارس حياة سعيدة فيما بين المطبخ والمرحاض وعشة الدجاج. وما زلت حتى اليوم أسخط على المرشد الصوفى الكبير الذى كان يتضرع إلىَّ كى أصبح تلميذته: سيمنحنى هبة التنبؤ وسأتمكن من رؤية المستقبل، وهكذا دواليك وإلى آخره، ولكنى بقيت صلبة، وذلك لأن رجلاً له مثل هذه القوى، كان ينبغى له أن يرى، أن أمى التى بقيت فى البيت محاطة بالذباب، تحتاجنى إلى جوارها بشدة. لا، لقد بدأ اعتقادى فى بعض "قديسى" التصوف يختفى.

وقد تمتعنا بالصباح، حينما ارتحل دلدل عبر ملاطية إلى الشمال الغربى نحو سيواس. كان يسير بتوازن على الوهاد، ويثب مفزوعًا على المقابر التى تظهر مباشرة، ويضنى نفسه متوجعا فى صعود المرتفعات، بينما يسرع فى

نزوله على المنحدرات، ثم ترك لنا فرصة شرب الشاى فى قرية علوية؛ حيث الرجال فى سراويلهم الواسعة وبشواربهم الضخمة يلعبون لعبة النرد التى لا تنتهى، بينما النساء يصعدن وينزلن بنشاط على السلالم المرتفعة للمنازل. وكما استرحنا فى الذهاب فى الضيعة النموذجية فى دورتيول، هكذا شرعنا قبل قرابة أربعين كيلومترًا من سيواس فى التضيف فى الضيعة النموذجية فى أولاش؛ حيث غرست مئتا ألف من أشجار الحور بغرض التشجير، وكذلك وجدت آلاف الدجاجات، وعلى الهضاب ترعى خراف مكتنزة الذيول، ولها أنوف سوداء، والتى يزيد وزن أليتها المستديرة، والتى يتدلى منها أيضًا هدب سمين، عن عشرة أرطال. وقد كان اهتزاز كل هذه الآلاف من الأليات السمينة لدى العدو مشهدًا عجيبًا مدهشًا. وكان قرابة الخمسمائة حمل من نفس الفصيلة يرعين فى مكان آخر، ولكن ماذا يقول اللغز الشعبى عن الخروف؟

إلى جوارب حولت ظاهرك،

وللشوى جهزت باطنك

وفى يوم ما ذبحتك

وبعمل محمود قمت

(أى فى عيد الأضحى). وقد تخلفت إحدى الشياه لأنها كسيحة. كانت الشمس الغاربة خلف الجبال تُذهّب السحابة التى تمر فوق الصخور القوية المصمتة فى الجهة المقابلة، وتموه بالذهب صوف الخراف الذى يبرز مضيئًا من المراعى المغطاة بالزعتر. وهنا خطرت فى بالى أبيات بير سلطان عبدل:

مثل الذى يلبس جلبابًا أؤتمن عليه،

كنت منذ ولادتى فى هذا العالم

والآن جاء مالكه وأخذه من يدى

وأصبح مثل شاة فقدت فى مكان قاحل

وقد عاش بير سلطان هنا قبل أكثر من أربعة قرون، وشـــعره غريـــب مباشر ومجرد مثل الطبيعة هنا. وقد تم شنقه فى ســـيواس بوصـــفه شـــيعيًا متحمسًا من أنصار الصفويين الفرس والأعداء اللدودين للعثمـــانيين الـــسنة، ولكن يقال إنه رؤى فيما بعد حينما خرج من أحد أبواب المدينة تحت جـــنح الظلام، وربما تسرى روحه الآن فى الريح الباردة التى بدأت فى الهبوب.

وفى الصباح بدأنا نأخذ الطريق إلى أنقرة، وقد تلمس دلدل طريقه عبر سيواس، ومرورًا بعربة نقل تجرها الثيران، ثم أعطى بعض البنزين لشربه، أما بالنسبة لنا فكانت توجد فقط بطيخة قديمة. نظرنا بشوق إلى لوحة الطريق التى تشير إلى بوغازكوى، ولكم كان يسعدنا أن نـــزور مركـــز الحـــضارة الحيثية (رأيت ذلك بعد سنوات عديدة). ولكن ولأننا لم ننعطف إلى هنـــاك، أرسل إلينا إله الصواعق الحيثىُّ غاضبًا ثلاثة بروق قوية واحدًا بعد الآخـــر، وكانت الطبيعة توحى حقيقة بعصر ما قبل التاريخ. ويمنح نهر قزل لاســـمه "النهر الأحمر" كل الاحترام. وعندما عدنا كان بهو بيتنا فى أنقرة غارقًا فى الماء، ولكننا كنا نحتاج لأيام لننفض غبار الأناضول عن شعرنا وملابـــسنا، ونشكر الله أن عدنا سالمين من هذه الرحلة المريحة حقًا.

وفى إحدى المرات سافرت مع أمى فى الباص إلى كاســـتامونو المقـــر القديم للكومنيين، سفر جميل كثير الانحناءات خلال غابات صنوبر ضخمة، وفى أجمل مكان للرؤية جلس رجل عجوز حسدناه لأجل المكان الذى ينظر منه. "إنه أعمى!" قال السائق. وقد وجدنا تلميذى شكر بصعوبة، وذلـــك لأن الباص كان قد جاء ساعة مبكرًا، كما أننا سافرنا فى اليوم التالى نصف ساعة

مبكرًا. وكان يوجد فى المدينة بهو مسجد عثمانى، أطلال حصن ومتحف ومدرسة ثانوية. كانت هذه المدرسة الثانوية التى أنشئت عام ١٨٨٥ هى الأولى على البحر الأسود، وقد حولت كاستامونو إلى أحد أماكن التعليم للعلماء ورجال الدولة. وفى منزل شكر الذى يكاد يكون خاليًا، أعدت الأم الجميلة على نار مفتوحة وجبة شهية من الأرغفة واللحم قدمت لنا على ورق جرائد، وإلى جانب هذا صادت الأم بطيخًا من مياه البئر الثلجية. أما أن فى كاستامونو مائة وخمس وستين وصفة للشربة؛ فهذا ما علمناه فقط بعد سنوات عدة.

ومرة أخرى حملنا الباص بمناسبة عيد الفطر، فى نهاية شهر رمضان، على طرق تبدو لا نهائية إلى بورسة إحدى أول العواصم العثمانية. وجدنا فندقًا صغيرًا كنت أعرفه من زيارة سابقة، وكانت فخامته الوحيدة تتمثل فى طاووس كبير فى تكعيبة العنب فى الحديقة. وقد زرنا بعد طعام العشاء بسرعة جامع أولو (الجامع الكبير) بقبابه العشرين، والذى زين داخله بالنقوش الدينية الضخمة من كل الأساليب، وكان خرير ماء النافورة ذات الأطباق الثلاثة يملأ المكان.

وبورسة مدينة ذات معمار رائع، وهناك يرى المرء المسجد الأخضر الذى يضىء - إلى حد كبير - ببلاطه أخضر اللون. وقد نقلتنا عربة حنطور ملونة، لبست فرستها الشاطرة - بمناسبة العيد - أنشوطتين ورديتين على الذيل، إلى الهضبة؛ حيث توجد أضرحة الأعضاء الأول لبيت السلطان العثمانى. وقد سمى هذا المكان عن حق بالجبانة الأبهج فى العالم؛ فالأضرحة التى توحى بالمودة والأنس من خلال التبادل بين الحجر الجيرى الفاتح وأحجار القرميد تبدو بين شجر الشمندر الأحمر وشجر الدلب وكأنها تبتسم. والأجمل أن أحمد حمدى طانبينار كان قد اقتنص هذا المزاج فى أحد أشعاره التى كنت قد فرغت آنذاك من ترجمتها:

في بورسة فناء مسجد صغير وقديم جدًّا
داخله يخر الماء متموجًا في النافورة
وسور ما زال يقف من عصر أروخان(١٣٣)
وفي مثل عمره شجرة الدلب إلى جانبه
تسمح لليوم الربيعي بأن يسطع من كل اتجاه.
والحزن الذي هو بقية حلم
يبتسم فيه عميقًا مثلما من الداخل،
مثله مثلما ذكرى منعشة،
مثل زرقة السماء وخضرة السهول،
ومثل هذا المعمار الإلهي

ثم سافر بنا باص قديم جدًّا إلى أولوطاغ (جبل الأولمب البيثيني(١٣٤) في قيرزلي يايلا؛ حيث يزدهر الزعفران على ارتفاع حوالي ١٨٠٠مترًا، وقد أقلنا الباص حتى فندق التزحلق؛ حيث كان الجليد قد تكوم عاليًا، وهذا ما ساءنا؛ فعزمنا على أن نعود إلى يايلا وننتظر الباص، ولكن وقفت سيارة كبيرة قادمة من إزمير وألحَّ علينا في الصعود فصعدنا. وقد استمتعنا جدًّا بهواء الجبل، ولكن الكلاب الضخمة التي تقفز من الغابة لم تكن لتتركنا سالمين. وبعد شرب الشاي مع مضيفينا اللطفاء رأينا مشغوفين المدينة التي زينت الآن ليس بسبب العيد، وإنما أيضًا لأنها تنتظر في اليوم التالي رئيس الوزراء عدنان مندريس. وقد تمتعنا بالمنظر الملون للسيارات المزينة، وسيارات الأجرة الموشاة بالأعلام الصغيرة، ومرشدات الجوالة وأطفال المدارس، ثم جلسنا في حديقة عامة صغيرة يرى المرء منها المكان كله، حتى سلسلة الجبال التي تحجب بورسة عن بحر مرمرة. ومع أن للمدينة

بازارًا مشهورًا، إلا إن الأقمشة الحريرية الغالية التى تصنع هناك كانت كأنها اختفت فى بلد الأحلام.

وفى الأمسيات تنادينا الموسيقى العسكرية أمام مجلس البلديـة، والتـى كانت تجتهد فى أن تحرك مندريس وتغريه بالمارشات الألمانية والتركيـة، ولكن مندريس لم يأت، ولكن عوضًا عن ذلك جـاءت شخـصيات عجيبـة بالطبول والنايات وآلات النفخ، وقد أوسع لنا الرجال بكل عناية مكانا. كـان صبى تركى متوسط العمر يقود الرقص الشعبى التركى بنشاط هائل، وكـان الرجال فرحين بفنه ولإعجابنا به أيضًا، وحينما توقفت الموسيقى لـدى أذان العشاء، جاء الجميع ليؤكدوا لنا أن الألمان هم الأصدقاء الأفضل لهم. وفجأة أمسك كل الصبية الذين يبدون مقبضين شعلة فى اليـد وسـاروا بـالطبول والتصفير إلى الفندق حيث يظنون أن الضيف الكبير موجود هناك.

وحينما صعدنا فى تمام السادسة من صباح اليوم التالى إلـى البـاص الذاهب إلى أنقرة، تذكرت أنه منذ عدة سنوات تحدثت هناك مع رجل متوسط العمر كان قد سألنى من أين، وإلى أين؟ وحينما علم أننى أدرس فـى كليـة الإلهيات، طرح على سؤالا: "تعلمين أنه يقال إن الإسلام بنى علـى خمـس دعائم هى الشهادة والصلاة والزكاة والصوم والحج؛ ولكن الشهادة بالتأكيـد ليست دعامة أو عمودًا، إنها الأساس الذى يُحمل عليه كل هذا". فى الأساس لديه حق، ولكننى لم أستطع أن أعطيه إجابة قاطعة مقنعة.

كانت بورسة بالنسبة إلىَّ مدينة ربيعية (اسمع بصفة متكررة أنهـا قـد تغيرت بشدة)، ولكن العاصمة التالية للعثمانيين "أدرنة" كانت تبـدو وكأنهـا تنتمى للخريف. كان الطريق الطويل، من إستانبول مـرورًا بحقـول عبـاد الشمس التى تساقطت أوراق أزهارها، يجعلنى حزينة، وبالقرب من الحـدود البلغارية توحى المدينة بأنها مهجورة، ورغم ذلك فإن بها بعضًا من أجمـل مساجد تركيا، مثل الرائعة المعمارية لسنان، ومسجد السليمانية بمآذنه الأربع

المدببة، والتى تحيط بمكعب لا تشوبه شائبة هندسية، إنه شـــىء لا ينـــسى. وإلى عصر مبكر ينتمى مسجد أوج شرفلى وجامع إسكى الضخم الذى يشعر الزائر فى داخله وأمام الكلمة الضخمة "الله" بأنه مثل قزم، كذلك يوجد مسجد المرادية ذو الزخارف البلاطية، كما توجد المستشفى التى كـــان المرضـــى يعالجون فيها بالموسيقى، وهو ما كان يحدث فى أماكن أخرى فى تركيا.

أما أجمل الأمثلة على هذه المساجد - المستشفيات فتوجد فـــى شـــرق الأناضول، ثلاث ساعات بالسيارة خلف سيواس. وقد زرت سيواس مـــرات عدة لوقت قصير، أقصر ما يمكن حتى أرى العمل النحتى الرائع فى مسجد جفتة مناره لى "المسجد ذو المنارتين" الذى ينتمى إلى أكبر الأعمال الفنية فى القرن الثالث عشر، والذى ألحق به مستشفى ترى على شـــبابيكها بخطـــوط كوفية على بلاط خزفى فيروزى اللون آيات قرآنية تلمع فى الظلام. وفيمـــا سبق كانت المدينة مشهورة بسبب الأشـــغال الفـــضية الدقيقـــة والجـــوارب الصوفية، وتعد كذلك بصفة خاصة مدينة باردة كثيرة الرياح، وذلـــك كمـــا وصفها جاهد كليبى فى قصيدته "على طرق سيواس".

وسافرت من هناك مرة فى الثمانينيات مع أصدقاء باتجاه شمال الشرق، إلى ديوركى؛ حيث توجد إحدى عجائـــب المعمـــار الأناضـــولى؛ مـــسجد ومستشفى من الصخور الثقيلة الصفراء الباهتة، ويـــشبه داخـــل المستـــشفى كاتدرائية قديمة من الطراز القوطى المبكر، وقد زخرفت الحوائط والبوابـــة بورود صخرية ضخمة غريبة وبنسور ونباتات غريبة من الحجر. ويميـــل المرء إلى تصديق الروايات الشعبية التى تذكر أن أميرة هذه المنطقة وجدت، إبان بحثها عن الشفاء من مرضها الذى يبدو أن لا علاج له، درويشاً علمها - بعد طول انتظار - الأعشاب ينبغى أن تطحنها وتغليها وتشربها. وبعد أن برئت وكتعبير عن شكرها طلبت رسم صور الأعشاب فى الصخور علـــى حوائط المستشفى الذى كانت تؤسسه آنذاك. وتوجد فى الحجرة الداخلية بئـــر

يسيل منها خيط مائى حلزونى فى طبق آخر، وكانت هـذه النغمـة اللذيـذة المريحة لهذا الماء تهدئ المرضى العقليين الذين كانوا يُحضرون إلى هنا فى العصور الوسطى فى ساعات محددة.

بالنسبة إلىَّ كانت ديوركى هى المكان الأناضولى الذى هزنى بعمـق، وأنعش الطبقة الأعمق للوعى، ثم ترسخ مثل حلم، وأصبح جزءًا من الذاكرة.

كانت الجهات الأخرى أقرب إلى الروعة. وقد حاول كل الرحالة إلـى تركيا على الأرجح أن يزوروا وادى جرمة فى كبدوكية القديمة، تلك الطبيعة الغريبة وكنائسها الصخرية التى تعرض بعض النقوش والرسوم الحائطيـة المهمة، وهو عالم يبدو باستمرار - كما كتب بجمال شديد خوان غويتيسولو Goytisolo - وكأن بناءه قد تواصل تحت إشـراف المعمـارى الكتـالونى جاودى Gaudi(١٣٥) كعمل مقابل لكاتدرائية برشلونة. ومن يدرى ربما كـان الحق بجانب الكاتب الشاعر! وقد وجدنا هناك أناسًا رقيقى الشمائل أهـدونا بعضًا من الأعناب اللذيذة، كما أعجبنا بالصانعات النشيطات للسجاد اليدوى. كانوا جميعًا يعيشون فى مساكن مَغارية كانت مسكونة منـذ آلاف السنين، وكان بعض الرجال يرتدون قلانس مدببة تشبه بالضبط القمة المدببة لجبـل الصخور الحجرية.

وجدت كذلك بعض الرحلات المفاجئة، ولكنها لم تكن درامية جدًّا مثـل الرحلة إلى كليس؛ فعندما تسول لنفس مساعدى حكمت شيئًا، يجـب علـى المرء أن يكون متأكدًا من أنه سيتحقق. وعندما يسأل فى سرية فى أحد أيـام مايو الجميلة: "أستاذة، هل تأتين يوم الأحد معنا إلى جودل؟ فلا بد وأن لهـذا سببًا. تقع جودل على بعد قرابة التسعين كيلو مترًا جنـوب غـرب أنقـرة. تحركت حافلتنا فى سلام إلى هناك، وأخذت أتسلى فرحة مثلما يحدث دائمًـا بالمكتوب على السيارات التى تتخطانا: إلى اليمين تقريبًـا "أحبـك"، وإلـى الشمال "لن أنساك". وبلا ريب كان الغنى اللونى لسيارات النقـل الأفغانيـة

والباكستانية التى رأيتها فى العقود التالية أكثر إثارة من هـذا. قبـل عـدة كيلومترات من هدفنا توقفت حافلتنا. فماذا رأينا؟ وقف قرابة المئة من تلاميذ المدارس على الطريق الزراعى بدقة وعناية فى ثلاثـة صـفوف. كانـت الفتيات، فى ملابسهن الوردية أو البيضاء من ورق الكريشة المقوى، والشعر مشدود مفروق ومربوط على شكل ضفائر قوية، يحملن فى الأيـدى باقـات زهور برية. وإلى جانب هذا يحمل اثنان من الصبية لافتة ترحيب ضـخمة، بينما يقوم الآخرون بتثبيت إكليل من الزهور على غطاء جهاز تبريد الباص. وفى حديقة المدرسة قدم لنا شراب الأيران، وخلف السور تقرفصت الأمهات الفخورات، حتى يرين كيف يُبتسم لأطفالهن من قبل طلاب وأساتذة جامعـة أنقرة. وبينما كان أعيان القرية يسألون عن الأحوال فـى العاصـمة، أنـشد الشعراء الذين أحضرناهم أشعارًا حماسية عن الوطن وأتاتورك والمثل العليا لدى الشبيبة الأتراك. وكان يجب علينا أن نقدم ثناء عاليًا علـى المدرسـين الشباب، وأن نعترف بإنجاز الإصلاحات الأتاتوركيـة فيمـا يخـص نمـو الإمكانيات التعليمية الريفية.

وبسرعة ظهرت منازل جودل، واقتدنا فى موكب نصر حقيقـى إلـى شرفة المكتبة التى يجرى تجهيزها، وأنعشنا بالشاى، ثم تحدث آباء المدينـة عن معنى هذا اليوم؛ فالمرء يملك أخيرًا مكتبة. وأنشد الشعراء مرة أخـرى أشعارًا ملتهبة عن الوطن وأتاتورك والمثل العليا لدى الشبيبة التركية، ثم قدم أربعة من الصبية الصغار بعضًا من الرقص الشعبى أمـام الـشرفة، بينمـا جلست النسوة على الأسطح. وأخيرًا قدم لى مقصًا كبيرًا على طبق زجاجي؛ فارتجلت كلمة وقصصت الشريط، ولأن كلاً منا كان قد أحضر كتبا، سريعا ما بدت الحجرة المظلمة وكأنها بداية طيبة لإحدى المكتبات.

وبعد طعام لذيذ اتفقنا على استكشاف الكهوف والمغارات علـى نهـر قيرمير الذى حفر لنفسه مجرى ضيقًا عبر الصخور. وقد فـضلت أمـى أن

تبقى فى الأعلى وتستمتع بالمناظر الطبيعية المترامية، ولكن ولأنه لا يسمح بترك ضيف - وبصفة خاصة سيدة - بمفرده؛ فإنها أعطيت كحرس شرف لها مدرسا شابا فى مدرسة متوسطة تنحصر معرفته باللغة الألمانية فقط على أغنية "Lili Marleen"[١٣٦]، وكان هذا ما غناه لها دون توقف.

وقد حكيت هذا بعد سنوات للروائى التركى العبقرى أورهان باموق Pamuk الذى جاء فى روايته "الكتاب الأسود" Das schwarze Buch على ذكر جودل الغامضة، وذلك لأنه يرى أن هذا المكان لم يطأه أحد بالتأكيد.

امتاز من بين أصدقائنا فى أنقرة وقبل الجميع تورجوت بيه مدير بنك الشعب، وقد كان أيضًا صوفيًا يتلقى فى الليل إلهامًا عبارة عن قصائد صغيرة ينشرها فى مجلته Iç Varlik "كنه الوجود". ولأنه كان يعرف من خلال البنك الشعبى عددًا لا يحصى من الناس، كان يجد دائمًا مفاجآت جديدة لنا، هكذا اصطحبنا فى أحد الأيام إلى إركلى جنوب قونية؛ حيث شاهدنا بعض الأعمال المدارة من قبل بنك سومر، مثل مصانع الغزل والنسج، ومحطة للطاقة فى إيورز على منحدرات جبل طوروس، وفى أحد أحواض الماء الفوار المتحرك يلعب نوع من سمك الفورل النهرى، ويوجد على الحوض نقشًا حيثيًا يمثل إلهين يحملان عنقود عنب ضخم. وفى طريق العودة أثار أعصابى الحديث المستمر للرجال حول المال والمال والمال؛ مما جعلنى أقول على سبيل الدعابة: "إذا ما أصبح لدى مال كثير سأشترى لنفسى حصانًا!". "لا توجد مشكله! هذا ما ستحصلين عليه اليوم! أى حصان تريدين أن تحصلى عليه؟ الحصان الشاب؟ أو الفرس الحامل؟ أو الفرس البنية ذات السنتين؟" اخترت ذات السنتين Incigül أى "اللؤلؤة الوردية"؛ ولكن حينما سألت فى أنقرة، مزودة بشجرة العائلة لحصانى الأصيل، عن المأوى وكل الأشياء الأخرى الضرورية لحصانى، تيقنت أن الإصطبل وتكاليف العناية

تتخطى بشدة المرتب المتواضع لأحد الأساتذة الجامعيين، وبذلك بقيت اللؤلؤة الوردية فى مراعى إركلى.

وفى مرة أخرى اصطحبنا.مدير البنك ذو القوى السحرية معه إلى هيمانا التى تبعد على الأقل سبعين كيلومترًا عن أنقرة، والمشهورة بسبب ينابيعها الكبريتية القوية. وقد شرح لنا صديقنا ثريا باشا وهو ميكروبيولوجى فى جامعة أنقرة، القوى الطبية للأزهار التى تنمو بكثرة. لقد صيرها حقيقة صيدلية ضخمة ملونة. وفى الأمسيات، حينما يصبح الجو- فى المكان الواقع على ارتفاع قرابة ١٢٠٠ متر - باردًا، كانت تقام مأدبة مديرى نقابات الحرفيين. وبعد أن يدفئ المرء نفسه بالبيرة والراكى، أحضرت سلاطات ملونة وكفتة وكباب "من الجميل أن يرى، والأجمل أن يؤكل منه"... وعندما تحدث الجميع، وفوجئت من طلاقة لسان الرجال الذين لم يكونوا فقط فصحاء، وإنما يملكون أيضًا آراء موضوعية لحل مشاكل نقاباتهم، ولكن هذا لم يعفنى من أن ألقى كلمة ملهمة قليلاً أو كثيرًا: وكان الحديث عن شعر إقبال وفلسفته الديناميكية مثيرًا دائمًا للاهتمام، وكان التركيز على فكرة التقدم المتواصل الذى لا يكل، والتى تمثل الفكرة المركزية لأعمال إقبال، أمرًا مناسبًا فى مثل تلك المناسبات. وفى النهاية أعلنت من قبل الرجال المتحمسين عضوًا شرفيًا فى المجلس العلمى الاستشارى للنقابات.

حتى وإن كنت لم أستطع خلال سنواتى المبكرة فى الأناضول زيارة بوغازكوى؛ فإننا رغم ذلك كنا نعرف هناك معبدًا حيثيًا كنا نحبه. وحينما كنا فى قونية بمناسبة عيد مولانا وزرنا المسجد الشهير ذا الأعمدة الخشبية فى بيشهير، حكى لنا مدرس شاب عن مكان قريب مثير للاهتمام يدعى "عين أفلاطون". وبناء على ذلك عزم الأخ إسماعيل رغم الطرق الثلجية الزلجة على أن يذهب إلى هناك. انعطفنا بعد حوالى عشرين كيلومترًا من الشارع إلى ممر زراعى ووجدنا المكان. وتقوم حول العين الفوارة التى تكون بركة

صغيرة أحجار مرتفعة يمكن تبين أشكالٍ ذات أجنحة غير واضحة عليهـا. سقطت آخر أشعة شمس الشتاء الحمراء تمامًا على جناح قرص الشمس على النصب التذكارى، ثم غرق كل شىء فى ظلام بنفسجى، ولكن حينمـا كنـا نستعد للذهاب، التفتنا مرة أخرى، كان قمر انقلاب شمس الشتاء الكامل قـد ارتفع بالضبط خلف المعبد، وبدأ يموه بالفضة الماء والـصخور الـضخمة والرعاة المتقرفصين حول النار، حتى بناة هذا المعبد لم يكونوا ليقدسوه أكثر منا نحن الذين نفعل هذا الآن بشكل مفاجئ.

وقد رأينا "عين أفلاطون" مرة أخرى فى أحد عيد الفصح، وذلك حـين نبتت أول البراعم وصحبنا الصيبية الرعاة. وبينما جهز إسماعيل سـجادته للصلاة، كانت أجراس الماعز تدق فرحة.

وزرنا جورديون مرة. أنا لا تروقنى الأسوار جدًا، كذلك فـإن مقبـرة الملك التى فتحت آنذاك من قبل الأمريكيين لم تثرنى كثيرًا - مع أنها ربمـا تكون مقبرة ميداس Midas(١٣٧) الذى يتحول كل شىء فى يديه إلى ذهب. من المحتمل أن الطبيعة إبان عصر الإسكندر الأكبر لم تكن شديدة الإيحاش كما هى الآن، ولكنى فكرت فى أن لديه الحق فيما فعـل عنـدما قطـع العقـدة الجوردية بأسرع ما يمكن وواصل زحفه.

العقدة الجوردية؟ أكانت من هذا النوع الذى تضفره النسوة وينفخن فيه أمنياتهن الشريرة؟ تلك النفاثات فى العقد اللاتى ذكرن فى السورة ١١٣ مـن القرآن: "قل أعوذ برب الفلق"... "ومن شر النفاثات فى العقد". ما زالت توجد نسوة يملكن مثل هذه القوى، وذلك أن المشاعر فى المشرق جامحة فى الحب والبغض. فى جورديون بدأت أتيقن من أن الفن الذى يعقد عقدًا جالبة للهلاك لا يمكن أن يمحى من العالم بضربة سيف الإسكندر. وما إن استدرت إلـى السيارة حتى رأيت أن بعض العيون التى ملئت بغضًا قد استهدفتنى.

وفى الصباح التالى تمددت فى سريرى لا أتحرك نتيجة لمرض ملغز، وفى الوقت نفسه وصلنا نبأ وفاة الأخ إسماعيل. لقد كان هذا آخـــر فـــصل دراسى لى فى أنقرة.

الجزء الرابع

مشاهد أوروبية عارضة

(١٩٥٩-١٩٦٧)

ولكن الرياح المتناوبة التى أرسلها الله

تدفعه جانبًا عن طريقه المنشود،

حتى ليبدو وكأنه سيستسلم لها،

ولكنه يحاول بهدوء أن يخدعها،

مخلصًا لهدفه، وإن كان الطريق معوج.

يوهان فولفجانج فون جوته

من ماربورج إلى بون

حقيقةً فإن لويزا برتولد لم تحد بالكامل عن الصواب بنصيحتها التي تقول "يا طفلتي، الرجال هم أعداؤنا". على كل حال هكذا بدا لي الأمر في خريف ١٩٥٩ لدى عودتي من أنقرة إلى ماربورج. مع أنني أُعطيت إجازة بشكل قانوني منتظم، ومن ثم ينبغي أن يعاد تعييني حالاً، ولكن مُوطِل لعامٍ في الأمر، وذلك لأن بعض الزملاء - كما يحدث كثيرًا - نشروا عني كل ألوان الإشاعات - وربما اقتصر الأمر على زميل واحد كان معروفًا بمكائده (كان لدينا في الولايات المتحدة قرابة الستة من الزملاء الذين غادروا ألمانيا بسببه). ومثلما يكون دائمًا، كان على أمي أن تحميني معنويًا وماديًا أيضًا.

ولكن ارتسم في الأفق حلاً أدى فيما بعد إلى نتائج إيجابية غير متوقعة. ألا ينبغي أن تكون ماربورج ١٩٦٠ مكان إقامة مؤتمر الجمعية الدولية لتاريخ الأديان؟

"بالمناسبة فإنني أعني" - يقول المرء في روما،
ليس بعيدا عن كاتدرائية بيتر الشهيرة،
"ماربورج ينبغي ألا تدمر"، ولكنها
اختيرت مكانًا للمؤتمر،
وما دام في الجامعة
الصديق فريدريش هايلر يدرس الصلاة
وإلى جانب هذا فإنه لشعار جميل،
يسعد روح القديس رودولف أوتو.

الآن يحتاج فريدريش هايلر على عجل لمساعدين، ومن هنـا فـإننى جئت فى الوقت المناسب. وانقضى النصف الأول لعام ١٩٦٠ فى الإعـداد والتنظيم. ويستطيع أن يتصور ما عشناه كل من استطاع مرة بقليل جدًّا من المال ومن المساعدين أن يعد مؤتمرًا لقرابة خمسمائة مشارك، وذلـك فـى مدينة ساحرة لم يوجد فيها آنذاك أى فندق. وأعنى بضمير الجمع هنا الرئيس (هايلر) ووجودى المتواضع والسيدة بويمان (سكرتيرة هايلر، كانت امـرأة رائعة ظللت على علاقة صداقة معها حتى آخر حياتها الطويلـة) ومـارتين كراتز الذى بقى مخلصًا حتى وقت قريب لمجموعة العلوم الدينية للجامعـة. الكمبيوتر لم يكن قد وجد بعد، وماكينات التصوير لم تكن قد بـدأت تحقـق انتصاراتها المتصلة، وهكذا كنت أجلس يومًا بعد آخر لأكتب المحاضـرات المطولة على ورق الشمع، وإبان ذلك أرد على المراسلات التى أرتنا الزملاء في ضوء ضعفهم الإنسانى، وهكذا كتبت قصيدتى "الأزل والمآب" (وكان هذا هو موضوع المؤتمر):

من يعد الأمنيات، يعرف الأسماء

التى جاءت إلى المكتب

فأحدهم يضع أهمية على السرير الوثير

والآخر على الفوط النظيفة.

وكتب البروفسير فلان

"أريد بكل سرور

أن تكون حجرتى بعيدة جدًّا

عن الزميل علان!"

"حجرة بسرير" – يالها من نغمة!

"شرط ضرورى جدًا، ولن أحضر بدونه!"

وسيأتى أمير حقيقى من اليابان

ولا بد للكل من أن يحترمه!

لأجل هذا جاء من بون

واحد من البروتوكول

وشرح ما يجب أن يكون،

وما يسمح به وما لا يكون.

يسمح لسائقه وحارسه

أن يناما فى غرفة مزدوجة متواضعة

هل يحتاج كل خادم حمامه الخاص؟

أماتراسو أعطنا نصيحتك!

"أحتاج إلى حجرة متواضعة بعيدة عن الناس،

لأنها - كما تشرح السيدة فلانة -

تشخر بشكل مرعب!"

"أنا متصوف بسيط - لا آكل اللحوم

ولا البصل ولا الثوم ولا الجبنة ولا البيض،

لا بد من أن يقلى خضارى فى السمن،

وأن تحجز لى غرفة فردية من الدرجة الأولى!"

ولماذا يحتاج راهب هندوسى لسرير؟

ألا يكفيه لوح خشبى ممسمر؟

مثل هذه الإخباريات جاءت فى الأسابيع الأخيرة وبشكل يكاد يكون يوميًا:

هذا يقول نعم وذاك لا -

اضطراب ما قبل الخلق يبدو قريبًا

تعلمنا أن ننظر حتى إلى حارسات الملابس

بوصفهن مشكلة من قبيل "نكون أو لا نكون"...

ولكننا حققنا كل هذا، ونجح المؤتمر نجاحًا لا ينكر. وكان المرء - ولوقت طويل - يتذكر هذه الأيام البهيجة رغم كل المضايقات. وقد تمتع الأمير ميكاسا Mikasa على ما يبدو بكونه الرئيس الشرفى، وكان يلذ لى المساعدة فى التجهيزات لعشائه الاحتفالى. وفى البيت - وكنا قد انتقلنا للمرة الرابعة فى ماربورج - احتفلنا بعيد ميلاد س.ى. بليكر، ولهذا فإن دفتر التشريفات لدى يحتوى على جميع أسماء مجلس رئاسة "الجمعية الدولية لتاريخ الأديان". وبعد طعام الغذاء هرولت إلى الجامعة لأنوب عن مرثيا أليادا الذى اعتذر - كما هو ليس بالنادر - فى الدقيقة الأخيرة عن محاضرته. كون بعض التوترات موجودة؛ فإن هذا مما لا يمكن تجنبه، وذلك أن الجميع لم يكونوا سعداء بأن يتيسر لهايلر فى بعض المرات أن يربط بين علم الأديان وأخوة الأديان.

كان عام ١٩٦٠ يمر، وكان وضعى الذى لا أمل فيه يعذبنى. هل ينبغى أن أهاجر إلى الباكستان؟ ولكن هذا أيضًا لا يبدو حلاً مناسبًا. وهنا جاءتنى فى يناير ١٩٦١ دعوة غير متوقعة. كان الرئيس الباكستانى أيوب خان الذى قابلته فى أكتوبر ١٩٥٨ بعد أيام قليلة من بدء توليه الحكم فى كراتشى، جاء فى زيارة دولة إلى بون. سافرت إلى هناك وفى حقيبتى فستان سهرة جديد جميل، وكنت رغم سرور التطلع مكروبة جدًا. قرب المساء ذهبت إلى فندقى الصغير عبر حديقة الفناء - ألا يكون من الأفضل أن أقفز فى نهر الراين؟

ولكننى رأيت ضوءًا من بعيد فى معهد الاستشراق؛ فذهبت وصـــعدت الدرج العالى. "شميلين!" نادانى أوتو شبيس Spies الذى اتفق أنه كان يلقـــى منذ لحظات درسًا خاصا حول نص قانونى. "هل جئت بسبب أيــوب خـــان؟ سنمر عليك ونصطحبك من الفندق!". وبعد بضعة أسئلة لا أهمية لها سألنى: "عندى وظيفة شاغرة، أستاذ ومستشار علمى، حقيقة هى ليست جيدة بما فيه الكفاية لك...، ولكن هل تأتين إلى بون؟". "هل آتى؟" فجأة طابت الحياة مرة أخرى. سيقول المتصوفة: الشمس تسطع فى منتصف الليل. اتصلت بـــأمى وأنا فى قمة السعادة وتمتعت بالمساء الذى التقيت فيه بالكثير من الأصـــدقاء الباكستانيين ومن بينهم قدرة الله شهاب أحد مثقفى وكتاب البلد البارزين.

وفى بداية الفصل الدراسى لعام ١٩٦١ أعيدت إلىَّ وظيفتى القديمة فى ماربورج. كنت كذلك فى الباكستان لعـــدة أســـابيع، ولكنـــى رجعـــت دون مصوغاتى التى كانت قد اختفت فى منزل مضيفى، وفى مقابل ذلـــك عـــدت بقطعة "ريللهى" رائعة، وهى عبارة عن غطاء ملون الخياطة بعدد لا يحصى من المرايا الصغيرة التى كانت تتكلف، كما حكى لى، قبل وقت طويل "ثلاثة جمال جيدة"، وما زالت تلك القطعة تزين حجرة معيشتى حتى الآن.

وفى الأول من مايو ١٩٦١ بدأت التدريس فى بون، وقد ســـمح لنـــا أصدقاء طيبون بأن نستعمل شقتهم لمدة شهرين، ولكن أمى أمسكت منذ اليوم الثانى بالجريدة لتبحث عن شقة ووجدت شيئًا بدا لها مناسبًا. وعندما عـــدت عصرًا من المعهد كانت تجلس فى الكرسى الهزاز وتقـــول ظـــافرة: "لقـــد وجدتها!". وهكذا أصبحت شقة ٤٢ شارع لينهرشتراسه بيتنا الحقيقى.

وقد تمتعنا ببون منذ البداية؛ فقد كان شيئًا نموذجيا أن تسكن فى بيـــت جميل قديم بالقرب من الجامعة ووسط المدينة ومحطـــة القطـــارات ووزارة الخارجية. وهذا لم يكن فقط نموذجيا بالنسبة للعمل وللزيارات الجديدة من كل العالم، ولكن سعدت أمى أيضًا بأن تكون بالقرب من نهر الراين الـــذى كنـــا

نتمشى على شاطئه فى صباح أيام الأحد، كما كنا نفعل فيما مضى فى وقت الطفولة على شاطئ نهر شتيجر فى إيرفورت، ثم نعود فى حوالى الثانية عشرة لنتناول كأسًا صغيرًا من الشرى.

كان التدريس يسعدنى كما هو الحال دائمًا، مع أنه بالتأكيد فى تركيا لم يكد يحدث مرة أن رفض أحد الطلاب الحضور إلى دورة اللغة الفارسية معللاً ذلك بقوله: "لأننى ألعب التنس فى هذه الساعة". وفى مقابل ذلك فلا يوجد طالب يضع قدميه على الطاولة، وذلك عندما يتحدث أو تتحدث معى كما رأيت فى هارفارد. وكان ينتمى إلى أول مجموعات الدروس العربية ثلاثة شبان موهوبون جدًا: تيلمان ناجل Nagel وجيرد ر. بوين Puin وجيرنوت روتر Rotter. ومما يؤلمنى بصفة خاصة أن الأخير لعب بعد أكثر من ثلاثين سنة دورًا غير سار، ولم يكن ذلك عن قصد منه، عند الجدال حول جائزة السلام، ولكن على ما يبدو توجد آليات أكيدة ينقلب تبعًا لها التلاميذ – والناس على عمومهم أيضًا، وبصفة خاصة الذين يقدرهم المرء – على من علمهم أو يخذلوه إنسانيًا. على كل حال فقد حدث هذا معى عدة مرات. ألم يقل الشاعر الفارسى سعدى:

لا أحد تعلم فنون الرمى منى

إلا وجعلنى فيما بعد هدفًا له.

أعطيت إلى جانب الدروس العادية بالاشتراك مع مدرس اللغة العربية الفلسطينى عازر دورات فى اللغة العربية للدبلوماسيين الشباب الذين رأيت الكثير منهم فيما بعد فى المشرق. وعلى كل حال لقد كانت العلاقة مع وزارة الخارجية، ومع سفارات البلاد الإسلامية مثيرة لاهتمامى أكثر من التدريس. لقد تمتعت بالاستقبالات الكبرى، بداية فى قاعة بيتهوفن، وأحيانًا فى

بيترسبورج وعلى فترات متباعدة أيضًا فى قصر البرول. ومما لا ينسى أول مثل هذه الاستقبالات (بعد الذى كان لأيوب خان) للملك المغربى محمد الخامس، والذى قدمنى إليه رئيس البروتوكول شفرتزمان بقوله: "إنها تتحدث العربية!" مما جعل الرئيس الاتحادى لوبكة يغمغم بين أسنانه قائلاً: "ياللخيبة! ولكن هذا لا تستطيعه زوجتى!"، ومن ثم كان ينبغى على المرء أن يبقى رزينًا مهذبًا طوال المساء!

كانت مثل هذه الاستقبالات تحدث طوال العام، وكذلك استقبال السفراء المختلفين، وعلى الأخص الذين قدموا من العالم الإسلامى. وبسرعة أصبح السفير الباكستانى من أفضل الأصدقاء، وكانت معارضه الثقافية - على سبيل المثال عروض الأزياء - تسعد سكان بون. كذلك اعتنيت بالعلاقات الجيدة مع ثقاة الدبلوماسيين الأتراك. وفى كولونيا كانت السفارة الإيرانية قبل عام ١٩٧٩ مركزًا للحفلات أيضًا. وقد استمر هذا لوقت طويل، وذلك حتى نشأ هناك بعد عام ١٩٧٩ شكل جديد صارم لقواعد التلاقى. وقد جعل المقر الأسطورى للسوريين واللقاءات البهيجة مع الكويتيين والمصريين والآخرين الكثيرين سنوات بون، وبالطبع الأوقات التى كنت أقضيها هناك بين فصول هارفارد الدراسية، فى منتهى السعادة. وقد وجدنا الكثير من الأصدقاء فى بون - أكثر من أن نذكرهم جميعًا شاكرين - حيث التقينا أعضاء لا يمكن حصرهم من وزارة الخارجية، وسيدات من حلقة الدراسات الإنسانية، وقد بقى بعضهن حتى الآن صديقات مقربات، بل ويمكننى أن أكتب عن كل منهن رواية أو على الأقل قصة مشوقة... وهل يمكننى أن أنسى كيف قامت سيسيليا، الإيطالية ذات الدم الحامى، زوجة السفير وعالمة الأتروريات(١٣٨) والموحية ببعض الرحلات إلى محلات الأحجار الكريمة فى إيدار- أوبرشتاين، بخطفى عام ١٩٨٢ من المستشفى، وذلك حتى تجعلنى أطبب فى المنزل بواسطة طبيبة شابة كانت صديقة لها؟ لقد كان كل يوم فى بون يحمل

ومنذ بدايته جديدًا: صدقات تتعمق أو تنحل ببطء، دون ألم أو مؤلمة بين فترة وأخرى، وباختصار، لقد أصبحت بون بيتًا حقيقيًا.

فكر وفن

لا بد وأن ذلك كان فى نوفمبر من عام ١٩٦٢، حين زارنا ألبرت تايلا Theile لأول مرة؛ ففى هذا المساء وقف أمامنا رجل فى منتصف العمر، قصير القامة إلى حد ما، وذو عينين داكنتين مفعمتين باليقظة، وكنا قد دعوناه إلى كأس من النبيذ. قبل ذلك بقليل كان قد بعث إلىّ عددًا من المجلة الثقافية "هومبولت" التى يصدرها بالإسبانية، والتى نشر فيها ترجمتى لقصيدة يحيى كمال "رقص إسبانى" مع صورة مغرية لراقصة فلامنكو. والآن فإنه يجلس بيننا ويحكى لنا عن حياته وأعماله. لقد كان لوقت طويل فى تشيلى؛ حيث أصدر هناك إبان فترة اللجوء مع أودو روكسر Rukser مجلة سياسية أدبية بعنوان "أوراق ألمانية"، ثم ذهب إلى اليابان وهو الآن فى سويسرا. سألته أمى: "ولكن كيف كانت بدايتكم؟"؛ فأجاب بقوله: "أخ، أول عمل كبير قمت به كان مجلة قد لا تعرفينها مطلقًا كانت باسم بوتشرشتراسه". وكان بهذا الإجابة قد وقع على من عندهم الخبر اليقين! فالخالة ميّا عاشت لسنوات طويلة فى فوربس – فيدا، ولأنه كان لنا أقارب فى بريمن؛ فإن ملك القهوة وراعى الفنون لودفيج روسيليوس Roselius كان بكل تأكيد اسمًا معروفًا لنا. وكم تعجبت وأنا ما زلت طفلة من المعمار الغريب لشارع بوتشرشتراسه، وكنت أنظر – إلى حد ما دون فهم – إلى أعمال برنهارد هوتجر Höttger الذى كان ضيفنا صديقًا له. وهنا أخذت أمى تسأل عن كل الجزئيات الصغيرة فى أوساط حى فوربس فيدا، وقد أجيب عن كل الأسئلة بطريقة مرضية، بما فى ذلك ما يتعلق بالراقصة غريبة الأطوار سنت ماهيسا، وبناء على ذلك قررنا أن نأخذ الحكايات عن اليابان وتشيلى والأماكن الأخرى على أنها حقيقية بما فى ذلك مسقط رأس ألبرت فى دورتموند – هوردا.

بالطبع كان للزيارة هدف عملى هو أن وزارة الخارجية تريد أن تصدر - بموازاة مجلة هومبولت التى تصدر بالإسبانية والبرتغالية - مجلة ثقافية عربية، وقد عهد إلى تايلا بإنجاز هذا العمل، ومن ثم فهو يبحث عن مستشرق متخصص. كان هذا الواجب هو بالضبط ما كنت أحلم به فى السر دائمًا: وسيلة تركز على توطيد العلاقات الثقافية بين الشرق والغرب، على أن تكون راقية جميلة الإخراج. ومع مرور الوقت أصبحت "فكر وفن" مجلة رائعة تصدر باللغة العربية مرتين فى العام فى حجم يبلغ عدد صفحاته ستًا وتسعين صفحة. وكان كل عدد يخصص لموضوع محدد، ويحتوى على إحدى لوحات فن الخط الشهيرة معدة على ورقة مزخرفة (وقد زينت هذه الأوراق الكبيرة المطوية داخل العدد فيما بعد الكثير من البيوت، بل والمساجد أيضًا فى العالم الإسلامى). وكان العدد الثالث هو أول الأعداد التى حققت نجاحًا حقيقيا، وكان قد خصص لفن الخط الزخرفى؛ حيث بحث فى معنى وأهمية الخط فى العصور الوسطى الغربية، وتأثيرات فن الخط الزخرفى فى الشرق على فن التصوير الغربى الحديث؛ وقد ضم العدد كذلك أشعارًا عن الخط وأشياء أخرى كثيرة. أما العدد الخامس فقد خصص لموضوع "الحيوان الذى لم يوجد" Einhorn (أحادى القرن)؛ فهذا الحيوان يظهر بشكل متكرر ليس فقط فى العصور المسيحية الوسطى، وإنما أيضًا فى الفن الإسلامى، سواء أكان هذا فى المنمنمات أم فى النقوش السلجوقية أم على الخزف. وقد ترجمنا إلى العربية عن الأدب الغربى نص أنجريد باشير Bachér " أرجوحة أحادى القرن" وترجمنا فى المقابل عن العربية قصيدة توفيق صايغ الملغزة "بضعة أسئلة لأطرحها على الكركدن". وخصص العدد العاشر للنساء فقط، بل واقتصر فى إعداده على النساء. وهكذا سارت الأمور؛ حيث كان كل عدد يحتوى - على الأقل - على مقالة فلسفية وأخرى علمية، وكذلك على سيرة لأحد المستشرقين الألمان. وكذلك كنا ننشر بكل سرور الترجمات عن اللغات الشرقية، وهكذا عرفت الكثير عن الشعر

العربى الحديث، عن بدر شاكر السياب، وعن الشاعرة العراقية نازك الملائكة، والفلسطينى محمود درويش، وعن الفيتورى الشاعر السودانى - المصرى المملوء بالحيوية. أما أشعار عبدالوهاب البياتى، والتى أحبها بشكل خاص؛ فقد قرأتها بداية فى براغ فى الترجمة التشيكية لكاريل بتراتشك Petráčeks، ولكنى وجدت أن النصوص العربية كانت إلى حد ما أيسر فهمًا. وفى كل عدد تقريبًا كنت أُقَرِّب بعض التجارب من العالم العربى غير الإسلامى، سواء أكان ذلك مقالة عن التأثيرات العربية فى الهند، أم ترجمة عن الشعر الأردى أم مداخل إلى أعمال جلال الدين الرومى أو محمد إقبال. وكان السبب أننى علمت من خلال أسئلة مترجمينا - لا بد من الثناء بصفة خاصة على مجدى يوسف - كم هى ضيقة معرفة العرب، خاصة المثقفين منهم، بثقافة الشعوب الإسلامية الشرقية؛ ومن ثم فقد اجتهدت فى أن أقدم لهم شيئًا من الثراء الهائل للإسلام الفارسى أو التركى أو الوسط - آسيوى أو الهندى - إندونيسى. ألم تكن سمرقند وبخارى حصونًا للتعلم الإسلامى فى العصور الوسطى المبكرة؟ ألا يبتهج كل مسلم بجمال تاج محل؟

ولكن لم يكن العمل العلمى فقط هو الذى بهرنى بالعمل فى "فكر وفن"؛ فقد أسعدنى بالمثل إصدار المجلة مع متخصص من الطراز الأول. لقد علمنى أن أقوم بواسطة المقص والغراء بعمل انقلاب كلاسيكى، وأن أعد صفحة ما بطريقة جمالية، أن أضيف هنا تصويرة وأن أستخدم هناك قطعة شعرية كحشوة. لقد كان الأمر متعة رائعة، خاصة طوال فترة عملنا مع مطبعة أغسطين المشهورة منذ زمن طويل فى جولكشتاد، وذلك قبل أن يعتمد على الحاسوب.

وكان للعمل أيضًا جوانبه المفرحة؛ فقد كنا نسافر إلى المتاحف والمعارض، وكان ألبرت يحاول أن يدربنى على تفهم الفنون الحديثة. ورغم أن إعجابى بكل شىء لم يكن عامًّا، إلا أننى تعلمت بذلك الكثير. (أما شغفى

بأعمال ماجريت Magritte[١٣٩] فقد تطور فقط بعد وقت طويل). وكذلك كنا نذهب بين الحين والآخر إلى المسرح ابتـداء مـن My fair Lady "سـيدتى الجميلة" وحتى إخراج بيجار Béjart المبهر لعرض La damnation de Faust "لعنة فاوست" فى أوبرا باريس. هكذا "عُلمت". وحينما كنت آتى إلى سويسرا للعمل فى المجلة فى إدارة التحرير فى أونتراجراى، فقد كان يسبق هذا طقس معتاد هو تناول الغداء فى "فاليسركانه" فى زيورخ، ثم السير مرة عبر شارع محطة القطارات. وكان الطريق ينتهى دائمًا لـدى شـبرنجلى فـى ميـدان الاستعراض؛ حيث جنة المتلذذين. وفى النهاية يوجد أيضًا مطعم أوسـترن الصغير للوجبات الخفيفة فى شارع المحطة. وهذا يعنى أننى كنـت أتعلـم بعض الأشياء الدنيوية إلى جانب العمل.

ولكن حينما عينت فى هارفارد، لم يعد ممكنًا الاستمرار فـى العمـل بالطريقة القديمة، وإلى جانب هذا وجد النقاد أن مجلتنا نخبوية جدًّا، ولكننا لم نرغب فى تغيير الأسلوب، وقد أدت صعوبات شتى إلـى اسـتقالتى عـام ١٩٧٤، وذلك بعد عشر سنوات من العمل الأكثر إبهاجًا. وحينما ترك ألبرت العمل فيما بعد أيضًا، عرضت على مؤسسة أنترناتسيونس[١٤٠] أن أضـطلع بإدارة التحرير بمفردى، ولكنى لم أرغب فى هذا، ولم أجرؤ عليـه أيـضًا. هكذا وصلت المجلة إلى أياد أخرى، وقد أبعدت نفسى عن هذا كله، ولكنـى أفكر بين حين وآخر فى هذا العمل الثرى الجميل.

ما مر لا يعود

ولكنه يهبط مضيئًا

ولوقت طويل للخلف

تنتظرنى على كل حال واجبات أخرى.

زيارات لبراغ

تعود اتصالاتي مع الزملاء في براغ أيضًا إلى سنواتي الأولى في بون؛ فبعد أن تعرفت عام ١٩٦٣ على العلامة العجوز للدراسات الإيرانية يان ريبكا Rypka وزوجته مارية إبان زيارتي الأولى لإيران (انظر ص ٣٢٦)، دعاني الاثنان لزيارة براغ. وقد رافقني ألبرت الذي كان يعرف براغ منذ فترة طويلة، وقد تمتعت بالمدينة الرائعة، وتمتعت كذلك بالمسرح السيريالي Laterna Magica (خيال الظل)، وقابلت لأول مرة الكثير من الزملاء الذين أصبحوا بسرعة أصدقاء لي. وذلك أن ريبكا المعني بتراث الاستشراق النمساوي، كان قد أصبح إلى حد ما "قطبًا" كما في التصوف، وتحول إلى "محور" وإلى "نجم قطبي" للاستشراق التشيكي. وكان يؤثر إلى جانبه المستعرب فليكس تاور Tauer الذي تميز بين أشياء كثيرة بوصفه مترجمًا ممتازًا لحكايات ألف ليلة وليلة. وكانت هناك مجموعة الشباب، وفيما بينهم كان يان ماريك Marek بصفة خاصة مهمًا بالنسبة إلى عملي، وذلك أنه كان أحد الأوروبيين القلائل الذين يتمتعون بمعرفة كاملة للأردية والهندية، وقد ترجم أشعار غالب وإقبال وكذلك الأشعار الثورية للشاعر الباكستاني فايز، وكانت كتب رحلاته (مثل Dvá krat Pakistan "باكستان مرتين") عن الحالة السياسية والثقافية لإقليمي باكستان، وكذلك كانت انطباعاته عن الهند عبارة عن تفاصيل مثيرة للاهتمام جدًا وصور بديعة ممتازة. وقد أصبح يان وزوجته كيرلا مثل أشقاء لي. وقد تيسرت لي مرات كثيرة دعوته لإلقاء محاضرات في ألمانيا، وقد كان دائم الحضور إلى كل المؤتمرات التي تتعلق بالأدب الأردي، حتى وإن اضطر إلى السفر بالباص من براغ إلى بروكسل أو قرطبة، وذلك مثلما حدث في عام ١٩٩١ حينما أقمنا في قرطبة احتفالاً دوليًا بإقبال؛ حيث طرح بي أرضًا هناك أمام الفندق وسرقت حقيبة يدي. كان أحد مساعدي ريبكا الأعزاء هو دارس الإيرانيات يرجي بتشكا Bečka

الذى كان يركز على الأدب الطاجيكى، ويعمل بنشاط على تاريخ الاستشراق فى الأدب التشيكى. وقد أصبحنا كذلك أصدقاء بسرعة، ووجد بين حين وآخر لقاءات بهيجة مرحة فى شقته فى منزل تحت الحصن من القرن الخامس عشر. فى بعض المرات كنت أجزع بسبب نقد الضيوف المفتوح لأوضاع البلد، بينما البوليس يعسعس باستمرار تحت الشرفات المفتوحة، وكان ذلك فى بداية أغسطس ١٩٦٨ وقبل أسبوعين من دخول الروس. كذلك اشترك يرجى فى الاحتفال الكبير بمناسبة الذكرى الألفين وخمسمائة لإيران، وإبان سفر الباص الطويل عرضت عليه أن يعلمنى قليلاً من اللغة التشيكية. وهذا ما قام به وكان أول مافعله (بعد أن زعم أنه ملحد!) أن بدأ بكلمتى "الله" و"الملاك". وقد أصبحت هذه التسلية وملء الفراغ مفيدة فيما بعد؛ فعندما كان يان. جوندا Gonda يحرر كتابه الضخم "تاريخ الأدب الهندى" History of Indian Literatur (الذى أسهمت فيه بدراستى "الآداب الإسلامية فى الهند" و"الأدب السندى") عرض على يان ماريك أن يكتب مقالة "الأدب الأردى الكلاسيكى"، ولكن يان أجاب بأنه لا يستطيع لأنه من غير المسموح له أن ينشر فى الخارج الرأسمالى، ثم ألا تستطيع "أخته أنّا مارى" أن تقوم بهذا؟ وبعد أن رفض العارف الآخر بالأردية أليساندرو باوسانى Bausani لأسباب صحية وأحال كذلك على "أخته أنّا مارى" كان يجب علىّ متطوعة قليلاً أو كثيرًا العكوف على العمل. لحسن الحظ وصلنى مخطوط يان التشيكى الذى ترجمته بشجاعة، غير أنى قررت أن أحول كل البروليتاريا (أبناء الطبقة العاملة)، التى تظهر فى النص كالأشباح انطلاقًا من أسباب أيديولوجية، إلى دراويش، وأن أحول كل الحكام الطغاة إلى ملوك عاديين، وذلك لأننى أعلم أن مثقف الكتلة الشرقية المسكين يستخدم مثل هذه التعبيرات بسبب الحاجة فقط، وليس عن اقتناع.

ورغم أننى جئت فقط مرة واحدة فى السبعينيات إلى براغ، إلا أن ذكرياتى عن حلقة المستشرقين هناك كانت حية جدًا؛ فهناك كان إيفان هربيك

الذى تدين له البلاد بترجمته الجيدة جدًّا للقرآن، والتى بيعت بعـد ظهورهـا بوقت قصير إبان الاحتلال السوفيتى، وأسرة فيسلى اللذين مـثلا العربيـة والتركية، وقبل الجميع كان يوجد كاريل بتراتـشك المـستعرب ذو اليـدين الكبيرتين بشكل لا يعقل، والذى نبهنى للمرة الأولى إلى أشعار عبد الوهـاب البياتى التى نقلها إلى لغته الأم. لقد فتنت بها وتفرغت لترجمة بعض منهـا، وهى التى نشرناها فى "فكر وفن". وقد التقيت ببعض المستـشرقين بـشكل عابر، وذلك لأنه فى براغ كانت توجد أيضًا توترات بين الـزملاء، ولكنهـا كانت خاصة لأسباب سياسية أكثر خطرًا منها فى أى مكان آخر، ثم أصبحت بالطبع بعد الغزو السوفيتى، خاصة فيما يتعلق بتوزيـع الوظـائف، أكثـر وضوحًا.

الجزء الخامس

على الجانب الآخر للأطلنطى

(١٩٦٧-١٩٩٢)

لا بد وأن يكون القلب مستعدًا،

مع كل نداء حياة، للوداع

والبدء من جديد،

لأن يعطى نفسه بحزم

ودون حزن

لارتباطات أخرى جديدة.

وفى كل بداية توجد رقية

تحمينا وتساعدنا لنعيش.

هيرمان هيسه

مؤتمر ماربورج يواصل تأثيره؛ ففي صيف ١٩٦٤ جاء كين مورجان Morgan إلى بون حتى يسأل عما إذا كان يمكنني مساعدته في تنظيم المؤتمر التالي للجمعية الدولية لتاريخ الأديان، والذي سيقام، ولأول مرة في العالم الجديد، في كلارمونت بكاليفورنيا. كنا نعرف بعضنا منذ مؤتمري طوكيو وماربورج. لقد كانت دراسة الأديان بالنسبة إلى كين مسألة قلبية، وذلك للمساعدة من خلالها في بناء الجسور. وتصور كتبه التيارات الدينية المتنوعة، ولكن ليس انطلاقًا من وجهة النظر التاريخية الفيلولوجية، وإنما من خلال أقوال المؤمنين. وقد أسس في جامعة Colgate في شمال نيويورك، وفي بيئة لطيفة مركزًا دينيا Chapel House به مكتبة ومجموعة فنية، والكثير من أسطوانات الموسيقى الدينية، مما جعل المكان نقطة التقاء مثالية.

ومن ثم كانت أول زيارة لي إلى أمريكا الشمالية؛ حيث طرت في أغسطس ١٩٦٥ إلى لوس أنجليس، وقد تم استقبالي واصطحابي من قبل طالبين لطيفين، ونزلت لمدة ثلاثة أيام في ضيافة جوستاف فون جرونباوم الذي كان قد أنشأ هناك في الجامعة مركزًا كبيرًا للعلوم الإسلامية، وأعطى الكثيرين من الزملاء الأوربيين الشباب والطلاب إمكانية أن يعملوا هناك لفترة، وفيما بعد أسس تحت إشرافه ميدالية لتخليد ذكرى المستشرق الإيطالي الكبير ليفي ديلافيدا DellaVida، والتي يقام مؤتمر قيم بمناسبة منحها لأحد العلماء المعروفين. كنت أشترك بكل سرور في مثل هذه المؤتمرات، ولكني لم أنتظر أبدًا أن أكرم هكذا بها عام ١٩٨٨. وكان موضوع هذا المؤتمر - وكيف يمكن أن يكون شيئًا آخر - مولانا الرومي.

أراني الزملاء لوس أنجليس الأخطبوطية، والتي لم أفهم تخطيطها قط حتى إبان زياراتي الكثيرة فيما بعد. ومن لوس أنجليس كان الذهاب إلى مقر

معهد بومانا المعروف جدًّا والقريب نوعًا ما من كلارمونت، وقد أنزلت لدى أرملة لطيفة لأحد القساوسة، وكانت توجد قيثارة فى حجرة المعيشة مما جعلنى أظن أننى قد أصبحت بين الملائكة.

انطباعاتى الأولى: حينما كنت أذهب فى الصباح عبر الحديقة إلى مكتب المؤتمر القادم، فوجئت بأن النغمات الموسيقية تنبعث من الجزء الخلفى لرجل يحش حشائشه، مذياع ترانزستور صغير لم يكن قد وصل آنذاك إلى بون أو على الأقل لم يكن قد وصل إلىَّ. ولا أريد أن أكتم أننا ذهبنا فى إحدى العصارى غير المشغولة إلى ديزنى لاند القريبة؛ حيث دخلت إلى ماكدونالز للمرة الولى والوحيدة فى حياتى.

لم يكن الترتيب لمؤتمر يخطط فيه لإشراك خمسمائة مشارك – حتى وإن كانت بعض مشاكل ماربورج غير موجودة – بالأمر اليسير. كانت إحدى الصعوبات الخاصة أن كلارمونت "جافة"، أى لم تكن توجد خمور داخل حدود المدينة؛ فماذا نفعل لنبقى المشتركين فى حالة من المزاج الجيد؟ هنا ذهبنا بوجوه بريئة لمضيفتى العزيزة لنستعير سيارتها لأغراض مهمة، ومن ثم سافرنا إلى المدينة المجاورة؛ حيث أحضرنا كميات محترمة من المادة المنعشة للروح لأجل راحة ضيوفنا وانبساطهم. ولكن – رغم هذه اللفتة الجميلة – لم ينجح المؤتمر نجاحًا خالصًا؛ حيث وجدت توترات شديدة بين الزملاء الأوروبيين والأمريكيين؛ فبينما يدافع الأوروبيون، تحت قيادة الرئيس السابق للجمعية جيو فدينجرين، عن الخط التقليدى التاريخ – فيلولوجى، تمنى الأمريكيون علمًا أقرب ما يكون إلى علم ينسحب على الإنسان (آنذاك لم يكن علم اللاهوت الاجتماعى والتنظيرى مسيطرًا كما هو اليوم). ولأجل هذا انصرف المرء وهو غير سعيد؛ فكيف ينبغى للعمل أن يسير؟

وفى صباح أحد أيام المؤتمر دعانى ويلفريد كينتويل سميث Smith من هارفارد، وشرح لى – فى جمله التقليدية الطويلة والمعقدة – مشكلته، وهو جالس فى الدهليز على أريكة عتيقة الطراز: مسلم هندى غنى، هو السيد أوتسى دورانى ووظيفته كيميائى، كسب فى الولايات المتحدة الأمريكية من خلال اختراعه "لأرز الدقائق" ثروة طائلة، والآن ينبغى أن يذهب المال لصالح إحدى الجامعات التى يجب أن تهتم مقابل ذلك بترجمة أشعار شاعرى الأردية البارزين غالب (ت ١٨٦٩) ومير (ت ١٨١٠)، وأن يكون ذلك بطريقة مشابهة لما فعل إدوارد فيتزجرالد Fitzgerald قبل مائة عام بتجذيره وتوطينه "لرباعيات" عمر الخيام فى العالم الغربى، وهى مهمة على درجة من الصعوبة تشبه ترجمة "مرثيات دوينو" إلى اللغة الصينية الحديثة. هارفارد – هكذا تبعًا لمحدثى – ستحصل على هذا المال، ولكن المرء لا يستطيع أن يؤسس كرسى أستاذية لعمل ترجمى من هذه النوعية، وإنما يجب أن توضع المهمة فى إطار أوسع؛ فمن يستطيع أن يضطلع بمثل هذه المهمة؟

دون تردد قلت: "يان ماريك من براغ؛ فمدرسة براغ من الطراز الأول!"

"العياذ بالله! إنه يعيش فى الكتلة الشرقية!"

قلت: "نعم، ولكنه الرجل المناسب لهذا!"

"لا، لا، ومن يأتى خلاف ذلك فى الحسبان؟"

قلت ببراءة: "الآن لم يبق إلا أليساندرو باوسانى فى نابولى؛ فهو فيلولوجى ممتاز وذو اهتمامات علمية واسعة".

"ولكن لا! لقد كان فى شبابه عضوًا فى الحزب الشيوعى الإيطالى".

"ولكنه مع ذلك بهائى!"

"لا، هذا غير ممكن، ماضيه..."

ومع أننى لم أفهم ذلك فقد واصلت تجريب حظى: "الوحيد فى أوروبا الذى يمكن أن يأتى فى الحسبان هو رالف راسل Russell فى لندن."

"يا إلهى، ولكنه لا يزال فى الحزب الشيوعى!"

"هذا ما لم أعرفه!" قلت ببعض الغضب: "لا يوجد فى خزانتى أكثر من هذا".

ولأنى لم أفكر فى تحفظات الحقبة المكارثية؛ فقد خرست.

"ماذا نفعل؟"ما زلت ألتزم فى الصمت.

قال ويلفريد: "نعم، نحن نريد حضرتك!"

"ولكننى لا أريد!" قلت وأنا مرتبكة: "فأنا غير متخصصة فى الأردية، ولا أرى مطلقًا أن لدىَّ القدرة على نقل هذا الشعر الصعب للغاية إلى إنجليزية شعرية!"، وقد قاومت بالأيدى والأقدام، ولكن هارفارد لم تكف عن الإلحاح، تلجرافات وزيارات من الزملاء. ماذا نفعل؟ وفى مايو ١٩٦٦ طرت إلى برنستون لأجل مؤتمر بين الأديان، وربطت ذلك بزيارة لهارفارد، وقد فزعت عند رؤية المبنَى المتواضع المبنِىّ بالآجر فى شارع هارفارد يارد؛ حيث لا تكاد تورق الأشجار. أيمكن مقارنة هذا بجامعة بون الجميلة وحديقة فنائها؟ ورغم ذلك فقد تفاوضت مع العميد. وفى برنستون قدمنى ويلفريد – الذى حول نفسه من عارف ممتاز بالإسلام الهندى إلى محامٍ لأموال أرز الدقيقة – إلى جيم كيرى المحامى النيويوركى الذى كان منفذًا للوصية، وقد تواصلنا مباشرة بطريقة جيدة، ووجدتنى زوجته غير "ألمانية" بالمرة، وإنما كما قالت: "أنت تبدين حقيقة مثل فتاة نيويوركية!" وهل كنت أتمنى منها مديحًا أقوى؟ بدون جيم كيرى كانت حياتى فى هارفارد ستصبح

أكثر صعوبة. كان من خريجي هارفارد، ويعرف كل خصوصيات الحياة التى بدت لى غريبة كليًا، وقد فطننى فى المسائل الحقوقية، وفى الأشياء الضريبية، وباختصار فى كل ما لا يتعلق بالأشعار الشرقية، وإنما بالمسائل الحياتية العلمية. ولقد كان أيضًا هو الذى أقنع هارفارد بأن الاتفاق المتمنى من جانبى هو المناسب لكل الأطراف، وذلك يعنى أن ألقى كل المحاضرات والتدريبات فى فصل دراسى، وأن أستغل فصل الخريف لخططى ورحلاتى الدراسية. وما زلت وبعرفان بالجميل أتذكر جيم الذى لم تعد نيويورك مثلما كانت فى حياته، حينما كنا نتحاور طويلاً، وتسعده نجاحاتى، ونذهب لنأكل معا - بصفة خاصة طعامًا يابانيًا. وكم راقنا ومزحنا حينما ردت النادلة الصغيرة على طلبى لنبيذ "شرى جاف!" Dry Sherry متسائلة دون خلفية: "هل السلى الداف يكون بلا ماء؟" Dly serry is dat witout water?

وبعد المقابلات الأولى مع العميد والمستشارين القانونيين تقرر مصيرنا، وكان واجبى التالى أن أشترى الكتب الأردية من الهند والباكستان، وذلك لأن الكتب الأردية الثلاثة أو الأربعة المتيسرة فى مكتبة ويدنر Widener، والتى هى فيما خلا هذا مفرطة فى الغنى، لا تكفى - رغم الإرادة والنية الحسنة - لتأسيس اختصاص جديد. وهكذا كان علىَّ أن أبدأ حياة جديدة.

ثلاث عواصف ثلجية

عندما هبطت فى بوسطن فى أول مارس ١٩٦٧ سقطت من السماء عدة ندف ثلجية لا تكاد ترى. وقد استقبلنى صديقى القديم ديك فراى Frye وهو بروفسير كرسى الأغاخان للدراسات الإيرانية، واصطحبنى إلى عشاء لم يكن شهيًا جدًا فى بيت السجق "الألمانى" فى ميدان هارفارد فى مركز خريجى رادكليف؛ حيث كنت أسكن فى أول فصل دراسى لى فى هارفارد

فى شقة صغيرة عملية، ثم ودعنى قائلا: "سأمر عليك فى الصباح الباكر". وسقطت فى سريرى دون أن أتوقع شرًا. وفى الثامنة صباحًا دق جرس التليفون. "آسف، لا أستطيع أن أصطحبك، لدينا عاصفة ثلجية، ولا أجد سيارتى تحت الجليد!". ماذا أفعل؟ لم يقل لى أحد إن الحذاء الشتوى يمثل قطعة الملابس الأهم فى شتاء ماساتشوستس. وبعد قليل من التدبر انتصر الإحساس البروسى بالمسئولية على الخوف، وخضت بشجاعة فى الجليد الذى يرتفع لأعلى الكعبين، وحينما وصلت إلى القسم الذى نقل آنذاك إلى ١٧٣٧ كيمبردج ستريت، لم أجد غير سكرتيرة تنظر إلىَّ مندهشة: "لا أحد يأتى فى مثل هذا الطقس بالمرة". حتى الطاهية الممتازة، مسز بلاك فضلت أن تبقى فى البيت. وهكذا عشت على سندويتش هدية (يشبه هذا ما حدث يوم امتحان الأستاذية فى ماربورج؛ حيث وجدت بشق الأنفس طبق حساء من المطعم الشعبى).

لقد كانت هذه هى البداية فى هارفارد، ولكن سريعًا ما تبعت ذلك مفاجآت أخرى؛ فقد أسند إلىَّ تدريس جدول لغير المتخرجين عن التاريخ الإسلامى، ولكن ذلك لم يكن من واجباتى؛ حيث إن لدىَّ فى مجال الثقافة الهندو- إسلامية ما يكفى من محاضرات وتدريبات، وبخلاف ذلك فماذا يكون هؤلاء غير المتخرجين؟ إنهم غير موجودين لا فى النظام الألمانى، ولا فى النظام التركى. وعلى العموم لماذا ينبغى على المرء أن يقول للطلاب كل أسبوع بالضبط أى الصفحات من أى كتاب ينبغى عليهم أن يقرأوا للمحاضرة القادمة؟ ألم يكونوا أناسًا أذكياءً يستطيعون أن يجدوا بأنفسهم المواد الدراسية فى المكتبة؟ وإلى جانب كل المحاضرات كنت أجلس فى كل دقيقة خالية فى طابق البدروم الأعمق للمكتبة، وذلك حتى أراجع كتب الأردية الواردة من الهند والباكستان وأقوم بفهرستها (ألفبائيًا). كان الشتاء لا يريد أن ينتهى، وكان قلبى فى ألمانيا؛ حيث تعاون أمى أختها الصغرى التى ماتت فى أورش بالسرطان، وحيث كان صديقى العزيز فريدريش هايلر يرقد هو الآخر على

سرير الموت. أكان عجيبًا إذن أننى انهرت مع نهاية الفصل الدراسى ونقلت بالتهاب فى الوريد إلى مركز هارفارد الصحى؟ وقد حاولت أن أوضح للطبيب منافع علقة الدم، ولكنها كانت حيوانات لم يسمع عنها كما يبدو من قبل، وحينما سمح لى بعد أسبوع - باعتبارى قد شفيت - بمغادرة المستشفى كانت ركبتى فى حجم البرتقالة، ولكنه قال دون تأثر: "أنا غير مهتم بركبتك، وإنما فقط بوريدك الملتهب!" وبالتالى لم تعد ركبتى أبدًا إلى طبيعتها. آه يا بلد الإمكانات غير المحدودة!

حصلت العاصفة الثلجية الكبيرة الثانية عندما كنت أطير عائدة فى فبراير ١٩٦٩ من شبه القارة إلى بوسطن بعد أن توقفت ليوم فى بون. احتفلنا في كراتشي ودلهى بذكرى وفاة ميرزا غالب المائة، ولأننى فى هارفارد بخصوص شعره؛ فقد كان ينبغى علىَّ أن أشارك فى الاحتفال، وكان من الجميل أن ألتقى هناك بالكثير من الزملاء، خاصة من الكتلة الشرقية. ولكنى كنت أريد - أو كان يجب علىَّ - أن أكون فى هارفارد فى يوم ثلاثاء، ففى هذا اليوم يوجد الاختيار السنوى لطلبة الدراسات العليا الجدد الذين سيسجلون فى القسم، ومن ثم فهو أشبه بيوم الحساب؛ حيث يقرر فيه المستقبل الأكاديمى للشباب. كان المعهد يحتوى على الكثير من كراسى الأستاذية التى تمتد منطقة تخصصاتها من السومرية، وحتى الدراسات التركية، وفقط يمكن تقييد من اثنى عشر حتى خمسة عشر طالبًا، وذلك لأن الجميع يحتاجون - كثيرًا أو قليلاً - لمساعدة مالية كبيرة تختلف قيمتها من قسم لآخر. وكان على الطلاب أن يقدموا شهاداتهم الجامعية، وإيضاحًا لمقاصدهم، وبيانًا بطريقة تدبرهم لاحتياجاتهم المالية، ومن ثم يوزعون على كراسى الأستاذية المختلفة كل تبعًا لما سجل نفسه له. من الطبيعى والواضح أن توجد صراعات صغيرة بين الزملاء، على سبيل المثال مثل ما بين دارسى العبرية أو الآشورية الذين يريدون ما أمكن ثلاثة أو أربعة طلاب وبين الأقل تمثيلاً بصفة دائمة مثل متخصصى الدراسات التركية أو

متخصصى الأرمينية أو الفارسية، ومن ثم كنا نخشى هذه الاجتماعات، وكنت أريد حتمًا أن أكون موجودة، وذلك حتى أدلل على اهتمامى الجدى بالعمل حتى وإن كنت لم أقرأ الملفات بشكل مسبق هذه المرة.

قبل بوسطن بقليل جاء صوت من كابينة القيادة: "توجد عاصفة ثلجية فى نيوإنجلند - مطار لوجان مغلق وسنطير إلى فيلادلفيا، وسيتم نقل الركاب تبعًا لحالة الطقس غدًا أو بعد غد". ماذا نفعل؟ ألا يستطيع المرء أن يستخدم القطار؟ سيتحرك قطار من نيويورك إلى بوسطن فى الثالثة ليلاً! بدأ بعض الشجعان يسيرون باتجاه محطة القطارات. وقد وصلنا فى حوالى العاشرة إلى محطة نيويورك بن. كانت الصالة غير المريحة لدرجة تجل عن الوصف تمتلئ ببطء؛ وذلك أن كل طائرات بوسطن كان قد تم تحويلها. كنت أحرك حقيبتى الثقيلة لسنتيمتر بعد آخر بل وأجلس عليها أحيانًا. وفى حوالى الثانية ليلاً كنت مقتنعة بأننى لن أصل مطلقا إلى بوسطن. وفى وقت ما فتحت عينى مرة أخرى فظننت أننى بدأت أدخل بالتأكيد فى حالة من الهذيان، وذلك لأن الشخص الواقف بجانبى "لا يمكن" على الإطلاق أن يكون حقيقيا، ولكننى لمست بإصبعى "الشبح" بحذر؛ فسألنى: "أنا مارى. ماذا تفعلين هنا؟" واستطعت فقط أن أجيب: "ويلفريد. ماذا عساك تفعل أنت هنا؟" لقد كان زميلى ويلفريد كينتويل سميث الذى جاء من تورنتو، ويريد مثلى حضور الاجتماع نفسه. وحينما فتح المدخل إلى رصيف المحطة (هذا يحدث فى الولايات المتحدة الأمريكية دائمًا فى الدقيقة الأخيرة!) هجم على حقيبتى ثم "جلسنا" حقيقة فى القطار، ولم يهدأ ويلفريد حتى وجد ربما سيارة الأجرة الوحيدة التى كانت فى بوسطن فى ردغة الجليد، وأوصلنى حتى شقتى. وبعد ثلاث ساعات ظهرت فى الاجتماع، وكنت أبدو بلاشك كمريضة، ولكننى فيما بدا لى قد كسبت احترام بعض الزملاء الذين كانوا يقفون آنذاك موقفًا أقرب إلى الارتياب من الزميلة الألمانية.

جاءت العاصفة الثلجية الثالثة فى فبراير ١٩٧٨. كنت قد اشتغلت عصر الاثنين فى البيت مع أحد الطلاب، وحينما ذهب سقطت مرة أخرى من السماء ندائف ثلجية رقيقة ، وفى الصباح كنت أريد أن أفتح باب المنزل، ولكنه لم ينفتح، كان قد تراكم أمامه قرابة تسعين سنتيمترًا من الجليد. وكانت حالة من الطوارئ شاملة كل المنطقة المحيطة ببوسطن؛ فلا توجد رحلات جوية ولا قطارات، بل إن هارفارد نفسها كانت مغلقة لأول مرة منذ بدايات القرن التاسع عشر. فقط بعد مرور عدة أيام استطاع المرء أن يخرج قليلاً إلى الخارج، ولكن بقيت فى بادئ الأمر كل الاتصالات مقطوعة، وفى يوم الجمعة اتصل بيتر(١٤١)، أحد طلابى الجزويت، مستفسرًا: "هل تأتين اليوم للعشاء؟" فوافقت. وقرب المساء زحفت فى حذاء الجليد بين تلال الجليد إلى هدفى. "تعالى إلى المطبخ!" نادى بيتر. فماذا رأيت؟ كانت تتحرك على طاولة المطبخ خمس وحدات ضخمة من سرطان البحر! "ومن أين يا ترى حصلت عليها؟" قال ضاحكًا: "صباح اليوم تحرك مترو الأنفاق للمرة الأولى، وهنا لبست وجاك "ياقة الرهبان" وذهبنا إلى الميناء، ولأن الصيادين كلهم كاثوليك إيرلنديين؛ فقد كانوا سعداء حينما رأوا راهبين كانا أول زبائن لهم منذ أربعة أيام". لقد كان مساء بهيجًا.

اتصلت صباح الأحد – كما هو دائمًا – بأمى، وضحكنا من قلوبنا على حفلة الجمبرى، ولكن عندما اتصل بها أحد المعارف عصرًا حتى يستفسر كيف اجتزت العاصفة الثلجية تعثرت وانكسر عنق الفخذ، وتم اكتشافها فى الصباح التالى فقط بفضل انتباه وملاحظة ساعى البريد، ونقلت إلى المستشفى، وما إن أخبرنى بعض الأصدقاء حتى طرت فى الحال إلى بون وفى حقيبتى النسخة الأولى من كتابى The Triumphal Sun "الشمس الظافرة" الذى كان قد وصلنى فى آخر بريد، واستطعت بالتالى أن أجيب عن سؤالها المندهش، بل والغاضب تقريبًا: "ماذا عساك تريدين هنا؟" بقولى: "أن أحضر

إليك كتابى الصادر حديثًا عن الرومى!". سمح لها بعد قليل بمغـادرة قـسم العناية المركزة، وبدا أنها تتعافى بسرعة، وذلك حتى خذلتها قواها (كانت فى الواحدة والتسعين من عمرها) ونامت فى سلام.

إلى من ينبغى أن أكتب الآن خطابًا يوميا كما حرصت على فعل ذلك منذ سنوات؟ الآن أفكر فى رثاء إقبال لأمه الذى يقول فيه:

من سينتظر فى البيت داعيًا لى؟

ومن سيقلق إذا ما تأخرت الخطابات؟

لسوف أنزل فى قبرك السؤال:

من سيفكر الآن فىَّ أثناء صلاة العشاء؟

ولكنها أمى، "الخالة ماما"، المحبوبة جدًّا للكثير من الأصدقاء الـشباب فى الشرق والغرب، وستبقى دائمًا حاضرة حضورًا حاميًا لى حيثما كنت.

هارفارد، المنفى الغربى للروح

بالطبع ليست هارفارد عواصف ثلجية فقط، ولكن الشتاء القـارص ذا الرياح العاصفة، التى تهجم من كندا، يجعل المنطقة غير مريحة، حتى فـى مايو لا يكون المرء فى مأمن من الجليد؛ ولكن إذا ما نقصت الورود الحقيقية يستطيع المرء أن يرى ويعجب لمجموعة الأزهار الزجاجية الـشهيرة فـى متحف بيابودى؛ حيث قلدت الزهور التى لا تحصى بالضبط بالزجاج تبعًـا للعلوم الطبيعية، وذلك حتى تخدم كأمثلة محسوسة.

كانت شقتى الأولى فى شارع هارفارد التى تقع لحسن الحظ بـالقرب من المعهد، مريحة عن حق، هذا بغض النظر عن ابتلاء الكثير من مبـانى هارفارد بالصراصير، والتى أصبحتُ - كذلك كثيرون غيرى - خبيرة فـى

مكافحتها. بعد شارعين ولد إ. إ. كمنجز Cummings[١٤٢] الذى سرعان ما أصبح ينتمى إلى مجموعة شعرائى المحببين، وكنت قد اكتشفت وأنا فى أنقرة إحدى قصائده المبكرة جدًّا:

بالكامل فى الأخضر

يذهب حبى القلبى ليمتطى

صهوة جواد ذهبى كبير

فى البكرة الفضية

وتذكرنى أشعاره دائمًا بسجاد جوبلين القروسطى الفاخر. وفى أيام الشتاء الرمادية فى هارفارد كانت تعزينى صوره المصيبة لزوجات الأساتذة:

سيدات كمبردج يعشن فى أرواح مفروشة

غير جميلات ولهن عقول مريحة

(أيضًا ببركة الكنيسة البروتستانتية،

بنات لا رائحة لهن، غير مخروطات،

ومملوءات بالحماس)

يعتقدن فى المسيح ولونجفيلو، وكلاهما ميت

يهتممن – بشكل لا يتغير – بالكثير

وحتى وقت الكتابة مازال المرء يجد

أصابع مشغوفة تقوم بأشغال يدوية لأجل –

هل هم البولنديون؟ ربما،

وبينما تتحفظ الوجوه التى لا تتغير فى الابتسام

تنفجر فضيحة السيدة نون والأستاذ لام...

حتى وإن كان الكثير من أشعار كمنجز تتنصل من الفهم بنبراتها المتشظية وبتجديداتها البنائية غير المنتظرة؛ فإنه كانت توجد لديه دائمًا - وبشكل متكرر - لحظات شعرية سحرية، وكذلك سخريات لاذعة ضد الولايات المتحدة الأمريكية.

من بين واجبات كرسى أستاذية الثقافة الهندو- إسلامية، كما حدد المتبرع، الترجمة الشعرية لأشعار غالب ومير، وهكذا تم - قبل أن آتى - تكليف أحد الباكستانيين بترجمة أشعار كلا الشاعرين إلى نثر إنجليزى، ثم أرسلت مادته الخام (ويا لها من مادة خام!) إلى شعراء أمريكيين. وقد أُنتجت بواسطة هذا الإجراء أشعار أمريكية لطيفة حقا، ولكنها كانت بعيدة بعد السماء عن الأناقة البلاغية المهذبة للأصل، وذلك أن شعرًا فارسيًا أو أرديًا ليس بكل تأكيد شعر مناسبات كما نعرفه، وإنما عمل دقيق معقد للغاية من أشكال بلاغية نمطية موجودة منذ قرون، ومن أجل هذا نريد أن نوصل إلى الطلاب أساسًا ثابتًا فى الثقافة الهندو- إسلامية، وذلك حتى يتيسر لهم فهم أى تاريخ فكرى شامل ينبغى على المرء أن يعرفه حتى يفهم الشعر الشرقى بشكل صحيح. ومن هنا فإن نطاق تخصصنا يشمل تاريخ الإسلام فى شبه القارة الهندية، الذى بدأ فى عام ٧١١م وكذلك يشمل اللغة العربية القانونية اللاهوتية، والفارسية التى كانت لغة الأدب والإدارة منذ القرن الحادى عشر (وكانت للهندوس حصة مستفيضة فى ذلك أيضًا) لعدد لا يحصى من الممالك التى ترجع إلى وسط آسيا، وكذلك اللغات المحلية مثل السندية والبنجابية والبشتونية (كانت البنغالية تعلم بصفة خاصة فى شيكاجو). وكذلك كان تاريخ الفن من بين هذا، وكان يدرس من قبل كارى ويلش Welch. وباختصار فقد كان من الواجب علينا أن نتناول كل العلوم الإسلامية.

بالنسبة إلى الأردية فقد كنت أحتاج إلى Lektor أى مدرس أردى للأردية؛ فقد عشت مع المدرس الأول - وكان مؤرخًا باكستانيا بلكنة بنجابية

ثقيلة – ألوانًا من الكروب، وذلك لأننى لم أكن أعلم آنذاك شيئًا عن القواعد المعقدة عن الترقية أو التوظيف. فهارفارد تنتهج مبدأ "التهم يا طائر أو مت!". وقد تحدث خريجو الجامعة فى بداية القرن عن "لا مبالاة هارفارد الباردة" مع طلابها، وأيضًا كما تأكدت فى السنوات الأولى مع مدرسيها المستوردين. وبعد أن تغلبت على المنغصات أصبح براين سيلفر Silver مساعدى للغة الأردية، وهو روح رقيقة وموسيقى كبير وأحد الأجانب القلائل الذين يعجب بعزفهم على السيتار(١٤٣) حتى فى شبه القارة، وهكذا فقد أحضر معه لونًا جديدًا فى الدرس. وحينما اضطر بعد ثمانى سنوات – تبعًا للقواعد – إلى ترك القسم، وأن يصبح مديرًا لبرنامج الأوردو – هندى فى صوت أمريكا، رشح على آسانى Asani خليفة له. وقد أصبح على (إسماعيلى من كينيا) خليفة لى فى عام ١٩٩٢، وكنت أشرف عليه فى هارفارد منذ سنته الثانية (Sophomore). وقد تمكن من خلال موهبته التربوية أن يرفع عدد طلاب الأردية من دارسين قلائل للأردية كمادة جانبية إلى ما بين خمسين أو ستين فى الفصل الدراسى الأول، وهذا بغض النظر عن نجاحاته فى دورات الإسلام، وهكذا كنت أستطيع أن أنسحب وأنا راضية؛ "فابنى العزيز" مستمر فى قيادة المشروع.

نحن، أعنى قسم لغات وثقافات الشرق الأدنى (NELC)، كنا قد نقلنا فى السنوات الأولى إلى المبنى الضخم فى ١٧٣٧ كمبردج ستريت، ثم كان ينبغى علينا بعد وقت طويل أن ننتقل مرة أخرى إلى المقر الأصلى للقسم فى متحف الساميات، رقم ٦ فى جادة ديفينيتى، والذى كان قبل عدة سنوات مقرا لمكتب هنرى كيسنجر Kissingers. ولأن الترميم قد طال وقته فقد نقلنا لمدة سنتين إلى مبنى احتياطى كان يذكرنى – وبشعور قوى بعدم راحة – بالخدمة الإجبارية؛ ففى الدور الأرضى توجد روضة للأطفال كان ضجيجها يشوش على عملنا بقوة. هذا الترحيل كان يعنى أيضًا أن الغذاء الجماعى سيتوقف،

والذى يمكن للمرء خلاله ليس فقط أن يحصل ب-٩٩ سنتًا على طعام جيد، وإنما يدخل فى ذلك أيضًا الأحاديث اللطيفة مع الزملاء والأساتذة الزائرين، والتى تمتد من تخطيط الأسرة فى العصور الإسلامية الوسطى، وحتى المخطوطات الفارسية النادرة أو أيضًا عن تطور الروايات البوليسية حول الإمام الثالث عشر، وهو الموضوع الذى كان أحد المدرسين يقوم بكتابته. أحيانًا كان المرء يستطيع كذلك أن يكتب روايات عن حياة الزملاء والطلاب.

وكلما طال هذا كلما أصبح أكثر، وذلك لأننى كنت أذهب - بكل سرور - إلى طعام الغذاء مع "أعزائى الصغار"، ولقد حاولنا فى ماربورج أيضًا أن ندعو الطلاب على الأقل إلى فنجان شاى. وكنت أحب مثل هذه المناسبات، وذلك لأن المرء يفهم من خلالها وبشكل أفضل لماذا قل الجهد فجأة أو لماذا كان بحث الفصل الدراسى عديم الفائدة. ربما توجد مشاكل مع الوالدين، أو ربما يعانى الطالب أو الطالبة حبا فاشلاً، أو أن القطة الحبيبة قد ماتت، أو كما هو الحال وهو أمر ليس بالنادر، أن تنمو الغيرة بين زملاء الدراسة إبان الصراع الصعب على درجات الامتحان. لقد كانت الغيرة إحدى المشاكل الرئيسية التى كانت تسمم فى بعض الأحيان جو هارفارد، ولم يكن كل الزملاء يعرفون كيف يعالجون هذه المشكلة على الوجه الصحيح.

أخيرنا انتقلنا إلى مقرنا الأصلى فى مبنى متحف الساميات، الذى حصل على اسمه بسبب المتحف الصغير فى الدور الأرضى الذى أعد لحفريات المشرق القديم، وكان أمينه يعتنى به بحب؛ حيث كان يهتم بنقل إعجابه الشخصى إلى الأطفال وغير المتخصصين. وأمين المتحف هذا هو كرناى جافين Gavin، وكان راهبًا إيرلنديًا تدوى ضحكته القلبية فى المبنى كله. كنت أحب طريقته التى تختلف بشدة عن سكان نيوإنجلند ذوى الروح "المصنفرة". وكانت مفخرة المتحف تتمثل فى صور الأماكن الشرقية بما فيها مكة، والتى تعود إلى القرن التاسع عشر، والتى وجدت بعد اعتداء صغير

بالقنابل على مكتب كيسنجر على أرضية السقف المحطمة، وقد تم نشرها المرة بعد الأخرى. وكان لكرناى شبكة من العلاقات تمتد من الأرستقراطيين الأوروبيين حتى وجهاء مكة، وقد كان من المؤسف أن الأسقف الكنسى الجديد لم يسمح له بالبقاء فى وظيفته فى نهاية الثمانينيات. وبين حين وآخر كانت تنظم معارض للصور، وأتذكر معرضًا لطيفًا لصور مساجد هندية وجزئياتها الجميلة الممسوحة، وقد سمح لى باصطحاب الملكة الأردنية نور خلال المعرض. وكما يحدث دائمًا فقد حرص كرناى على وضع نسخ جميلة من الأعمال الفنية تحت التصرف، وذلك حتى يساعد المتحف ماليًّا.

وعلى بعد دقائق قليلة من قسمنا كانت توجد مدرسة ديفينيتى ثم – وهو المهم بالنسبة إلينا – "مركز دراسة أديان العالم" أو ما يسمى بتهكم محبب God's Motel أى "فندق الله". كان يبدو مثل فندق على الطريق، وكان هدفه تشجيع الحوار بين الأديان؛ حيث يمكن للطلاب القادمين من تقاليد دينية متنوعة أن يحصلوا على شقة صغيرة، وكانت تقام فى حجرة الاستراحة حفلات كثيرة تمنع فيها الكحوليات بتاتًا، وذلك لأن ويلفريد كينتويل سميث – الذى كان ولوقت طويل مديرًا للمركز – كان لا يحسن الظن بمثل هذه الأشياء الشيطانية. (وهكذا لم يكن من السهل لطالب مسلم ضرير أن يهرب إلى حجرته زجاجة أو زجاجتين من المشروب المفسد للروح – لأنه لن يكون واثقًا على الإطلاق إذا ما كان الأستاذ بالقرب أم لا.)

كان الاهتمام البين– دينى لدى طلابنا قويًّا، وكان "فندق الله" ملتقى للناس من كل أديان العالم. وأحيانًا كانت تلتئم هناك حلقة دراسية لفصل دراسى، وهكذا أقمت هناك مع دارسة الهنديات الفرنسية شارلوته فاودفيل Vaudeville حلقة بحث حول الشكل الهندوسى للحب الإلهى bhakti والحب الإلهى فى التصوف الإسلامى وهما متشابهان جدًّا. وقد عملت أنا وعلى مع سندى–هندى من دلهى، هو موتيلال جوتفانى Jotwani على أشعار مكتشفة

حديثًا لمتصوف سندى من القرن السادس عشر، وقد تمتعنا جدًا بالعمل التفسيرى المعقد والمخاطر الكثيرة للأخطاء المضحكة.

وقد ظهر إلى أى حد كان الطلبة متعددى الأديان حينما قدمت حلقة بحث حول ظواهرية الدين، معتمدة فى ذلك على عمل فريدريش هايلر؛ فمن بين أكثر من ستين طالبًا عددت أكثر من أربعين من الطوائف الدينية؛ من راهب جزويتى إلى راهب بوذى سيريلانكى يتنافر حذاؤه الشتوى الضخم مع ردائه الرهبانى الأصفر)، ومن اليهودى الأرثوذكسى إلى الميثوديين، ومن الوهابيين الباكستانيين وإلى متصوفات أمريكيات.

وفى عام ١٩٧٠ قدمت لأول سلسلة محاضرات عن التصوف الإسلامى، وقد كانت المحاضرات محبوبة جدًا، ويستخدم كتاب Mystische Dimensionen des Islam "الأبعاد الصوفية للإسلام" الذى انبثق عن هذه المحاضرات فى ترجماته إلى اللغات المختلفة (آخرها الروسية). وحينما وصلت آنذاك إلى مفهوم "الغربة الغربية" للروح لدى السهروردى، رأى أحد طلابى الجزويت بكل حق أن هذه بالتأكيد إشارة إلى "منفاى" فى هارفارد. كذلك كانت الدورات عن مولانا الرومى جميلة، حتى إننا كنا ننسى أحيانًا الزمان والمكان، ولكن فى سنوات أخرى كان الإحباط يزيد من الطلاب الذين لا يعرفون كيف يزنون الشعر الفارسى، ولا يملكون الحس لفهم الحب الصوفى الممض للشاعر. لكن إحدى ذكرياتى الغالية ترتبط بإحدى سلاسل محاضراتى المبكرة عن الرومى، التى اشترك فيها جون الأمريكى المرشح للعمل فى وزارة الخارجية، والذى كان فيما بعد ضمن الرهائن الذين قبض عليهم فى إيران فى عام ١٩٨٠. وبعد سنوات طويلة كان من المصادفة أن يقضى عطلته فى هارفارد فى عام ١٩٩٢، وذلك حينما كنت ألقى محاضرة الوداع التى قام فيها الرومى بالطبع بدور مهم. وسألنى جون عما إذا كان يسمح له بإضافة شىء، ثم حكى للطلاب كيف إنه أنشد فى

الحبس الإيرانى شعرًا للرومى وإقبال، وكيف إنه عومل نتيجة لذلك من قبل سجانيه بطريقة مختلفة تماما؛ لقد عدوه واحدًا يعرفهم ويعرف أفضل ما في ثقافتهم ويحبه، وبالتالى لم يعد عدوا، ولكن صديقًا. هل كان للمرء أن يتصور خاتمة أجمل لخمسة وعشرين عامًا من التدريس فى هارفارد من الأشعار الصوفية بوصفها واسطة بين عالمين يبدوان متعاديين؟

كانت صورة الطلاب - الذين يأتون إلى الحلقات الدراسية الأساسية أو بوصفهم دارسين لعلم جانبى - ملونة، وكانت الأطياف تمتد من جولشان "سياج الورد البرى"، (الطالبة الإسماعيلية الجذابة من شرق أفريقيا، التى تبدو مثل ابنة لى، والتى كنت أنصت معها كثيرًا إلى جون بايس Baez)، إلى فيلر Wheeler الذى لم أكد أفهم فى البداية (مثل آخرين أيضًا) إنجليزيته؛ فقد كانت لكنته الجنوبية، الشكل الجنوبى للإنجليزية الأمريكية، قوية جدًا. لحسن الحظ كان المرء يفهم عنه بشكل أفضل اللغات الشرقية التى كان يتعلمها بسهولة لا تعقل، ثم علمها فيما بعد أيضًا. ولكن والحق يقال فإنه بوصفه جنوبيًا مثاليًا كان أيضًا غير متسامح مع الطلاب غير الموهوبين جدًا. كان يعزف سكوت جوبلين Joplin ببراعة مثل كل ما كان يقوم به، وكنت أجد متعة كبيرة فى الراجتيم، ولكن فقط بعد أن عزفت فيرونيكا يواخيم Jochum فى أثناء حفلة لموسيقى شوبرت قطعة لجوبلين كقطعة إضافية، أقدمت أنا أيضًا على الاعتراف أمام الأوروبيين الصارمين بحبى لهذا النوع من الموسيقى، ولكن فيلر أصبح بمرور الوقت أحد أفضل العارفين بالثقافة المغولية والمترجمين لها.

وكان يوجد هناك أيضًا أمير راجبوت[١٤٤] الجميل جيتندرا الذى كان يدرس تاريخ الفن، وزوجته الفرنسية ذات الثقافة الرفيعة، ومن خلاله تعرفت على بعض أميرات الراجبوت مثل راجماتا فون جودبور الذكية، ومثل الأميرة سوزان فون بارودا، اللتان كانتا تستريحان بين حين وآخر على

أريكتى غير الأنيقة جدًّا لدى زيارتهما له فى مستشفى بوسطن. وكان القط الأسود المحبوب طوفان يكاد يكون الشخصية الأهم فى منزل جيتندرا. وقد راقبنا بغم كيف عانى جيتندرا فى طقس هارفارد ثم مات بفظاعة نتيجة ورم فى المخ.

وكذلك وجد محمد الأناضولى الذى يملك قلبًا صوفيًّا، والذى خدم الاستشراق بعد أطروحة للدكتوراه عن "الأشعار التركية للسلطان المملوكى قنصوه الغورى" بأن افتتح محلا لمعروضات طريق الحرير القديم (سجاجيد وجواهر وأشياء أخرى كثيرة) فى واشنطن، وأطلق عليه اسم Woven History "منسوجات تاريخية"، والذى يقدم لزواره صورة عن ثراء شعوب وسط آسيا.

وهناك كانت مارجريت، دارسة الفلكلور المتخصصة فى أفغانستان، وماريا الأوكرانية الرقيقة والوحيدة فى كل هذه السنوات التى عشتها التى استطاعت أن تجيب فى امتحان الدكتوراه حتى عن أكثر الأسئلة شذوذًا وهى تبتسم. وقد تميز بيل جرهام Graham من خلال نشاطه الكبير فى العلم والإدارة حتى أصبح عضوًا لا نظير له فى القسم. ومما لا ينسى الوقت الذى جاء إلينا فيه حسين وزوجته مهاشتي التى كان ذكاؤها مثل جمالها، وأحضرا معهما نفحة روحانية إيرانية. وأحيانًا أيضًا كان يأتى إلينا شباب ألمانى نابغ. تقدم لهم الولايات المتحدة الأمريكية إمكانات تطور أفضل مما يقدمه لهم وطنهم.

ومن بين طلبة الدكتوراه المتنوعين جاءت مرة مجموعة كاملة من الجزويت الذين يدرسون فى وستن كولدج ويتخصصون فى الوقت نفسه فى الاستشراق بات الأيرلندى المتحمس الذى يعمل فى نيجيريا، وبيتر اللبنانى الأصل الذى كان عزيزًا على الجميع بفضل فكاهته وفطنته الممتازة، وكانت أطروحته عن "معصية الشيطان والخلاص فى التراث الصوفى الإسلامى" أطروحة تأسيسية. وقد ترك بيتر الطائفة، ولكنه لم يترك الاستشراق. الشىء

نفسه ينطبق على جاك الذى تدين له الدراسات الإسلامية بكتب جيدة سهلة القراءة. وكان هناك تونى القادم من منطقة أيفيل[١٤٥]، والذى تعيش فى جسده الضخم روح رقيقة حساسة، والذى توفى مبكرًا جدًّا بسكتة قلبية، ذلك حينما عاد إلى ألمانيا، بعد أن شغل لخمس سنوات وظيفة مدير معهد الشرق الألمانى فى بيروت، فاقدا ثقته فى أساليب العلماء والمديرين. كانت أمى تحبه بشكل خاص، وقد اتفق أن كان لدى وفاتها فى بون، واستطاع أن يساندنى ويقوينى.

كذلك وجدت مجموعة أخرى من الطلاب كانوا إسماعليين. كانت جولشان الأولى فيما بينهم، وقد تعلمت من أطروحتها للدكتوراه الكثير مما ليس معروفًا بالمرة لدارسى الإسلاميات العاديين؛ حيث اشتغلت على ملحمة دينية طويلة من القرن الثامن عشر فى السندية - الجوجراتية[١٤٦]، وهى ملحمة ترد فيها التوليفات العجيبة التالية: النبى محمد يظهر فيها بوصفه التجسيد العاشر للإله الهندوسى فيشنو! ولم تكن مثل هذه التوليفات نادرة فى الأدب الإسماعيلى الهندى، وترينا إحدى الرسومات التى أحضرتها جولشان من إحدى الرحلات البحثية فى برهانبور المتألق عليًّا، ابن عم الرسول وزوج ابنته والإمام الأول للشيعة، مع بغلته البيضاء المشهورة دُلدُل، وهو يقاد من قبل ملك القرود هانومان. وسترتعد فرائص كل مسلم عادى عندما يرى هذا.

ويلعب الإسماعيليون - الذين نشأوا فى القرن الثامن عن تقاليد ما يسمى بالشيعة السباعية - دورًا مهما فى العالم الحديث، وذلك منذ أن جاء أغاخان عام ١٨٤٠ من إيران إلى الهند؛ حيث كانت الجماعات الإسماعيلية قد استوطنت منذ العصور الوسطى على الشاطئ الهندى الغربى وفى وادى نهر الهندوس (السند) كذلك، وهناك طوروا أدبهم التعبدى، ولكنهم أصبحوا فقط مع مجيء الأغاخان مجتمعًا متماسكًا تم تحديثه وتطويره على يد الأغاخان الثالث المشهور (ت ١٩٦٣) إلى مجتمع فعال نشيط تلعب فيه التربية، خاصة للبنات، دورًا حاسمًا.

وقد استوطنت الجماعة بشكل جزئي في شرق أفريقيا، وبعد الاضطرابات السياسية (كما في أوغندا) هاجر الكثيرون إلى كندا أو الولايات المتحدة الأمريكية؛ حيث يلعبون هناك دورًا مهمًا في الاقتصاد. وبعد وفاة أغاخان العجوز أصبح حفيده كريم أغاخان خليفته؛ فهو الآن "الإمام الحاضر" الذى يتمنى رؤيته كل مؤمن. وقد واصل كريم خان، خريج هارفارد، العمل الإصلاحى لجده. وقد تبرع على سبيل المثال بإنشاء كرسى أستاذية الفن الإسلامى فى هارفارد وقدم منحًا خاصة للإسماعليين فى جامعة ماكجيل فى مونتريال، كما أسس المعهد الإسماعيلى فى لندن ومراكز ثقافية أخرى كثيرة. ومن هنا جاء دائمًا إلى هارفارد عدد من الإسماعليين، وكان على أسانى واحدًا من هؤلاء، ولأجل هذا كانت لى علاقات طيبة مع الأغاخان.

وفيما بين الطلاب لا ينبغى لى ألا أنسى هربرت ماسون Mason الذى كتب الدكتوراه فى الدراسات العربية، واهتم بلويس ماسينيون بتركيز، وترجم فيما بعد إلى الإنجليزية عمل ماسينيون الضخم عن الحلاج الذى أعدم فى عام ٩٢٢. ولكونه شاعرًا فقد ألف فى بداية السبعينيات مسرحية صغيرة عن هذا المتصوف الشهيد، مسرحية درامية مقروءة، وقد قمنا ذات مساء بأدائها فى "فندق الله"، وقمت بدور أم الخليفة التى حاولت أن تفهم المتصوف ومثله العليا. ولقد كان مساءً جميلاً، وقد تابعت مسار هربرت العلمى فى البيئة الأكاديمية حتى أصبح أستاذًا فى جامعة بوسطن، وبين حين وآخر يبعث إلىَّ بأشعاره. لقد كان أيضًا من شجعنى على نشر أشعارى الإنجليزية.

كذلك ظهرت هناك أنماط غريبة من الطلاب؛ فهناك وجد جريج الذى كنا نسميه بسبب شعره الأسود المجعد جريج البودل[١٤٧]. ورغم أنه أبيض اللون مثلى تمامًا فقد تأهل فجأة بسبب أحد أسلافه لإحدى المنح التى تعطى للسود، ولكن سرعان ما بدأت قدراته التى كانت جيدة فى البداية فى الهبوط. ولأنه لم ينجح فى الامتحان الثانى - كان آنذاك مدمنًا للمخدرات - كان يجب عليه ترك الجامعة. وبعد عام اتصل بى وأخبرنى أنه فى بوسطن وسأل عما

إذا كان يسمح له أن يدعونى إلى عشاء فالنتين؟ بالطبع يسمح لــه. وأثنــاء العشاء علمت أنه يريد افتتاح مطعم فى كاليفورنيا، ويتعلم الآن الطبخ الفاخر. كان العشاء الذى أعده فى مطبخ أحد الأصدقاء من الدرجة الأولــى. وكــم أتمنى أن يكون قد أحرز مع الطبخ نجاحًا أكبر مما أحــرزه مــع الملاحــم الفارسية!

كذلك كان يمكن العثور على تابعين لجوردييف Gurdjieff[١٤٨] مثــل فتيات كن مهتمات بالتصوف المصرى الكلاسيكى. وفــى إحــدى المــرات اشترك راقص رشيق فى إحدى الدورات، وقدم عمله للفصل الدراسى بخــط مزخرف وبسبعة ألوان مختلفة. وفى مرة أخرى جاء شاب صغير يريــد أن يدرس "أشعار هيفتظ" لدى. وقد أحسست أن لا علم لى، وذلك حتى أدركــت أنه يعنى الشاعر الفارسى حافظ. "أوه، أهكذا ينطق؟" سأل وقد خاب ظنــه، ولم يُرَ مرة أخرى. وهنا لا بد من أن يشار إلى أن المعارف اللغوية – حتى لدى طلاب هارفارد – متخلفة لدرجة لا يستهان بها. أجل ينبغى على الطالب أن يجتاز امتحانًا فى الألمانية أو الفرنسية أو لغة أجنبية أخرى، بل أكثر من هذا ينبغى على طلبة الدراسات العليا قبل امتحانهم (امتحان التأهل للدكتوراه MA) أن يدللوا على معرفة لغتــين أجنبيتــين، ولكــن نتــائج الامتحانــات التحريرية لم تكن – فى كل حال – رائعة.

كانت توجد فيما بين المستمعين لمحاضرات الدورات العامة ولسنوات طويلة سيدتان لم تعودا شابتين جدًّا، محامية سوداء على المعاش، كانت ذكية جدًّا وتهتم بالإسلام فى أفريقيا. وإنجليزية تدعى زوى هيــرزوف Hersov، شيد زوجها فى الجوار مستشفى لطب نفس الأطفال. وقد كانت تستغل الوقت لحضور محاضرات العلوم الإسلامية والعلوم المشابهة، وتؤثر فى الخلفيــة أيضًا لدى المؤسسات التربوية والمؤسسات الاستشارية وما أشبه ذلك. وكان اهتمامها ينصب على الثقافة الإسلامية، وتخــص الباكــستان بحبهــا. وقــد أخبرتنى فى أحد الأيام أنها ورثت عن أمها ثروة صغيرة، وأنها تفكــر الآن

فى أن تؤسس منحة للأكاديميات الباكستانيات، وسألتنى على استحياء: هل لدى اعتراض إذا ما أطلقت على المنحة اسم "منحة أنا مارى شيمل"؟ وقد عانقتها من شدة الإعجاب على الفور. ومنذ ذلك الوقت وجدت هذه المنحة التى تعطى إحدى الطالبات إمكانية أن تنهى دراستها فى إنجلترا خلال سنة، أيًا كان التخصص الذى تنتمى إليه. وكانت أول ممنوحاتنا متخصصة فى الدراسات الرومانية، وكذلك فازت بالمنحة فنانة، وعالمة طبيعة، والكثيرات غيرهن. وتحضر المنحة التى تدار من لاهور إلى الغرب نسوة جديرات بالاهتمام، حتى إن إحدى الكفيفات كانت بيت هاته النسوة. بالطبع فإنه من الواضح أن المرء لا يمكنه تجنب بعض خيبات الأمل، ولكننى فى منتهى السعادة بسبب هذه المبادرة التى تحمل اسمى دون أن يكون لى فضل حقيقى فيها.

ولكن كيف يدرس المرء فى هارفارد؟

دين هنرى روسوفسكى Rosovsky الذى- كما يقول لى دائمًا – ولد فى اليوم نفسه والمدينة نفسها التى ولد فيها جونتر جراس Grass نشر تحت عنوان: The University, A Manual for its owners "الجامعة، كتيب موجز لأهلها" كتابًا مسليًا ومفيدًا جدًا، وقدم فيه تصورًا جديدًا لتطوير الدراسات العليا، وقد أدى نموذجه هذا إلى قيام مدرسة فكرية. يوافق على الشباب الصغير، الذى يكون بعد المدرسة الثانوية عادة فى الثامنة عشرة، بعد اختبار متعمق (وفيه يتم الوقوف على الإمكانيات المالية، وحاجته إلى منحة وأشياء أخرى)، ثم يجب عليهم بعد سنة من المداخل العامة بوصفهم مبتدئين أن يدرسوا مادتين أساسيتين – لنقل الفرنسية والإيطالية – ومادة تعليمية عامة – تاريخ أو دين أو ما يشبه ذلك – ومادة فى كلية أخرى – على سبيل المثال فيزياء. وينظم العمل بشدة من خلال التدريبات الخاصة، ومن يريد أن ينهى دراسته بنتيجة ممتازة لا بد من أن يكتب عملاً دراسيا فى نطاق تخصصه،

وكانت بعض هذه الأعمال ناضجة لدرجة مدهشة، ومن ثم يمكن للمـــرء أن يأمل فى درجة جيد جدًا أو درجة ممتاز. وقبل انتهاء الدراسة يـــأتى ممثلـــو أغلب الشركات والمؤسسات الممكنة الذين يهتمون بخريجى المستقبل، الذين يجدون فى أغلب الحالات وظائف مربحة، وإبان ذلك تلعب الشبكة الكثيفـــة لرابطة الخريجين دورًا حاسمًا.

ويكون إتمام السنة الدراسية بحفلة التخرج فى أول خميس فى يونيـــة، وهنا يسير الأساتذة فى ثيابهم الرسمية عبر هارفارد يارد ليأخـــذوا أمـــاكنهم على سلالم نصب الكنيسة التذكارى فى صورة ملونة. وكان ردائى الحريرى القرمزى اللون، من حفلة نيل الدكتوراه الفخرية فى إسلام أباد، يجذب إليـــه بعض النظرات، ولكنه رغم ذلك تم تخطيه فى إحدى المرات من قبل أحـــد الأردية كان لابسه يضع على رأسه قبعة دكتوراه سماوية الزرقة ذات أهداب تشبه الأباجورة. ويقف الطلاب فى اليارد كل فى روبه الأســـود وقلنـــسوته الملونة. ويسير فى الموكب أيضًا ممثلو الدفعات المبكرة، وبصفة خاصة عدد لا يحصى من ممثلى رابطة الخريجين، الذين يحتفلون بعيد تخرجهم العاشر أو الخامس والعشرين، وهكذا يمكن للمرء أن يرى فى عـــام ٢٠٠١ لافتـــة لدفعة ١٩٣١ وهؤلاء قد يكونون اثنين أو ثلاثة فى التسعين من عمـــرهم، أو دفعة ١٩٨١ وهى مجموعة أنهت دراستها فى ذلك العـــام. وكـــان طقـــس الاحتفال شيئًا ثابتًا: نشيد هارفارد، وكلمات الخريجين، وفيما بين هذه الكلمات خطبة لاتينية غالبًا ما تكون ظريفة فكاهية، ثم تتم تسمية ممنوحى الدكتوراه الفخرية، وعندما تذكر أسماء الطلاب (الذين سيتسلمون شهاداتهم فى مبانيهم المختصة) ينقلب كل هذا إلى حفلة بهيجة.

وتمثل رابطة الخريجين دعامة الجامعة، وتبلـــغ تبرعـــاتهم لتطـــوير الجامعة مبالغ طائلة. وتعرف هارفارد ثروة كل فرد، وتـــستطيع لـــذلك أن تطلب مبالغ عالية فيما لو لم يظهر أحد التزامًا كافيًا. وإذا ما طلب الـــرئيس

التبرع بمليونى أو ثلاثة ملايين دولار لأجل بناء مبنى جديد أو لأجل تحسين منزل التجديف، وكل ما يحتاجه المرء، يأتى المال ويكون كل خريج فخورًا بأن يكون لبنة فى المبنى الروحى والتموينى لكليته الأم الحبيبة.

ولا يذهب كل الطلاب مباشرة إلى الحياة الوظيفية، وإنما يواصلون الدراسة هنا أو فى إحدى الجامعات الأخرى، بوصفهم طلاب دراسات عليا حتى درجة الماجستير MA أو الدكتوراه. يتقدم المرء بأوراقه إلى أماكن مختلفة ويقرر تبعًا لما يلائمه، ليس فقط علميًا وإنما أيضًا ماليًا؛ هذا بينما يكون الآخرون سعداء بما فيه الكفاية لحصولهم على إحدى المكافآت التى لا تحصى، والتى تسمح لهم أن يباشروا لوقت محدد - فى الغالب لمدة سنة - اهتماماتهم الخاصة، وهنا يلعب ليس فقط جهدهم العلمى، وإنما أيضًا اهتماماتهم الاجتماعية والسياسية دورًا حاسمًا. وحينما كنت عضوًا فى إحدى هذه اللجان كان أحد الطلاب النابغين فى الرياضيات يريد أن يقضى عامًا فى الكتلة الشرقية يهبه لتعلم فن الألعاب البهلوانية النبيل (وقد عملت بقوة على أن يحصل على منحته)، وهنا كان أحدهم يريد أن يدرس آلة الأرغن القديمة، وهناك كانت توجد فتاة تريد أن تلتقط صورًا للأطفال فى النطاق الجنوب - آسيوى. كان الاختيار يسمح بالاطلاع على أمنيات وأحلام الشباب الذين يتعرف المرء عليهم فى خلاف ذلك بغير هذه الطريقة. ألا يجب على المرء أن يشجع ابنًا أحمر الشعر لأحد المزارعين من الغرب (الأمريكى) الوسيط يريد دراسة فصيلة أبقار محددة فى جنوب فرنسا وإيطاليا، والذى يضيف أنه لا يستطيع أن يضمن أنه لن يرى بين فترة وأخرى كنيسة قوطية أو قصرًا من عصر الباروك؟

حتى وإن لم يكن من النادر فى السنوات الأخيرة لحياتى الأكاديمية وبسبب قانون معاداة العنصرية وتقوية الحركة النسوية، أن يسمح بالدراسة لأحد الملونين أو لإحدى النساء بدلاً من أحد الأكفاء من البيض أو من

الرجال؛ فإن هذا يؤدى غالبًا لدى التوظيف إلى أن تشتكى إحدى سكرتيراتنا: "أوه، جون لا يملك أية فرصة لأن يحصل على وظيفة قسيس، نعم إنه أبيض وعلاوة على ذلك فهو رجل أيضًا!" وانطلاقًا من مثل هذه التجارب كتبت قصيدتى الفكاهية:

شاب خائب الظن فى هارفارد

درس حتى اتضح لديه ما يرد:

"هذا كلام فارغ - سأصبح نسويًا!"

عقب ذلك أصبح نجمًا فى هارفارد.

تدور حياة الطلاب بشكل غالب فى "المدن الجامعية" التى تقدم كل منها أماكن لثلاثمائة أو أربعمائة طالب. وحينما سألنى بات - مدرس الدين-: "هل لديك رغبة فى أن تذهبى معى إلى معرض فى إليوت هاوس؟" انتهزت الفرصة بسرور؛ فأخيرًا يمكن ولمرة واحدة معرفة ما يدور فى هذه "البيوت" التى تلعب دورًا كبيرًا فى حياة الطلاب، والتى ينتمى إليها كل طلبة الدراسات العليا. وقد أدت أول زياراتى لإليوت هاوس إلى أن أصبحت زميلة، مما يعنى أن لدى حق المشاركة فى كل الحفلات وفى الحصول على وجبات مجانية. تقريبًا ينتمى كل أستاذ جامعى لأحد هذه البيوت، ومن هنا فقد تحدثت بعد قليل إلى لورا الجميلة الذكية وأقدم مدرسة (والتى كانت بمثابة الموجهة الروحية للبيت) عما إذا كانت توجد لى شقة صغيرة من بين الثلاث أو الأربع المخصصة للأساتذة. فكون أمى، وهى فى السابعة والثمانين من عمرها، لم يعد لديها - وهو أمر مفهوم - مزيد من الرغبة فى أن تطير إلى بوسطن فى الربيع من كل عام؛ فإننى لم أعد أحتاج إلى شقة حقيقية. "بالطبع أكيد" قالت لورا "سنسعد إذا ما جئت حقًا!".

وفى نهاية فصل الصيف الدراسى لعام ١٩٧٥ تركت شقتى (التى كنت أؤجرها أثناء غيابى للطلاب أو أعطيها لهم بكل بساطة). وحينما عدت فى

نهاية يناير قادنى طلابى الجزويت بافتخار إلى شقتى الجديدة التى جهزوهــا على قدر المستطاع. كانت شمس الشتاء تشع فى حجرة المعيشة التى تطــل على نهر شارلز. كانت توجد حجرة نوم وحجرة مكتب صغيرة وكذلك حمام، ولكن لا يوجد مطبخ: "أنا قلت إنك لا تطبخين!" شرح بيتر، وفى الواقع فإن موقدًا كهربائيًا وغلاية ماء كانا كافيين لتجهيز الإفطار وشاى المساء. ويكون اللقاء ظهر الجمعة فى حجرة استراحة الكبار على وجبة غذاء مــع شـــرى (وهو ما يجعل الطعام مقبولاً بعض الشىء).

وكانت حجرة استراحة الكبار هى ما يجعل الحياة فى البيـــت جـــديرة وممتعة، وذلك أن المرء يلتقى هناك بزملاء كثيـــرين تعـــرفهم المستـــشرقة الغريبة المنعزلة إلى حد ما فى خلاف ذلك كأسماء. كان الفيلسوف فان كوين Quine ينتمى إلى هؤلاء. ولأنه من بين كل الزملاء يملك أغلـــب الـــصلات الدولية، ويعرف أغلب البلاد واللغات؛ فقد كنا نتحدث كثيرًا حتى وإن كنت لا أفهم شيئًا من الفلسفة على العموم، ولا من فلسفته على الخصوص. وهنالـــك كان عالم الدراسات المقارنة هارى ليفين Levin الذى كان الاســـتماع إلـــى جمله المصقولة متعة، ولكن كانت المستشرقة تتعجب لأن مثل هذا العلامـــة فى علوم الأدب المقارن لا يعرف إلا القليل جدًا مـــن الآداب الـــشرقية، ولا ينطبق هذا فقط على العلوم الأدبية. وقد عرفت بمـــرور الوقـــت أن مـــنهج الدراسة متمركز بالكامل حول أمريكا؛ فمن العشرين كرسيًا – وفيمـــا بعـــد الأربعة والعشرين أو الخمسة والعشرين – فى قسم التـــاريخ كـــان الثلثـــان يركزان على التاريخ الأمريكى. أما كرســـى الأســـتاذية الوحيـــد للتـــاريخ الإسلامى – وهو بالدرجة الأولى للتاريخ الحديث – فقد حصلنا عليـــه فقـــط مؤخرا، وأما كرسى التاريخ التركى فقد أسس فى وقت متأخر أيضًا. وأكثر من هذا: يوجد عدد كبير من الدورات العامـــة غيـــر المتخصـــصة حـــول المسيحية، وبعض الدورات حول اليهودية، ولكن لا يوجد غير مدخل عمومى

وحيد فى الإسلام. أيتعجب المرء إذن من أن السياسة الشرق أوسطية لأمريكا تذهب مذاهب شاذة مستغربة؟ - غير أننا نعود إلى حجرة استراحة الكبار فى إليوت هاوس! وكذلك كان هنرى هاتفيلد Hatfield المتخصص فى توماس مانّ Mann ينتمى إلى مجموعتنا، وكذلك الناقد النمساوى إد سيكلر Sekler. وكذلك كان يوجد بعض علماء الطبيعة، وكان ماستر هيمرت Heimert المتخصص فى الدراسات الأمريكية يسيطر على المشهد. ودائمًا كنت أتعلم وسط هذه الجماعة مختلطة الألوان بصفة دائمة شيئًا جديدًا؛ وبذلك كان طعامنا - الذى لم يكن بالضبط من الدرجة الأولى - يُتبل بعض الشىء. وبالإضافة إلى ذلك فأين يمكن للمرء فى غير هذا المكان أن يحيِّى دارس الرومانيات اللطيف دانتى ديللا تيرزا Terza بكل بساطة بجملة "هاى دانتى!"

ولكن كيف تعمل هذه البيوت؟ أما المبتدئون فيعيشون فى داخل اليارد وهو الفناء الذى تحيط به مبانى القاعات المهمة ومبنى مكتبة ويندر الضخمة ومبنى الكنيسة التذكارية، ثم يوزعون بعد السنة الأولى على البيوت التى حصلت على أسمائها من أشهر الأساتذة والرؤساء. وكانت بيوت النهر، أى التى تقع على امتداد نهر شارلز هى المرغوبة بشكل أكبر؛ فما إن يبدأ الثلج فى الذوبان عنه حتى ينشط المجدفون فيه (كانت الرياضة تلعب بالطبع دورًا حاسمًا). ولأن عدد الطلاب كان دائم النمو - إبان عهدى بالجامعة كان يوجد اثنا عشر ألف طالب دراسات - فقد تم بناء بعض البيوت الجديدة خارج نطاق الجامعة، وحينما أصبحت هارفارد عام ١٩٦٩ مختلطة، صدر القانون القاسى بأن تكون بيوت هارفارد مفتوحة فقط للطلاب الذكور، بينما يكون للطالبات بعض البيوت فى رادكليف يارد البعيدة جدًا إلى حد ما، وكذلك ألا يدرس لهن مجتمعات مع الرجال. وردا على سؤال لأحد الدبلوماسيين الفضوليين: ألا يكون جميلاً إذا ما أمكن أن يعيش الذكور والإناث الآن فى البيت نفسه، أجاب أحد تلاميذى بشكل مقتضب: "أنا لا أعتقد أنه سيكون

لطيفًا أن تلتقى بأخطائك علي الإفطار." وفى الحقيقة فإن هذه التغييرات، خاصة فى بدايتها، أدت أحيانًا إلى مشاكل نفسية.

بالطبع لا يمكن أن ننحى فى كل المشاكل باللائمة على التعليم المختلط، لقد كانت فى الغالب نتيجة للصراع غير الرحيم. حينما انهار أحد طلابى نفسيًا، وكان فرنسيًا لطيفًا، سألت أحد زملائى الشباب النصيحة وأنا فى فزع؛ فقال دون تأثر: "أخ، أهذا ما حدث؟ فى بيتنا الجامعى رمى أحدهم مؤخرًا بنفسه أيضًا مرة أخرى من النافذة!"

ويعيش العديد من الطلاب معًا فى شقق صغيرة مفروشة يجب عليهم أن يخلوها فى نهاية السنة الدراسية، وأنا أيضًا كان ينبغى عليَّ هذا، كان يجب عليَّ دائمًا أن أعد صناديقى، وذلك لأن الحجرات كانت تحتاج إبان الصيف للمشتركين فى الدورات الصيفية. ومع بداية السنة الدراسية يعاد توزيع الحجرات من جديد، وذلك حتى لا يبقى طالب فى شقة غير مريحة لمدة ثلاث سنوات. كانت الحجرات تصبح من عام لعام أفضل، وذلك أنه فى السنة الرابعة تزيد متطلبات الطلبة. وكان العمل يتم فى الغالب فى الليل، وذلك لأنه الأفضل تدفئة، وأما فى النهار فكان الموقد الكهربائى ضروريًا.

وكان يوجد فى كل بيت طلابى عدد من المدرسين المقيمين والمتخصصين فى علوم محددة، وهم يلعبون دورًا حاسمًا فى العملية التعليمية، وذلك أنه فى بعض المواد لا يكاد الطالب يلتقى بأستاذه الذى يحلق كشبح فوق الجميع، ويترك مصالحه العملية وخاصة تصحيح أبحاث الفصول الدراسية أو التدريبات اللغوية للأرواح المساعدة. وتقع على المدرس الأقدم لأحد البيوت الجامعية مسئوليات كبيرة.

أما الرئيس – وزوجه التى تعمل رئيسًا مشاركًا – فهو ملك على مملكته، إذ يسكن بيتًا جميلاً، كثيرًا ما تقام فيه الحفلات، حيث تتعلق بالرئيس – بشدة – مكانة أحد البيوت واتجاهات حياته الفكرية أو الرياضية أو

الاجتماعية. وقد كان إليوت هاوس محظوظًا؛ لأن جون فينلى Finley عالم الفيلولوجيا القديمة المبجل بشدة من قبل الطلاب كان رئيسًا له لسنوات، وقد كانت محاضراته عن الأدب اليونانى مكتظة دائمًا مثلها فى ذلك مثل محاضرات زميل آخر يعيش فى إليوت هاوس وهو جاك باتيس Bates عن صامويل جونسون.

كان كل بيت جامعى قد مر به أحد الضيوف ذوى المكانة، وقد كان بيتنا من عام ١٩٧٠ وحتى عام ١٩٧٢ مكانًا لإقامة بنظير بوتو، والتى لم تنس قط، حتى وهى رئيسة وزراء باكستان، ارتباطاتها مع إليوت هاوس.

ولكن سيكون من الظلم ألا أشير، إلى جانب فطاحل الأكاديميين، إلى هانك أيضًا. هانك الذى ترقى إلى بواب، وكان يعتنى بشئوننا بأرق طريقة؛ فعندما أشكو من حزم الأمتعة فى نهاية الفصل الدراسى أو أضجر متأسفة بسبب التدفئة السيئة أو التى لا تعمل على الإطلاق؛ فإن هانك كان يعرف كيف يواسينى: "لا تنزعجى أيتها السيدة الشابة فسنقوم بإصلاحه!" وهذا ما يكون. وحتى الآن ما زلنا نتبادل فى كل عام تهنئة أعياد الميلاد.

وكما كان الطلاب فى قسمنا ولدى مؤرخى الأديان ألوانًا مختلطة، كذلك كانت هيئة أعضاء التدريس دولية.

فى هذا اليوم الذى أكتب فيه - العاشر من سبتمبر ٢٠٠١ - كانت "الخالة إلزا" ستصبح فى المئة من عمرها. نعم يوجد فى جواز سفرها ١٩٠٧ - ولكن رقم ٧ يشبه رقم ١ - وقد حكت لنا، وشىء من الفخر فى صوتها، قصة التاريخ المغلوط، وذلك بعد أن كانت قد أصبحت، ومنذ فترة طويلة على المعاش.

والخالة إلزا هى إلزا ليشتن - شتيدر Lichtenstädter إحدى أوائل المستعربات الألمانيات. حينما كنت طالبة قرأت بحثها الذى نشر فى مجلة

"إسلاميكا" Islamica[١٤٩] تحت عنوان "النسيب فى الشعر العربى القديم". وقد فتنت بهذا البحث؛ فهكذا يجب على المرء أن يكتب! ولكن لم يستطع أحد أن يخبرنى كيف يمكننى أن أجد هذه المرأة التى أعجبت بها، ولكنى وجدتها بعد ربع قرن فى هارفارد فى منزل زميلى وصديقى الأوكرانى أوملیان بريتساك Pritsak عالم الدراسات التركية، الذى كنت أعرفه جيدًا منذ نهاية الحــرب، وذلك حين درس – بعد هروب مغامراتىٍّ من الاتحاد السوفيتى – لدى شيدر فى جوتنجن، وبعد أن جاء مؤخرًا إلى هارفارد؛ حيث لم يؤسس للدراســات التركية فقط، وإنما للدراسات الأوكرانية أيضًا.

كانت إلزا ابنة لمدرس يهودى فــى هــامبورج، وقــد درســت فــى فرانكفورت لدى جوزيف هوروفتس Horovitz[١٥٠] ثم ذهبــت فــى نهايــة ١٩٣٢ – بعد الانتهاء من الدكتوراه وبعد الموت المفاجئ لأستاذها – إلــى أوكسفورد؛ حيث كانت تكتسب مرتبًا ضئيلاً بوصفها مصححة لدى دار نشر جامعة أوكسفورد، وتعد إلى جانب ذلك تحقيقها لنص عربى بغرض الحصول على درجة دكتوراه ثانية، وقد ذهبت فيما بعد إلى نيويورك؛ حيــث تعــيش شقيقتاها، وكانت الصغرى منهما تعيش فى غنى ملحوظ، ولكن هذا لم يؤثر فى وضع إلزا التى كافحت بكل جهدها فى معهد الدراسات الآسيوية، وظلت حتى آخر حياتها تقلب كل سنت قبل إنفاقه. كانت تحكى كثيرًا عــن بعــض الزملاء الألمان اليهود الذين جاءوا إلى الولايات المتحدة فى الثلاثينيات، ومن بينهم جوستاف فون جرونباوم وفرانز روزنتال. وروزنتــال هــو علامــة الساميات العظيم المتحفظ، والذى ننطوى له جميعًا على احترام ملؤه الإكبار، والذى لم أسمع عنه قط أية ملاحظة سلبية من جانب أحد الزملاء، وهذا يعنى الكثير! كذلك ريشارد إتنجهــاوزن Ettinghausen[١٥١] الــذى ينتمــى إلــى المهاجرين الألمان الذين أعطوا وجها جديدا لعلم الإسلاميات الأمريكى، بــل كانوا حقيقة أول من أبدعه، وذلك لأن الجامعات الأمريكية اهتمت من ناحية

حتى آنذاك ولأسباب اقتصادية وبصورة رئيسية بشرق آسيا، وشجعوا من ناحية أخرى الاستشراق القديم ونفذوا حفائر مهمة. وقد حصلت الدراسات العربية والإسلامية بالدرجة الأولى من خلال المهاجرين الألمان على مكانها الثابت فى الجامعات.

وقد عايشت الخالة إلزا هذا التطور، وقد دعيت من نيويورك إلى هارفارد من قبل السير هاملتون جب Gibb؛ حيث عملت ولسنوات طويلة العربية الكلاسيكية. ولأن أستاذها هوروفتس ينتمى إلى الأساتذة الألمان الذين درسوا فى العشرينيات ولوقت طويل فى جامعات النخبة الهندية مثل عليكرة، كان لدى إلزا أيضًا اهتمام بشبه القارة، وقد اكتشفنا أن لنا فى الباكستان الكثير من الأصدقاء المشتركين.

لقد استغرق الأمر بالطبع مدة حتى استساغت إلزا الزميلة الألمانية الصغيرة، وأظن أن معرفتها مع أمى قد ساهمت فى هذا، بل لقد أفلحت أمى فى أن توعز لإلزا بالقيام برحلتها الأولى والأخيرة إلى ألمانيا فى عام ١٩٧٩. وكانت الفرحة التى عايشت بها الرحلة فى أرتال وإلى ماريا‌لاخ غامرة. وقد أنشدنا طوال الطريق شعرًا ألمانيًّا مع الأصدقاء الذين اصطحبونا. وببطء أصبحت موضع ثقتها، وخبرت الكثير عن الحياة فى أسرة يهودية أرثوذكسية ألمانية الثقافة تمامًا. وسمح لى كذلك بحضور عيد الفصح اليهودى، بل وأن آكل من عجة البيض التى كانت تسويها بنفسها والتى كانت تشيط منها فى الغالب، ولكن هذا لم يفسد صداقتنا.

وكانت إلزا صغيرة الجسم النشيطة تحب أن تدعو الطلاب وبعض الزملاء مرة كل فصل دراسى إلى حفلتها التى كانت - وبصفة دائمة - مسلية جدًّا، وفيما بعد "كانت تأخذنا للخارج"؛ حيث تدعونا فى أحد المطاعم. أحيانًا يلتقى المرء لديها ضيوفًا جديرين بالاهتمام، ومن بين هؤلاء مؤرخ الفلسفة هارى ولفسون Wolfson الذى قدم فى أوائل القرن العشرين من

موطنه غاليتسه[١٥٢] إلى هارفارد، وعمليًا قضى حياته كلها في المكتبة وتناول طعامه في نادى الكلية. ولقد كان الأمر مثيرًا عندما يبدأ "العم هارى" في الحديث عن سنواته المبكرة، حتى وإن كان ينام فيما بين ذلك أحيانًا. ويدين علم تاريخ الأديان لولفسون بمصطلح Inlibration أى "التجسيد الكتابى" بوصفه مقابلا لمصطلح Inkarnation أى "التجسيد البشرى"؛ فالقرآن هو الكتاب "المُجسَّد" لما صارت إليه كلمة الله، بينما يسوع المسيح هو التجسيد البشرى لما صارت إليه هذه الكلمة.

كانت إلزا تمثل المهاجرين الألمان، وكان إيزادور تفيرسكى Twersky المتخصص في الدراسات اليهودية وذو العيون السوداء الكبيرة يؤثر مثل شخصية من لوحة قديمة، يصدح صوته في خفوت لا تكاد تسمعه في اجتماعات الكلية. وكانت السويد ممثلة من خلال ريتشارد (ديك) فراى، الذى أعرفه منذ وقت طويل من خلال حبنا المشترك للثقافة الإيرانية، يحضر براهينه بنشاط وأحيانًا بشكل جدلى حقيقى، ويؤثر عندما يتحدث بأى من اللغات العديدة التى يعرفها جيدًا مثل روح قلقة من الشرق الموحش. كنا أصدقاء جيدين وقد جلب بعض النشاط والعنفوان إلى قسمنا الرزين. ويختلف عن هذا تمامًا الدنماركى توركيلد ياكوبسون Jacobson الذى يتحدث - بصوت خفيض ولكنة دنماركية غير ظاهرة - عن الثقافتين السومرية والأكادية بمهارة وتشويق (حتى وإن كان من الصعب أحيانًا متابعة سماعه بوضوح). وكان هناك أيضًا عالم الآشوريات بيل موران Moran وعالم الدراسات الأرمينية البريطانى روبرت تومسون Thomson. ومن كانا مهمين لنا بصفة خاصة: جورج مقدسى الأستاذ الصارم للعربية الكلاسيكية، والمتخصص في المذهب الحنبلى المتشدد تيولوجيًا، وكذلك محسن مهدى العربى من كربلاء، وأحد العارفين المتعمقين في فلسفة العصور الوسطى، وفيما بعد محقق المخطوط العربى الأقدم "لألف ليلة وليلة". وتنعكس في

كلاهما فيما يبدو طبيعة الإسلام المبكر: سوريا الأموية من ناحية، والعــراق الشيعى من ناحية أخرى.

وكان شيناسى تاكين Takin يمثل اللغة التركية، وكذلك بعض الزملاء المتنوعين الذين حضروا إلى القسم أساتذة زائرين. ويمكن للمرء أن يظن أن قسمًا صغيرًا كهذا قد حافظ رغم التوترات والاختلافات الداخلية على علاقات ودية، ولكن خلال خمس وعشرين سنة قضيتها فى هارفارد لم أكد أدخل مرة بيت أحد الزملاء. إلزا كانت الاستثناء، وبين فترة وأخــرى كــان ويلفريــد كينتويل سميث يدعونى إلى بيته. فى الحالات الأخرى اقتــصرت "لقــاءات السمر" - التى تقوم خارج العمل فى كل الحالات - على اللقاءات فى نــادى الكلية.

ولكن هذا تغير حينما جاءنا فولفهارت هاينريــشس Heinrichs عــام ١٩٧٧ أولاً لمدة عام بوصفه أستاذًا زائرًا ثم بوصفه أستاذ كرسى؛ فمعه ومع ألما جيزا Giese وجدت مرة أخرى أسرة حقيقية لى. وبينما كان فولفهــارت يتمتع بإعجاب وإجلال الطلاب، كذلك أصبحت ألما أيضًا، وهــى مــستعربة ممتازة، دعامة لحياتنا، وأمست محبوبة من قبل الطلاب. لقد كان منزلهما فى إرلنجتون ولسنوات بيتًا لى، وكنت أشعر لديهما بأننى مدللة - مثــل قطــة منزلية لهما - بالأحاديث الطيبة والجميلة وبالوجبات اللذيذة، وقد جعل وجود هذين الصديقين سنواتى الأخيرة فى هارفارد جميلة بحق.

وكذلك لا بد من الإشارة إلى دعامة أخرى - بل إحدى أهمهــا أثنــاء فترة عملى فى هارفارد - وأعنى هنا س. كارى ويلش Welch الذى تعرفت عليه فى أول فصولى الدراسية. كان متخصــصًا فــى الفنــون الإســلامية والهندية، وله أثر ساحر من خلال معرفته الممتازة النادرة. ولأنه لم يحصل على أية درجة أكاديمية غير بكالوريوس من هارفارد؛ فقد كان معزولاً إلــى حد ما عن عالم الكلية المرتب بصرامة ووضوح، ولكن محاضراته كانــت

رائعة: حبه لموضوعاته، مرتبط بأسلوب رائع، حتى وإن لم يكن بالأكاديمي الصارم، وحريته غير المعهودة فى التعامل مع الفن. وقد أزعج هذا زمـــلاء كثيرين لا يــريدون أن يــروه أكاديميًا حقيقيًا. "لماذا تزورين حقيقة وبصفة دائمة محاضرات وتدريبات كارى؟" سألنى إتنجهاوزن مرة، وقد اســتطعت فقط أن أقول: "لأنه يعلمنى أن (أرى)!" وقد تطورت معه ومع زوجته إديث صداقة جميلة ثرية. وقد قضيت ساعات ممتعة فى بيته فى نيوهامبشير، وقمنا فى مرة بالتجول معا عبر الأماكن التاريخية لإقليم الدكن، وكنا نلتقى بعضنا البعض بصفة دائمة فيما بين بوسطن ودلهى، وفيما بين بون وجنيف. وينتمى عملى المشترك معه فى متحف فوج (الآن متحف زاكلر) للفن، والذى يحفظ فيه الكثير من المنمنمات والمخطوطات التى لا تقـدر بـثمن، إلـى أجمـل ذكرياتى، وكذلك بالنسبة لمنشوراتنا المـشتركة. ويالهـا مـن سـيمنارات ومعارض عظيمة كانت تقام فى متحف فوج تحت إشراف كل مـن كـارى وأوليج جرابار Grabar الذى كان فهمه للفن يختلف عن فهم كـارى؛ حيـث كان يهتم أكثر بالجانب النظرى وبالمضامين الاجتماعية للفـن أكثـر مـن اهتمامه بالجمال الخالص، وهكذا وجدت – بسبب هذا – توترات فـى قـسم تاريخ الفن فى هارفارد، ولكن ربما لأجل هذا السبب أنتج هذا القسم عـددًا كبيرًا من الممثلين البارزين فى مجال تاريخ الفن الإسلامى. وكنـت دائمًـا ألتقى أصدقائى الشباب فى مكان ما بين أستراليا وفيينا وفى لندن، وهذا مـا يجب ألا ننساه، وأنكر هنا فقط مارك تسبروفسكى Zebrowski الذى تـوفى مبكرًا جدًا، والذى تعرفت عليه وصديقه بوب فى إحدى سـنوات هارفـارد الأولى، وكان ذلك بمساعدة ديبورا التى التقيتها – بالضبط عدة أيام قبـل أن أكتب هذا – بوصفها أستاذة فى فيينا. وتظهر معرفة مارك الممتـازة بفـن الدكن خاصة قطع البيدرى التى يضىء أسودها الفضى بشكل جميل فى بيته اللندنى أيضًا. وكم ساهمنا جميعًـا وبـشدة فـى الحلقـة الدراسـية حـول

"فتحبورسيكرى" عاصمة الإمبراطور أكبر لبعض الوقت، وقد وحدت الندوة كل محبى الفن المغولى فى هارفارد!

تذكرنى مثل هذه الندوات بالكثير من الصداقات التى تطورت على هامش هارفارد. وفى السنوات الأولى اشتركت كثيرًا فى حفلات الطلاب التى يُحضِر إليها كل واحد شيئًا، وفيما بعد كانت حفلات عيد الميلاد المثيرة دائمًا لدى سامينا الباكستانية النشيطة. وكنت أعمل أنا وسامينا على كتب مختلفة تعرض فيها صورها المؤثرة جدًا من الباكستان، وقد بقينا رغم اختلاف المصائر مرتبطتين.

ومع مرور الوقت تعرفت بشكل أفضل على بوسطن وما حولها، وفى بداية عملى فى هارفارد اكتشفت أنا وأمى - لدى زيارتها الثانية على ما أعتقد - مكانًا لم يجده أصدقاؤنا بالضرورة جذابًا: روكسبورى فى جنوب المدينة. وقد قادنا إلى هناك أحد طلابى المسلمين، شاب بلغارى مسلم أنشأ هناك حديثًا مأوى للصبية المظلومين اجتماعيًا، وكانوا فى الغالب من السود. وهناك يتعلم الصبية حرفًا يدوية متنوعة، وقد وجد بالأخص مطبعة يدوية بسيطة يمكن للمرء أن يطبع عليها بطاقات بريد جميلة. ولأننا تأثرنا بحماس ودأب المدير الشاب، أصبح الحى، الذى يبدو إلى حد ما مقبضًا، مصدرًا لبطاقات تهانينا التى ترى عليها نقوش عربية جميلة كنت قد نقلتها من على أحد المبانى الهندو- إسلامية، والتى أعجبت الجميع وجلبت بعض الدولارات للمنظمة الخيرية.

وقد تمثل أحد الأماكن الجذابة فى محطة الأشجار ذات الشهرة العريضة بسبب نباتاتها النادرة، والتى تتبع حديقة هارفارد الكبيرة الموجودة فى أحد أطراف بوسطن. وكنت أعرفها قليلاً فقط، ولكنى عوقبت فيما بعد بأن أقوم ببعض التحركات بين أشجارها المزهرة لفيلم تلفزيونى يعده فريق تركى- هولندى أخذ على عاتقه أن يوثق أسبوعًا من حياتى، ومن هنا كان

الفريق يطاردنى ليس فقط فى المحاضرات وقاعات التدريبات، وإنما أيضًا فى حديقة بوسطن، وكان هذا أمرًا غير معتاد جدًّا بالنسبة إلىَّ. فهنا يجب على أن ألقى شعرًا تركيًا، وهنا أحلق نازلة من أحد التلال. "لا، مرة أخرى لو سمحت... لا، القدم اليسرى إلى هناك بعض الشيء... لو سمحت مرة أخرى، السطر الثالث من القصيدة..." وهكذا مثلما هو الأمر لدى التصوير التلفزيونى إلى داخل غابة الليلك، ومرة أخرى الخروج من غابة الليلك... وهكذا مثل آلة أبدية الحركة. ولذا لم أذهب إلى محطة الأشجار مرة أخرى بعد ذلك قط!

كانت المتاحف الرائعة فى بوسطن، وما حولها من كمبريدج وحتى ورشستر، هى أماكنى المفضلة، وما زلت أذكر بسعادة حلقة بحث فى متحف بوسطن للفنون الجميلة؛ حيث أطلعت الطلاب على مجموعة خطوط الزخارف العثمانية الغنية، والتى لم تعرض سابقًا، وتيسر لى أن ألفت نظرهم إلى دقائق الخط والتزيين، ولكن كان متحف فوج للفنون فى هارفارد هو جنتى الصغيرة، وهناك وجدت - وبصفة دورية - حلقة بحث الخط الزخرفى، وذلك أن المخطوطات التى هناك - من بعض رقوق الكتابة فى القرنين التاسع والعاشر، وحتى روائع فن الكتابة الفارسية والتركية والهندو- إسلامية - تقدم مادة ثرية لمؤرخى الفنون. وكانت دورات الخط الزخرفى هى مادتى المحبوبة. وأعتقد أنه من الضرورى واللازم لدارسى العلوم الإسلامية أن يعرفوا على الأقل شيئًا ولو قليلاً حول خصائص المخطوطات، وحول الرق والورق، وحول أنواع الأحبار والتمويه بالذهب، ليس فقط لأجل الفن نفسه، وإنما أيضًا لأجل الفهم الصحيح للإشارات التى لا تحصى إلى فنون الخط الزخرفية التى يجدها المرء فى الآداب الإسلامية. وكان يسعدنى دائمًا أن يشترك غير المستشرقين انطلاقًا من اهتمامات جمالية فى مثل هذه الحلقات البحثية التى كانت تتكامل بشكل نموذجى مع الدورات التى كان كارى ويلش يلقيها حول رسوم المنمنمات الفارسية والهندية.

ولكن لم توجد فقط المتاحف التى تسعد قلبى، وإنما يجب أن أشير أيضًا إلى العناصر المطبخية فيما حولى؛ فهناك كان يوجد المطعم الإسبانى المختبئ "Iruna" بالقرب من شقتى الأخيرة فى إليوت هاوس، وهناك لم أكن أحتاج مطلقًا للطلب؛ فطعامى المفضل يأتينى آليًا. وفى أيام الآحاد أذهب إلى مطعم سمك رائع فى ميناء بوسطن (يقع إلى جواره لوبستربول؛ حيث يحصل المرء على هذه اللذائذ الطازجة بأرخص الأسعار). وهناك مطعم آخر للأسماك شهد تحولاً عجيبًا؛ فقد عرفت من مرجريت مطعم " Legal Seafood"؛ حيث تكسب من قلى السمك فى المساء مصاريف دراستها. كان المكان بسيطًا للغاية، ومجهزًا بطاولات خشبية وأوان بلاستيكية يؤتى للمرء فيها بالسمك الأكثر طزاجة، وإلى جانب ذلك يمكن له أن يلتقى بأناس غير مملين من المشهد الفنى. ولم يكن المكان بعيدًا عن معهد دراسات الشرق الأوسط، وكنت أذهب إليه مع مارية مرة أسبوعيًا بين درسين، وكنا غالبًا نخوض خلال الثلج المتراكم عاليا. وفى أحد الصباحات نقل الراديو الخبر غير السار: لقد احترق المطعم فى الليل. ماذا نفعل؟ بعد يوم أو يومين افتتح المالك تحت نفس الاسم مطعمًا أنيقًا جدًّا للسمك فى وسط بوسطن. يالها من مصادفة رائعة! على كل حال أصبح هذا منذ الآن مطعمنا فى أيام الآحاد.

تعتبر ضواحى بوسطن منطقة شهيرة؛ حيث يملك الكثير من السكان الأغنياء منازلهم الصيفية على Cape Cod أو على إحدى الجزر التى تقع أمام ساحل الأطلنطى، ولكن لم تستهونى كثيرًا زيارة مثل هذه الأماكن. أما الأجمل من هذا؛ فكان "الشاطئ الشمالى"، وهو المنطقة التى تمتد على شاطئ الأطلنطى باتجاه الشمال،وحيث يستطيع المرء على سبيل المثال فى ساليم أن يزور بيت الساحرات ذا السقوف السبعة الذى خلد من خلال رواية هوثورن Hawthorne "البيت ذو السقوف السبعة" The House of the Seven Gables. وأية قواقع يعقوبية رائعة ونفائس بحرية أخرى وجدت دائمًا كأكلة وداع!

وذلك أننا نذهب فى الغالب إلى هناك فى أحد الآحاد الأخيرة فـــى الفـــصل الدراسى ونسعد بالليلك المزدهر بكثرة مفرطة وبالمحيط الأزرق الذى تقـــع على شاطئه المقابل أوروبا التى رأيتها - ولله الحمد - بسرعة مرة أخـــرى فيما بعد.

وكذلك كانت للمنطقة نحو الجنوب حتى الحدود مع كونكتكت جاذبيتها. وقد جئت بفضل إحدى الصديقات الأمريكيات، التى تعتنى قبل كـــل شـــئ بالطلبة الأجانب فى المنطقة خاصة الباكستانيين منهم، للمرة الأولى إلى أحد أديرة اللاترابيين Trappisten[١٥٣] الذى يقع على أحد التلال ويبعد قليلاً عـــن الطريق الزراعى. وقد أعيد بناء الكنيسة التى احترقت قبل سنوات قليلة بأناقة وعظمة: أحجار طبيعية كبيرة فاتحة تضيء منها الـــشبابيك الجميلـــة غيـــر المعتادة، والتى جمعت فى زجاجها الألوان المختلفة - من الـــوردى الأنعـــم حتى البنفسجى العميق - فى شكل زخارف مجردة. كانت الكنيسة الـــصغيرة تدعو للتأمل، وكنا نشعر هناك بأننا بكل بساطة سعداء، ولكـــن اللاتـــرابيين يملكون كذلك ناحية دنيوية؛ فمن ناحية لم يكونوا متدثرين بالصمت الكامـــل (وقد حكى لنا شاب ألمانى جاء إلى الولايات المتحدة بعد عـــام ١٩٤٥ عـــن مشاكله بكل وضوح)، ومن ناحية أخرى كان يوجد دكان تباع فيه منتجـــات الدير الخاصة، وكانت بالدرجة الأولى حلويات. وبالطبع كنا نشـــرى خزينـــة الدير لدى كل زيارة لنا وفى أثناء زياراتنا كان الأخ ليونارد يـــسلينا وهـــو يتألق. وعندما جئنا فى أحد الأيام مرة أخرى، وكنت أرتدى معطف المطـــر الأسود، وأرتدى - بسبب الريح الشديدة - غطاء رأس أسود، منحنى لـــيس فقط البضاعة المسكرة، وإنما أيضًا قبلة قوية على الخد، وهنا سمعت سيدتين عجوزين تتهامسان فى الدكان: "أهى راهبة؟"

حول متحف المتروبوليتان

رغم أن بوسطن تعد بقوة بوصفها "الأكثر أوروبية" بين كل المدن الشمال أمريكية فإننى لم أقم معها أبدًا علاقة قلبية خالصة. أما نيويورك فقد فتنتنى منذ زيارتى الأولى لها فى نهاية صيف ١٩٦٥؛ حيث قضيت فيها عدة أيام كمحطة فى طريق عودتى من كلارامونت. وقد اصطحبنى صديقى القديم منذ أيام ماربورج هلموت روكريجيل Rückriegel، الذى يعمل فى المركز الألمانى للمعلومات، إلى جنوب المدينة حتى Cloisters الذى يوجد فى مبانى متحفه مجموعة سجاد أحادى القرن الرائعة، والتى تناظر مجموعة متحف كلونى التى يكتب عنها ريلكة فى "ذكريات مالته لوريدس بريجه": "هنا توجد سجاجيد، أبيلونا..." ربما ألهمتنى هذه السجاجيد ودفعتنى لأن أخصص عددًا كاملاً من مجلتنا العربية "فكر وفن" لأحادى القرن.

كانت المؤتمرات والمحاضرات تقودنى مرة بعد أخرى من هارفارد إلى نيويورك، وكان أحد أول هذه المؤتمرات (بداية عام ١٩٧٤) حلقة دراسية عن "الرومى والبيرونى" كأفضل ممثلين لحضارة العصور الوسطى فى العالم الإسلامى، الأول بوصفه متصوفًا والآخر بوصفه مؤرخًا وعالم طبيعة. وكان بيتر تشيكلوفسكى Chelkowski من جامعة نيويورك هو الذى نظم ذلك، وأكثر من هذا فقد سكنت ولمرات عديدة لديه هو وزوجته العطوفة جوجا. فى حجرة المعيشة علقت لوحة فارسية ضخمة لمعركة كربلاء من عصر القارجارين، ولكن موضوعها الدموى لم يزعجنا كثيرًا، وذلك حينما كنا ندلل بالوجبات الشهية والمشروبات اللذيذة، ونرى تحتنا أضواء ميدان واشنطن وهى تلمع. وفى نيويورك لم أكد أحتاج لأن أقيم فى فندق؛ فقد كانت نيويورك مملوءة بالمستشرقين التى كانت ضيافتهم مشرقية حقا.

وقد تمثل "وطنى" النيويوركى الحقيقى ولسنوات عديدة فى شقة جانيت واكين التى تقع بالقرب من جامعة كولومبيا (١٠٦ وست ستريت)، وعلى بعد

مناسب من محطة الباص رقم ٤، ويزيد على ذلك أنها مترعة بجو أدبي.
وكانت جانيت اللبنانية الرشيقة ذات الصوت العميق، عبقرية في الضيافة؛ فبعد حلقات الدرس المسائية في جامعة كولومبيا يلتقي لديها الزملاء من الأنحاء القريبة والبعيدة وتبدو الشقة وبشكل عجيب وكأنها تتمدد حتى تستقبل زملاء من بوسطن وفيلادلفيا ويعلم الله من أين أيضًا، وذلك لأجل مشروب أو أكل شيء ما، وليلاً يقتسم الشقة الصغيرة على الأقل ثلاثة ضيوف مع قطة ملوكية. وكانت جانيت، التلميذة الأخيرة لجوزيف شاخت Schacht[١٥٤] متخصصة في الشريعة الإسلامية، وكانت تعرف الجميع وكل شيء عنهم، وإذا ما أراد المرء أن يعرف شيئًا عن مفاوضات الوظائف والإصدارات الحديثة في الدراسات العربية أو عن المعركة الأحدث بين الزميل فلان وناقده علان؛ فإن لديها الخبر اليقين. وغالبًا ما تبدأ زياراتي بأنني أريد أن أدعوها وبيتر عون، في المساء، في مطعمنا الياباني المفضل في جادة كولومبوس. حتى قطة جانيت (التي تبدو بخلاف ذلك صعبة المخاطبة) أظهرت نفسها كمواسية، وذلك حينما وصلت في مساء أحد الأيام من واشنطن سكوير بعد ساعة سفر بالباص، وأنا متعبة جدًا وغاضبة إلى حد ما على مصححتي التي تحمل وعن حق اسم Despina، ولقد بدت لي مثل مستبدة Despotin تأمر دائمًا بتغييرات تقنية جديدة في كتابي Calligraphy and Islamic Culture "خطوط الزخرفة والثقافة الإسلامية". لقد ارتميت على السرير وأنا منهكة، وهنا قفزت إلى القطة التي لا تكاد في خلاف ذلك تعيرني اهتمامًا، ولم تتركني قبل أن تجف دموعي، وللحقيقة كان يجب عليَّ أن أهدي إليها هذا الكتاب الجديد الذي انبثق عن سلسلة محاضرات في جامعة نيويورك.

وفي جامعة كولومبيا ألقيت محاضرات بامبتون Bampton التي استخدمت مادتها فيما بعد في محاضرات جيفورد Gifford. وقد تحدثت

ولمرات عديدة فى المركز الإيرانى الذى كان يدار من قبل إحسان يار- شاطر الذى أنتج من خلال موظفيه، إلى جانب "دائرة المعارف الإيرانية" Encyclopedia Iranica، مؤلفات لا تحصى تناولت النواحى المختلفة للدراسات الإيرانية، وكان إحسان يدعم بأجمل أسلوب من قبل زوجته لطيفة التى أحدث موتها فراغًا تألم له كل محبى إيران فى العالم.

ولكن الأجمل فى نيويورك - على الأقل بالنسبة إلىَّ - كان متحف المتروبوليتان، وكذلك وجدت الكثير من المتاحف الساحرة فى المدينة. ومن يستطيع أن ينسى زهرات اللوتس لمونيه فى متحف الفن الحديث؟ متحف المتروبوليتان يحتوى على القسم الباهر للفن الإسلامى الذى أسسه ريشارد إتنجهاوزن الذى قابلته هناك حينما بقيت عام ١٩٦٧ للمرة الأولى وقتًا أطول فى هارفارد، وقد تطورت معه ومع زوجته الذكية السيدة إلزابيث علاقة قلبية. وقد حزنا جميعًا بعمق حينما توفى عام ١٩٧٩. من ينبغى أن يخلفه؟ وهل يوجد أحد يضارعه فى معرفته؟ مع كارى ويلش تولى القسم الإسلامى نمط مختلف تمامًا من خبراء ومتخصصى الفن؛ فهو خبير متمكن، ولكنه ليس أكاديميًا جدًا. وهذا ما حدث؛ ففى صباح أحد عيد فصح ١٩٨٢، وفى تمام السابعة رن جرس التليفون. لقد كان كارى يريد السؤال عما إذا كانت لدى الرغبة فى العمل معه فى القسم الإسلامى، وذلك للإشراف بأوسع المعانى على ما يتعلق بفن الخط. "إنك بالفعل أرنب عيد فصح رائع!" صحت به وكنت غير مصففة الشعر ولم أتناول إفطارى بعد، وذلك لأنه الآن فقط تحقق حلمى - حلم أيام الطلب بأن أهتم بالفن الإسلامى.

بعد أن أعطى مدير المتروبوليتان فيليب دى مونتيبللو Montebello موافقته (وقد ساندنى فيما بعد أيضًا ودائمًا بأصدق ما يكون) بدأ عملى بأن أنظم معرضًا صغيرًا ممتازًا من خطوط الزخارف الإسلامية، وذلك فى إحدى الحجرات التى أضيفت حديثًا إلى القسم. وافتتح المعرض فى

سبتمبر ١٩٨٢ تحت عنوان The Celestial Pen "ريشة سماوية". وبخلاف ذلك كان ينبغي عليَّ بالدرجة الأولى أن أقرأ النقوش والنصوص، وأن أحددها وأعرفها، وذلك لأن معرفة اللغات الإسلامية متخلفة لدى الكثيرين من مؤرخي الفنون أو لا تكاد تكون موجودة.

وهكذا كنت أطير إبان الفصل الدراسي وبصفة دائمة عدة مرات من بوسطن إلى نيويورك. وقد تيسر لى تنظيم هذا بشكل جيد؛ فمحاضرات يوم الخميس تنتهى فى العاشرة، ومن ثم أسرع الخطى إلى المطار فأطير فى طائرة الساعة الحادية عشرة المكوكية إلى مطار لاجوارديا، وبذلك أكون - إذا لم يكن هناك زحام فى مكان ما - فى مكتبى فى منتصف الواحدة؛ حيث أسعد بالتعاون مع زملائى، ومع جورج الذى يمسك فى يديه بمفاتيح كل الكنوز، وغالبًا ما كنت أطير مساء الجمعة عائدة إلى بوسطن.

يالها من بهجة أن يحمل المرء بين يديه الأعمال الخزفية ذات النقوش الفارسية أو العربية، وأن يمسح على الأوراق الناعمة جدًا لأحد مجلدات الشعر المزينة، وأن يحدد صفحة قرآن مبكرة على رق! فقط كان الأمر صعبًا بعض الشيء عندما أعمل فى قسم "الأسلحة والتسلح" على أسلحة ثقيلة أو سيوف ضخمة عليها زخارف أكثر مما عليها من نقوش مقروءة، ولكن كان العمل بذاته مشوقًا. كانت تعرض علينا قطع جديدة بين حين وآخر. لاجئون أفغان يريدون أن ينفصلوا عن نسخة قرآن كانت بالنسبة إليهم ذات قيمة كبرى، ولكنها لا تملك أية جودة متحفية، أو بعض النسوة المتعلمات اللاتى لم يستطعن أن يصدقن على الإطلاق أن مخطوطًا فارسيًا لطيفًا يعود لبدايات القرن الخامس عشر ليس مطبوعًا، وإنما مكتوب باليد: "هل تعنين أنهم صنعوا هذا باليد؟" يسألن ويهززن الرءوس المصففة بعناية غير مصدقات، وهكذا كانت توجد دائمًا أنواع من التغييرات.

وفى عام ١٩٨٢ حققت وكارى مخطوطًا صغيرًا ونفيسًا من متحف فوج للفنون في هارفارد، وكان المخطوط عبارة عن نسخة فخمة من ديوان

الشاعر الفارسى أنورى (توفى حوالى ١١٩٨م) نسخت فى لاهور عام ١٥٨٩ وزينت بسبع عشرة منمنمة صغيرة للغاية. وكانت النسخة بمثابة "كتاب جيب" للقيصر المغولى أكبر الذى كان يقيم آنذاك فى لاهور، وربما كان قد طلبها أيضًا لأجل زوجته سليمة التى كانت تملك مكتبتها الخاصة. وبعد عدة سنوات بدأ كارى ونحن العاملين فى الجناح الإسلامى العمل مع تلميذى القديم ويلر فى تحرير الألبوم الذى صنع لابن أكبر جهانجير، وأكمل من قبل ابنه شاه جهان، وكان يحتوى على منمنمات نفيسة: بورتريهات للحاشية (كما طلب القيصر أن تعمل لكل الأعضاء المهمين فى مملكته)، وللنباتات والحيوانات، وكانت الصفحات التى تحمل أفضل الزخارف الخطية الفارسية تتبادل مع صفحات الصور. وقد صدر هذا المجلد الجميل عام ١٩٨٩ بوصفه "ألبوم الإمبراطور" The Emperors' Album.

وفيما بين هذا وذاك (١٩٨٥) وجد الحدث الأكبر إبان وقت كارى، وهو "معرض الهند" الذى كان يحلم به منذ وقت طويل. كنا نعمل جميعًا على الكتالوج الكبير الذى يحتوى على نماذج كل عصور الفن الهندى، من المنتجات "البدائية" التى لها قوة كبرى وحتى الأعمال الفنية الأكثر تعقيدا وتهذيبا للعصر المغولى. وقد عشت - على الأقل على البعد - كيف يعد لمعرض كبير، وذلك أننى وبعد نهاية الفصل الدراسى فى يونية كنت فى بون، ثم كان يجب علىَّ حضور مؤتمر مؤرخى الأديان فى سيدنى، وهذا ما لم أكن - بوصفى رئيسة للجمعية الدولية لتاريخ الأديان - لأعتذر عنه، وبعد مؤتمر لم يكن بالضبط ناجحًا أو حتى مفرحًا فى سيدنى الباردة طرت إلى لوس أنجليس؛ حيث وصلت بفضل خط التاريخ أسبق من وقت طيرانى. وفى بوسطن وطنت نفسى قليلاً على الولايات المتحدة الأمريكية لدى صديقىَّ المخلصين ألما جيزا وفولفهارت هاينرشس، ثم توجهت إلى نيويورك؛ حيث وجدت لى جانيت حجرة ضيقة لدى أحد المستشرقين الشباب، والتى كدت أختنق فيها فى حرارة نهاية الصيف لعدة أسابيع بطولها. لقد كان مؤجرى

وأسرته لطيفين جدًا، ولكن فى المتحف كنت أنسى الحرارة، وكل ما عدا ذلك إبان الإعدادات الأخيرة، وخاصة إذا ما استطعت أن أكون موجودة إبان إخراج الكنوز. وأين كنت أستطيع فى غير هذا الظرف أن ألمس الزمردة الأسطورية الضخمة المسدسة، التى تزن مائتين وثمانية عشر قيراطًا وذات النقوش الرهيفة، والتى ترجع إلى متحف الصباح فى الكويت؟ ومتى يستطيع المرء أن يأخذ بين يديه بوتقة الأفيون الصغيرة لجهانجير، والتى صنعت من اليشم الأبيض والياقوت الأحمر وتماثل زهرة حقيقية؟ ومن أحد الصناديق زحفت سلحفاة مياه عذبة ضخمة عملاقة منحوتة من كتلة واحدة من اليشم، ويقترب طولها من خمسين سنتيمترًا، ويقترب عرضها من ثلاثين سنتيمترًا، وتركتنى أتحسسها وأمسح عليها. وفضلاً عن ذلك الخيمة الحريرية الحمراء التى كانت مرة ملكًا للقيصر المغولى أورنجزيب، ثم وقعت فى عام ١٦٧٥ فى أيدى أمراء الراجبوت من جودهبور، وقد عرضت بحيث يتطلع إليها الزائرون من خلال أعمدة الرخام أولاً، حتى مالكها مهراجا جودهبور كان مفتونًا بهذا التنظيم. وبعد انتهاء الافتتاح الرسمى بقيت لعدة أيام أخرى فى المتحف، وكنت أقف فى كل زاوية حيث يعلق عملى الفنى المفضل: لوحة خط زخرفى من الدكن من القرن السابع عشر يمكن التعرف فى المسافة بين سطورها، والتى تقترب من سنتيمتر واحد على طبيعة كاملة فى رسوم من أدق ما يكون، وكنت أنبه الزوار بكل سرور إلى هذا العمل الفنى الصغير، هذا وإلا لن يُرى فى وسط هذا الحشد من النفائس.

كانت نفائس المتروبوليتان تفتننى وتلهمنى دائمًا من جديد، وقد كتبت سبع قصص عن الأعمال المفضلة لدى لكتاب صور صدر فيما بعد بالفرنسية والألمانية، ولكنه وبشكل مستغرب لم يظهر قط فى أصله الإنجليزى.

وبعد وداع كارى واضطلاع دين والكر Walker بإدارة القسم الإسلامى بقى التعاون الجميل موجودًا أيضًا، وأنا أشكر له المعارف المهمين

فى سينسيناتى؛ حيث كان يعمل فيما قبل فى متحفها. وحينما غادرت أمريكا فى عام ١٩٩٢ كان الوداع للمتحف ولأصدقائى النيويوركيين صعبًا بصفة خاصة.

إلى نيويورك تنتمى أيضًا لونج أيلاند التى يوجد فى نهايتها حرم جامعة ولاية نيويورك، وهناك يدرس كل من وليم شيتيك Chittick وزوجته ساشيكو موراتا Murata وهما زوجان فتحت أعمالهما عن التصوف الإسلامى وجهات نظر جديدة تمامًا. ومن كان يستطيع بخلاف ساشيكو أن يتيح الترجمات الصينية القروسطية للنصوص الصوفية العربية والفارسية للمستشرقين "العاديين"؟ ومن منا كانت ستأتيه الأفكار لأن يصور رؤية العالم لدى المسلمين فى كتاب The Tao of Islam "المبادئ الأولى للإسلام"، والذى يفسر فيه انسجام وتناسق واعتدال الإسلام بناء على دراسات مطولة للمصادر العربية والفارسية؟ (على كل حال فإنه من السهل من وجوه عدة، للناس القادمين من أحد التقاليد الشرق آسيوية أن يقتربوا من الإسلام، وذلك لأنه ليس لديهم تلك العلاقة المسيطرة لدينا مع التراث اليهودى المسيحى، والتى كثيرًا ما تقود إلى مقارنات خاطئة). ومن يستطيع مثل ساشيكو أن يسحر من لا شىء الوجبات اليابانية والصينية الشهية. نعم، لقد كانت الأيام لدى عائلة شيتيك فى ستونى بروك وبصفة دائمة توفيقًا رائعًا بين العلم والمتعة ومتبلة بالفكاهة.

كانت آخر زياراتى للونج أيلاند بمناسبة أحد المؤتمرات التى يلتقى فيها مجموعة صغيرة من علماء الأديان الأمريكيين مرة فى العام، فى آخر إجازة أسبوعية من شهر أبريل. كان كل شىء مزهرًا كما لو أن اللونج أيلاند قد أصبحت حديقة معبقة، ولكن الزملاء العلماء بدأوا كما لو أنهم لا يأخذون هذا مأخذ الجد؛ حيث تاهوا فى مناقشات فلسفية - اجتماعية عالجوا فيها الدين - وهو ما أمسى أمرًا حداثيًا - بشكل تنظيرى خالص، حتى إن كلمة "الله" قد تم تجنبها آنذاك قدر المستطاع. وفى المساء سافرت إلى نيويورك

سيتى، وأخذت فى الصباح الباص المعتاد من عند جانيت إلى المتحف. فى الجزء الشمالى من السنترال بارك تزدهر أشجار اللوز وشجر الكرز اليابانى والأزهار الوردية من كل لون. لقد كانت روعة الربيع عديمة النظير، وقد توجهت إحدى المرأتين السوداوين اللتين تجلسان خلفى - ربما كانت عاملة - إلى جارتها وأشارت إلى روعة الأزهار قائلة: "انظرى، أليست مثل جنة عدن قبل المعصية؟" لقد كان شعورى أن هذه المرأة البسيطة تعرف من الدين أكثر من زملائى الفطاحل.

وإبان مشاوير سيارات الأجرة بين المطار والمتحف ألقيت نظرة على النواحى المتنوعة لحياة سائقى التاكسى الذين يتحدثون بكل سرور مع الغرباء. كان هنا الأكاديمى الروسى، وكان هناك ابن لأحد الرعاة الأتراك، والشاب الأسود وأناس من بلاد الله، ولكن كان أكثر ما يؤثر فىَّ ذلك السائق اليهودى العجوز الذى زين مركبته القديمة الضعيفة بشريط ورق أصفر عريض كتب عليه بحروف كبيرة: "هذه سيارة أجرة مباركة. لتكن سعيدًا! اليوم سيحدث بالتأكيد شىء حسن! مباركة! لا تكن حزينًا!" وعندما سألته لماذا وضعت هذه الكلمات المشجعة المبهجة. قال: "انظرى، يأتينى الكثير من الشباب الحزانى أو الشاكين، البعض يريدون أن يتخلصوا من حياتهم، وهنا أتحدث إليهم وأحاول أن أعطيهم بعض الأمل". وعندما أفكر فى نيويورك فإننى أتذكره أيضًا، وأتمنى أن يكون هو نفسه سعيدًا.

لم يكن أحد آنذاك ليخمن أن البرجين التوأم الضخمين، فخر مدينة نيويورك، فى الجانب الجنوبى للجزيرة سيتحولان فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ إلى خرائب وأطلال.

بين تالهازا وفانكوفر

كانت نيويورك فقط هى إحدى المدن الكثيرة التى سافرت إليها طوال تلك السنوات للمحاضرة أو للمؤتمرات. وتأتى شيكاغو فى الدرجة الثانية من

حيث الكثرة؛ حيث أصبح لعلم الأديان من خلال وجود مرثيا إليادا مركـزًا. ولأننى كنت أشارك فـى إصـدار Encyclopedia of Religion "موسـوعة الأديان"؛ فقد كنت أرى إليادا بين حين وآخر، كما كنت أرى الزملاء فى قسم لغات الشرق الأوسط؛ حيث كان حشمت مؤيد الظريف ممثلاً للغة الفارسية، وكان معرفة قديمة من فرانكفورت، وكذلك كانت الأردية تعلم هنـاك. لقـد أحببت المدينة التى تمتد بجمال على بحيرة ميتشجان ويشعر المرء دائمًا على شاطئها بالرياح الباردة، وكذلك كانت للأماكن المجاورة - مثل إفنـستون - جاذبيتها، وكان حشمت يصطحب أمى بكل فخر إلى المعبد البهائى الـضخم والأول من نوعه (يشبه المعبد البهائى فى دلهى زهرة لوتس بيضاء تبرز من حى فقير كئيب إلى حد ما).

وكان وجودى فى لوس أنجليس يكاد يكون بـنفس الكثـرة، وكانـت مونتريال مفضلة بصفة خاصة لدى؛ فهى تبعد ساعة طيـران تقريبًـا مـن بوسطن، وهناك فى جامعة ماكجيل يوجد مركز جيد للعلوم الإسلامية، كمـا وجد بصفة خاصة تحت إشراف تشارلز أدمز Adams وهيرمـان لانـدولت Landolt الكثير من الطلبة الإسماعليين الذين ابتعثوا من قبل الأغاخان (كانت كندا إلى حد ما مركزًا للإسماعليين الذين كنت أتحدث لديهم بكل سـرور). كنت أزور ماكجيل فى السنوات الأولى لعملى فى هارفارد بكثرة، وما زلت أتذكر كيف إننى لونت فى سبت عيد الفصح قرابة أربعين من بـيض عيـد الفصح بحكم عربية وفارسية، وقد وزعت لأجل فرحة الطلاب، فـى بيـت آدمز المضياف. وتحدثت فى تورنتو كذلك لمرات متباعدة ليس فقـط إلـى الإسماعليين، وإنما أيضًا فى المؤتمرات الدينية والتاريخية. وقضيت مـساءً ساحرًا على سطح أحد المطاعم مع جوزيف كامبـل Campbell[١٥٥] الـذى فتنت كتبه الجميلة عن الميثالوجيا ودورها فى انتشار أفكار هاينرش تـسيمر عددًا لا يحصى من الأمريكيين والأوروبيين. لقد كان مـن الجميـل دائمًـا التناقش مع جو، كنت أحب اهتمامه بالعالم الحى للأساطير وتفهمه للطبقـات

العميقة للدين وتذوقه للجمال. وقد فهمت فيما بعد فقط علاقتـه مـع حلقـة إيرانوس فى أسكونا.

كانت وينيبج المكان الذى اخترت فيه - فى أكبر مفاجأة لى - رئيسة للجمعية الدولية لتاريخ الأديان، وذلك حينمـا نقـل تـسوى ويربلوفـسكى Werblowski إلىَّ الخبر فى حجرتى فى الفندق، وكان أول رد فعل لى: "كم كان سيسعد هايلر لأجل ذلك!". وبعد خطبة قدومى مباشرة ألحت على بعض الطالبات بأنه ينبغى على - الآن وأخيرًا - أن أفعل شـيئًا لأجـل النـساء. وكذلك جئت إلى إدمونتون، ولم تكن بالضرورة مكانًا مثاليًّا لى، هذا رغـم أننى تقابلت هناك مرة أخرى مع أصدقاء قدامى من أيام تركيا وبـنجلاديش، وتدفأنا معًا إبان البرد الثلجى (كان هذا فى مايو) بالذكريات عن دفء دكـا وشيتاجونج. وأخيرًا فانكوفر على المحيط الهادئ وهى مدينة ساحرة علـى الخليج ويمكن للمرء أن يطلع من نادى الكلية على منظر رائع على الخليج، ويستطيع كذلك أن يحلم بأن يسافر بعيدًا بعيدًا إلى الشمال ليرى وباسـتمرار غابات وخلجان جديدة، ولكن هذه كانت أحلام، أما الحقيقة فكانت هى إلقـاء محاضرات للإسماعليين والطلبة الآخرين.

وأحيانًا كنت آتى إلى أماكن ذات أسماء غريبة؛ فعندما كانت جولشان تدرس فى تالهازا زرتها هناك فى فلوريدا، وكذلك بـدأت زميلـة الدراسـة أنجه[١٥٦] عملها الأكاديمى فى شاتانوجا التى استكشفناها أنا وأمى ثم طرنـا من هناك إلى ألبانى فى شمال ولاية نيويورك، وذلك حتى ننتقل من الجنوب المزهر إلى جو ومزاج عيد الفصح الشتوى، وحيث تطير أسـراب طـائر الكركى فوق البحيرات المتجمدة راسمة علامات مبهمة فى سـماء الـشتاء. وهناك قام بتدليلنا عالم الجرمانيات النمساوى الظريف جوزيف بيتر شتريلكا Strelka الذى عملت معه لوقت قصير. ولقد جاءت إنجه عبر طرق متنوعة ومتقطعة إلى أيوا؛ حيث كانت تدرس الجرمانيات، وتستمر فـى الاهتمـام

بانعكاس الشرق الإسلامى على الأدب الألمانى، وهكذا كان يجب على أيضًا أن أذهب إلى أيوا؛ حيث يوجد بطريقة مفاجئة عجيبة المسجد الأول فى الجزء الغربى من شمال أمريكا.

ارتبطت أطول رحلاتى العلمية بمحاضرات المجلس الأمريكى لجمعيات المثقفين ACLS؛ فهذا المجلس يرسل كل عام أحد العلماء، خاصة علماء الأديان، فى رحلة محاضرات إلى الجامعات المختلفة. وبداية يجب على المحاضر أن يقترح سلسلة من خمس محاضرات، يجب أن ترتبط على الأقل بعلاقة سهلة ما، وعلى الجامعات أن تختار منها ما يناسبها سواء كان ذلك محاضرة أو اثنتين أو الخمس كلها. والمرء لا يكون متأكدًا على الإطلاق من يريد أن يسمع ماذا، ولكن كل ما أعرفه أننى حطمت كل الأرقام القياسية بأن ألقيت بالإجمال أربعين محاضرة، وكانت الجامعات والمعاهد العليا هى على وجه التحديد - كما أنقلها من مقدمة كتابى الذى طبع فيما بعد As through a Veil: Mystical Poetry in Islam "كأنه من وراء حجاب: الشعر الصوفى فى الإسلام" - هى: جامعة رايس فى هيوستون (تكساس)، وترينتى كولدج سان أنطونيو (تكساس)، وناشفيل (تنسى)، وجامعة ديوك (دورهام/ نورث كارولينا)، وجامعة تشابل هيل (نورث كارولينا - حيث صدرت ثلاثة من كتبى المهمة)، وجامعة تورونتو، وجامعة برنستون، وجامعة ماكماستر (هاميلتون أونتاريو)، وجامعة ماكجيل (مونتريال)، وجامعة كولومبيا فى نيويورك، ومعهد التيولوجيا الاتحادى فى نيويورك (حيث قابلت دوروتيه زوله Sölle واصطحبناها عبر القسم الإسلامى لمتحف المتروبولتان)، وجامعة كولورادو (بولدر ودينفر)، وجامعة شيكاغو، وإفنستون (إلينوى)، وأخيرًا جامعة ألبرته، إدمونتون. وكان يجب على أن أرتب كل هذا فيما بين محاضراتى فى فصل الربيع الدراسى فى هارفارد، ولكن ورغم كل هذا الإجهاد فقد كان الأمر جديرًا بالعناية. ومتى كنت سأرى فى خلاف هذا غابات تنسى أو جبال كولورادو المغطاة بالجليد؟

إلى جانب الرحلات الشتوية لمجلس جمعيات المثقفين الأمريكي، وجدت على مر الأعوام محاضرات فى أوجينا (أوريجون) ذات الورود البهية. وفى المبنى الجامعى المهم لبركلى. وقد قادتنى زيارة متأخرة بعد تقاعدى إلى بالوألطو فى كاليفورنيا؛ حيث تمكنت من التمتع بضيافة كاتارينا مومزن Mommsen[١٥٧] واستعدنا كما هو دائمًا وأبدًا موضوع جوته والشعر الشرقى، ولكن المحاضرات الأجمل تكاد تكون تلك التى ألقيت فى صولت ليك سيتى (يوتا)، مدينة المورمون Mormonen[١٥٨]؛ حيث لم أتمتع فقط بالزمالة، وإنما أيضًا بضيافة زوجين فارسيين لطيفين أنشآ لإحياء ذكرى ابنهما الذى فارق الحياة مبكرًا سلسلة محاضرات عن الثقافة الفارسية. كانت الطبيعة فى يوتا باهرة، ليس فقط الجبال؛ حيث دمرت الاستعدادات للألعاب الأولمبية الشتوية - إبان زيارتى الأخيرة - جاذبية المنطقة، وإنما أكثر من هذا المناظر الطبيعية النادرة التى تذكر جزئيًا بجوريم فى تركيا، وكذلك تذكر جزئيًا بأفغانستان، ولكن كانت ألوان الصخور الصفراء والحمراء المرجانية، والتى توحى بأنها نحتت بيد ساحرة، شيئًا لا يقارن. لقد تمتعت برحلاتنا التى حشرت بين المحاضرات، وسعدت بالبحر المالح الكبير، وبالمعبد المرمونى الكبير فى صولت ليك سيتى. لحسن الحظ كان المرء يستطيع شرب القهوة فى الجامعة التى هى خلاف ذلك محرمة لدى المرمون، مثلها فى ذلك مثل الكحول. (ولكن يسمح للمرء أيضًا أن يحضرها إلى بعض المطاعم، ولكن مخبأة بعناية فى كيس). وفى مقابل هذا فإن يوتا هى مركز صناعة الأيس كريم.

وقد سافرنا من هناك مرة إلى يللوستون - ناشيونال بارك التى أريد رؤيتها منذ طفولتى، ولكن كان الأمر مخيبًا للآمال؛ فجزء ضخم من الغابات كان قد قضي عليه فى حريق ضخم، وكذلك لم أجد فى العين السخنة Geysire شيئًا تهتز له النفوس جدًا، ولكن ربما كنت بكل بساطة متعبة وليست معى الصحبة الملائمة.

كانت سنوات أمريكا وقتًا ثريًا، ملونة، ولا يمكن بطريقة ما الإحاطة بها؛ فهي مثل لعبة الكاليدوسكوب[١٥٨]. لقد قابلت أناسًا من أصول مختلفة، علماء ومواطنين بسطاء، نخبة الجامعات والشحاذين الذين يرقدون في الشتاء على الأسوار التي يأتي عن طريقها بخار التدفئة للمستشفى أو للجامعة. وقد كابدت عواصف ثلجية باردة وتمتعت بأيام ربيعية ساحرة، صيف إنديانا وأوراق القيقب[١٥٩] الساطعة، والتي يرى المرء لونها الأحمر حتى من الطائرة، وذلك إذا ما طار المرء عبر كندا إلى بوسطن. ولكني عانيت الوحدة أيضًا رغم كل الصداقات. "أنّا ماري، أنت تذهبين إلى المكان الأكثر انعزالاً وتوحدًا على الأرض"، قال لي زميلي كين مورجان، وهو نفسه خريج هارفارد، وذلك حينما قبلت دعوة العمل في هارفارد، وكان لديه حق؛ فرغم كل الأشياء الجميلة ورغم النجاحات الكبيرة التي لم أتوقعها قط، ورغم كل الصداقات الرائعة؛ فإن الولايات المتحدة الأمريكية لم تصبح وطنًا لي قط. أكان هذا خطأ الطائر الغريب الذي يشتاق للعودة من منفاه الغربي إلى وطنه في الشرق؟

الجزء السادس

ارتحالات عبر الشرق

أذهب إلى بلد بعيد،
حتى أؤدى واجبًا،
هيأنى له.
بركته ستيسر لى،
أن أدرك ما هو جيد وحق
لأخدم ملكوته.
سيُرينى خلال الرحلة
النجاح المأمول،
وسيساعدنى جيدا هنا وهناك.
وسيهبنى الصحة والجسد والحياة،
والوقت والريح والطقس،
وكل ما يتمنى.

باول فليمنج عام ١٦٣٣،
(قبل رحلته إلى بلاد فارس)

الكويت والبحرين

أحيانًا أحسد الطلاب الذين يمكنهم - بـدهيًا - حـضور دورة إبـان الإجازة فى القاهرة أو تونس أو دمشق. بالنسبة إلىَّ كان بالتأكيد حدثًا ضخمًا أن ألتقى فى يينا فى أحد عصارى عام ١٩٣٨ مع طالبين عربيين! وقد زرت بلدًا عربيا لأول مرة فى نهاية يناير عام ١٩٥٨؛ فعند الطيران من أنقرة إلى كراتشى توقفت كمرحلة انتقالية لمدة أربع وعشرين ساعة فى بغـداد، وقـد أرانى أحد تلاميذى الأتراك الذى كان يدرس العربية هنـاك وليـوم كامـل المدينة التى تذكرنا "بألف ليلة وليلة" بشكل ضئيل جدًا، وقـد زرنـا بعـض المزارات المقدسة، على سبيل المثال ضريح عبدالقادر الجيلانى العظيم الذى انتشرت طريقته القادرية فى أغلب أجزاء العالم الإسلامى حتى إندونيـسيا، وقد تقابلت وأعضاء أسرته فى بلدان مختلفة. إلى جانب ضـريحه المعبـق بعطر الورود، والمملوء كذلك بحجاج هنود وباكستانيين؛ أثر فىَّ - بـصفة خاصة - المزار الشيعى المقدس فى الكاظمية، وقد قمت متخفية جدًا بزيارة مسجد الضريح المملوء بالمرايا والشموع للإمام الـشيعى الـسابع، والـذى شعرت فيه بأننى مرتبكة وغير آمنة. كانت مواصلة الطيران باتجاه الـشرق شىء لا ينسى؛ فالأرض السوداء الخصبة بين نهرى الفرات ودجلة اللـذين يصبان فى الخليج جعلتنى أفكر فى التاريخ المبكر للبلد.

بعد ما يقرب من أربعة عقود، عام ١٩٩٦، بعد بضع سـنوات مـن حرب الخليج المشئومة جئت إلى الكويت التى كانت لا تزال تعـانى نتـائج الحرب. وقد استقبلتنى غادة التى كانت تلميذتى فى هارفـارد، تحـت رذاذ المطر البارد فى المطار، ولكن لم يكن لدى غير وقت قليل لأهتم بـالطقس، وذلك لأن غادة قد أعدت برنامجًا حافلاً. وكانت المرأة الجميلة، لاجئة مـن فلسطين، قد جاءت مع أسرتها إلى الكويت، وعملت لوقت طويل فى متحـف الصباح للفنون الإسلامية. وقد جاءت لسنوات عديدة إلى هارفـارد، طالمـا

سمح العمل والأسرة بذلك، حتى تدرس تاريخ الفن الإسلامى، وتكتب أخيرًا أطروحة الدكتوراه لدىَّ ولدى أوليج جرابار: ترجمة لمؤلف عربى من القرون الوسطى حول كنوز وهدايا الممالك الإسلامية المبكرة. وهو كتاب محتواه أكثر أسطورية من الحكاية عن كنز علاء الدين. وقد استطاعت غادة من خلال خبرتها فى العمل المتحفى أن تحدد وتعين أشياء كثيرة، وأن توضح أوصافًا تبدو ملغزة للمواد والأدوات. أخذتنى غادة إذن تحت جناحيها، وقد قابلت ولى العهد ذو البشرة الداكنة وزوجته الرائعة (هكذا أتخيل ملكة سبأ) التى أقامت لى حفل عشاء (للسيدات فقط). كما كنت ضيفة على البرلمان؛ حيث لم تكن توجد عضوات بعد. وفى مقابل هذا كانت توجد كيميائية حازمة رئيسة للجامعة. وقد قابلت الكثير من المعارف القدماء: السفير الألمانى الذى تعلم مرة لدينا فى بون البدايات الأساسية للعربية. والشيخة حصة الصباح مؤسسة ومديرة المتحف الرائع الذى دمر ونهب أيام الحرب، وكانت كما هى دائمًا ذات نشاطات جديرة بالإعجاب. وكان يوجد متحف آخر اجتاز الحرب لحسن الحظ دون أن يصاب بأضرار وهو متحف طارق رجب الذى يدار الآن من قبل مؤرخ الفن المجرى جيزا فيهرفارى Féhervari الذى أعرفه من لندن. لم أكن أستطيع مفارقة المتحف، ولم أكن أعلم ما إذا كانت الخطوط الزخرفية الرائعة أكثر فتنة أم الجواهر، الثياب الثمينة أم الأوانى الخزفية، ولكن الواجب ينادى؛ فلا بد من أن ألقى كذلك بعض المحاضرات، بل وباللغة العربية للمرة الأولى. كانت غادة فخورة جدًا بأننى أقدم على هذا بناء على حثها وإلحاحها! ولكن ما أسرع ما كان يجب على مغادرة الكويت الغائمة حتى أطير إلى القاهرة؛ حيث كانت تمطر آنذاك بغزارة.

ليست الكويت فقط التى تحتوى على متاحف تضطرب لها قلوب كل محبى الفنون الإسلامية، أيضًا البحرين يمكنها أن تباهى بمتحف صغير ولكنه غنى، أعنى هنا متحف بيت القرآن فى عاصمة المملكة الصغيرة فى الخليج،

والذى يعود إنشاؤه مثل كلا المتحفين الكويتيين، إلى مبادرة فردية؛ فقد أنـشأ عبد اللطيف جاسم كانو هذا "البيت" الذى يحتوى - إلى جانب مسجد صغير جميل المعمار جدًّا - على قاعات محاضرات ومكتبة وقطع فنيـة إسـلامية رائعة، ولم يقتصر الأمر على مخطوطات قرآنية فقط، وإنما وجدت أعمـال معدنية وخزفية أيضًا، حتى الفنون الحديثة من العالم العربى كانت موجودة. بعد وقت قصير من وجودى هناك فى فبراير عام ٢٠٠٠ أقيم معرض ممتاز للخزف المزين بالخطوط الزخرفية الذى أبدعته صديقتى العراقية وتلميـذتى المبكرة فى هارفارد وسماء كوربجى.

والبحرين كوزموبوليتيه؛ ففى البازار- المغرى بمصوغاته الذهبية! - يسمع المرء الهندية والأردية أكثر من العربية، وذلك لأن حصة الباكستانيين من السكان عالية جدًّا. ومن هنا لم يكن مدهشًا أن أتقابل مرة أخـرى مـع بعض المعارف القدامى: زوجات كـان أزواجهـن يعملـون فـى الـسلك الدبلوماسى أو فى عالم المال. أحد معارفى الجدد كان شابًّا ممتـازًا يعمـل خبيرًا فى الصناعة المصرفية الإسلامية، وهذا يعنى فى المعاملات التجارية التى يطبق فيها التحريم القرآنى لأكل الربا؛ فهو شكل تجـارى يقـسم فيـه المكسب وتتحمل فيه الخسارة فى كل الأحوال بين الشريكين معًا. وكان هذا السيد أيضًا هو من أجرى معى حديثًا للتلفزيون لمدة ثمانى ساعات ينبغى أن تذاع فيما بعد فى رمضان، شهر الصوم. وحينما أبديت فى صباح أحد الأيام وببعض التهكم إعجابى بإحدى سجاجيد الحائط فى الأسـتوديو، وذلـك لأن عليها جملاً يكاد يكون بالحجم الطبيعى، لم يترك الأمر يمر- ولم يكن مـن الممكن إيقاف ذلك - دون أن يهبنى سجادة تكاد تكون مطابقة.

وفى هذا السياق لا بد من ملاحظة؛ فبأى وجه يحصل الزائـر علـى هدايا كثيرة جدًّا؟ لدى الدعوات التى تصدر عن المؤسسات الوطنية تدفع حقًا تكاليف الرحلة والإقامة وتقدم الضيافة الكريمة مع تحقيـق كـل الرغبـات،

ولكنهم لا يدفعون مقابلاً للمحاضرات وبدلاً من هذا توجد هدايا. في الباكستان كانت الهدايا في الغالب عبارة عن شيلان صوفية جميلة، ولكن في بعض الأحيان لا تلائم المفاجآت ذوق الضيف الممنوح، وفي أحيان كثيرة تكون الهدايا جبلاً من الكتب، ومن ثم لا بد وأن ينقل المسافر جوًا بشحنهم بحرًا على السفارة أو على منظمة حكومية، وأحيانًا أيضًا مثلما حدث لدى المحاضرة للسيدات البحرينيات، تكون الهدية عبارة عن لوحة نحاسية ضخمة ذات نقوش قرآنية، نعم في منتهى الجمال، ولكن يصعب نقلها (وقد تم لفها في سجادة الجمل).

منذ وقت قصير اتصلت البحرين بالعربية السعودية من خلال جسر طويل تأتي عليه، كما يقال، كل إجازة أسبوعية سيارات من شبه الجزيرة ينغمس فيها أصحابها في الاستمتاع بالكحول المحرم في وطنهم، وهكذا يقوون الاقتصاد البحريني. وكانت النزهة إلى الجوانب المختلفة للجزيرة أمرًا ممتعًا. أجل كان الجو باردًا مما أسعد السكان المعذبين في غير هذا بالحرارة، ولكنه لم يسعدني بالطبع. كانت إحدى العواصف الباردة تثني النخلات المسكينات إلى تحت بقوة، بينما تعلو أكاليل من الزبد على أمواج الخليج التي يتغير لونها من الأخضر التركوازي إلى الترمالين الغامق[١٦١]. وأعجبت مع بعض السيدات البحرينيات – اللاتي يلتزمن رغم دراستهن في أوروبا أو كندا بالحياة في الحجاب – بمنظر الماء الذي يسوط الشاطئ بأعاصيره، وتحدثنا في الوقت ذاته عن مشاكل التفسير الحديث للقرآن. وكانت هذه هي المرة الوحيدة حتى الآن التي انتقلت فيها بالسيارة بقيادة سيدة محجبة بالأسود تمامًا، بل وكانت في منتهى البراعة.

سوريا والأردن

في هذه الأيام وجدت في الشرق الأوسط موجة باردة وصلت حتى الحدود الشمالية للعربية السعودية، بل يبدو لي أن البرودة كانت تطاردني

أينما ذهبت؛ حيث ينبغي حقيقة أن يكون الدفء. في القدس أثناء مؤتمر حول "الإسلام في جنوب آسيا" (١٩٧٧) أنقذت في نهاية أبريل أثناء طقس يزعم أنه ربيعي بفضل الجاكيت الصوف لزميلة إسرائيلية متعاونة. وماذا حدث في سوريا؟ لقد تساقط الجليد في مارس! كنت قد جئت إلى سوريا بناء على دعوة جامعة دمشق، وكان رئيس الجامعة آنذاك يحمل اسمًا يناسب الطقس "ماء بارد". وكان مثل عرب كثيرين قد درس في ألمانيا الشرقية، وجلب معه من هناك زوجته الألمانية. وكانت مرافقتي حنان، أستاذة في الآداب الرومانية، امرأة شابة لطيفة شعرت في كنفها بمشاعر الرضا. ولم تكن دمشق - والحق يقال - رائعة كما حلمت أن تكون. وقد اصطحبني أحد تلاميذنا في بون، والذي يعمل في معهد الآثار على أطروحته للدكتوراه عبر المدينة القديمة، وأراني المسجد الأموي الضخم الذي ربما كنت أعرفه من خلال صور كثيرة جدًا لدرجة أن الفسيفساء الخزفية المشهورة لم تفتني بشدة كما كان يجدر بها. ربما نقصت الشمس التي كانت ستجعل المبنى يشع وهو في كامل أبهته.

بالطبع زرنا ضريح ابن عربي، ذلك الحكيم الصوفي الذي أثر نظامه الضخم على الطبيعة الدينية للإسلام بشكل عز نظيره، والذي ما زال ينظر إليه حتى اليوم من قبل الدوائر التقليدية بوصفه مارقًا خطيرًا. وقد ولد عام ١١٩٥م في مرسية (إسبانيا) ووصل بعد ارتحالات طويلة إلى دمشق، ومات فيها عام ١٢٤٠م. وقد ترك تراثًا لا يكاد يحاط به، ولما يدرس بالكامل حتى وقتنا الحاضر، ولكنه يجذب الآن اهتمام العالم الغربي بشكل مضطرد وقوي. وهنا لا بد من أن أقر بأنني رغم أفكاره المحلقة التي يصيغها نوعًا ما بطريقة غريبة ومفرطة في الحساسية فقد تصادقت جزئيًا فقط مع أعماله، ولكنه من غير اللائق ألا أزور مثواه الأخير، وأقرأ هناك الفاتحة. كان الضريح قد جهز بطريقة مبتذلة، ولكن في الخارج كانت تجلس هريرة تموء وتمدح بطريقتها الخالق والمخلوقات التي ترْبِت عليها وتعطيها بعض الطعام.

وكان مما أمتعنى جدًا ذلك الصباح لدى المفتى الكبير كفتارو الذى يمثل رؤية عالمية مسكونية واسعة كنت لا أزال أريد بكل سرور أن أعرف الكثير عنها، ولكن على الأرجح كان يجب علىَّ مرة أخرى أن ألقى إحدى المحاضرات أو أن أزور أحد الوزراء. اتجهنا فى جو مقبض إلى الشمال، وشربنا فى حماة الشاى بالقرب من النواعير الضخمة على نهر العاصى، ومن ثم بدأ المطر الذى وافانا كذلك فى حلب. وفى أثناء ذلك سعدت بصفة خاصة بهذه المدينة، من ناحية لأن مدرسنا للغة العربية فى برلين كان قد حكى الكثير عن مدينته، ومن ناحية أخرى لأننى أحببت الشعر الذى ازدهر هناك فى القرن العاشر فى عصر الحمدانيين، ولكن كانت أشعار شاعرَىْ الحديقة الصنوبرى وكشاجم أحب إلىَّ كثيرًا من الأشعار الرنانة الفصيحة للمتنبى الذى يعد الشاعر المحبوب للمعجبين الذين لا يحصون للغة العربية. ومن الذى تغنى بحدائق وأزهار المدينة بمَلاَحة أفضل من هذين الصديقين اللذين جمع شعرهما كل مناحى الحياة المتأنقة؟ وكذلك كانت حلب معروفة لى من خلال دراستى عن المماليك وكانت قلعتهم الضخمة فيها إحدى أماكنهم الدفاعية الشمالية. وعلى ميدان معركة مرج دابق شمال المدينة، والذى يمكن للمرء أن يراه من على أسطح المدينة التركية الحدودية كليس، وقعت فى أغسطس ١٥١٦ المعركة التى وضعت فيها الجيوش العثمانية نهاية للدولة المملوكية.

أخ، لقد خاب ظنى، ولكنى استطعت على كل حال أن ألقى نظرة على الحمام العمومى القديم الجميل، وأن أدفئ نفسى هناك قليلاً، واستطعت كذلك أن أرى لوقت قصير القبر المتواضع للسهروردى، شيخ الإشراق: هنا قتل المفكر الإيرانى والصوفى الكبير عام ١١٩١م وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره، وذلك لأن تحليق أفكاره الجريئة بدا خطيرا للفقهاء، وربما شعروا كذلك وببساطة بالغيرة تجاه هذا المفكر العبقرى. وبعد قرابة ثلاثمائة سنة قتل

هناك أيضًا، وبطريق بشعة كذلك شاعر الوجد والنشوة التركى نسيمى Nesimi[١٦٢] وكان كذلك ضحية سياسة ضيقة الأفق.

حلب إذن تعد بالكثير، ولكنى رأيت القليل، ولا أعرف لماذا أنزلنا فى فندق ذو مطعم إيطالى مزعوم، ولم أر مرة ولو من بعيد الطعام الحلبى المشهور. ورغم ذلك فقد تيسر لى استغلال وقت توقف فيه المطر وقمت بزيارة القلعة الضخمة، وهو الأمر الذى تمتعت به رغم السلالم التى لم تكن تريد أن تنتهى. أما الحدائق التى كانت فى وقت ما جميلة فلم يعد يوجد منها شيء، ولم يكن يوجد الوقت لزيارة البيوت الشهيرة فى المدينة القديمة. أتمنى أن أعوض ذلك فى وقت ما - إن شاء الله!

ومن حلب ذهبنا إلى ميناء اللاذقية؛ حيث كان رئيس الجامعة حفيدًا للصوفى الكبير الحلاج. وقد خضنا فى أحاديث مثيرة عن التراث الصوفى الذى يعرفه جيدًا رغم أنه مهندس. وعرفت من زوجته وهى مهندسة ألمانية نشيطة الكثير عن الحالة السياسية، وعن التوترات بين أهل السنة والعلويين، وهم الجماعة الشيعية واسعة التأثير، ومركزهم الرئيسى فى الجبال المكسوة بالغابات بالقرب من الشاطئ، وكذلك لم تفتقد المقارنات الصغيرة بين الوضع السورى وجمهورية ألمانيا الشرقية. وفى الصباح زرنا رأس شمرا (أوغاريت القديمة) التى تقع بالقرب من الفندق الجميل على البحر المتوسط، ولكننا لم نستطع بسبب المطر الشديد أن نعاين بدقة الأنقاض التى تعود إلى القرن الثامن قبل المسيح. وكانت نباتات السيكلام الصغيرة قد رفعت رءوسها عن الأرض بين الأنقاض. وهكذا سافرنا إلى الجنوب باتجاه دمشق مع قصد أن نزور فى طريقنا معلولة، ذلك المركز المعزول النائى للمسيحية المبكرة؛ حيث لا يزال يتحدث هناك بإحدى اللهجات الأشورية القديمة. بانزعاج لاحظنا أن قطرات المطر تأخذ شكلاً مختلفًا، وبسرعة أصبحنا فى قلب الثلج، ولكننا واصلنا بشجاعة تنفيذ خطتنا وانزلقنا على الطريق الذى يخترق

الوادى. على كل حال جلسنا نحن الأربعة - حنان وسابينا حلاجى وأنا ومعنا السائق الرائع الذى لا يكلُ - أخيرًا فى فندق معلولة الجميل ومنه تبدو البطحاء بجدرانها الصخرية القائمة ومنازلها التى نقبت فوق بعضها البعض مثل بطاقة عيد ميلاد بريدية لجبال الألب. لو أن الشاعر الحلبى الصنوبرى هنا لما كان له أن يصف الثلج وبشغف إلا بأنه "وردة الشتاء"! وكذلك زرنا الكنيسة وأنصتنا إلى الصلوات الأشورية للراهب العجوز واشترينا لأجل البركة زجاجة من النبيذ الأحمر اللزج لشدة حلاوته. وقد وصلنا إلى العاصمة ونحن يقظون وإلى حد ما نشيطون. وحينما ذهبنا فى الصباح بعد التالى - بعد انتهاء المحاضرات الواجبة المتنوعة - بسرعة إلى بالميرا كانت ندفات الثلج لا تزال تلمع على الطريق، تضىء فى ضوء البكرة الأزرق الصافى وفى مقابل ذلك ترتفع الأنقاض البعيدة ذهبية اللون.

بالطبع أمطرت أيضًا حينما جئت فى عام ١٩٩٣ إلى عمان لأول مرة. كان الشيخ زكى يمانى وزير البترول السعودى الأسبق قد عيننى عضوًا فى مؤسسة الفرقان التى تهتم - ضمن أشياء كثيرة - بفهرسة ونشر المخطوطات العربية المهمة فى كل العالم، وبصفة خاصة فى المناطق النائية مثل دول غرب أفريقيا أو فى البوسنة. وقد عقد أول مؤتمر لمدة يوم فى عمان، وهو الذى اشتركت فيه. كنت لا أزال أشعر بين العلماء الكبار من البلاد المختلفة بأننى غريبة بعض الشىء، هذا مع أننا نعرف بعضنا البعض من خلال إصداراتنا، ومن ثم فقد اشتركت بشكل سلبى أكثر منه إيجابى فى المناقشات التى كانت تكاد تلقى باللغة العربية فقط. وفى المساء دعينا من قبل ولى العهد الحسن بن طلال. كنت أعرف زوجته ثروت أو على الأقل أسرتها، فقد كانت ابنة البيجوم شايستى سهروردى أكرام الله التى يقع منزلها فى كراتشى على بعد عدة خطوات من منزل مضيفى عام ١٩٥٨. كانت البيجوم أكرام الله - وما زالت - إحدى أهم نساء الباكستان الجديرات

بالاهتمام، وهى بنغالية رشيقة وشديدة الحيوية والنشاط، وقد صاغت حياتها فى كتاب رائع أخاذ From Purdah to Parliament "من خلف الحجاب إلى البرلمان"، والذى حمل فى طبعته الأولى الإهداء التالى: "إلى زوجى الذى أخرجنى من وراء الحجاب، ويندم منذ ذاك على هذا". فالصبية شايستى (ولدت عام ١٩١٥) التى شبت فى عزلة تقليدية، والتى رسمت صورة حية لحياة أسرة مسلمة عريقة الأصل فى النصف الأول من القرن العشرين، اشتركت فى حركة الباكستان وعملت مع جناح، ولعبت بعد تقسيم شبه القارة دورًا نشيطًا فى المشهد السياسى والثقافى، وكانت - لوقت طويل - سفيرة لبلادها فى المغرب. كانت تشع بالطاقة، وهذا ما ورثته عنها أيضًا ثروت، إحدى بناتها. وهكذا كنت أعرف الأمير حسن - على الأقل - من حكايات الأصدقاء الباكستانيين، وقد فهمنا بعضنا البعض مباشرة بشكل جيد جدًّا. وبعد طعام العشاء انسحب المرء مرة أخرى - ولوقت قصير - إلى مكتب الأمير؛ حيث قطع النقاش العلمى حول المخطوطات العربية فجأة بسبب قدوم ضيف غير منتظر - قطة جميلة ضخمة خطت إلى الداخل فهرع كل السادة العلماء وأنا أيضًا إلى الحيوان ليربتوا عليها: "حب القطط من الإيمان" كما تقول إحدى الروايات المنسوبة للنبى. حينما ذكرت الأمير بعد عدة سنوات لدى العشاء فى القصر بهذا الحدث، وجدت ثروت الدموع فى عينيها - كانت القطة العالمة قد ماتت.

كان الأمير حسن - وما زال - فيلسوفًا همه الأكبر هو التفاهم بين الأديان، ومن هذا المنطلق أسس فى عمان مؤسسة البحوث والحوار بين الأديان والثقافات، والتى دعيت إليها عام ١٩٩٧. "أنت أنّا مارى؟" سألنى أحد الجنود فى المطار، وعقب ذلك مباشرة ظهر كمال صليبى المدير المسيحى للمركز (والذى أعرفه بالتأكيد من هارفارد) ومساعدته المسلمة منى وهى لاجئة مقدسية عظيمة المودة. كانت الأيام مملوءة بالأحاديث وبالطبع

بالمحاضرات. وقد زرت جامعة إربد، وتقابلت مع الكثير من المعارف القدماء، وكذلك مع الأميرة وجدان على وزوجها الأمير على، وقد أعجبت بالزخارف الخطية العربية الرائعة فى بيتهما. وقد فوجئت قليلا عندما تحدث الأمير على بالتركية مع امرأة عجوز عراقية الأصل، لقد هبت علىَّ نفحة من نفحات السلطنة العثمانية القديمة! الأميرة مشجعة وراعية كبيرة للفنون الإسلامية والحديثة، وهى تدير الآن معهد الدبلوماسية الذى كان ينبغى علىَّ بالطبع أيضًا أن ألقى محاضرة فيه.

وكذلك وجدت مفاجآت. قادت الأولى - مباشرة فى اليوم الأول - إلى جبل نبو، ذلك الجبل الذى ينبغى أن يكون موسى قد نظر من عليه إلى الأرض الموعودة. وكانت النظرة من وادى الأردن إلى الجبال بالقرب من القدس شيئًا فوق الوصف - التاريخ التوراتى مباشرة. نادرًا ما زرت مكانًا له مثل هذه القوة "الصوفية" الشديدة. وتتوج قمة الجبل كنيسة قديمة متواضعة يقف أمامها تمثال حديث للحية المعدنية(١٦٣). لم أستطع مفارقة المكان، ولكن ألجأتنا الرياح الباردة إلى مطعم صغير على الطريق إلى الوادى؛ حيث يوجد المركز السياحى المعتاد.

أما الحدث الثانى الكبير فقد تمثل فى البتراء. لقد اعتقدت أنها تكاد تكون معروفة، وذلك بعد أن رأى المرء الكثير جدًّا من النشرات التى تظهر بوابة منزل النفائس الذى يصله المرء بعد نزهة على ظهر دابة أو بعد سفر بواسطة عربة صغيرة تجرها الخيول، ولكن يكاد الطريق أن يكون ممتعًا مثل الهدف؛ فهنا يوجد حصن الكرك القديم الذى تبع المماليك لفترة طويلة، وكان لأجل ذلك يهمنى، ولأنه فى القرن الخامس عشر كان يوجد قائد قام بتأليف أحد أهم المؤلفات العربية حول تفسير الأحلام، ولكن أين سنقضى الليلة؟ سيارتنا كانت تبدو وكأنها تسير على الطريق الخاطئ، ولكن لا، لقد وصلنا إلى قرية كانت قد تحولت إلى فنادق أو تكاد. كان كل بيت قد حافظ على شخصيته الفردية وزُين بأجمل أعمال الفنون اليدوية الأردنية، بينما كان

الحمّام والأشياء الضرورية المشابهة فى منتهى الحداثة. وياله من منظر رائع يراه المرء من أمام "القرية"! فالجدار الصخرى الذى يوجد هدفنا بعده يتلألأ بألوان غريبة تحت الضوء الغارب ويسطع فى الصباح. وقد تمتعنا نحن الثلاثة - منى وطالبة أمريكية وأنا - بكل لحظة فى المكان الذى يبدو منعزلا مسحورًا (باستثناء صغير يتمثل فى المطعم الضاج جدًا). كان الطريق خلال السيق (أخدود البتراء) الطويل الضيق ذى الصخور السامقة كثيرة الألوان، ثم دائمًا وأبدًا روعة وسحر منظر البوابة الوردية الضخمة التى تظهر فجأة أمام الزائر إذا ما خطا خارج الأخدود المظلم. وقد شرح لنا مرشدنا السياحى المطلع جيدًا نظام الرى القديم والمعقد للأنباط، والذى يرجع لأكثر من ألف وخمسمائة سنة، كما شرح التفاصيل التقنوية التى نسيت معظمها - أنا أتمتع فقط ببساطة. حينما سمح لى فى نفس العام لمرة ثانية بمرافقة الرئيس الاتحادى هيرتزوج إلى الشرق الأوسط جلست فى البتراء مع كريستيانا هيرتزوج فى عربة صغيرة، وقد تمتعت بالنزهة أيضًا من كل قلبها. كانت الصخور تغير من طبيعتها من لحظة إلى أخرى، وكانت توجد وديان جانبية ومغارات - مشاهد ومناظر كانت محيرة مثلما هى فاتنة.

وجاءت المفاجأة الثالثة قبل سفرى بقليل. دعوة مسائية مع ولى العهد أدت إلى لقاء جديد مع البيجوم أكرام الله. وبعد أن تمتعنا بالوجبة الشهية (أعدت الأميرة تورتة المارنج بنفسها) قال مضيفنا لدى التوديع: "سنتقابل فى الصباح مرة أخرى!" وقد فكرت لماذا؟ ولكن طائرتى ستقلع ظهرًا!؟ وقبل التاسعة بقليل كنت إذن فى ملابس السفر فى القصر - وفى حضور سفيرنا وبعض الزملاء منحنى الأمير حسن علبة قطيفة بها أزهى وأقيم وسام "للفنون والعلوم"، وكذلك مجموعة تلاوة جميلة للقرآن. لقد فوجئت تمامًا. وبعد عودتنا إلى المعهد جلب د. الصليبى بطريقة سحرية زجاجة نبيذ، وذلك لأنه بسبب مثل هذه المفاجأة لا بد للمسيحيين على الأقل من أن يقرعوا الكئوس! وفى الطريق إلى المطار قضينا بسرعة فترة راحة فى المشتى، هذا القصر

الصحراوى الذى توجد واجهته الرائعة منذ عام ١٩١٣ فى متحف برجامون فى برلين. أحضر لنا الحارس كوب شاى، وتمتعنا للحظة بالسكون إبان صوت صراصير الليل وخفقات أجنحة الفراشات. ولدى ارتفاع الطائرة نجونا بالكاد من كارثة بسبب انفجار أحد الإطارات، ولكننا وصلنا ولله الحمد إلى فرانكفورت بتأخير لمدة ساعة فقط. وفى المطار تعجب موظفو الأمن وتساءلوا عن ماهية القطعة المعدنية ذات الشكل غير المعتاد الموجودة فى حقيبتى، والتى تبدو لديهم على الشاشة. حكيت لهم الحكاية وسألتهم عما إذا كانوا يريدون رؤية الوسام. فأشار أحدهم أن نعم، فشىء كهذا لا يراه المرء كل يوم. ومن ثم التف حولى مجموعة من أفراد الأمن الذين أحدقوا بالشكل الذهبى المتلألئ، وكانوا على ما يبدو سعداء بهذا مثلى - على كل حال شكرونى بسعادة.

رأيت الأمير حسن مرة أخرى حينما ألقى كلمة التكريم فى مايو ٢٠٠٠ لدى منح جائزة تسامح الأكاديمية الإنجيلية فى توتسنج إلى الرئيس الاتحادى السابق رومان هرتزوج، وكانت خطبة رائعة أثرت فينا جميعًا بعمق. وبعد أسبوعين التقينا فى لندن فى حفلة عربية كبيرة على شرف الشيخ زكى يمانى بمناسبة عيد ميلاده السبعين؛ حيث قمنا جميعًا - بما فينا الملكة فابيولا البلجيكية - بأداء رقصات عربية دائرية مرحة.

الأمير حسن إنسان رائع، ومما لا ينسى كيف إنه بعد افتتاح محطة تنقية المياه فى وادى الأردن اصطحب الرئيس هرتزوج فى سيارته، وقد انطلق كلاهما بفرحة فى سفر سريع باتجاه عمان مما أسعد السيدة هرتزوج بشدة. وقد انتظرنا كلنا أن يصبح بعد وفاة أخيه الحسين خليفة له، ولكن ما جاء كان بخلاف هذا - لسبب ما كما هو دائمًا. ربما أصبحت لديه الآن فرصة أكبر ليعكف على اهتماماته الفكرية، ولأن يعمل باستمرار لأجل التفاهم والتصالح بين الأديان الإبراهيمية، وعن حق منحته كلية اللاهوت الكاثوليكية فى جامعة توبنجن فى عام ٢٠٠١ الدكتوراه الفخرية.

مصر والسودان، ورحلة إلى تونس

حينما كنت طالبة وباحثة شابة فى برلين المقبضة زمن الحرب كنت أهرب إلى أحلامى عن القاهرة؛ فالأمراء المماليك بأساليبهم المرعبة والموظفون المدنيون الفاسدون غالبًا كانوا يبدون مثل الرجال الذين يحيطون بنا يوميًا. كنت أتجول عبر طرق قاهرتى المتخيلة، وأحاول بين حين وآخر الهروب من حاضر برلين التى كانت تقذف باستمرار بالقنابل. ولكن مر وقت حتى رأيت القاهرة عام ١٩٦١ للمرة الأولى، وكان هذا أيضًا مجرد توقف قصير لدى الطيران من فرانكفورت إلى كراتشى. وقد سكنت لدى زميلى إسحاق موسى الحسينى الذى ينتسب إلى أسرة الحسينى المقدسية المعروفة. وقد حكى لى عن عذاب الكثير من الفلسطينيين لدى تأسيس إسرائيل عام ١٩٤٨، وهو عذاب ننساه الآن بسهولة شديدة. ولكن مضيفى، وهو قريب لمفتى القدس الكبير، حاول دائمًا أبدًا من خلال تاريخ الأديان أن يقع على العناصر الإيجابية فى علاقات الأديان الإبراهيمية الثلاثة.

كانت القاهرة باردة، وخلاف القلعة والأهرام لم يذكرنى بأحلام صباى إلا القليل. فيما بعد تعرفت على الأب الدومنيكانى قنواتى التى مثلت أعماله أهم الشواهد لأفضل تقاليد الدراسات الإسلامية، ولكن أكثر من هذا: ابتسامة الأب قنواتى التى يمكن أن تؤدى إلى تغافر جماعات الناس المتعادية. كون طائرتى – وهى من نوع لوكهيد ألكترا وتتبع الخطوط الملكية الهولندية – قد فقدت أثناء طيرانها إلى كراتشى اثنين من محركاتها، فشىء أشير إليه على الهامش.

حينما جئت مرة أخرى عام ١٩٨٤ إلى مصر كان أحد أصدقائى القدامى د. كورت موللر سفيرًا ألمانيا ومتخصصًا أيضًا فى التاريخ المملوكى، وهكذا شعرت بشكل أكثر بأننى فى بيتى. أصبحت المدينة القديمة أكثر ألفة، وكان ضريح قايتباى الذى رسمته قبل عقود فى كتابى "أرض النور" يكاد يكون جميلاً مثلما حلمت به. ويضاف إلى ذلك أننى التهمت قبيل

الرحلة مباشرة الرواية المملوكية The Arabian Nightmare "الكابوس العربى" لروبرت إيرفن Irwins، والتى رسم فيها هذا العارف الممتاز بتاريخ العصور الوسطى صورة حية لهذه القاهرة التى كانت انطلاقًا من دراستى معروفة لى جيدًا (وكانت النتيجة أننى ترجمت الرواية سريعًا). وتجولت مع ترودا موللر فى خان الخليلى وأرتنى القبطية دوريس بيرنز- أبو سيف مبانى مملوكية مختبئة، وكان هذا بداية لتطور علاقة قلبية بيننا. كون هذه المؤرخة النشيطة للفن لم تحصل فيما بعد على كرسى أستاذية فى ألمانيا، وحصلت فى مقابل هذا على كرسى الأستاذية الأعلى مكانة للفنون الإسلامية فى لندن؛ فإن هذا لم يكن شيئًا غير معتاد. وألقيت بالطبع أيضًا محاضرات فى القاهرة، وتمتعت بالأسبوع الخريفى الجميل، وذلك قبل أن أطير مع ترودا إلى اليمن.

مرة أخرى مرت سلسلة من السنوات حتى رأيت القاهرة مرة أخرى عام ١٩٩٦، وفى هذه المرة ارتبط الأمر بمؤتمر لمؤسسة الفرقان. كانت حجرتى فى فندق سميراميس تطل على النيل، وكانت الأوبرا الجديدة ترتفع بمعمارها ذى النزعة اليابانية بين مجموعة المنازل فى الجانب الآخر للنيل.

حينما كنت أطير قادمة من الكويت تحولت العاصفة الرملية إلى مطر شديد، وأحضرت معها مثل هذا البرد الذى جعل الأصدقاء المهتمين يحضرون موقد تدفئة صغير إلى حجرتى. أما ملاكى الحارس فكان أحمد فراج منتج سلسلة برامج تلفزيونية ناجحة جدًا هى "نور على نور" تقدم المثل الإسلامية العليا. وإلى جانب اجتماعاتنا وجد كذلك ترفيه كان من بينه مشاهدة مسرحية "الجنزير" باللهجة المصرية، والتى مُثلت بتألق وهى تعالج المشاكل الدينية السياسية والإرهاب الذى كان فى بدايته. حتى وإن كنت لا أكاد أفهم المصرية العربية التى يتحدث بها بسرعة خاطفة (قرأت النص فيما بعد)؛ فقد كان تمثيل الممثلين ساحرًا مثيرًا للإعجاب. وفى نهاية اجتماع الفرقان اشتركنا فى مهرجان تكريم شاعر عربى قديم؛ حيث استمعت إلى العربية

الكلاسيكية الجميلة. وفيما بين هذا وذاك كنت لدى وزير الأوقـاف زقـزوق الذى حصل على الدكتوراه من ألمانيا، وهو متزوج من ألمانية، وكـان قـد زارنى فى ألمانيا قبل هذا بوقت طويل، وكنت أراه وأحمد فراج كـل يـوم تقريبًا. وقد انتهزت الفرصة فى أحد الصباحات الحرة لأقوم ومجدى يوسف، مترجمنا الرئيسى السابق فى "فكر وفن" بالتجول فى خان الخليلـى وشـراء بعض الهدايا، ولكن لم تمض هـذه النزهـة أيـضًا دون صـحفيين ودون المصورين الذين لا يمكن تجنبهم. وكانت الحياة "الطبيعية" بغذائها المتـأخر جدًّا، وعشائها الذى يكاد يكون فى منتصف الليل أكثر إجهـادًا مـن الحيـاة العلمية. وهكذا شعرت فى الصباح الرابع، ورغم كل الغبطة بـالوجود مـع الأصدقاء، بأننى لست على ما يرام قليلاً. وفى الطريق إلى الأوبرا؛ حيـث ستلقى الأشعار لم أر عتبة صغيرة جدًّا، سقطت أرضًا وسرعان مـا لُممـت مثل النظارة والقبعة وسلسلة العنق من قبل اليمانيين الذين ظهروا فجأة كمـا لو كانوا قد خرجوا من حكاية سحرية. استمعت إلى بعض الأشعار ثم كـان علىَّ الذهاب إلى شيخ الأزهر آنذاك جاد الحق، هذا بينما كانت قدمى اليمنى تتورم بسرعة ملحوظة. وحينما كنت أتناول طعام الغذاء فى حوالى الثالثـة عصرًا مع المفتى الكبير - شيخ الأزهر الحالى طنطاوى - أشـار وزيـر الأوقاف زقزوق إلى حادثتى الصغيرة، وهنا انحنى طنطاوى بشدة ونظر إلى قدمى بجدية وقال: "ورم، ورم كبير! لازم تشوفى الدكتور!". وهكذا نُقلت - بالمعنى الحرفى "بناء على فتوى المفتى" - من قبل أحمد فراج إلى المستشفى التى غادرتها بعد وقت قصير برباط جبس ضـخم ذى لـون وردى يثيـر الاشمئزاز. ورغم آلامى كان ينبغى لى أن أضحك من قلبى على هذا العمل الفنى، وقد أمضيت المساء فى عزومة ضاجة؛ حيث كنت أثيـر الانـدهاش بتجبيسى - ورغم ذلك دون أن أتناول طعامًا. وكان لا بد من أن أعتذر عن متابعة برنامجى بأن أطير من القاهرة إلى بيروت ودمشق لكى ألقى بعـض المحاضرات. وقد اصطحبتنى د. أهداف سويف هـاميلتون، وهـى كاتبـة

مصرية شهيرة (تكتب بالإنجليزية)، وتمثل الروح الطيبة لمؤسسة الفرقان، اصطحبتنى بعد الظهر إلى المقابر المملوكية، وذلك حتى أستطيع أن أحيى "أصدقاء صباى" بسرعة. وفى اليوم التالى وقف طبيبى كريستيان كيلرسمان وسائق السفارة الكويتية ذو الجسم الفيلى فى مطار بون، وقام أحد أطباء العظام من بون بتبديل الجبس الهرمى الرومانسى، أخ، ولكنه غير مريح بالمرة إلى آخر صغير.

بعد ثلاثة أشهر اتصل بى السفير المصرى فى يوم أربعاء، لا بد من أن أكون يوم السبت فى القاهرة، وذلك حتى أُمنح هناك أحد الأوسمة. تنهدت بعمق، ولكن تم الأمر حقيقة؛ ففى مؤتمر الإسلام الذى كان قد انتهى مباشرة تقابلت مع معارف لا حصر لهم، وبعد الظهر ذهبت وسفيرنا السابق مراد هوفمان Hofmann إلى قاعة احتفالات رزينة للغاية فى مكان ما بالمدينة؛ حيث سلمنا الرئيس مبارك - قبل قليل من سفره إلى حيث يعلم الله - وسامنا الجميل ذا الألوان العديدة. (فى الباكستان يحدث ذلك باحتفالية أكبر!). وفى الصباح التالى طرت مرة أخرى إلى البيت، وكانت العلبة القطيفة فى الحقيبة.

فى المرة التالية عام ١٩٩٩ كانت القاهرة توجد على الرحلة بين الخرطوم وتونس. كانت الأيام فى الخرطوم ممتعة جدًّا؛ حيث كان سفيرنا د. فيرنر داوم Daum وهو عارف كبير بجنوب العالم العربى خاصة، قد نظم كل شىء كأحسن ما يكون. وقد ذكرتنى الخرطوم والأرض حولها بالسند؛ حيث ينساب النهر الكبير - هنا النيل وهناك الهندوس (السند) - عبر السهول حاملا معه الخصب والدمار. فى البداية زرنا فى عصر الجمعة جماعات صوفية متنوعة، وسمح لى أو على الأفضل توجب علىّ الحديث إلى جماعة من النساء اللاتى جلسن على مدرج خلف إحدى المشربيات. وقد تسببت كلماتى العربية الحكيمة عن الحب الإلهى والشعر - كما ذكر لى داوم، ليس فقط لدى النسوة، وإنما أيضًا لدى الرجال الذين اقترب عددهم من

الثلاثمائة، والذين كانوا ينصتون فى الأسفل غير ظاهرين لى - فى بعض التنهدات المتلذذة والزفرات المفتونة. ويشعر المرء فى كل مكان بالحضور الروحى للمهدى السودانى الذى كان ناشطًا وفاعلاً قبل أكثر من قرن. ألم تكن أم درمان (وهى الآن مركز للمتصوفين)، منطقته الأكثر خصوصية؟ كانت أغلب الأوقات تبدو وكأنها ستنقضى فى محاضرات ولقاءات صحفية. ونادرًا ما عشت لقاءً تلفزيونيا لمدة ساعة جيد التحضير مثلما عشته فى الخرطوم؛ حيث كان أحد محدثى ينتمى إلى أسرة دينية قديمة، وكان بعمامته البيضاء الضخمة ليس فقط لطيفًا جدًا، وإنما ويا للعجب قد قرأ الكثير من إصداراتى. وقد التقيت بسياسيين صاعدين وبسيدات مثقفات ثقافة واسعة وناشطات سياسيا، وتناقشت مع شاعرات - ولكن لم يتطرق الحديث مطلقًا إلى التطورات فى الجنوب العميق للبلد؛ حيث تقاوم الأسلحة قبائل غير معدودة وذوات لغات مختلفة لا حصر لها.

وقد سمح لى فى أحد الأيام بالسفر فى اتجاه الشمال إلى أماكن الحفريات فى مروى وناجا، والتى يشرف عليها علماء الحفريات الألمان. كانت الأهرام السوداء الصغيرة فى مروى، والتى تبدو وكأنها تنمو من رمل برتقالى اللون تشبه كولاجا[١٦٤] من الورق صارخ الألوان أمام خلفية سماوية ذات زرقة لامعة. وكانت ناجا التى تعود إلى زمن ميلاد المسيح تؤثر مثل صور توضيحية للقصص التوراتية.

وبينما النيل الأزرق يستمر فى انسيابه بطيئًا ورماديًا، طرت إلى القاهرة؛ حيث كان ينبغى على أن أشترك فى معرض الكتاب، وأن أتحدث لصالح معهد جوته. وفى هذه المرة بدا الأمر وكأنها ستكون إقامة مثالية. وفى معرض الكتاب دهشت لقسم مؤسسة الفرقان الذى اكتشفت فيه نفسى فى عدد لا يحصى من الصور، هذا رغم أننى لم أنشر آنذاك فى سلسلة كتبهم سوى إصدار "وحيد". أما الأكثر إثارة فكان الإعلان عن محاضرتى حول

"رويكرت كمترجم"، والذى جاء فى الصحافة العربية هكذا: "المستشرق الألمانى فريدريش رويكرت يتحدث عن ترجمته للقرآن". رويكرت ما زال حيًا!

وقد تجولت مع أصدقاء ألمان شباب عبر المدينة القديمة؛ حيث شغفت مرة أخرى بصانعى الزجاج، كما زرت القرافة الجديدة المحببة إلىَّ جدًا، والتى دفن فيها الكثير من الشخصيات الكبرى فى التاريخ الإسلامى، والتى امتلأت الآن بالبيوت المبنية. وكذلك زرنا لمرة أخرى ابن الفارض ذلك المتغنى بالحب الصوفى، والذى ترجمت قبل سنوات طويلة جدًا قصيدته فى مديح خمر الحب السماوية:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة

سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

ورأيت لأول مرة الضريح المتواضع لذى النون الذى تظهر - وبصورة دائمة - فى حكمه المأثورة ودعواته الفكرة القرآنية التى تقول بأن كل المخلوقات - الهواء والماء والأشجار والطيور والشمس والقمر - تعظم الله باستمرار. ورأيت مع أصدقاء أن ضريح ابن عطاء الله قد تم ترميمه، كانت حوائط الحجرات المضيئة تحمل حكم الولى والمعلم القروسطى الذى أهدى ورعه العالم الإسلامى بعضًا من أجمل كلمات الحكمة. لقد ترجمت كتابه النحيل "الحكم" الذى يقرأ من المغرب وحتى إندونيسيا، وقد أصبح بالنسبة إلىَّ أيضًا رفيقًا حقيقيا ملازمًا:

"الغافل إذا أصبح ينظر ماذا يفعل،

والعاقل ينظر ما يفعل الله به"

وهكذا تمتعت بالقاهرة، ولا ينبغى أن ننسى قططها (وقد ألفت نص كتاب الصور الجميل Cairo Cats "قطط القاهرة" للوران شيتوك Chittok)، وبدلاً من أن أذهب إلى أهرام الجيزة التى فاضت بالسياح، صاحبت مدير معهد جوته فى عصر أحد الأيام إلى دهشور؛ حيث يوجد أحد الأهرامات الضخمة - والأولى - وبالقرب منه فقط يمكن للمرء أن يخمن الجهد الذى لا يكاد يتصور اليوم، والذى استطاعه الناس الذين بنوا قبل ما يزيد على أربعة آلاف سنة شكلاً مثاليًا من آلاف الأحجار الصخرية التى يزيد وزن كل منها عن العشرين طنا وفى وقت زاد عن العشرين سنة. وكانت مفاجأة لطيفة أن الفرعون الذى دفن هناك قد خبأ لنا فى الرمل زجاجة شمبانيا، وذلك حتى نستطيع نحن المولودين حديثا أن نقوى أنفسنا بعد هذا النصب.

وفى الصباح التالى اتجهت الرحلة إلى تونس - أربع درجات "أدفأ" وأمطار عاصفة. ولو لم تستضفنى المديرة اللطيفة لمعهد جوته فى منزلها هناك لكانت تونس بالنسبة إلىَّ بالتأكيد مجرد ذكرى باردة رطبة، ولكن بعد أن اجتزت (نصف حية ومرتعشة من البرد) تجربة إلقاء محاضرة عربية لمدة ساعة حول دور التصوف بالنسبة للتفاهم بين الأديان، جاءت المكافأة: زيارة المسجد الكبير (مسجد سيدى عقبة) فى القيروان، وبذلك تحقق لمرة أخرى أحد أحلام الصبا. نادرًا ما رأيت مسجدًا مؤثرًا أكثر من هذا المسجد (بنى عام ٦٧٨م)، الذى تعد أعمدته وكتاباته التزيينية نموذجًا للبساطة التى لا تقارن، والذى كان نموذجًا يُحتذى للكثير من المساجد المبكرة حتى جولبارجا فى جنوب الهند. لم نكد نستطيع أن نفارق هذا المكان المقدس حقيقة، ثم تجولنا بهدوء عبر الحارات المعروفة لدينا من خلال صور ماكه Macke وكاله Klee [١٦٥]، كان بها الكثير من الأزرق المضىء، وعدد لا يحصى من القطط. وياله من فرق بالمقارنة مع الأماكن السياحية على البحر؛ حيث لا يشعر المرء بمثل هذا الهدوء النبيل للمسجد القديم، الذى رافقتنى صورته حينما طرت عائدة فى اليوم التالى.

المغرب

إذا ما كنت قد فاجأت أمي بمناسبة عيد ميلادها السبعين برحلة بحرية بموازاة الشاطئ الجنوبي للأناضول، فقد كان المغرب هو هدفنا بمناسبة عيد ميلادها الثمانين. قضينا أسبوعًا في فاس والرباط ومراكش - تجربتي السياحية الوحيدة! ولكني لم أستطع الاستمتاع بها بحق؛ حيث كان يجب عليَّ أن أبدأ بعد شهرين، في أول مارس ١٩٦٧، عملي في هارفارد.

وقد دعيت بعد سنوات عديدة إلى المغرب لإلقاء محاضرات، وقد تمتعت بالتأكيد بالوقت أكثر، وذلك لأسباب أولها وليس آخرها ضيافة سفيرنا د. بارتليس. وقد ألقيت عدة محاضرات في المؤسسات المختلفة في الرباط، وبالطبع في المركز الإسلامي في الدار البيضاء. وحينما زرنا المسجد الضخم هناك، والذي أنشئ قبل ذلك بقليل من قبل الملك محمد الخامس، كاد أن يدفعنا الرذاذ العنيف للأمام. ويبدو المسجد الذي يحيط به الماء من ثلاث جهات مثل سفينة ضخمة تقتحم المحيط بعناد. وقد قدم الحرفيون المغاربة أفضل ما لديهم حتى ينفذوا أصغر جزئيات الزخرفة تبعًا لأسلوب التقاليد الفنية الكلاسيكية في المغرب، ولكن كان الفناء الداخلي يوحي وكأن لا روح له؛ فهو يحتاج حتى يصبح حيًّا إلى عدد وفير من المصلين.

وفي الرباط وجدت عددًا كبيرًا ومتنوعًا من الأصدقاء، بالدرجة الأولى ممثل مؤسسة كونراد أديناور مانويل فايشر Weischer الذي تربطني به صداقة قلبية منذ وقت دراسته في بون، وهي صداقة تأسست على حبنا المشترك للتصوف، وللجانب الروحي من الدين، وكانت أحاديثنا دائمًا مملوءة بالاهتمام بعالم يقع على الجانب الآخر من العالم المادي. وبخلاف ذلك تمامًا كانت فاطمة المرنيسي، عالمة الاجتماع الذكية اللطيفة، والمدافعة عن حقوق المرأة، والتي لفتت كتبها الأنظار بشدة في أوروبا وأمريكا. لقد التقيتها مرة في هارفارد، والآن يمكننا أن نتحدث بعمق عن الحركة النسوية وعن

التطورات الأخرى. وفى مايو ٢٠٠١ جاءت إلينا فى بون محاضـرة فـى سلسلة محاضرات الأساتذة الزائرين التى أسستها هناك (انظر ص٤٤٠).

تحدثت فى جامعة مدينة فاس الخلابة التى بها قسم ممتاز للدراسـات الجرمانية، والذى تمكنت فيه من أن أعالج بالألمانية موضوعًا عميقًـا مثـل "ريلكه والشرق". كانت الإقامة قصيرة جدًّا فى المدينة القديمة والجميلة جدًّا، والتى تقع إلى جانب الجبل، وكذلك كانت الرحلة إلـى العاصـمة القديمـة مكناس.

وقد تمتعت على وجه الخصوص بمـراكش؛ حيـث وضـع جعفـر الكنسوسى برنامجا ذا محاضرات عديدة. وفى البداية تحدثت بالعربية عـن مولانا الرومى الذى كتب لحسن الحظ عشرات الأبيات العربية، ثم تحققـت لمرة أخرى إحدى الأمنيات؛ حيث حضرت فى ضريح الإمام الجزولى إنشاد لدلائل الخيرات، وهو كتاب من القرن الخامس عشر يحتوى على دعـوات وصلوات على الأنبياء، وهو محبوب ومنتشر حتى فى أقصى أطراف العالم الإسلامى. أما الأجمل بالنسبة إلىَّ فكان لقـائى مـرة أخـرى مـع خـوان غويتيسولو بعد أن كنت قد تعرفت عليه قبل بعض الوقت فى أفـيلا؛ حيـث كانت لوتشيا لوبيز بارلت Lopéz – Baralt قد نظمت هناك – فـى مدينـة القديسة تريزا، المدينة المقاومة للريح الباردة – مـؤتمرًا عـن التـصوف المقارن. ولوتشيا بورتوريكية درست العربية لدينا فى هارفـارد، واهتمـت على وجه الخصوص بالعلاقات الفكرية والأدبية بين العالم الإيبيرى والإسلام فى العصور الوسطى. كان ممثلو آداب أمريكا اللاتينية وإسبانيا قد جـاءوا، ولم تكن متابعة المحاضرات سهلة بالنسبة إلىَّ، هذا باستثناء بلاغات أرنستو كاردينال Cardenal الذى تمثلت مساهمته الأساسية فى المؤتمر فى التكـرار المستمر لكلمة Amore! كان غويتيسولو بصفة خاصة الذى تفاهمـت معـه كأفضل ما يكون. كانت روايتـه The Secrets of the Lonely Bird "أسـرار

طائر وحيد" بمثابة مطالعة صعبة حتى فى الترجمة الإنجليزية، ولكن كانت صوره وقدرته اللغوية تفتنانى. وقد تحدثنا عن الثقافة الإسلامية، وحول التصوف، وتعرضنا بالنقد لجماعة المولوية التى تقدم لونًا من رقص الدراويش ليست له إلا صلة ضئيلة بالطقس المولوى الموثوق به. والآن نواصل حديثنا فى مراكش؛ حيث يسكن بيتًا بالقرب من ساحة جامع الفنا، وهى الساحة الكبيرة فى وسط مدينة مراكش الذى قدم له وصفًا فى منتهى الروعة. خوان كان فى البوسنة وزار الأقلية المسلمة فى المناطق المختلفة. وقد أنصتُ إليه بانجذاب شديد، وأسفت لأن إسبانيتى لم تكن كافية لأن أقرأ أعماله فى أصولها. وقد رافقنى إلى الجزولى واستمع إلى محاضراتى بصبر. وحينما جئت فى المرة الثانية ألقى بمناسبة عيد ميلادى كلمة عربية قصيرة، وأهدانى كتيبه Gaudi in Anatolien "جاودى فى الأناضول" وفى القصة التى حمل الكتاب عنوانها وصف المغارات العجيبة والطبيعة الجبلية الغريبة لكبدوكية كما لو كان جاودى مبدع كاتدرائية برشلونة لا يزال يواصل تشكيل هذا العالم الغريب.

لم تختلف الزيارة التالية لمراكش عن هذه الزيارة إلا قليلاً فقط، محاضرات وزيارات... ولكن وجد اختلاف واحد مهم؛ فإذا ما كنتُ قد أقمت خلال المرة الأولى فى فندق صغير جميل، فإننى نزلت فى هذه المرة ولمدة ثلاثة أيام بطولها ضيفة لدى أسرة طيبة فى المدينة؛ حيث اعتنى بى موظف حكومى كبير على المعاش مع زوجته الحلوة اللطيفة وابنته التى كانت تعمل مدرسة جامعية للغة الفرنسية. وكانت حجرة نومى مثل كل الحجرات الخاصة فى الدور الأول ومحاطة بشرفة، وفى الليل كان صعبًا بعض الشىء الذهاب إلى أماكن محددة دون السقوط من على السلالم التى لا درابزين لها، ولكن بماذا يؤثر هذا؟ لقد كان الجو جميلا حتى كدت أشعر وكأننى فرد من الأسرة، بل كان جلوس القطة الصغيرة "وردة" على فرش السرير الحريرى ذى اللون الوردى مما يجعل المنزل – ومراكش كذلك – محبوبًا لدىَّ أكثر.

وقد شهدت هذه الزيارة الأخيرة أيضًا نقطة ذروة خاصة؛ حيث سافرت مع بعض المعارف إلى تيملين أعلى جبال أطلس؛ حيث المسجد المثير للمصلح بنتومرت، والذى أعيد ترميمه بإشراف مؤرخ الفنون كريستيان إيفرت Ewert. كان المنظر رائعًا: سماء الربيع الزرقاء المشعة، والأشجار والسهول الجبلية الخضراء كالزمرد، وفى الخلفية قمم الأطلس المغطاة بالجليد، ومتوحدًا فى المنتصف يقف المبنى الكبير الذى يعود إلى القرن الثانى عشر، والمبنى بالأحجار الحمراء البنية وبنسب جميلة لا خطأ فيها. وفى طريق العودة ألقينا نظرة سريعة على قرية سياحية؛ حيث يمرح المصطافون ويعبثون. ولأن مثل هذا قد يحدث فى مايوركا أو فى فلوريدا؛ فقد هربنا بسرعة لنتمتع وبشدة بآخر مفاجآت اليوم؛ فأحد مرافقينا أستاذ جامعى (بربرى لا عربى) اصطحبنا إلى قرية أطعمنا فيها بأشهى ما يكون من جميع المأكولات الخاصة بالبلد. ويمكن للمرء من خلال عدد المفارش البلاستيكية التى وضعت على بعضها البعض أن يخمن عدد الوجبات التى ستقدم، وذلك لأنه وبعد نهاية كل دور طعام يلم مفرش الطاولة المستخدم ويوضع آخر، وهكذا كان يوجد بصفة دائمة مفرش نظيف للاستخدام، سواء أكان ذلك للكسكسى أم البسطيلة أم... أم... وقد تخيلت كما لو كنت مرة أخرى فى ممر خيبر فى منطقة باتان الباكستانية: الضيافة نفسها، والحرارة القلبية نفسها لدى الجمهور غير ميسور الحال فى الحقيقة، ولكن الضيف فى العالم الإسلامى هو على العموم هبة من الله، أو كما جاء فى الشعر العربى القديم:

أوقد فإن الليل ليل قـــر	والريح يا موقد ريح صر
عسى يرى نارك من يمر	إن جلبت ضيفا فأنت حر[١٦٦]

اليمن

"إنى لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن"[١٦٧]، هذا ما ينبغى أن يكون النبى محمد قد قاله حينما علم بورع الراعى اليمنى أويس القرنى الذى أسلم

دون أن يكون قد رأى النبى ولو لمرة. ولكن ليست هذه القصة الجميلة هـى فقط التى أثارتنى لزيارة اليمن؛ فاليمن هى أيضًا بلد ملكة سبأ وأرض البخور والأسرار و"بلاد العرب السعيدة". وبالتأكيد فقد سحرنى منذ أن كنت صـبية صغيرة كتاب Chicago der Wüste "شيكاغو الـصحراء" لهـانز هيلفريتـز Helfritz، ولكن رحلة إلى اليمن وحضرموت كانت آنذاك شيئًا لا يخطر على البال، ولكن البلاد المحجوبة قد انفتحت قليلا فقط فى عام ١٩٦٧.

والآن يعيش فى صنعاء تلميذى القديم جيرد ر. بوين ليعمل هناك على أحد المشاريع الثقافية المهمة؛ ففى عام ١٩٧١ وجد المرء لدى أعمال الترميم فى سقف المسجد الكبير أربع عشرة زكيبة مملوءة بقطع قرآنية على قطـع الرَّق، وهى قطع يعود الجزء الأكبر منها إلـى القـرون الأولـى للعـصر الإسلامى. فلأنه من غير المشروع إتلاف النسخ القرآنية (مثلما هو الحال مع التوراة فى اليهودية)؛ فقد حفظ المرء المخطوطات التى تهرأت مـن كثـرة القراءة على ما يعتقد إبان بناء المسجد. وقـد عملـت الحكومـة الألمانيـة على تمويل عملية ترميم تلك المواد والعمل عليها، والآن يجلس بـوين فـى صنعاء، بينما تعمل المرممة النمساوية صغيرة الجسم أورسولا على الشذرات التى - فى الغالب - لا تكاد تقرأ. وقد بدا الأمر لى كما لو أنها تحتاج فقـط لأن تتلفظ ببعض الصيغ السحرية ثم تمسح على قطعة الرق التى تشبه ورقة الكرنب لتجعلها مستوية وممكنة القراءة. وقد سكنت وتـرودا مـوللر التـى جاءت معى من القاهرة لدى الاثنين وأعجبنا بأورسولا التى كانت تعلم أيضًا المرممات اليمنيات. وقد رأينا مع الصديقين المدينة القديمة لصنعاء ومنازلها العالية التى تظهر جميلة فى الصور، والتى تذكرنى دائمًا بالبيوت الكعكيـة الغامقة كالقرفة، والتى تؤطر شبابيكها بلون أبيض كالسكر[١٦٨]. وفـى هـذا الوقت كانت الشيخة حصة من الكويت هناك، وذلك كى تشترى تحفا لمتحفها، وقد صعدنا بشجاعة على سطح أعلى المبانى. وقد كـان المنظـر الـدائرى

ساحرًا، ولكن أخ! لماذا تحتوى المنازل الشرقية علـــى الـــسلالم الحجريـــة مختلفة الارتفاعات؟ وقد عرفت أن الدور الأعلى للمنـــازل يحتـــوى علـــى "المفرج" وهو عبارة عن قاعة يجتمع فيها الرجال يوميًا فيما بـــين الـــساعة الثالثة عصرًا والسادسة مساء لمضغ القات - حتى وإن كان شديد الغـــلاء - والبحث إبان ذلك عن حل لمشاكل البيت والبلد والعالم. وقد اشتركت مرة أو مرتين فى مثل هذه الجلسات ومضغت طبقًا للواجـــب الوريقـــات الـــصغيرة الناعمة لشجيرة القات التى ينبغى أن تحدث تأثيرًا مخدرًا طفيفًا، ولكن شـــيئًا من هذا لم يحث معى. لقد أحسست فقط أنه من غير المريح ألا يسمح للمرء ببصق هذا العلف الأخضر، وإنما يجب عليه أن يكون منه فى الجانب الأيسر للفم كرة تكبر باطراد، وقد شعرت بأننى مثل عنز تعانى من ألم الأسنان.

ثم سافرنا عبر الطبيعة البعيدة؛ حيث توجد الحصون القديمة للأئمـــة، وتمتعنا بالبازار الذى كان لا يزال تباع فيه حلى المرجان الجميلة، والأعمال الفضية التقليدية التى برع فيها الحرفيون اليهود، والأحزمة كثيرة الحلقـــات وأجربة الخراطيش الأنيقة. بعد أربع عشرة سنة لم يكد يوجد شىء من هـــذه الأصناف، وكان من الجميل أن تعتنى شركة ألمانية بالتخلص من القمامـــة البلاستيكية التى زاد استخدامها عن الحد، وبمخلفات ما يشبه هذا من مظاهر التحضر.

ولدى زيارتنا عام ١٩٨٤ كانت باربارة أيضًا هنـــاك، وهـــى إحـــدى طالباتى الأمريكيات للدكتوراه، والتى كانت تعمل على تـــاريخ زبيـــد فـــى العصور الوسطى. وأى شىء كان أكثر قربًا من أن نسافر إلى هذه المدينـــة القديمة فى تهامة؟ وكان سفرًا لا يصدق؛ حيث يجب على المرء القادم مـــن صنعاء التى تقع على ارتفاع ٢٢٠٠ متر من سطح البحر، أن يجتاز ممرين سامقين بينهما سهل ضيق، ومن الممر الثانى ينحدر المرء فـــى منحنيـــات خطيرة على البحر الأحمر. وفى باجل قوينا أنفسنا قليلاً، وهذا يعنـــى أننـــى

تمكنت، بسعادة وبقليل من المال، من شراء ثوب يمنى تقليدى مشغول. وبينما يقود الطريق الذى بنى جيدًا (من قبل عمال صينيين) باستقامة إلى ميناء الحديدة انحنينا نحن إلى اليسار حتى وصلنا بعد ساعة ونصف الساعة إلى زبيد.

لقد اهتممت دائمًا بزبيد، وذلك منذ قرأت وأنا طالبة كيف إن المتصوف الكبير الحلاج قد جلب لزوجته من لا شىء بطريقة سحرية حلوى شهية، وهو فى الصحراء العربية ثم تبين فيما بعد أنها افتقدت من قبل أحد خبازى زبيد. للأسف لم تعد توجد مثل هذه اللذائذ، ولكن لزبيد أيضًا معنى تاريخى محسوس؛ فلأنها تقع على الطريق بين عدن ومكة؛ فإنها قد أصبحت مكان استراحة للحجاج الهنود الذين بقوا هناك لأسابيع أو لشهور أو لبقية حياتهم، وهكذا أصبحت المدينة مركزا للعلوم الإسلامية، ومما يوضح أهميتها كثرة المساجد التى بها. أيضًا فى القرن الثامن عشر قضى أحد كبار علماء الدين واللغة فى عصره، أعنى السيد مرتضى الزبيدى، سنوات هناك بعد أن ترك موطنه دلهى، وقبل أن يواصل رحلته إلى مصر. والعالم مدين له بمعجمه العربى الضخم "تاج العروس"، وكذلك بتفسيره فى عشرة أجزاء للعمل الرئيسى للإمام الغزالى، كذلك يذكر البيت الذى استضفنا فيه بالعصر الكبير لزبيد: بيت الواقدى الغنى بزخارفه الجبسية ورسومه الداخلية الملونة. يطل المفرج فى الدور السادس على بستان نخيل ذكرنى وبشدة بالهند. كان الماء وما إليه يصرف ببساطة من "حجرة الحمَّام" الجرداء الخالية من خلال الحائط إلى الخلاء. وكان الفناء كثير الزوايا عامرًا بالناس والقطط. اصطحبتنا باربارة إلى العالم العجوز الذى سمح لها باستخدام مكتبته الغنية، بينما قمنا نحن بزيارة نساء البيت. وهناك تعرفنا على مؤسسة الرعاية اليسيرة للرضع؛ فهم يعلقون فى مفارش كتان مثنية ومثبتة مثل شبكة معلقة للنوم فى قوائم سرير الأم ويوجد تحتها إناء معدنى؛ فالنوم دون بللٍ بالنسبة إلى هؤلاء الرضع لم يكن شيئًا ضروريًا.

ولم أكن لأتنازل عن زيارة القبر المزعوم لأويس القرنى الذى يقع على بعد عدة كيلومترات فى الصحراء، والذى جهز بطريقة لا ذوق فيها، وتتم حراسته من قبل حارس لا تبدو عليه أى من سمات القداسة، ولكنه حكى أن الزائرين من شبه القارة ما زالوا يفدون على المكان.

وقد قطعت أورسولا طريق العودة فى سيارتها اللاندروفر بسرعة كما لو أنها تشارك فى سباق "الفورملا واحد". ورغم انفجار أحد الإطارات على أحد الهضاب، وبالضبط فى وقت القات المقدس فقد وصلنا فى المساء بالسلامة إلى صنعاء.

بالطبع كان يجب على المرء رؤية مأرب ذلك السد القديم الذى أدى انهياره النهائى فى القرن السادس إلى اندحار الاقتصاد الزراعى الغنى. وقد تصادف أن وفدًا من الصناعيين الألمان المهمين جدًا قاموا فى طريق العودة من رحلة كان غرضها التصدير إلى الدول الخليجية بإجازة لبضعة أيام فى اليمن، وعرضوا على بوين أن يرافقهم إلى مأرب وقد اصطحبونى معهم. فى الحقيقة كانت بقايا السد، خمسة أعمدة ضخمة كثيرًا ما تم تصويرها وكان يصعد عليها بعض الصبية، بالغة التأثير. وبينما كان العالم المستشرق ما زال يهتم بأن يشرح للسادة شيئًا عن الفن والثقافة، ظهرت سيارة ثلاجة خرجت منها الطاولات والكراسى والطباق والكئوس، وحينما أصبحنا مثقفين بما يكفى، قوينا أنفسنا بسمك "اللاكس" وما يشبه ذلك من الأشياء الشهية، والتى لم يكن النبيذ الألمانى آخرها. كانت ملكة سبأ ستسعد بمثل هذا التقديم للحضارة الغربية، وستفكر فى أن الأشباح الذين أرسلهم إليها الملك سليمان عبر الريح بوصفهم سفراء وحمالين قد عادوا مرة أخرى إلى هنا، ولكن فى شكل أحدث.

رحلة أخرى كانت أكثر قربًا إلى ذوقى سافرنا خلالها، أورسلا وترودا وأنا مع سالمة الراضى وهى عالمة آثار عراقية مملوءة بالحيوية إلى مسجد

بُنى تقريبًا عام ١٥٠٠م، وتم ترميمه تحت إشراف سالمة، مبنى رائع ذو فرش داخلى فخم ويمثل البقية الأخيرة لعصره؛ فلأن اليمن كانت لا تزال تُدار من قبل المماليك فى القاهرة، ومن ثم فقد كان المكان الواقع على الطريق من عدن وحتى عمق البلد مهما من الناحية الإستراتيجية. بينما كنا نتمتع بالسمك اللذيذ الذى قدم على أوراق الجرائد الصينية، رأينا نسوة تسير عبر الشارع فى أردية ملونة، لقد كن مثل أزهار حمراء كبيرة بين المنازل اللبنية الرمادية. بعد عودتى حلمت ولفترات طويلة ببلقيس ملكة سبأ التى بدت لى بشكل ما معروفة لى وموضعًا لثقتى:

أختى الأحب بلقيس –
هل ما زلت تذكرين،
كيف لعبنا فى هاتين الجنتين
بجانب ماء سبأ الزلال؟
كنت تتحدثين لغة الطيور،
وتذيب بسمتك الذهب،
ولم يوجد أسد لم يحرُس،
إذا ما أردت هذا.

طائر يحمل التاج،
والريح تحمل عرشك،
وطقس عاصف قادك
هناك إلى سليمان.

تتحدثان لغة الطيور،

وأذاب الحب الذهب،

بحر نار من الشوق،

كنز لآلئ من الدموع،

لأنك لم تعودى تريدين.

فقط الحب والامتثال،

وسعادة عميقة دائمة،

ولكن سيل مأرب انقطع،

وفقط بقى الرماد.

وارتحلنا على الرمال المتوهجة.

طيورنا خرساء.

ولكنك يا بلقيس،

أيتها الساحرة المسحورة -

ضائعة فى الحب

هزمتِ الموت بابتسامة.

وجاءت الرحلة اليمنية الثانية فى عام ١٩٩٨.

هذه حكاية غريبة

تلك التى أحكيها لكم باندهاش!

هكذا أنشد تقريبا قبل خمسمائة عام بالضبط (١٥٩٨) شاعر من معبر فى اليمن، كان قد نزل على ساحل المليبار الهندى، والذى حكى بأسلوب ليس

بالعربى الكلاسيكى، بل بأسلوب إحدى الملاحم الشعبية الغنائية Moritat عن الحاكم الهندوسى لشاطئ المليبار الذى اشترك مع المسلمين هناك فى التصدى للحصار البرتغالى. وحينما كنا نسافر على الطريق من صنعاء إلى عدن عبر مدينة معبر الصغيرة أرسلت إليه تحية مع السحابة التى تطير عابرة الوادى البعيد وحقوله المدرجة. ويصدق بيته الشعرى السابق على رحلتى تلك. لقد تغير الكثير منذ عام ١٩٨٤؛ حيث ارتفع عدد سكان مدينة صنعاء إلى ١,٣ مليون، كما كان يبنى فى كل مكان فى البلد بهمة وحماس؛ حيث ترتفع أسياخ الحديد إلى عنان السماء، ولكن كان المرء يواصل لحسن الحظ استخدام طريقة البناء الحجرى التقليدية، وكانت كل شرفة لا تزال تتوج بكوة نصف دائرية تزين شبكتها المزخرفة بالجبس بقطع زجاجية حمراء وخضراء وصفراء.

وقد بدأت الحكايات العجيبة بعد وصولى مباشرة، وذلك حينما أقدمت على رحلة عطلة نهاية الأسبوع مع سفيرتنا المبجلة فى كل البلد هيلجا جريفن شتراخفيتز Strachwitz؛ حيث زرنا مسجدًا من القرن الثانى عشر يبعد عن صنعاء قرابة خمسة وعشرين كيلومترًا، وذلك بعد أن رمم بروعة من قبل اليمنيين، وتحت إشراف عالمة آثار فرنسية: جوهرة معمارية إسلامية ذات سقف ملون وذات زخارف غائرة، ومحراب غنى بالزخارف العربية الرائعة، وزخارف خطية مهمة. وحينما كنا فى بداية طريق العودة إلى صنعاء رأينا سيارة تقف بالعرض فى وسط الشارع، وكان المدير العام للآثار (الذى تعلم فى ألمانيا) قد أخبرنى قبل قليل بالاضطرابات بين القبائل، وبينما سمح لسيارة السفيرة ولسيارتنا بالمرور؛ فإن سيارة العسكر التى جعلتهم الحكومة يرافقوننا لأجل الحماية لم تعد موجودة. لقد أخذ العسكر بكل بساطة رهائن، وذلك لأن القبائل ترى أن من واجبها حماية الضيوف (على كل حال كانت هذه إحدى روايات القصة التى سرعان ما انتشرت فى

العاصمة). وفى المساء رجع العسكر سالمين، ورغم الغضب الأولى فقد كان يتوجب علينا فى النهاية أن نضحك من كل قلوبنا.

وبعد الظهر كان الذهاب إلى طولة التى تلتصق على جدار صخرى مثل عش طائر سنونو، مدينة صغيرة من أحجار جميلة منحوتة، وقد بنيت وزينت بحرفية عالية جدًا، وكان كل بيت من البيوت الممشوقة العالية عبارة عن عمل فني. وهذا كله عبارة عن متحف يعرض الحياة القروية فى صورة مؤثرة: "امرأة عجوز تعلف بقرة" بالحجم الطبيعى من الورق الملوك، وكما سنرى سريعًا فقد جلست المرأة فى ظلام إحدى الحظائر وهى تطعم - بنوع ما من عيدان النبات وبصبر لا ينتهى - بقرة تطل من زاوية أكثر إظلامًا. ويستطيع المرء أن يرى "حجرة عريس" و"حجرة عروس"، وأخيرًا الاحتفال بمولد طفل، وكان كل هذا مصنوعا وبتأثير كامل عجيب من الورق الملوك، فقط لم تكن الضبع المحنطة، التى ضلت طريقها إلى القرية مرة مصنوعة من الورق الملوك.

كادت الطبيعة اللانهائية المتألقة أن تصبح سحرية، وذلك حينما أضاءت السماء قرب المساء باللونين الأخضر والأحمر الذهبى، ومرت عبرها وببطء غلالة من السحب وردية اللون، ولكن كانت غلالة السحب توحى بالأسوأ؛ ففى ضحى اليوم التالى بدأ المطر، وأصبح سوق صنعاء المملوء بالناس فى غير هذه الحالة فارغًا فى عدة دقائق؛ فهربنا إلى محطة قوافل قديمة كانت قد تحولت بمساعدة ألمانية إلى مركز فنى جميل. وحينما بدأت فى اليوم التالى السفر برفقة المستشار الثقافى الألمانى وأحد الحراس من وزارة الخارجية اليمنية يدعى أحمد باتجاه عدن سطعت الشمس من جديد. وقد بهرتنا المدينة القروسطية جبلة؛ فهنا حكمت فى القرن الخامس عشر الملكة أروى، وكانت قائدة حكيمة ذكية، ويمكن للمرء أن يرى أطلال قصرها فى أعلى الجبل الصخرى. ويوجد ضريحها فى المسجد المتواضع

الذى سمح لنا الإمام اللطيف بدخوله رغم أن الوقت كان وقت صلاة. وقد فتنتنا الطبيعة الحافلة بالتغيرات، وبنفس الدرجة التى كانت قبل سنوات إبان الرحلة إلى زبيد.

عندما وصلنا فى حوالى الخامسة عصرًا إلى عدن اتضح أن الجولة فى الميناء ليست ضرورية، وذلك لأنها أمطرت بشدة لمدة ثمانى ساعات حتى إن الشوارع فى الكثير من الأماكن كانت غارقة فى ماء يصل إلى الكعبين. وكان من الممكن تبين مدى ارتباط الناس بالهند (عدن كانت تدار لمدة مائة عام بواسطة البريطانيين من بومباى)؛ فأحدهم يبدو مثل تاجر من جوجرات، والآخر يبدو مثل حفيد منغولى ذى أسلاف وسط آسيويين، بل كانت الروائح تذكر وبشدة بكراتشى!

كنت سأسر لوتفقدت بدقة تلك المدينة الغريبة ذات البراكين مخروطية الشكل، ولكن لم يسمح الوقت؛ فبعد محاضرة الضحى - حيث شدت الصواعق القوية انتباه الطلبة بعيدًا عن كلماتى الحكيمة التى حاولت أن تكون أعلى من صرير المراوح التى لا تحصى فى مركز الإعداد الاشتراكى السابق - اتجهت الرحلة وبسرعة على الطريق الأقصر إلى صنعاء؛ حيث كنا نأمل فى أن نصل فى حوالى الثامنة مساء، ولكن أوقفت السيارة على ممر عالٍ، وصرخ أحمد "سيل كبير"، ولم يكن لنا أن نتقدم أبعد من مكان محدد، ولذا فقد قررنا أن نقوم بتوقف فى يريم، وهى مكان صغير قبل الممر التالى، لنشرب الشاى. وبينما كانت ألسنة اللهب المرتجفة فى المطبخ ترسم على الحوائط أشكالاً غريبة ويقوم أحد الصبيبة بتحويل الصحف الصينية إلى قطع صغيرة من ورق لف كان أحمد يستطلع ما يمكن أن نفعله. بالطبع لم تكن توجد فنادق، ولكن أينبغى علينا أن نرجع الطريق الخطر عبر الممر إلى تعز؟ أو أن نقضى الليل فى السيارة؟ وهنا ظهر أحمد المبتسم، لقد وجد مستقرا لنبقى فيه! ووقفت سيارة مرسيدس بيضاء أمام سيارتنا وقادتنا فوق

العوائق والعقبات إلى إحدى الحدائق، ثم نزل من المرسيدس يمنى جذاب فى منتصف العمر ويحمل - مثله مثل كل الرجال - "خنجرًا فى ثوبه" أو على وجه الدقة فى الحزام، وقد حيانا تحية طيبة وقال: "المنزل منزلكم!" ثم قادنا إلى المفرج، وجاء بسرعة بشاى توابل الحبهان، وسألنا عن أمنياتنا لطعام العشاء، ثم تبين أنه حاصل على الدكتوراه من إنجلترا ومالك لصيدلية المنطقة، وينتمى كذلك إلى إحدى كبريات أسر البلد. وقد علم من خلال أحمد الذى استخدم تليفون الصيدلية بحالتنا، ومن ثم عرض علينا ببدهية عظيمة أن يكون بيته الكبير تحت أمرنا. وقد حُيينا من قبل زوجته اللطيفة والأطفال - لا، لا بد من أن تذهب البنات أولاً إلى الجامعة قبل أن يتزوجن! وقد أُعطيت حجرة الوالدين؛ حيث توجد - معجزة بعد أخرى! - حجرة حمَّام أوروبية، بل كانت تعمل أيضًا! وفى الصباح تمت تحيتنا بالشاى ثم عرفنا شيئًا عن البيت والحديقة ثم أطلق سراحنا بأمنيات جميلة - لا، عفوًا، لا داعى للشكر! يوجد مثل عربى جميل مؤداه: "لا شكر على واجب"، ثم أسرعنا نحو "الجدول الجبلى"، ولكنه لم يكن موجودًا بالمرة، لقد كان فى الحقيقة جدولاً جبليًا من زيت الديزل، وذلك أن القبائل كانت قد غضبت بسبب الرفع الجديد لسعر الديزل، ولذا فقد قامت باحتلال نقطة تقاطع طرق مهمة إلى الجنوب من صنعاء. كانت المظاهرة الكبرى قد فرقت فى الصباح، لم يكن يرى شىء غير عادى إلا بعض العساكر، ومثل هذه الحوادث تبين إلى أى حد يكون المرء متحررًا من أوامر الحكومة المركزية.

بعد وقت قصير جاءت السفرة التى حلمت بها منذ كنت طفلة، رحلة من المكلا على المحيط الهندى إلى داخل حضرموت. فقط قبل عدة سنوات لم تكن مثل هذه الزيارة ممكنة، بعد إعادة الوحدة بين اليمنين استطاع المرء أن يدخل إلى عمق البلد. ودائمًا يجد اليمنين متشابهات بين إعادة وحدتهم ١٩٩١ والوحدة الألمانية. ألم يكن لدينا المصير ذاته؟

لقد كانت الطبيعة متآكلة لدرجة بدت معها كأنها تكثيف لصور من جراند كانيون ووسط الأناضول ومن أفغانستان. وبين حين وآخر تظهر عربات كارو بإطارين وفى كل منها تجلس امرأتان منقبتان تتوج هيئتهن السوداء بقبعة من القش عالية عريضة الإطار. وكانت توجد منازل الطوب اللبنى العالية باستمرار، والتى يجب تحسينها من وقت لآخر. ويسمح القصر الذى يبدو متكلف الزخرفة، للسلطان السابق القويتى من سيؤن، بتخمين الرابطة التى كانت تربطه بالهند. يعيش السلطان غالب القويتى من وقت لآخر فى لندن، وكنت ألتقيه وأسرته بين حين وآخر، وذلك أنه ابن أخ (أو أخت) صديق عزيز جدًا فى حيدر أباد (الدكن)، وهو كذلك قريب للنظام الحيدرأبادى، ويشبه بشكل يكاد يكون مخيفًا بورتريه لأمير دكنوى(١٦٩) من القرن السابع عشر. حينما تبين لنا أن مشرفنا الدمث اللطيف عضو فى أسرة دينية مهمة دارت بيننا أحاديث طويلة عن دور أسرته، أسرة العيدروس، فى الإسلام الهندى وحول الهجرة المستمرة منذ مئات السنين من جنوب الجزيرة العربية إلى إندونيسيا وماليزيا، كذلك عرفنا أن عددًا كبيرًا من أقرباء مضيفنا قد قتل فى زمن نظام جمهورية اليمن الديمقراطى الشعبى والاشتراكى، بالضبط فى الوقت نفسه الذى تم فيه إقصاء السلطان القويتى الذى كان يدرس فى كمبريدج عن العرش. وقد سمح له فقط منذ سنوات قليلة بالسفر مرة أخرى إلى بلده. هبط المساء على الحديقة فى تريم؛ حيث كنا نشرب الشاى جلوسًا فى قصر صغير تم تلوينه بألوان مبتذلة بشكل لا يعقل - غير حقيقى مثل أشياء كثيرة، ولكنه لم يكن غير واقعى جدًّا، مثل منظر السياح الفرنسيين الذين رأيناهم لدى عودتنا إلى الفندق وهم يلعبون بحيوية وحبور فى حمام السباحة.

حدث يقتنص الآخر (وفى هذا المكان لا أريد الحديث عن جيش الصحفيين الذين لا يريدون رغم الرقة والمجاملة أن يفهموا أن المرء يصبح

بعد ساعتين من الحديث بالعربية - وبالتأكيد - متعبًا بعض الشيء). سافرنا إلى بيتباوس بالقرب من صنعاء، والتى تقع أعلى جبل صخرى له خضرة البحر، وعلى أطرافها يمكن للمرء أن يتعرف على بقايا كنيس يهودى. هنا عاش بصفة خاصة صانعو الفضة اليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل بعد تأسيسها. وفى أعلى أحد الجبال الصخرية رأينا "كوكبان" التى ضربت فى الستينيات من قبل المصريين بالقنابل، ثم دعينا إلى الطعام لدى أقدم الأسر فى اليمن، والتى تفخر بأن نسبها يعود إلى الملوك الحميريين (وعلى العموم فإن اعتداد اليمنيين بماضيهم الكبير قبل الإسلام يلفت الانتباه بشدة). وكان الختام عبارة عن أمسية شعرية فى السفارة ألقت الشعر خلالها أربع شاعرات شابات ملفوفات تمامًا فى الأسود، بل كانت إحداهن مغطاة حتى الأجفان، قصائد مملوءة بالحزن، وبين وقت وآخر بالغضب، أشعار ذات إيقاعات متحررة، وغالبًا ما كانت سوريالية. ولم يكن من المصادفة أن تتكرر باستمرار صورة المرآة، وصورة الحلم أيضًا. لقد كانت تجربة مثيرة، ولم أكن لأتصور خاتمة أخرى أجمل لهذه الأيام العشرة؛ فهل عنى شاعرنا اليمنى/الهندى - ربما حقيقة - هذه الرحلة عندما كتب:

هذه حكاية غريبة

تلك التى أحكيها لكم باندهاش!

العربية السعودية

لسبب ما دعيت فى عام ١٩٨٦ إلى الرياض، بعد عدد لا يحصى من المكالمات الليلية التى كانت تصلنى فى هارفارد، ولكن انتهى هذا كله بأن طرت فى يوم ما إلى جدة عبر فرانكفورت. وحينما اقتربنا من المملكة أعطيت النساء مناديل شيفون سوداء، أما العربيات فقد غطين أزياءهن الأنيقة

تحت عباءة سوداء طويلة. وفى جدة صعدنا إلى طائرة أخرى باتجاه الرياض؛ حيث شعرت هناك بأننى وحيدة فى المطار الحديث الضخم، ثم هجم علىَّ رجلان واصطحبانى إلى الفندق وأنا ما زلت لا أعرف لأى سبب كنت هناك. وفى الصباح صورت مثل السادة الذين ظهروا من كل مكان لأجل تحقيق الشخصية، ثم أدركت أن الأمر يتعلق باحتفال لتكريم أحد الشعراء. ووجدت لحسن الحظ زميلاً تركيا لم يكن يعرف أيضًا لماذا تمت دعوته، وقد ثرثرت معه بالتركية، ولم يكن العدد الكبير من السادة متأكدين من كنه هذين الآدميين العجيبين، ثم قمنا بجولة كانت حقا كاشفة فى المدينة، وقد أعجبتنى الجامعة الجميلة جدًّا، وتمتعت بطعام الغذاء إلى جانب رئيس الجامعة بروفسور التركى، والذى تعلمت خلاله أن "كوكتيل الجمل" الذى قدم هو خليط ناجح جدًّا يتكون من عصير البرتقال وعصير الجزر والتمر هندى والمياه المعدنية (وكذلك علمت فيما بعد أنه يشار إلى خليط عصير التفاح مع المياه المعدنية على أنه "النبيذ السعودى").

وفى المساء كنت مدعوة للأسف لدى مجموعة سيدات مثقفات لم يكن يستطعن أن يتصورن أن بإمكان المرء أن يقرأ العربية ويكتبها ويترجم عنها دون أن يتحدثها. (آنذاك لم أكد أقيم فى بلد تتحدث العربية). لقد كان هذا محرجًا ومربكًا بالنسبة إلىَّ، ولكن كانت معارفى اللغوية كافية على كل حال لفهم الملاحظات الماجنة نوعًا ما، والتى تدلى بها السيدات حول أزواجهن (وحول الرجال على العموم). كان من الشائق بالنسبة إلىَّ رؤية الشقة التى كانت بالطبع غربية خالصة، والتى تم تبريكها بقطعة كبيرة مؤطرة من الكسوة، أى الستارة السوداء للكعبة، ومثل هذه القطع تهدى إلى الوجهاء وإلى الضيوف المبجلين. كانت المرافقة التى أعطيت لى لبنانية تعيش فى الرياض، وهذا ما كان مريحًا بالنسبة إلىَّ. كنت أزور طبقًا للواجب معارض الصور، وأتعجب إلى أى حد كان وجود فن الزخارف العربية الكلاسيكية قليلاً. وفى

النهاية جاءت اللحظة؛ حيث تجمعنا فى مكان ما فى صالة مسرح ضخمة؛ حيث كان الملك ينصت إلى الأشعار التى كانت تلقى. كان أحد الشعراء - كما بدا لى - عجوزًا جدًا وكان ابنه الصغير جدًا يلقى قصائده التى كتبت كلها بالأسلوب الكلاسيكى (فالعارف يمكنه بالتأكيد أن يخمن ماذا يمكن أن تكون عليه كلمة القافية التالية). وأخيرًا تقدمنا ببطء فى موكب أمام الملك الذى يسلم على كل منا باليد، وهكذا شعرت بأننى كرمت، وقد تذكرت هذا المشهد حينما قمت فى نوفمبر من عام ٢٠٠١ بإلقاء كلمة قصيرة بمناسبة عيد جلوسه العشرين فى أكاديمية الملك فهد التى أسسها فى بون، ولكن وبسبب قلة الإلهام التى يثيرها مثل هذا الحفل قمت باقتباس عدة أبيات للمتنبى، شاعر المديح العربى الكبير.

أفكر أحيانًا فى هذه الزيارة الأولى للرياض، والتى سألنى فى نهايتها مذيع تليفزيونى عما إذا كنت أريد العودة مرة أخرى؛ فقلت وأنا لا أرتدى منديل الرأس: "نعم إذا ما تمكنت من زيارة قبر النبى فى المدينة". كنت متأكدة من أن هذه الإجابة لن تذاع، ولكن بعد أربعة أسابيع كتب إلىَّ زميل باكستانى يدرس فى جامعة أم القرى بمكة: "لقد كنا سعداء أننا هنا فى مكة رأيناك فى التليفزيون، وسمعنا أنك ترغبين وبشدة فى زيارة قبر نبينا الحبيب". إذن فإن صورتى التليفزيونية على الأقل قد زارت الأماكن المقدسة فى الحجاز وقامت بحج افتراضى، وأما الزيارة الفعلية للمدينة فإنها لم تتحقق حتى اليوم.

وفى خريف عام ٢٠٠١ أرسلت إلىَّ مرة أخرى دعوة لزيارة العربية السعودية، وأخيرًا وعندما كان كل شىء معدًا - كما هو معتاد فى آخر لحظة، فى ١٢ أكتوبر - وجدت نفسى مرة أخرى فى العاصمة. هذه المرة فى بيت ضيافة الدولة، ولكنى لم أتعرف مرة أخرى على المدينة التى بدت لى، وكأنها تتكون فقط من طرق المدينة السريعة المتداخلة. وفيما بين هذه الطرق السريعة تقوم مبان حديثة غير جذابة، ولكن توجد أيضًا بعض المبانى العالية

الجميلة جدًّا، والتى تبدو وكأنها تتكاثر من يوم لآخر. كان برنامجى كما يبدو قد أصابته بعض الفوضى، وظنى أن هذا قد حدث تحت ضغط الأحداث السياسية. وإذا ما قلت بوجود "برنامج" فهذا يعنى أننى وبعد وصولى فى منتصف الليل، واستقبالى من قبل سفيرنا وزوجته، استنفرت مبكرًا فى حوالى التاسعة، وذلك حتى ألقى محاضرة، ولكنى لم أعط حتى الآن أى برنامج. وقد تحدثت فى جامعة البنات حول موضوعى المحبب، بالطبع فريدريش رويكرت، الذى يلقى ترحابًا جيدًا جدًّا بالعربية، وهذا أيضًا كان كل ما ينبغى علىَّ عمله، وذلك أن "البرنامج" خطط بالدرجة الأولى للزيارات، ولكن منظر سوبر ماركت أنيق لا يثيرنى بالمرة. وقد أخذتنى أستاذة العربية الكلاسيكية الجذابة الذكية نورا الشملان فى معيتها، وزرنا المكتبة الضخمة والمجهزة بأحدث الآلات الإلكترونية، وأحد "مستشفيات الكتب" لأجل ترميم المخطوطات، وكذلك رأينا مركز العمل الاجتماعى الذى أخذ على عاتقه أمر تعليم النساء اللاتى يصممن الأردية الثمينة إلى حد ما تبعًا للنماذج التراثية. كانت الأردية ساحرة الجمال، وقد أعجبنى بوجه خاص رداء صغير "للعقيقة" (أول قصة شعر لأمير حديث الولادة) عبارة عن ثوب وطاقية وحذاء صغير جدًّا من الستان السميك الأخضر الغامق والمشغول بالذهب. كذلك الأعمال الخزفية والرسوم وأشياء أخرى كثيرة تصنع هناك وتباع. وكانت المديرة، وهى إحدى بنات الملك فيصل المقتول فى عام ١٩٧٥، تملك مثل الكثير من المسلمات من الأسر المرفهة وجهًا هادئًا مطلق الوضوح. وقد فكرت فى صديقاتى فى تركيا وإيران وأفغانستان وفى الهندو باكستان اللاتى يمتلكن مثل هذا الجمال الروحى الهادئ والمعتدل الرزين والمتحكم فيه بصفة دائمة كصفة خاصة.

وبفضل الدكتورة نورا جئت كذلك إلى فرح؛ حيث تجمع من الساعة العاشرة مساء أكثر من أربعمائة امرأة فى أثوابهن التى كانت أنيقة، وكان جزء منها باهظ التبذير حتى إن العيون غير المتعلمة القادمة من بون أصبحت مضطربة ومرتبكة جدًّا؛ فالعبايات السوداء سلمت فى أكياس

بلاستيكية إلى ركن الملابس. كانت توجد موسيقى ضاجة بشكل لا يعقل، وكانت الخادمات (الفلبينيات) الجميلات تحضرن القهوة والشاى والحلويات. وكانت النسوة الشابات يرقصن حتى ظهرت أخيرًا العروس الجميلة (مدرسة جامعية) فى حوالى الثانية ليلاً، ولكننا لم ننتظر حضور العريس وطعام الفرح.

وقد اصطحبتنى نورا أيضًا إلى "مزرعة" كانت عبارة عن جنة حقيقية فى وسط الصحراء، قطعة أرض بها منشآت مائية وحدائق ومنازل غير مألوفة - لقد كانت كما لو أنها قد بنيت فى الأحلام. ومن خلال سفيرنا لم ألتق فقط بألمان جديرين بالذكر، وإنما أيضًا بصديق باكستانى قديم هو السفير أسد دورانى الذى اعتمد سفيرًا فى بون لفترة طويلة. ولأن البرنامج استمر إلى حد ما على فوضاه؛ فقد قررت ألا أطير إلى جدة؛ حيث كنت أريد حقيقة زيارة بعض الأصدقاء، وإنما أن أمدد إقامتى فى الرياض ليومين آخرين، وهذا ما أسعد زملائى الذكور الذين لم يحصلوا حتى الآن على شىء من محاضراتى، وهكذا ألقيت محاضرة أخرى وكلمة طويلة مرتجلة عن تاريخ الاستشراق فى أوروبا، وكنت فخورة بنفسى لأن السادة العلماء وجدوا أن لغتى العربية جيدة جدًّا. وفى المساء جاءت نورا إلى الفندق والدموع تطفر من عينيها؛ فأنشدنا معًا القصيدة الشهيرة لأمرئ القيس التى تبدأ بكلمات "قفا نبك"، ولكن لربما يوجد لقاء آخر.

إيران

أنت لا تجد فى الفردوس
طريق ساحل ركن أباد
ولا مثلث منزل الورد

هكذا أنشد حافظ عندما تغنى بمسقط رأسه الحبيب شيراز، ولذا ينبغى على كل من اهتم طوال حياته بالشعر الفارسى من أن يزور إيران بين حين

وآخر، ولأوقات طويلة أيضًا، ولكن من الغريب أن هذا لم يكن هو الحال معى؛ فإقامتى الطويلة فى تركيا من جانب واهتمامى بالهند والباكستان من ناحية أخرى عاقانى وباستمرار عن البقاء لمدد طويلة فى إيران الحقيقية، ولكن وعلى الإجمال فقد كانت ثقافة تركيا العثمانية، وكذلك الثقافة الهندوباكستانية متأثرتين بقوة بالثقافة الفارسية، وكذلك كانت أفغانستان الحالية عضوًا مهمًا جدًّا فى تاريخ إيران الكبرى، وأول الأبيات الفارسية جاءت من أوزبكستان الحالية، من سمرقند وبخارى.

من الغريب أننى لا أكاد أتذكر شيئًا عن زياراتى الأولى لإيران "الفعلية" فى عام ١٩٦٣، وذلك رغم أننى ألقيت بعض المحاضرات فى معهد جوته فى طهران. أما الحادث المهم الذى غطى كل الذكريات الأخرى فكان أنى التقيت فى مطار طهران بزميلى التشيكى يان ريبكا وزوجته مارية؛ حيث طرت فى حمايتهما وصحبتهما إلى أصفهان وشيراز، ولم يكن ليحدث لى أكثر من هذا، وذلك لأن ريبكا كان بالتأكيد أفضل عارف للأدبين الفارسى والتركى، ويعد كتابه "تاريخ الأدب الفارسى" مرجعًا أساسيًّا لكل مستشرق. نعم كان يعالج الموضوع بمصطلحات النقد الأدبى المتأثر بالماركسية، ولكنه رفض فى رؤاه الخاصة المبادئ الشيوعية (انظر ص٢٢٩).

إذا كانت زيارتى الأولى لإيران بمعنى ما مجرد مقدمة موسيقية قصيرة، فإننى تمتعت لأجل هذا بالزيارة الثانية بشكل أكبر، وذلك حينما سمح لى بعد ثلاث سنوات بالاشتراك فى مؤتمر عن الدراسات الإيرانية تحت رعاية الشاه فى طهران. وتمثلت ذروة الزيارة – إلى جانب رحلة إلى الجبال حيث عرضت علينا الانتصارات الأخيرة "للثورة البيضاء" التى حملت التعليم إلى القرى – فى زيارتنا زوركانه؛ حيث أعجبنا بالرجال الأقوياء الذين كانوا يحركون هرواتهم فيما يبدو دون تعب، ويستعرضون تمارين قوة أخرى

صعبة، ولكن ليس لأجل النجاح الرياضى، وإنما انطلاقًا من روح الدين والإيمان العميق ولإحياء ذكرى أئمة الشيعة.

مازلت أذكر الاستقبال فى إحدى حدائق الإمبراطورية حينما كان الهواء معبقًا بالموسيقى، وخضت فى حديث حول الصوفية والموسيقى مع زميلى سيد حسين نصر، عالم الطبيعة الذى تعلم فى هارفارد وجعل من نفسه فيما بعد متحدثًا باسم إسلام حديث مغزول من الأفكار الصوفية، وما زال - وباستمرار - يسحر مستمعيه الغربيين، وهو يميل إلى الاتجاه الثقافى الفكرى للتصوف على سبيل المثال لأفكار ابن عربى، بينما أقف قريبًا من الجانب العاطفى الانفعالى. ولكن أصبحنا أصدقاء بسبب تعظيمنا المشترك لمولانا الرومى (وكذلك حقيقة أن عيد ميلاد كل منا يأتى فى نفس اليوم حتى وإن لم يكن فى نفس العام). بعد الثورة كان يجب على نصر - لصلته القريبة بالبيت الحاكم - أن يهرب من إيران. وقد اصطدم فى وطنه العلمى (أى الولايات المتحدة الأمريكية) ولمرات عديدة، بالرفض القاطع حتى حصل أخيرًا على كرسى الأستاذية فى واشنطن.

ثم كانت الزيارة الثالثة والمثيرة فى عام ١٩٧١، وذلك حينما احتفل بالعيد الخمسمائة بعد الألفين لقيام إيران بفخامة وتبذير ضخم تم نقده بصوت عال من كثيرين. وكان يوجد - كجزء من الاحتفالات - مؤتمر للمستشرقين، وهو الذى طرنا إليه فى طائرة خاصة عبر باريس إلى شيراز، نعم لم نُستضف مثل النبلاء البارزين فى الخيام الفخمة، وإنما فى أحد فنادق شيراز، ولكننا دللنا هناك بالتأكيد بما لا يقل عنهم. وكم كانت جميلة تلك الزيارة الصباحية لضريح قورش فى باسارجادى! وكذلك كان يوجد "صوت وضوء" فى أطلال القصر الضخمة فى برسوبوليس، وبينما لم تطفأ حرارة إعجابنا بكمية محترمة من السائل، وإنما وعلى الأصح ازدادت اشتعالاً، وهذا السائل "لم" يكن بالطبع ماء. ولدى العرض الكبير فى الملابس التاريخية كنا

– مقارنة بأصحاب الفخامات – فى وضع أفضل؛ حيث كانت السماء فى ظهورنا، وكان يمكننا لذلك التصوير بشكل أفضل. لقد كان كذلك لقاءً سعيدًا، التقى خلاله الزملاء الأمريكيون والروس دون وجل فى حديقة الزهور فى شيراز، التى كانت تبدو تمامًا كما حلمت بها من خلال الشعر. وقد التقيت لأول مرة مع هنرى كوربان Corbin وزوجته الجميلة الذكية ستيلا. رجل نبيل انصب اهتمامه بالدرجة الأولى على الغنوصية الشيعية وعلى الإسماعيلية، ولكنه أتاح لنا كذلك نصوصًا مهمة جدًّا من أدب التصوف فى فارس فى العصور الوسطى. ورأيت بعد سنوات فى شيراز القبر المتواضع لروزبهان البقلى (توفى ١٢٠٩م)، والذى حقق كوربان نصوصه الآسرة. وروزبهان هذا هو الذى رأى فى شطحاته سحابات وردية، أمطرته بوابل من زهور الحب الإلهى، وهذه التجربة لا يستطيع أن يقوم بها بالتأكيد إلا متصوف شيرازى. ولدى قراءة روزبهان فكرت:

فى شيراز
يُظهر نفسه كوردة مضيئة.
كل استعار
هو فقط بريق، بريق ضعيف،
لنوره المضىء.
كل دم
يجرى فى العروق
هو ورقة ورد وحيدة،
كل مد
للبحور السبعة والسبعين:

هو قطرة ندى

تضيء على هذه الزهرة.

ومن عبق الشوق،

السبب الداخلى الأعمق لحبه،

يبتدع فى المساء عندليبا.

وكذلك حقق كوربان أيضًا الأعمال العربية والفارسية لشيخ الإشراق السهروردى الذى قتل فى حلب فى عام ١١٩١م، والذى كانت حكاياته القصيرة للحيوان ذات المعانى العميقة جذابة بشكل شديد. وبالطبع فإن الأسلوب الفرنسى لكوربان كان بالتأكيد أكثر تعقيدًا من أسلوب أستاذه ماسينيون، ألم يترجم فى شبابه المبكر هيدجر من الألمانية إلى الفرنسية؟ ولكن دراسته L'homme de lumière dans le soufisme iranien أى "رجل الإشراق فى التصوف الإيرانى" (والتى ترجمتها بإعجاب تحت عنوان Die smaragdene vision "خيال الزمرد") تعطى صورة ساحرة عن التصوف الإشراقى فى الإسلام الوسيط. وهكذا مثّل لقاء كوربان بالنسبة إلىَّ إحدى ذرى الاحتفال بالعيد الخمسمائة بعد الألفين لإيران.

لقد سعدت باللقاءات، وأنصتُ إلى المحاضرات، وتمتعت برحلات الأتوبيس الطويلة التى كانت توصلنا لأهدافنا. "آنسة شيمل، يبدو أنك مستمتعة جدًّا!" لاحظت زوجة أحد الزملاء سليطة اللسان مستنكرة؛ فماذا يستطيع المرء أن يقول غير: "أخ ياه، مرة كل ألفين وخمسمائة عام؟!".

طرت عائدة محملة بالهدايا ومدللة، وما زالت بعض الصداقات الشيرازية قائمة إلى الآن، منها على سبيل المثال تلك التى قامت مع عالم الدراسات الإيرانية الدنماركى جس ب. أسموسن Asmussen الذى استطعت

فى العقود التالية من خلاله زيارة كوبنهاجن باستمرار لإلقاء المحاضــرات، ولم أكن أستمتع فقط بضيافة أسرته، وإنما تعرفت أيضًا على كنوز مجموعة دافيد، التى تحتوى على مخطوطات عربية وفارسية ثمينة، وعلــى أعمــال رائعة من الفن الإسلامى أيضًا.

لم يوجد نقيض كبير لهذا الحفل البهيج أكثر من اللقــاء الــسريع فــى طهران فى خريف ١٩٧٧، وذلك حينما كنت وكريستوف بورجل فى طريقنا إلى أفغانستان ؛ حيث قضينا ليلة فى مطــار طهــران، وذلــك لأن طــائرة الإيريانا وصلت لأسباب ما إلى العاصمة الإيرانية فقط قرابة الصباح، وهكذا قررنا أن نزور الأصدقاء فــى معهــد جوتــه. كانــت المدينــة مملــوءة بالاحتجاجات، وكان الشعر المقاتل- وبتشجيع من معهد جوته - يلقى فى كل مكان، وكانت جموع الناس تتدافع إلى مؤتمرات الاحتجاج ضد حكم الــشاه. كان الغليان شاملاً والثورة تعد نفسها - ثورة أخذت شكلاً مختلفًا عما فكــر فيه رواد الثورة آنذاك.

وقد زرت إيران لمرة أخرى فقط بعد ثمانية عشر عامًا، وهذا يعنى فى عام ١٩٩٥، بدعوة من الحكومة الإيرانية. كانت الأيام القليلة ممتعة، وكانت طهران التى كنت أنظر إليها جزئيًا من شرفتى فــى بيــت ضــيافة وزارة الخارجية قد أصبحت مدينة كبيرة. وقد اصطُحبت إلى المتــاحف ودللــت، وتجولت مع صديقة فارسية فى البازار؛ حيث يعرض للبيع ومباشــرة إلــى جانب السجاد الغالى الذى يحمل صورة آية الله الخومينى سجاجيد تحمل حقا مشاهد مبتذلة للشراب ولنسوة زهيدات الثياب، أما الموضوعات المسيحية فلم تكن تشكو النقص.

وقد حققت أمنيتى الكبيرة بالمجىء لمرة إلى مشهد، وهو مكان عظــيم القداسة لدى الإسلام الشيعى؛ حيث يرقد هناك الإمام الثامن (الإمام الرضــا المتوفى عام ٨١٧م).

وقد تأخر الطيران إلى المدينة الشمال - شرقية، وذلك لأن أغلب الطائرات قد احتيج إليها لنقل الحجيج إلى مكة. وعندما وصلنا إلى المطار لم يكن ينتظرنا فقط حسن لاهوتى الذى ترجم كتابى الضخم عن الرومى "الشمس الظافرة" إلى الفارسية، وإنما أيضًا العلامة عشتيانى الذى كتب مقدمة الترجمة، وكان هذا تشريفًا خاصا، وذلك لأنه أحد علماء الدين البارزين فى إيران، رجل ممتلئ بالحكمة الصوفية العميقة. وهكذا تمتعت بمشهد، وسمح لى بزيارة المكان المقدس ذى القبة الذهبية التى كانت قد جددت قبل قليل. وتذكرت زيارتى إلى الكاظمية قبل أربعين سنة؛ حيث دفن موسى الكاظم والد الإمام الرضا. وكما هو دائمًا فإن الأمر لا يسير دون محاضرة، ومن ثم فقد احتفلنا بميلاد إقبال كما فعلنا كثيرًا جدًّا فى باكستان وألمانيا وإنجلترا وفى أماكن أخرى. وحينما تيسر لى الاختيار فيما يخص الرحلة التالية بين أصفهان وشيراز؛ فإننى اخترت مرة أخرى شيراز المملوءة بالذكريات. أما كونى قد "تمتعت" فى مطعم الفندق ببيرة خالية من الكحول وتوجب علىَّ الإنصات آنذاك إلى صيغة بطريقة الجاز للقصيد السيمفونى Freude, Schöner Götterfunken "السعادة، شرر الله الجميل"؛ فإن هذا لم يتوافق مع مزاجى إلا بشكل ضئيل، ولكن كان اللقاء مع زملاء جامعة شيراز شيقًا جدًّا. (رغم ذلك جلست الزميلات الأربع فى الزاوية وهن ساكنات إلى حد ما). وقد أثار إعجابى أن أحد دارسى الجرمانيات يعمل حاليًا على توماس مان، وعلى العموم فإن الاهتمام بالأدب الألمانى كبير، والترجمات عنه لا حصر لها. وللمرة الثانية زرنا قبر حافظ بعد أن حل الظلام، وكان الضريح مُعتنًى به كأحسن ما يكون كما هو الحال أيضًا مع ضريح سعدى الحكيم (الذى ترجم كتابه "جلستان" أى "روضة الورد" إلى الألمانية للمرة الأولى فى عام ١٦٥٤)[١٧٠]. كان الشبان والشابات يقفون باستمرار تحت القبة القائمة على أعمدة رشيقة عالية، والتى تحيط بالضريح الذى وجد فيه الشاعر الكبير راحته الأخيرة، ذلك الذى لم يؤثر بعمق فى جوته فقط، وإنما يعد

نموذجًا مثاليًا للجمال والحكمة واللياقة لدى كل من يحب اللغة الفارسية. وقد رجوت من الحارس أن يفسر لى "الفال" الذى (وقعت عليه) فى "ديوان" حافظ. لقد كان شيئًا غير واضح، ولكنى لم أكتب البيت للأسف؛ فقد كنت أفكر باستمرار فى النهاية الإيجابية دون أن أعطى اهتمامًا للتحذيرات من "الغضب والحزن". ولكن بعد أن عدت من إيران بدأت مباشرة عملية التحريض ضدى بسبب جائزة السلام (انظر ص٤٢٩ وما بعدها)؛ حيث اتهمت أيضًا بأن رحلتى إلى إيران كانت عبارة عن تعاون مع آيات الله. وكانت الحقيقة أننى أزور هذا البلد الجميل للمرة الأولى بعد إسقاط الشاه، بينما كان الزملاء الآخرون يشاركون ومنذ فترة طويلة فى الكثير من الاحتفالات لإحياء ذكرى حافظ وغيره من الكبار الآخرين.

وفى السنوات الأخيرة وجدت مناسبات باستمرار لزيارات قصيرة كنت أقضى أغلبها فى إلقاء المحاضرات والمقابلات الصحفية. كانت إحدى المحاضرات فى كلية الشريعة فى طهران، والتى تزار بشكل أكبر من قبل النساء متعبة، وذلك لأننى لم أظهر مثل الحالات الأخرى بغطاء الرأس فقط، وإنما ملفوفة وبالكامل فى الأسود. كنت أعجب بالنسوة اللاتى يعملن بشكل ممتاز فى كل المصالح العامة – من خبيرات للكمبيوتر حتى مذيعات لحالة الطقس بالتليفزيون، ومن الأديبات الروائيات وحتى مخرجات السينما. أما كون كلية الآداب فى جامعة طهران قد كرمتنى فى عام ١٩٩٩– علقت لافتة كبيرة فى مدخل الكلية – فهذا شيء أسعدنى وفاجأنى، بالضبط مثل لقائى على درجات مسجد أصفهان الكبير الرائع برسام يرسم صورًا صغيرة على عظام الجمل كتحف تذكارية وقد أهدانى رسمًا جذابًا، وذلك لأنه يعرف "السيدة الألمانية" من التليفزيون. ولم تفقد أصفهان المضيئة شيئًا من سحرها، وقد جلس الناس كما كانوا فى الزمن الماضى قرب المساء وهم يأكلون بسعادة فى أقواس القنطرة الكبيرة "جسر خواجو" التى تعد إحدى الأعمال

المعمارية البارعة من القرن السادس عشر. وحينما كانت الشمس الغاربة تلقى خيالات ظل غريبة على الأسوار كان زينده رود يتألق(١٧١).

حينما كان الرئيس خاتمى فى ألمانيا فى صيف عام ٢٠٠٠ رأيته فى برلين وفيمار؛ حيث ألقى كلمة رائعة، وبدا الأمر كما لو أن حافظ نفسه كان حاضرًا. وحينما كنا نودعه فى مطار إيرفورت قال لى مبتسمًا: "لتأت الآن مباشرة معنا!" ولكن هذا لم يكن ممكنًا، ثم إننى لم أكن قد أحضرت معى ولو غطاء واحدًا للرأس.

لم يكن لشىء أن يسعدنى أكثر من التفاهم المتنامى بين ألمانيا وإيران. وكنت ألتقى باستمرار بأصدقاء من إيران، وتقام حفلات للموسيقى الفارسية، والكثير من الفرس الذين يعيشون هنا منذ سنوات، بل منذ عقود مندمجون منذ فترة طويلة كأطباء أو فى وظائف أكاديمية أخرى. محلات التصوير فى بون فى أيد فارسية، والكثيرون يحاولون، رغم كل النقد ضد القوانين المتشددة فى إيران، أن يواصلوا تمثيل ثقافة وطنهم، وأن يجعلوا فنون وطنهم معروفة فى الغرب أيضًا، وذلك حتى يضعفوا الأحكام المسبقة.

أما التجربة الأجمل فى هذا المجال فقد قمت بها فى نوفمبر ٢٠٠١، وذلك حينما وجد فى فيينا احتفال ختامى لفصل مهم من فصول الحوار المسيحى الإسلامى؛ فمنذ سنوات يهتم معهد سانت جبرائيل العالى للتيولوجيا فى مولدنج، وذلك تحت الإشراف الدائب والمنهك للأب أندرياس بيشته Bsteh، بالحوار مع الأديان غير المسيحية. وقد ظهر مباشرة بعد عمل متواصل مجلد مهم حول المحادثات والمناقشات بين رجال الدين الكاثوليك وآيات الله. وفى هذا السياق قام الكردينال شونبورن Schönborn بزيارة لإيران. والآن احتفل بالختام الناجح وسمح لى بإلقاء كلمة الحفل، وذلك فى حضور الكردينال كونج والكاردينال شونبورن، وكذلك آية الله خامينئى وآية الله تشكيرى. بالتأكيد كان حدثًا فريدًا! وقد شعر المرء إلى أى حد تحدث

السادة ممثلو الأديان الكبار مع بعضهم البعض بحب وسعادة. وهنا كان شكرًا خالصًا بسبب تحقق الحلم ولأجل الأمل فى المستقبل. وفيما بعد احتفلت وممثلى إيران وأوروبا بالشخص الذى يعد دائمًا قوة رابطة بين الشرق والغرب: مولانا جلال الدين الرومى.

أفغانستان

ومن طهران إلى كابول كان يوجد خط طيران وحيد - خط ملاحى رائع مبهر؛ حيث كان الهبوط والإقلاع فى وادى كابول المحصور بين الجبال مثيرًا، خاصة إذا كانت طائرة الإيريانا الصغيرة مملوءة جدًّا بالركاب والمنقولات، ولا تستطيع أن ترتفع عن الوادى الضيق إلى حد ما إلا بعناء وفقط من خلال الدوران فى دوائر كثيرة. بالطبع كان الطريق البرى من وإلى باكستان أجمل من هذا. وكم من جيوش مرت على مدار القرون عبر ممر خيبر قادمين من وسط آسيا حتى يتدفقوا من الهضاب الوعرة إلى السهول الخصبة التى يتدفق عبرها نهر السند، والتى تتسع فى البنجاب، أرض الأنهار الخمسة. وقد قمت بهذه الرحلة مرة فى رمضان، وكانت السيارة التى وضعت تحت أمرى من قبل الحكومة الباكستانية تتأوه على الطرق الصاعدة عبر الجدران الصخرية القائمة والضيقة لتانجى جارو، وكذلك كان مرافقى العطشان والسائق المهذب. ولأن العلاقات بين باكستان وأفغانستان كانت متوترة جدًّا (ولأجل ذلك لم يكن يوجد خط طيران!)؛ فقد أدى ظهور سيارة باكستانية رسمية فى هذا الوقت فى كابول إلى اهتمام كبير.

كابول: هى ذكريات عن أصدقاء ألمان وأفغان؛ فهنا كانت المدرسة الألمانية (سائق تاكسى فى بون ما زال يذكر باختصار كيف اشترك بوصفه صبيًّا صغيرًا فى الافتتاح)، وهنا كانت السفارة الألمانية؛ حيث كنت أشعر

دائمًا بأننى فى بيتى – خاصة أثناء السنوات التى كان يقيم فيها هناك فرانــز جوزيف هوفمان وزوجته إيفانتا، وقد تبين لنا أننــا زرنــا فــى إيرفــورت المدرسة الثانوية نفسها؛ حيث درس لنا مدرس الفرنــسية الــصارم نفــسه. وكانت الحكومة الأفغانية تعرف دائمًا كيف تجد حجة لإقامة احتفــال دولــى سواء أكان ذلك لمولانا الرومى أم لسنائى أم لأنصارى، ولا يؤثر فى ذلــك الحالة السياسية؛ فإسقاط الملك وإعفاء داوود لم يغير الأمر إلا قليلاً – هــذا بالطبع حتى عام ١٩٧٨.

لدى أول زيارة فى عام ١٩٦٦ سكنت بعــد قــدومى مــن مــؤتمر الدراسات الإيرانية فى طهران فى فندق كابول. وبعد أيام قليلة وصــل إلــى هناك العالم النرويجى جورج مورجنــشتيرنه Morgenstierne الــذى كــان بالتأكيد أكبر عارف بلغات الهندوكوش الصغيرة التى تنقرض ببطء، وكــان رجلاً نبيلاً يتحلى بتواضع العلماء. وكنا إذا ما أفطرنا معًا تحدث مع الخــدم بلهجاتهم، وبسرعة اجتمع حول طاولتنا مجموعة من الرجال من واخان ومن نورستان ومن – الله أعلم – أى الوديان الأخرى؛ حيث أخذ العالم الموهوب يغنى لهم أغانى بلغاتهم الأم. صاح أحدهم: "أوه – هذا ما كانت جدتى تغنيه دائمًا!" وسعد واحد آخر بأن استمع إلى أغنية أطفال، وهذا ما لم يكن معروفًا لدى الجيل الحديث. ومن قبيل المقايضة عملت تسجيلات لأجل جمع تجارب اللغة، وكنت فخورة جدًا بأن يسمح لى بالمساعدة قليلاً لدى الترجمة من لغة الدارى (الصيغة الأفغانية للفارسية)، وذلك لأن مورجنشتيرنه لم يكن يتحدثها بطلاقة مقارنة بلغة البشتو.

كابول، هنا يوجد قبر مؤسس الإمبراطورية المغولية بابر، الذى أقــام مقر قيادته هنا فى طريقه المغامراتى من فرغانة إلى الهند. لقد أحب هــواء الجبال النقى للمدينة، وهنا ولد أغلب أطفاله، وحينما مات فى عــام ١٥٣٠م، وهو فى السادسة والأربعين من عمره فقط، تمنى أن يدفن فى كابول، وهــى

أمنية حققتها له إحدى نسائه التى نقلت رفاته من دلهى، من حر شمال الهند، إلى كابول. ولا أعرف ما إذا كان الضريح قد نجا من المعارك الفظيعة التى وقعت فى العقدين الأخيرين، أو إذا كان لا يزال يعبر عن العظمة القديمة لكابول.

وهل للمرء أن ينسى صالح بارفانتا Parvanta الذى تحتوى مكتبته الخاصة على مخطوطات عربية وفارسية ثمينة، والتى كان يعرضها بفخر واعتزاز على ضيوفه المبهورين؟ وقد تمنى أن أقوم وكريستوف بورجل بإعداد فهرس لهذا الكنز، ثم حلت المصيبة بهذا البلد. وقد التقيت فى لندن عام ٢٠٠٠ ببارفانتا الذى كان فيما سبق ظريفًا خفيف الدم جدًا، ولكنه كان منحنيًا مكسورًا، ولا يمكن التعرف عليه إلا بصعوبة، ولكن مكتبته كانت ينبغى أن تكون - كما كان المرء آنذاك يظن - باقية فى كابول، ولكن إلى متى؟ "هذا ما يعلمه الله فقط كأفضل ما يكون".

ويوجد رجل آخر جدير بالانتباه والذكر هو الأب الدومنيكانى سيرج دى لوجيه دى بورسوى Beaureceuil الذى التقيته فى كابول، والذى قرأت قبل سنوات كتابه عن عبد الله بن أنصارى (توفى ١٠٨٩م) بانهماك وبكل انتباه. وقد قادته دراساته لعلماء الدين من متصوفى القرون الوسطى إلى أفغانستان، ولكنه كان كلما بقى هناك طويلاً كلما قل عمله على المخطوطات وكلما انهمك فى العمل الدائب مع الصبية والشباب الأفغانى. ويعطى كتابه Mes enfants de Kaboul "أولادى الكابوليون" صورة مؤثرة عن المشاكل، ويقتنص فيه طقس وبيئة البلد المحبوب لديه ببراعة. وما زلت أتذكر حينما جلسنا فى مساء ما فى زاوية لدى مدير معهد جوته، وتحدثنا عن التصوف، وعن التجربة الصوفية والكتابات الفارسية حول تربية النفس، ونسينا ما حولنا بالكامل. لقد كانت ساعة من الساعات التى تجاوز فيها العالم الروحى وبقوة كاملة العالم "الواقعى"، بل اخترقه تمامًا حتى كدنا نغفل عن النداء لأجل

العشاء المتأخر. وفيما بعد قادنى الطريق إلى المكان الذى أثر فيه "بطل" بورسوى عبد الله بن أنصارى، إلى جاتسورجه بالقرب من هيرات، أى ليس بعيدًا عن الحدود الإيرانية اليوم، وهى حدود جديدة نسبيًا. كانت هيرات فى القرن الخامس هى العاصمة المزدهرة للدولة التيمورية، والتى أصبحت مركزًا للثقافة الفارسية تحت حكم حسين بيقرا ابن حفيد تيمورلنك. وهناك عاش جامى متعدد الجوانب وآخر شعراء إيران "الكلاسكيين" (الذى مات فى عام ١٤٩٢م)، وهناك كتب أستاذ فن الخط سلطان على مرة بعد أخرى "الديوان"، مجموعة أشعار رئيسة (التى لم تكن عظيمة جدًا)، والتى لم يؤلفها الحاكم فى الفارسية، وإنما باللغة التركية، وذلك لأن بلاط هيرات كان بالتأكيد المكان الأهم الذى نمت وتطورت فيه "الشجاتاى" التركية حتى أصبحت لغة للكتابة. وكان وزير السلطان حسين بيقرا المدعو مير على شير نواى يمثل القوة المحركة خلف هذه الحركة الأدبية. وإذا ما وصل المرء إلى الدولة المجاورة أوزبكستان يجد تماثيل نوفوى (كما يكتب اسمه هناك) فى كل مكان، وذلك لأنه بالنسبة للشعوب التركية فى وسط آسيا أقرب ما يكون إلى ولى أو شفيع.

وقد سمح حسين بيقرا كذلك ببناء ضريح لأنصارى. وقد وقفنا متأثرين أمام المبنى الذى نمت حوله جبانة صغيرة. وقد زينت الحوائط بأدعية إلهية كبيرة مشكلة من أحجار ملونة. وقد جلس مؤمنون ووقفوا فى حالة خشوع بين أحجار الضريح وعلى عتبة المزار المقدس. وينم تابوت أسود ذو فنية عالية وزخرفة كتابية غنية عن البراعة الفنية لفنانى القرن الخامس عشر.

قبل سنوات كثيرة - فى حوالى عام ١٩٤٠ - اشتريت كتيبًا ضئيل الحجم صدر مثل الكثير من الكتب الفارسية والأردية الأخرى عن دار Kaviani - Presse فى برلين. وقد أسست هذه الدار بعد الحرب العالمية الأولى فى برلين من قبل اللاجئين الإيرانيين. ومن بين هذه المجلدات كان

أيضًا "مناجاة" عبد الله بن أنصارى، وهى عبارة عن دعوات قصيرة مصاغة فى نثر فارسى سهل ممزوج بأبيات قصيرة. وقد أحببت هذه الكلمات البسيطة، وحينما توجب علينا مغادرة برلين دسست الكتيب فى جيب المعطف، وبين حين وآخر خلال فترات الانتظار الطويل فى أى مكان على الطريق كنت أترجم منه هذه القطعة أو تلك. وما زال هذا الكتيب فى نسخه وطبعاته التى لا تحصى بمثابة "الرفيق الملازم" Vademecum للكثير من المؤمنين. كانت الشجرة بقرب المقبرة مملوءة بالمسامير التى دفنها الباحثون عن المساعدة إذا ما نذروا نذرًا. ينبغى أن يكون الضريح لا يزال موجودًا، ويأمل المرء أن تحضر بركة هذا الولى السلام لهذا البلد المعذب مرة.

كذلك زرنا مدينة بلخ فى شمال أفغانستان، وهى مسقط رأس جلال الدين الرومى التى دمرت من قبل المغول. فقط سور المدينة يسمح بتخمين شيء عن الحجم السابق للمدينة. وفيما بعد استعاد مركز المدينة قواه قليلاً بعد التدمير، ويدلنا مسجد محمد بارزا على فعاليات الطريقة النقشبندية، التى زرنا مكان نشأتها فى بخارى مرات كثيرة فيما بعد. وسمح لنا بالقرب من بلخ بالاشتراك فى ذكر للدراويش، وهو ذكر يعود - كما يقول شيخ الحضرة سيد داوود - إلى تقاليد جلال الدين الرومى، ولكن - والحق يقال - هذا لا يمكن أن يكون حقيقيًا. وقد سقط سيد داوود دون ذنب ضحية فى الحرب الأهلية مثله فى ذلك مثل كثيرين لا يعدون.

فى إحدى قصص "المثنوى" التى تدور حول إبراهيم بن أدهم الذى ارتحل مرة مثل بوذا "من الوطن إلى اللا وطن" يستخدم الرومى اللعب بكلمتى "بلخ - تلخ" أى "مر". ويجعل التفكير فى التاريخ المر لهذه المدينة وفى المصائب التى تنزل بين حين وآخر بهذا بالبلد الحزين، يجعل ذكرى أفغانستان وناسه الكرماء وبصورة دائمة أكثر مرارة.

حينما كنا على الطريق إلى بلخ مرورًا بممر سالان الذى بنى من قبل الروس كان التاريخ يبدو وبشكل دائم أكثر حيوية. منذ قرون حاولت روسيا أن تمارس تأثيرًا على أفغانستان، وأن تؤمِّن بطريقة ما ممـــرًا إلـــى الميـــاه الدافئة للمحيط الهندى. ألم تكن لواقط التليفزيونات فى شمال هذا البلد موجهة كلها إلى الشمال؛ حيث الاتحاد السوفيتى؟ وهل كان دخـــول الـــروس-عـــام ١٩٧٨ فى ذكرى مرور مائة عام على الحرب البريطانية الروسية-مصادفة؟

ومن كابول يذهب المرء فى عدة ساعات إلى جنوب الغـــرب؛ حيـــث غزنة التى كانت قبل قرابة ألف عام مركزًا لمملكة قوية، ومنها قام الحاكم ذو الأصول التركية محمود الغزنوى (حكم من ٩٩٩-١٠٣٠م) بغـــزو شـــمال غرب الهند. وتوجد الكثير من الأساطير التى تحيط بمحمود - سواء بـــسبب صداقته مع غلامه أياز أو بسبب تحطيمه لتماثيل المعبد الهندى "ســـومنات". وفى بلاطه ازدهر الشعر الفارسى؛ حيث كتب الفردوسى "الشاهنامه" (كتاب الملك) التى تحكى فى أكثر من خمسين ألف بيت تـــاريخ الحكـــام القـــدامى لإيران، والتى ألهمت فيما بعد عددًا لا يحصى من الشعراء والرسامين أيضًا. وما زالت أسماء أبطال هذه الملحمة الكبرى تعيش حتى الآن فى إيران وفى الهند الإسلامية وفى تركيا، ولكن لم يكد يتيسر لأحد الشعراء المتـــأخرين أن يصل إلى أناقة اللغة، وإلى الوصف الطبيعى الموفق الذى لم يبالغ فيه مـــرة لشاعر البلاط فروخى. ولا يفوق شيء بداية إحدى قصائده فى المديح، والتى يصف فيها الشعر بوصفه رداءً ثمينًا غاليًا:

مع إحدى القوافل جئت

من الحلة البعيدة،

أرتدى حلة مغزولة من القلب

منسوجة من الروح،

ثوب حرير منسوجًا من الكلمات،

ثوبًا مزخرفًا بنعومة

تبعًا لقوالب اللغة،

كل خط رأسى مضفور من الروح بالألم،

كل خط أفقى معزول من القلب بالندم.

هذا الثوب لم يغزل مثل أشباهه!

إن لم تعرفه قارنه بالأخرى من عصره...

ألم يخطر فى البال مباشرة ملاحظة رويكرت حول الترجمة؟

لتحاول بنعومة أن تسترق السمع إلى الأرواح،

وكيف تغير، وهى هائمة خُفية، ثياب الكلمات.

وقد زرت ضريح محمود عام ١٩٦٦، وكان يوجد هناك تابوته الرائع المصنوع من المرمر الأصفر الرمادى، ولم أكن لأسمح لنفسى بأن أخفق فى لمس الخط الكوفى شديد الالتفاف، وأن أتذكر أنه أفسد علىَّ قبل ربع قرن بالضبط "درجة الامتياز" summa cum laude فى امتحان الدكتوراه، وذلك لأننى لم أستطع آنذاك - يا للخجل! - فك شفرة هذا الشكل المعقد للخط، ولكنى الآن سعيدة بأن ألمس الأصل مر.. وقد بدا لى البرجان الضخمان فى غزنة مألوفين؛ فهما مصوران فى كل عمل عن تاريخ الفنون، وهما متفردان بزخارفهما الهندسية من الطوب المحروق وبخطوطهما المتداخلة، والتى تبدو مستحيلة القراءة. وقد كانا آخر ما تبقى من المدينة القديمة التى دمرت من قِبل (قبائل) الغُز، وذلك بعد سنوات قليلة من وفاة سنائى آخر الشعراء الكبار فى بلاط الغزنويين، والذى توفى هنا عام ١١٣١م.

وفى ١٩٧٣ نظمت وزارة الثقافة احتفالاً بذكرى سنائى؛ حيث كانـت غزنة مزينة بالألوان. وقد تذكرنا بجوار قبره وفى كـابول وفـى الإذاعـة والتلفيزيون - "مادحين بكثير من الكلمات الجميلة" - ذلك الرجل الذى ألـف للمرة الأولى فى الفارسية شعرًا تعليميًا صوفيًا أصبح نموذجًا يُقتدى للعشرات من المؤلفات المتأخرة. وقد أبدع شاعر البلاط المتعدد الأوجه جدًّا، والـذى كتب أيضًا أبياتًا شعرية خلابة، أبدع بمؤلفه "حديقة الحقيقة" عملاً تعامل فيه عروضيًا مع قصص عملية وفكرية عميقة. إحدى أشهر حكاياته تلك الحكاية الرمزية الهندية الأصل حول العميان والفيل، والتى تنتمـى بالتأكيـد إلـى الأشعار التعليمية الشرقية الأكثر انتشارًا على الإطلاق: جماعة من العميـان يريدون التعرف على شكل أحد الأفيال، ولكن كل يصف الحيـوان الـضخم طبقًا للجزء الذى تلمسه يديه: فهو مثل خرطـوم أو أعمـدة أو كعـرش أو كسجادة، ولكن لا أحد يعلم كيف يبدو الحيوان ككل. وذلك لأنه، كمـا يريـد سنائى أن يعلمنا، لا أحد يستطيع أن يدرك الله الذى لا يتصور؛ فكل يتعرف على جانب منه فقط، وذلك لأنه - وهنا تتيح لنا اللغة الألمانية صياغة محددة جدًا - ليس لأحد أن "يدرك" الله.

أما فرخى فقد تغنى بمسقط رأسه سجستان. وقد اهتممت بتلك المنطقة الحضارية القديمة فى جنوب أفغانستان بشكل أكبر، حينما عرفت أن زميلنـا فى بون كلاوس فيشر Fischer قام هناك ولمدة سنوات طويلة ببحث ميدانى؛ حيث ارتحل عبر تلك المنطقة المهملة، وتعرف عليهـا ووصـفها. وهكـذا نظمت إلى هناك رحلة مع زوجين ألمانيين يعملان بالتدريس. وقـد سـافرنا بالسيارة من كابول باتجاه جنوب الغرب حتى وصلنا فى المساء إلى بوست؛ حيث وجدنا منزل ضيافة كان صغيرًا وبسيطًا ونظيفًا. وقد أخرجت بلطف - ولكن بحزم - عقربًا صغيرًا من حجرة الحمام.

عند الشروق وقفنا أمام تقى بوست، وهو قوس رائع التقويس من بقايا قصر من العصور الوسطى، وفى المنتصف بالضبط نرى شمس الخريـف

التى يستوى لديها طول النهار والليل، وهى ترتفع وتذهب بالكامل الطـوب والخطوط نصف المدمرة. ثم سافرنا بموازاة نهر هلمند؛ حيث رأينا أنقـاض قصور وقلاع تعبر عن الحياة والنشاطات التى وجدت هنا، وذلك قبل أن يقوم المغول بسرعة بعد عام ١٢٢٠م بتحطيم نظام الرى الممتاز، وحكموا بالتالى على هذا الإقليم بالموات. ورغم ذلك كله فقد كانت سجستان لا تزال تحـت شمس الخريف الساطعة مملوءة بجمال حزين.

ثم تحولنا باتجاه الشمال كى نصل قبل هبوط الليل إلى قندهار، التـى تعد مكان إقامة قبيلة الدورانى التى جاءت منها آخر أسرة أفغانيـة حاكمـة. كون هذه المدينة قد أصبحت بعد عشرين سنة مركزًا لحركة الطالبان؛ فهـذا ما لم يخمنه آنذاك أحد. كانت محارق الطوب توجد فى كـل مكـان حـول المدينة، وقد تذكرت القطعة الشعرية السندية التى تقول:

موقد الخزاف مغطى تمامًا،

يندلع القيظ من حوله دائريًّا،

أما نحن فنبقى جماراتنا مخبأة،

ونشتعل فقط داخليًّا.

أما نقطة الجذب الكبرى للمدينة فلم يسمح لنا كغربـاء بـأن نراهـا: الخرقة الشريفة، وهى عبارة عن قطعة من عباءة الرسول التى خصها إقبال لدى زيارته لأفغانستان عام ١٩٣٤ بقصيدة عميقة الأحاسيس، وهى الزيارة التى أعلن خلالها عن تأسيس جامعة كابول. لم نجد شيئًا مـن مجـد أسـرة دورانى الحاكمة ولا من الخرقة المشرفة؛ فقد كانت قندهار مكتظة بخنـافس من كل العالم، منغمسين بحرية ودون إزعاج فـى تعـاطى المخـدرات أو يقومون بوقفة قصيرة على الطريق إلى الهند، بلدهم المشوق. وقد وجدنا على كل حال مكانًا للمبيت واشتقنا إلى الجو الهادئ والرقيق لبوست. وفى الصباح

انطلقنا عائدين إلى كابول، ولأنه لم يوجد هناك بسبب شهر الصوم شيء ليؤكل؛ فقد تنامى جوعنا، ولكن مضيفى د. شميت دومنت الذى كان ودودًا مثلما كان خبيرًا بالشرق، وعدنا - على الأكثر بغرض المتعة - بأننا سنحصل لدى عودتنا على وجبة قواقع. وكيلومترا بعد آخر أخذ هذا الحيوان الصغير فى خيالنا أحجامًا خيالية حتى كاد يشبه التنين الذى قتله أبطال شهنامة الفردوسى. وهكذا وصلنا إلى كابول؛ حيث وجدنا ما تمنيناه، ولكنه كان على كل حال قد تقلص إلى حجمه الطبيعى.

أما أجمل رحلاتى إلى أفغانستان فكانت هى التى عشتها إبان إقامتى الأولى عام ١٩٦٦. كنت قد قدمت من طهران، وكانت محبوب وزوجها ينتظرانى فى المطار. ومحبوب سراج هى ابنة عبد الله سراج الذى كان آنذاك سفيرًا فى أنقرة. وكانت محبوب مثل كثير من الأفغان تتحدث ألمانية ممتازة، وذلك بفضل مدرسة نجاة الألمانية، وقد قرب إعجابنا بمولانا ما بيننا. وكانت مليحة، مدرسة الفارسية فى جامعة أنقرة، الثالثة فى "شلتنا" فى أنقرة. "أهلاً وسهلاً" قالت محبوب، وبعد أحضان كثيرة قالت: "هل يمكنك أن تلقى فى الجامعة محاضرة عن مولانا باللغة الدارية؟" ثم يمكنك أن تتمنى شيئًا: يمكنك أن تذهبى إلى هرات أو إلى باميان!". دون تردد اخترت باميان؛ فتمثالا بوذا الضخمان اللذان دمرا الآن بسبب "الحمية الدينية" للطالبان قد أغريانى، أما محاضرة بالدارى - فهذا ما سأنجزه، حتى وإن كنت بعيدة جدًّا عن مكتبتى؛ فبعد أن استمعوا فى طهران إلى نطقى المتقادم للفارسية - حتى وإن لم ينقدوه - باستغراب واضح فإننى أشعر فى أفغانستان بالثقة، وذلك لأن اللغة هناك قد احتفظت بأصواتها المتحركة (فحروف مثل "i/e" ومثل "u/o" ما زال التفريق بينها ممكنًا). ومن يهتم بالشعر الكلاسيكى يكون معتادًا إلى حد ما على الأشكال القروسطية.

إذن إلى الجبال باتجاه باميان! محبوب أعطتنى طالبين لطيفين كمرافقين. كان الطريق الصخرى نوعًا ما يمر عبر مناظر طبيعية متغيرة،

وبجوار أحد الأنهار أكلنا فواكه لذيذة فى الهواء الطلق. كانت السيارة تعذب نفسها باستمرار على الممرات العالية، ومرورًا بحصون صخرية محمرة اللون، تبدو مثل خلفيات الحواديت، وفى وقت العصر كان وادى باميان أمامنا، ومن كلا المغارتين الصخريتين ينظر تمثالا بوذا الضخمان إلينا، وإلى جانبهما يوجد عدد كبير من المغارات الصغيرة التى كان رهبان البوذية قديمًا يقضون فيها أيامهم ولياليهم فى تأمل روحى حول فناء الدنيوى، وحول الخلاص المرتجى من الدائرة المتكررة المملوءة للمولودين بالألم. اقتربنا من التمثالين وقد أخرستنا الدهشة. لقد كان وسط آسيا ولقرون طويلة مركزًا للبوذية التى نجد آثارها فى شمال باكستان كذلك، وقد تسربت الأفكار البوذية بطريقة جزئية إلى التصوف الإسلامى. وهنا فى الوحدة يقف كلا التمثالين الضخمين فى سلام يبدو أبديًا.

كان منزل الضيافة الصغير الذى يقع على الهضبة المقابلة يطل على الوادى البعيد، وكانت الشمس الغاربة تجعل الأزهار المحمرة أمام الشرفة وكأنها تضىء من ذات نفسها، هذا بينما يغرق التمثالان ببطء فى الدغش. وفى هذا المساء ومضت النجوم بقرب حتى ليخيل للمرء أنها قريبة المنال. "ما رأيك لو سافرنا بسرعة إلى باند أمير؟" سأل مرافقاى بابتسامة ماكرة. "لن يستغرق الأمر ساعتين أو ثلاثًا!". وكيف كان لى أن أستطيع الاعتراض؟ هكذا سافرنا فى الصباح بعد السادسة بقليل من الوادى إلى طبيعة مختلفة جدًا تأخذ الآن سمة وسط آسيوية؛ فبدلاً من الصخور الخشنة شديدة الانحدار توجد جبال لينة مثل الكثبان الرملية، وبدلاً من الممرات المحاطة بجبال الهندوكوش ذات القمم الثلجية توجد سماء مشعة لا نهائية. وعلى اليمين يلمع بسرعة مرة بعد أخرى ماء أزرق، وأخيرًا وصلنا إلى البحيرات السبع التى تجمعت بين الجبال. لم أر مرة مثل هذا الماء غامق الزرقة؛ فالبحيرة أشبه ما تكون بقطعة ياقوت زرقاء نقية مصقولة داخل حلقة الهضبة الصفراء. كان كما لو أن المرء يرى حلمًا سعيدًا. يذكر المزار الصغير على المنحدر الجبلى

المقابل، والذى يعتنى به من قبل امرأة عجوز، بأن الخليفة الرابع على ابن عم النبى وزوج ابنته ينبغى أن يكون قد خزن الماء هنا (ومن هنا جاء اسم "خزان مياه الأمير" وهو على). من مغارة صخرية تنظر قطة وهى نصف نائمة. لقد كان من الجيد أننى أحضرت معى أفلامًا كافية، ولكن كان منظر الطبيعة فى الأساس فريدًا جدًّا حتى إننى كدت أن أرى التصوير بوصفه تدنيسًا. وأخيرًا كان لا بد لنا من أن ننزع أنفسنا عن المكان؛ فأمامنا قرابة عشر ساعات سفر والطرق خطرة. ألم نكد ندهس فى الظلام قطيع غنم كبيرًا؟ ولكننا كنا سعداء وأنشدنا قول الرومى:

لو استطاعت شجرة أن تتحرك

بالجذور ورداء الأوراق

لما شعرت بطعنات البلط،

ولا تألمت لنشر المناشير

وفى حوالى العاشرة مساء وصلنا إلى الفندق متعبين، ونعانى آلامًا فى الأطراف، ولكنا كنا شاكرين للغاية. وفيما يبدو فإن هذه الرحلة قد أثرت أيضًا وبشكل جيد على محاضرتى.

هكذا تعرفت على أفغانستان وأحببتها، ولم تكن فقط تقاليد الثقافة الفارسية الراقية هى التى خلبت لبى، لا، فبمرور السنوات بدأت أيضًا أتعلم الكثير عن البتهانيين، عن قانونهم الصارم للشرف ولغتهم (البشتونية). كلا الشاعرين البتهانيَيْن الكبيرين: خوشهال خان خاتك (ت ١٦٨٩) ورحمان بابا (ت ١٧٠٩) مدفونان فى الباكستان شرق خط دوراند الذى وضعه البريطانيون بطريقة مصطنعة. وقد بنى لخوشهال البطل "أبو الأدب البشتوى" ضريحًا بالقرب من بيشاور، ليس بعيدًا عن طريق الجيوش الكبير الذى يمتد عبر شبه القارة من أفغانستان حتى دلهى ويستمر حتى البنغال، وذلك لأن هذا

المتمرد الثائر ضد المغول أراد أن يدفن هناك؛ حيث يتمنى ألا يسمع وقع سنابك خيول عدوه، كذلك كرم رحمان بابا - المنشد المتدين - الذى عبَّرت أشعاره الأجمل فى صور سهلة عن الثقة العميقة فى حكمة الله منذ فترة قصيرة ببناء ضريح بالقرب من بيشاور؛ حيث استمعنا فى مساء بارد إلى أغانى الدراويش التى لم تكن منسجمة جدًّا، وإنما حماسية وذات مشاعر جارفة، بينما كان لهيب النار الحارة المدفئة يلقى بأشكال غريبة على الحوائط.

ربما أجمل من هذه الأغانى شكلاً "اللاندى" أو "التابه" الشعريين، وهى أشعار من قبيل الهايكو، وتتكون من تسعة مقاطع بالإضافة إلى ثلاثة عشر مقطعًا، وهى تخترع من قبل الرجال والنساء، وهى التى قربها إلىَّ جورج مورجنشتيرنه للمرة الأولى منذ وقت طويل، إبان لقاء لليونسكو فى باريس:

أوه ضع يدك على يدى
فلوقت طويل سأتذكر هذا.

ويمكن للمرء أن يعرف الأفغان المعتدِّين بأنفسهم بشكل أفضل عندما يقرأ كلمات لإحدى الفتيات تقول:

حبيبى فر من القتال
والآن أندم على قبلة الأمس!

بالنسبة لصيف ١٩٧٨خططت وزميلى البريطانى رالف بيندر-ويلسون Pinder-Wilson، وكان آنذاك مديرا لمعهد الآثار البريطانى فى كابول، لرحلة إلى الشمال. كنا نريد الذهاب إلى بداخشان فى الطرف الضيق الذى يقع بين أفغانستان وباكستان وطاجيكستان، وتأتى منه الأحجار الكريمة الشهيرة: اللازورد الغامق الزرقة واللعل البداخشى، وهو الياقوت البداخشى Balas – Rubin الذى تغنى به الشعراء كثيرًا (هو فى الحقيقة إسبنيل

Spinell). كذلك كان يهمنا زيارة يمكان؛ حيث كان يعيش منفيًا فى أواخر القرن الحادى عشر أحد أجدر شخصيات الأدب الفارسى الجديرين بالاهتمام: ناصر خسرو، الداعى الإسماعيلى ومؤلف لكتاب رحلات ولأعمال فلسفية ولشعر فى منتهى القوة، والذى ما زال وبطريقة غير متوقعة معاصرًا. لكن السحابات كانت تتجمع وتتكثف فى هذا الوقت فى الأفق: فإيران كانت على مقربة من إسقاط الشاه، وفى الباكستان انتهت حقبة بوتو فى عام ١٩٧٩ بإعدامه، وفى أفغانستان كان يعد للتدخل السوفيتى. وقريبًا سيلقى بالصديق رالف فى السجن الذى تحمله ببال صاف معروف عنه، وذلك حتى أطلق سراحه فى عام ١٩٨١. القتال الوحشى فى البلاد، ومجىء الطالبان الذين نظر إليهم فى البداية بوصفهم مساعدين، وتمتعوا بوصفهم أعداء للروس بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية، وازدياد الحالة فظاعة. لقد ذهبت أفغانستان، التى ألفت الحرب وما زالت، عبر عذابات لا تنتهى، بل واشتدت هذه العذابات من خلال الجفاف وكوارث طبيعية أخرى. من يحب هذا البلد – هذه الأرض؛ حيث توجد بدلاً من البذور ألغام أرضية، ومن يعرف سكانها المعتدين بأنفسهم، يقف حزينًا أمام هذه الصورة للبؤس والشقاء. كيف ستكون النهاية؟ أفغانستان لا تترك محتليها وأعدائها بسهولة أحرارًا، ودائمًا تخطر فى بالى قصيدة فونتانه Fontane[١٧٢] الدرامية عن إبادة جيش بريطانى عام ١٨٤٥، والتى تنتهى بالسطر التالى:

فقط عاد "واحد" من أفغانستان...

وكيف سيسير الأمر الآن؟

وسط آسيا

بعيدًا بعيدًا فى الأقاصى

تحت النجوم الساطعة

فى بلاد الترك،

توجد سمرقند.

حرير أبيض أبيض،

حلى ذهبى،

وشاح قطيفة ملون،

جاء من سمرقند.

لؤلؤ وفيروز،

فواكه غابة ومراعٍ،

سكر نبات لذيذ

أتى من سمرقند.

قصور ومساجد،

سحرة وجنيات،

وقلب يحترق فى حب

بلاد الأحلام سمرقند.

كتبت هذه القطعة الشعرية الصغيرة قرب نهاية الحرب بوصفها إحدى "أغانى الهدهدة لإحدى الصديقات" لطفلها الأول، وبالطبع لم أظن أننى وبعد نصف قرن سأسمعها مغناة بالألمانية والروسية والأوزبكية لدى محاضراتى فى أوزبكستان، وذلك بعد أن كنت قد اقتبستها بدافع الدعابة لدى زيارتى الأولى إلى سمرقند فى سبتمبر ١٩٩٤. ولقد حلمت لوقت طويل بسمرقند

التى كانت – حتى انهيار الاتحاد السوفيتى – صعبة المنال بالنسبة لنا باعتبارنا أوروبيين غربيين. وبعد فتح بلاد اتحاد الجمهوريات المستقلة GUS ظهر لدىَّ فى يوم ما رجلان من مؤسسة كونراد أديناور، وذلك لكى يسألانى النصيحة لعملهم المخطط له فى أوزبكستان، رغم أن هذا لم يكن حقيقة منطقة تخصصى. "وهل سأذهب مرة إلى سمرقند؟" سألت ببراءة تامة، وطبعًا أجيب عن السؤال بالإيجاب.

وقد احتفل بافتتاح مكتب المؤسسة فى طشقند فى نهاية صيف ١٩٩٤. وقد نظم المدير فولفجانج شرايبر Schreiber (الذى سمى بود من قبل الأوزبكيين فوليخان شريفوف) وفريقه النشيط حفلة الافتتاح. كان يجب علىَّ الحديث عن الدور الألمانى فى التعريف بأوزبكستان وثقافتها. وقد تحدث زميلى الطشقندى د. سليمانوفا عن أثر أعمال شيللر فى الثقافة الأوزبكية (بالمناسبة فإن شيللر محبوب أيضًا فى إيران، مثلما يمكن للمرء أن يرى من عدد الترجمات الفارسية لأعماله الدرامية). لقد كانت رحلة ممتعة، حتى الوصول إلى مطار طشقند كان غريبًا؛ حيث كان يجب أن ننتظر، وإن كان فى حجرة كبار الشخصيات، لوقت كأنه لا نهاية له، حيث يبدو أن الموظفين لعبوا خلاله لعبة ورق "سكات". (ومازال صبر الملائكة أمرًا ضروريًا أيضًا إلى الآن فى مطارات وسط آسيا!). كان الفندق مبنى سوفيتيًّا تقليديًّا مربع الشكل، ولكن مدينة طشقند التى كان أغلبها قد دمر فى زلزال ١٩٦٦، لم تكن بالقبيحة، وذلك بشوارعها العريضة ذات الأشجار على الجانبين. وإلى جانب هذا كان يوجد مترو أنفاق سريع للغاية ورخيص جدًّا ويمر كل ثلاث دقائق. ثمن التذكرة يماثل ثمن كوب شاى، ولكن بالنسبة إلى السكان الفقراء فإن هذا بالتأكيد يعد ثروة، وذلك لأن الأكاديمى يكسب عشرين دولارًا فى الشهر. وقد وجدت من زيارة لأخرى فنادق أفضل بالتأكيد.

كانت الرحلة الأولى للمشاركين فى المؤتمر إلـى سـمرقند (قرابـة ثلاثمائة ألف ساكن)؛ حيث اجتمعنا فى الجامعة الجميلة بحق ثم زرنا وسـط المدينة التاريخى إبان الريح الباردة الشديدة. كانت الأضرحة فى شاهى زيندا ببلاطها الأزرق ذات النماذج الرائعة والزخارف العربية والخطوط الزخرفية كما تصور المرء سمرقند: مدينة أسطورية من القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وكان ميدان ريجستان ومدارسه الكبيرة يبدو فى البرد وكأنه مهجـور بعض الشىء، ولكنى اكتشفت جاذبيته فيما بعد. وكان أول الأشياء المعروضة فى المتحف الصغير الذى يحتل إحدى المـدارس الإسـلامية عبـارة عـن مخطوط من عصر بانيها أولغ بك بن تيمور: مجموعة من أحاديـث النبـى محمد، والتى يقول أولها: "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة"، وهى كلمة كانت تقتبس وبشكل دائم فى مؤتمرنا.

وسمرقند هى مدينة تيمور الكبير؛ حيث ترى آثار مبانيه فى كل مكان. وبعد عامين زرنا شاهرى زابز مسقط رأس هذا الحاكم؛ حيث كان القـصر الضخم قد تم ترميمه قبل قليل. كانت بلاطات الزخارف الرائعة قـد سـقط أغلبها، أما الجديدة فتذكرنى بشدة ببلاط حجرة الحمام، وذلـك لأن الألـوان الناعمة المضيئة لا يمكن بالتأكيد إعادة تقليدها. (مـشكلة تـرميم المبـانى القروسطية موجودة فى كل المشرق، وما زلت أتذكر المحـاولات التركيـة المبكرة للصق الأطلال السلجوقية الرائعة بالأسمنت، وأتذكر المشاريع الفاشلة إلى حد كبير لهذا النوع فى الباكستان). كان ضـريح تيمـور (ت ١٤٠٥م) الضخم جميلاً ومؤثرًا بقبته العالية الرشيقة التى زينت بخطوط يدوية عربية ضخمة. وتقول الروايات الشعبية إنه حينما فتح قبره فى عام ١٩٤١ انجرت روسيا بعد أسابيع قليلة إلى الحرب، وإن ذلك كان مصداقًا لنبـوءة عمرهـا قرون تقول بوقوع كارثة إذا ما أقلقت راحة هذا الحاكم.

وقد تركزت زيارتنا الثانية عام ١٩٩٦ على شخصية تيمور الذى تزين تماثيله كل المدن فى كل مكان. والآن فإن الفاتح الكبير لا يمثـل الـصورة

المثالية للحاكم الديمقراطى الذى يهتم بحقوق الإنسان وما يشبه ذلك، ولكننا يجب أن ندفع له إتاوة بلاغية، وهذا ما كان متعبًا وصعبًا فى بعض الأحيان. أعتقد أننى تحدثت عن الحياة الثقافية فى عصر تيمور؛ لأنه كان بالتأكيد معاصرًا لحافظ الكبير، وقد جعله جوته فى "الديوان الغربى - الشرقى" يقول:

لو أراد الله أن يخلقنى دودة

لخلقنى دودة.

"ممدوحا بكلمات جميلة وكثيرة" احتفلت سمرقند بالحاكم الذى أحضر الحرفيين والفنانين من كل البلاد التى فتحها، والتى تمتد من الأناضول إلى شمال الهند، ليزينوا عاصمته. والآن وجدت عروض فنية. وقد قدم كونسيرت Il Tamerlano لهاندل (فقط جزئيًا لحسن الحظ) من قبل فنانين بملابس أوروبية. إنه لمن الممتع تتبع كيف إن شخصية هذا الفاتح أثارت خيالات الأوروبيين خاصة؛ لأنه هزم فى عام ١٤٠٢م السلطان العثمانى بايزيد الأول عند أنقرة، ووجه بهذا ضربة إلى العثمانيين الذين كانوا يُخافون فى أوروبا بوصفهم عدوًا لدودًا، ومن خلال ذلك أيضًا أصبح نوعًا ما حليفًا للبلاد المسيحية. ولأجل هذا أرسل الإسبان فى عام ١٤٠٤م أيضًا روى جونزالس دى كلافيو Clavijo إلى سمرقند لعقد مفاوضات سياسية. لقد كانت هذه المباحثات السياسية هى بالضبط موضوع أوبرا أوزبكية، التى أمكن أن نرى منها جزءًا على مسرح الدولة. وفى هذا الجزء جلس تيمور فى ملابسه الحريرية الأنيقة فى أبهة وجلال السلطان، بينما قدم المبعوثون كل واحد من خلال باليه يعرض الرقص الشعبى من كل المناطق المختلفة، هولنديون وإسبان والله أعلم من أى مكان آخر. ولقد كان هذا الجزء هزليًا للغاية، ولكن الأعجب من هذا أن المؤلف الموسيقى الشاب للغاية قد ارتفع بعد تصفيق عاصف عن كرسيه الكبير بعناء؛ وذلك لأنه كان سمينًا جدًا حتى إنه لم يكن ليستطيع أن يتحرك، وقد صفقنا بشدة شاكرين لهذه المتعة الغالية.

ومن سمرقند كان السفر لدى زيارتنا الأولى إلى بخارى مدينتى المفضلة فى أوزبكستان. وهى أكثر هدوءًا من سمرقند؛ حيث تبدو مسالمة ببعض المبانى التى تعود إلى قرون الإسلام الأولى؛ فهناك توجد منارة كاليان الضخمة ذات القراميد الفسيفسائية من القرن الثانى عشر، وكذلك يوجد أحد أجمل مبانى الإسلام المبكر: ضريح الملك إسماعيل السامانى (ت ٩٠٨م). ويوحى المبنى المكعب والصغير للغاية بأنه سجادة مزينة برسوم هندسية، وقد حولت إلى مبنى حجرى. ويجد المرء دائمًا أشكالاً جديدة على الأسوار والأبواب والشبابيك. وقد أُلفت ولهذا الملك الذى يرقد هنا إحدى القصائد الأولى فى الفارسية الجديدة؛ وذلك لأنه حينما بقى القائد لمدة طويلة فى هيرات أنشد شاعر البلاط رودكى هذه القصيدة التى ألهمت سطورها الأولى العشرات من الأشعار الفارسية حتى القرن التاسع عشر:

بوى جوى موليان آيد همى

تهب روائح نهر موليان من بعيد،

ويهب معها عطر الأحبة من بعيد.

ينبغى أن يكون الحاكم قد "أطلق العنان" بعد ذلك بسرعة باتجاه بخارى: أسطورة أم حقيقة، ولكن كان كل من القصيدة ومبنى الضريح الصغير جميلين ويشبهان بعضهما البعض بارتباطهما بالسهولة وبالشكل الماهر.

كانت بخارى بالتأكيد – قبل إبداع كل من القصيدة والضريح – مركزًا للعلم. ومن هنا جاء على سبيل المثال البخارى (ت ٨٧٠م) الذى جمع وروى المجموعة الموثوق بها من الأحاديث (أقوال النبى محمد)، وتعد مجموعته تلك أهم المصادر – بعد القرآن – التى تصور أفعال محمد ودوره كأسوة فى الإسلام.

كذلك كانت توجد متاحف صغيرة فى المدينة القديمة لبخارى ومحلات يغرى ما فيها من أقمشة وسجاجيد، وقد وقعت أيضًا فى شرك الإغراء. لا لم تغرنى سجادة من سجاجيد بخارى الرخيصة ذات الألوان الدافئة، وإنما ابتسم لى فى دكان صغير معطف حرير وردى على أخضر فاتح من منسج إيكاط، يكاد يكون قطعة متحفية، خمسون دولارًا؟ هدية حقيقية! ولأن إحدى الصديقات العزيزات كان لا يزال لديها فى حقيبتها مكان؛ فقد تركت نفسى للإغراء. بالطبع لم يكن لى أن أفعل هذا إذا ما كنت مريدة وفية لهذا الولى المدفون بالقرب من بخارى: بهاء الدين النقشبندى. وقد مارس هذا المتصوف الكبير من وسط آسيا تأثيرًا كبيرًا على الحياة الاجتماعية إبان فترة حياته، بل وأكثر بعد مماته عام ١٣٨٩م، وذلك من خلال أتباعه ومريديه. وبعد قرن منه كان عبيد الله أحرار القائد الروحى لوسط آسيا. وحتى اليوم فإن النقشبندية هى إحدى الطرق الصوفية الأكثر حيوية، والتى لها فى أوروبا أيضًا أتباع لا يستهان بهم. وقد عمل أتباع الطريقة التى تعتنى بالتأمل الروحى الهادئ إبان الحقبة السوفيتية فى الخفاء، وقاوموا تأثير الشيوعية بتعاليمهم. وهكذا لم يكن مفاجأة أن تشترك مؤسسة أديناور أيضًا بفاعلية فى الاحتفال بالذكرى السنوية لتأسيس الطريقة فى بخارى، وذلك قبل أن نأتى إلى سمرقند للاحتفال بذكرى تيمور.

لقد زرنا لدى زيارتنا الأولى ضريح الشيخ الصوفى، وقد درت والسيدة سليمانوفا حول القبر الذى يقع تحت شجرة متراميـة الظلال. وأعطانا متصوف يبدو وكأنه قد خرج حيًا من منمنمة قديمة ماءً شافيًا، وحكى لنا أمام جامع الضريح أنه كان مع الجيش الروسى بعد الحرب فى فايمار.

ولدى يوم ذكرى القائد الروحى عام ١٩٩٦ كان الضريح قد رمم بالكامل، وكان جزء كبير من المال قد جاء من الرئيس التركى تورجوت أوزال الذى يقف قريبًا من الطريقة. ولدى مؤتمرنا كان الموضوع الرئيسى

للكلمات يدور بشدة حول مفهوم السياسة والدولة لدى بهاء الدين وتابعيه. نعم يبدو من الصعب جدًا أن يستنبط مصطلح الديمقراطية من دور أحد القادة الروحيين الذين يطلبون طاعة مطلقة، ومن ثم فقد ركز المرء بشكل أكبر – وهو كما أعتقد صحيح – على "أخلاقيات العمل". فى المركز توجد تلك الكلمة التى أعرفها أيضًا من الباكستان: "اليد فى العمل والقلب مع الله". وهذا ينطبق على الكلمة القرآنية فى (سورة النور – آية رقم٣٧) والتى ترى أن المؤمن الحقيقى يعمل ويؤثر فى السوق، وبالإضافة إلى ذلك فإن قلبه لا يلتهى ولا يبتعد مرة عن ذكر الله. المصطلح المركزى لتربية الروح لديه هو "خلوة فى الجماعة"؛ فالمؤمن فى خلوة مع الله حتى وإن كان فى جمع أو وسط الحياة اليومية. ومن هنا لا يتلفظ بالذكر أى التكرار الدائم المستمر لاسم الله أو لصيغة دينية ما، وإنما يكرر ذلك فى السر، وهذا ما قاد أحد المشاركين من وسط آسيا لأن يقارن بين بهاء الدين ولوتر الذى "قام أيضًا بتنقية القداس المسيحى من الشهادات الجهيرة للورع".

وقبل أن نبدأ احتفالنا لتكريم المرشد النقشبندى زرنا شيفا فى الركن الجنوب غربى للبلد، وهو مزار سياحى جميل بالقرب من الحدود التركمانية. وفى أروجنج المدينة الحية القريبة كان يوجد فندق جديد كان ينبغى لسبب ما أن نزوره، ربما لأنه كان نتيجة لمبادرة خاصة كانت لا تزال نادرة المثال. وكان الفندق فى الحقيقة جديدًا، ولأجل ذلك احتفل بنا بوصفنا أول ضيوف يحضرون البركة. وبعد العشاء جاء الموسيقيون ثم لحقت بهم راقصة متحركة مثل حية حتى إن بعضًا منا أيضًا لم يتماسك؛ فبسرعة نسينا البرنامج والواجب واستدرنا فى رقص كان بهاء الدين يقاومه بحماس. حتى أبونا اليسوعى الذى يبدو مثل كرة أخذ يدور فى دوائر مبتسمًا مغبوطًا ويمد يديه عن آخرهما مثل ملاك صغير، وأيضًا طبيبتنا العسكرية المسلمة الممتلئة، وهى نفسها نقشبندية من كولونيا ومرحة، اشتركت فى الحفلة.

كانت شيفا مرممة بالكامل، وتبدو طازجة بعض الشيء، ولكن المعمار الطينى الجميل والقباب ذات الألوان الفيروزية تعطى بالتأكيد صورة جيدة لشخصية مدينة تراثية. وحتى نفعل هذا بصورة حقيقية زرنا فى أورجنج ليس فقط مزرعة الثعابين التى تعطى سمومها لشركات الأدوية، وإنما شهدنا أيضًا مصارعة خرفان، والتى تقوم خلالها الحيوانات الضخمة بالنطح بأكبر قوة ممكنة، وكان الأمر يبدو كما لو أن دبابتين قد اصطدمتا، ولكن ماذا يحدث آنذاك لمخيهما؟ أم أنهما قد ربيا دونهما؟.

بعد الاحتفال بذكرى تيمور وبهاء الدين نقشبند بما يليق بتكريمهما، كان يجب أيضًا الاحتفال بمفكر المنطقة الكبير، رجل ينتمى ولا شك إلى أكابر العلماء ليس فى الشرق فقط وهو البيرونى (ت ١٠٤٨م) الذى ينتسب إلى خوارزم، وعمل لفترة كبيرة فى بلاط محمود الغزنوى، وهناك استوحى مؤلفه عن الهند. وكان محمود قد وسع منذ سنة ١٠٠٠م مملكته من غزنة إلى غرب وشمال غرب الهند. وعالميًا يعد مؤلف البيرونى "كتاب فى الهند"[١٧٣] أول محاولة لمعالجة ثقافة أجنبية دون أحكام مسبقة، وذلك قبل أن تعرف أوروبا تاريخ الأديان المقارن بفترة طويلة. ويكاد أيضًا أن يكون لعمله عن "كرونولوجيا الشعوب القديمة"[١٧٤] الأهمية نفسها، وهو عمل مبهر درس فيه حساب الأزمان وتواريخ الأعياد والتقاليد لكل الشعوب المعروفة لديه، وهو لم يفقد إلى اليوم قيمته.

ولكن أين تقع خوارزم حقيقة؟ فاليوم لا يكاد يجد المرء شيئًا تحت هذا الاسم على الخريطة، ولكن فى العصور القديمة وبداية العصور الوسطى كانت المنطقة حول بحيرة الآرال، بين البرية والمنطقة الجبلية، وهى المنطقة التى تكاد تتطابق اليوم مع إقليم كراكلباكستان، هذا شىء مهم جدًا. إذن فلنذهب إلى هناك! طرت من طشقند إلى نوكوس عاصمة كراكلباكستان، وهى منطقة متضررة بيئيًا بوجه خاص بسبب جفاف بحر الآرال؛ فحيث

وجد الشاطئ مرة تمتد الآن ولأميال بعيدة الأراضى المتبررة، وكان ذلك نتيجة للزراعة الوحيدة المتكررة للقطن فى العصر السوفيتي. وكانت نوكوس مفاجأة لنا، وقد حيينا - المترجم وأنا - من قبل امرأة جميلة أنيقة تدعى جولستان، والتى لم تكن فقط نائبة عن رئيسة وزراء الإقليم، وإنما أيضًا شاعرة معروفة. وبعد أن اجتزنا الطعام التقليدى الثقيل فى الليل المتأخر أيضًا، تحققت فى الصباح إحدى الأمنيات بأن سافرنا مع جولستان عبر الحدود إلى تركمانستان. آنذاك كان المرء لا يزال يستطيع أن يسافر للبلد المجاور بواسطة تأشيرة إحدى دول وسط آسيا، ولكن هذا لم يعد الآن ممكنًا، وذلك لأن أوزبكستان - وبسبب الخوف من الإرهابيين - قد انغلقت على نفسها.

واصلنا السفر إلى كونا أورجنج وهو المكان الذى عاش وأثر فيه أحد كبار المتصوفة نجم الدين كبرى الذى قتل فى عام ١٢٢١م من قبل جيش جنكيز خان الوحشى. ولأننى كنت قد تأثرت بالرموز اللونية، وذلك منذ أن درست عمل فريتز ماير عنه؛ فقد كنت أريد أن أرى مكان راحته الأخيرة. لقد كان ضريحًا جميلاً بسيطًا يقع بالقرب منه بعض المقابر ومنشآت أحد قصور العصور الوسطى، وكانت كلها تقع منعزلة فى البرية. وزرنا فى الطريق جبانة بعيدة تقع على هضبة، وتضم قبرًا مثيرًا للانتباه يخص أميرة من العصور الوسطى، وكانت إحدى القطط الكبيرة تخطو باعتداد على التوابيت كما لو أنها حارسة للمقبرة.

وفى نوكوس يوجد شىء مثير: متحف يحتوى على آلاف (يتحدث المرء عن ثمانين ألفًا) من الأعمال الفنية من روسيا. ففى العشرينيات والثلاثينيات أحضر أحد محبى الفنون من الروس الميسورين رسومات وتماثيل صغيرة من موسكو ولينينجراد إلى أقصى ركن فى الاتحاد السوفيتى آنذاك، وذلك لأنه كان قد حكم على أغلبها بالانحطاط، وذلك كما كان الحال

لدينا فى ألمانيا. كانت الأعمال التكعيبية والتعبيرية، وعمليًا كل التيارات المهمة فى النصف الأول من القرن العشرين معروضة هناك، بالطبع جزء صغير فقط هو المعروض. لقد كان هذا المتحف المفاجئ صغيرًا جدًّا!

وقد طرنا بعد أن تمتعنا بالضيافة الغامرة باتجاه أورجنج، وسافرنا بعد ذلك إلى بيرونى. وهى مدينة صغيرة حصلت فقط قبل وقت قصير على اسمها، وذلك بهدف تكريم العالم القروسطى الذى ربما ولد هناك، وتقع فى منطقة لا تزال توجد بها مبان لا تحصى من عصر زرادشت: قصور ومعابد مجوسية تزال عنها الأتربة ببطء. وفى البيئة الرملية تجرى سحال صغيرة هنا وهناك، وتنمو أزهار قليلة، ولكن المكان نفسه كان يشرق من سرور التطلع إلى الحدث الكبير. وحينما قام فولفجانج شرايبر فى بداية أغسطس بزيارة مكان المؤتمر كان يوجد فى انتظار الضيوف الكرام فقط تخشيبة ضخمة بالية، أما الآن بعد ستة أسابيع؛ فقد نتج عن ذلك فندق، وكان - ويا للعجب - جيدًا. ولأننى سأحصل على الحجرة الفخرية؛ فقد كان الواجب علىَّ أن أنتظر قليلاً حتى ينقل التليفزيون الضخم للخارج، وفيما بين ذلك جهزت حجرة أخرى بفخامة بورق حائط مفضض وفرش السرير بما يشبه الديباج، ولكن حينما كانت حجرة الحمام قد أعدت، انساب من صنبور المياه رمل صحراوى من أفضل نوعية، ولكن فى الحجرة الثالثة كان كل شىء يعمل على ما يرام.

وفى "حديقة الفندق" وجدت منصة مورقة وكُشكًا تغنى فيه الأوزبكيات فى ملابسهن البيضاء ألحانًا لهيلدجارد فون بينجن Bingen[١٧٥]، غير معقول ولكن يلامس الشعور. بالطبع ألقيت كلمة ذكية وحاولنا أن نستثير الشباب إلى الأعمال الفكرية. ولدى كل طعام كان يوجد شرب للأنخاب، ولا بد لكل فرد من أن يتماسك. ولأن المرء لا يستطيع - على كل حال - تحمل أكلة البلوف إلا بمساعدة الفودكا فقط، فإن شرب الأنخاب لم يكن شيئًا مرفوضًا.

ولكن ما هو البلوف؟ إنه الوجبة القومية الأوزبكستانية، وهى عبارة عن أرز مطبوخ للأسف بزيت بذرة القطن، حتى ليبدو وكأن الأرز مع الخليط يتضخم فى البطن مثل كومة قطن ممشطة. قبل ذلك توجد فى العادة شربة لذيذة جدًا وثقيلة جدًا، وهى شربة يمكن للمرء أن يقدرها فى يناير، ولكنه لن يقدرها بمثل هذه الدرجة إذا ما بلغت درجة الحرارة خمسة وثلاثين درجة. وينتمى للمشهيات لحم الحصان المدخن أو سجق لحم الحصان، وهو بالمناسبة لذيذ الطعم، ولكن يفضل للضيف أن يكتفى بالفاكهة اللذيذة، والتى تعرف بها هذه المنطقة منذ القدم.

قادتنى الرحلة الأخيرة - والحالية - إلى أوزبكستان (٢٠٠٠) أخيرًا إلى وادى فرغانة، تلك الأرض التى تفصل بين طاجيكستان وقرقيزستان. وهنا على وجه الخصوص تصبح عدم عقلانية ترسيم الحدود إبان العهد السوفيتى وكذلك بعد استقلال دول وسط آسيا واضحة للعيان؛ حيث يأخذ نهر سرداريا (سيحون القديم) طريقه عبر الدول المختلفة التى يتحدث أهلها أحيانًا الفارسية وأحيانًا التركية، ولكنهم يفصلون عن بعضهم البعض عبر حراسة الحدود الصارمة فى الفترة الأخيرة. وقد استطعت أن أطير إلى نهاية الوادى الضيق الممتد إلى أنديجان مسقط رأس بابر (١٤٨٤-١٥٣٠) مؤسس إمبراطورية المغول العظام. وفى الجامعة؛ حيث يوجد بالمناسبة قسم جيد للألمانية، استقبلت والسيدة سليمانوفا بباقة ضخمة من زهور الجلاديول، وقد تحدث كلانا من أوجه نظر متباينة عن بابر، وكان "ابن أخى" الأوزبكى باهودير Bahodir، والذى أعرفه منذ فترة عمله مترجمًا للسفارة فى بون، وهو بالإضافة إلى ذلك مستعرب ممتاز، وكان مترجما بسرعة مرة إلى الروسية وأخرى إلى الأوزبكية. وفى الصباح التالى التقينا رجلاً سمينًا متحمسًا لبابر، كان قد بنى على أحد التلال نصبًا تذكاريا لبابر يشبه ضريحه فى كابول، وزينه بلوحات حائط فخمة ولكن بلا ذوق، وكان النصب يملك

منظرًا جميلاً على الطبيعة المترامية، وكان المرء يستطيع أن يصل إلى هناك بواسطة "تليفريك" (قطار معلق) له مقصورة صغيرة ملونة. وإبان غذاء ثقيل للغاية في حديقته (ببيرة ميونخية حقيقية!) حكى هذا المتحمس لبابر عن خططه لجعل ذكرى الملك المغولى حية. لقد كان الأمر متعبًا بعض الشيء حتى وإن قصد به الخير أيضًا.

ثم واصلنا التجول فى البلد. وتحت تمثال الفلكى الكبير الفرغانى (الفرجانوس توفى بعد ٨٦١م) وقفت لجنة الاستقبال التالية ومعها زهور الجلاديول التى انتهى أمرها مثل سابقتها - فى درجة حرارة تبلغ الخمسة والثلاثين فى الظل غير الموجود - ببطء فى حقيبة السيارة. وفى مقابل ذلك وجدت أكلة البلوف الثانية فى تمام الثالثة عصرًا، وبعد زيارة منسج إيكاط فى مرج حنان جاءت الثالثة... ولكن زيارة هذا المنسج الأخير الذى لا يزال يصنع فيه الإيكاط هى شىء له قيمته. لقد كان منظرًا ساحرًا رؤية كيف تفتل خيوط الحرير، مشدودة ومربوطة وتلون بوصفها خيوطًا رأسية، وكيف تدق بالمكوك بالخيط الأفقى الملون فى إجراء يبدو عناء لا نهاية له. وكانت الصالة تبدو بمناسجها مثل حديقة ملونة. وقد علمنا كم من الأشكال توجد وماذا تسمى، ولكن علمنا أيضًا كيف إن المرتبات قليلة بشكل لا يتصور. ورغم ذلك بدت النسوة الشابات على المناول مبتسمات، وذلك لأنهن كن سعيدات بأن وجدن فى الأصل عملاً فى منطقة تعانى من البطالة المرتفعة.

ثم عدنا إلى طشقند بالطبع ليس دون بعض أمتار من حرير الإيكاط فى الحقيبة. وفى الأيام التالية كان الكثير من المحاضرات مرة أخرى، وفيما بين ذلك توقيع ترجمة كتابى "روحى امرأة" Meine Seele ist eine Frau إلى الأوزبكية. وكانت المحاضرة فى كلية التيولوجيا المؤسسة حديثًا مما له دلالة كبيرة. وهناك يتعلم المرء على الكمبيوتر قراءة وتجويد وتفسير وترجمة القرآن، ومن ثم لا يحتاج المرء كثيرًا ليفكر فيما يلاحظه المرء من ردود

فعل الطلاب غير المهتمين. وينبغي لهذه الكلية أن تعمل ضد مخاطر التطرف الديني، ولكني لا أعرف حقيقةً كيف.

لدى هذه الزيارة الأخيرة في صيف عام ٢٠٠٠ كنت قد قدمت من طاجيكستان؛ حيث كان ينبغي أن ألقي بعض المحاضرات. كانت المعارك الداخلية السيئة قد هدأت أخيرًا. وحينما كنت في بون أوشك على الإقلاع سألتني موظفة اللوفتهانزا مذهولة: "هل ستذهبين إلى هناك طوعًا؟" "وأي تطوع!" منذ سنوات وأنا أريد رؤية هذا البلد!

كانت طائرة الخطوط الطاجيكة التي تقلع مرة في الأسبوع من ميونخ إلى دوشانبه من طراز توبولوف، وقد اقتسمت درجة رجال الأعمال بها مع أمريكية من البنك الدولي. وفي جورلو على البحر الأسود ولدى الإمداد بالبنزين، وحيث كانت تمطر بشدة صعد رجل هيئ لي أني أعرفه، القنصل التركي العام السابق في كولونيا! وكانت هذه فرصة طيبة، وذلك لأننا هبطنا مبكرين ساعة، ولكن بفضله ظهر السفير التركي من الظلام وساعدنا لدى مراجعة الجوازات التي كانت أكثر اضطرابًا بسبب الوصول المبكر، وقد اهتم بأن أحظى بالرعاية حتى ياتي المستقبلون من السفارة الألمانية. كانت الحجرة في فندق "أفيستو" – وهنا يتذكر المرء الماضي الزرادشتي لهذه المنطقة – مملوءة بالقطيفة، وكان سيفون المرحاض يعمل على الأقل من حين لآخر (وأما عن التجهيزات من هذا النوع فيصمت الشاعر أدبًا).

لقد كانت أيامًا ساحرة ممتعة في المدينة الجديدة إلى حد ما؛ فهي مترامية الأطراف ومزينة بالأشجار. وكم من أناس مهمين التقيتهم في محاضراتي، أناس ينتظرون مشوقين إلى الأخبار من العالم الواسع الكبير الذي كانوا مقطوعين بقوة أو بضعف منذ فترة عنه. فكان يوجد هناك ابن الكاتب الطاجيكي الأشهر صدر الدين عيني، وهناك كانت منيرة ابنة أحد الموسيقيين، والتي حكت كثيرًا عن التاريخ المعقد للمنطقة، عن العذاب

والهروب والمطاردة ودائمًا من وجهة نظر مختلفة. وفى بيتها عقدنا حلقة دراسية عن مولانا الرومى، والتى كانت مرافقة من قبل موسيقى دراويش رقيقة. وكذلك التقيت تلميذى السابق لدرجة الدكتوراه فى هارفارد رفيق، وهو إسماعيلى وكان مسئولاً عن تنظيم الجامعة التى يجرى إنشاؤها، والتى تبرع بها الأغاخان. وقد سافرنا مرة ظهرًا إلى النهر الهادر وأكلنا سمك فورلا صغيرًا، بالضبط مثلما فعلنا فيما سبق بجانب الأنهار الجبيلة فى أفغانستان وشمال غرب باكستان، جلسنا على سرير حديدى مفروش بمفارش ملونة. المرء يشعر بوحدة المنطقة حول جبال الهندوكوش. وإلى أى حد كانت أفغانستان قريبة! كان سفيرنا م. ماير قد زار بدخشان قبل حضورى مباشرة، وهو ذلك الطرف الضيق الممتد لأفغانستان، والذى يوجد فيه ضريح الشاعر الإسماعيلى والفيلسوف ناصر خسرو الذى أردت زيارته عام ١٩٧٨. هذا ما كنت أستطيعه هذه المرة؛ لأن المنطقة كانت تحت سيطرة مسعود وليس طالبان، ولكن وقتى لم يكن يتسع لمثل هذا المشروع الذى لم يكن مريحًا تمامًا. وكنوع من المواساة أرسل إلىَّ السفير قطعة جميلة من اللازورد من أهم مناجم الإقليم. وفى المساء الأخير أقام السفير الإيرانى أيضًا عشاء وداع فى مقر إقامته الذى أعدت حديقته بأسلوب حديقة ورود شيرازية. وفى هذا المساء لم يكد ينشد غير شعر فارسى فقط، وقد حلى الوداع بالنسبة إلىَّ عبر زجاجة ضخمة من العسل الجبلى.

وكانت رحلتى إلى الشمال باتجاه أوزبكستان رائعة. كانت الرحلة البرية بين طاجيكستان وأوزبكستان ولمدة سنوات طويلة غير ممكنة، وذلك بسبب الصراعات الداخلية. والآن تيسر لى بالاشتراك مع محاضر الهيئة الألمانية للتبادل العلمى DAAD وفى سيارة السفير المتينة بتحقيق أحد أحلامى، وذلك لأن السفر على الجبال – سلسلة منخفضة لجبال تين شان – ذات الممرين بعلو ٣٠٠٠ متر لكل منها كان جميلاً لدرجة تكتم الأنفاس. فى

كل انحناءة منظر جديد - مراع وأحراش صغيرة، أزهار صفراء ومنحدرات صخرية حمراء وحقول خضراء رمادية، وكل هذا كان يوحى بمثل نسيج حديث - وفى الخلفية الجبال المرتفعة لثلاثة آلاف وأربعة آلاف متر والمغطاة بالجليد أمام السماء الزرقاء. جمال ينسى المرء حفر الطريق. وعلى الممر يسيل الآن بالذات الثلج، وتبدو إحدى الحوائط الصخرية وكأنها من مرمر متعدد الأشكال. حينما كنا على ارتفاع حوالى ١٨٠٠ متر وجدنا مكان استجمام بدت شمسياته رغم ذلك أنيقة، ولكن من بعيد فقط. وقد غسلت السيارة بطريقة الطاجيك؛ حيث يملأ أحدهم الدلو عن آخره من الجدول القريب ويدلقه دون راحة على السيارة. وبعد ذلك تواصل السفر باتجاه السهل؛ حيث توجد فى كل الأماكن الصغيرة أوان زجاجية مملوءة بمحتوى أصفر. وقد تعجبت لهذه الكمية من العسل الجبلى التى تعرض فى الطريق، ولكنه كان بنزين يباع بهذه الطريقة لعدم وجود محطات بنزين. وصلنا بعد سفر لمدة ثمانى ساعات إلى خودجاند (لينين أباد سابقًا) على شاطئ سيرداريا؛ حيث يوجد فندق أنيق، وذلك لأنه بالقرب منه يوجد منجم لليورانيوم؛ مما جعل الشخصيات الكبرى تأتى إلى هناك كثيرًا أيضًا. خادمة حجرتى الطاجيكية الجميلة كانت مندهشة لأننى أعرف أن اسمها "مولودة" يدل على أنها ولدت يوم ميلاد النبى. ربما لم تكن قد رأت أجنبية قط تحدثت معها بلغتها الأم. (اللغة الطاجيكية مثل اللغة الدارية الأفغانية عبارة عن شكل قديم الطراز للفارسية الحديثة مضافًا إليها مواد روسية دخيلة). وقد عشت أنا أيضًا مفاجأة؛ فإمام المسجد، الذى بنى مثل كل المساجد فى الاتحاد السوفيتى السابق منذ قليل فقط، كان يعرفنى، وذلك لأنه رآنى مرة منذ سنتين أو ثلاث فى التليفزيون الطاجيكى حينما قامت صحفية لطيفة بعمل مقابلة معى فى منزلى ببون. كانت الأعمدة الخشبية العالية والرشيقة للمسجد مزينة بحفر فى منتهى الجمال على الخشب، وهو ما يمارس - ومنذ قرون - فى كل مكان

فى الهندوكوش والمناطق الجبلية الواقعة على الحدود. وهذا ما كنت أعرفه من المساجد الخشبية الرائعة فى سوات الباكستانية، وكذلك كان العشاء مع سفيرنا يستحق الذكر؛ حيث جلسنا فى مطعم صغير كان قد بنى فى النهر وتمتعنا بالسمك الطازج وسعدنا بالمنظر، وكان صاحب المطعم مثالاً تزين أعماله المدينة.

جئت إلى كازاخستان مرتين - إلى حد ما - بسبب هفوة فى نهاية رحلة محاضرات أوزبكية كان ينبغى علىَّ التحدث فى المآتا وبيشكك. وقد وافقت على الدعوة لأننى تمنيت أن أتمكن أيضًا من زيارة مدينة توركستان فى كازخستان؛ حيث يدفن الصوفى التركى الكبير وشيخ التصوف فى القرن الثانى عشر أحمد ياسور فى ضريح ضخم، ولكن من المآتا إلى هناك كان سفرًا طويلاً بالقطار، بينما كان الأمر من طشقند سيستغرق فقط بعض الساعات بالسيارة، ولكن الأوزبكيين لم يكونوا يريدون على الأصح فيما يبدو أن أعرف هذا. ومن هنا فقد هبطت فى الصباح الباكر ولدى شروق شمس الصباح الساطعة فى المآتا. كان مدير معهد جوته يقف فى المطار، بالطبع كان مكلفًا إلى حد ما بأكثر ما فى وسعه، وذلك لأن الأسبوع الثقافى الألمانى كان آنذاك مقامًا فى دول وسط آسيا، وكان ينبغى عليه إبان تلك الظروف البعيدة تمامًا عن أن تكون مثالية أن يأتى إلى المطار بضع مرات يوميًا ليحضر عبر الجمارك شيئًا ما، الآن جهاز بيانو، والآن ربما ثلاث كمنجات وكذلك الكثير من الأدوات الثقافية الأخرى المختلفة ثم يوجهها بطريقة ما إلى العاصمة الجديدة أستنة التى تبعد ثلاث ساعات طيران، وذلك حتى تستطيع الثقافة الألمانية وبكل الإمكانيات أن تنتشر لأبعد ما يكون، ثم سلمنى إلى مترجمتى الفورية، والتى كانت رغم أنها لطيفة جدًا لا تعلم شيئًا للأسف عن الإسلام أو على الإطلاق عن التصوف، وذلك لأنها كما هو مفهوم عارفة بشكل أفضل بالمصطلحات الاقتصادية المهمة بالنسبة للاتحاد السوفيتى

والبلاد التى نتجت عنه. كان الفندق حديثًا وغير جذاب، وفى الصباح كان كل شيء رماديًّا، وذلك لأن الأمطار الباردة قد بدأت. وبسبب تمتعى بالشمس الأوزبكية لم أصطحب معى أية ملابس شتوية، ولكن كان الأسوأ أننى نفسى وفى محاضرتى الأولى قد لاحظت من خلال لغتى الروسية المتخلفة حقيقة أن الترجمة لم تكن كلها صحيحة، هذا إذا ما قلت ذلك بتعبير متسامح ولطيف. وقد فعل مدير معهد جوته - وكذلك سفيرنا هناك - أفضل ما لديه حتى يواسينى، ولكن المحاضرة الثانية لم تحسن مزاجى. وحينما بدأ الثلج يهبط بقوة قررت ألا أطير إلى بيشكك، وإنما أن أعود وبأسرع ما يمكن إلى الوطن، وهذا ما تيسر لى أيضًا، وذلك بعد أن حولت مكافأتى اليومية إلى قبعة قطيفة رائعة ذات إطار من الفرو.

وقد أخذت آنذاك قرارًا بألا أذهب إلى المآتا مرة أخرى، ولكن حينما سألتنى الهيئة الألمانية للتبادل العلمى فى ربيع ٢٠٠١ إذا ما كنت أستطيع أن ألقى كلمة الاحتفال لدى لقاء الممنوحين فى المآتا، لفترة ليست أطول من يومين، قلت بالتأكيد نعم. وقد عشت مع زملاء جديرين بالاهتمام وقتًا كان مبهجًا بقدر ما كان الوقت السابق غير مبهج، حتى إننى التقيت بمرح مرة أخرى مترجمتى الفورية القديمة. وقد عرضت المدينة بطرقها المشجرة الواسعة وتماثيلها الضخمة الغريبة أفضل جوانبها. وبعد أن اقتدت من قبل مستشرقة شابة أعرفها من طشقند عبر تفتيش الجوازات والجمارك، عدت إلى الوطن بعد أقل قليلاً من ثمانٍ وأربعين ساعة. لقد كانت هذه الرحلة، والحقيقة تقال، أقل إجهادًا من رحلة القطار من بون إلى إيرفورت التى قمت بها بعد أيام قليلة.

باكستان والهند

لماذا شغفت هكذا بباكستان؟ لا بد من أن يكون السبب الأرجح هو تأثير تلك الحكاية عن "بادمانابا وحسان" التى لم تغادرنى أبدًا. آنذاك - فى وقت طفولتى وصباى - كانت توجد فقط هند غير مقسمة، ولكن كانت الهند المسلمة معروفة لدىَّ أكثر من آلهة الهندوسية الكثيرين والمشكلين بطريقة غريبة. فحرق الآرامل، وإن كان قد حرم مرة بعد أخرى، يطاردنى إلى الآن بقشعريرة فى كل جسدى. وفى الثمانينيات سألنى دارس للسنسكريات من جامعة Yale - ودارسى السنسكريات لا يتحملون دارسى الإسلاميات!: "أنّا مارى، لماذا اخترت وظيفة بشعة مثل وظيفة دارسة للإسلاميات؟"

وعن هذا السؤال استطعت فقط أن أجيب: "لأننى فى حياتى السابقة كنت أرملة هندوسية لم تكن تريد أن تُحرق!".

"إذن فلم تكونى تستأهلين أفضل من هذا!" قال، وأنا سعيدة لأجل ذلك.

وبأى إعجاب لاحظت بعكس ذلك المبانى الجميلة فى دلهى وأكرا ولاهور ولكنو كما ترى فى مجلدات ستار خيرى! وكان أدب الهند المسلم لا يكاد يكون معروفًا فى أوروبا، ومن يعرف بالتأكيد أن الأدب الفارسى الذى يكتب منذ القرن الحادى عشر فى شبه القارة يبلغ أضعاف ما كتب فى إيران؟ ومَنْ من غير المتخصصين يعرف اللغات التى لا تحصى لشبه القارة، والتى كانت حية جدًّا؟ مثال تقليدى لذلك: عندما كنت أعمل مع آخرين على كتاب "تاريخ الأدب الهندى" الذى يعد له دارس الهنديات الهولندى الكبير يان جوندا، نظرت فى فهرس محتويات المجلدات المخطط لها فوجدت أن مصطلح "الآداب الإسلامية" لم يرد مرة. وعن سؤالى، لماذا لم تؤخذ هذه الآداب (العربية والفارسية والتركية) فى الحسبان؟ أجاب العالم بكل براءة: "أخ، لم أكن أعرف أن شيئًا مثل هذا موجود، ولكن اكتبى دون خوف شيئًا

عن هذا!" على الأقل كانت الأردية - وكانت لا تزال تسمى على نطاق واسع "بالهندوستانية" - معروفة إبان دراستي، وقد حضرت - بناءً على تشجيع من هانز هاينرش شيدر - دورة في برلين في هذه اللغة. وعلى كل حال فقد كان مدرس الأردية طرخان روى Roy قد غادر مسقط رأسه لاهور قبل الحرب العالمية الثانية، وكانت معرفته للشعر الأردى تصل فى أفضل الأحوال حتى أشعار إقبال المبكرة. وأجازف بالشك فى أنه - بوصفه هندوسيًا - لم يكـن يعرف عن حق الأدب الأردى الكلاسيكى، ولكنه فى مقابل ذلك كان عارفًـا ممتازًا بالشعر الألمانى، ويتحدث بسرور عن أيشندورف Eichendorff[١٧٦]، وكان يؤثر بشدة فى المستمع الألمانى من خلال عمته الجميلة. وبالتأكيـد لا تنتمى قصيدة إقبال التى تعلمناها لديه "برنده كى فرياد" (استغاثة طائر) إلـى أجمل أشعار الشاعر، ولكنى اكتشفت "إقبالى" الخاص فى الوقت نفسه بطريقة أخرى، أعنى من خلال مقالة للمستشرق البريطانى رينولد نيكلسون (الـذى فتنتنى مختاراته من الرومى قبل فترة قصيرة). وقد حلل فى مقالته فى مجلة إسلاميكا ديوان "بيامى مشرق" أى "رسالة المشرق" للشاعر الهندو- إسلامى. وقد سحرنى تصور أن شاعرًا هنديًا قد أبدع مشهدًا يلتقى فيه جوته والرومى فى الفردوس؛ حيث يتفقان على إثبات أن "الذكاء من الشيطان والحـب مـن آدم". وعلمت أنه توجد هنا منطقة عمل مستقبلية لى.

وفى عام ١٩٤٧ وقع التقسيم وهو حدث لم ننتبه إليه كثيرًا فى ألمانيـا ما بعد الحرب؛ ففى وطننا الذى به ملايين من النازحين تسربت بضعف إلى الوعى الأخبار حول هروب ملايين من المسلمين من الهند إلى الباكـستان، وملايين من الهندوس إلـى الهنـد. وقـد قربـت إلـى المجلـة الجميلـة Pakistan Quarterly "باكستان الفصلية" التى تصدر منذ عـام ١٩٤٩ البلـد الجديد فى غرب شبه القارة. وكمكافأة على مقالة أو مقالتين (اهتمت إحداهما بالنساء فى التصوف الإسلامى) طلبت لنفسى كتبًا حول إقبال. حينما حصلت

من هانز مينكه فى نهاية عام ١٩٥١ ولأول مرة على عملين مـن دواويـن إقبال الفارسية (انظر ص١١٢) أصبح كل شيء أمامى واضـحًا. وبـسرعة كان "جاويد نامه" وجزء كبير من "رسالة المشرق" قد نقل إلى أبيات ألمانية. وقد أحضرت محاضراتى عن إقبال، وبخاصة ترجمتى التركية المـشروحة "لجاويد نامه" (انظر ص١٦٣) لى الدعوة الأولى إلى الباكستان التى كـادت وبسرعة أن تصبح وطنا ثانيًا لى. حول انطباعاتى الأولى حكيت فـى عـام ١٩٦٥ فى كتابى Pakistan – ein Schloß mit tausend Toren "باكـستان، قـصر ذو ألـف بـاب"، وبعـد حـوالى ثلاثـين سـنة ظهـر كتـابى Berge, Wüsten, Heiligtümer "جبال وصحارى ومقدسات". وهنا سأقتـصر على بعض نقاط مهمة وبعض الجزئيات.

ما زالت أولى رحلاتى فى ربيع ١٩٥٨ تبدو دائمًا مثل حلم. وفى عام ١٩٩٨ احتفلنا بالذكرى الأربعين لأولى رحلاتى، وكان من بين ما حدث فى هذا الاحتفال أننى أصبحت مواطنة فخرية لمدينة إسلام أباد، المدينة التى لم تكن قد خطط لها آنذاك.

بالتأكيد كان يجب علىَّ أن أجعل نفسى تعتاد أن مدينة الثغر كراتشى، وهى – على الأقل مؤقتًا – عاصمة للدولة الجديدة، دون تاريخ حقيقى ودون بنية أساسية، بينما حصلت الهند على مدينة دلهى المنظمة تمامًا، والتى كانت بالتأكيد ومنذ القرن الثالث عشر بمثابة المركز للإسلام الهندى (وقد أصبحت بعد ثورة ١٨٥٨ مقرا للإدارة البريطانية). وفى كراتشى تمتعت بضيافة س. أ. وحيد الذى كنت قد حصلت من الحكومة على كتابه عن إقبال كأول عمل فى مجموعتى حول إقبال. وفى هذا الربيع تعرفت على لاهـور، والتقيـت للمرة الأولى مع يافيد إقبال ابن الشاعر الفيلسوف، والذى تربطنى به حتـى اليوم صداقة قلبية. ورغم ذلك فإنه يميل – بوصفه قانونيًا – إلى فهم أعمال والده بوصفها آراء سياسية، بينما تؤثر فى الهموم والأمانى الدينية للـشاعر

وربطه الآسر للأشكال الكلاسيكية التقليدية للشعر الفارسى مع الأفكار الحديثة الجسورة. وبوصفى مؤرخة أديان فإننى أعجبت بإدراكه الحدسى للأديان المتنوعة، ومثلما أبرز ذلك كأوضح ما يكون فى ديوانه "جاويد نامه" الذى صدر عام ١٩٣٢، وهو كتاب يتغنى بمعراج الشاعر فى صحبة مولانا الرومى. وفى هذا الكتاب يجد المرء تأثيرات من "الفردوس المفقود" Paradise Lost لميلتون، ومن "فاوست" Faust لجوته (والذى يمثل بالنسبة لإقبال أعلى رتبة من كل الأعمال الأخرى فى الأدب الغربى)، ومن "الكوميديا الإلهية" لدانتى. وفى مؤتمرات إقبال الكثيرة التى حضرتها منذ عام ١٩٥٨ فى الباكستان، وفى ألمانيا، وفى تركيا، وفى الهند، وفى الولايات المتحدة الأمريكية، وفى كندا، وكذلك فى إيران، تنعكس دائمًا النقطة المركزية للسياسة الباكستانية آنذاك؛ فمرة كان إقبال مسلمًا أورثوذكسيًّا، ومرة اشتراكيًّا، أو حتى بطلاً ثائرًا ومبشرًا بالنقد الاجتماعى، ومرة متصوفًا وأخرى معاديًا للمتصوفين أو معاديًا للغرب. وباختصار فإن التفسيرات تتغير من عام لآخر وتبعًا لحالة الطقس السياسى تقريبًا.

وخلال زيارتى الأولى اكتشفت أيضًا وجهًا آخر مختلفًا تمامًا للبلد. زرت ساحة مقابر ماكلى هيل الضخمة التى تقع على بعد قرابة سبعين كيلومترًا من كراتشى، والتى دفن فيها آلاف من الحكام والعلماء منذ نهاية القرن الخامس عشر. من ساحة المقابر تبرز أضرحة بنيت غالبًا من الحجر الرملى الأصفر وزخرفت بجمال بأساليب متنوعة، ومختلفة، وكان الزائر مسحورا من ثراء الأعمال الزخرفية الحجرية على الأسوار والشبابيك، والتى يرجع جزء منها إلى عمل الفنانين والحرفيين المنتسبين إلى جوجرات. وفيما بين ذلك وقف ضريح ضخم يبدو أنه يرجع إلى تركستان، ووجدت كذلك بعض أشكال الزخارف المحددة التى تذكر بسمرقند وبخارى. طبيعة ساحرة لا تكاد تعرف عنها مراجع فنون العمارة الإسلامية - فيما يبدو - شيئًا.

أنهينا الزيارة وأنصت مع بير (شيخ) حسام الدين راشدى الذى اصطحبنى إلى هناك إلى موسيقى اثنين من عازفى الشوارع فى حارة معفرة تقع بالقرب من مدينة تهاتا. سألت: "أين أجد شيئًا عن ملوك السند؟". رمقنى مرافقى باعتداد أحد الشيوخ، وقال بصوته العميق: "لقد كتبت عن هذا، ولكنك لن تستطيعى قراءة ذلك لأنه بالسندية". أنا يقال "لى" إننى لا أستطيع تعلم إحدى اللغات!؟... بعد ستة أشهر استلم بير صاحب أول خطاب لى بالسندية، وذلك لأننى كنت قد اكتشفت على أى كنز وقعت: لغة منغمة للغاية، وقبل كل شىء ذات نظام تفعيلى ذى قواعد معقدة للغاية. وكيف يمكن للأجنبى المسكين تعلم نطق الأنواع الستة لحرف d بصورة صحيحة، أو نطق b "انفجارية"؟ ولكن هذه اللغة تملك كنزًا من الشعر الصوفى، يمكن إعادة تتبع أول آثاره حتى بداية القرن السادس عشر، وذلك حينما أنشد قاضى قاضان قصيدته dohas، والتى يقتبس منها الأصدقاء دائمًا:

دع للقوم القواعد والتراكيب؛

فأنا سأدرس الحبيبة!

وبعد قرنين وصل الشعر السندى إلى قمته فى "رسالو" الشاه عبداللطيف (ت ١٧٥٢م) الذى زرنا فيما بعد ضريحه الجميل فى بيت شاه. وقد أصبحت "رسالو" محبوبة منذ قرنين ونصف قرن من كل سندى، سواء أكان مسلمًا أم هندوسيًا، بل أصبحت أشعار شاه عبد اللطيف كلمات مأثورة. وفى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أنجب إقليم السند كاتبًا خصبًا مدهشًا! هو ميرزا قاليج بيك (من أسرة قوقازية- تركية) الذى ألف أكثر من أربعمائة عمل - ما بين ترجمات من شكسبير حتى حكاية "سلة الزهور" لكريستوف فون شميت - وهو الذى تدين له السندية بأول رواية تكوين نسائية هى (زينت، ١٨٩٢).

بينما لم أكن أخمن كل هذه الأشياء، فكرت فى أن مكانًا فارغًا ما زال موجودًا فى الجزء المخصص للسيدات فى ضريح أمير سندى: ألا يكون جميلا أن يدفن المرء هنا فى وقت ما؟ هذه الفكرة ظلت معروفة فى الباكستان، رغم أنه قد عرض علىَّ أو قدم إلىَّ مباشرة أيضًا مكان للدفن فى بنو التى تتبع منطقة قبيلة الباثانن وبالقرب من إقبال فى لاهور.

ينتسب مرافقى - على هذا الطريق المصيرى الأول إلى تهاتا وماكلى هيل- بير حسام الدين راشدى إلى إحدى الأسر الصوفية المعروفة منذ مئات السنين، وينتسب للفرع الآخر من العائلة بير باجارو "ذو العمامة" الذى شارك أتباعه فى معركة تحرر المسلمين ضد السيخ فى عامى ١٨٣٠ و ١٨٣١ فى شمال غرب الهند. هؤلاء "الأحرار" الذين يهبون أنفسهم دون شروط إلى واليهم لعبوا كذلك دورًا مهمًا فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين فى النضال ضد البريطانيين. وقد اشترك المؤلف البريطانى هوج ت. لامبريك Lambrick بوصفه قانونيًا فى المفاوضات مع الأحرار، وألف بناء على مدونات أحد المقاتلين روايته الأسرة The Terrorist "الإرهابى". وقد وهب فرع بير صاحب نفسه للعلم أكثر، وكانت مكتبته الممتازة دائمًا نقطة جذب بالنسبة إلىَّ، وذلك لأن المرء يجد هناك الكتب والمخطوطات النادرة ويلتقى بالعلماء الآخرين من الباكستان وإيران. ورغم ذلك فقد لعب أخوه الأكبر بير على محمد دورًا شديد الفاعلية فى السياسة، بوصفه وزيرًا وكذلك بوصفه أول سفير لبلاده فى الصين. وكثيرًا ما كان المنزل فى كراتشى، الذى يعيش فيه جزء من الأسرة الكبيرة، هدفًا لى. وقد التقيت هناك ليس فقط سيد البيت العالم، وإنما أيضًا والدته العجوز، وزوجته الصامتة (كانت دون أطفال)، وزوجات أخوته الذين لا يحصون، وأولاد وبنات الأخوة والأخوات، وكان من الصعب التفريق بينهم. فقط كانت أصغر النسوة، زوجة بير على محمد، وهى بنغالية نشيطة وشديدة الذكاء، هى التى لا ترتدى البردة؛ حيث

جاءت بوصفها فراشة غريبة إلى البيت التقليدى، ومنها تعلمت الكثير حول عادات وتقاليد أسرة سندية أرستقراطية. أما كون إحدى زوجات بير على محمد مسيحية والأخرى هندوسية؛ فلم يكن يزعج أحدًا، وفى كل صباح يزور الابن الأكبر والدتيه حتى يقف على ما تحتاجانه، وقد فوجئت بعض الشيء عندما أجاب مرة على سؤالى: كيف قضى يوم الأحد، بابتسامة مرتبكة بعض الشيء: "أوه، لقد قضيت يوم عيد الفصح فى بيت أمى المسيحية".

لم تكن عائلة وحيد التى تستضيفنى سعيدة بزياراتى الكثيرة لبير صاحب، وذلك لأنهم يخافون أن تبتعد ضيفتهم عن إقبال ومثل باكستان العليا، وأن تعتنى بدلاً من هذا بثقافة جزء من الباكستان كان بالنسبة إليهم غريبًا. وببطء أدركت أن المشكلة بين السند والمهاجرين كانت آنذاك قد بدأت فى التورم، وهى التى أخذت فى السنوات التالية أشكالاً كارثية. وأخيرًا - هكذا كان يعلل - فإن السنديين لم يقدموا شيئًا للباكستان، نعم، بل إنهم يريدون أن يحولوا إقليمهم إلى بلد خاص بهم! أكان يجب إذن أن أذهب إلى كونسيرت للموسيقى السندية، وبالذات فى بيت ج.م. سيد الذى - وهذا بالطبع ما كنت أجهله بوصفى مستجدة - يناضل من أجل دولة سندية مستقلة، بينما الأسرة التى استضافتنى تنتمى لهؤلاء الملايين من المسلمين الذين غادروا وطنهم الهندى فى عام ١٩٤٧؟ وهم ينتسبون إلى أجمر المركز المهم للتصوف فى الهند، وأقاموا لمدة طويلة فى منطقة نظام حيدر أباد. بالنسبة لهم - مثلما هو الأمر بالنسبة لملايين المسلمين - كانت الباكستان - كبلد إسلامى مستقل - حلمًا، ولكنهم لم يفكروا فى أن الوطن القديم قد أصبح الآن مغلقًا تمامًا أمامهم. "لقد فكرت فى أن العلاقة بين الهند والباكستان ستكون مثلما هو بين ألمانيا والنمسا" قال س.أ. وحيد، وعبر بذلك عن رأى ملايين المسلمين. خروج جزء مهم من الطبقة الثقافية المسلمة كان يجب أن يقود بشكل

ضرورى إلى اضطراب على كلا الجانبين. وهذا ينطبق بالدرجة الأولى على السند؛ حيث كان الهندوس، الطبقة القائدة المثقفة، قد غادر أغلبهم البلد (لا تزال توجد مقاطعات صغيرة فى بيلوشستان وفى صحراء ثار)، بينما كان الجزء الأكبر من السكان فلاحين قرويين، وكانت القوة الحقيقية فى أيدى كبار الملاك وشيوخ التصوف. كانت السند منطقة يفتخر فيها المرء باللغة السندية، ولم يعترفوا إلا على مضض بالأردية التى يتحدث بها من قبل أغلبية القادمين (فى البنجاب استخدم المرء الأردية منذ القرن الثامن عشر بوصفها لغة أدبية، بينما كانت البنجابية كلغة مكتوبة تستخدم من قبل السيخ فقط). هكذا أحسست بالمشاكل التى ستلقى بظلالها بعد ذلك على البلد الذى أصبح على كل حال مكلومًا من خلال الموت المبكر لرئيسه الأول "القائد الأعظم" محمد على جناح بعد أقل من عام على التقسيم، وبعد قتل رئيسه الثانى، وخليفة جناح، لياقات على خان بعد عامين.

أحببت السند "الخاصة بى"، وزرت الكثير من القرى والكثير من المزارات المقدسة، وأصبح الموسيقيون أصدقاء لى، يغنون ويلعبون لى فى ضوء القمر أو على زوارق فى مرافق حديقة كبرى فى مكان ما بشمال الإقليم. لم أكن لأشبع إذا ما غنوا الأشعار القديمة بمصاحبة الناى، الناى المزدوج، وآلات الإيقاع المتنوعة، وبصفة خاصة عندما يحول "ألان فقير" أغانيه بموهبته التمثيلية إلى أداء صامت، سواء أكان على خشبة مسرح فى بون أم فى ظلمة المساء فى ميتهى فى وسط صحراء ثار. وكذلك كنت زائرة كثيرة الزيارة لدى جمعية الأدب السندى، وهى مؤسسة ممتازة تنشر الأعمال السندية الكلاسيكية، والتى أقدر بوجه خاص منشوراتها حول الفلكلور السندى. وكم من أشياء كثيرة يتعلمها المرء من هذه الكتب حول الأمثال والعادات والأعراف! وكم يتمتع المرء بالحكايات والأغانى الدينية التى جمعها ن.أ. بالوخ Baloch مع مساعديه فى عمل لطيف! هناك يلتقى الشعراء والكتاب الشباب الذين صعد من بينهم وببطء غلام ربانى أجرو

Agro إلى القيادة البيروقراطية، وأصبح فيما بعد مرافقا مخلصا لـــى إبـــان الكثير من رحلاتى، وقد عشت معه بعض الحوادث المسلية. على كل حـــال فأنا أحب فكاهة وسخرية السنديين. وحتى اليوم ما زلت أتذكر كـــم تمتعنـــا وكيف تمتعنا، حينما كنا نرتحل فى مكان ما بالـــصحراء أو فـــى المنـــاطق الجبلية.

ومن كان بالسند لا بد أيضًا من أن يزور موينجو دارو، وهو مكـــان الاكتشافات الأثرية الضخم، الذى يشهد على الثقافة العالية للـــسكان الأوائـــل لوادى نهر السند، والذى اشترك فيما بعد فى حفـــائره وتوثيقـــه أصـــدقاؤنا الألمان بنشاط كبير تحت المظلة الإدارية لليونسكو. وكم من ندوات علميـــة ومعارض للصور احتاجها ميشائيل وألكسندرا يانسن لجعـــل هـــذه المدينـــة الضخمة الميتة معروفة! وقد قمت بأول زياراتى إلى هناك فى أول مـــارس من عام ١٩٥٨. وفى صباح هذا اليوم قمنا تحت الإشراف الإدارى لممتـــاز حسن بتسديد أول ضربات لحفر مكان يمثل أقدم مستوطنة عربية فى شـــبه القارة الهندية، وهى باهمبور التى تقع بالقرب من كراتشي. كان ممتاز حسن آنذاك وزيرًا للمالية فى الحكومة الباكستانية، وكان شغوفًا ومتحمسًا إذا مـــا تعلق الأمر بتاريخ بلده. وكان تاريخ بداية الحكم الإسلامى للهند يفتنه بشدة، وكذلك الأمر بالنسبة لأعمال إقبال (كانت أكاديمية إقبال شيئًا من اختراعه)، ولا يكاد يوجد ألمانى يمكن أن يقارن نفسه به فى معرفته بأعمال جوته. هذا الرجل كان أحد أهم الشخصيات فى تاريخ الباكستان المبكر؛ فهو مطلع ليس فقط على العربية والفارسية ولغته الأم البنجابية، وإنما أيضًا على الإنجليزية والأوردية، وهما أهم لغتين فى الباكستان، وكان يبدو وكأنه يعرف عن ظهر قلب كل المراجع المهمة، وكان دائم الاستعداد، وإلى جانب هذا لديه إحساس رائع بالفكاهة. وقد كان وبير صاحب صديقين مقربين أما ثالث الثلاثة فكان م. أمان هوبوهم Hobohm الذى أعرفه منذ أيام إمامته لمسجد برلين، والذى كان مسئولاً عن الثقافة الألمانية فى الباكستان، وذلك حتى قبل فيما بعد فـــى

الخدمة الخارجية. وحينما نلتقي اليوم في بون (حيث يعمل مديرًا لأكاديمية الملك فهد)، تأتي أحاديثنا دائمًا إلى كراتشي، وإلى ممتاز حسن، وإلى بير صاحب، ونتذكر الأيام السعيدة التي مرت منذ وقت طويل؛ حيث كنا ننطوي على آمال كبيرة للبلد.

وفي عصر ذلك الأول من مارس استقللنا القطار باتجاه شمال الشرق، وكان يسافر معنا عبد الحي حبيبي، العالم الأفغاني الذي كان يعيش لسبب ما منفيًا في كراتشي. وكان زميلنا العالم المتأصل يرتجل في كل محطة - وكان يوجد الكثير منها- رباعية فارسية، وذلك حتى نمنا جميعا. وفي الصباح التالي كانت تنتظرنا سيارة في لاركانا. أفطرنا في بيت كبير أنيق، يوجد على سلالمه الخارجية عدد كبير من أواني الزهور. لقد كان منزل أسرة بوتو، جيران وأصدقاء أسريين لعائلة راشدي، وكان هذا أول احتكاك لي مع الأسرة التي ينبغي لها أن تلعب فيما بعد دورًا سياسيًا مهمًّا جدًّا، وكانت أسرة بوتو قد اندمجت منذ فترة طويلة في سياسة السند، وذلك قبل فترة طويلة من انفصال واستقلال السند الإداري عام ١٩٣٧ عن مركز إدارتها القديم بومباي.

جاء ذو الفقار علي بوتو للمرة الأولى إلى بون بوصفه وزير خارجية. كان يعرفني لأن كل السنديين يعرفون تلك الألمانية التي تحب لغتهم، وتكتب عن أدبهم، وتلقي محاضرات، وتستأنف بذلك تقليد قديم عمره قرن؛ ففي أربعينيات القرن التاسع عشر عمل المبشر الألماني أرنست ترومب Trumpp في كراتشي، وكانت آنذاك إلى حد ما عبارة عن أكواخ صيادين بائسة، وأخرج فيما بعد كتاب قواعد ضخم للسندية، وكذلك جمع أشعار المنشد الصوفي شاه عبد اللطيف ونشر في ليبزج أول طبعة مطبوعة من "رسالو"، رغم أنه بوصفه مبشرًا بروتستانتيًّا عقلانيًّا كان لا يستطيع أن يستسيغ الشعر الصوفي. (ومما يذكر هنا على الهامش أنه - أي ترومب - قد درس أيضًا قواعد اللغة البشتونية والبلوشية وعدد كبير جدًّا من اللهجات الأخرى لما

يسمى اليوم بالباكستان). لقد كان بالنسبة للسنديين شخصية أسطورية، والآن فإن شخصًا من ألمانيا موجود هنا ليستانف دراسة التراث السندى! وفى السبعينيات كان الاهتمام بالسند كبيرًا. بيار على علانة وزير الثقافة الذكى من السند - ابن العمدة السابق لكراتشى، والذى كان أحد قادة الإسماعليين والعمال المقربين من الأغاخان - جاءته فكرة أن ينظم مؤتمرًا دوليًّا عن "السند عبر القرون"، والذى حضره فى ربيع ١٩٧٥ عدد كبير من العلماء من كل أنحاء العالم. بالنسبة إلىَّ كانت قمة المؤتمر أننى كرمت بمنحى الدكتوراه الفخرية لجامعة السند فى حيدر أباد، وكانت هذه هى الدكتوراه الفخرية الأولى فى حياتى (وقد تبعتها الدرجات الأخرى فى الباكستان فى إسلام أباد وبيشاور). وقد استمات زميل ألمانى لم يبد تجاهى فى غير ذلك أية صداقة خاصة فى حمل حقيبة يدى وتسليتى بمنتهى الرقة واللطف.

وفيما بين ذلك قامت علاقة أخرى إضافية؛ فمنذ عام ١٩٦٩ كانت بينظير بوتو، الابنة الكبرى لذى الفقار على، طالبة فى هارفارد، وقد انتقلت مع أول مجموعة من الطالبات إلى إليوت هاوس، وذلك بعد أن أصبحت هارفارد مختلطة. بينظير التى كنا نسميها فقط بينكى، بذلت نفسها أثناء الأزمة حول شرق الباكستان، وما نتج عنها من انقسام، بحماس وحمية دفاعًا عن وحدة البلد، وكانت بالتمام ابنة أبيها وحبيبته، ومن خلالها أصبحت الباكستان حقيقة على الخريطة الفكرية لهارفارد، وذلك بعد أن كانت الهند فقط هى التى تلعب دورًا مهما فى الحالات الأخرى. وكان يهمنى ويحزننى أن بينكى كانت تهتم بالتاريخ وبالدستور الأمريكيين وأيضًا بالهوكى أكثر من اهتمامها بالتاريخ الهندو - إسلامى وبالأردية، ولو كانت معرفتها بثقافتها الخاصة أعمق قليلاً، لوفرت على نفسها على الأرجح فيما بعد بعض الأخطاء.

كنت أرى بوتو كثيرًا لدى زياراتى إلى الباكستان، والتى واصلتها مرة أخرى منذ عام ١٩٧٣ وبإيقاع سنوى منتظم (وأحيانًا كانت تتم أيضًا زيارتان

في العام). ودائمًا كانت تتم دعوتى على الشاى، حتى وإن كان هذا يعنى أننى يجب أن أطير سريعا من لاهور إلى إسلام أباد ثم أعود مرة أخرى إلى لاهور، ولكنه كان يأمر كما اعتاد إقطاعى شرقى. وكانت أحاديثنا مثيرة دائمًا، وقد اقترح علىَّ مرة كتابًا من تأليف بير على محمد راشدى تحت عنوان uhê diñh uhê shiñh "[أين] تلك الأيام وهذى الأسود". وقد شككت أننى سأقرأ على الإطلاق هذا المجلد الضخم فى السندية، ولكنى كنت مفتونة بأسلوب المؤلف البديع وبقدرته الفنية على الوصف حتى إننى حينما كنت أجلس فى بون فى المساء مع أمى كنت أترجم لها أجمل المقاطع: تخطيطات وصفية صغيرة رائعة من الحياة اليومية للإقليم، وتخطيطات وصفية للأبطال الكبار والصغار، وأوصاف للمسلمين والهندوس وكيف عاشوا معا قبل التقسيم.

ولكن الأزمان تتغير؛ حيث ازدادت المقاومة ضد حزب الشعب الخاص ببوتو (PPP)، وفى عام ١٩٧٧ استولى الجيش على السلطة بعد اتهام بوتو بتزوير الانتخابات وبأشياء أخرى كثيرة. وفى أثناء الشهور التى قدم فيها رئيس الحكومة السابق للمحاكمة، كتب كل المهتمين بالباكستان إلى الجنرال ضياء الحق. حتى أمى، فى المستشفى قبل قليل من وفاتها، اشتركت بنشاط فى القضية التى انتهت بإعدام هذا الذى كان مرة قائدًا شعبيًا لامعًا. كنت آنذاك فى هارفارد، وكانت سنام الأخت الصغرى لبينظير تسكن فى البيت نفسه، وكنا جميعًا مصدومين. ولمدة سنتين طويلتين لم أسافر مرة أخرى إلى الباكستان، ولكن سرعان ما ساقنى الحنين إلى الوطن، وكذلك الخوف على بير صاحب الذى مرض بالسرطان مرضًا لا شفاء منه، إلى العودة إلى هناك.

وفيما بين الخطابات التى كتبتها آنذاك إلى إسلام أباد، كتبت خطابًا إلى وزير العدل أ. ك. بروهى Brohi، وكان على كل حال سنديًا، وفيه اقتبست بيتا لشاه عبد اللطيف:

ملك ساب منصور...

الملك كله [الصوفى الشهيد] منصور (الحلاج) -

وكم تريد إذن أن تقتل؟

وقد تعرفت على بروهى، أحد القانونيين المعروفين، مبكرًا فى كراتشى، وهو يقع فى النفس بلا ريب ليس كباكستانى، وإنما مثل عالم جنوب هندى؛ فهو طويل وغامق إلى حد ما، ويدل اسمه على أنه ينتسب إلى أسرة براهوية. والبراهوى شعب صغير من أصول دراويدية يعيش منذ عصور ما قبل التاريخ فى بلوشستان، وربما كانوا أقرباء لسكان موينجو دارو. وتعيش بقايا شعب البراهوى، الذين أبعدوا فيما بعد من قبل الآريين، فى المناطق الجبلية فى أطراف منطقة السند، وهم يتحدثون لغة دراويدية معقدة. وكان بروهى عالمًا متمكنًا بالفلسفة الغربية والشرقية وبالتصوف، طبعًا ذلك التيار من التصوف الإسلامى الذى يشار إليه بوصفه "تيوصوفى"[177] لا انفعالى، وهو اتجاه جذب إليه فى النصف الثانى من القرن العشرين سلسلة طويلة من المستشرقين من أمثال رينيه جوينون Guénon وفرايتيون شون Schuon وسيد حسين نصر وبعض الآخرين الذين وجدوا طريقهم هناك. ومع ذلك استمرت علاقة الصداقة بيننا، وقد زارنى لمرات عديدة فى بون. وكان خاتمه التركوازى الضخم يبدو كما لو أنه يضىء من ذات نفسه.

ومن خلال بروهى تعرفت أيضًا على علامة قاضى الذى كان نائبًا لرئيس جامعة السند، والذى يمثل - طبقًا لبروهى - فلسفة منغمة صوفيًا أو تصوفًا منغمًا فلسفيًا. وكان هو وزوجته الألمانية إليزا يعيشان فى منزلهما المنعزل فى حيدر أباد. وكانت إليزا تظهر بملابس تشبه تلك التى كانت على الأرجح ترتديها وهى لا تزال صبية قبل أربعين سنة فى مدرسة بنات فى فايمار. لقد كان هذا المنظر غير طبيعى: امرأة عادت بعد إقامة طويلة فى

لندن إلى وطن زوجها، ولكنها ترفض كل لقاء خارجى مع "أبناء البلد". وكم فزعت عندما حكيت مفتونة عن ثراء ألوان وروائح بازار المدينة، الذى لم تخطو إليه مطلقًا! وقد ترجمت بمساعدة زوجها جزءًا كبيرًا من "رسالو" لشاه عبد اللطيف إلى الإنجليزية. وكانت ترسم لوحات طفولية لا تكاد تلفت الانتباه، ولكن بروهى كان يعتبرها أعمالاً ممتازة، ويريد أن يعرضها على اللوفر. لقد كان علامة قاضى بالنسبة له بمثابة غورو Guru أى مرشده الروحى. وكانت النهاية تراجيدية؛ فبعد وفاة إليزا غرق العالم فى نهر السند، حادثة أو انتحار؟ أمنية أن يتبع زوجته الحبيبة إلى العالم الآخر، كانت توجد بالتأكيد خلف هذا، وكان كل الذين عرفوه يرون أنه تمثل نموذج بطلة إحدى الأساطير السندية الشعبية: سوهنى التى غرقت فى نهر السند إبان البحث عن حبيبها.

كان بروهى شخصية معقدة، شديد الذكاء وممتازًا حتى وإن كان بطريقة مختلفة تمامًا عن خصمه بوتو. وكان إذا ما تحدث عن الموضوعات الصوفية والفلسفية ينسى الزمان والمكان والناس من حوله. وقد وصف أحد المعارف الباكستانيين بمتعة كيف كان السيد النبيل (كان يظهر نفسه دائمًا بوصفه أستاذًا كبيرًا) يتناول طعامه فى بيت ضيافة فى سهوان: "...ثم أمسك بحبات الأرز (فى حركة دافعة لليد اليمنى على الطبق) وتحدث طوال الوقت عن الجوهر الكونى". يبدو أن الروح الكلية كانت مهمة جدًا بالنسبة إليه أكثر من الدجاج بالكارى.

وقد صعد بروهى المعروف بوصفه قانونيًا لامعًا تحت ضياء الحق إلى درجة وزير العدل الذى ثبتت كلمته الحكم على بوتو، وذلك لأن ضياء الحق كان يثق فيه تمامًا. فقد كان الضابط البسيط، الذى كان يعترف دائمًا بمحدودية تعليمه بل ويؤكد هذا، ويحاول أن يتعلم حتى يفهم تاريخ شعبه بطريقة جيدة، معجبًا دون حدود بوزيره. وهكذا انتهت المنافسة التى طالت لمدة عقود بين كلا الرجلين شديدى الذكاء - الإقطاعى الكبير الغنى والرجل

العصامى من السند – إلى نهاية تراجيدية. "ولكن بروهى كان صوفيًا؛ فلماذا إذن لم ينقذه؟ تساءل صديقه نصر وهو مضطرب ومصدوم بشدة.

مع كل النقد الذى يجب أن يوجه إلى الرئيس ضياء؛ فيجب ألا ننسى شهادة امرأة ليس لديها بالتأكيد أحكام مسبقة. إنها طبيبة الجذام الألمانية روت بفاو Pfau التى تشير مشكورة فى ذكرياتها إلى أنها لم تجد لدى أحد رؤساء الباكستان؛ حيث تعمل منذ عقود، مساعدة كبيرة وتفهما كاملا لعملها مثلما وجدته لدى ضياء الحق الذى كان لديه ابنة معوَّقة.

ولكننا ذهبنا بعيدًا فى زمن يمثل بالنسبة للباكستان نوعًا ما مفترق طرق. حينما جئت إلى الباكستان عام ١٩٥٨ زرت كذلك بيشاور، وكانت آنذاك مدينة جميلة؛ حيث يعجب الزائر بالألوان والروائح لبازار قيساخوانى القديم، مدينة شرقية كما حلم بها المرء دائمًا. وفى الجامعة التى هناك التقيت فى مؤتمر للمؤرخين بزملاء كثيرين سيلعبون فيما بعد دورًا فى حياتى. كان نائب الرئيس آنذاك هو رضى الدين صديقى الذى درس لدى هيزنبرج. وهو ينتسب إلى الدكن، وقد جاء بعد التقسيم بطيب خاطر قليل أو كثير إلى الباكستان، ولعب لعقود كثيرة دورًا مهما فى السياسة الثقافية لبلاده، ويشعر دائمًا بأنه مرتبط بألمانيا حتى توفى عن عمر مديد فى عام ١٩٩٦.

بعد أن عدت إلى أنقرة من زيارتى الأولى للباكستان فى ربيع ١٩٥٨ سرعان ما وصلت أمى من ماربورج. ومباشرة فى أول ليلة كنا مدعوين لدى سيدة فى إستانبول لا تكاد تكون معروفة لى. كانت توجد قهوة وقد قمت بشكل يكاد يكون تلقائيًا بإدارة الفنجان، وذلك حتى تخبرنى السيدة من فضالة القهوة بطالعى؛ فتغير وجهها الناعم الجميل بشكل غريب حتى أصبح يشبه وجه عرافة قديمة جدًا، ثم تنبأت لى "برحلة حول العالم". وقد بدا تحول وجهها بالنسبة إلىَّ كأمر جدير بالانتباه أكثر من مثل هذه الرحلة غير الممكنة، ولكن زارنا بعد أيام قليلة فى أنقرة جوكو بليكر Bleeker وزوجته.

وكان أول سؤال للسكرتير العام للجمعية الدولية لتاريخ الأديان وقتئذ: "هل لديك رغبة فى أن تأتى معنا إلى اليابان؟". وهكذا طرت فى الصيف عبر ماربورج فالقطب الشمالى وكندا إلى طوكيو؛ حيث عملت سكرتيرة للمؤتمر، وإبان ذلك تيسرت لى رؤية معالم اليابان المهمة والجديرة بالرؤية، وذلك لأن رئيسنا الفخرى الأمير ميكاسا ومساعديه قد نظموا كل شىء كأفضل ما يكون. وفى طريق العودة قمنا بالتوقف فى مانيلا؛ حيث كان بير على محمد راشدى سفيرًا للباكستان، ثم استمر السفر عبر هونج كونج إلى دلهى؛ حيث استقبلنى مضيفى فى الربيع س.أ. وحيد، وبفضله زرت للمرة الأولى (والوحيدة للأسف) أجمير شريف التى تمثل المزار المركزى المقدس للشيخ الصوفى الكبير معين الدين ششتى، والذى تتضح أهميته من أن الحدود المغلقة مع الباكستان تفتح - ولمرة واحدة فى العام - بمناسبة مولده، وذلك كى تتدفق لزيارته مجموعات الحجيج من البلد المجاور. وفى أكرا رأيت أخيرًا تاج محل - حلم مرمرى أبيض، تام الكمال حتى إن المرء لا يمكن أن يقيس حجمه الحقيقى من الصور، وهو يؤثر بنعومة مثل غمامة بيضاء. وأية ملكة حازت مثل هذا الضريح الجميل مثل زوجة شاه جيهان ممتاز محل التى ماتت عام ١٦٣١م، وهى تضع مولودها الرابع عشر فى ستة عشر عاما؟

وفى كراتشى وجدت أن صديقى بير حسام الدين يعانى انسدادًا فى أوعية القلب، وهكذا قضيت وقتًا طويلاً فى البيت القديم وسط الكتب، والكثير جدًا من الناس، وجربت لغتى السندية. ومن هناك طرت إلى لاهور، وكنت ضيفة فى دار الحاكم. بالطبع لم أكن أخمن أنه كان يعد فى الليلة نفسها وتحت سقف المبنى نفسه للانقلاب العسكرى الذى انتزع فيه أيوب خان بعد أيام قليلة السلطة فى البلاد لنفسه.

حينما عدت إلى الباكستان قبل بدء عملى أستاذة فى بون فى ربيع ١٩٦١، دعيت للمرة الأولى إلى سوات، وكنت مسحورة بجبال الشمال،

والتى ينبغى أن أرى فيما بعد فيها - خاصة فى الثمانينيات - الكثير من الروائع مثل طريق كراكوروم الذى يمر بالصخور المشكلة بأشكال بدت لنا مثل قصور الجن، وذلك حتى الحدود الصينية، ومثل شيترال؛ حيث نذهب من هناك تحت إشراف مستكشفى شيترال عبر "ممر جهنم" إلى منطقة كفرستان[١٧٨]. وينبغى ألا ننسى سكاردو التى يصلها المرء بعد أن تطير به طائرة الفوكر "Friendship" مارة بقرب شديد من قمم نانجا - باربات حتى إن المرء ليعتقد أن بإمكانه لمس الجليد، وذلك قبل أن تنعطف الطائرة فجأة، بعد نظرة قصيرة إلى عالم الجبال البيضاء اللامعة، والتى ترتفع لسبعة آلاف وثمانية آلاف متر، إلى واد ينساب منه نهر السند الصغير. كانت كارين ميتمان Mittmann، التى تعرفت عليها فى بيشاور عام ١٩٦١، مرافقة رائعة لى فى كثير من هذه الرحلات، وكانت صداقتها تجعل إقامتى فى إسلام أباد أجمل (وأتمنى أن نستمر فى فعل هذا).

اقتصرت زيارتى فى الإجازة الصيفية لعام ١٩٦٢ على شرق الباكستان (والذى لم يكن آنذاك مستقلا)، وذلك بسبب بعض سوء التفاهمات مع مضيفى السابقين فى كراتشى: ينبغى أن أدرس إقبال وليس اللغة السندية! عدد محاضراتى عن إقبال لم تكن قد قلت. وقد قدمت جهدى الممتاز فى هذا السياق على ما يبدو فى لاالليور (فيصل أباد)؛ حيث استمعت فى المعهد العالى للزراعة إلى الإعلان التالى عن محاضرتى: "والآن ستتحدث د. شيمل عن إقبال والزراعة!" (لا بد للمرء أن ينطق هذا بالإنجليزية - البنجابية العريضة). وقد أنجزت هذا أيضًا.

وكم كانت المقاهى ذات الحدائق فى حى سولهيت فاتنة، والبحر بالقرب من بازار كوكس، والحرير الملون من شيتاجونج! وفى السنة التالية ربطت زيارة شرق الباكستان بزيارات للاهور وملتان الحبيبة؛ حيث تمتعت بضيافة القائد الصوفى الكبير مخدوم صاحب (وقد أصبح فيما بعد ولوقت

قصير حاكمًا للبنجاب). حينما وصلت إلى كراتشى وبينما كنت أنتظر اللوفتهانزا وقف الأصدقاء السنديون فى المطار وعزفوا لى حتى حان وقت الطيران. ربما استُنكر هذا بشدة من قبل مولانا مودودى، قائد الجماعة الإسلامية المتصلبة، والذى وصل معى فى اللحظة نفسها.

وفى عام ١٩٦٦ ربطت بين مؤتمر فى إيران ومحاضرات فى كابول بزيارة أولى إلى إسلام أباد التى كانت لا تزال عبارة عن مكان بناء ضخم. وآنذاك أرانى عالم الآثار الذى لا يكل البروفسير دانى Dani المزار المقدس لبارى إمام فى نوربور، والذى كان يقع آنذاك بين مجموعة أشجار غامضة وغير مهذبة، وذلك قبل أن "يتم تحديثه". فيما بعد أقيمت السفارة الألمانية وبسرعة فى مكان غير بعيد من هذا المزار المقدس الذى لا يملك كما لا أدعى سمعة جيدة. هربت بسرعة إلى لاهور، إلى كنف أسرة إقبال، ثم اتجهت إلى دلهى؛ حيث كنت أريد شراء كتب أردية لهارفارد، وذلك لأن المرء يجد هناك الكثير من المطبوعات الحجرية المهمة للأعمال الكلاسيكية التى نشرتها دار نشر نوال كيشور (المؤسسة من قبل هندوسى مفتون بالآداب!) منذ النصف الثانى للقرن التاسع عشر. وهكذا تيسر لى شراء مجموعة ضخمة وجيدة بحق من الأعمال القديمة لهارفارد وبسعر مناسب لميزانيتى.

أما الحدث الكبير فتمثل طبعًا فى زيارتى لرئيس الدولة ذاكر حسين الذى كنت قد تعرفت عليه عبر أصدقاء فى كراتشى، مثل راضى الدين صديقىّ. كان الصديقىّ الآخر سليموزمان، الذى أدين له بهذه المعرفة، متعلمًا فى ألمانيا. لقد كان كيميائيًا، وقد منح الدكتوراه الفخرية من قبل جامعته فرانكفورت بوصفه مكتشفًا للصفات الدوائية لنبات الروولفيا. كلا الصديقيَيْن (اللذين لم يكونا أقرباء قريبين، ولكن تنتسب عشيرتهما إلى الخليفة الأول فى الإسلام، أبو بكر الصديق) كانا ينتميان إلى جماعة مسلمى الهند الوطنيين التى يرفض أعضاؤها منذ ما بعد الحرب العالمية الأولى التأثير المتنامى

للسلطة البريطانية القائمة منذ عام ١٨٥٧؛ لذا كانوا يذهبون للدراسة في ألمانيا، كذلك درس د. ذاكر حسين في برلين. لقد كان عالمًا للتربية ورجلاً صاحب رؤى كبيرة، لم يوافق على أفكار تقسيم الهند، وكذلك كان الأمر مع أخيه يوسف حسين خان الذى درس فى باريس وحصل على الدكتوراه بعمل مهم عن الصوفية، ولكن كان اختيار الأخ الأصغر محمود حسين لصالح الباكستان؛ حيث أصبح هناك ولوقت طويل وزيرًا للتربية، وفيما بعد رئيسًا لجامعة كراتشى. وقد لعبت ابنته سكيبة دورًا فى دنيا الأدب الباكستانى، وقد كانت تكتب بالدرجة الأولى كتبًا للأطفال بالأردية الكلاسيكية الجميلة، وقد التقيتها فيما بعد فى إسلام أباد كثيرًا، وكانت تبدو لى دائمًا بوصفها نموذجًا مثاليًا لسيدة مسلمة نبيلة.

مر اللقاء مع الرئيس بشكل رائع، وذلك لأننا لا نحب فقط الأدب الكلاسيكى الهندى، وإنما أيضًا الأحجار الكريمة! وبعد زيارتى للقصر الرئاسى لم أكن لأضن على نفسى بسبب السعادة من أن أشترى أسورة رائعة من اللؤلؤ. وفى المساء ترجمت للمرة الأولى قصيدة أردية لغالب، كما هو نوعًا ما واجبى بوصفى مرشحة لوظيفة كرسى الأستاذية الذى كان المتبرع به (أوتسى دورانى) صديقًا لذاكر حسين. بالطبع كانت ترجمتى الأولى إلى الألمانية، ورغم أن الترجمة لم تكن تناسب حالتى النفسية آنذاك؛ فإننى أرسلت الترجمة فى اليوم التالى إلى الرئيس الذى هنأنى قلبيًا، وبذلك أعطى مباركته للمشروع:

أريد أن أذهب إلى حيث لا يعرفنى أحد

حيث لا تُتحدث لغتى، ولا يُسمينى أحد

أتمنى بيتًا دون حائط ودون باب

لا يقترب منه جار ولا يحرسه بواب

وإذا مرضت لا يُراعينى أحد

وحيثما مت لا يصرخ علىَّ أحد

ومن خلال ذاكر حسين اتصلت أيضًا بالجامعة الملية، تلك المدرسة والجامعة التى أسست من قبل مسلمى الهند الوطنيين مباشرة بعد الحرب العالمية الأولى بوصفها ثقلاً موازيًا لكلية عليكرة الشرقية (جامعة منذ ١٩١٨) التى أوحى بها البريطانيون. وقد بدأت الجامعة بصعوبات كبيرة جدًّا، وقد ضحى الذين يعملون هناك كثيرًا جدًّا حتى يحققوا نموذجهم لإنجاز تربية مندمجة تشمل المسلمين والهندوس أيضًا. بعد التقسيم عاشت الجامعة فى دلهى، بل واكتسبت قوة، وكثيرًا ما كنت لدى الزيارات التالية ضيفة متحدثة هناك. وهناك يلتقى المرء البروفسير صغير الجسم الرقيق محمد مجيب والبروفسير سيد عبيد حسين، وكلاهما مؤرخ، وهما يصوران فى أعمالهما أفكارهما حول تطور مسلمى الهند ونموهم، وينظران إلى المستقبل باهتمام. وقد أصبح المدير س. أوصاف على صديقًا صدوقًا، وكثيرًا ما اصطحبنى هو وزوجته عبر معالم دلهى التاريخية. ورغم ذلك فقد صودرت الجامعة مؤخرًا من قبل الحكومة، وتغيرت فيها أشياء كثيرة. وقد سحرنى البروفسير جوبى شاند نارنج Narang، أستاذ الأردية (هندوسى من بلوشستان) بشكل دائم متكرر بنطقه الصافى الرائع للأردية، وكم كان تنغيمها مختلفًا عن الهندوستانية الملونة بالبنجابية لمن درس لنا بوصفه Lektor فى برلين!

ومما يرتبط بموضوع الجامعة الملية أيضًا، كان الأخوان حكيم اللذان تفرقا بسبب تقسيم شبه القارة. أكبر الحكيمين، عبد الحميد، كان يعيش فى دلهى، بينما الأصغر فى كراتشى. وكان كلاهما أستاذا فى الطب التقليدى، وقد أسس كلاهما شركة كبيرة يصنع فيها الأدوية التقليدية التى تباع بالجملة. وكان اسم الشركة هامدارد (أى "مشاركة المعذبين"). كان كلا الأخوين محبًا

كبيرًا للبشر. وقد أسس الكبير فى دلهى جامعة Hamdardnagar التى سرعان ما أصبحت مركزًا للعلوم والثقافة ولها مكتبة ممتازة.

وقد فعل حكيم محمد سيد شيئًا مشابهًا فى الباكستان؛ فأكاديمية دار الحكمة كانت موهوبة ومخصصة لتعليم الطب والعلوم الإسلامية. وكان يرينا لدى كل زيارة بفخر كيف تنمو أكاديميته فى الضاحية الغربية من كراتشى. وكان ينتمى إلى دائرة الصداقة الضيقة لبير حسام الدين وممتاز حسن، ولم يكن الطب فقط هو المستفيد من علمه وتبرعاته، وإنما أيضًا الجمعية التاريخية الباكستانية. كانت المرافق حول مجموعة مبانى جامعته تستكمل باستمرار، وقد تبرع الشيخ زكى يمانى هناك بقرية للأطفال المسلمين اللاجئين من كل المناطق المختلفة، وكان كل شيء يبدو وكأنه معد لمستقبل سعيد. وفيما بين ذلك أضيفت المعاهد العلمية المختلفة إلى ذلك. وكثيرًا ما يلتقى المرء كذلك فى أوروبا بحكيم صاحب الطويل، والذى يرتدى دائمًا ملابس شديدة البياض ويبدو كأن لا عمر له. اسمه يقف كمثال ونموذج للإنسانية النبيلة وللمشاركة الاجتماعية الفاعلة كما يدعو لها الإسلام. ولقد كانت صدمة كبيرة لنا جميعًا فى الباكستان والهند وأوروبا، حينما قتل هذا الرجل فى خريف ١٩٩٨، حينما كان فى طريقه من صلاة الفجر إلى عيادته؛ حيث كان يعالج كل سبت المرضى الفقراء مجانًا. وكان السبب-هكذا تقول الشائعات - هو نقده الحاد لمافيا المخدرات. ولم يعش شقيقه فى دلهى بعده طويلاً.

كانت اللقاءات مع المنتسبين إلى الطبقة المسلمة العليا فى دلهى ممتعة دائمًا، لقد كانوا لمدة قرون حاملين للثقافة الأرستقراطية لشبه القارة الهندية، وكانوا مترابطين بقرابات لا تبدو واضحة للغرباء، وذلك كما لاحظ مرة شريف الحسن، أحد الممثلين النموذجيين لهذه الجماعة: "كل من يستطيع أن يصل بشجرة عائلته فى دلهى إلى عام ١٥٩٠ فهو قريب لنا". وتظهر على

شريف الحسن، الذى كان - لوقت طويل - دبلوماسيًا باكستانيًا فى تركيـــا، علامات كآبة ناعمة يمكن للمرء أن يلاحظها لدى بعض الذين هاجروا مــن مثقفى دلهى البارزين إلى الباكستان عام ١٩٤٧. كان ينقصهم فـــى الــوطن الجديد فنون الموسيقى والشعر والخط الزخرفى، التى هذبت هناك منذ قرون، وحتى أجمل المبانى الباكستانية لم تكن لتواسيهم لفقد المعمار المغولى الرائع فى دلهى وأكرا.

كذلك كانت الباكستان والهند هدفًا لى خلال رحلتى القصيرة فى نهاية يناير ١٩٦٩، وذلك حينما احتفل كل من جزئى شبه القارة بالذكرى المئويــة لوفاة ميرزا غالب. وقد تم ترميم ضريحه فى مجموعة نظام الدين فى دلهى. حتى وإن لم تكن النتائج العلمية للمؤتمر كبيرة جدًا، فإن المرء التقى هنـــاك بالكثير من الزملاء من أنحاء العالم. وبالطبع فإن هؤلاء الذين جعلـــوا مـــن الشاعر الأرستقراطى لدلهى الذابلة مبشرًا ومناديًا بالعدالة الاجتماعية أو يكاد يكون رائدًا للشيوعية لا يمكن للمرء أن يأخذهم مأخذ الجـــد، ولكـــن كانـــت محاضراتهم نموذجًا لعقلية سياسية كانت مسيطرة آنذاك على المثقفين الهنود. وقد بقيت بعد احتفالات غالب بعيدة عن شبه القـــارة لعـــدة ســـنوات. أمـــا الرحلات الأخرى - على سبيل المثال إلى إيران - فقد كانت ملحة عاجلـــة، وإبان القضية المؤلمة لانفصال شرق الباكستان عن الجزء الغربى للدولة، بدا لى أن القيام برحلة إلى الباكستان أمر غير مناسب.

كان تفكك الباكستان التى يبعد جزآها عن بعضهما البعض لمسافة ألف وخمسمائة كيلومتر، وقيام دولة جديدة هى البنجلادش - وهو شىء كان يحلم به بعض المثقفين فى الجزء الشرقى للدولة - أمرًا له أيـــضًا بعـــض مـــن المنطقية، وذلك أنه فى خطبة الباكستان لإقبال عام ١٩٣٠ كان الحديث فقط عن مناطق الغالبية المسلمة التى تقع فى غرب شبه القـــارة، أمـــا البنغـــال بسكانها ذوى الغالبية المسلمة فقد أضيفت فقط فيما بعد. لقد كـــان الانـــدماج

الكامل لهذا الجزء من الدولة - الذى تُستخدم فيه لغة مختلفة تمامًا (البنغالية) عما فى الغرب (ذى الغالبية الأردية)، وأصعب من هذا أنه يستخدم فيه خط كتابى مختلف تمامًا - أمرًا عسيرًا مضنيًا. حين كان ينبغى، تبعًا لانتخابات عام ١٩٧٠، للجزء الشرقى، وهو فى الحقيقة أصغر لكنه أكثر سكانًا، أن يعين رئيس الوزراء، قاد رفض بوتو للموافقة على هذا المطلب الوضع إلى الانكسار. وقد كلف النزاع العسكرى الذى لا معنى له والذى انغمست فيه الهند أيضًا، أعدادًا لا حصر لها من الضحايا. وفيما بين هؤلاء الضحايا كان البروفسير الهندوسى ديف Dev الذى كان يعلم الفلسفة فى جامعة دكا، وكان مقربًا من جمعية راماكريشنا التبشيرية. لقد كان إنسانًا طيبًا، ولديه حس جيد للفكاهة، وكان يجد أنه من الضرورى أن يترجم محاضراتى لطلابه إلى الإنجليزية البسيطة basic English فيقول:

"This was a fery fery rich cake, a fery rich cake indeed, much too rich for you stupid people! I am going to translate it for you in simple, fery simple English"(179)

ثم يهز شعر رأسه الأشيب الحديدى اللون والواصل إلى كتفيه "ويترجم" ما كنت قد قلته. هذا الإنسان المسالم سقط مثل كثيرين غيره كضحايا للصراع اللامعقول، وقد أصدرت الباكستان فيما بعد طابع بريد لتخليد ذكراه.

وقد رأيت الباكستان مرة أخرى فقط فى عام ١٩٧٣، رأيت إسلام أباد النامية، والتى تصبح خضراء بشكل مضطرد، ورأيت كل أصدقائى القدامى، وكانت السفارة فى إسلام أباد بحديقتها الرائعة، والتى يتمشى فيها اثنان من طيور مالك الحزين، نوعًا من الوطن.

وقد جئت فى تلك السنوات ولمرات عديدة إلى الهند أيضًا، وكنت محظوظة بأن يسمح لى بالسكن مع ألفريد فورفل Würfel. كان سرى

فورفل، كما كان الجميع ينادونه، لا يزال آنذاك المستشار الثقافى لسفارتنا. كل من كان يعرف الهند كان يعرفه أيضًا. ففى ١٩٣٦ جاء الطالب الذى ولد فى عام ١٩١١ فى درسدن، والذى كان مفتونا منذ أيام طفولته بكل ما هو هندى، وذلك حتى يدرس السنسكريتية هناك، ولكن لم تتركه الهند مرة أخرى. وإبان فترة الحرب كان محتجزًا مع الألمان والنمساويين (وفيما بينهم هاينرش هارر Harrer) ولكن حينما أطلق سراح المحجوزين، لم يجد له مكانًا فى ألمانيا، وذلك لأن أمه وأخته كانتا تسكنان فى دريسدن، وهكذا ارتحل - ليس بطريقة قانونية تمامًا - على سفينة شحن إلى بومباى، ولا بد للمرء أن يستمع إليه حينما يحكى عن رحلته المغامراتية إلى وطنه الروحى! وفى بومباى كون صداقات - وأى مكان فى الهند ليست له فيه تلك الصداقات؟ وحينما أقيمت العلاقات الدبلوماسية بين ألمانيا والهند بعد عدة سنوات، أحضر إلى دلهى إلى السفارة؛ حيث أصبح لا يستغنى عنه بسبب معارفه اللغوية ومعارفه الذين لا يحصون من الهنود. كان يصطحب الضيوف المشهورين مثل تيودورهويس Heuss وكارل جوستاف يونج عبر البلد، وإذا ما حكى يتجسم أمام المستمع الرسامة السويسرية أليس بونر Boner والراقص أودى شنكار Shankar (شقيق رافى شنكار)، وكان أمراء الراجبوت على اختلافهم أصدقاء له. وقد سافرنا فى بعض المرات معًا، على سبيل المثال إلى حصن الراجبوت السامق كوشمان؛ حيث له سكن مؤقت، هند مختلفة جدًا عن عالمى المنغولى والدكنى. وقد قادتنا رحلتنا الأخيرة إلى برهانبور على التابتى، والتى كانت ولسنوات طويلة بمثابة المقر الرئيسى لأباطرة المغول، الذين حاولوا فى عام ١٦٠٠م الاستيلاء على الممالك المسلمة فى جنوب الهند أيضًا. كانت المدينة الصغيرة مزينة بالمساجد الجميلة التى كان أحدها يحمل نقشًا سنسكريتيًا. وعلى طرف المدينة توجد "الفيللا" التى ماتت فيها الملكة ممتاز محل؛ حيث تم دفنها قبل أن يختار زوجها قطعة الأرض لضريحها المستقبلى، تاج محل. وعلى طريق العودة

زرنا منداو المدهشة الآسرة، والتى كان الإمبراطور جاهنجير يحبها بصفة خاصة، والتى تتميز مبانيها بالجمال كما تتميز بالتنوع. (أما كون الطائرة من أندورا إلى دلهى لن تطير لأن شركة الطيران أعلنت إفلاسها، فقد حملنا هذا على العودة مرة أخرى إلى الواقع المعيش).

بالطبع كان سرى يعرف كل زاوية فى دلهى، وقد اصطحبنى إلى سوق الحرفيين تحت أقدام حصن بوراناكيلا القديم الذى يعود إلى القرن الرابع عشر، وفى محيطه سقط الإمبراطور همايون عام ١٥٥٦ من على السلالم حينما كان يريد الإسراع إلى صلاة العشاء، وقد زرنا القلعة الحمراء مرات عدة. تعرفت على الجامعات المختلفة، وليس آخرًا على الكثير جدًّا من التجار الذين يبيعون أقمشة أو حليًّا مغرية جدًّا، وهو ما يصبح أحيانًا شيئًا خطرًا. كان الخدم – كثيرو العدد فى البيت، وجميعهم من المسلمين – أسرة لسرى؛ فالأطفال السبعة للطباخ العجوز كانوا قد ولدوا فى البيت، والسائق البدين الذى يملك اسمًا رنانًا هو "شمس العارفين"، حتى وإن كان لا يقرأ ولا يكتب إلا أنه كان يشع مثل شمس مشرقة، وباختصار فقد كان منزل سرى جنة لكل من يحب الهند. كانت شقته التى وجدها بعد إحالته على المعاش، وبعد توقف غير سار، تقدم مكانًا كافيًا للضيوف الذين يتدفقون من كل أنحاء العالم.

وفى هذه السنوات تجولت فى شوارع دلهى كذلك مع إيا كوخ Koch المتخصصة النمساوية فى العمارة الإسلامية، وكثيرًا ما كان كريستيان ترول Troll يرافقنا وهو صديق جزويتى ألمانى، وأحد أفضل العارفين بالإسلام الهندى، والذى يبذل نفسه بشدة من أجل الحوار والتفاهم بين الأديان. وقد قمنا بلقاءات مرحة نتقافز خلالها على الأطلال، ونطوف بالجوانب الأقدم لدلهى، ونلتقى أحيانًا فى البيت المضياف لعائلة كوخ؛ حيث كان يبدو على بابر البرنهاردينى[١٨٠] الضخم وكأنه ينصت مهتمًا لأحاديثنا.

ومن خلال كريستيان ترول دعيت أيضًا إلى باتنا، وذلك لأن له أخًا أستراليا من جمعيته التبشيرية يعمل هناك وهو باول جاكسون. وقد أسكنني باول على سبيل الاحتياط والحذر في حجرة ضيافة عيادة النساء التي تدار من قبل الراهبات السويسريات؛ حيث أكد أنه المكان الوحيد الذي "تبقى الجرذان خارجه". ولدى محاضرتي في مكتبة خوداباخش المشهورة عالميا بسبب كنوزها من المخطوطات الشرقية كانت ملايين الناموس من بين المستمعين. كان نهر الجانج يتحرك بصعوبة مارًّا بالمدينة، وحينما قمنا في الصباح بمرافقة عالم كان حنونًا بقدر ما كان عجوزًا بزيارة المقابر والأضرحة رائعة المعمار لأولياء الله من القرنين السادس عشر والسابع عشر في المناطق المجاورة، أدركت فجأة لماذا طور النساك الهنود - هندوسًا ومسلمين - فن حبس الأنفاس لفترة طويلة حتى جعلوه متكاملاً: كان يمكن لما فاح باتجاهنا أن يمثل كل شيء إلا أن يكون عطر القداسة.

وفي السبعينيات جئت إلى عليكرة أيضًا؛ حيث الكوليج الهندو - إسلامي الذي أسسه داعي الإصلاح السير سيد أحمد خان عام ١٨٧٧م، وكانت بمثابة بؤرة لتحديث الإسلام الهندي. آنذاك كان م.أ. خسرو نائبًا للرئيس، وقد أصبح فيما بعد سفيرًا هنديًا في بون - وهو ينتسب لأحد شيوخ التصوف المعروفين من بيجابور، وقد وهب القدرة على الفكاهة الرائعة. كنت أستطيع آنذاك أن أقيم في منزل مؤرخ شهير معروف للإسلام الهندي هو ك.أ. نظامي الذي كان قد وضع البيت لمدة عام تحت أمر الزميل الأمريكي بروس لورانس. وهكذا وجدت نشاطات كافية، وقمنا مع زميل هندي بعمل ألوان من الرحلات. وكم كانت شديدة التأثير تلك القلعة الضخمة في جواليور، التي وصلنا إليها بعد خمس ساعات بالقطار (بمصاحبة نادٍ كرويٍّ للشباب الهندوسي)! وقد خدمت القلعة لمدة قرون بوصفها سجنًا؛ حيث حُبس فيها عدد لا يستهان به من العلماء والمتصوفة، ومن الضباط ورجال

البلاط. ويميل المرء لدى النظر إلى هذا المعمار الرائع إلى أن ينسى هذا للحظة. ويبدو ضريح الولى الكبير محمد غوث الجواليورى بزخارفه المعقدة، وكأنه يحول التعاليم التنجيمية والسحرية الغامضة للشيخ المدفون هناك إلى فن مرئى واضح، وإلى جانب هذا يوجد الضريح البسيط لتانسين، مغنى الهند الشهير، الذى كان مفضلاً لدى الإمبراطور أكبر. وفتحبورسيكرى! تلك المدينة الفاتنة التى بناها أكبر ثم غادرها بعد قرابة خمسة عشر عامًا، وهى أيضًا المدينة التى مارس فيها أكبر أحاديثه الدينية مع الزرادشتيين والجزويت والهندوس...

وكذلك زرنا مزارات المتصوفة فى شرق لكنو: دوا شريف الجميل الهادئ؛ حيث استلقينا على الأرض الحجرية، بينما كان غناء اثنين من الدراويش يحملنا إلى النوم، ثم زرنا روداولى الذى يتداعى ببطء، حيث تشع من كل الحوائط كلمة "حق"، وأخيرًا كشخوخة؛ حيث يحضر المرضى العقليون ليخرجوا منهم الأرواح الشريرة. كان المزار محاطًا بماء راكد أخضر كجثة. يبدو أن أحد الجن الذى اضطر لمغادرة جسد إحدى السيدات قد دخل إلى كاميرتى التى لم تعد تعمل منذ هذا الوقت، ولم يتيسر لى إصلاحها لا فى الهند ولا فى ألمانيا. وقد أفزعنا منظر النسوة ذوات الشعر المنفوش، واللاتى يضربن رءوسهن فى الحائط. واضطررنا للعودة تحت المطر الشديد وعبر الغابة المملوءة - كما يقال - باللصوص المختبئين، إلى فيصل أباد؛ حيث يحتاج إلى شراب قوى من ويسكى - بوربون (مهداة من سرى)، وماء غير مغلى وكمية كبيرة من أقراص اليودين، وذلك حتى تتيسر لى راحة ليلة طيبة فى الفندق الصغير الذى لم يكن نظيفًا تمامًا. ولدى العودة إلى عليكرة وجدت خبرًا يقول إن أنديرا غاندى تريد رؤيتى.

كانت كل سنة فى شبه القارة تحضر مغامرات جديدة وتوسع الأفق. وكم تمتعت بكلتا الرحلتين إلى الدكن، وذلك فى العامين اللذين لم أسافر فيهما

بعد إعدام بوتو إلى الباكستان! وعبر بومباى التى تجعلنـــى حزينـــة دائمًـــا، وبوونا التى بها فرع نشط لمعهد جوته، طرت إلى مدراس، وتمتعت بالنقش الرائع على الحجر الرملى فى مهاباليبورام، والذى يـــسمى "مهـبط جانجـــا" وتصور فيه الحيوانات بحجمها الطبيعى - ويقف تحت الفيل الـضخم قـــط صغير رافعا كفيه فى وضع التائب المكفر عن ذنبه. وكذلك وجدت بعـــض المخطوطات المهمة فى مدراس، ليس فقط المخطوطات القرآنيـــة القديمـــة الرائعة، وإنما أيضًا مخطوطات النحو التركى الذى ألفه أحد الأمراء المغول الهاربين من دلهى مباشرة بعد عام ١٨٠٠، وذلك بوصـــفه كتابًـــا تعليميًّـــا للتركية التى كانت لا يزال يُتحدث بها فى البيت المغولى.

ومن ثم كان الدكن! وقد رأيت فى جولبارجا لـــيس فقـــط المـــزارات المقدسة لجيسوداراس، (والذى كنت أعرف أحد أحفاده إبان وقت دراسته فى مونتريال)، وإنما أعجبت كذلك بأحد أروع المساجد التى أعرفها، وهو يمثل صدى بعيدًا لمسجد سيدى عقبة فى القيروان، والذى كان يقف أمامى بقبتـــه المدببة مثل سفينة كبيرة تأخذ طريقها بخطوات ملوكية واثقة، كـــذلك زرت بيدار، مقر الإقامة الأول للبهمانيين الذين انفصلوا عام ١٣٢٧م عن مملكـــة دلهى، وأخيرًا زرت بيجابور التى كانت فى القرن السابع عشر مقرا لعـــدد كبير من الأولياء، والتى تعد بالنسبة إلىَّ إحدى أجمل مـــدن الهنـــد. ويعـــود الفضل فى إقامة مبانيها الفاتنة إلى أحد الملوك الأكثر مرحا وبـــشاشة فـــى التاريخ الإسلامى وهو إبراهيم عادل شـــاه (١٥٨٠-١٦٢٧)؛ فهـــو مغـــنٍّ وشاعر وصاحب بناء، ويبدو ضريحه بالنسبة إلىَّ وباستمرار مثـــل حديقـــة توليب صخرية، والذى يمكن للمرء أن يتعرف على نقوشه القديمة الملونـــة فقط فى لحظة نادرة قبيل غروب الشمس. ويتمثل المقابل لهـــذا فـــى جـــول جونباد، الضريح الهائل لابنه الذى كان ينبغى أن يتفوق عليه من قبل ضريح حفيده الذى لم يكتمل قط. ولأن رفيقى الودود ضياء شكيب يعرف لدى كـــل مكان أشعارًا أو نوادر أو تفاصيل تاريخية، كانت رحلتى الأولى إلى الـــدكن

عبارة عن سعادة خالصة. ومن كشك ضيافتى الصغير فى حديقة مدير معهد جوته بيتر زيفيتز Sewitz، كنت أسمع الأذان لدى غروب الشمس قادمًا مثل معزوفة أوركسترالية من خمسة أو ستة مساجد بعيدة.

كان لا يزال لحيدرأباد - مركز النظام، الذى ترسخ حكمه هناك منذ بداية القرن الثامن عشر - بعض الشىء من جاذبيتها القديمة، هذا رغم أن عملية نزع الأسلمة عنها تتقدم بسرعة، ويدل على ذلك عشرات الآلاف من المهاجرين مباشرة من الدكن، والذين يعيشون الآن فى الولايات المتحدة الأمريكية. وكنت شاكرة حينما قال أحد أهم تجار الفن فى الهند - وهو الهندوسى يجدش ميتال، والذى كانت تواتينى الفرصة أحيانًا كى أساعده فى فهم النقوش العربية أو الفارسية - فى نهاية أول رحلة محاضرات لى (وقد ألقيت آنذاك ما لا يقل عن أربع عشرة محاضرة مختلفة): "لقد كان من الجميل جدًّا أن نسمع أخيرًا شيئًا عن العصر القديم الجميل للحكم الإسلامى وعن الثقافة الإسلامية مرة أخرى!". وكانت هناك الجامعة العثمانية التى كانت تعتنى منذ الحرب العالمية الأولى بالأدب الأردى وبالتاريخ الهندو - إسلامى، وهناك جلس المرء مع شعراء من كل الألوان؛ فكان هناك مجيب يار يونج، أحد أبناء إخوة (أو أخوات) النظام، وهو إنسان رائع عميق الحزن، ويجد صعوبة فى التوافق مع مادية العصر الحديث ومع خسارة ماضية، وكان سعيدًا حينما استطاع أن يرى الزائرة تذكارات التاريخ اللامع لأسرته Paygah: قصر فالاكنوما على أحد أعلى الهضاب الصخرية لحيدر أباد أو مجموعته الرائعة من الخواتم. وقد فتح لنا بورانى هافيلى، أحد قصور النظام فى المدينة؛ حيث قُدمت لنا أشهى الأكلات الحيدرأبادية، وغنيت أغانى شعراء الدكن. كانت السماء مضاءة بالألعاب النارية لعيد ديفالى، ولكنى رأيت أيضًا القصر الذى يكاد أن يكون فارغًا؛ حيث يرقد والده العجوز وحيدًا فى حجرة ضخمة يوجد فيها فقط سرير وطاولة وكرسى وتليفزيون.

وقد أعجبتنى الطبيعة القاحلة للدكن أكثر من الطبيعة المسطحة المعتدلة إلى الشرق من دلهى، ولم أكن أسمح لنفسى فى إحدى رحلاتى بتفويت فرصة زيارة فيجاياناجار إلى الجنوب الغربى من حيدرأباد. وتقع المدينة على الحدود بين السلطة الهندوسية والسلطة المسلمة – وجزئيا تكاد تكون المدينة حلمًا مسحورًا، وذات معابد ضبطت أعمدتها كما يقال موسيقيًا، ويُرِى معمارها نوعًا من التعايش الساحر بين كلا الثقافتين. صحيح كانت حجرة الضيافة التى أسكنت فيها لليلة قصيرة لم تنظف بالتأكيد من نسيج العنكبوت منذ أيام معركة تاليكوتا (١٥٥٦)، ولكن ماذا نفعل؟ فجمال المعمار الذى سعدت به فى النهار يجعل المرء ينسى مثل هذه الصغائر.

كذلك ذهبنا مرة إلى فارانجال شمال شرق حيدرأباد، وكانت عبارة عن أطلال غطيت أعمدتها السوداء بأعمال نحتية دقيقة، بدت وكأنها مشغولة من أنعم "الدانتيلات". وهنا يدرك المرء لماذا اشتهرت الأعمال النحتية للهندوس، فى العصور القديمة والوسطى وعن حق بأنه لا مزيد عليها. وكانت رءوس الحيوانات الغريبة ورءوس الأعمدة الملقاة على الأرض تجعل المرء يفكر فى التاريخ المخيف للأرواح، ولكن على الطريق وجد مصنع نسيج يصنع فيه السارى الجميل من الحرير الملون، مما جعل صورة أحجار فارانجال السوداء الكالحة – حتى وإن كانت صورة مؤثرة جدًا – مشرقة بعض الشىء.

كنا نزور دائمًا مقابر ملوك جولكندا؛ حيث احتفلنا هناك بحفل وداع رائع. وقد جئت بسرور إلى الدكن مرة أخرى؛ حيث عمقت معارفى وصداقاتى. كذلك انتهت رحلة أخرى بمرافقة صديقنا الذى لا يقارن ضياء شكيب – وأيضًا بإديث وكارى ويلش – إلى هناك. وقد رأينا أورنج أباد والمقابر التى تبدو لا نهائية لخولد أباد، والتى يدفن فيها عظماء الدكن منذ قرون، وأنصتنا إلى الموسيقى الصوفية على قبر ولى برهانبور الحامى برهان الدين غريب.

وقد دعيت أيضًا إلى سرينجار للمحاضرة، وذلك من خلال زميلى الذى يعيش فى حيدر أباد علام خوندميرى (الذى قيَّمت رسالته للدكتوراه قبل عدة سنوات). وبالطبع سعدت بإمكانية السفر إلى كشمير وحلمت بنزهات فى العوامة على البحيرة الرومانسية، ولكن ما وجدته كان سيرنجار الباردة الممطرة (كانت نهاية أكتوبر)، وكذلك لم تكن مثالاً للنظافة، وبدلاً من العوامة كان يوجد فندق يتسرب تيار الهواء من شرفاته وأبوابه، حتى إننى كنت أحتاج إلى كميات لا نهائية من الشاى على الأقل حتى أحس بالدفء. وكان من الحكمة أن جعلت محاضراتى فى الواحدة بعد الظهر، وهو الوقت الوحيد الذى تصبح فيه قاعة المحاضرات دافئة بعض الشىء، ولكنه كان أيضًا الوقت الوحيد الذى يمكن فيه للمرء أن يتجول فى سرينجار فى طقس أكثر اعتدالاً. ولكنى رأيت رغم ذلك بعض الأشياء؛ فقد استطعت أن أشارك لوقت قصير فى المولد الشعبى فى يوم ذكرى الولى الكبير سيد على حمدانى الذى ألف بالفارسية فى هذه المنطقة فى القرن الرابع عشر كتبًا دينية وألف أيضًا كتابًا تعليميًّا هو "مرآة للقادة". وقد قادتنا رحلة أخرى إلى الجبال، إلى ضريح أحد الأولياء هو بابا ريشى الذى يحج إليه المسلمون والهندوس، والذى يقع فى غابات الصنوبر الفواحة ويسمح بنظرة إلى السهل، ومن هناك يأخذ نهر جهلوم طريقه إلى الهضاب الباكستانية، ومن ثم إلى سهول البنجاب. وقد بدا لى النهر كما لو كان دموعا يبكى بها هذا الولى بسبب إبعاد كشمير عن هدفها الحقيقى، الباكستان، وذلك لأنه كان ينبغى لهذه المنطقة ليس فقط على أساس جغرافى، وإنما أيضًا على أساس الانتماء الدينى، أن تئول إبان التقسيم إلى الباكستان، وذلك لأن ثمانية وتسعين بالمئة من سكانها كانوا مسلمين. فقط كانت الأسرة الحاكمة، وبسبب "مساومة" غريبة مع البريطانيين فى منتصف القرن التاسع عشر، هندوسية.

غادرت سرينجار بعد ثلاثة أيام وأنا مكتئبة إلى حد كبير، وحلمت بالعصر الذى كان فيه أمراء المغول ينطلقون من لاهور عبر إسلام أباد المعاصرة وعلى طريق يكاد يكون مستقيمًا إلى الطبيعة الجبلية التى تغنى

الشعراء بروائحها العطرة، وحيث بنوا قصورهم الجميلة تحت أشجار الدلب الضخمة، ولكن عن هذا تحكى فقط منمنمات كبار الرسامين من القرنين السادس عشر والسابع عشر.

ماذا كانت أجمل رحلاتى الكثيرة جدًا إلى شبه القارة؟ أكان الطيران الرائع إلى سكاردو مرورًا بالنانجا باربات؟ (سمح لى آنذاك بالوجود فى كابينة الطائرة)، أم كان ذلك المساء فى صحراء ثار التى كانت مخضرة بنعومة، بعد أن سقطت الأمطار الأولى بعد سنوات، وهو المساء الذى غنى فيه ألان فقير أغانيه السندية؟ أم كان أوكخ شريف الحزين اللطيف، الذى يحتوى على الأطلال المتهدمة لضريح امرأة ورعة هى بيبى جاوندا Jawinda، والذى يتناقض بلاطه الأزرق المشع مع بقايا مركز المبنى الرمادى؟ أم كانت الليالى مع الأصدقاء فى كراتشى ولاهور وملتان وغروب شمس فى بيجابور؟ لقد وجد الكثير مما أثر فى شعورى. أكان مساء الوداع فى جولكوندا فى أكبر مقابر الملوك؛ حيث تمثلت أمامنا مرة أخرى العظمة المشرقية التقليدية بتمامها؟ أم كان ذلك المساء بجانب مقبرة الشاعر الباتانى رحمان بابا بالقرب من بيشاور؛ حيث جلس الدراويش حول ألسنة النار الراقصة وغنوا أشعارهم، ووضع أحدهم خاتمًا من التركواز فى إصبعى؟ ولكن ربما تمثلت قمة تلك الرحلة فى ذلك التحليق فى الطائرة الهليوكوبتر الصغيرة من طراز Alouette فوق الجبال الجرداء لبلوشستان؛ حيث يموج المرء فى خلوة مطلقة، كما لو كان على عرش سليمان المحمول على الريح. وقد وصلت هذه الرحلة غير المعتادة إلى قمتها حين سافرنا – كنا ستة أشخاص – إلى الجبال وركبنا الجمال فى الطبيعة الجبلية، وذلك حتى وجدنا المزار الهندوسى القديم Hinglaj؛ حيث لم نصعد فى الحقيقة إلى النبع المقدس، ولكن قدم لنا الشاى اللذيذ فى وسط مكان ما فى فناجين من البورتسلان الغالية – معجزة الضيافة الباكستانية!

إندونيسيا

نادرًا جدًا ما جئت إلى جنوب شرق آسيا، رغم أنه توجد هناك المنطقة المسلمة الأكثر التصاقًا ببعضها البعض. لمرة واحدة، لا بد وأنها كانت في عام ١٩٩٣، عزمني سيد نجيب العطاس الذى أسس فى كوالالمبور معهدًا جديدًا للعلوم الإسلامية، والذى اشترك فى افتتاحه عدد كبير من المستشرقين. وما زال المعهد الذى بنى نوعًا ما بأسلوب أندلسى يتطور حتى اليوم، ويسعد بمكتبة متنامية، وبأساتذة زائرين من كل العالم يدرسون هناك، وتقام هناك المؤتمرات مرة بعد أخرى. لربما يسعدنى الحظ مرة بأن أطير إلى هناك ليس فقط لمدة يومين، وإنما أيضًا أن أرى شيئًا من الطبيعة، وأن أتعرف على فن الخط الزخرفى العربى الذى يُعتنى به هناك، والذى يختلف إلى حد ما بوضوح عن الأشكال الكلاسيكية.

ولأجل ذلك قُسِم لى زيارة غير منتظرة إلى إندونيسيا؛ ففى بداية يناير ٢٠٠٠ اتصلت طالبة إندونيسية كانت آنذاك تزور شقيقتها فى ألمانيا. وكانت تعرف اسمى لأن بعض كتبى مترجمة إلى الإندونيسية. وقد دعوتها من فورى، ومن ثم ظهر لدى كائن ملفوف فى صوف سميك ويرتدى حذاءً جبليًا ضخمًا، وله وجه ودود ملفوف كالقمر. وقد جاءت وأمها التى كانت محمية بما يشبه ذلك ضد برد الشتاء، وزينتا أريكتى مثل نباتات غريبة. وبينما كنت فى المطبخ أعد الشاى، قامت بينكى، كما دعت نفسها، مباشرة بإخراج هاتفها المحمول من حقيبة اليد، واتصلت بصديقها فى جاكرتا. وكان يجب علىَّ أيضًا أن أتحدث معه. بالطبع تم تصوير الحدث، وكان يجب علىَّ أن أوقع على عشرين بطاقة بريدية مصورة من بون إلى أصدقائها. لقد كان الأمر مؤثرا، وقد ودعنا بعضنا البعض بالكثير من الأحضان. كيف حدث أننى دعيت أواخر صيف ٢٠٠٠ من معهد جوته إلى جاكارتا؛ فهذا ما لم أعد أذكره، ولكنه حدث وطرت إلى سنغافورة. ولأن أحد المعارف الباكستانيين

القدامى كان يمثل بلاده فى سنغافورة؛ فقد نظم بسرعة لإقامتى لمـــدة يـــوم ونصف اليوم عدة محاضرات، كانت جميعها حول إقبـــال. وقـــد أعجبتنـــى المدينة النظيفة الغنية بالزهور، ولكن جاكرتا تنادى. وما إن هبطت حتى قال لى مدير معهد جوته إننا معزومون فى المساء لدى رئيس الدولة. ومن ثم تم تغيير الثياب بسرعة، ثم كان الذهاب مع سفيرنا الذى كنت أعرفه منذ فتـــرة طويلة خلال إقامته فى بون، إلى عشاء شديد الغرابة لدى عبدالوحيد، ويسمى لدى الشعب جوسدور، العليل والذى لا يكاد يرى، والمصحوب من قبل ابنته الفاتنة عالية الثقافة. وقد تطرق الحديث من الموسيقى: "لدى تسعة وعشرين تسجيلاً من السيمفونية التاسعة لبيتهوفن" إلى السياسة، ومن التيارات الصوفية فى الإسلام إلى كرة القدم. باختصار كان يجب على المرء وباستمرار أن يعد نفسه ويهيئها للموضوعات الجديدة، بينما يأكل قطعة لحم بلدى محمرة تعود على ما يبدو إلى زمن الاستعمار الهولندى. وبعد انتهاء هذا العشاء المجهد، ذى الدلالات الكثيرة جدًا، قوينا أنفسنا - نحن الألمان الثلاثة - على ســقف حديقة أحد الفنادق بكأس من البيرة، بينما كان النسيم المنعش يداعبنا.

كان البرنامج متعدد الجوانب (وقد وجدت مـــشابك تحمـــل صـــورتى ويتزيا بها جمهورى من الشباب). ألقيت محاضرات بالإنجليزية، وذلك لأننى لا أعرف الإندونيسية، وكانت قراءة للأشعار الصوفية فى اللغات المختلفـــة نجاحًا كبيرًا، ووجدت ندوات حول قضايا المرأة وأشياء كثيرة أخرى. وكانت بينكى موجودة بمنتهى الإخلاص فى كل مكان، تحضر ورودًا ومـــأكولات، وقد اصطحبنا صديقها عبر المتاحف والمكتبات، بينما أرانى سفيرنا جاكرتـــا القديمة Batavia؛ حيث لعب أحد أقربائنا، تبعًا لحكاية أسرتنا، قبـــل عقـــود كثيرة أو قبل قرون دورًا مهما. المدينة نفسها كانت محيرة؛ فبـــين الطـــرق الرئيسية كانت لا تزال توجد أحياء تكاد تكون ريفية جميلة. وكـــان مـــرور المركبات هائلاً: والكلمة الأولى التى يجب على المرء أن يتعلمها هى التـــى

تعبر عن "الزحام". كنت أتمنى بسرور أن أسافر إلى داخـــل البلـــد، أن أرى الأماكن التقليدية أو أن أتعرف أكثر على الأوجه المتنوعة والمدهشة للثقافـــة الإندونيسية، ولكن كانت الطائرة محجوزة، وهكذا طرت عائدة إلى الـــوطن. وقد تزوجت بينكى وإيكو فى الربيع، وقد جاء آخر خبر منهما مـــن مكـــة؛ حيث كانا يؤديان العمرة ليستجديا البركة الإلهية لطفلهما المنتظر بشوق.

الجزء السابع

عودة إلى أوروبا

(١٩٩٢-٢٠٠٢)

منبع ومصب الأفكار:
منذ أن شربنا من خمرك،
أصبحت أرواحنا ممتلئة
حتى أدق غصونها المتسلقة بالحب،
حتّى إنها، وقد تعلقت بك بقوة،
أصبحت - الآن فقط - لا تهتز متأرجحة.
وتشع فى قلوبنا
- مرآة براقة لامعة -
صورتك التى نتعمق مذهولين
فى مشاهدتها.
هكذا يشملنا حبك
دون حدود، ودون سدود؛
فتقبل أغنية شكر صغيرة،
ودعنا دائمًا نشكرك!

أنّا مارى شيمل

روما وباريس ولندن

لا ريب أن القارئ الكريم قد سأل نفسه منذ عشرات الصفحات، عما إذا كنت لا أريد أن أقول شيئًا على الإطلاق عن عواصم الثقافة الأوروبية: روما، وباريس، ولندن. وهنا سأحاول توضيح أسباب هذا التحفظ، على الأقل بالنسبة لروما وباريس.

رأيت روما في الحقيقة في الفترة من ١٩٥٥ حتى ١٩٩٠ أثناء المؤتمرات فقط، وقد عايشت هذه المدينة الخالدة فقط لمرة أو لمرتين مثلما ينبغي للمرء أن يعايشها. كان المؤتمر الأول مهما للغاية، بالطبع من الناحية العلمية، بالنسبة إلى الشابة التي كانت قد بدأت تعمل مدرسة جامعية في أنقرة، ولكنه انتهى بأن مات الراهب الهولندي العجوز الحساس الذي دعاني للعشاء الوحيد المميز بعد يوم من سفرنا بالسكتة القلبية في فندقه، ثم تتابعت المؤتمرات واللقاءات الأخرى، ولكن الزيارة التي كان ينبغي لها حقيقة أن تكون ممتازة، لم تكن هكذا بالضبط، وذلك أنني جئت آنذاك من اليمن، وكنت لا أزال ممتلئة بجمال هذه الطبيعة الجرداء، ومن هنا كانت الأيام الثلاثة التي اصطحبتني فيها سيسيليا (وكان زوجها سفيرًا لنا هناك) عبر كاتدرائية القديس بطرس والمعالم الأخرى، كانت مقارنة مع اليمن - التي لا مثيل لها - نوعًا من الهبوط المفاجئ. وأسأل نفسي أحيانًا عما إذا كان نفور الكثير من البشر المعاصرين من مصطلح الإله "المتشخص" لا يعود إلى تلك الصور التي لا تحصى، والتي تُظهر الخالق "ذا اللحية" والذي - بوصفه مغرقًا في إنسانيته - لا يمكن بالتأكيد أن يكون قد خلق هذا الكون المتسع. وفقط على هامش اجتماع الجمعية الدولية لتاريخ الأديان (١٩٩٠) أخذتني صديقة هولندية ودودة من يدي وتجولنا عبر الحواري القديمة، وشعرنا بسحر المدينة، وتمتعنا بميدان نافونا؛ حيث قال لي منجم (لا يعرفني!) إنه ينبغي

على أن أذكر صدام حسين مرة بما هو الإسلام الحقيقى. كان إنزو إنساناً رائعًا يتحدث بدرامية عالية عن سيرته المهنية من موظف بنك صقلى ثم راهب ثم لا أعرف ماذا، وهنا كان المرء قد رجع مسحورًا فجأة إلى عصر النهضة.

وإلى جانب روما الخالدة فتحت لى البندقية فقط وذلك بفضل ندوتين فى مؤسسة جورجو تشنى Cini؛ حيث ألقيت فى عام ١٩٥٩ عدة محاضرات عن Aspetti spirituali dell Islam "الجوانب الروحية فى الإسلام". وتمتعت مع أمى التى رافقتنى بالجزيرة، وتركت نفسى - على الأقل لبضع ساعات - لأتجول عبر المدينة التى بدت لى شرقية جدًّا. وبعد عامين نظم من قبل المؤسسة نفسها مؤتمر حول "الصلاة والتأمل الروحى"، وآنذاك تمتعت من كل قلبى بالمدينة الساحرة وضواحيها، وذلك لأن عددا لا يستهان به من العلماء من الشرق والغرب قد اجتمعوا هناك معا، وقد قمنا معهم بنزهة جميلة مرحة إلى جرادو وأكفيليا. ولا يزال يوجد فى ذاكرتى كل من المستشرق الإيطالى فرانشيسكو جابريلى Gabrieli وزميلته ماريا ناللينو Nallino التى تجولت معها لفترة وجيزة عبر المنطقة حول ميدان القديس مرقص. ولكن الأمر الأكثر إثارة تمثل فى وجود اللاما البوذى جوفيندا مع زوجته (التى كنا نسميها اللامسا). وكان جوفيندا يعد أحد أفضل المفسرين للبوذية الوسط آسيوية، وكان محل احترام كبير لدى علماء التخصص وأيضًا لدى المؤمنين فى التبت والنيبال. فقط إذا قام، متأنقا فى ملابسه الصفراء- الحمراء، بفتح فمه، لم يكن للمرء أن يتغاضى، عندما يسمع لكنته، إلا بأن يفكر بأن وطنه ليس فى الهمالايا وإنما فى درسدن.

وكان اللقاء مع محمد حميد الله بالنسبة إلىَّ جميلاً، لقد كان معروفًا بالنسبة إلينا كمستشرقين بوصفه أحد أكثر المسلمين علمًا، وقد درس فيما درس فى ألمانيا أيضًا. كان العالم الرشيق اللطيف - كان آنذاك فى بداية

الخمسينيات من عمره - يملك عينين كبيرتين غامقتين مومضتين، ويفصح شكله عن أنه ينتسب إلى أسرة من "النوايت" Nawait، وهم أحفاد النازحين العرب إلى جنوب الهند، والذين تزوجوا هناك من نساء هنديات، ولعبوا منذ القرن الرابع عشر دورًا مهما بوصفهم علماء مثقفين ومؤلفين في ممالك الدكن مثل بيدار وبيجابور وجولكندا. ومن هناك يأتي حميد الله المعروف في وطنه حيدرأباد بوصفه من العلماء البارزين. وقد غادر موطنه في آخر طائرة ممكنة عام ١٩٤٨، وذلك بعد أن قامت الحكومة الهندية بضم دولة النظام إلى الجمهورية الهندية. وقد جاء حميدو - كما نسميه - إلى أوروبا بوصفه لاجئًا، ولم يكن معه مال على الإطلاق؛ حيث نزل في شقة صغيرة في باريس وعاش لتخصصه. وانطلاقا من اللقاء في البندقية نمت علاقة الصداقة على مدى سنوات طويلة بين العالم وأخته الصغيرة (كما كان يسميني)، يتراسلان بالعربية من أسبوع لآخر، وذلك حتى أسكته كبر السن. وبين حين وآخر تترجم بعض صديقاتي كتبه عن الإسلام أو يحسن أحيانًا صياغاته الألمانية الغريبة.

هكذا وجدت بالبندقية آنذاك ألوانًا متنوعة من السعادة، وأفكر أحيانًا بالعودة مرة أخرى إلى سان جورجو أو إلى البندقية، ولكن البندقية ما زالت توجد فقط في بلاد الأحلام.

وماذا عن باريس؟ أخ، لقد كانت الرحلة الأولى إلى هناك رحلة لا تنسى! لا بد من أنها كانت في السنوات المبكرة جدًا للخمسينيات، وذلك حينما دعتني فجأة زميلتي داعية حقوق المرأة المشاكسة لويزا برتهولد لأن أسافر معها إلى باريس، وذلك لأن إحدى صديقاتها اعتذرت عن الرحلة التي حجزتها، ولم تكن تريد أن تدع فلوس الرحلة تذهب هباء. وفي باريس نزلنا في حجرة مزدوجة في فندق صغير لطيف، وعندما فتحت "الكومودينو" وجدته فارغًا؛ فقالت: "هنا ينبغي أن توجد بعض الورود!" ثم أغلقته مرة

أخرى، ثم كان الذهاب إلى المدينة، وقد ثقفنا أنفسنا مثلما يُفعل فى الرحلات الشاملة، ولكن حينما غامرت بالوقوف أمام محل للموضة، انتزعت بعيدًا. وكان الأكثر فزعًا بالنسبة إليها أن أحد رجال البوليس، الذى سألته عن الطريق، قد أمسكنى من كتفى حتى يوجهنى إلى الاتجاه الصحيح. وقد انتزعت من أمامه بقوة كما لو أنه كان قد شرع فى اغتصابى. وفى ماربورج حكت بفخر عن عملها البطولى. حتى مثل هذه الأيام الثلاثة تمر أيضًا، ولم يكن لنوتردام وسانت تشابل أن تفقدا - بسبب هذا - شيئًا من سحرهما، ولكن لا ينبغى لصورة هذه المشاكسة، لويزا برتهولد، أن ترسم بمثل هذه الصرامة؛ فهى التى وجهت مرة وبصرامة أحد الدارسين لدرجة الأستاذية إلى أن حبيباته الأوزات الهولدرلينات(١٨١) لم تكن "ثملات بالقبل" فقط، وإنما أيضًا ولأجل هذا كان عليهن أن "يغمسن الرأس فى ماء العقلانية المقدس"، قد ألمحت فى مرة أخرى، وهى تكاد تخجل، بأن "كونسيرت الكلارنت" لموتسارت يستدر دموعها باستمرار.

وبعد عدة أسابيع سألنى فريدريش هايلر عما إذا كنت (آتى معه إلى باريس)؛ فمجلس أعضاء رابطة مؤرخى الأديان يجتمع هناك ويحتاج إلى مسجلة للبروتوكول. إذن وضعت نفسى مرة أخرى على الطريق إلى باريس، هذه المرة مع رئيس يعانى من آلام المعدة، ووصلنا قبل يومين من بداية المؤتمر، وحلمت بأيام أخف وطأة مما سبق، ولكن لا؛ فالآن يُزار المركز اليونانى الأرثوذوكسى، ثم كنيسة كذا وكذا، والآن كاتدرائية كيت وكيت، والآن مرة أخرى كنيسة كذا وكذا الصغيرة، وإذا ما طلبت بخجل شيئًا لطيفًا للأكل، شكا الرئيس العزيز من ألم المعدة. وفى اليوم الثانى حاولت أن أتمرد: "أريد الذهاب إلى مونمارتر!". صمت للحظة ثم أضاء وجهه: "أخ، نعم، هناك توجد كنيسة لم أزرها بعد! تعالى!" ودلفنا متمهلين إلى هناك، ولكنى بقيت بعناد فى الخارج، وراقبت "البانوراما" من حولى تحت ندفات المطر، وهكذا حتى خرج المعلم بعد وقت ليس بالقصير، ثم قال:

"نعم، القداس يُقام هنا على غير المألوف عادة، هناك بعض التغيير فى هذا الجزء وهذا!".

- "والآن، لو سمحت أريد شيئًا للأكل!".

- "أخ لا، أعانى ألمًا فى معدتى، لا بد من أن أرقد قليلاً".

وفى اليوم الثالث كانت الجلسة التى حضر فيها صفوة الصفوة من مؤرخى الأديان الأوربيين: هنرى بويش Puech، والمؤثر بشكل خاص بيير دى ميناسكه Menasce فى ملابسه الدومينكانية (وبعد سنوات رأيت إبان أحد المؤتمرات كيف إن هذا الرجل العبقرى يدخل القاعة متهدمًا تعسًا وقد اقتيد بسلسلة، وذلك بعد أن حطمه مرض عضال تمامًا). س. ى. بليكر كان موجودًا، وكذلك هـ. كلافير Clavier. وقد تحدث الجميع قليلاً أو كثيرًا بفرنسية راقية، وكان يجب علىَّ أنا المسكينة طوال الوقت تسجيل البروتوكول الذى كان يقطع فقط بطعام بسيط. وبينما يجلس فى المساء أسياد المخلوقات لتناول - كما تزعم الإشاعات - عشاء جيدًا، كنت أجلس فى حجرة الفندق وأعمل بجد على البرتوكول. وكنت أهتم بين حين وآخر بهايلر الذى يحتاج فى حجرته إلى زجاجة ماء دافئ. وكم كنت سعيدة حينما عدنا إلى ماربورج المريحة المسالمة!

لقد وجدت زيارات أخرى لباريس، كان بعض منها جميلا بحق، وكذلك فإن لى أصدقاء فى المدينة، ولكنى لم أتغلب مطلقًا بالكامل على الصدمة النفسية، أو كما يريد المرء أن يسميها، لكلتا الزيارتين، سواء أكنت فى لقاء اليونسكو أم فى زيارة "للشقيق" حميد الله، ولكنى أريد بكل سرور أن أرى شارتر مرة أخرى! أو أن أزور مونت سانت ميشيل والبروفانس مرة أخرى!

أما لندن فمختلفة تمامًا؛ فرغم أن تربيتى - وخاصة ثقافتى اللغوية - تركزت على فرنسا أكثر مما تركزت على إنجلترا، فإن لندن، أو المملكة

المتحدة كلها، قد أصبحت وطنًا لى بدرجة أكثر كثيرًا من البلدان اللاتينيــة. بالطبع فإن جمل Tartarin de Tarascons يتبعنى - نوعًا ما - خــلال كــل رحلاتى، وما زال الشعر الفرنسي يسحرنى حتى اليوم، ولكن ربمــا كانــت علاقة ارتباط إنجلترا بعالم الشرق الأقصى، وبخاصة الهند، هو الذى جعــل البلد نقطة جذب بالنسبة إلىَّ. وهذا ما بدا مباشرة لدى زيارتى الأولى. فهايلر العزيز أوفدنى للسفر فى بداية الخمسينيات كممثلة له إلى مؤتمر حوار أديان (أكان هذا هو المؤتمر العالمى حول الإيمان أم كان شيئًا آخر؟). وفى لنــدن استقبلنى د.س. رايس الذى زارنا عام ١٩٤٧ فى ماربورج (انظر ص٩٣). ورأيت للمرة الأولى فى حياتى فى منزله صور "السلايد" الملونــة: صــور رائعة لحاران، المركز القديم للسبئيين، فى منطقة الحدود التركية العراقيــة، ولقطات يــرى المــرء مــن خلالهــا أن المــصور لــيس عالمًــا فقــط، وإنما فنان أيضًا. وفى الصباح كان الذهاب إلى أوكسفورد التى بــدت لــى مخيفة بشوارعها الضيقة ومبانيها المعتمة. وقد أديــر المــؤتمر مــن قبــل ليدى رافنسدل Ravensdale التى بــدت بالــضبط ســيدة إنجليزيــة كمــا يتصــورها المرء، ولكن كان فاتنًا أنها تبدأ كلماتها - التى لم تكن قليلة! - دائمًا بجملة: When my father, Lord Curzon, was Viceroy of India... أى: "عندما كان والدى، اللورد كرزون، نائبا للملك على الهند...". ولم يكن لشىء أن يؤثر فى أكثر من حقيقة أن ابنة نائب الملك الشهير على الهند، اللــورد كرزون، تجلس هنا أمامى وتتحدث بود إلى المستشرقة الشابة (والتى كانــت لغتها الإنجليزية لا تزال بلاِ ريــب غيــر ســليمة). فجــأة وقفــت هــذه الإمبراطورية البريطانية أمامى، وأصبحت صور التاريخ حية، وذلــك لأن اللورد كرزون قد مارس تأثيرًا غير معتاد على تاريخ الهند فى بداية القــرن العشرين، وكان اسمه قد أصبح أقرب ما يكون إلى الأســطورة، بالدرجــة الأولى بسبب فصل البنغال عام ١٩٠٦ على أساس إدارى، وهو الفصل الذى يمكن للمرء - بطريقة ما - أن يخمن أنه كان - ومنذ البداية - بمثابة مقدمة للتقسيم التالى لشبه القارة على أساس من الانتماء الدينى.

ولم أكن أعلم متى يمكننى أن أذهب مرة أخرى إلى إنجلترا، وعلى كل حال فقد مر وقت طويل قبل أن أرى شيئًا أكثر من هذا البلد. وفى عام ١٩٦٩ اقترح ألبرت تايلا علىَّ أنا وأمى أن نقوم برحلة باص عبر إنجلترا. وهكذا كان الذهاب إلى الشمال، وقد أعجبتنا كاتدرائية دورهام، ثم استمر السفر إلى إسكتلندا. وقد تمتعنا وسط الشمس الجميلة الساطعة بالسفر عبر البلد؛ حيث كانت الورود تزهر بامتلاء مدهش بديع، وفى أدنبره استطعنا أن نشاهد فى تليفزيون الفندق ومباشرة أول هبوط على القمر. وقد أعجبتنا أدنبره. وقد اهتم بنا زميلى وعالم الإسلاميات الشهير وليام مونتجمرى وات Watt الذى كثيرًا ما كان مضيفى الودود فى السنوات التالية، وكانت زوجته النشيطة الذكية قد درست الجرمانيات فى ماربورج، وهكذا نما نوع من العلاقة الأسرية. وقد تعرفت فى الرحلات المتأخرة قليلاً على ضواحى أدنبره، ومما لا ينسى تلك المنحدرات الواسعة والمملوءة بنبات الجولق المزدهر، أو متنزهات المدينة؛ حيث تزدهر بترف كل من أزهار الجودلك والتوليب الأحمر، وكانت أسوار المدينة الرمادية الداكنة تبدو مهددة بعض الشىء. وقد ألقيت فى أدنبره عددا وفيرا من المحاضرات، وشاركت أيضًا ولمرات عدة فى امتحانات الدكتوراه التى كانت غالبًا لطلبة باكستانيين وهنود. وكانت من بينهم ابنة القومى السندى ج.م. سيد. وقبل كل شىء فقد دعيت فى ربيع ١٩٩٢ لإلقاء سلسلة محاضرات جيفورد Gifford Lectures. أما كونى سألقى مرة هذه السلسلة المحترمة من المحاضرات حول تاريخ الأديان والأفكار فلم يكن ليخطر عام ١٩٦٩ فى أحلامى؛ فمنذ أكثر من قرن كان صفوة العلماء هم الذين يدعون إلى هذه السلسلة التى تتكون كل مرة من عشر محاضرات، وقد وجد تحت هؤلاء الصفوة القليل جدًا من النساء، وعالم إسلاميات وحيد هو زميلى س.ح. نصر، ومن هنا فقد كنت بوصفى عالمة إسلاميات شيئًا غريبًا نادرًا.

ولم تكن أدنبره فقط المناقشات التى لا تريـد الانتهـاء مـع أسـرة هيلينبراند Hillenbrand مؤرخ الفن ذى الأصول الألمانية روبرت هيلينبراند (الذى اشتركت قبل سنوات كثيرة مع رالف بيندر - ويلسون فـى امتحانـه للدكتوراه فى أوكسفورد)، وزوجته كارول التى يدين لها العلم بمؤلف ممتاز حول "الحروب الصليبية من وجهة نظر إسلامية". أحيانًا تمر العاصفة فـوق المدينة بسرعة حتى ليبدو كأن حكايات الأرواح ستغدو حقيقة، وأن القصائد الدرامية العتيقة تتردد أصداؤها. حينما جئنا عام ١٩٦٩ للمرة الأولى إلـى إسكتلندا أرجعنا الطريق كما يليق به مرورًا ببحيرة لوخ نيس وعبر جلاسكو وليك دستريكت إلى لندن، لقد كان أسبوعًا دون شكوى أو يكاد، وقد أسـعد أمى أيضًا.

وفى السبعينيات بدأ - بالنسبة إلىَّ - الوقت الذى كنت أذهب فيه كثيرًا إلى لندن. تعرفت على المتاحف الرائعة، وعلـى الأصـدقاء خاصـة فـى تخصص الفن الإسلامى. وكثيرًا ما كانت أوكسفورد على برنامجى، وكنـت آلف فى كل مرة هذا الحصن العلمى حتى وإن كانت كمبريدج أقرب لى من الناحية الطبيعية. وقد قمت أثناء أحد مؤتمرات تاريخ الفن بزيارة روبـرت س. تسينر Zaehner الذى يعد ثقة فى مجال التاريخ الدينى لإيران القديمـة، ولكنه كان مشهورًا أيضًا بسبب كتابه حول المخدرات والنشوة. وكنت أعرف ذلك العالم الذى ينتسب إلى ابنتسيل منذ مؤتمر ماربورج. كان يعـد شـاذا غريب الأطوار، وكان لا يكره الويسكى. وقـد سـحرتنى مقارنتـه بـين الهندوسية والصوفية، حتى وإن لم تبدو لى مقنعة دائمًا. وهكذا دققـت فـى إحدى الليالى فى تمام التاسعة مساء فى أوول سولس كوليج وسألت لإثـارة استغراب الفراش الودود عن البروفسير تسينر. ومن ثم عشت حديثًا ساحرًا نادر الحدوث. وقد تطور الحديث من مناوشة استشراقية خفيفة إلى أعمـاق التجربة الدينية (أما كون الحديث كان يزداد عمقًا مع ازدياد تمتعه بالويسكى، فهو شىء لا يجب تجاهله، ولكن ما العمل؟). لقد اصطحبنى تسينر بعمق إلى

تجاربه الدينية، وقد تغير الرجل الصعب فى غير هذه الحال، بل والذى يوحى أحيانًا بأنه منفر، تغير بطريقة رائعة. وقد تمكنت فى اللحظة الأخيرة قبل منتصف الليل من الوصول إلى بوابة مسكن كليتى. ومن هنا أدركت قليلاً ما هى التجارب الموجودة خلف أعمال هذا العالم المتنازع كثيرًا فى أمره؟!

وفى السنوات الأخيرة أسس فى أوكسفورد معهد الدراسات الإسلامية الذى كان يوسع عمله الدولى ببطء، والذى كنت ضيفة عليه لمرات عديدة. لو كان مستوى الطعام هناك مناسبًا لمستوى الطموحات العلمية لكان هذا مما يفرح.

وقد أعطتنى الكثير من الدعوات الأخرى فكرة عن ثراء التقليد الاستشراقى فى المملكة المتحدة. وكم من مخطوطات عربية مهمة موجودة - على سبيل المثال - فى مكتبة جون ريلاند فى مانشستر، وكم من الأعمال المركزة*التى تنفذ حول التفاهم الأفضل بين المسيحية والإسلام فى سيللى أوكس كوليج!

ولكن جاء الاتصال الحقيقى مع إنجلترا من خلال محاضراتى فى هارفارد. كان عدد من تلاميذى إسماعيليين، ومن خلالهم ظهرت نواح جديدة فى عملى. وقد علمت أن الأغاخان لم يتبرع فقط بمنح للطلاب فى هارفارد ومونتريال، وإنما ركز نشاطاته الخاصة على لندن. وقد أنشئ تحت إشرافه فى نهاية السبعينيات كل من معهد الدراسات الإسلامية والمركز الإسماعيلى فى الجهة المقابلة لمتحف فيكتوريا وألبرت. وهو مبنى يبدو بسيطًا من الخارج، ولكنه يحوى فى الداخل أعمالاً فنية جديرة بالانتباه. وبالتأكيد كانت النافورة السباعية الزوايا من بين هذه الأعمال الأكثر تأثيرًا، والتى ابتدعت من قبل كارل شلامينجر Schlamminger (ميونخ)، والذى أغنى معمار الأغاخان بالكثير من الأعمال الجديرة بالتقدير. (أما كون أسرة شلامينجر

ستصبح فيما بعد من الأصدقاء المقربين؛ فكان أيضًا بفضل الإسـماعيليين، وذلك لأننا تعرفنا على بعضنا البعض لدى حفلة استقبال من قبـل الأميـر صدر الدين أغاخان بمناسبة أحد المعارض).

البركة سباعية الزوايا – لماذا هى شكل صعب التنفيذ؟ الإسـماعيليون يوصفون بأنهم الشيعة السباعية، وذلك لأنها كجماعة تفرعت، بخلاف الشيعة الاثنى عشرية التى تسيطر فى إيران منذ عام ١٥٠١م (والتى تنتسب إلـى الإمام الثانى عشر، وبالتالى الأحد عشر إمامًا بعد النبى محمد)، عند الإمـام السابع عام ٧٦٥م، وأصبحت بذلك أحد التيارات الإسلامية المهمـة، التـى تركز بقوة أكبر من السنة ("أهل السنة والجماعة" أى أغلبية المسلمين) على التفسير الباطنى للقرآن (انظر ص٢٥١). إذ إن تاريخ الجماعة التى تلاءمت – من خلال السلطان محمد الثالث أغاخان – مع العصر الحـديث تـاريخ رائع؛ لا يكاد الإعلام – الذى لا يشبع مطلقًا من الحـديث عـن الأغاخـان والبيجوم – يعرف شيئًا حول دوره فى تحديث الجماعة (والتركيز بين أشياء كثيرة على حقوق المرأة). وقد توبع عمله من قبل حفيده كـريم، الأغاخـان الحالى، وهكذا كان ينبغى للمركز الجديد للدراسات الإسـماعيلية أن يكـون بمثابة مركز روحى للإسماعيليين المنتشرين فى كل العالم. ولأننـى كنـت أعرف – من خلال تلاميذى – بعض قـادة الإسـماعيليين فـى بريطانيـا (وأعرف منذ وقت طويل الممثلين الأهم للحركة فى الباكستان)؛ فإننى دعيت (١٩٨١) لإلقاء محاضرة افتتاح المعهد. وبدأ بالتالى تعاون مثير ونشيط جدًا. ومما يسعدنى بوجه خاص جلسات العمل التى ألقى جـزءًا منهـا بمفـردى وجزءًا مع ابنى العزيز على آسانى: حول صورة الله فى الـشعر الفارسـى الكلاسيكى، وحول مولانا الرومى (والذى تلعب مؤلفاته لدى الإسـماعيليين دورًا مركزيا أيضًا) وحول أشياء أخرى كثيرة. وهكذا عايشت تطور ونمـو المركز الذى يمتلك أيضًا مكتبة ممتازة يجد فيها المرء المخطوطـات التـى

يصعب فك شفرتها للنصوص الدينية بالخط الخوجكى، والتى أصبحت ميسورة منذ وقت قصير لغير الإسماعيليين.

ومن خلال المعهد تعرفت على الأغاخان شخصيا، والذى سرعان ما التقيته مرة أخرى فى لندن ومرة فى هارفارد، ولكن لقاءنا الأول كان فى إسلام أباد حينما منح عام ١٩٨٦ الوسام السياسى الأعلى فى البلاد، بينما حصلت أنا على أعلى وسام مدنى، وكان ذلك يومًا ربيعيا ساطعًا مملوءًا بالبهجة.

وقد ظل المعهد وكل ما يتعلق به بمثابة نقطة جذب لى فى لندن، ولكنه أصبح أيضًا مصدرًا للقاءات أخرى: لدى إحدى محاضراتى الأولى عرفنى صديقى ضياء شكيب الذى اصطحبنى قبل سنوات قليلة، بمنتهى الروعة عبر موطنه الدكن (انظر ص٣٩٣ وما بعدها) بإحدى معارفه وهى الرقيقة الجذابة فيليبا فوجان Vaughan التى تعمل خبيرة لدى كريستيس، والعارفة بالفن الهندى وبصفة خاصة الفن الهندى الإسلامى، والتى أصبحت فيما بعد مديرة للجمعية الملكية الأسيوية. وقد تصادقنا بسرعة، وعندما جددت منزلها الذى يقع فى غرب لندن أصبح بمثابة وطنى اللندنى؛ فعندما أمسح على الأسدين الأسودين اللذين يحرسان المدخل أشعر أننى فى منزلى. وفيليبا عبقرية فى الضيافة، وتبدو كأنها تعرف كل الناس الجديرين بالانتباه فى لندن - على الأقل كل الذين لهم صلة بالهند وبالفن الإسلامى. يمكن للمرء أن يلتقى على العشاء لديها بالأميرة دورشهوار، ابنة آخر السلاطين العثمانيين، ووالدة آخر نظام لحيدر أباد، والذى يعيش الآن فى أستراليا، وكان مقطع وجهها الجانبى الحاد يشبه تمامًا جدها الأعلى السلطان سليمان القانونى كما يعرف من خلال بورتريهات القرن السادس عشر. أما السلطان السابق لحضرموت غالب القويتى؛ فكنت أعرفه معرفة قديمة. وقد تعرفت على الذكية الحصيفة مى يمانى (ابنة زكى يمانى) أولا عن طريق فيليبا، وبالطبع كان يلتقى لديها

الزملاء الذين يعملون فى المتاحف. لم تتعب قط - ولن تتعب! - من دعوة أصدقاء مهمين جدد، ويستوى فى ذلك من أى أطراف العالم أتوا. بفضل صداقتها تعرفت على لندن وأكثر من هذا أنها تصحبنى حينما يسمح وقتى القصير إلى أماكن جديدة فى البلاد، وخاصة إلى الكاتدرائيات القوطية الرائعة فى جنوب إنجلترا: سليسبورى وويلز وتشيشستر. واستكشفنا الكاتدرائية الضخمة فى يورك، وزرنا باث الساحرة، وقضينا إجازة أسبوعية فى ويلز الخضراء وقراها القديمة. كانت رسوم ترنر Turner الرائعة متدرجة الألوان لدير تنترن آبى المختلفة جدًا فى خطوطها اللطيفة الدقيقة عن لوحات ترنر المتأخرة - تذكرنى مرة بعد أخرى بجمال أطلال هذا الدير على الحدود إلى ويلز.

كان ضياء شكيب نشيطًا فى لندن بنفس الدرجة كما كان فى حيدر أباد، وكان وأسرته لا يتركون فرصة زيارتى تمر دون دعوة "الحلقة" التى يلتقى فيها الأصدقاء على الطعام الهندى اللذيذ ويتحدثون عن الأدب والموسيقى. وهى دائمًا إحدى معجزات الضيافة الشرقية، كم من أناس كثيرين يجدون مكانًا لهم فى الشقة الصغيرة، وكيف يلتقى هناك الفنانون الهنود وخبراء الفن البريطانيون، وكذلك الأدباء الإنجليز والهندو-باكستانيون! ويالها من تجربة ذلك اللقاء بين الروائية الأردية قرة العين حيدر مع خبيرة إنجليزية فى أعمال ويليام بليك Blakes: الشاعرة عميقة التصوف كاثلين رين Raine، والتى حينما رأيتها قبل فترة كانت فى الثالثة والتسعين من عمرها، ولكنها تذكرنى دائمًا بالمتصوفة فاطمة القرطبية التى كتب عنها تلميذها الحكيم الكبير ابن عربى فى القرن الثانى عشر، أن سنها كانت أعلى من التسعين ، ولكنها كانت تبدو مثل فتاة صغيرة. وهكذا كانت تؤثر فى كاثلين بوجهها الوردى الساطع وحكمتها الكبيرة.

كنت أزور بين حين وآخر مركز نعمة الله؛ حيث يعيش الدكتور نورباخش رئيس طريقة نعمة الله الصوفية الفارسية. كنت أعرفه من

نيويورك، وأعجبت بنشاطاته التى ألهمته تأسيس مراكز صوفية حول العالم، وذلك بعد أن قام كأستاذ معروف للطب النفسى فى طهران بمغادرة وطنه بعد ثورة ١٩٧٩. كان عقلية لامعة، عميق الثقافة، ولكنه بالنسبة إلىَّ كان دائمًا غريبًا بعض الشىء، ربما لأننى كنت أجد مشقة لأفهم بدقة نوادره، التى يحكيها بأسرع فارسية - غالبًا ما تقطع بالضحك - لسامعيه المستحسنين. وكان يمازحنى بسرور قائلاً: "السيدة النجيبة شيمل، لا بد وأن تفتحى خانقاه (مركزًا صوفيًّا) فى بون!". (المركز أسس بالفعل فى جنوب كولونيا، ولكن ليس من قبلى). كان نورباخش يصدر مجلة أنيقة الإخراج كنت أنشر فيها أحيانًا أشعارًا إنجليزية، صدرت بفضله أيضًا فى كتاب جميل الإخراج تحت عنوان "عندليب تحت الثلج المتساقط" (Nightingales under the Snow).

أحيانًا تصطحبنى فيليبا إلى شرق لندن أيضًا؛ حيث يعيش، ليس بعيدًا عن خط جرينتش، أحمد مصطفى، أحد أكبر فنانى الخط العربى فى وقتنا الحاضر، والذى يبدع بمساعدة الكمبيوتر "لوحات" خطية آسرة من الجمل العربية أو من الآيات القرآنية أو من الأشعار، وهو ما أصبح اليوم "موضة". رسوماته الضخمة، التى تستخدم جزئيا كنماذج لسجاد الجوبلن الفرنسى، شديدة الجمال، بل إن بعضها تكاد تبهر بجمالها الأنفس، وهذا ينطبق أيضًا على تصاميمه المكعبة، التى تكاد تكون سحرية، من جمل عربية حكيمة أو صيغ دينية مأثورة. وقد كان أيضًا متقنًا للأشكال الكلاسيكية لفن الخط، ويعمل أيضًا على الأسس الرياضية للخط مثلما وضعت أوائل القرن العاشر من قبل الحكيم العربى ابن مقلة، وما زالت صالحة حتى اليوم.

بالإضافة إلى كل الأصدقاء المذكورين فى لندن، جاءت فى العقد الأخير العلاقة مع مؤسسة الفرقان فى ويمبلدون، والتى أسست من قبل الشيخ زكى يمانى لحفظ التراث الإسلامى ولفهرسة المخطوطات العربية خاصة فى المناطق المهملة عادة. كانت اللقاءات مع الزملاء، والتى تعقد عدة مرات فى

السنة، المحاضرات وجلسات البحث فى إيجل هاوس فى ويمبلـدون بمثابـة ذروة للعام، وازدادت، إذ تطورت عنها صداقة رائعة مع أسرة يمانى. وهكذا أصبح لى الآن وطن ثان فى لندن أو على الأصح فى سيرى؛ حيث يوجـد منزل الأسرة الذى تهيج حديقته الزائر دائمًا لأن يكتـب شـعرًا بالأسـلوب الشرقى.

على كل حال ، كانت لندن بالنسبة إلىَّ مدينة تفـاجئ الـزوار دائمًـا بلقاءات مفرحة. سواء سار المرء في يوم ربيعى بموازاة حديقة الهايدبارك، أو رأى متعجبًا فى وقت متأخر قليلاً من العام الورود التى لا تحصى فـى ريجنتس بارك، وسواء غطس المرء فى كنوز المكتبة البريطانيـة أو فـى مكتبة الجمعية الملكية الآسيوية (التى جعلتنى عضوًا فخريا فى عام ١٩٩٩)، كانت المدينة تبدو دائمًا مختلفة. (لا يا عزيزى القارئ، أنا لا أتـردد علـى المسرح فى لندن أيضًا، الندرة نفسها التى أذهب فيها إلى المسرح فى بون). أحيانًا أفكر بأننى أحتاج فقط أن أذهب إلى لندن حتى ألتقى نصف أصدقائى الهنود والباكستانيين، سواء أكانوا شعراء مثل فايز أحمد فايز المتوفى فـى عام ١٩٨٤ وأحمد فراز، أم كانوا فنانين مثل أستاذ فـن الخـط والرسـام الباكستانى جولجيـه Gulgee الـذى تـوحى صـوره الغاليـة للأغاخـان والشخصيات البارزة الأخرى، والتى تركب معًا من آلاف من قطع اللازورد الصغيرة، من مسافة محددة مثل صورة فوتوغرافية لا تشوبها شائبة، ولكن دائمًا تكون الإقامات من أقصر ما يكون، بينما يوجد الكثير لاكتشافه.

ما يسمى بالتقاعد

انتهى عملى التعليمى فى هارفارد بفصل الشتاء الدراسى لعام ١٩٩٢، بالضبط بعد خمس وعشرين سنة. وقد احتفلنا فى دائرة واسعة بعيد ميلادى السبعين. وبعد عشرة أيام، فى ١٧ أبريل، طرت إلى أدنبره كى ألقى سلسلة

محاضرات جيفورد، وقد تمتعت بتلك الأيام فى أدنبره الربيعية، وحاولت أن أجعل محاضراتى Deciphering the Signs of God "فك شفرة الإلــه" تبعًــا لنموذج كتــاب فريــدريش هــايلر Wesen und Erscheinungsformen der Religion "حقيقة ظهور الدين وأشكاله" (١٩٦٥)، وهــذا يعنــى أن أرى أن المرء يمكنه تفسير الأديان تبعًا لنموذج محدد، وذلك لأن الإله الخفــى deus absconditus رغم أنه فى مركز كل "التجربة" الدينية، يتضح أنه لا يُحاط به ولا يُدرك، ولكنه يسمح على الأقل فى مظاهره بأن يُستشعر ببطء وفى دوائر تكبر ببطء أيضًا. وتتكون الدائرة الخارجية التى تحيط بالمقدس من النواحى المقدسة من أشياء فى الطبيعة والثقافة، الوقت المقدس والأفعــال المقدســة (الطقوس والصلاة والاحتفالات وما يشبه ذلك)، ثم يأتى دور الكلمة (الكلمة من الله = الوحى، الكلمة من الناس = الصلاة)، وتستنبط من هــذا وظــائف الأفراد والمجتمع، وأخيرًا يطرح السؤال عن الخلــق والبعــث. كــل هــذه الظواهر يمكن أن تساعد على إنارة العالم الدينى الذى يعيش فيه المــؤمن. حتى وإن كان هايلر يحمل هذه النظرة الظواهرية على تاريخ الأديــان فــى مجمله، ويبحث من خلال هذا نوعًا ما عن دليل علــى الوحــدة الأساســية للأديان؛ فإننى أجد أن المرء يمكنه بهذه الطريقة أن يقتــرب مباشــرة مــن الإسلام؛ لأن القرآن يعطى مكانة خاصة "لآيات الله": "سنريهم آياتنــا فــى الآفاق وفى أنفسهم" (سورة فصلت، ٥٣). فالتاريخ والطبيعة يــشيران إلــى الوحدانية الإلهية مثلما تشير انفعالات الإنسان الروحية والفكرية.

فى التاسع من مايو عدت من أدنبره إلى بون، وذلك لأننى سأحــصل بعد أيام قليلة فى توبنجن على تكريم يكاد يبدو لى غاليًا مثل شرف إلقاء هذه المحاضرات الراقية فى إسكتلندا. وهذا التكريم كان عبارة عن جائزة ليوبولد لوكاس Lucas التى تمنحها كلية اللاهوت البروتستانتية فى جامعة تــوبنجن. وقد أنشئت هذه الجائزة عام ١٩٧٢ من قبل ف.د. لوكاس، لأجــل خدمــة التفاهم بين الأديان، ولإحياء ذكرى والده الحبر اليهودى الذى تــوفى عــام

١٩٤٣ فى معسكر اعتقال تريزينشتاد. وهكذا وجدت نفسى مرة أخرى كأول امرأة ترافق الدلاى لاما وكارل رانر Rahner وهانز يوناس Jonas وفطاحل المشاهير الآخرين الذين نالوا هذا التكريم من قبل. وقد تناولت كلمتى فكـرة من سلسلة محاضرات جيفورد وهى "أردية الله"، وتبحث الطريقة التى حاول بها البشر معرفة حقيقة الله خلف بياناته المتنوعة، ورفـع "الـرداء الحـى للإلوهية" قليلاً، والإمساك أو الأخذ "بطرف حاشية مغفرته". وقد بقيت على علاقة صداقة مع المتبرع الكريم بالجائزة وذلك حتى وفاتـه، شـاكرة لـه إنسانيته الكبيرة.

ثم قادنى الطريق بعد ثلاثة أيام فى بون عائدة إلى الولايات المتحـدة الأمريكية - إلى بوسطن ونيويورك وواشنطن، وذلك لإلقاء عدة محاضرات ولأودع الأصدقاء. وفى الخامس من يونية لملمت خيمتى فى "المنفى الغربى" نهائيًا: أهديت "الأشياء الثابتة" لتجهيز السكن، وفعلت المثل مع أغلب كتبى، وإلا فأين لى أن أحفظ ذلك كله فى بون؟ وهنا لا بد من أن أشير إلى فـضل ناشرى التركى، الذى لو لم يحفظ لسنوات طويلة صناديق الكتب الكبيرة نوعًا ما - أعتقد أنها كانت ستة وعشرين صندوقًا - فى دار نشره فى كولونيـا، لأصبح الأمر أكثر صعوبة.

ومن ثم بدأت "الحياة الجديدة"؛ حيث التقيت مرة أخرى الكثيـر مـن المعارف والأصدقاء القدامى فى بون، ومن بين ذلك الكثير من الدبلوماسيين سواء أكانوا على المعاش أم ناشطين. هنا أريد الإشارة فقط إلى اثنين مـن الأصدقاء: أحدهما هو فالتر شميد Schmid الذى تـوفى فـى أول فبرايـر ٢٠٠٢ عن عمر ناهز التسعين. ويصور كتابه Russische Jahre "الـسنوات الروسية" إقاماته الثلاث فى الاتحاد السوفيتى؛ مرتين بوصـفه دبلوماسـيًا، ومرة كأسير حرب فى الأورال لمدة عشر سنوات، وهو الذى عاد منه عـام ١٩٥٥. ورغم كل الصعوبات فقد أحب روسيا طوال عمره، وبدا لنا كنموذج لإنسان شجاع عميق الإيمان، والذى حمى من خلال مثاله الكثير من الشباب

من الانكسار. وقد ربطتنى به وبأسرته صداقة دامت طويلاً، واستمرت أيضًا بعد وفاة زوجته التى قضيت معها بعض الليالى فى حوار حول الشعر، والمراهنة على حفظه. ومنذ وفاة أمى أصبح الاشتراك فى أكل أوزة عيد الميلاد لدى أسرة شميد بمثابة تقليد.

وتختلف عن هذا تمامًا العلاقة مع شمس وهوتنزا أنورى. وشمس هو أحد فنانى الخط البارزين فى إيران، والذى يعيش طبعا ومنذ عقود فى ألمانيا. وهو يمثل، بوصفه عارفًا متعمقًا للأدب الفارسى وراويًا لعدد لا يحصى من الطقوس والتقاليد الشعبية المهددة اليوم بالانقراض، أفضل الموروث الثقافى الفارسى، هذا بينما تعيش زوجته الهولندية بعمق فى التراث الصوفى المسيحى. وتعد الليالى معهما خليطًا رائعًا بين الروحانية العالية واللذائذ الأرضية، وذلك أن الأطعمة التى يعدها شمس هى قصائد حقيقية.

وقد قادتنى إحدى رحلاتى الأولى عام ١٩٩٢ داخل ألمانيا مع هوتنزا إلى دير نيدرألتايش، وهو الدير البندكتى الجميل؛ حيث يمثل الأب إيمانويل تلك الروحانية التى عرفتها لدى فريدريش هايلر. وقد وجدت مثل هذا الجو الودى المريح مرة أخرى بعد ثلاثة أشهر فى سانت جابريل فى مودلنج بالقرب من فيينا. وهناك تطور تحت إشراف د. أندرياس بيستيه Bsteh برنامج حوار بعيد المدى، يقف فيه التفاهم مع الإسلام فى المركز، ليس بمعنى "اللقاء" الذى يستخدم دائمًا أبدًا الشعارات نفسها، وإنما بمعنى إقامة أحاديث أساسية وثرية من قبل اللاهوتيين والعلماء من كلا الجانبين. وقد تواصل هذا الحوار باستمرار وبلغ ذروته فى سنة ٢٠٠١ لدى لقاء ممثلى أعلى المراتب لدى الشيعة الإيرانية والكنيسة الكاثوليكية النمساوية؛ حيث احتفل كل من الكاردينال شونبورن والكاردينال كونج (الآن فى السادسة والتسعين من عمره) فى فيينا بختام هذا العمل المشترك مع آية الله خامينئى وآية الله تشكيرى (انظر ص٣٣٤). وقد تمتعت بين هاتين التجربتين

السارتين – نيدرألتايش ومودلنج – بإقامة قصيرة فى ويلز اللطيفة، التى تدعو مناظرها الطبيعية إلى الأحلام.

وبالطبع فإن انتهاء العمل فى هارفارد يعنى أيضًا أن يعيش المرء مرة أخرى بالكامل فى بون. وكانت الشقة فى لينهرشتراسه – أيضًا بعد وفاة أمى – قد أصبحت وطنًا لى، وكانت الحياة سعيدة مع الكثير جدًّا من المعارف، خاصة مع السفراء والزملاء. ولم يكن لى أن أجد شريكًا فى الجامعة أفضل من شتيفان فيلد Wild[١٨٢] الذى يدير معهد الاستشراق، والذى دلل على أنه صديق حقيقى. وتربطنى منذ وقت طويل علاقة صداقة بحماته جابريلا فولكر Wülker التى كانت فيما سبق وكيلة وزارة فى حكومة أديناور. وكذلك كانت الجمعيات الدولية – سواء أكانت الألمانية – التركية أم الألمانية – الإيرانية، وفيما بعد الألمانية – الأوزبكية – تكلفنى بسرور بالمحاضرات، وكانت أقرب النشاطات إلى قلبى تلك التى تتم فى الجمعية الألمانية – الباكستانية (والتى كنت ولفترة طويلة رئيسة لها، وهذا ما لم يكن يسعدنى كثيرًا). أما كون هذه الفاعليات قد انتقلت الآن إلى برلين؛ فإن بون قد أصبحت – بالنسبة إلينا كمستشرقين – قليلة الأهمية بعض الشىء. وأخذت اللقاءات فى السفارة السورية، التى كانت حجرات استقبالها قد أعدت كلها بالأسلوب العربى الكلاسيكى، وبصفة دائمة مكان ذروة فى قائمة حفلاتى. ومتى يسمح لى مرة أخرى بقطع "تورتة" الحفل الضخمة للسفارة السعودية، والتى كانت مصنوعة على شكل كتاب؟

وقد استمرت بالطبع المحاضرات والرحلات. فى مارس ١٩٩٣ زرت تركيا مرة أخرى للمحاضرة فى إستانبول، وآنذاك تعمقت علاقاتى مع أرسيكا IRCICA (منظمة المؤتمر الإسلامى، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية)، تلك المؤسسة التى منحتنى بمناسبة عيد تأسيسها العاشر ميداليتها الذهبية عام ١٩٩٠. وتجولت مع جوردون شوبرت Schubert عبر

إستانبول الحبيبة، وكان هذا بداية لصداقة أشعر يوميا بالامتنان لهـا. وقـد رافقتنى أيضًا إلى بيت صديقتى المبجلة سميحة أويفردى (انظـر ص١٣٥) التى انتقلت، متقدمة فى السن جدًا، بعد ثلاثة أيام من زيارتى، إلى الخلـود النير.

لم أكد أعود من إستانبول حتى طرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك لأنه كان قد طلب منى أن ألقى محاضرة سيرة ذاتيـة فـى المركـز الأمريكى لجمعيات المثقفين. وقد دعى إلـى سلـسلة (A Life of Learning) "حياة التعليم" أشهر الشخصيات التى يبدو طريق حياتها جـديرًا بالاهتمـام. وحينما قرأت كلمات من سبقونى، شعرت قليلاً بأننى حملت فوق طاقتى؛ فأنا لم أفعل شيئًا للسياسة الأمريكية، ولم أنجز أعمالاً اجتماعية مؤثرة، ولم أقـم باكتشافات طبيعية غيرت نظام الحياة. وهكذا فقد حكيت ببساطة عن حياتى، وكان هذا نجاحًا كبيرًا. وفى بداية مايو عدت مرة أخرى إلى منزلى.

ثم شغلنى وأتعبنى كثيرًا إصدار سلسلة محاضرات جيفورد، بداية فى أصلها الإنجليزى (وما زلت أفكر بفزع فى المراجع العلمى لمطبعة جامعـة أدنبره، والذى يبدو وكأنه لا يملك بأى شكل خيالاً أو لا يملك على الإطلاق شعورًا بالجمال)، ومتأخرًا قليلاً فى الصيغة الألمانية. ومنذ ذاك ظهرت كلمة "فهرست" Index بشكل مطرد فى تقاريرى السنوية، وذلك لأن العمل المهـم على الفهارس قد ازداد مع ازدياد عدد الكتب الصادرة، وهكذا نظمـت مـا يلى[١٨٣]:

"الأيدكس" حيوان أثير،

"الإندكس" يفترس ورقًا كثيرًا.

"الأيدكس" تعيش فى الجنوب مرفهة،

"الإندكس" يجعلنى دائمًا متعبة.

"الأيدكس" تستلقى على أحجار دافئة،

"الإندكس" يكاد يجعل عيونى دامعة.

"الأيدكس" تلتهم الهاموش بهدوء ومزاج،

"الإندكس" يجعل ظهرى شديد الاعوجاج.

"الأيدكس" تتشمس على الجدول هادئة،

"الإندكس" يدعنى، أخ، متوجعة...

"الأيدكس" ترقص فى الشمس كثيرًا،

"الإندكس" يملك ذيلاً طويلاً.

"الأيدكس" ترفع فى الرقص كفيها،

"الإندكس" يصارع فى الأبحاث متنيها.

"الأيدكس" تضع بسرعة البيضات،

"الإندكس" يوضع فى البطاقات.

"الأيدكس" تبدأ فى جمع الفضلات،

"الإندكس" يُقبر فى القصاصات.

"الأيدكس" تقول: "أنت جد رصين"،

"الإندكس" يقول: "آه... صفحة ثلاثين...".

"الأيدكس" تتمنى غفوة لذيذة،

"الإندكس" يتقلب فى كآبة رتيبة.

"الأيدكس" تحمل إلى السرير،

"الإندكس"، أخ، يحملق حتى الهزيع الأخير،

ويقف السؤال أمامه مثل دخان:

بالتأكيد وفى صفحة ١٧٠ (كمان)!

آنذاك بدأ تعاونى مع دار نشر بيك Beck التى نشرت أولاً ذكرياتى عن رحلاتى فى شبه القارة الهندوباكستانية (جبال وصحارى ومزارات)، ثم سلسلة محاضرات جيفورد (آيات الله) Die Zeichen Gottes ثم كتابًا جديدًا فى كل عام، سواء كانت تراجم فى مكتبة الشرقية الجديدة، أو كتبًا حول الأحلام فى الثقافة الإسلامية (أحلام الخلفاء) Die Träume des Kalifen أو مدخل إلى الثقافة المغولية (فى مملكة المغول العظماء) Im Reich der Großmoguln الذى يلخص نوعًا ما عصارة دراساتى فى هارفارد. وهنا لا بد من أن أضيف أننى محظوظة بأن لى دائمًا علاقات طيبة، بل علاقات صداقة مع ناشرى كتبى. فى الخمسينيات عندما كنت أكتب كثيرًا جدًا لدار نشر أويجن ديديريشس، أصبحت أقرب ما يكون إلى عضو فى الأسرة، وقد ظهر كتيبى الذى أهديته إلى قططى العزيزات (للأسف من بعيد فقط) فى هذه الدار أولاً. وبعد أن جاءت أنجه ديديريشس فى السبعينيات مرة لتناول الشاى فى لينهرشتراسه بدأت الإصدارات، خاصة فى مجال التصوف. بعض العناوين مثل الكتاب الذى خصص لاحترام وتوقير الأنبياء فى الإسلام "ومحمد رسوله" Und Muhammad ist Sein Prophet نشرته بعد قليل بالإنجليزية فى صيغة موسعة جدًا فى دار نشر جامعة نورث كارولينا، بينما ظهر كتابى الذى نشر فى دار نشر جامعة نورث كارولينا Mystical Dimensions of Islam "الأبعاد الصوفية فى الإسلام" فيما بعد بالألمانية لدى ديتريشس. (وأنا أفضل أن أكتب بنفسى الصيغ الألمانية من الصيغ الإنجليزية، والصيغ الإنجليزية من الصيغ الألمانية لكتبى، وأن أتحكم على الأقل فى الترجمات إلى اللغات الأخرى المعروفة لدى، وذلك لأن أية ترجمة غير صحيحة تمامًا للمصطلحات الدينية أو للأشعار يمكن أن تؤدى إلى نتائج

سيئة للفهم)، كذلك الكتاب الذى ظهر لدى ديديريشس "سر الأعداد" Das Mysterium der Zahl يعتمد على كتاب لفرانز كارل إندرس Endres دلل على أنه من أكثر الكتب مبيعًا فى عشرات الترجمات. أما الكتاب الذى نشر أولا فى أدنبره Islamic Names "الأسماء الإسلامية"؛ فقد نشر من قبل فى دار النشر الألمانية نفسها تحت عنوان Von Ali bis Zahra "من عليٍّ إلى سارة". والأسماء هى أحد مجالاتى المحببة؛ من الأسماء الأولى ومن أسماء الأسرة – كما فى تركيا – يمكن للمرء أن يتعرف على الكثير مما يخص الحالة الثقافية والسياسية لإحدى البلاد وعن المثل العليا والأمنيات، ولأجل هذا خصصت الأسماء التركية بكتاب صغير تحت عنوان "السيد ديميرجى اسمه ببساطة "شميدت" Herr Demirci heißt einfach "Schmidt" وحاولت أن أشرح فيه لأبناء بلدى معنى الكثير من الأسماء التركية وتركيبها، وذلك لكى نفهم مواطنينا الأتراك بطريقة أفضل.

لدى كل زيارة لأولف ديديريشس يتطور مشروع جديد، وما زال "طفلى المحبب" إلى الآن هو الأنطولوجيا الشعرية "خذ وردة وسمها أغانى" Nimm eine Rose und nenne sie Lieder (١٩٨٧) والتى كانت جميلة الإخراج، وكانت تحتوى على مختارات من الشعر من اللغات الشرقية المختلفة. والآن أفتقد زيارات أولف الكثيرة؛ فمنذ أن نزح إلى جنوب ألمانيا، وذلك لأن دار النشر ذات التراث العريق، والتى أعرفها منذ طفولتى لم تستطع أن تقاوم حركة الاندماج المتزايدة فى عالم النشر ـ ذهبت لصالح دار هوجندوبل، ولكن ظلت العلاقة مع أسرة ديدريشس كما هى.

الآن ومنذ ١٩٩٣ تطورت صداقة طيبة كذلك مع دار س.ه‍-. بيك، أولاً مع المصصحين العلميين. وكم من متعة يجلبها التعاون مع ماتياس بوليتكى Politycki ومع مارلا شتوكنبرج Stukenberg التى يجمعنى وإياها حب شبه القارة الهندية، وذلك حتى قسم التصحيح الحالى! ولقد كانت تلك

الصداقة مع فولفجانج بيك وزوجته الفارسية محروقة، صانعة الحلى الذهبية، صداقة موفقة.

وأشير أخيرًا إلى الصلة الجميلة التى تطورت منذ ١٩٧٥ مع هيرمان هيردر وموظفى دار نشر هيردر. وقد اتصلت بالدار للمرة الأولى من خلال اجتماع مؤسسة أوراتيو دومينى Oratio Domini عـام ١٩٧٥ واسـتمتعت بجمع الأدعية الإسلامية وتشكيلها تبعًا لترتيب "أبانا الذى" (فى كتاب "وذلـك أن المُلك لك" Denn Dein ist das Reich والذى صدر فيمـا بعـد بـصورة موسعة لدى دار شبور تحت عنوان "مشيئتك تنفذ" Dein Wille geschehe). وفى " نصوص للتأمل" Texten zum Nachdenken قدمت مواد حول الحلاج " شهيد الحب الإلهى"، وكذلك ترجمت للمتصوف المصرى الذى أحبه ابـن عطاء الله، والذى ما زالت أقواله وحكمه الموجزة تبدو بالنسبة إلـىَّ إحـدى أجمل نصوص التأمل الروحى على الإطلاق. منذ الكتيب الصغير الذى ظهر بمناسبة جائزة السلام ?Wie universal ist die Mystik "مـا مـدى كونيـة التصوف؟" بدأت الكتيبات تظهر فى سلسلة Herder-Spektrum، وفيها كتابى الأخير الذى أحبه بصفة خاصة حول الأزهار والحدائق الإسلامية.

وهل يوجد أفضل من تجارب النشر الإيجابية، التى بدأت فى حـالتى مبكرة جدًّا من خلال عملى مع دار نشر كارل هـانزر Hanser ومـصححه العلمى الرائع هربرت ج. جوبفرت Göpfert؟ ورغم ذلـك لا بـد مـن أن أضيف هنا مدحًا ذاتيًا متواضعًا، وهو أننى حافظت حتى الآن ودائمًا علـى مواعيدى.

ولكن عودة إلى عام ١٩٩٣ وهو العام الذى تعرفت فيه خلال رحلـة قصيرة إلى إنجلترا على كاتدرائية يورك والأطلال الرومانسية فى ريفو. وقد وجد مؤتمر حول التصوف المقارن فى أفيلا، وفى نهاية سـبتمبر حـصلت على وسام فى روما؛ حيث نظم أتيليو بيتروشيولى Petruccioli مدير مكتب

التصميم البيئى والعالم اللامع لتاريخ العمارة والحديقة الإسلامية حفلة رائعة لى (بدت لى وكأنى لم أستحقها). ولم أكد أعود حتى بدأت "حجتى" السنوية إلى الباكستان، والتى اشتملت هذه المرة على زيارة إلى أزد كشمير، وهو ذلك الجزء الصغير من كشمير الذى يتبع الباكستان، وهو لأجل ذلك يطلق عليه من قبل الباكستانيين "أسياد" أى "أحرار"، وذلك بعكس الجزء الكبير الذى يقع تحت السيطرة الهندية. وقد أثرت فىَّ بشدة كل من المناظر الطبيعية الجبلية الرومانسية وصداقة الناس. لو حلت مشكلة كشمير المتضخمة منذ عام ١٩٤٧ فقط سلميًا (انظر ص٣٩٦) لوجد أخيرًا سلام حقيقى فى شبه القارة!

وقد شغلت بأفكار مختلفة تمامًا لدى أول مؤتمرات إيرانوس التى دعيت إليها كمتحدثة. كانت أسكونا جميلة كما هى دائمًا، وقد تحدثت هناك؛ حيث كان كبار علماء الأديان يعملون منذ الثلاثينيات. كان موضوع المؤتمر هو Die Macht des Wortes "سلطة الكلمة". حقا انقسم أعضاء إيرانوس على أنفسهم قبل ذلك لبعض الوقت، ولكن كان كلا الرئيسين آنذاك: عالم العلوم السياسية تيلو شابريت Schabert وعالم المصريات إيرك هورنونج Hornung، كانا يحاولان مواصلة التقليد حتى تبع ذلك فى نهاية التسعينيات التوتر والانقسام مرة أخرى. وبصرف النظر عن هذا فإننى أتمتع حتى اليوم بالاشتراك فى المؤتمرات المثيرة، وبأن أمثل جانب العلوم الإسلامية كما كان يفعل العالم العظيم هنرى كوربان فيما سبق.

شىء آخر، هو بالطبع فى أوسع معانيه ليس حدثًا دوليًا مثل إيرانوس، كاد أن يصبح جزءًا من برنامجى السنوى؛ ففى مارل بالقرب من مونستر ينظم علماء التيولوجيا المهتمون لقاءات ومحاضرات تخدم التفاهم الأفضل للأديان الأخرى، خاصة الإسلام. وقد احتفل على سبيل المثال فى عام ٢٠٠١ بعيد النبى إبراهيم الذى "يموضع" معنى وتأثير شخصية أبى الأديان

الإبراهيمية الثلاثة (اليهودية والمسيحية والإسلام) بالنسبة للمنتسبين لهذه الأديان الثلاثة. وعلى كل حال فإنه لأمر ملحوظ أن الطوائف المختلفة فى ولاية شمال الراين - وستفاليا تبذل فى السنوات الأخيرة جهودًا قوية لخلق علاقات أفضل بين المسيحيين والطوائف المسلمة العديدة، خاصة فى منطقة الرور، وهكذا كنت كثيرًا ما أجد نفسى بين حين وآخر مدعوة لمحاضرات وحلقات بحثية فى ريكلنجهوزن وبوتروب والمناطق المشابهة.

وهكذا استمرت الحياة بالمحاضرات و"بعمل الكتب الذى لا نهاية له". وفى مايو ١٩٩٤ منحت الميدالية الذهبية لجمعية هومبولت، واشتركت فى الكثير من الندوات والحلقات العلمية، فى فيينا وبرلين ولندن. وكانت الأخيرة مخصصة لنهر السند وللمعنى الأكولوجى والتاريخى والاجتماعى لهذا النهر الهائل الذى يبدو كذلك مهما فى الشعر، خاصة السندى. أليس هو النهر الهائل الذى يحضر الخير والبلاء ويستطيع أن يغرق كل شىء؟ ومن ثم فهو رمز ملائم لله:

إذا أحضر السند فيضانًا كبيرًا،

فإنه يدمر القنوات،

وحب المحبوب أيضًا

كبير جدًا على روحى،

هذا ما أنشده قاضى قاضان فى القرن السادس عشر: القلب الإنسانى الصغير لا يستطيع تحمل فيضان عفو رحمة الله، ومن ثم يتحدث المحب دون ضابط عما تلقاه وهو فى حالة الإلهام والنشوة. وفى الخريف كنت مدعوة مرة أخرى إلى البلد التى تقع على نهر السند. كان مستشفى الأغاخان فى كراتشى يحتفل بعيده العاشر، وهكذا كان يجب على أيضًا أن ألقى كلمة. وقد حظيت مرة أخرى بلقاء الأغاخان وابنته الفاتنة التى كنت أعرفها منذ فترة دراستها فى هارفارد.

وإلى جانب ذلك وُجدت فى عام ١٩٩٤ ذروة أخرى كانت أكثر أهمية بالنسبة إلىَّ؛ فلأول مرة بعد الحرب وإعادة الوحدة زرت مسقط رأسى إيرفورت. كنت قد عشت إعادة وحدة ألمانيا وأنا فى الباكستان، ولا يكاد أحد أن يتصور احتفال الشعب الباكستانى بهذا الحدث. وحينما رأيت فتح بوابة براندنبورج فى التليفزيون وجدت الدموع فى عينى. ومع أن أكاديمية إيرفورت العامة للعلوم قد اختارتنى بالتأكيد بعد عام ١٩٩٠ عضوًا بها، فإنى كنت أحتاج لسبب خاص حتى أغامر بالعودة، وهذا ما حدث لدى ندوة علمية عن التصوف فى العصور الوسطى، والتى التقيت فيها مرة أخرى بكورت روه الأستاذ الكبير فى هذا المجال والعارف المتمكن بالمعلم إيكهارت، ألم يعمل المعلم إيكهارت لوقت طويل فى إيرفورت (وما زال المرء يشير إلى مكان جلوسه فى كنيسة الخطباء فى إيرفورت)؟ ولكونى قدمت متأخرة لساعتين؛ فقد وجدت نفسى وحيدة على رصيف القطار، وما إن نظرت حولى حتى رددت فجأة إلى طفولتى؛ فما إن اجتزت ميدان المحطة حتى دلفت إلى ما يشبه الغيبوبة نوعًا ما، وعبر شارع المحطة رأيت السينما التى حصلت فيها مرة على توقيع زيفن هايدن، ثم أحضرت لنفسى معلومات فى متحف إنجير. وهنا كنت فى كنيسة الحفاة التى دمرت فى الحرب، والتى تكون أطلالاً مثيرة للإعجاب. وهناك التقيت بالمشاركين فى الندوة، وأصبحت "فى بيتى". عدت إلى إيرفورت مرة أخرى فى شتاء ١٩٩٥، ودعيت فيما بعد للمشاركة فى مجلس أمناء الجامعة المنشأة حديثًا. حتى وإن لم أستطع ولن أستطيع تقديم الكثير للنواحى التقنية للجامعة، كنت آخذ على عاتقى كواجب أن أساعد على الأقل بالقليل فى تطوير جامعة مسقط رأسى. أما كون هذه الجامعة كانت تحتوى على كرسى أستاذية للعلوم الإسلامية فهو ما أسعدنى بوجه خاص. وعلى هذا الأساس اشتركت فى فصل الشتاء الدراسى لعام ٢٠٠٠/٢٠٠١ فى حلقة بحث عن التصوف، والتى كان يلقيها للمرة الأولى زميلى الشاب جمال مالك (وهو باكستانى، أى يكاد يكون بلدياتى!). مما

يؤلمنى أن كراهية الأجانب فى إيرفورت أوضح منها فى غـرب ألمانيـا. وتؤلمنى بالدرجة نفسها سوءات الفهم الخاصة وغير المعقولة التى تقوم فـى مجابهة الإسلام، والتى كثيرًا ما تفاجئنى أو على الأرجح تفزعنى وتروعنى، ولكن الاندماج سيتقدم على ما نأمل وإن ببطء.

وفى ربيع ١٩٩٥ دعيت فى أكبر مفاجأة لى إلـى مرافقـة الـرئيس الاتحادى رومان هيرتزوج وزوجته إبان زيارة الدولة إلى الباكستان. ويا لها من سعادة رؤية الباكستان من جانب جديد، وأكثر من هذا التعرف من قريب على الرئيس الألمانى الفكه اللطيف! وإبان الاستقبال الرئاسى أشبهت قلعـة لاهور قصرًا سحريًّا؛ حيث احتفلنا بين الأضواء والألعـاب المائيـة. ولأن الرئيس الاتحادى مولود فى الخامس من أبريل وأنا فى السابع منـه، كانـت هذه الأيام بالنسبة إلينا بمثابة حفل مستمر. وقد تفوق السفير فى إسلام أبـاد على نفسه، بأن سحر الحديقة وزادها جمالاً. وقد استطعت أن أقدم للـضيف الكبير الكثير من أصدقائى القدامى، وفيما بين ذلك العدد الضخم من "أبنـاء إخوتى" السنديين الذين كانوا قد أصبحوا فيما بين ذلك أعضاء فى البرلمان. وما زلت أرى أمامى سارينا جولجيه زوجة الرسام الباكـستانى العبقـرى، وكانت تتزين بمجموعة متكاملة وفريدة من الأحجـار الكريمـة (أبـدعت وصممت من قبل ابنها). وما إن أبدت السيدة هرتزوج إعجابها بالمجموعـة حتى قامت سارينا وبسرعة البرق بخلعها وإهدائها إليها، كذلك قـام رشـيد بوت، أحد الخطاطين الأصدقاء، بإبداع لوحة خطية نادرة للرئيس، وسمح لى بأن أوصلها له. وهكذا كانت الرحلة عبارة عن سلسلة من التجارب الجميلة، سواء كانت الزيارة لسد تاربيلا العملاق أو للأعمـال الفنيـة البوذيـة فـى تاكسيلا، وكذلك تمت زيارة معهد جوته، والمؤسسات الاجتماعيـة وحتـى مباراة ألمانية باكستانية للهـوكى، وقـد انتهـت لحـسن الحـظ بالتعـادل صفر/صفر.

وبسرعة زرت بعد ذلك إيران للمرة الأولى بعد حوالى عشرين سنة. وقد ظهر البلد المفتقد لفترة طويلة بمظهر لطيف. وقد فعل مرافقى الفخـرى كل شيء ليريني المعالم الجديرة بالرؤية، وسمح لى للمرة الأولى بالـذهاب إلى مشهد وبأن أرى شيراز مرة أخرى (انظر ص٣٣١ وما بعدها).

وفى أول مايو ظهر ضيف غير منتظر ومعه باقة كبيرة من الورود، لقد كان جيرهارد كورتسا Kurtze رئيس بورصة تجارة الكتـب الألمانيـة، وأخبرنى بأننى حكم لى بجائزة السلام. وبالطبع ابتهجت للأمر مثلما فوجئت به. وبعد ذلك مباشرة كان يجب على أن أشترك فى أوترخت فـى مـؤتمر حول "التصوف وناقديه". ولأن القناة الأولى فى التليفزيون الألمـانى كانـت تريد مقابلة منى؛ فقد سافرت للتسجيل فى الإستوديو فى هيلفرسوم. ورغم أن مذيعة التليفزيون سابينا كريستيانزن كانت تسألنى فإننى لم أكن أراها، وإنما انظر فى خرم أسود أمامى وأتحدث. ولأن الجدال حول سلمان رشدى كـان يسيطر فى هذه السنوات على الصحافة والرأى العام؛ فإننى سئلت بالطبع عن "الآيات الشيطانية". وقد تنصلت بوضوح عن فتوى الخومينى. (بالمناسبة فإن كلمة "فتوى" تعنى ببساطة "حكمًا قضائيًا" وليس "حكمًا بالإعـدام". فالمـسلم الورع سيطلب فتوى إذا ما كان أو كانت أمـام أو أمامهـا عمليـة صـعبة العواقب، أو لديه سؤال عن الطهارة أو عن أشياء أخرى. فـإذا مـا كانـت الفتوى تطلب إعدامًا؛ فإنه ينبغى أن تدرس الحالة أولا أمام محكمة مدنيـة). غير أننى لم أجد مناصًا من ملاحظة أن رشدى بهجائيته تلك (والتى لا يتيسر لأوروبى لا يعرف التعبيرات المسلمة، أن يقرأها فى الترجمة، ولا أن يعرف مدى حدتها) "قد أهان المشاعر الدينية لملايين المسلمين". ثم كان استمرارى فى الحديث لأشرح تاريخ مشكلة "سب أو إهانة الأنبياء" فى العالم الإسلامى، ولكنى لم ألاحظ أن البرنامج كان قد انتهى، وذلك لأننى لم أكن أسـتطيع أن أرى المذيعة. ومن ثم بدأت عملية أشبه بمطاردة المشعوذات التى لـم أكـن

لأتوقع إمكانية حدوثها. أما أى ملاحظاتى هى التى جعلت المشاهدين - أو بعضًا منهم - مغتاظين هكذا؛ فهذا ما لم أعرفه حتى اليوم. وقد زاد مقال لتلميذى جيرنوت روتر فى جريدة "دى تسيت" الحالة سوءًا. لقد لاحظ - ليس بغير حق - أننى لست ملتزمة سياسيًّا كما تتطلب (تبعًا لفهمه) جائزة السلام. ولا أستطيع الآن - لحسن الحظ - أن أعيد الاتهامات التى كانت تزداد يوميًّا. وكان فى اللعبة الكثير من التدليسات، وللأسف فإن أيًّا من الذين انتقدونى بحدة لم يرنى مرة، ولا استمع مرة إلى محاضرة لى، ولا قرأ بعضًا من كتبى. على كل حال نقلت بعض الجمل خارج سياقها لأجل تفسيرها على غير وجهها. إذا قررت - وهو صحيح تاريخيا - أن "الإماء المغنيات كن فى عصر الإسلام الوسيط أشد غلاء"؛ فإن هذا يوصف - على سبيل المثال - بأنه تقويم إيجابى للعبودية، وتبدو رحلتى فى ربيع نفس العام لإيران، التى كانت الأولى والوحيدة آنذاك بعد ثورة ١٩٧٩، للبعض، وكأنها حلقة من سلسلة مستمرة من الارتباطات مع آيات الله.

وأصبح واضحًا بالنسبة إلىَّ أننى لم أدرك على الوجه الصحيح الكثير من التطورات فى السياسة الألمانية وفى الحياة الفكرية، وذلك لأننى كنت ولمدة ربع قرن فى هارفارد، وكنت فى الخريف ولمرات كثيرة فى البلاد الشرقية. لقد كنت مطلعة بالتأكيد على السياسة الباكستانية وعلى العالم الفكرى هناك بشكل أفضل مما فى ألمانيا التسعينيات. وكذلك لم أعرف أيضًا الكثير عن جيل ٦٨. لقد وجدت مظاهرات فى هارفارد، ولكن فقط على الهامش، وهذا يعنى أن ثوار هذا الجيل لم يكد ينتبه إليهم أو يكترث بهم من قبل علماء الفيلولوجيا المنغمسين فى أعمالهم العلمية؛ فقط كان علماء السياسة والاجتماع هم المهتمون بالدرجة الأولى بذلك. آنذاك جاءنى مرة طالب شاب مثالى يتعلم البشتونية، وذلك لأنه يريد أن يعمل فى حركة السلام فى شمال غرب الباكستان، وأشار إلى الشريط الأسود المعلق على ذراعه وقال:

"د. شيمل. سأشارك اليوم فى الإضراب، ولكن ألا يمكننا أن نسمى دورة اللغة البشتونية "حوارًا"؟ ومن ثم يمكننى الحضور، بينما لو أسميناه "تدريبًا"؛ فإننى لن أستطيع الاشتراك بسبب هذا الإضراب". ولم يكن أسهل من تحقيق رغبة هذا المضرب!

للأسف لم تكن رابطة الناشرين معينة فى دفاعى، لقد شعر الكثير من الموظفين، وهذا أمر طبيعى مفهوم، بالحيرة والارتباك فى اتخاذ مثل هذه القرارات الصعبة. وحينما اقترب شهر أكتوبر واقترب بذلك موعد منح الجائزة، نصحنى أحد المشرفين بأن أعتذر للمهاجمين (وذلك تبعًا لشعار: إن المقتول وليس القاتل هو المذنب). ولكنى اعترضت على ذلك بشدة، وهذا ما جعله فيما بعد يعتذر بباقة كبيرة من زهور البنفسج الداكنة. وقد سامحته، وذلك لأن اللون البنفسجى هو لون التوبة والكفارة. ولم تتسم ردود فعل بعض الزملاء، حتى وإن كانت رقيقة دقيقة، تمامًا بروح الزمالة. كانت أعصابى كالعارية، ولم أكن أعلم إذا ما كنت سأنجو على الإطلاق من هذه المطاردة، وكان المزمور رقم ٤٣ والمعوذتان بمثابة غذائى الروحى فى تلك الأسابيع.

ولكن وجدت أيضًا خطابات إيجابية مشجعة من أناس غير معروفين على الإطلاق، بل وقد تمكنت فى سبتمبر من إلقاء سلسلة من المحاضرات، حتى وإن كان قد صعب علىَّ ذلك. ورغم كل أعبائه الثقيلة؛ فقد بقى الرئيس الاتحادى هيرتزوج على وعده بإلقاء كلمة التقدير مع أن شخصيات ليست بالقليلة نصحوه بالرفض بشدة.

ثم جاء يوم ١٥ أكتوبر، وبعد أن أعطانى رجال اتحاد الناشرين على الإفطار بعض النصائح الجيدة مثل كيف أتصرف إذا ما بدأ البيض الفاسد والطماطم فى الطيران باتجاهى! ثم دخلت كنيسة بولس كما لو أننى أذهب إلى إعدامى. (وهذا ما سيكون أيضًا مفضلاً لدى فى هذه اللحظة)، ولكنه كان

أمرًا منعدم النظير؛ فكلما تقدم الحفل بدا وأن الضباب المقبض الذى كان قد ملأ قاعة الاحتفالات يأخذ فى الانقشاع، أصبحت القاعة رطبة النسائم، ساطعة مشرقة، وحينما بدأت بإلقاء كلمتى بدا وكأن كل شىء يتألق. لقد بدا لى وكأن صالة الكنيسة مملوءة بالملائكة التى تحيط بنا. لقد كان الأمر أقرب إلى أن يكون تجربة صوفية.

وقد ركزت فى كلمتى على أن مناهج العلوم والفنون مختلفة عن مناهج السياسة والصحافة، ولكن كلا الجانبين يضع أهمية الكلمة - الكلمة الحرة والكلمة المبدعة - فى المركز، وذلك لأن للكلمات سلطة طاغية يمكنها أن تفرق وأن تجمع. وإبان ذلك ركزت بالطبع مرة أخرى على شعارى المفضل الذى أخذته عن رويكرت "شعر العالم هو تسالم العالم". وحينما انتهيت لم توجد - ولله الحمد - أية طماطم قذفت باتجاهى، وإنما ترحيب حماسى وقوفًا. نظرت وكأنى فى حلم إلى المستمعين الذين وقفوا لتكريمى. مشيت خارجة إلى جانب الرئيس الاتحادى الذى قال مبتسمًا: "لقد كان بالتأكيد جيدًا أننا صمدنا معًا!". وكان عنده بالفعل حق. والآن كان يمكننى التمتع بطعام الحفل الذى حضر إليه الكثير من الضيوف. وقد جلس اليمنيون على طاولتنا، وكنت أرى الأصدقاء فقط فى كل مكان، حتى الكونتيسة دونهوف نفسها، والتى كانت قد أعطتنى فى المساء السابق "نصف بركة" تمكنت من أن أضحكها حينما قلت لها إن نصف بركة منها لها على ما يبدو تأثير بركة كاملة للناس الآخرين.

وقد تطورت كذلك علاقات جديدة. كون إيرفن فيكرت Wickert قد استقال من نادى القلم بسبب غضبه من تصرفه؛ فهذا ما علمت به فقط فيما بعد. كذلك نمت باستمرار وبشكل خصب رابطة جديدة فى بون مع كارين هيمبل - سوس Hempel-Soos، والتى تسمى "فنون بون الكاملة" وهى مديرة دار اللغة والأدب التى تكاد تجاور محل إقامتى. وقد تعرفت فى السنوات

الأخيرة بفضل صداقتها على عدد كبير من الناس من المشهد الفنى والثقافى فى بون، والذين فتحوا لى نواحى جديدة، وكان قطها بينو يتمدد بجمال على شرفتى.

كذلك ظهرت كتب جديدة، ولكن لم تصبح نشاطات السفر بذلك قليلة، وبدا لى أننى أصبحت بالتدريج وكأننى موظفة لكتابة المقدمات لكل من ألَّف شيئًا إيجابيًا عن الأمور الإسلامية، ولا ينبغى نسيان اللقاءات الصحفية، وزيارات الشاى القصيرة للمعارف الشرقيين أو غالبًا لأولئك الذين يريدون التعرف علىَّ، والذين كانوا غالبًا ما يتكاثرون بطريقة عجيبة: رجل استأذن فى المقابلة وبعد نصف ساعة أصبحوا ثلاثة، وذلك لأنه دعا صديقيه معه. وفى مثل هذه اللحظات كنت أحسد كبار الزمن القديم الذى كان لديهم مطبخ ضخم وعدد وفير من الخدم والحشم. (لدى واحدة وحيدة، وهى حقا مساعدة ودودة، والتى تأتى مرة فى الأسبوع للواجبات التى لا أقوم بها - إذا كان هذا ممكنًا - منذ وقت الخدمة الإجبارية).

ومما يندرج تحت نقاط الذروة لعام ١٩٩٦ مؤتمرا كان قد دعى إليه الأمير تشارلز بالقرب من لندن. وعلى الطاولة خضنا فى حديث طويل جميل حول الدين والشعر، والأمير مهتم على كل حال بالإسلام وبالتصوف. وقد أرسلت إليه بعض كتبى الإنجليزية، وفوجئت وسعدت كذلك بسبب خطاب شكره الشخصى جدًا والمكتوب بخط اليد.

وقد اتسعت دائرة رحلاتى، وحتى الآن لا يزال تقليدى الهزلى الذى كتبته عام ١٩٦٩ لأبيات غزلية لغالب صالحًا:

مرة أخرى وجد القلب عدم راحة،

لقد جاءت ساعات حزم الأمتعة،

مرة أخرى نغسل البلوزات ثانية،

ونكوى ما قد وجدناه مكسرًا.

مرة أخرى تنظر إلينا مؤنبة

خطابات على المكتب ردودها مؤجلة،

وتنظر إلينا مزق المخطوطات محملقة،

حزينة، أخ، مثل جروح فتحت من جديد.

مرة أخرى نبحث فى كل الحقائب،

حتى نجد الجواز وشهادة التطعيم،

نقرأ فى نسخة كتالوج،

بينما يقوم الحلاق بتزيين شعورنا.

مرة أخرى فى صالة مطار هاله الممتلئة

ننتظر لساعة أو ساعتين،

حتى نحشر فى الكرسى الوثير

جسدنا المتعب وروحنا المعذبة،

حتى أول كاس شيرى بعد الانطلاق

تختفى لساعتين كل الكربات.

على إثر مساجلة جائزة السلام أصبحت مشهورة فى العالم الشرقى، وهكذا تبع ذلك فى عامى ١٩٩٦ و١٩٩٧ زيارات إلى الكويت ومصر وسوريا والأردن والبلاد الأخرى. وفى أحد المؤتمرات تحت رعاية المعهد السويسرى فى إستانبول نوقشت العلاقات بين التصوف والموسيقى والتيارات الدينية الحديثة. وكان من ضمن المسرات الكثيرة التى عشناها فى هذا اللقاء

التعرف على الأوزبكية راضية سلطانوفا التى حكت عن بحوثها الميدانية حول التقاليد الموسيقية والدينية للأوزبكيات، والتى كانت تؤدى الأغنيات بأجمل صوت، وقد دعوناها عندليبتنا الأوزبكية.

وفى عام ١٩٩٨ احتفلنا فى الباكستان بالذكرى السنوية الأربعين لزيارتى الأولى لهذا البلد الذى كان نظامه السياسى يتغير بشكل دائم متكرر، وللأسف فإنه دائمًا يبدو وكأنه يصبح باطراد فوضويًا. وللمرة الأولى استطاع المرء مرة أخرى السفر إلى السند، الإقليم الذى لم يسمح لنا بزيارته فى السنوات السابقة، وذلك بسبب الاضطرابات المستمرة (توترات بين الأحزاب ومهربى المخدرات وما يشبه ذلك). وكثيرًا ما كانت تحدث اعتداءات أيضًا فى كراتشى، حرائق وما يشبه ذلك. وقد زادت التهديدات كذلك للمعاهد الألمانية. الآن يبدو كأن الأمر قد أصبح هادئًا. وقد تمتعت مرة أخرى بزيارة الضريح العزيز لشاه عبد اللطيف فى بهيت شاه، وأن أسافر مع آخرين إلى لقاء الشعراء فى حيدر أباد (السند)؛ حيث جلس ما لا يقل عن أربعين سيدة سندية على خشبة المسرح لينشدن أشعارهن الخاصة، وهى أشعار لم تكن تتغنى فقط بالأوصاف القديمة لعذاب روح النسوة المحبات المعزولات عن أحبائهن مثلما هو الموضوع التقليدى للشعر السندى، وإنما أيضًا تثور ضد اضطهاد النساء وتعبر عن أمانيهن فى حرية أكبر، وذلك فى كلمات كانت بشكل جزئى قوية جدًا. (إحداهن قامت بالمناسبة أيضًا بإلقاء أشعارها التى ترجمت من قبلى فى بيت ثقافات العالم فى برلين). لقد كان احتجاجًا مؤثرًا. ويشبه هذا كلمات الشوق إلى الحرية التى استمعت إليها أيضًا من الشاعرات اليمنيات والسودانيات.

وللمرة الأولى منذ عام ١٩٩٣ طرت فى عام ١٩٩٦ إلى الولايات المتحدة الأمريكية؛ حيث منحت جائزة التفوق من قبل شركة تليفزيون مسلمة فى لوس أنجليس، وأخيرًا تحدثت فى أوتا، ولكن فيما بين ذلك تمتعت فى

بالو ألتو بالضيافة القلبية الودودة من كاتارينا مُومزن وزوجها، وبالطبع كان جوته والشرق هو موضوعنا المركزى، ولكننا سعدنا أيضًا بجمال الحديقة وبجمال شاطئ المحيط الهادئ.

كذلك كانت دائرة أهدافى فى ألمانيا تتسع باستمرار، هنا كانت محاضرات فى دار لودفيج- بيش؛ حيث المركز الجزويتى فى لودفيجهافن، وحيث أتحدث بسرور، وقد زاد السرور حين كان لدى الرهبان بعض من القطط الجميلة، والتى كانت إحداهن تستمع فى قاعة المحاضرة لكلماتى الحكيمة حول التصوف أو الشعر. وكانت هامبورج توجد لمرات كثيرة على البرنامج، وفيما بين عديدين قدمنا فى إحدى الكنائس مع إحدى الجماعات الصوفية الألمانية قراءة من ترجمتى "لمنطق الطير" للعطار (التى كانت قد ظهرت مباشرة فى المكتبة الشرقية). وقد تعرفت على ريجنسبورج وباساو وأيشتتت الجميلة من خلال محاضرتى، وأخيرًا استطعت زيارة درسدن؛ حيث حلمت منذ أيام الطفولة بزيارة متحف جرونم- جفولبه. أليس مشهد "يوم مولد أورنجزيب" الذى أبدعه دينجلينجيرس Dinglinger[١٨٤] لأغوست القوى August der Starken[١٨٥] تحفة فن الأشغال الذهبية وعملاً فى غاية الأهمية؟ يظهر أحلام الأوروبيين عن مملكة المغول العظام فى الهند، والتى كانت تبدو لهم وكأنها أفضل مثال لمملكة الجواهر. وذهبت فى فبراير ١٩٩٧ أستاذة زائرة لوقت قصير إلى جامعة أولم. وفى البرد القارس رأيت للمرة الأولى كاتدرائية أولم الجميلة ونبع "القدر الزرقاء" المعروف لدىَّ منذ طفولتى من قصة موريكه Mörike[١٨٦] القصيرة عن "اللاو" (الماء) الجميل.

وفى صيف ١٩٩٧ كان الوقت قد حان لإجراء عملية بالليزر فى عينيى - فرصة عظيمة اجتزتها فى لمح البصر وبنجاح كبير. ليس فقط المياه البيضاء هى التى "وخزت"، وإنما أصلح كذلك بدرجة كبيرة قصر نظرى الشديد، حتى إننى استطعت أن أنجز الكثير دون نظارة. ياله من

شعور رائع أن يرى المرء النجوم بالعين المجردة، وأن يستطيع التعرف على ألوان الطيور فى الحديقة!

أما التجربة المفرحة الخاصة فكانت أسبوع الإسلام فى بريمن. هناك أخذت على عاتقى أن أتحدث فى قاعة مجلس البلدية عن العلاقات المستمرة لقرون طويلة بين الشرق والغرب، وأن أركز على الدور الإيجابى للإسلام فى تاريخ العالم. كانت المدينة الهنزية[١٨٧] المفتوحة على العالم وإدارتها متقبلين الإقدام على مثل هذه المغامرة بشدة. بالطبع لم تفتقد ليلى فى بريمن، وهى مصممة الأزياء الأفغانية الجميلة التى تبدع ملابس نادرة ممتازة، والتى قمنا معا فى بعض الأحيان بتنظيم عروض أزياء فى غرب ألمانيا لصالح اتحاد النساء الأفغانيات، وهذا ما نريد مواصلة عمله. وتيسر لى أن أرى مرة أخرى جنة طفولتى كارولين - زيل.

فى هايدلبرج احتفلنا فى المعهد الألمانى - الأمريكى لأول مرة فى ١٧ ديسمبر ١٩٩٧ بذكرى وفاة مولانا الرومى، وكان الاحتفال بهذا الممثل الكبير للشعر الصوفى فى الإسلام مصاحبًا من قبل مجموعة صغيرة من الموسيقيين الأتراك الذين يغنون أشعار الدراويش. ومنذ هذا الوقت ونحن نلتقى بعضنا البعض كل عام فى هذا اليوم.

كذلك تطورت العلاقات مع جامعة يينا؛ فقد طور المعهد الأوروبى هناك تحت إشراف البروفسير تسفينا Zwiener منذ بعض الوقت برنامجًا عميقًا يتجاوز التخصص ويربط الشعوب. وحينما تحدثت هناك فى يناير ٢٠٠١ لم ألتق فقط بألفريد جروسير Grosser وهانز كوشنيك Koschnik، وإنما أيضًا بشاعر النغمات الخافتة براينر كونزا Kunze. ولم تقتصر محاضرتى الأولى فى يينا قبل سنوات فقط على تقريظ دار نشر أويجن ديدريشس التى تأسست فى يينا، وإنما مهدت أيضًا لمحاضرة أخرى دارت فى نطاق العلوم الطبيعية، وذلك أنها اهتمت - اسمعوا وتعجبوا! - بالنحل

فى الثقافة الإسلامية. وكان عميد معهد علوم النحل البروفسير هينتشل Hentschel فى غاية السرور لأن يسمع أننى عرضت فى محاضرتى لمدى أهمية النحل فى الثقافة الإسلامية. ألم يُشرْ فى سورة النحل إلى أنها كائن ملهم وموحًا إليه(١٨٨) من الله؟ ألم يشر الشعر الشعبى إلى أن العسل (وكان الطعام المفضل لدى النبى محمد) يصبح فقط حلوًا من خلال طنين النحل، وذلك لأنه يلهج فى طنينه بصيغة الصلاة والسلام على النبى؟ (وأذكر لأجل إطراب القارئ، أننى تحدثت مرة فى بون عن "الخفاش فى الإسلام"). وقد أدت حفلة يينا إلى لقاء مؤثر؛ حيث جاء إلىَّ شاب وسألنى: "أرجو أن تسامحينى. لقد تظاهرت ضدك أمام كنيسة القديس بطرس. هل يمكنك مسامحتى؟! فالآن أعلم أنه لم يكن لدى حق".

وهنا أشير أيضًا إلى أننى قضيت إجازة أسبوعية فى وقت ما من عام ١٩٩٨ فى جوستروف (مدينة بارلخ Barlach)، وذلك حتى أتحدث هناك لمدة ثمان وأربعين ساعة بوصفى المؤانسة الوحيدة فيما يخص الإسلام فى مؤتمر الكنيسة الإنجيلية. ورغم أن الجهد لم يكن قليلاً والرحلة لا تريد أن تنتهى، فإننى كنت سعيدة أننى تعرفت على المدينة وعلى الناس المتعطشين للمعلومات عن الإسلام.

وكم كان مريحًا ذلك المؤتمر عن الخط الزخرفى الإسلامى فى أرسيكا فى إستانبول؛ حيث عرضت المعمارية التركية الموهوبة جدًا أومران تتجان شيللنج Tezcan-Schelling فى تصميماتها غير المألوفة للصيغ العربية الدينية. فيما بين الخطاطين المحدثين؛ فإنها بالتأكيد الوحيدة التى طورت أسلوبًا معماريًّا صارمًا، والذى يقدم مفاجآته الدائمة. ولأننى كنت محظوظة هذه المرة بأن أقيم لدى حكمت باروتجوجيل Barutçugil المعلم الأكبر لفن صناعة ورق المرمر "إبرو"؛ فإننى تمتعت من كل قلبى بهذا الوقت القصير. لا يوجد شيء يمكن له أن يدمر صورة إستانبول! وقد التقيت بالأصدقاء

القدامى مرة أخرى، وفيما بينهم مدرسى لفن الخط على ألب أرسلان من أنقرة الذى كان – ومنذ فترة طويلة – أستاذًا على المعاش للتاريخ الإسلامى، ولاحظت كذلك كيف يعمل حكمت بك على عمله الضخم الذى يعرض فيه لتقنيات وتاريخ فن صناعة ورق المرمر الذى أصبح فى السنوات الأخيرة وبشكل دائم محببا فى الغرب.

وقد أشبهت السنوات التالية أوراق المرمر الملونة برحلات إلى طاجيكستان وأوزبكستان والبحرين وإيران، ومرة أخرى تركت نفسى أثناء مؤتمر لأرسيكا لأسحر من قبل إستانبول. وقد أسعدنى آنذاك أن سمح لى بتسليم جائزة امرأة شابة تعانى شللاً فى نصفها الأيمن وتكتب فن خط رائع بيسراها، كذلك ألقيت لمرة أخرى محاضرات فى الولايات المتحدة الأمريكية وزرت الأصدقاء يورجن وماجدة ساروبوج Chrobog فى واشنطن، كما زرت متحف دى ميزنيل الرائع فى هيوستن، وعلمت اللاهوتيين فى هارفارد قليلاً حول اليوم الآخر. وإلى جانب ذلك وجدت عددًا كبيرًا من رحلات المحاضرة فى ألمانيا، ومؤتمرات فى إنجلترا، ويجب ألا أن ننسى الحفل الجميل فى الأكاديمية الإنجيلية فى توتسينج، والذى منح فيه الرئيس الألمانى السابق هيرتزوج جائزة التسامح، وألقى الأمير حسن الأردنى كلمة رائعة. كانت الطبيعة تتلألأ تحت شمس مايو الساطعة بالضبط مثلنا نحن المشتركين (أم كان الأمر على العكس؟) ثم كان لقاء جنكيز إيتماتوف Aytmatov هدية إضافية بالنسبة إلىَّ، وقد قدمت قراءته ومحاضرته فى المساء السابق على الحفل نظرة عميقة فى العالم السحرى والصوفى الغريب لوطنه القرقيزى.

وفى عام ١٩٩٩ دعى للمرة الأولى أحد الزملاء إلى بون ليتحدث فى سلسلة المحاضرات التى أسست من قبلى، وذلك أننى تبرعت بعد جائزة السلام بالمبلغ الذى حصلت عليه بالإضافة إلى مال جائزة ليوبيد لوكاس لصالح جامعة بون، وذلك حتى تتيسر إمكانية أن تلقى محاضرات عن الثقافة

الإسلامية، وبالدرجة الأولى من قبل مسلمين، وذلك حتى يحصل الطلاب على نظرة على الأوجه المختلفة للإسلام. ولأن الجامعة مشكورة قد زادت المبلغ؛ فإننا نستطيع الآن أن ندعو واحدًا كل عامين. فى عام ١٩٩٩ كان زميلى فى هارفارد المؤرخ روى متحدة، وفى عام ٢٠٠١ كانت داعية حقوق المرأة المغربية فاطمة المرنيسى.

ومن بين التجارب الشخصية لعام ٢٠٠١ احتل المقدمة أحد الحوادث المميزة، وقد تمثل فى زيارتى لسراييفو التى أعطتنى نظرة على محاولات الطبقة المثقفة المسلمة للبوسنة أن تعطى مرة أخرى مستقبلاً آمنًا للبلد المعذب. وقد تمثلت قمة الرحلة فى زيارة إلى تكية دراويش بلاجاى القديمة بالقرب من موستار المدمرة. يلتصق المبنى القديم بحائط صخرى شامخ يتدفق منه نهر قوى فاتح الاخضرار. هنا لا بد من أن يكون سارى سالتوق Saltuk أول رسل الإسلام الصوفى قد مارس تأثيره، وذلك قبل السيطرة على البلقان من قبل العثمانيين. ألا يبدو أن هذا النهر وكأنه من دموع هذا المتصوف القديم الذى يبكى على مصير بلده؟ وهناك جلست جماعتنا الصغيرة فى حجرة اجتماع التكية وشرع نزيه بك، أحد موسيقيى المولوية المشهورين فى إنشاد أغانى الدراويش التركية القديمة:

حبى لك أخذنى منى

أريدك فقط أنت بمفردك...

وهى كلمات تحولت آنذاك ببطء إلى ذكر دراويش.

ومن بين المفاجآت الكبرى لعام ٢٠٠١ أن مدينة بفورتسهايم قد منحتنى جائزة رويشلين Reuchlin[١٨٩]. وقد دار موضوعى حول القول المأثور لهذا الإنسوى[١٩٠] العظيم:

"لم أتتبع مرة شيئًا بمثل ذلك التوتر الداخلي، وبمثل هذه الرغبة في المعرفة مثل تتبعي للدراسة المتنوعة للغات الأجنبية، حتى إنني لا أشك في أنني اقتفيت العلامة التي تتقد في روحي، ولذا لم أقض مرحلة في عمري ولا جزءًا من حياتي دون محاولة لتحقيق هدف ما يقود إلى التعرف على مذهب أجنبي نافع، وتوصيل لغات هذه الشعوب إلى معاصرينا فيما بعد، ولكن ليس بأن أتطلع إلى المعالي، وإنما بأن أقنع بالمتواضع الميسور".

لقد حاولت أن أرى هذا الإنسوي المولود عام ١٤٥٥م في سياق عصره الذي شهد الانقلابات الكبرى في التاريخ الغربي وفي التاريخ الإسلامي أيضًا: فمن ناحية اكتشاف أمريكا، وحروب الاستعادة الإسبانية، وكذلك عصر الإصلاح، وهي أحداث غيرت من الأساس صورة العالم التقليدي. ومن ناحية أخرى فلم يتم فقط - وفي الوقت نفسه - القضاء على الحكم الإسلامي في الأندلس، وإنما أيضًا على دولة المماليك التي غلبت على أمرها، بعد أن استمرت لمدة قرنين ونصف قرن، من قبل دولة العثمانيين القوية عام ١٥١٦م مما جعل تركيا أكبر قوة مسيطرة في شرق البحر المتوسط. وفي إيران استولى الشاب إسماعيل الصفوي عام ١٥٠١م على الحكم، وجعل الصيغة الشيعية للإسلام دينًا رسميًا للدولة، مما جعل إيران تختلف حتى اليوم عن بقية الدول الإسلامية، وتقف نوعًا ما مثل إسفين بين الدول ذات الأغلبية السنية، ومن هنا كان ينظر إليها من قبل الغرب في بدايات القرن الخامس عشر بوصفها حليفًا ضد الأتراك. وأخيرًا - وفي الوقت نفسه - تفككت بقايا المملكة التيمورية في سمرقند وهيرات، بينما قام حفيد آخر لتيمور هو بابر بعد غزوات مملوءة بالمغامرة عام ١٥٢٦م بتأسيس إمبراطورية المغول في الهند، والتي ينبغي لها أن تظل قائمة حتى عام ١٨٥٧م، ولكن سقطت المدن الأصلية للتيموريين، سمرقند وبخارى، في

أيدى الشيبانيين، وهم أسلاف الأوزبكيين المعاصرين. وهكذا كـــان يمكـــن للمرء أن يرى رويشلين بوصفه عالمًا يقف عند نقطة تحول للتاريخ.

بعد وقت قصير احتفلت كلية اللاهوت بجامعـــة مـــاربورج باليوبيـــل الذهبى لرسالتى للدكتوراه. ربما كنت الوحيدة التى تتذكر المشاحنات التـــى جرت وقت منح هذه الدكتوراه. الآن نسى كل شيء، وكنت شـــاكرة لأجـــل كلمة التقدير، وحاولت فى محاضرة الاحتفال أن أوضح رؤيتى عن تحولات علم تاريخ الأديان. وفى نوفمبر فاجأتنى العضوية الشرفية لجمعية أصـــدقاء الفنون والثقافة الإسلامية الموجودة فى ميونخ. وهل يمكننى فيما بين أحداث عام ٢٠٠١ أن أنسى المعرض الفاتن عن "الزخرفة والتجريد" فـــى متحـــف بيلير فى الراين، والذى ألفت له نص الكاتالوج؟ هناك يمكن للمرء أن يتعرف بوضوح على الترابطات الداخلية بين الشرق والغرب، والتى تدهش وتفـــتن الزائر دائمًا. وبين الارتباطات الكثيرة الواجبة قرب نهاية العام - وفيما بين ذلك كانت رحلة محاضرات إلى الرياض (انظر ص٣٢٣) - كانت إحـــدى نقاط الذروة ندوة فى كولونيا مع الروائى التركى أورهان باموق الذى تحتوى روايته ذات المستويات المتعددة " اسمى أحمر" على تحليل ممتـــاز للفنـــون الإسلامية. ويالها من متعة إدارة حوار ألمانى - تركى عـــن هـــذا العمـــل الروائى!

ولكن فيما بين ذلك وقع الحادى عشر من سبتمبر، فبعد ربيع جميـــل نشط وتسمم دموى ملغز جعلنى لا أستطيع تحريك ذراعـــى الأيمـــن جـــاء الهجوم على مركز التجارة العالمى فى نيويورك. بالنسبة إلى المتـــضررين كان الأمر غير متوقع تمامًا، وذلك لأن الولايات المتحدة الأمريكية لم تعـــانِ قط هجومًا بالقنابل فى بلادها. وكان على المـــرء أن يعطـــى الكثيـــر مـــن الحوارات حتى وإن لم يقنع الناس؛ فعلى الأقل لينبههم إلـــى أنـــه لا يمكـــن مساواة الإسلام بالإرهاب، وإلى أنه ليس كل مـــن يركـــز علـــى النـــواحى

الإيجابية للحضارة الإسلامية صديقًا للإرهابيين. وهل يسمح للمرء بأن ينسى أن الولايات المتحدة الأمريكية، ولأجل بناء خط أنابيب البترول، ولمناهضة الروس قد ساعدت طالبان فى البداية بشدة؟ ومن ناحية أخرى فإن طالبان تطبق فهمًا ضيقًا بطريقة غير معهودة للإسلام، وهو فهم مرفوض من أغلب المسلمين، وقد اشتد هذا الفهم ضيقًا من خلال التقاليد القبيلة البشتونية الغالبة؟ لقد نشطت الآن مرة أخرى التوترات المدفونة فى الثقافة الغربية، وبدا الحوار العميق والمأمول بين الثقافات مهددًا أكثر من قبل. لقد كانت أسابيع مملوءة بالألم بالنسبة إلىَّ، وكذلك كان الأمر مع ضرب أفغانستان الحبيبة والمسكينة بالقنابل.

ولكن ربما تصدق هنا أيضًا الحكمة القديمة التى تقول بأن شيئًا من الخير ينمو من الشر مرة أخرى. ألم يركز مولانا الرومى دائمًا على أن طاقات جديدة تتولد من الألم؟ ألا يجب أن تشق الأرض من قبل المحراث، وتفلق البذور من قبل الأرض، وأن تطحن السنابل، وأن يخبز العجين، وذلك حتى يغذى الخبز الإنسان؟ ربما يمكن لمثل هذه الأفكار أن تساعدنا حتى نرى شيئًا معقولاً فى التدمير الذى يبدو غير معقول. ألا يجب على المرء أن يكابد فى أعماقه دائمًا جملة جوته "مت وكن" (تلك التى عبر عنها فى رمزه عن اللهب والفراشة، وهو الرمز الذى يأتى من التصوف الإسلامى)، وذلك حتى يمكنه عمومًا أن يذلل صعوبات الحياة ويتغلب عليها؟

وهذا ما يسرى أيضًا على النطاق الخاص. أنا نفسى لا أستطيع إلا أن أكون شاكرة فقط، شكرًا بلا نهاية، لكونى وصلت إلى هذه النقطة من حياتى، وأننى استطعت – دون سكرتيرة ودون مساعدين ودون كومبيوتر ودون سيارة ودون إجازة أو نشاطات رياضية – أن أعمل كثيرًا بقدر ما تمنيت، وأن لى أصدقاء جيدين، وعلاقات إنسانية بهيجة، وتلاميذ ناجحين حول كل العالم، وأننى نجوت حتى الآن من الأمراض الثقيلة (باستثناء بعض تجلطات

وتخثرات الدم). فإبان ولادتى لم تكن توجد مصطلحات من قبيل كولسترول أو حساسية، أو لم يكن يوجد على الإطلاق ما يدعى بالجتلاج Jetlag، ومن ثم فأنا لا أعانى من هذه الرزايا. وللعناية بصحتى اهتم بى منذ وقت طويل وبنجاح كبير طبيبى للعلاج الطبيعى كريستيان كيللرسمان، مدعومًا فى هذا من قبل قطه هاينرش ذى الحضور القوى المتألق، والذى مُسح من قبل كل من يهودى مينوهين Menuhin والدلاى لاما.

بالطبع لم يكن من السهل دائمًا أن أواصل السير على الطرق التى وجهت إليها مرة، أو ألا أنحرف عن هدفى، ولكن المرء لا يتحدث عن الدموع الكثيرة أو عن خيبة الآمال أو عن المشاكل الإنسانية؛ فهذا شىء لا يعنى أحدًا. وقد أحببت منذ طفولتى هذه العبارة من رسالة القديس بولس إلى أهل رومية: "ونحن نعلم أن كل الأشياء تعمل معًا للخير للذين يحبون الله"(١٩١).

وإذا ما كان المرء يرمينى المرة بعد الأخرى بأننى أرى الإسلام بصورة رومانتيكية؛ فإننى يمكننى فقط أن أجيب بمقولة القديس أغسطين: res tantum cognoscitur quantum diligitur "المرء يستطيع أن يفهم شيئًا ما فقط على قدر ما يحبه". ولأننى ومنذ طفولتى قد أحببت عالم الشرق، ولأننى أتواصل مع المسلمين بلغاتهم، ولأننى عشت مع أسرة مسلمة متدينة؛ فإننى أعتقد أيضًا أننى يمكننى أن أفهمهم بعض الشىء. وكم كان ماكس رويشنر Rychner مصيبًا فى قوله فى خطابه عام ١٩٢٩ إلى كارل ياكوب بوركهارد: "المرء يعرف فقط الناس الذين يحبهم أو يتصادق معهم. المشاعر تُرى أعيننا كل شىء أكثر ثراءً وأكثر تنوعًا وتدرجًا، أنها تُرى جوهر الآخرين فى وفرته التامة وقيمته الكاملة".

وإذا ما كنت أترجم الشعر بسرور؛ فذلك لأننى أتفق مباشرة مع هردر الذى كتب قبل قرنين ونصف القرن: "تعرف من خلال الشعر الأزمان والأمم

معرفة أعمق بالتأكيد من تلك التى تتم عن طريق تاريخ السياسة والحروب المخيبة والحزينة". وهذا ينطبق أيضًا على الفنون. ويعلمنا تاريخ الأديان أن الإنسان لا بد من أن يقارن المثل العليا ببعضها البعض، وذلك حتى يفهم بقدر الإمكان ثقافة أجنبية ما، وينبغي على المرء أن يعترف بالطيب فيها ولا ينتقص من قيمته.

ماذا سيحضر المستقبل؟ لا أعرف، ولكنى أستطيع فقط أن آمل فى السلام، وفى تفاهم أفضل، واحترام للآخرين. وأنا أتبع هنا الكلمة المأثورة للبحارة، والتى تعلمتها من أمي: "الأمل فى الأفضل، والاستعداد للأسوأ". وعلمتنى أيضًا أن أتجنب الهموم الفارغة، وذلك مثلما فى القصة الشرقية التى كانت محببة إليها جدًا: "مائة ماتوا بسبب الطاعون، ولكن مات ألف بسبب الخوف منه"، وهى تبدو لى نصيحة حكيمة لمجتمعنا الذى يغرق يوميًّا فى التحذيرات الجديدة والأخبار المبلبلة والمحيرة.

وماذا أتمنى لنفسى شخصيًّا، وذلك لأننى أنهى هذا العرض الشامل لبعض التجارب والحوادث المؤثرة فى ليلة رأس السنة من عام ٢٠٠١ إلى عام ٢٠٠٢؟ هنا أردد مع شاعرى المستشرق المبجل فريدريش رويكرت:

إذا ما مت غدًا؛
فقد عملت ما يكفي.
وإذا ما أعطيت عشر سنين أخرى
فإن لدى من العمل ما يكفي.

ثم أتذكر شعار طفولتى: "الناس نيام فإذا ما ماتوا انتبهوا"، وأنا أعتقد فى البعث الذى لا نستطيع أن نصفه ولا أن نتصوره:

وذلك حتى نحلق ونختفى
فى الحب الأبدى.

تقديم الشكر

لعب الكثير من الناس دورًا إبان إخراج هذه السيرة الذاتية؛ فلهم جميعًا الشكر، سواء أكانوا فى إيرفورت أم فى الولايات المتحدة الأمريكية، أم فى أوروبا أم فى آسيا، الشكر لصداقتهم التى أثرت حياتى وما زالت. وكما يحدث كثيرًا جدًا أسهم د. شمس أنورى- الحسينى، بالزخرفة الخطية العربية للشعار. وسمحت دار أونل Önel فى كولونيا بمقاطع طويلة من كتابى "أخى إسماعيل" الذى صدر عام ١٩٩٠. أما هيئة التحرير بالدار فقد طورت هذا المخطوط الذى كتب فى ظروف صعبة، حتى أصبح كتابًا مقروءًا. الشكر للسيد الدكتور أورليش نولتا Nolte وإلى التى لا تكَلّ أنجيليكا شنيدر Schneider!

بون، عيد العنصرة

أنّا مارى شيمل

ملاحق

قائمة أعمال أنا مارى شيمل (اختيار الناشر الألمانى)

ملحق الصور (اختيار الناشر الألمانى)

قائمة أعمال أنّا مارى شيمل
(اختيار الناشر الألمانى)

تسجل هذه الببليوجرافيا فى ترتيب زمنى مسلسل الطبعات الأولى للمؤلفات والترجمات المهمة لأنّا مارى شيمل. ويركز الاختيار على الإصدارات الذاتية والمحاضرات المهمة التى نشرت فى كتيبات. وقد وُضعت الترجمات إلى الألمانية بعد عنوان الأصل المترجم. أما الترجمات إلى لغات أخرى فلم يجر تسجيلها هنا، وكذلك لم يهتم بالمقالات والمقدمات والدراسات الصغيرة.

1943

- Kalif und Kadi im spätmittelalterlichen Ägypten.
  الخليفة والقاضى فى مصر فى العصور الوسطى المتأخرة.
  Die Welt des Islams 24, Leipzig (Harrassowitz).

1945

- Index zur Chronik des Ibn Ijas. فهرس لتاريخ ابن إياس.
  Istanbul.

1947

- Yakub Kadri. Flamme und Falter. Ein Derwischroman. Gummersbach
  يعقوب قدرى: اللهب والفراشة. رواية عن الدراويش (مترجمة عن التركية).
  Florestan.

1948

- Lied der Rohrflöte. (Ghaselen). ترنيمة الناى. (غزليات).
  Hameln (Seifert).

1949

- Die Bildersprache Dschelaladdin Rumis.

اللغة التصويرية عند جلال الدين الرومى.

Walldorf Hessen (Verlag für Orientkunde).

1951

- Ibn Chaldun. Ausgewählte Abschnitte aus der muqaddima..

ابن خلدون: مقاطع مختارة من المقدمة. (مترجمة عن اللغة العربية).

Tübingen (Mohr).

1952

- Lyrik des Ostens, hg. Von Wilhelm Gundert, Annemarie Schimmel und Walter Schubring.

شعر الشرق ترجمة وكلمة ختامية عن الشعر فى الشرق الأدنى (بالاشتراك مع فيلهلم جونديرت وفالتر شوبرنج).

München (Hanser).

1955

- Abu 'l-Hasan ad-Dailami: Sirat ash-shaikh al-kabīr Abū-Abdallah Ibn khafif aş-Şirāzī,

أبو الحسن الديلمى: سيرة الشيخ الكبير أبو عبد الله ابن خفيف الشيرازى. (نص محقق نشرته كلية الإلهيات بأنقرة).

Ankara (Ankara Üniversitese Ilâhiyat Fakültesi).

1957

- Muhammad Ikbal. Das Buch der Ewigkeit.

محمد إقبال: كتاب الخلود. (ترجمة إلى الألمانية عن الفارسية).

München (Hueber).

1958

- Dinler tarihine giriş.

Ankara (Güven Matbaasi).

- Muhammad Iqbal: Cavidname.

محمد إقبال: جاويد نامه. (ترجمة كتاب الخلود إلى التركية وشرحه).

Ankara (Türk Tarih Kurumu Basimevi).

1961

- Ernst Trumpp. A Brief Account of his Life and Work.

إرنست ترومب: ملخص قصير لحياته وأعماله.

Karachi (The Pakistan-German Forum).

صدرت الطبعة الألمانية للكتاب نفسه فى عام ١٩٩٨.

1963

- Gabriel's Wing. A study into the religious ideas of Sir Muhammad Iqbal.

جناح جبريل، دراسة فى الفكر الدينى عند السير محمد إقبال.

Leiden (Brill).

- Muhammad Iqbal: Botschaft des Ostens. (Als Antwort auf Goethes West-Östlichen Divan).

محمد إقبال: رسالة الشرق بوصفها إجابة على الديوان الغربى الشرقى لجوته. (ترجمة ألمانية عن الفارسية).

Wiesbaden (Harrassowitz).

1964

- Maulana Dschelaladdin Rumi. Aus dem Diwan.

مولانا جلال الدين الرومى، من الديوان. (ترجمة ألمانية عن الفارسية).

Stuttgart (Reclam).

1965

- Pakistan. Ein Schloss mit tausend Toren.

باكستان، قصر ذو ألف باب.

Zürich (Orell Füssli).

1967

- Weltpoesie ist Weltversöhnung.
شعر العالم هو تسالم العالم.
Schweinfurt.

1968

- Al-Halladsch. Märtyrer der Gottesliebe.
الحلاج، شهيد الحب الإلهى. (ترجمة ألمانية عن العربية والفارسية والتركية والسندية والأردية).

Köln (Hegner).

- Muhammad Iqbal. Persischer Psalter.
محمد إقبال: مزامير فارسية. (ترجمة عن الفارسية والأردية والانجليزية)
Köln (Hegner).

1969

- John Donne. Nacktes denkendes Herz.
جون دون: قلب يفكر عاريا. (ترجمة عن الإنجليزية).

Köln (Hegner).

1970

- Islamic Calligraphy (Iconography of Religions 22,1).
فن الخط الإسلامى. (سلسلة إيقونات الأديان).

Leiden (Brill).

1971

- Mirza Asadullah Ghalib. Woge der Rose – Woge des Weins
ميرزا أسد الله غالب: موج الورد وموج الخمر. (ترجمة ألمانية عن الـديوان الفارسى والأردى).

Zürch (Verlag der Arche).

1973

- Aus dem goldenen Becher. Türkische Lyrik vom Mittelalter bis heute.
من الكأس الذهبية، الشعر التركى منذ العصور الوسطى وحتى الآن.
Istanbul (Milli Eğitim Basimevi).
- Islamic Literatures of India (in: A History of Indian Literature 8,1).
الآداب الإسلامية الهندية. (فى: سلسلة تاريخ الآداب الهندية).
Wiesbaden (Harrassowitz).

1974

- Sindhi Literature (in: A History of Indian Literature 9,1).
الأدب السندى. (فى: سلسلة تاريخ الآداب الهندية).
Wiesbaden (Harrassowitz).

1975

- Classical Urdu Literature from the Beginning to Iqbal (in: A History of Indian Literature 8,3).
الأدب الأردى الكلاسيكى منذ البداية وحتى إقبال (فى: سلسلة تاريخ الآداب الهندية)
Wiesbaden (Harrassowitz).
- Mystical Dimensions of Islam. الأبعاد الصوفية للإسلام
Chapel Hill (University of North Carolina Press).
صدرت الطبعة الألمانية للكتاب نفسه فى عام ١٩٨٥ تحت عنوان:
Dimensionen des Islam. Die Geschichte des Sufismus.

1976

- Pain and Grace. A Study of Two Mystical Writers of 18th- Century Muslim India.
الألم واللطف: دراسة عن كاتبين متصوفين من مسلمى الهند فى القرن الثامن عشر

Leiden (Brill).

1978

- Denn Dein ist das Reich. Gebete aus dem Islam.

  الملك لك: أدعية إسلامية. (ترجمة ألمانية عن العربية والفارسية والتركية).

  Freiburg (Herder).

- Rumi. Ich bin Wind und du bist Feuer. Leben und Werk des großen Mystikers.

  الرومى. أنا ريح وأنت نار. حياة ومؤلفات الصوفى الكبير.

  Köln (Diederichs).

  ظهرت الترجمة الإنجليزية فى بوسطن عام ١٩٩٢.

- The Triumphal Sun. A Study of the Works of Jalaoddin Rumi.

  الشمس الظافرة. دراسة فى أعمال جلال الدين الرومى.

  London (Fine Books u.a.).

1979

- A Dance of Sparks. Dudies in Ghalib's Imagery.

  رقص الشرر. دراسات عن المجاز عند غالب.

  New Delhi (Ghalib Academy).

1980

- Islam in the Indian Subcontinent (in: Handbuch der Orientalist 2,4).

  الإسلام فى شبه القارة الهندية. (فى: كتيبات الاستشراق).

  Leiden (Brill).

- Märchen aus Pakistan. حكايات من باكستان. (ترجمة عن السندية).

  Düsseldorf u.a. (Diederichs).

1981

- German Contributions to the Study of Indo-Pakistani Linguistics.

إسهامات ألمانية فى دراسة اللغات الهندو – باكستانية.

Hamburg.

- Und Muhammad ist Sein Prophet. Die Verehrung des Propheten in der islamischen Frömmigkeit.

ومحمد رسوله. تبجيل الرسل فى الدين الإسلامى.

Düsseldorf (Diederichs).

صدرت الترجمة الإنجليزية للكتاب فى لندن ونورث كارولين عام ١٩٨٣.

1982

- As Through a Veil. Mystical Poetry in Islam.

كأنه من خلف الحجاب. الشعر الصوفى فى الإسلام.

New York (Columbia University Press).

- Gärten der Erkenntnis. Texte aus der islamischen Mystik.

حديقة المعرفة. نصوص من التصوف الإسلامى. (ترجمات عن العربية والفارسية والتركية والأردية والسندية).

Düsseldorf (Diederichs).

- Islam in India and Pakistan (Iconography of Religions 22,9).

الإسلام فى الهند وباكستان. (فى: أيقونات الأديان).

Leiden.

1983

- Anvar'is Divan. A Pocket Book for Akbar. (With Stuart Cary Welch).

ديوان أنورى. كتاب جيب لأكبر. (بالاشتراك مع ستيوارت كارى ويلش).

New York (Metropolitan Museum of Art).

- And Muhammad is His Messenger. The Veneration of Prophet in Islamic Piety.

Chapel Hill/London (The University of North Carolina Press).

- Die orientalische Katze. القطة المشرقية.

Köln (Diederichs).

- Der Islam im indischen Subkontinent. الإسلام فى شبه القارة الهندية.

  Darmstadt (Wissenschaftliche Buchgesellschaft.

- Unendliche Suche. Geschichten des Schah Abdul Latif von Sind (In: Mystik des Orients 2).

  بحث بلا نهاية. حكايات شاه عبد اللطيف السندى (فى: التصوف الشرقى).

  München (New-Age-Verlag).

1984

- Calligraphy and Islamic Culture. فن الخط والثقافة الإسلامية.

  New York (New York University Press).

- Das Mysterium der Zahl. Zahlensymbolik im Kulturvergleich.

  غرائبية العدد. رمزية الأعداد فى مقارنة حضارية. (ترجمة عن الطبعة الأولى لفرانتس كارل إيندرس).

  Köln (Diederichs).

- Stern und Blume. Die Bilderwelt der persischen Poesie.

  نجمة وزهرة. عالم الصور فى الشعر الفارسى.

  Wiesbaden (Harrssowitz).

1985

- Al-Halladsch. "O Leute, rettet mich vor Gott".

  الحلاج: "أيها الناس، أنقذونى من الله" (ترجمة عن العربية والفارسية والتركية والأردية والسندية).

  Freiburg (Herder).

- Ibn Iyas. Alltagsnotizen eines ägyptischen Bürgers.

  ابن إياس: يوميات مواطن مصرى. (ترجمة عن العربية).

  Stuttgart (Thienemann).

- . Der arabische Nachtmahr oder Die Geschichte der 1002 Nacht.

روبرت ايرفن: الكابوس العربى أو حكاية الليلة الثانية بعد الألف. (ترجمة عن الإنجليزية).

Köln (Diederichs).

1986

- Pearls from the Indus. Studies in Sindhi Culture.

لآلئ من الهند. دراسات فى الثقافة السندية.

Jamshoro (Sindhi Adabi Board).

1987

- Friedrich Rückert. Lebensbild und Einführung in sein Werk.

فريدريش روكرت. صورة حياة ومدخل إلى أعماله.

Freiburg im Breisgau u.a. (Herder).

- Ibn Ata'Allah. Bedrängnisse sind Teppiche voller Gnaden.

ابن عطاء الله: الكروب بُسُط مملوءة بالرحمة. (ترجمة عن العربية).

Freiburg u.a. (Herder).

- Nimm eine Rose und nenne sie Lieder. Poesie der islamischen Völker

خذ وردة وسمها أغنية. شعر الشعوب الإسلامية.

Köln (Diederichs)

1988

- Friedrich Rückert. Ausgewählte Werke. Hrsg. von Annemarie Schimmel.

فريدريش روكرت: أعمال مختارة فى مجلدين.

Frankfurt (Insel).

- Maulana Dschelaladdin Rumi. Von allem und vom Einen.

مولانا جلال الدين الرومى. من الكل ومن الواحد. (ترجمة عن الفارسية والعربية).

München (Diederichs).

1989

- Die smaragdene Vision. Der Licht-Mensch im persischen Sufismus.

الرؤية الزمردية: إنسان النور فى التصوف الفارسى.

ترجمة عن الفرنسية لكتاب:

Henry Corbin: L'homme de lumière dans le soufisme iranien. München (Diederichs).

- Muhammad Iqbal. Prophetischer Poet und Philosoph.

محمد إقبال. شاعر نبوى وفيلسوف.

München (Diederichs).

- Islamic Names.

الأسماء الإسلامية.

Edinburgh (Edinburgh University Press).

ظهرت النسخة الألمانية من هذا الكتاب تحت عنوان:

من على إلى سارة. الأسماء واختيارها فى العالم الإسلامى.

München (Diederichs).

- Wanderungen mit Yunus Emre.

ارتحالات مع يونس إمره.

Köln (Önel).

1990

- Der Islam. Eine Einführung.

الإسلام: مقدمة.

Stuttgart (Reclam).

- Mein Bruder Ismail. Erinnerungen an die Türkei.

أخى إسماعيل. ذكريات تركية.

Köln (Önel).

- Was hat ein Auge und keinen Kopf? 300 türkische Volksrätsel.

ما الذى له عين وليس له رأس؟ ٣٠٠ فزورة شعبية تركية.

Köln (Önel).

1991

- Die Rose. الوردة.
  Steinfurth (Rosenmuseum Steinfurth).
- Rumi. Look! This is Love. Poems of Rumi.
  الرومى: انظر!هذا هو الحب. شعر الرومى (ترجمة إنجليزية عن الفارسية).
  صدرت الطبعة الألمانية فى بازل عام ١٩٩٣.
  Boston (Shambhala).
- Yunus Emre. Ausgewählte Gedichte.
  يونس إمره: مختارات شعرية (مترجمة إلى الألمانية عن التركية).
  Köln (Önel).

1992

- A Two-Colored Brocade. The Imagery of Persian Poetry.
  نسيج ذو لونين. المجاز فى الشعر الفارسى.
  Chapel Hill / London (The University of North Carolina Press).
- Herr Demirci heisst einfach "Schmidt". Türkische Namen und ihre Bedeutung.
  السيد ديمرجى اسمه ببساطة "شميدت". الأسماء التركية ومعانيها.
  Köln (Önel).

1993

- A Life of Learning. تاريخ التعليم
  Washington D.C. (American Council of Learned Societies).
- Aus dem goldenen Becher. Türkische Gedichte aus sieben Jahrhunderten.
  من الكأس الذهبية. أشعار تركية فى سبعمائة عام. ترجمة عن التركية.
  Köln (Önel).

- Gewänder Gottes.

أردية الله.

Tübingen (Mohr).

- Make a Shield from Wisdom. Selected Verses from Nasir- Khusraw's Divan.

اصنع درعًا من الحكمة: منتخبات شعرية من ديوان ناصر خسرو. (ترجمة إنجليزية عن الفارسية).

London/New York (Kegan Paul International).

1994

- Berge, Wüsten, Heiligtümer. Meine Reisen in Pakistan und Indien.

جبال وصحارى ومعابد: رحلاتى فى الباكستان والهند.

München (C.H. Beck).

- Deciphering the Signs of God. A Phenomenological Approach to Islam.

فك شفرة الإله. مقاربة ظواهرية للإسلام.

Edinburgh (Edinburgh University Press).

ظهرت الطبعة الألمانية فى ميونخ عام ١٩٩٥ تحت عنوان:
آيات الله: العالم الدينى للإسلام.

- Nightingales under the Snow. Poems.

عندليب تحت الثلج المتساقط (شعر).

- London u.a. (Khaniqahi Nimatullahi Publication).
- Terres d'Islam. Aux sources de L'Orient musulman.

عالم الإسلام. عن مصادر الشرق الإسلامى، رحلة إلى الداخل.

Paris (Maisonneuve & Larose).

صدرت الطبعة الألمانية فى العام نفسه.

- Weisheit des Islam.

حكمة الإسلام.

Stuttgart (Reclam).

1995

- Meine Seele ist eine Frau. Das Weibliche im Islam.

  روحى امرأة. الأنوثة فى الإسلام.

  München (Kösel).
- Vom Duft der Heiligkeit. من عطر المقدس.

  Bad Nauheim-Steinfurth (Rosenmuseum Steinfurth).

1996

- Die schönsten Gedichte aus Pakistan und Indien. Islamische Lyrik aus tausend Jahren.

  أجمل الأشعار من الهند وباكستان. شعر إسلامى من ألف سنة.

  München (C.H. Beck).
- Jesus und Maria in der islamischen Mystik.

  المسيح ومريم فى التصوف الإسلامى.

  München (Kösel).
- Wie universal ist die Mystik? Die Seelenreise in den großen Religionen der Welt.

  ما مدى كونية التصوف؟ رحلة الروح فى أديان العالم الكبرى.

  Freiburg im Breisgau u.a. (Herder).

1997

- Die drei Versprechen des Sperlings. Die schönsten Tierlegenden aus der islamischen Welt.

  الوعود الثلاثة للعصفور: أجمل الخرافات الحيوانية فى العالم الإسلامى

  München (C.H. Beck).

1998

- Die Träume des Kalifen. Träume und ihre Deutung in der islamischen Kultur.

أحلام الخلفاء. الأحلام وتفسيرها فى العالم الإسلامى

München (C.H. Beck).

- Wiederholte Spiegelungen. Gedichte. انعكاسات مكررة. (أشعار).

  Köln (Önel).

1999

- ´Attar. Vogelgespräche und andere klassische Texte.

  العطار: منطق الطير ونصوص كلاسيكية أخرى. (ترجمة عن الفارسية).

  München (C.H. Beck).

2000

- Im Reich der Großmoguln. Geschichte, Kunst, Kultur.

  فى مملكة المغول العظام: تاريخ ، فن ، ثقافة.

  München (C.H. Beck).

- Sufismus. Eine Einführung in die islamische Mystik.

  الصوفية. مقدمة فى التصوف الإسلامى.

  München (C.H. Beck).

2001

- Rumi. Meister der Spiritualität. الرومى: مرشد الروحية.

  Freiburg im Breisgau u.a. (Herder).

- Kleine Paradiese. Blumen und Gärten im Islam.

  جنات صغرى. الأزهار والحدائق فى الإسلام.

  Freiburg im Breisgau u.a. (Herder).

- Das islamische Jahr. Zeiten und Feste.

  السنة الإسلامية. المواسم والأعياد.

  München (C.H. Beck).

ملحق بالصور



الوالدان باول شيمل (*فيدا ١٨٨٩/٣/٧، +كيتسن ١٩٤٥/٥/٤)، حوالى ١٩٤٠، وأنّا شيمل، اسم الميلاد أولفريس (*كارولين- زيل ١٨٨٧/١/١١، +بون ١٩٧٨/٤/١١)، حوالى ١٩١٩ (أعلى). أنّا مارى شيمل فى حديقة لويزين فى إيرفورت، ١٩٢٤، وأثناء إطعام قطة الجدة فى كارولين – زيل، ١٩٢٩ (أسفل)

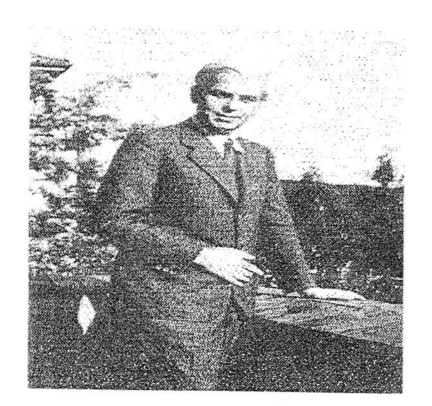






فصل الثانوية فى مدرسة الملكة لويزه، إيرفورت، يناير ١٩٣٨ (أعلى، أنّا ماري شيمل فى الصف الأول الثالثة من اليمين)، فى فناء مدرسة لوثر فى إيرفورت، ١٩٢٩ (تحت شمال)، إجازة فى كارولين - زيل فى صيف ١٩٣٦ (تحت يمين).









فريدريش هايلر يعزف على البيانو مع كلبه لقيط، حوالى ١٩٥٣ (أعلى شمال)، شيدر، حوالى عام ١٩٤٤ (أعلى يمين)، أثناء مؤتمر تاريخ الأديان فى اليابان، ١٩٥٨ (فى الوسط)، مع بطرس غالى أثناء توزيع الدكتوراه الفخرية فى اللاهوت لجامعة أوبسلا ١٩٨٣ (تحت).





زيارة الدولة لملك المغرب فى بون، ١٩٦٢(أعلى)، منح الوسام الباكستانى Sitara-yi Quaid-i Qzam بواسطة السفير عبد الرحمن خان فى بون ١٩٦٦(تحت)

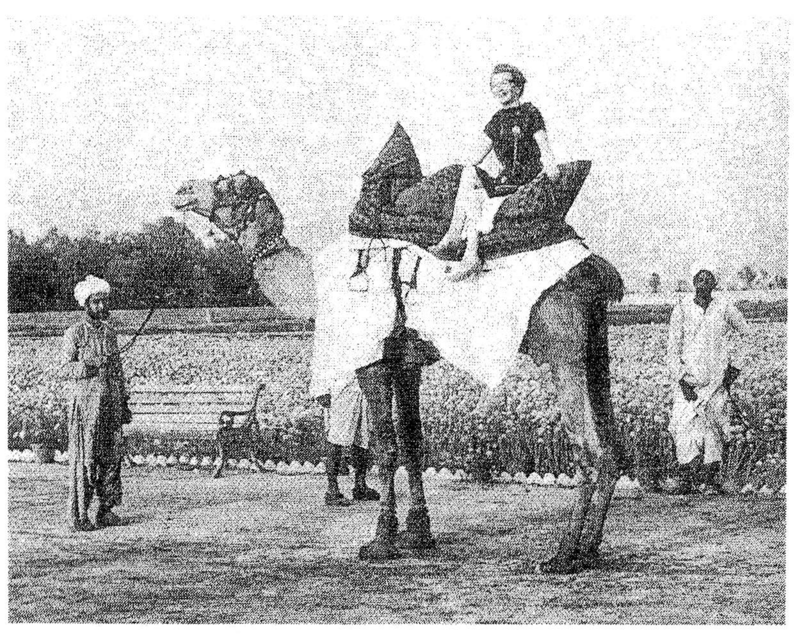






عيد ميلاد فى كراتشى، ١٩٦١ (أعلى)، مع الملكة الأردنية نور أثناء معرض للخط فى متحف الساميات فى جامعة هارفارد، حوالى ١٩٨٢ (تحت شمال)، لدى الاضطلاع بكرسى الأستاذية للحضارة الهندو- إسلامية فى جامعة هارفارد ١٩٧١ (تحت لليمين).

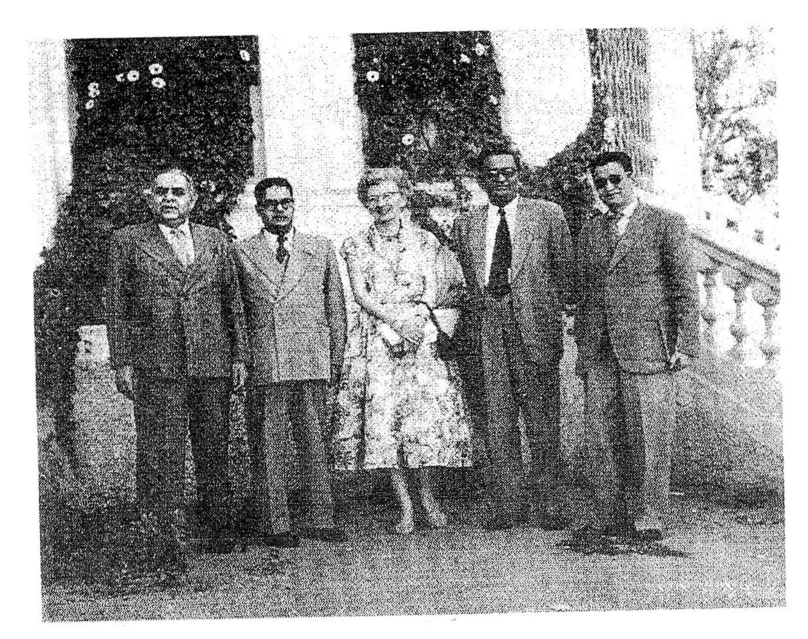




مع النسوة فى قرية سندية، ١٩٦١ (شمال)؛ ترقب هلال نهاية شهر رمضان، جرهايازين، السند ١٩٦١ (تحت).

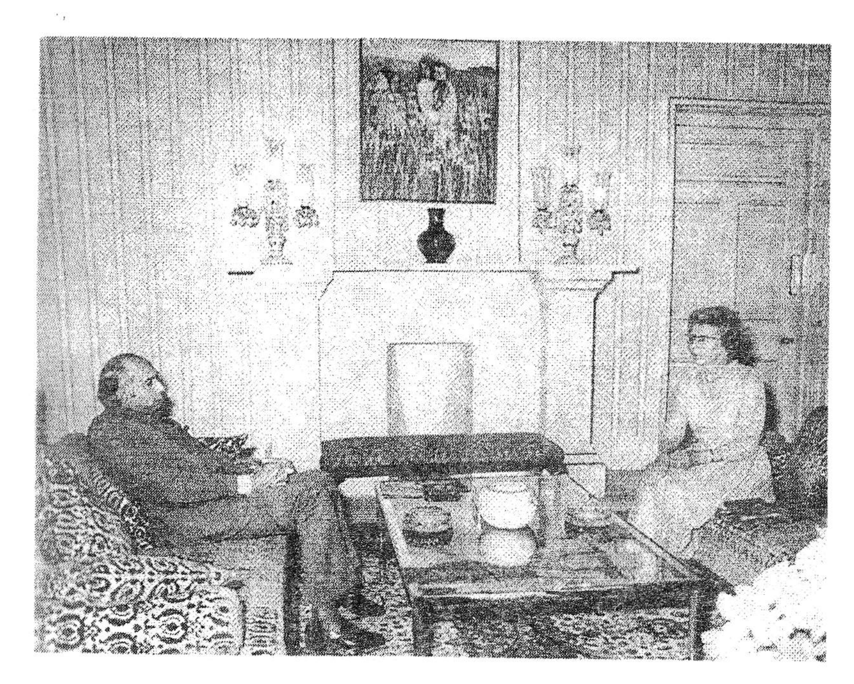


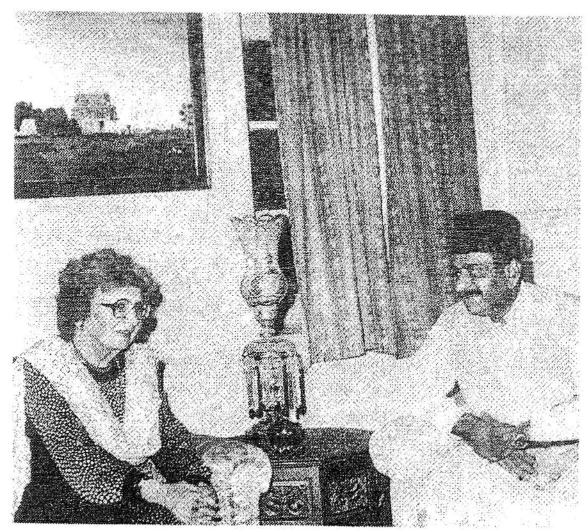
أثناء حفلة إقبال فى المدرسة الإسلامية العليا، مولتان ١٩٦٣.





فى كراتشى، فبراير ١٩٥٨، من الشمال لليمين: س.أ. وحيد، مستر على، أنّا مارى شيمل، بير حسام الدين راشدى، عبد الحى حبيبى (أعلى)، بداية حفريات أقدم مساجد شبه القارة، بهامبور، فى أول مارس ١٩٥٨، وفى منتصف الصورة ممتاز حسن (تحت).





مع ذى الفقار على بوتو فى إسلام أباد، ١٩٧٥ (أعلى)، فى بيت مخدوم صاحب قريشى، رئيس الطريقة السهروردية، مولتان ١٩٧٥ (تحت).





مع الرئيس الهندى د. ذاكر حسين، دلهى ١٩٦٦ (أعلى)، فى حديقة إبا وبينو كوخ، مع بابر، دلهى ١٩٧٧ (تحت).





شارع أنّا ماری شیمل فی لا هور، ۱۹۸۲ (أعلی)، مع الـرئیس الاتحـادی رومان هیرتزوج لدی زیارة الدولة فی الباکستان، أبریل ۱۹۹۵، ولدی إهداء لوحة خطیة من رشید بوت (تحت).





محاضرة فى مؤسسة الفرقان ، لندن، إلى يمين الصورة: شيخ زكى يمـــانى، لندن ٢٠٠٠ (أعلى)، فى بيت الأمير هاينرش السابع عشر، رويس، فيينا، فى نوفمبر ٢٠٠١ (تحت). تصوير كريتيانا تورناوير، فيينا.

هوامش الجزء الأول:

الطفولة والصبا

(١) إدلبرت شتيفتر Stifter: كاتب نمساوى (١٨٠٥-١٨٦٨) و"البلور الصخرى" (١٨٤٥) إحدى أهم قصصه.

(٢) حصون الدراى- جلايشن Drei Gleichen: هى Wachsensburg وMühburg وBurggleichen، وقد أصيبت الحصون الثلاثة فى عام ١٢٣١م بصاعقة، ومن ثم أطلق عليهم اسم الدراى- جلايشن، أى الثلاثة المتشابهون فى المصير.

(٣) هو يوهانس إيكهارت: راهب ألمانى دومنيكانى عاش تقريبًا فى الفترة ما بين ١٢٦٠ وحتى ١٣٢٨م. درس فى السربون وحصل على الماجستير مما جعله يلقب بلقب Meister، وقد اعتنى بدير إيرفورت، وقد برز بعد ذلك بكتاباته فى التصوف والتيولوجيا التى ربط فيها بين تعاليم توما الإكوينى والأفلاطونية المحدثة، وقد أثرت أفكاره فى نشأة كل من المذهب البروتستانتى والمثالية الألمانية.

(٤) مارتن لوثر Luther (١٤٨٣-١٥٤٦): لاهوتى ومصلح دينى ألمانى، والمؤسس الأول للمذهب البروتستنتى.

(٥) هنا تمارس المؤلفة قدرتها على السخرية عبر ذكر تحوير العامة لكلمتى Gauleiter Sauckel أى (مدير الإقليم السيد زاوكل) بتبديل الحرفين الأولين إلى Sauleiter Gauckel أى (مدير الخنزيرة السيد مشعوذ).

(٦) وردة لوثر Lotherrose: رمز بروتستانتى صاغه مارتن لوثر فى ٨ يوليه ١٥٣٠ ليمثل شعاره الدينى. وهى عبارة عن صليب أسود فى قلب أحمر وسط وردة بيضاء، ويحاط هذا كله بلون السماء، ثم دائرة ذهبية كرمز لأثمن المعادن عنده.

(٧) أعياد البشارة أربعة يحتفل بها فى الآحاد الأربعة السابقة على ليلة الميلاد المقدسة، والتى تأتى لدى الكنائس الغربية فى يوم ٢٤ ديسمبر. أما أحد الترحم فيوافق يوم الأحد الأخير فى نوفمبر من كل عام.

(٨) زيفن هيدين Sven Hedin (١٨٦٥-١٩٥٢): كاتب سويدى اشتهر برحلاته العلمية السبع إلى عمق آسيا.

(٩) جوستاف فريتاج Gustav Freytags (١٨١٦-١٨٩٥): كاتب وسياسى ألمانى اشتهر بروايته "المراد والممكن" Soll und Haben التى أصدرها فى ثلاثة مجلدات عام ١٨٥٥.

(١٠) عصيان الملاكمين فى الصين: حدث تاريخى حقيقى وقـع عـام ١٩٠٠ حينمـا استعان القيصر بالملاكمين لمكافحة المبشرين والتدخلات الغربية فى الصين.

(١١) انقلاب رويم Röhm-Putsch: تهمة ألحقت من قبل الدعاية الهتلرية ضد أحد أتباع هتلر هو إرنست رويم الذى أعدم فى أول يوليو عام ١٩٣٤.

(١٢) هاينرش بروننج Brüning (١٨٨٥-١٩٧٠): المستشار الألمانى فى الفتـرة مـن ١٩٣٠ وحتى ١٩٣٢.

(١٣) اللغة اليديشية: لهجة جرمانية يتحدث بها يهود الإشكناز فى ألمانيا وشرق أوروبا.

(١٤) هيرمان لونز Löns (١٨٦٦-١٩١٤): كاتب وشاعر ألمانى اشتهر بروايته عـن حرب الثلاثين عامًا وبكتابة الأغانى والشعر ذى الطابع الشعبى.

(١٥) جورج ياكوب Jacob (١٨٦٢-١٩٣٧): مستشرق ألمانى اشتهر بدراساته العربية عن الشنفرى وخيال الظل، وبدراساته التركية التى جعلتـه المؤسـس الحقيقـى للدراسات التركية فى ألمانيا.

(١٦) ترجمة فان دايك، أما فى الترجمة اليسوعية: "فإن الله أحب العالم".

(١٧) هيلين بياتركس بوتر Beatrix Potter (١٨٦٦-١٩٤٣): كاتبـة إنجليزيـة ألفـت العديد من كلاسيكيات أدب الأطفال التى طبعت بالملايين على مستوى العالم.

(١٨) اسم شيمل Schimmel يعنى فى الألمانية حصان أبيض، ولذا كان اللعـب علـى اسمها فى الإعلان.

(١٩) الأنتروبوزوفيا Anthroposophen نظرية تطورت فى بداية القرن العشرين بفضل الفيلسوف النمساوى رودولف شتاينر Steiner (١٨٦١-١٩٢٥) وتبعًا لهـا فـإن الإنسان يمكنه أن يمتلك ويطور معرفة ما فوق الحواس وقدرات روحية عليا.

(٢٠) جاء النص فى الترجمة اليسوعية هكذا:

اللهم أنصفنى ودافع عن قضيتى مع قوم غير أصفياء

ومن صاحب الكيد والإثم نجنى.

فإنك أنت إله حصنى فلماذا نبذتنى؟

(٢١) جاء النص فى الترجمة اليسوعية هكذا:

أما الراجون للرب

فيتجددون قوة

يرتفعون بأجنحة كالعقبان

يعدون ولا يعيون

يسيرون ولا يتعبون.

(٢٢) راجع إنجيل لوقا (٨/٢). جاء النص فى ترجمة فان دايك هكذا:

"وكان فى تلك الكورة رعاة متبدين يحرسون حراسات الليل على رعيتهم".

وفى الترجمة اليسوعية هكذا:

"وكان فى تلك الناحية رعاة يبيتون فى البرية، ويتناوبون السهر فى الليل على رعيتهم".

(٢٣) نفيد كرمانى: مستشرق ألمانى شاب، من أصول إيرانية، والمؤلفة تعنى هنا رسالته للدكتوراه عن الجانب الجمالى فى القرآن (١٩٩٩) والتى نشرها لدى دار نشر بيك تحت عنوان "Gott ist schön"

(٢٤) تعنى هنا يدو كيرشانامورتى Krishnamurti (١٨٩٥-١٩٨٦): أحد أهم فلاسفة ومتصوفى الهند فى القرن العشرين، وله كتابات عديدة يهتم فيها بالتحرر عن طريق الخلاص الداخلى.

(٢٥) باول هيندمث Hindemith: موسيقى ألمانى لحن أشعار ريلكه.

(٢٦) نبات السيكلام Zyklamen نبات عشبى له أزهار حمراء فاتحة، وينمو على منحدرات ما قبل جبال الألب، وتعد مناطق نموه من المحميات الطبيعية.

(٢٧) هاينرش شلوسنوس Schlusnus (١٨٨٨-١٩٥٢): مغنى أوبرا ألمانى.

(٢٨) هنرى بورسيل Purcell (١٦٥٩-١٦٩٥): موسيقى إنجليزى قديم.

(٢٩) رجتيم Raga من الكلمة الإنجليزية Ragtime: وتعنى فى الأصل موسيقى أمريكية زنجية الأصل من القرن التاسع عشر، وتمثل الشكل المبكر لموسيقى الجاز.

(٣٠) فاريل Varel وبريمن Bremen: فى شمال ألمانيا أما نامور Namur ففى بلجيكا.

(٣١) كلاوس جروت Groth (١٨١٩-١٨٩٩): مؤسس ما يسمى أدب ألمانيا السفلى؛ حيث كان يهدف إلى تحويل لهجة النيدردويتش إلى لغة أدبية.

(٣٢) إ.ت.أ.هوفمان E.T.A. Hoffmann (١٧٧٦-١٨٢٢): أديب ألمانى من الفترة الرومانسية.

(٣٣) كريستيان مورجنشتيرن Morgenstern (١٨٧١-١٩١٤): كاتب ألمانى اشتهر من خلال شعره اللاهى العابث فى ديوانه "أغانى المشنقة"، وهو الذى ابتدع فيه حيوان النازوبيم الصغير الذى يتمشى على أنفه.

(٣٤) لين فويجت Voigt هى هيلين فاجنر (١٨٩١-١٩٦٢): تزوجت عام ١٩١٤ من أوتو فويجت، واشتهرت بأشعارها العامية وبقصصها الهجائية الساخرة.

(٣٥) هانز فون جومبنبرج Gumppenberg (١٨٦٦-١٩٢٨): كاتب وناقد مسرحى ألمانى، وقد قلد فى كتابه هذا الأشعار الكلاسيكية الألمانية بطريقة ساخرة.

(٣٦) آجنيس ميجيل Miegel (١٨٧٩-١٩٦٤): أديبة ألمانية اشتهرت بقصائدها الدرامية وقصصها التى تعالج مصائر شعب شرق بروسيا، ومنها روايتها "نساء من نيدن" وتعنى نيدا وهى مدينة تقع الآن فى ليتوانيا.

(٣٧) كليمنس برينتانو Brentano (١٧٧٨-١٨٤٢): كاتب ألمانى معروف، وأحد ممثلى الرومانتيكية الألمانية.

(٣٨) آنا زيدل Seidel (١٨٨٥-١٩٧٤): كاتبة وشاعرة ألمانية اهتمت فى رواياتها بدور المرأة.

(٣٩) ألفريد مومبرت Mombert (١٨٧٢-١٩٤٢): كاتب ألمانى ولد فى مدينة كارلسروه لأب يهودى. عمل تاجرًا ومحاميًا وسافر لمدة طويلة إلى مصر وفلسطين. قبض عليه عام ١٩٤٠، ولكنه نجح فى الهروب من المعتقل النازى إلى سويسرا حيث مات فى شتاء ١٩٤٢.

(٤٠) أوتو تسور ليندا Otto zur Linde (١٨٧٣-١٩٣٨): شاعر ألمانى التفت حوله فى بداية القرن العشرين حلقة أدبية عرفت باسم قارون Charon، من أهم أشعاره "الرصاصة، فلسفة فى أبيات" (١٩٠٩).

(٤١) كلارا فيبيج Viebig (١٨٦٠-١٩٥٢): كاتبة ألمانية لها العديد من المؤلفات فى أنواع أدبية مختلفة.

(٤٢) ريكاردا هوخ Huch (١٨٦٤-١٩٤٩): روائية ومؤرخة ألمانية استقالت ١٩٣٣ من أكاديمية العلوم الألمانية اعتراضًا على تولى هتلر للسلطة.

(٤٣) لولو فون شتراوس وتورنى Strauß und Torney (١٨٧٣-١٩٥٦): مؤلفة ألمانية اشتهرت فى ألمانيا الشرقية بأشعارها وقصصها ورواياتها.

(٤٤) بوريس فون مونشهاوزن Münchhausen (١٨٧٤-١٩٤٥): أديب ألمانى كان صديقًا لأجنس ميجل، ولم يكن إبان فترة الحكم النازى فوق مستوى الشبهات.

(٤٥) شتيفان جيورج George (١٨٦٨-١٩٣٣): شاعر ألمانى، ومن أهم من دعوا إلى إعلاء الجمالية فى الفن.

(٤٦) المقصود هنا عمل ريلكه الشهير Die Weise von Liebe und Tod des Cornets Christoph Rilke "أغنية حب وموت حامل العلم كريستوف ريلكه" (١٨٩٩)،

والذى يدور حول حصار الأتراك فيينا، وقد صاغه عدة مرات، وحازت الأخيرة منها (١٩٠٦) انتشارًا واسعًا بعد نشرها ضمن منشورات دار إنزل عام ١٩١٢. وقد تم استخدام العمل بسبب نزعة الفروسية فيه فى التعبئة للحرب العالمية الأولى!

(٤٧) إنجيلوس سيلزيوس Silesius (١٦٢٤-١٦٧٧): شاعر ألمانى من أصل بولندى، اسمه الحقيقى هو يوهانس شيفلر Scheffler، ويعد من أهم شعراء التصوف فى عصر الباروك الألمانى؛ حيث يهتم فى أشعاره بوحدة الوجود، وما زالت بعض أشعاره تستخدم كأغان كنسية.

(٤٨) هوجو فون هوفمانستال Hofmannsthal (١٨٧٤-١٩٢٩): كاتب وشاعر نمساوى ينتسب إلى ما يسمى "حداثة فيينا".

(٤٩) كلمة Philologen قريبة الشبه سمعيًا من كلمتى viele logen.

(٥٠) جوزيف فون همر- بورجشتال Hammer-Purgstall (١٧٧٤-١٨٥٦): مستشرق نمساوى أشتهر بمجلته "كنوز الشرق" Fundgruben des Orients التى أصدرها فى الفترة ما بين ١٨٠١-١٨١٨.

(٥١) جوستاف ماهلر Mahler (١٨٦٠-١٩١١): موسيقى نمساوى، تمثل أعماله – فى تطور الفن السيمفونى – أعلى نقطة للرومانسية المتأخرة.

(٥٢) يوهان هاينرش فوس Voß (١٧٥١-١٨٢٦): مترجم ألمانى معروف.

(٥٣) موريتس يان Jahn (١٨٨٤-١٩٧٩): شاعر وكاتب ألمانى، اهتم بالكتابة بلهجة النيدر ساكسن.

(٥٤) مارتن هيدجر Heidegger (١٨٨٩-١٩٧٦): أهم الفلاسفة الألمان وأكثرهم تأثيرًا وإثارة فى القرن العشرين، والمؤلفة تشير هنا إلى فترة حساسة من حياته الأكاديمية والفلسفية!

(٥٥) منطقة الرور هى منطقة صناعية فى شمال غرب ألمانيا شهيرة بكثرة مناجمها، ومن هنا تستخدم المؤلفة أحد أوصافها الشهيرة: Kohlenpott أى قدر الفحم.

(٥٦) فريدريش نيتشه Nietzsche (١٨٤٤-١٩٠٠).

(٥٧) رودولف ألكسندر شرودر Schröder (١٨٧٨-١٩٦٢): كاتب ألمانى ومترجم وناشر. أنشأ فى أوائل القرن العشرين مجلة إنزل التى تحولت اليوم إلى دار نشر مشهورة تحمل نفس الاسم Insel-Verlag.

(٥٨) ريشارد هارتمان Hartmann (١٨٨١-١٩٦٥): مستشرق ألمانى أشتهر بإصداره لمجلة الأدب الاستشراقى OLZ وبدراساته حول تاريخ فلسطين وتركيا الحديثة

وعن الإسلام المعاصر ككل؛ حيث كتب "أزمة الإسلام" (١٩٢٨)، و"دين الإسلام" (١٩٤٤)، و"الإسلام والقومية" (١٩٤٨).

(٥٩) منطقة ألمانية تضم مدينة شتوتجارت وما حولها.

(٦٠) إرنست كونل Kühnel (١٨٨٣-١٩٦٤): مستشرق ألمانى تخصص فى الفنون الإسلامية خاصة المنمنمات وفنون الخط الزخرفية.

(٦١) إجناس جولدتسيهر Goldziher (١٨٥٠-١٩٢١): مستشرق مجرى معروف، وله بالإضافة إلى الكتاب المذكور أعلاه "الظاهرية، مذهبهم وتاريخهم" (١٨٨٤)، و"دراسات محمدية" (١٨٨٩) و"اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين" (١٩٢٠). وقد صدرت فى الثمانينيات أعماله غير المجموعة فى ستة مجلدات.

(٦٢) ريشارد دايمل Dehmel (١٨٦٣-١٩٢٠): كاتب وشاعر ألمانى ينتمى لفترة ما بين المدرستين الطبيعية والتأثيرية، و"آنو دومينى" Anno Domini تعبير لاتينى يعنى "سنة السيد" أى المسيح.

(٦٣) هانز هاينرش شيدر Schaeder (١٨٩٦-١٩٥٧) مستشرق ألمانى شهير، من أهم أعماله دراساته المهمة عن الحسن البصرى والمانوية وعلاقة جوته بالشرق.

(٦٤) المعنى هنا مجموعة الشعر الميتافيزيقى Metaphysical Poets التى تكونت فى القرن السابع عشر حول جون دون Donne (١٥٧٢-١٦٣١). كانوا من الناحية الروحية والدنيوية شعراء باروك يبحثون عن أشكال جديدة للإفصاح الشعرى، وقد طوروا لغة ذات صور شجاعة وتقاليد ساخرة وألعابًا لغوية.

(٦٥) فرانز روزنتال Rosenthal (١٩١٤-٢٠٠٣): مستشرق ألمانى من أصول يهودية، هاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٤٠، وحصل على جنسيتها عام ١٩٤٣ وخدم فى جيشها إبان الحرب العالمية الثانية. ومن أشهر مؤلفاته "التراجم الذاتية العربية" (١٩٣٧)، و"تاريخ الدراسات الآرامية" (١٩٣٩). ومن مؤلفاته الإنجليزية "مفهوم الحرية فى الإسلام" ، و"مفهوم المعرفة فى الإسلام الوسيط". أما أشهر أعماله فترجمته الإنجليزية لمقدمة ابن خلدون (١٩٥٨) والتى طبعت مرات عديدة.

(٦٦) جوستاف فون جرونباوم Grunebaum (١٩٠٩-١٩٧٢): مستشرق نمساوى من أصول يهودية، هاجر إلى أمريكا بعد ضم النازى للنمسا عام ١٩٣٨، ومن أشهر أعماله "البعد الواقعى فى الشعر العربى القديم" (١٩٣٧)، و"الإسلام فى العصر الوسيط" (١٩٤٩).

(٦٧) كارل ياكوب بوركهارد Burckhardt (١٨٩١-١٩٧٤): دبلوماسى ومؤرخ سويسرى، عمل رئيسا للصليب الأحمر وسفيرا فى باريس، وحصل على جائزة السلام الألمانية عام ١٩٥٤.

(٦٨) تعنى به الناشر الألمانى أويجـــن ديدريـــشس Diederichs صـــاحب دار أويجـــن Verlag-Eugen.

(٦٩) تعنى على الأرجح المؤلف والأكاديمى السورى محمد يحيى هاشمى، من مواليـــد حلب ١٩٠٣، والذى حصل على الدكتوراه من جامعة بـــون عـــام ١٩٣٥ عـــن موضوع " مصادر كتاب الأحجار للبيرونى"، ثم عمل مدرسًا للغة العربيـــة فـــى جامعة برلين فى الفترة ما بين ١٩٣٣ وحتى ١٩٣٧ ثم عاد أو أبعد إلى سوريا.

(٧٠) هيلموت ريتر Ritter (١٨٩٢-١٩٧١)، مستشرق ألمانى اشتهر خلال فترة عمله فى إستانبول بكتاباته عن المخطوطات العربية والفارسية وتحقيقه، بل وترجمتـــه لبعضها.

(٧١) علقة الدم Blutegel: حيوانات دودية تعيش فى الماء الراكد القذر، وتتغذى علـــى الدماء التى تمصها من الحيوان والإنسان، ولكى تتمكن من هذا فإنها تـــضخ فـــى عروق الضحية سائلا يسيل الدم ويجعله خفيفا، وهنا تكمن أهميته الطبية؛ حيـــث يمكن استخدام سائلها هذا فى علاج حالات تخثر الدم.

(٧٢) أوبرا نابوكو Nabucco لفرانسيسكو فيردى (١٨١٣-١٩٠١)، مأخوذة مـــن اســـم الملك البابلى نبوخذ نصر، وقد كتبها فيردى عام ١٨٤٢.

هوامش الجزء الثانى:

السنوات الأولى لما بعد الحرب

(٧٣) آدم ميتز Mez (١٨٦٩-١٩١٧): مستشرق ألمانى اشتهر بكتابه Die Renaissance des Islam أى "نهضة الإسلام" الذى نشر لأول مرة عام ١٩٢٢ أى بعد وفاة المؤلف بخمس سنوات.

(٧٤) الثانوية المسكونية تعتمد على فكرة مسيحية توحيدية بعيدًا عن المذاهب المسيحية المتصارعة.

(٧٥) فريدريش هايلر Heiler (١٨٩٢-١٩٦٧): لاهوتى ومؤرخ أديان ألمانى، ويعد فى ألمانيا أحد الرواد المبكرين لعلم الأديان المقارن، وله فى ذلك مؤلفات عديدة تشير المؤلفة إلى بعضها.

(٧٦) رودولف أوتو Otto (١٨٦٩-١٩٣٧): لاهوتى ألمانى بروتستانتى، ومن أهم أعماله كتابه "المقدس" Das Heilige (١٩١٧) الذى تشير المؤلفة إليه.

(٧٧) طرد كاريه CARE-Paket: هو اختصار لاسم منظمة أمريكية تدعى (Cooperative for American Remittances to Europe) كانت تمنح مساعداتها للأوروبيين بعد الحرب العالمية الثانية على شكل طرود، وبعد عام ١٩٥٨ أصبحت منظمة عالمية للمساعدات.

(٧٨) رودولف بولتمان Bultmann (١٨٨٤-١٩٧٦): لاهوتى ألمانى بروتستانتى، وأحد أهم التيولوجيين الألمان الذين تأثروا بمارتن هايدجر، وقد اشتهر بدعوته إلى إزالة الميتالوجيا عن العهد الجديد.

(٧٩) السيلت كعنصر بشرى هو شعب هندو-أوروبى وجد فى أوروبا قبل الجرمان أو الأنجلوساكسون، وما زالت بقاياه فى أيرلندا وإسكتلندا.

(٨٠) أرنستو بونايوتى Buonaiuti (١٨٨١-١٩٤٦): لاهوتى كاثوليكى، إيطالى الجنسية، ومن أهم ممثلى ما يسمى بالحداثة الكاثوليكية الإيطالية. كان راهبًا وأستاذًا لتاريخ الكنيسة فى الجامعة البابوية، ثم طرد منها فى عام ١٩٠٦م، ثم طرد من الكنيسة عام ١٩٢٤. وبعد تعينه فى جامعة روما عام ١٩١٥ أستاذًا لتاريخ المسيحية، فصل منها فى عام ١٩٣٢، وذلك لأنه كان أحد الأساتذة الذين رفضوا قسم الولاء لحكومة موسيلينى.

(٨١) ألفريد لويزى Loisy (١٨٥٧-١٩٤٠): لاهوتى ومؤرخ أديان فرنسى، اشتهر بسبب نقده الحاد للتيولوجيا الكاثوليكية التقليدية، مما أدى مع أسباب أخرى إلى

وضع كتبه عام ١٩٠٣ على قائمة التحريم الكنسى، ثم إلى طرده من الكنيسة عام ١٩٠٧. والمؤلفة تعنى هنا كتـاب هـايلر Der Vater des kath. Modernismus, Alfred Loisy "أبو الحداثة الكاثوليكية، ألفريد لويزى" (١٩٤٧).

(٨٢) بابا إنجيليكوس papa angelicus أو "البابا الملاك": هى فكرة نشأت فى العـصور الوسطى الأوروبية والمقصود بها بالتحديد "بابا منتظر" يصلح كل شىء، وفكـرة انتظار المصلح أو المخلص كما نعلم فكرة قديمة!

(٨٣) الكنيسة الغليكانية: هى كنيسة كاثوليكية ذات قانون خاص فى فرنسا وهى تمثـل فكرة Sukzession التى تقول بأن الأساقفة والقساوسة هم خلفاء حواريى المـسيح عليه السلام.

(٨٤) تعنى هنا اللاهوتى الألمانى كورت جولدَمر Goldammer (من مواليـد ١٩١٦)، والذى درس لدى هايلر، ومـن أهـم مؤلفاتـه Die Formenwelt des Religiösen (١٩٦٠).

(٨٥) مرتيا أليادا Eliade (١٩٠٧-١٩٨٦): روائى شهير ومؤرخ دينى من رومانيا.

(٨٦) كلمة بروفيس Prowis هى نحت لمختصرين: اختصار بروفسير Pro(f) واختصار كلمة أرملة Wi(s) بالإضافة إلى حرف الجمع فى الإنجليزية (s).

(٨٧) هانز فير Wehr (١٩٠٩-١٩٨١): مستشرق ألمانى معروف بدراسـاته اللغويـة وبقاموسه "معجم اللغة العربية المعاصرة" وكذلك بتجميعه وتحقيقه "كتاب الحكايات العجيبة والأخبار الغريبة".

(٨٨) عيد انقلاب ــ أو تغير الشمس ــ يكون فى ليلة ٢٣ إلى ٢٤ يونية؛ حيـث يـتم الاحتفال بأطول يوم وأقصر ليلة فى السنة، وهو عيد يحتفل به فى أوروبا منذ ما قبل انتشار المسيحية.

(٨٩) نسبة إلى باخوس Bacchant إله الخمر عند الإغريق.

(٩٠) محمود الكشغارى شخصية حقيقية توفيت بعد عام ١٠٩٤م.

(٩١) الكاراكالباكيين شعب تركى صغير يعيش جنوب بحيرة الآرال.

(٩٢) التشوفاشن شعب مختلط من الترك وغيرهم، وهم يعيشون علـى ضـفاف نهـر الفولجا فى جنوب روسيا.

(٩٣) سكان جبل الطاى.

(٩٤) كلمة Zen تعنى التأمل الروحى، وتتميز البوذية اليابانية بأنها تحاول عبر التأمـل الروحى أن تصل إلى تجربة وحدة كل الموجودات، وذلك حتى تحصل على قوة حياة فعلية وقدرة على التحكم فى النفس.

(٩٥) تعنى السكن الجامعى للأساتذة والطلاب.

(٩٦) كلمة Serail (=Seraglio) إيطالية تعنى الحريم أو سراى السلطان، وقد آثرت المعنى الأول؛ لأنه أكثر ملاءمة.

(٩٧) روزبهان البقلى: متصوف فارسى، من شيراز، توفى عام ١٢٠٩م.

(٩٨) حلقة إيرانوس Eranos: حلقة أنشأها كلٌ من ك.ج. يونج ورودولف أوتو وأولجا فروبا، وعقدت أول مؤتمراتها فى عام ١٩٣٣، وكانت تهتم بالجوانب الصوفية والغنوصية، وتقيم لذلك مؤتمرًا ثانويًا تجمع كلماته ومحاضراته فى سلسلة كتب تحمل عنوان الحلقة.

(٩٩) فريتز ماير Meier (١٩١٢-١٩٩٨): مستشرق سويسرى، عمل لفترة طويلة أستاذا للعلوم الإسلامية فى جامعة بازل بسويسرا، ومن أشهر أعماله: "حقيقة التصوف الإسلامى" (١٩٤٣)، و"دراستين عن النقشبندية" (١٩٩٤)، و"شيوخ ومريدو النقشبندية" (١٩٩٥).

(١٠٠) الكاساتا Cassata: أيس كريم بالفواكه يقدم فى كأس!

(١٠١) كان رودولف بانفيتس نفسه أحد المنتمين إلى حلقة أوتو تسور ليندا.

(١٠٢) المؤلفة تلعب لغويًا على التعبير الألمانى "ألم يكن هذا فقط للقطة" war das nicht nur für die Katz? والذى يعنى "ألم يكن هذا دون جدوى؟"!

هوامش الجزء الثالث:

تركيا

(١٠٣) الطغراوات مفردها طغراء، وتعنى توقيع السلطان وهى العلامة الزخرفية أو الخطية التى يضعها السلطان التركى على الوثائق والفرامانات.

(١٠٤) المقصود هنا هو إعطاء كل حرف فى ترتيب حروف الهجاء العربية (المعروف بترتيب أبجد هوز) قيمة عددية تسير كما يلى: أرقام أحادية من ١-٩ (أبجد هوز حط) ثم عشرية من ١٠-٩٠ (ى كلمن سعفص) ثم مئوية من ١٠٠-٩٠٠ (قرشت ثخذض ظ) ثم ١٠٠٠ (غ)، وقد استخدمت هذه الحروف أيضًا كأعداد أو كتسجيل لتاريخ ما، وهو ما عرف بحساب الجمل.

(١٠٥) الحديث رواه الإمام أحمد (تحت رقم ١٨٤٧٨) ونصه: "لتفتحن القسطنطينية؛ فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش". وعلامة التعجب من لدن المؤلفة.

(١٠٦) فيلهلم الثانى Wilhelm II (١٨٥٩-١٩٤١): قيصر ألمانيا وملك بروسيا، وقد عزل عن عرشه ١٩١٨ بعد خسارة الحرب العالمية الأولى، وعاش حتى وفاته فى هولندا.

(١٠٧) هذه العبارة معروفة ومتداولة فى وصف الصلاة، وقد بحثت عنها فى مظانها من كتب الحديث فلم أقع عليها، وربما اشتهرت بسبب فرض الصلاة إبان المعراج النبوى.

(١٠٨) توفى الشيخ حمد الله فى عام ١٥١٩.

(١٠٩) ولد فى إستانبول فى ١٦٤٢، ومات فيها فى ١٦٩٨.

(١١٠) المقصود هنا كنيسة دير خوره Chora البيزنطية التى تحولت تحت العثمانين إلى جامع كاريه الذى احتفظ فيه بالموزاييك البيزنطى، ولم يجر خلعه أو تدميره.

(١١١) الأوبانيشادن Upanischaden: مخطوطات سنسكريتية ذات محتوى فلسفى تيولوجى تدور حول الخلاص البشرى.

(١١٢) كبدوكيه Kappadokien: تمثل الآن أحد أقاليم شمال شرق تركيا الحديثة، وكانت أحد أهم الأماكن التى بشر فيها تلاميذ المسيح (عليه السلام)، ومن ثم فهى غنية بالتاريخ والآثار المسيحية.

(١١٣) رايموندس لولوس Lullus: متصوف إسبانى توفى سنة ١٢٣٥م.

(١١٤) خط النستعليق: عبارة عن مزج لخطى النسخ والتعليق المعروفين فى تاريخ الخط العربى.

(١١٥) راجع ترجمة فانديك رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ٣/١،٤/١١، وفي الترجمة اليسوعية: "يا أهل غلاطية الأغبياء.. إني أخشى عليكم أن أكون قد أجهدت نفسي عبثًا من أجلكم".

(١١٦) السَّذاب (كما في المعجم الوسيط) هو جنس من النباتات الطبية له رائحة قوية خاصة. (ج٢، ص٤٤٠).

(١١٧) الأنبياء/١٠٧.

(١١٨) ابن خفيف الشيرازي توفي عام ٩٨٢م.

(١١٩) جورديون Gordion: عاصمة مملكة الفرجيين Phrygien في آسيا الصغرى، وهي اليوم أطلال ياسي هووك بالقرب من سقارية على بعد قرابة ٦٥ كم جنوب غرب أنقرة.

(١٢٠) العقدة الجوردية في الأساطير اليونانية: هي عقدة ربطت بطريقة ملغزة من قبل جورديوس ملك الفرجيين. وفيما بعد قيل إن من يحلها يصبح سيدًا على آسيا. وقد حاول الكثيرون ولكن استحال حلها حتى جاء الإسكندر الأكبر وحلها بأن قطعها بالسيف. ومن هنا صار الأمر مثلا لوصف حل غير منتظر لمشكلة معقدة.

(١٢١) أحد أحياء مدينة نيويورك التي تتميز بالمباني الحديثة الشاهقة.

(١٢٢) بربروسا Barbarossa: المقصود هنا هو القيصر الألماني- الروماني فريدريش الأول (١١٢٢-١١٩٠)، أحد من شاركوا في الحروب الصليبية.

(١٢٣) لاديق Ladik: هي مدينة أناضولية تصنع فيها هذه السجادة ذات الأرضية الحمراء أو الزرقاء.

(١٢٤) تعد الباتستة بمثابة الدرجة الأنعم لنسيج القطن.

(١٢٥) رئيس الوزراء التركي آنذاك.

(١٢٦) راجع أعمال الرسل، ١١/٢٦.

(١٢٧) في الأساطير اليونانية القديمة أسطورة تهرب فيها الحورية الجميلة دافنه Daphne من "أبوللو" إله الشمس والفنون الذي يريدها لنفسه، وعندما لا تجد مفرًا من الهرب تتحول إلى شجرة الغار (شجرة اللورو).

(١٢٨) الترمالين: حجر نصف كريم متعدد الألوان.

(١٢٩) تعني ضريح موزول Mausole، أحد حكام المقاطعات اليونانية القديمة، الذي شيدته له في حوالي القرن الرابع قبل الميلاد أخته وزوجته أرتميس الثانية، وأطلقت عليه اسمه "موزوليه"؛ مما جعل الكلمة تدخل (بمعنى الضريح) إلى أغلب اللغات الأوروبية.

(١٣٠) يمثل سفر الرؤيا المنسوب إلى يوحنا اللاهوتى (صاحب الإنجيل الرابع) آخر أسفار العهد الجديد، ويوجد اختلاف كبير حول كاتبه وزمان ومكان كتابته؛ ولكن يحتمل أنه كتِب فى نهاية القرن الميلادى الأول فى منطقة أفسس (أفسوس القديمة) بآسيا الصغرى، أى بالقرب من جزيرة بطموس.

(١٣١) قيل إن هذه البغلة كانت من هدايا المقوقس إلى النبى (صلى الله عليه وسلم)، وإنها سميت بذلك لأن النبى لما انهزم المسلمون يوم حنين قال لها "دلدل" فوضعت بطنها على الأرض؛ فأخذ النبى حفنة من تراب فرمى بها فى وجوههم. وقيل إنه أعطاها عليًا، ثم كانت للحسن ثم للحسين ثم كبرت وعميت. وقد روى محمد بن إسحاق عن رجل قال له: رأيت بغلة رسول الله فى منزل عبدالله بن جعفر يجش أو يدق لها الشعير، وقد ذهبت أسنانها!

(١٣٢) أى قبل استقلال سوريا فى عام ١٩٤٦، وضم لواء الإسكندرونة (١٩٣٦) إلى تركيا بموافقة الاحتلال الفرنسى.

(١٣٣) أورخان بن عثمان، هو السلطان العثمانى الثانى (١٢٨١-١٣٦٢)، وقد استولى على عدة مدن بيزنطية أهمها بورسة (١٣٢٥) التى جعلها عاصمة للسلطنة العثمانية.

(١٣٤) جبل الأولمب الواقع فى اليونان ليس الجبل الوحيد الذى يحمل هذا الاسم، بل فقط أشهرها! فقد أطلق هذا الاسم منذ القدم على عدة جبال منها الجبل المذكور هنا، والذى يقع على الجانب الآسيوى لتركيا فى منطقة تسمى بيثينية Bithynie، ومنها جاءت الصفة أعلاه.

(١٣٥) أنطونيو جاودى Gaudí (١٨٥٢-١٩٢٦): معمارى إسبانى من إقليم كاتالونيا فى شمال شرق إسبانيا.

(١٣٦) اشتهرت أغنية "Lili Marleen" إبان الحرب العالمية الثانية، وقد غنيت من قبل ليلى أندرسون ومارلين ديتريش، وربما سميت لهذا بليلى مارلين!

(١٣٧) تحكى الأساطير اليونانية أن ديونوزوس إله الخمر واللذة قد حقق أمنية ملك الفرجيين ميداس Midas بأن يتحول كل شىء يلمسه إلى ذهب. كان علماء الآثار الأمريكيين قد بدأوا حفرياتهم هناك فى عام ١٩٤٩.

هوامش الجزء الرابع:
مشاهد أوروبية عارضة

(١٣٨) علم الأترويات Etruskologe: هو علم يتناول بالدراسة تاريخ السكان الأصليين لغرب شبه الجزيرة الإيطالية أى فترة ما قبل الرومان.

(١٣٩) رينيه ماجريت Magritte (١٨٩٨-١٩٦٧): فنان سيريالى من أصل فلمنكى (بلجيكى).

(١٤٠) اندمجت تلك المؤسسة منذ فترة فى معهد جوته، ومن ثم أصبح يشرف على إخراج هذه المجلة.

(١٤١) هو الباحث اللبنانى الأصل بيتر عون الذى ستشير المؤلفة إليه بالاسم الأول أكثر من مرة، وكذلك إلى أطروحته عن "معصية الشيطان والخلاص فى التراث الصوفى الإسلامى".

هوامش الجزء الخامس:
على الجانب الآخر للأطلنطى

(١٤٢) إ. إ. كمنجز E.E. Cummings (١٨٩٤-١٩٦٢): شاعر أمريكى معاصر، من أشهر دواوينه "الزنابق والمداخن" (١٩٢٣) و"الواو حرف عطف" (١٩٢٥).

(١٤٣) السيتار: آلة موسيقية هندية شبيهة بالعود.

(١٤٤) هى الأسرة المالكة التى كانت تحكم أغلب أجزاء الهند قبل استيلاء المغول عليها فى الربع الثانى من القرن السادس عشر.

(١٤٥) تعنى هنا المستشرق الألمانى أنطون هينين Heinen، وأما منطقة إيفل Eifel فمنطقة جبلية بالقرب من بون.

(١٤٦) نسبة إلى مدينة جوجرات Gujarat فى وسط غرب الهند.

(١٤٧) البودل The Poodle: نوع من الكلاب شديدة الذكاء، ويتميز بشعره الكثيف المجعد.

(١٤٨) ربما تعنى جيورج إيفانوفيتش جوردييف Gurdjieff: وهو فيلسوف ومتصوف روسى، قوقازى الأصل ربما ولد فى عام ١٨٦٦ أو عام ١٨٧٢، ولكنه توفى فى باريس عام ١٩٤٩، ويوجد له أتباع ومؤسسات روحية.

(١٤٩) مجلة "إسلاميكا" Islamica: هى المجلة التى كان يصدرها المستشرق الألمانى أوجست فيشر Fischer (١٨٦٥-١٩٤٩).

(١٥٠) جوزيف هوروفتس Horovitz (١٨٧٤-١٩٣١): مستشرق ألمانى يهودى، اهتم بدراسة الشعر الجاهلى والدراسات القرآنية خاصة ما يتصل منها بالديانة اليهودية، كما يعد المؤسس الأول لقسم الدراسات العربية والإسلامية فى الجامعة العبرية فى القدس ١٩٢٥.

(١٥١) ريشارد إتنجهاوزن Ettinghausen (١٩٠٦-١٩٧٩): مستشرق ألمانى يهودى متخصص فى تاريخ الفن الإسلامى، وقد عمل بعد هجرته إلى الولايات المتحدة فى الكثير من الجامعات (ميتشجان ونيويورك) والمتاحف (المتروبوليتان).

(١٥٢) غاليتسه Galizien: اسم لإقليم يقع أغلبه الآن فى جنوب بولندا، ومن أشهر مدنه كراكاو.

(١٥٣) اللاترابيون Trappisten: اتجاه دينى مسيحى نشأ فى النورماندى بفرنسا فى عام ١٦٦٤، ويتميز بامتناع رهبانه عن الكلام.

(١٥٤) جوزيف شاخت Schacht (١٩٠٢-١٩٦٩): مستشرق ألماني تخصص في تاريخ الفقه والشريعة الإسلامية حتى العصر الحديث خاصة في مصر، ومن أشهر كتبه: "نشأة الفقه الإسلامي" (١٩٥٠).

(١٥٥) جوزيف كامبل Campbell (١٩٠٤-١٩٨٧): كاتب وأكاديمي أمريكي، نشر إلى جانب أشياء كثيرة أعمال العالم الألماني هاينرش تسيمر عن فنون وأساطير وفلسفة الهنود.

(١٥٦) تعني هنا زميلة دراستها أنجه زولبرج Solbrig.

(١٥٧) كاتارينا مومزن Mommsen: أستاذة أدب ألماني، ولدت في برلين عام ١٩٢٥، وحصلت على الدكتوراه عام ١٩٥٦ من جامعة توبنجن عن موضوع "جوته وألف ليلة وليلة". عملت في جامعات ألمانية وكندية وأمريكية، واهتمت طوال الوقت بعلاقة جوته بالشرق، وآخر كتبها كان عن "جوته والإسلام" (٢٠٠١).

(١٥٨) المورمون Mormonen: جماعة دينية مسيحية أسست في نيويورك عام ١٨٣٠ من قبل جوزيف سميث Smith (١٨٠٥-١٨٤٤) والذي قتل من قبل معارضيه في أحد السجون. ويقرب عدد معتنقيه من ثمانية ملايين نصفهم في الولايات المتحدة.

(١٥٩) لعبة الكاليدوسكوب: عبارة عن منظار تظهر فيه أشكال هندسية متغيرة.

(١٦٠) القيقب Ahorn: هو شجر ينمو في كندا بكثرة، ولذا اتخذت ورقته رمزًا على علمها.

هوامش الجزء السادس:

ارتحالات عبر الشرق

(١٦١) الترمالين حجر نصف كريم متعدد الألوان، ولكنه فى العادة يكون أخضر اللون.

(١٦٢) قتل فى عام ١٤٠٥م.

(١٦٣) راجع قصة الحية النحاسية فى سفر العدد (٢١، ٤-٩).

(١٦٤) الكولاج Kollage نوع من فن الملصقات يقوم على إعادة توليف قصاصات الصحف والإعلانات.

(١٦٥) ماكه Macke (١٨٨٧-١٩١٤) وكاله Klee (١٨٧٩-١٩٤٠): هى رسامان ألمانيان، وقد قام كلاهما بزيارة المغرب العربى فى بداية القرن العشرين وقدما رسومات حازت شهرة عالمية.

(١٦٦) البيتان (رجز) لحاتم الطائى (توفى حوالى ٤٦ ق. الهجرة/٥٧٧م)، وقد اختصرت المؤلفة البيت الأول فى ترجمتها الألمانية على Zünde, mein Knecht, das Feuer an أى: (أوقد – يا عبدى – النار)!.

(١٦٧) لم أجد هذا النص إلا فى صفحة ٦٠ من المجلد الرابع من كتاب "العقائد الإسلامية" الذى قام بإعداده مركز المصطفى للدراسات برعاية المرجع الشيعى السيد السيستانى (ط١، ١٤٢٠/١٩٩٩)، والذى يجعل أويس القرنى من أركان التشيع لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه، والذى نقل هذا النص عن كتاب "شجرة الأولياء" لمحمد النور بخشى الذى قال: "أويس القرنى المجذوب قدس سره، هو الذى وصفه الرسول صلى الله عليه وآله بالولاية وقال: إنى لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن. وهناك أحاديث ومأثورات كثيرة تخبر بأنه — أى أويس — يشفع فى مثل ربيعة ومضر. والله أعلم.

(١٦٨) المقصود بالبيوت الكعكية Lebkuchenhäuser الكعك الألمانى التقليدى البنى اللون، والذى يصنع منه المرء بمناسبة أعياد الميلاد بيوتًا يزينها بمعجون بياض البيض المضروب!

(١٦٩) نسبة إلى إقليم الدكن الهندى.

(١٧٠) تشير المؤلفة هنا إلى ترجمة آدم أوليريس Olearius (١٦٠٣-١٦٧١): وهو أحد المجموعة التى أرسلت عام ١٦٣٣ إلى بلاد فارس للتحالف مع إمبراطورها ضد الأتراك، وهى الرحلة التى أشير إليها فى بداية هذا الجزء خلال شعر باول فليمنج.

(١٧١) نهر يمر بالمدينة.

(١٧٢) تيودور فونتانه Fontane (١٨١٩-١٨٩٨) روائي وشاعر ألماني معروف.

(١٧٣) ألف أبو الريحان البيروني (٩٧٣-١٠٨٤) العديد من الكتب عن الهند، ولكن ربما تعني المؤلفة هنا كتابه "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" وهو الكتاب الذي حققه للمرة الأولى المستشرق الألماني إدوارد زخاو Sachau (١٨٤٥-١٩٣٠) عام ١٨٨٧.

(١٧٤) تعني هنا كتاب " الآثار الباقية من القرون الخالية" وهو سابق في تأليفه على كتاب "تحقيق ما للهند...".

(١٧٥) هيلدجارد فون بينجن Bingen: راهبة ألمانية عاشت في العصور الوسطى، وكانت تمارس العلاج بالأعشاب وكتابة الشعر.

(١٧٦) جوزيف فرايهر فون أيشندورف Eichendorff (١٧٨٨-١٨٥٧): شاعر ألماني رومانسي، ومن أبرز أعماله ديوان "صورة من المرمر" Das Marmorbild (١٨٣٧).

(١٧٧) تيوصوفي" Theosophie: مصطلح مكون من جزئين يونانيين Theos بمعنى الله و Sophia بمعنى الحكمة أو العلم أو المعرفة، وهو اتجاه يهدف إلى محاولة معرفة الله عن طريق الحكمة والكشف الصوفي.

(١٧٨) منطقة جبلية في شمال شرق أفغانستان.

(١٧٩) هكذا في الأصل! وترجمتها: "لقد كانت هذه قطعة حلوى سمينة جدًا جدًا حقيقة، قطعة حلوى سمينة جدًا، سمينة جدًا بالنسبة لكم أيها المغفلين! وسأترجم هذا الآن لكم بإنجليزية بسيطة، بسيطة جدًا".

(١٨٠) البرنهارديني نسبة إلى Bernhardiner: وهو اسم لفصيلة كلاب تستخدم في عمليات الإنقاذ.

هوامش الجزء السابع:

عودة إلى أوروبا

(١٨١) تشير هنا إلى قصيدة للشاعر الألماني هولدرلين Hölderlin (١٧٧٠-١٨٤٣).

(١٨٢) شتيفان فيلد Wild: أحد أبرز المستشرقين الألمان في العصر الحاضر، وهو من مواليد عام ١٩٣٧، ومن أهم أعماله دراساته عن الأسماء العربية وعن الأدب الفلسطيني. وقد بدأ التركيز في الفترة الأخيرة على الدراسات القرآنية.

(١٨٣) هنا تلعب المؤلفة على التشابه النطقي بين كلمتي Index بمعنى الفهرست وكلمة Eidex (وتكتب أيضًا Eidechse) بمعنى السحلية!

(١٨٤) يوهان دينجلينجيرس Dinglinger (١٦٦٤-١٧٣١): صانع حلي ألماني، دخل في خدمة أغوست القوي عام ١٦٩٢ حتى وفاته، وقد أبدع هذه المجموعة المغولية المقصودة هنا في الفترة ما بين ١٧٠١-١٧٠٨.

(١٨٥) أغوست القوي August der Starken (١٦٧٠-١٧٣٣): هو أغوستِ الثاني أمير منطقة الساكس الألمانية وملك بولندا.

(١٨٦) إدوارد موريكه Mörike (١٨٠٤-١٨٧٥): أديب ألماني معروف. أما قصته المعنية هنا فهي Die Historie von der schönen Lau، ويتحدث فيها عن "البلوتويف" أو القدر الزرقاء وهي عين ماء ضخمة ملغزة تصب ماءها الأزرق - الذي يدعى لدى العامة "لاو" - في نهر الدانوب.

(١٨٧) المقصود هنا أنها كانت عضوًا في رابطة أو نقابة تجار العصور الوسطى الأوروبيين، والتي استمرت من القرن الثاني عشر حتى القرن الخامس عشر، والتي كانت مدن بحر الشمال وبحر البلطيق أعضاء فيها، وهكذا نظمت التجارة الأوروبية مع روسيا والشرق.

(١٨٨) تعني هنا آية: "وأوحى ربك إلى النحل" (النحل/ ٦٨-٦٩).

(١٨٩) يوهانس رويشلين Reuchlin (١٤٥٥-١٥٢٢): عالم إنسوي ألماني، من أوائل المهتمين بالعبرية واليونانية، وقد حاز مكانة عالية كمترجم عن اليونانية واللاتينية.

(١٩٠) المقصود بالإنسوي أنه أحد رواد حركة أو مذهب الأنسنة أو الهومانستية Humanismus التي اهتمت بإحياء الآداب القديمة وبالروح النقدية وبالتأكيد على الهموم الدنيوية كما تجلى ذلك في عصر النهضة الأوروبية.

(١٩١) راجع ترجمة فاندايك الإصحاح ٨، آية ٢٨. وفي الترجمة اليسوعية: "وإننا نعلم أن جميع الأشياء تعمل لخير الذين يحبون الله". (٨/٢٨).

المؤلفة فى سطور:

أنًّا مارى شيمل

تعد أنًّا مارى شيمل (١٩٢٢-٢٠٠٣) أشهر المستشرقات الألمان على المستوى الدولى، حصلت على الدكتوراه من جامعة برلين فى عـام ١٩٤١، وعلى الأستاذية من جامعة ماربورج فى عام ١٩٤٦، ثم على دكتوراه ثانية فى اللاهوت من جامعة ماربورج فى عام ١٩٥١، وقد عملت أسـتاذة فـى جامعات ماربورج وأنقرة وبون وهارفارد، وحصلت على العديد من الجوائز الدولية، والتى كان أبرزها جائزة السلام الألمانية عام ١٩٩٥.

وقد جذبت كتبها - التى تعدت المئة - الكثيرين من عـشاق الـشرق ودارسى الإسلام من قراء الألمانية والإنجليزية، ومن أشهر هذه الكتب:

- فن الخط الإسلامى (١٩٧٠)
- الآداب الإسلامية الهندية (١٩٧٣)
- الأبعاد الصوفية للإسلام (١٩٧٥)
- الإسلام فى شبه القارة الهندية (١٩٨٠)
- القطة الشرقية (١٩٨٣)
- فن الخط فى الثقافة الإسلامية (١٩٨٤)
- الإسلام: مقدمة (١٩٩٠)
- آيات الله (١٩٩٥)

هذا بالإضافة إلى ترجماتها عن الرومى والحلاج والعطار وابن إياس وابن عطاء الله وابن خلدون وإقبال.

المترجم فى سطور:

عبد السلام حيدر

حاصل على "دكتوراه الفلسفة" (Dr. Phil) من جامعة بامبيرج الألمانية عام ٢٠٠٢. ويعمل حاليًا فى الجامعة الألمانية بالقاهرة.

لــــه:

- "الأصولى فى الرواية" (المشروع القــومى للترجمــة - رقــم ٥٦٨) القاهرة ٢٠٠٣
- وتحت الطبع بالمجلس الأعلى للثقافة تحقيقه لــ:

"الأعمال الكاملة لإبراهيم عبد القادر المازنى: الأعمال غير المنشورة" (ثلاثة مجلدات).

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للترجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التـوازن بين المعـارف الإنسـانيـة فى المجـالات العلمـيـة والفنيـة والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	أحمد الحضرى
٥	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠	خطاب الحكاية	چيرار چينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١	مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	أحمد محمود
١٣	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥	الحركات الفنية	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عثمان
١٧	مختارات	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩	الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١	خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥	مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧	التنوع البشرى الخلاق	مقالات	نخبة
٢٨	رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢	الانقراض	ديفيد روس	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤	الرواية العربية	روجر ألن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥	الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد
٣٧	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
٣٨	نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٣٩	الإغريق والحسد	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠	قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣	اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	المهدى أخريف
٤٤	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥	التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	أحمد محمود
٤٦	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى .
٦٣	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض .
٦٥	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض .
٦٦	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧	مختارات	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣	نقد استجابة القارئ	چين . ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	حسن بيومى
٧٥	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش

٧٦	جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣	مختارات	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤	موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	عبد الحميد شيحة
٨٥	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦	طول الليل	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧	نون والقلم	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠	وسم السيف	ميجل دى ثربانتس	محمد إبراهيم مبروك
٩١	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤	الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥	مختارات من المسرح الإسبانى	انطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦	ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	إدوار الخراط
٩٧	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نخبة	أشرف الصباغ
٩٩	تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١	النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢	السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣	قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤	أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥	مدخل إلى النص الجامع	جيرارجينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعدور
١٠٧	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	محمود على مكى
١٠٩	حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١	المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف
١١٣	راية التمرد	سادى بلانت	أحمد حسان

١١٤	مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥	غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	سمية رمضان
١١٦	امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧	المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨	النهضة النسائية في مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩	النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: رءوف عباس
١٢٠	الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	نخبة من المترجمين
١٢١	الدليل الصغير عن الكاتبات العربيات	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢	نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيثل ألكسندر وفنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤	الفجر الكاذب	چون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥	التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديفى	سمحة الخولى
١٢٦	فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧	إرهاب	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١	مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢	ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣	الخوف من المرايا	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤	تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦	فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧	مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩	پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠	حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣	قضايا التنظير في البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	عدلى السمرى
١٤٤	صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥	موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦	الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	على عبدالرءوف البمبى
١٤٧	خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨	القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩	النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان
١٥١	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٢	عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	محمد محمد الخطابى

١٥٣	غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥	الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦	المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	مى التلمسانى
١٥٧	خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٩	الإيديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠	آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١	من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢	تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣	موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤	شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥	حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	سهير المصادفة
١٦٦	العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبو غدير
١٦٧	فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨	دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩	إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	شكرى محمد عياد
١٧٠	الطريق	ميغيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١	وضع حد	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢	حجر الشمس	مختارات	محمد محمد الخطابى
١٧٣	معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤	صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥	التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧	أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨	مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩	حكايات أيسوب	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠	قصة جاويد	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١	النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢	العنف والنبوءة	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣	جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحى العشرى
١٨٤	القاهرة... حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥	أسفار العهد القديم	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦	معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧	الأرضة	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨	موت الأدب	ألفين كرنان	بدر الديب
١٨٩	العمى والبصيرة	بول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١	الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	مصطفى حجازى السيد

١٩٢	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغي	محمود سلامة علاوى
١٩٣	عامل المنجم	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥	شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦	المهلة الأخيرة	فالتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧	الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨	الاتصال الجماهيرى	ادوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩	تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠	ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١	الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد محمود هويدى
٢٠٥	الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦	الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧	ليل أفريقى	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨	شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠	مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١	فردينان دوسوسير	جوناثان كللر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢	قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محمود محى الدين
٢١٥	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغي	محمود سلامة علاوى
٢١٦	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧	مسرحيتان طليعيتان	ص. بيكيت	نادية البنهاوى
٢١٨	لعبة الحجلة (رايولا)	خوليو كورتازان	على إبراهيم منوفى
٢١٩	بقايا اليوم	كازو ايشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠	الهيولية فى الكون	بارى باركر	على يوسف على
٢٢١	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢	فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣	العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	السيد محمد نفادى
٢٢٤	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥	حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	طاهر محمد على البربرى
٢٢٧	المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماريا ديف بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى

٢٣١	الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢	ما بعد المعلومات	توم ستينر	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣	فكرة الاضمحلال	أرثر هومان	طلعت الشايب
٢٣٤	الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥	ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦	الولاية	ميشيل تود	أحمد الطيب
٢٣٧	مصر أرض الوادى	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨	العولمة والتحرير	الانكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩	العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر – رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	صلاح عبدالعزيز محجوب
٢٤١	فى انتظار البرابرة	ج . م كويتز	ابتسام عبدالله سعيد
٢٤٢	سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن عبدالنبى
٢٤٣	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	على عبدالروف البمبى
٢٤٤	الغليان	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥	نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	توفيق على منصور
٢٤٦	مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧	الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر إرمبريست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨	حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩	لغة التمزق	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠	علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١	موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردن مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	حسن بيومى
٢٥٤	الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥	أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦	ديكارت	ديف روبنسون وكريس جرات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨	الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩	مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	اقلام مختلفة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠	موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردن مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١	رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢	مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣	الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	على يوسف على
٢٦٤	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض
٢٦٥	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦	مدير المدرسة	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم سويلم
٢٦٧	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عروبكى
٢٦٨	ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم جيفور بالجريف	صبرى محمد حسن

٢٧٠	وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم جيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١	الحضارة الغربية	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
٢٧٢	الأديرة الأثرية فى مصر	س. س والترز	إبراهيم سلامة
٢٧٣	الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان أر. لوك	عنان الشهاوى
٢٧٤	السيدة باربارا	رومولو جلاجوس	محمود على مكى
٢٧٥	ت. س إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ماهر شفيق فريد
٢٧٦	فنون السينما	فرانك جوتيران	عبد القادر التلمسانى
٢٧٧	الجينات: الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	أحمد فوزى
٢٧٨	البدايات	إسحق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠	من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد
٢٨١	الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	جلال الحفناوى
٢٨٢	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وابيرت	سمير حنا صادق
٢٨٣	السهل يحترق	خوان رولفو	على البمبى
٢٨٤	هرقل مجنوناً	يوريبيدس	أحمد عتمان
٢٨٥	رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	سمير عبد الحميد
٢٨٦	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	محمود سلامة علاوى
٢٨٧	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	انتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨	الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩	ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠	علم اللغة والترجمة	جورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١	المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢	المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣	مقدمة للأدب العربى	روجر آلن	نخبة من المترجمين
٢٩٤	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت صالح
٢٩٥	سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦	مكبث	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوانى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨	مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مجـ١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء جاهين وإيزابيل كمال
٣٠١	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مجـ٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢	فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣	بوذا	جين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤	ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥	الجلد	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦	الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	جان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧	الشعور	ديفيد بابينو	محمود محمد أحمد
٣٠٨	علم الوراثة	ستيف جونز	ممدوح عبد المنعم أحمد

٣٠٩ الذهن والمخ	أنجوس چيلاتى	جمال الجزيرى
٣١٠ يونج	ناجى هيد	محيى الدين محمد حسن
٣١١ مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢ روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	أسعد حليم
٣١٣ أمثال فلسطينية	خايير بيان	عبدالله الجعيدى
٣١٤ الفن كعدم	جينس مينيك	هويدا السباعى
٣١٥ جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	كاميليا صبحى
٣١٦ محاكمة سقراط	أ.ف. ستون	نسيم مجلى
٣١٧ بلا غد	شير لايموفا- زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨ الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	أشرف الصباغ
٣١٩ صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠ لمعة السراج فى حضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١ تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفى برو فنسال	نخبة من المترجمين
٣٢٢ وجهات غربية حديثة فى تاريخ الفن	دبليو يوجين كليناور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣ فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم سليمان
٣٢٤ اللعب بالنار	أشرف أسدى	محمود سلامة علاوى
٣٢٥ عالم الآثار	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦ المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧ مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق على منصور
٣٢٨ يوسف وزليخا	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	عبد العزيز بقوش
٣٢٩ رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠ كل شىء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامى صلاح
٣٣١ عندما جاء السردين	ستيفن جراى	سامية دياب
٣٣٢ القصة القصيرة فى إسبانيا	نخبة	على إبراهيم منوفى
٣٣٣ الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤ لقطات من المستقبل	آرثر.س كلارك	مصطفى فهمى
٣٣٥ عصر الشك	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٣٣٦ متون الأهرام	نصوص قديمة	حسن صابر
٣٣٧ فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٣٣٨ نظرات حائرة (وقصص أخرى من الهند)	نخبة	جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩ تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	على أصغر حكمت	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠ اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	فخرى لبيب
٣٤١ قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	حسن حلمى
٣٤٢ سلامان وأبسال	نور الدين عبدالرحمن بن أحمد	عبد العزيز بقوش
٣٤٣ العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٣٤٤ الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	سمير عبد ربه
٣٤٥ الركض خلف الزمن	بونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦ سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٣٤٧ الصبية الطائشون	جان كوكتو	بكر الحلو

٣٤٨ المتصوفة الأولون في الأدب التركي (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩ دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدرون وآخرون	أحمد عمر شاهين
٣٥٠ بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	عطية شحاتة
٣٥١ مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصارى
٣٥٢ قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٣٥٣ الفن الإسلامي في الأندلس (الزخرفة الهندسية)	باسيليو بابون مالدوناند	على إبراهيم منوفى
٣٥٤ الفن الإسلامي في الأندلس (الزخرفة النباتية)	باسيليو بابون مالدوناند	على إبراهيم منوفى
٣٥٥ التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	محمود سلامة علاوى
٣٥٦ الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٣٥٧ متون هيرميس	نصوص قديمة	عمر الفاروق عمر
٣٥٨ أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٣٥٩ محاورات بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٣٦٠ أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٣٦١ التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢ تلميذ بابنيبرج	هاينرش شبورال	سيد أحمد فتح الله
٣٦٣ حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبرى محمد حسن
٣٦٤ حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٣٦٥ سأم باريس	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٣٦٦ نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٣٦٧ القلم الجرىء	نخبة	البرّاق عبدالهادى رضا
٣٦٨ المصطلح السردى	جيرالد برنس	عابد خزندار
٣٦٩ المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٣٧٠ الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٣٧١ المتصوفة الأولون في الأدب التركي (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢ عاش الشباب	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣ كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٣٧٤ اليوم السادس	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٣٧٥ الخلود	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٣٧٦ الغضب وأحلام السنين	نخبة	إدوار الخراط
٣٧٧ تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	على أصغر حكمت	محمد علاء الدين منصور
٣٧٨ المسافر	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٧٩ ملك فى الحديقة	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٣٨٠ حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٣٨١ أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢ تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	أحمد محمد نادى
٣٨٣ هدية الحجاز	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤ القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٣٨٥ مشترى العشق	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦ دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم

٣٨٧	أغنيات وسوناتات	چون دن	بهاء چاهين
٣٨٨	مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٣٨٩	من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠	الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	عثمان مصطفى عثمان
٣٩١	الحافلة الليلكية	مايف بينشى	منى الدروبى
٣٩٢	مقامات ورسائل أندلسية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣	فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٣٩٤	القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	هاشم أحمد محمد
٣٩٥	آلام سياوش	إسماعيل فصيح	سليم حمدان
٣٩٦	السافاك	تقى نجارى راد	محمود سلامة علاوى
٣٩٧	نيتشه	لورانس جين	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨	سارتر	فيليب تودى	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩	كامى	ديفيد ميروفتس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠	مومو	مشيائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١	الرياضيات	زيادون ساردر	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢	هوكنج	ج. ب. ماك ايفوى	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣	ربة المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	عماد حسن بكر
٤٠٤	تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥	إيزابيل	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦	المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧	الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	طلعت شاهين
٤٠٨	معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩	انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠	خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوى بغورة
٤١١	همس من الماضى	جينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفى بروفنسال	نخبة
٤١٣	أغنيات المنفى	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤	الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	أمل الصبان
٤١٥	صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦	مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	مصطفى بدوى
٤١٧	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨	سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩	العصر الذهبى للإسكندرية	جون ماير	نسيم مجلى
٤٢٠	مكرو ميجاس	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١	الولاء والقيادة	رؤى متحدة	أشرف محمد كيلانى
٤٢٢	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	نخبة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣	إسرامات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤	لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	محمودد سلامة علاوى

٤٢٦	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧	باندبراس الطاغية	باى إنكلان	ثريا شلبى
٤٢٨	الخزانة الخفية	محمد هوتك	محمد أمان صافى
٤٢٩	هيجل	ليود سبنسر وأندرزجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠	كانط	كرستوفر ولنت وأندزجى كليموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١	فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢	ماكياڤللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣	جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدى الجابرى
٤٣٤	الرومانسية	دونكان هيث وجودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧	رحالة هندى فى بلاد الشرق	شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩	موت المرابى	صدر الدين عينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠	قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١	رب الأشياء الصغيرة	أروندانى روى	فخرى لبيب
٤٤٢	حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣	اللغة العربية	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧	نظرية الكم	ج. پ. ماك إيڤوى	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨	علم نفس التطور	ديلان إيڤانز وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩	الحركة النسائية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠	ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا وربيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١	الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢	لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجناترى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤	خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل
٤٥٥	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦	لا تنسنى	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان مولر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨	الموريسكيون الأندلسيون	خوليو كارو باروخا	جمال عبد الرحمن
٤٥٩	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠	الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١	لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤	ديمقراطية القلة	ميكائيل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥	قصص اليهود	لويس جنزبرج	جمال الرفاعى
٤٦٦	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة محمود

٤٦٧	التفكير السياسى	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨	روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠	الأراضى والجودة البيئية	نخبة	محمد السيد النة
٤٧١	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	نخبة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥	صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧	تاريخ الصين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩	المقهـــى (مسرحية صينية)	لاوشه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠	تساى ون جى (مسرحية صينية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١	عباءة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة محمود
٤٨٣	النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	أحمد الشامى
٤٨٤	جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩	هُسِرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	هُسِرل	محمود رجب
٤٩٠	أسمار الببغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	محمد رفعت عواد
٤٩٣	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤	كتاب الموتى (الخروج فى النهار)	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥	اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولى	نخبة
٤٩٧	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلىّ	مصطفى رياض
٤٩٨	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
٤٩٩	تقاطعات: الأمة والمجتمع والجنس	نخبة	فيصل بن خضراء
٥٠٠	فى طفولتى (دراسة فى السيرة الذاتية العربية)	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١	تاريخ النساء فى الغرب	أرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢	أصوات بديلة	هدى الصدّة	هالة كمال
٥٠٣	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤	كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥	كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق

٥٠٦	ربما كان قديساً	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧	سيدة الماضى الجميل	بيتر شيفر	شوقى فهيم
٥٠٨	المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩	الفقر والإحسان فى عهد سلاطين المماليك	أدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠	الأرملة الماكرة	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
٥١١	كوكب مرقَّع	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢	كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤	مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦	إرادة الإنسان فى شفاء الإدمان	أرنولد واشنطون ودونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩	محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠	الولع بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١	قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢	إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣	الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤	الملك لير	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥	موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون رزيفز	نادية رفعت
٥٢٦	علم السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧	كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨	تروتسكى والماركسية	طارق على وفلْ إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩	بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى
٥٣٠	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر
٥٣١	ما الذى حَدَثَ فى «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	صفاء فتحى
٥٣٢	المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعى
٥٣٣	تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد الشرقاوى
٥٣٤	الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥	مخزن الأسرار	نظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦	الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون	شوقى جلال
٥٣٧	للحب والحرية	نخبة	عبدالغفار مكاوى
٥٣٨	النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	محمد الحديدى
٥٣٩	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحى
٥٤٠	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رءوف عباس
٥٤١	هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢	قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣	السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤	ميلانى كلاين	نخبة	حمدى الجابرى

٥٤٥	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧	بارت	فيليب ثودى وآن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨	علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩	علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	جمال الجزيرى
٥٥٠	شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدى الجابرى
٥٥١	الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢	قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	على عبد الروف اليمبى
٥٥٣	مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤	مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥	الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦	چان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدى الجابرى
٥٥٧	الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨	الدراسات الثقافية	زيودين ساردارويورين ڤان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩	الماس الزائف	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠	صلصلة الجرس	نخبة	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١	جناح جبريل	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢	بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣	ورود الخريف	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤	عُش الغريب	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا . ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦	تاريخ أوربا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧	الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨	الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر
٥٦٩	موقع الثقافة	هومى. ك. بابا	ثائر ديب
٥٧٠	دول الخليج الفارسى	سير روبرت هاى	يوسف الشارونى
٥٧١	تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢	الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣	فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	جمال الجزيرى
٥٧٤	مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين عبد العزيز السباعى
٥٧٥	الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦	فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشرى محمد
٥٧٧	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	محمد قدرى عمارة
٥٧٨	الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	محمد إبراهيم وعصام عبد الروف
٥٧٩	تشومسكى	چون ماهر وچودى جرونز	محى الدين مزيد
٥٨٠	دائرة المعارف الدولية	چون فيزر وبول سيترجز	محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١	الحمقى يموتون	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢	مرايا الذات	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣	الجيران	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان

٥٨٤	سفر	محمود دولت آبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥	الأمير احتجاب	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦	السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى أرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧	تاريخ تطور الفكر الصينى	نخبة	عبدالعزيز حمدى
٥٨٨	أمنحوتب الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩	تمبكت العجيبة	فيلكس ديبواه	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠	أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١	الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢	الثورة المصرية	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣	قصائد ساحرة	بول فاليرى	بكر الحلو
٥٩٤	القلب السمين	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكوادو بانولى	نخبة
٥٩٦	الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧	مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨	مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومى على قنديل
٥٩٩	فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود سلامة علاوى
٦٠٠	الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١	النسوية والمواطنة	ريان فوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢	ليوتار: نحو فلسفة ما بعد حداثية	چيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣	النقد الثقافى	آرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤	الكوارث الطبيعية (جـ١)	باتريك ل. آبوت	توفيق على منصور
٦٠٥	مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى الصغير	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦	قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى
٦٠٧	قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨	قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هاردى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩	الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠	العمارة المدجنة	رفائيل لوبث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١	النقد والأيديولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣	السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤	بيت الأقصر الكبير	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥	عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦	أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧	الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيليس	جلال البنا
٦١٩	مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠	السلام الصليبى	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١	النوبة المعبر الحضارى	وليم. ى. آدمز	فؤاد عكود
٦٢٢	أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى

٦٢٣	نوادر جحا الإيرانى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤	أزمة العالم الحديث	رينيه جينو	عمر الفاروق
٦٢٥	الجرح السرى	جان جينيه	محمد برادة
٦٢٦	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧	حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨	أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسى
٦٣٠	سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١	مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢	المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	بولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣	الحب وفنونه	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤	مكتبة الإسكندرية	روى ماكلويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥	التثبيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦	حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧	مصر الخديوية	ف. روبرت هنتر	بدر الرفاعى
٦٣٨	الديمقراطية والشعر	روبرت بن ورين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩	فندق الأرق	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠	الكسياد	الأميرة أنّاكومنينا	حسن حبشى
٦٤١	برتراندرسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عماره
٦٤٢	داروين والتطور	جوناثان ميلر وبورين فان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣	سفرنامه حجاز	عبد الماجد الدريابادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤	العلوم عند المسلمين	هوارد د تيرنر	فتح الله الشيخ
٦٤٥	السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلى ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦	قصة الثورة الإيرانية	سپهر ذبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧	رسائل من مصر	جون نينيه	فتحى العشرى
٦٤٨	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩	الخوف وقصص خرافية أخرى	نخبة	سلوى لطفى
٦٥٠	الدولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط	روجر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١	ديليسبس الذى لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣	مدرسة الطغاة	إيريش كستنر	سمير جريس
٦٥٤	أساطير شعبية من أوزبكستان	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسى
٦٥٥	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦	خبز الشعب والأرض الحمراء	ألفونسو ساستري	ممدوح البستاوى
٦٥٧	محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا- أرينال	خالد عباس
٦٥٨	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامى
٦٥٩	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٦٦٠	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامى

٦٦٢	رحلة إلى الجذور	داسو سالديبار	صبرى التهامى
٦٦٣	امرأة عادية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعى
٦٦٤	الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان - إنا راى هارك	عصام زكريا
٦٦٥	عوالم أخرى	بول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	وولفجانج اتش كليمن	مدحت الجيار
٦٦٧	الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى	ألفن جولدنر	على ليلة
٦٦٨	ثقافات العولمة	فريدريك چيمسون - ماساو ميوشى	ليلى الجبالى
٦٦٩	ثلاث مسرحيات	وول شوينكا	نسيم مجلى
٦٧٠	أشعار جوستاف أودلفو	جوستاف أودلفو	ماهر البطوطى
٦٧١	قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	جيمس بولدوين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢	مختارات قصائد فرنسية للأطفال	نخبة	إبتهال سالم
٦٧٣	ضرب الكليم	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٦٧٤	ديوان الإمام الخمينى	آية الله العظمى الخمينى	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥	أثينا السوداء (جـ٢، مج١)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٦	أثينا السوداء (جـ٢، مج٢)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٧	تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج١)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢ ، مج٢)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩	مختارات شعرية مترجمة (جـ٣)	ويليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠	سنوات الطفولة	وول سوينكا	سمير عبد ربه
٦٨١	هل يوجد نص فى هذا الفصل؟	ستانلى فش	أحمد الشيمى
٦٨٢	نجوم حظر التجول الجديد	بن أوكرى	صبرى محمد حسن
٦٨٣	سكين واحد لكل رجل	تى. م. ألوكو	صبرى محمد حسن
٦٨٤	الأعمال القصصية (جـ١)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٥	الأعمال القصصية (جـ٢)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٦	امرأة محاربة	ماكسين هونج كنجستون	سحر توفيق
٦٨٧	محبوبة	فتانة حاج سيد جوادى	ماجدة العنانى
٦٨٨	الانفجارات الثلاثة العظمى	فيليب م. دوبر وريتشارد أ. موار	فتح الله الشيخ وأحمد السماحى
٦٨٩	الملف	تادروش روجيفيتش	هناء عبد الفتاح
٦٩٠	محاكم التفتيش فى فرنسا	چوزيف ر. ستراير	رمسيس عوض
٦٩١	ألبرت أينشتين: حياته وغرامياته	دنيس براين	رمسيس عوض
٦٩٢	الوجودية	ريتشارد أبيجانسى وأوسكار زاريت	حمدى الجابرى
٦٩٣	القتل الجماعى: المحرقة	حاثيم برشيت وآخران	جمال الجزيرى
٦٩٤	دريدا	جيف كولينز وبيل مايبلين	حمدى الجابرى
٦٩٥	رسل	ديف روبنسون وجودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٦	روسو	ديف روبنسون وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٧	أرسطو	روبرت ودفين وجودى جروفس	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٨	عصر التنوير	ليود سبنسر وأندرزيجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٩	التحليل النفسى	إيفان وارد وأوسكار زاراتى	جمال الجزيرى
٧٠٠	حقيقة كاتب	ماريو فرجاش	بسمة عبدالرحمن

٧٠١	الذاكرة والحداثة	وليم رود فيفيان	منى البرنس
٧٠٢	الأمثال الفارسية	أحمد وكيليان	محمود علاوى
٧٠٣	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢)	إدوارد جرانفيل براون	أمين الشواربى
٧٠٤	فيه ما فيه	مولانا جلال الدين الرومى	محمد علاء الدين منصور وآخران
٧٠٥	فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالى	عبدالحميد مدكور
٧٠٦	الشفرة الوراثية وكتاب التحويلات	جونسون ف. يان	عزت عامر
٧٠٧	ڤالتر بنيامين	نخبة	وفاء عبدالقادر
٧٠٨	فراعنة من؟	دونالد مالكولم ريد	رءوف عباس
٧٠٩	معنى الحياة	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٧١٠	الأطفال، التكنولوجيا والثقافة	يان هاتشباى وجوموران - إليس	دعاء محمد الخطيب
٧١١	درة التاج	ميرزا محمد هادى رسوا	هناء عبد الفتاح
٧١٢	الإلياذة (جـ١)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٣	الإلياذة (جـ٢)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٤	حديث القلوب	لامنيه	حنا صاوه
٧١٥	جامعة كل المعارف (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٦	جامعة كل المعارف (جـ٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٧	جامعة كل المعارف (جـ٣)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٨	جامعة كل المعارف (جـ٤)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٩	جامعة كل المعارف (جـ٥)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧٢٠	جامعة كل المعارف (جـ٦)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧٢١	فلسفة المتكلمين فى الإسلام	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبد الغنى
٧٢٢	الصفيحة وقصص أخرى	يشار كمال	الصفصافى أحمد القطورى
٧٢٣	تحديات ما بعد الصهيونية	إفرايم نيمنى	أحمد ثابت
٧٢٤	اليسار الفرويدى	بول روبنسون	عبده الريس
٧٢٥	الاضطراب النفسى	جون فيتكس	مى مقلد
٧٢٦	الموريسكيون فى الغرب	غييرمو غوثالبيس بوستو	مروة محمد إبراهيم
٧٢٧	حلم البحر	باچين	وحيد السعيد
٧٢٨	العولمة: تدمير العمالة والنمو	موريس أليه	أميرة جمعة
٧٢٩	الثورة الإسلامية فى إيران	صادق زيباكلام	هويدا عزت
٧٣٠	حكايات من السهول الأفريقية	أن جات	عزت عامر
٧٣١	النوع: الذكر والأنثى بين التمييز والاختلاف	نخبة	محمد قدرى عمارة
٧٣٢	قصص بسيطة	إنجو شولتسه	سمير جريس
٧٣٣	مأساة عطيل	وليم شيكسبير	محمد مصطفى بدوى
٧٣٤	بونابرت فى الشرق الإسلامى	أحمد يوسف	أمل الصبان
٧٣٥	فن السيرة فى العربية	مايكل كوبرسون	محمود على مكى
٧٣٦	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة	هاورد زن	شعبان مكاوى
٧٣٧	الكوارث الطبيعية (جـ٢)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٧٣٨	دمشق من عصر ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية (جـ١)	جيرار دى جورج	محمد عواد
٧٣٩	دمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر (جـ٢)	جيرار دى جورج	محمد عواد

٧٤٠	خطابات القوة	بارى هندس	مرفت ياقوت
٧٤١	الإسلام وأزمة العصر	برنارد لويس	أحمد هيكل
٧٤٢	أرض حارة	خوسيه لاكوادرا	رزق بهنسى
٧٤٣	الثقافة منظور داروينى	روبرت أونجر	شوقى جلال
٧٤٤	ديوان الأسرار والرموز	محمد إقبال	سمير عبد الحميد
٧٤٥	المآثر السلطانية	بيك الدنبلى	محمد أبو زيد
٧٤٦	تاريخ التحليل الاقتصادى	جوزيف . أ. شومبيتر	حسن النعيمى
٧٤٧	المجاز فى لغة السينما	تريفور وايتوك	إيمان عبد العزيز
٧٤٨	تدمير النظام العالمى	فرانسيس بويل	سمير كريم
٧٤٩	أيكولوجيا لغات العالم	ل.ج. كالفيه	باتسى جمال الدين
٧٥٠	الإلياذة	هوميروس	أحمد عتمان
٧٥١	الإسراء والمعراج فى تراث الشعر الفارسى	نخبة	علاء الدين السباعى
٧٥٢	ألمانيا بين عقدة الذنب والخوف	جمال قارصلى	نمر عاروري
٧٥٣	التنمية والقيم	إسماعيل سراج الدين وآخرون	محسن يوسف
٧٥٤	الشرق والغرب	أنّا مارى شيمل	عبد السلام حيدر

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢١٨٦٠/ ٢٠٠٤